كتاب قضايا عربية

في الوحدة العربية وقضايا المجتمع العربي

فلسطين

العرب



فلسطين

العرب

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE / DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٣

كتاب قضايا عربية
في الوحدة العربية وقضايا المجتمع العربي

فلسطين

العرب





المحتويات

■ نقد الكتب :

■ الملف الاحصائي :

من ١٩١٧/١١/٢ الى ١٩٤٧/١١/٢٩ الى ١٩٧٧/١١/١٩ :

تحرير فلسطين أكثر واقعية من الاعتراف باسرائيل

الياس سحاب

كاتب ومفكر وحدوي
اشرف على تحرير عدد
من المجلات الثقافية والسياسية في لبنان

لو كانت بريطانيا تحتفظ باحتلالها لفلسطين حتى يومنا هذا ، وقررت الانسحاب الآن ، هل كان المجتمع الدولي ، بتركيبته الحالية ، وتجاربه الحالية ، ومصالحه الحالية يتحمل تبعة انشاء دولة اسرائيل على أرض فلسطين ؟

لقد وقف المجتمع الدولي بأطرافه المتعددة في مثل هذه الأيام منذ اثنين وثلاثين عاما (وكان يمارس ترتيب أوضاعه بعد الحرب العالمية الثانية) ليحسم في أحد هذه الأوضاع المحتاجة الى ترتيب، فقرر السماح لليهود بانشاء دولة لهم على قسم كبير من أرض فلسطين . وكان العرب ــ أصحاب الأرض المعنية بالقرار ــ أحد أضعف أطراف المجتمع الدولي في تلك الايام ، بحيث لم يكن لهم اي وزن فعلي في تحديد معالم القرار الدولي الذي اتخذ في ذلك الحين .

وفي مثل هذه الأيام أيضا ، قبل اثنين وستين عاما ، كان القطاع الأوروبي من المجتمع الدولي قد حدد أسس موقفه من هذه القضية ، فصدر وعد بلفور لليهود ، بمساعدتهم على انشاء وطن لهم على أرض فلسطين . ومع أن هذا الوعد قد حمل ــ رسميا ــ الجنسية البريطانية ، الا أن من الثابت من الدراسات التاريخية لجذور هذا الوعد ، انه كان حصيلة مشاورات مطولة بين الأوساط الديبلوماسية الأوروبية الغربية خلال النصف الأخير من الحرب العالمية الأولى .

واليوم ، وبعد مرور اثنين وستين عاما على القرار الاول (١٩١٧/١١/٢) واثنين وثلاثين عاما على القرار الثاني (١٩٤٧/١١/٢٩) ، وبعد مرور سنتين على زيارة رئيس أكبر دولة عربية لاسرائيل (١٩٧٧/١١/١٩) ، فان المجتمع الدولي بأسره ، بما فيه الأقطار العربية ، يعود مرة أخرى للقضية ، بعدما تراكمت مضاعفاتها فأصبحت اسرائيل ، بعد خمس حروب ، تحتل فلسطين بأسرها ، مع أجزاء من مصر وسورية .

ولو قمنا اليوم بوضع كل ما يدور في اطار التسوية المطروحة من اقتراحات واقتراحات مضادة (بما في ذلك القوى التي تسيطر على المرحلة الحالية من التسوية ، أو القوى التي تحاول وضع بصماتها على المراحل التالية منها) ، لو قمنا بوضع كل هذا على المشرحة التاريخية للصراع العربي ــ الاسرائيلي ، فسنرى أن جميع القوى الفاعلة حاليا ، بما في ذلك القوى العربية الرسمية ، نرى أن

مسؤولية مضاعفات ما اتخذ من قرارات في ١٩١٧ و ١٩٤٧ اثقل من أن تحمل ، وافدح من ان تترك لمضاعفاتها الطبيعية ، وانه آن الاوان لمحاولة طمس نهائي لآثار ما ارتكب في ١٩١٧ و ١٩٤٧ .

اما ما يبدو من خلافات داخل هذا الاطار العام للتسوية ، فهو ــ على المشرحة التاريخية للقضية ــ ليس اكثر من اعتراف ضمني من قبل جميع الأطراف بأن الحل النهائي لهذه القضية لا بد من أن يتأسس على الاعتراف النهائي بوجود اسرائيل ، وبعد هذا الاعتراف ، كحجر زاوية اساسي للتسوية ، يحاول كل طرف الحصول على ما يستطيع .

قد يبدو هذا الكلام لأول وهلة انه تفسير خلقي مثالي لأحداث تندفع بقوة « الواقعية » السياسية . ولكنه على العكس من ذلك تماما ، محاولة لتفنيد واقعية القرارات القديمة (حول الصراع العربي ــ الاسرائيلي) من أجل التأكد تماما من مدى واقعية القرارات الجديدة المزمع اتخاذها ضمن اطار التسوية في مراحلها الحالية واللاحقة .

لقد ادعت الأطراف التي اتخذت قرار وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، وقرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ، انها لا تملك القوة فقط ، بل تملك الحكمة . ولكن مسلسل الأحداث التي تأسست على هذين القرارين يحمل في سجله خمس حروب كبيرة ، وسنوات لا تنقطع من الأحداث الدامية وشعبا نازحا عن وطنه منذ واحد وثلاثين عاما ، وشعوبا عربية محرومة من التنمية بحكم ظروف الصراع ، وبؤرة من التوتر وضعت العالم اكثر من مرة على شفير حرب عالمية (خاصة خلال احداث السويس سنة ١٩٥٦) .

لقد ادعى أصحاب القرارات الكبرى ، انهم مقابل كل ذلك انما يسعون الى حل مشكلة اليهود في العالم من غير خلق مشكلات جانبية أخرى (بهذا الادعاء صيغت عبارات وعد بلفور) . ولكننا اذا تذكرنا بأن اساس المشكلة اليهودية هو في الموانع التي تحول دون ذوبان الاقليات اليهودية في مجتمعاتها الطبيعية (سواء في ذلك موانع التعصب اللاسامي او موانع التعصب الصهيوني) ، فاننا نرى أن دولة اسرائيل (بعد ثلاثة عقود من تأسيسها) لم تحل المشكلة ، بل ضاعفتها بمشكلة اخرى هي الولاء المزدوج للتجمعات اليهودية حيثما وجدت . وبذلك أصبح وجود اسرائيل أكبر حاجز أمام امكانية ذوبان اليهود في مجتمعاتهم الطبيعية . وتتجلى هذه المشكلة بأجلى صورها في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، حيث يوجد أكبر تجمعين لليهود خارج اسرائيل . ففي الولايات المتحدة يلعب اليهود دورا بالغ الخصوصية ، والتعصب والتحجر ، بسبب الولاء لاسرائيل ، وفي الاتحاد السوفياتي ضخمت مشكلة هجرة اليهود الى اسرائيل ، حتى تحولت الى موضوع ابتزاز أميركي ــ صهيوني مستمر للاتحاد السوفياتي .

من الثابت اذن بطلان ادعاء الحكمة وراء القرارات التي اتخذها المجتمع الدولي بشأن القضية اليهودية والقضية الفلسطينية ، فقد ضاعفت هذه القرارات المشكلات الموجودة ، واضافت اليها مشكلات جديدة ، اكثر خطورة وتفجرا ، واصعب حلا .

ولو عدنا الآن الى السؤال المطروح في أول المقال ، وتخيلنا المجتمع الدولي أمام المشكلة نفسها مرة ثانية الآن ، لوجدنا أن المجتمع الدولي كان ــ في العام ١٩٧٩ ــ سيتردد ألف مرة قبل أن يتخذ قرارا بانشاء دولة اسرائيل ، هو في الوقت نفسه قرار بطرد شعب فلسطين بأسره من وطنه . اذن لماذا اتخذت القرارات السابقة بهذا الاستخفاف بالنتائج والعواقب ؟ ان في محاولة الرد على هذا السؤال ، ورصد المنطق العام الذي حكم التصرف الدولي ازاء أحلام الصهيونية بفلسطين منذ البداية ، نقطة

الانطلاق لتقييم الاتجاه الدولي العام ، الذي يحاول الآن إيجاد حل نهائي للمشكلة ومضاعفاتها ، مؤسس على تحول اسرائيل الى أمر واقع في المنطقة ، معترف به من قبل الجميع ، وخاصة العرب .

ان أشد ما يعطي هذه الوقفة أهمية سياسية خاصة ، هو انه اذا كانت أوروبا الغربية وحدها مقتنعة بحكمة وعد بلفور وواقعيته ، واذا كانت أوروبا الغربية والشرقية مقتنعة بحكمة قرار انشاء دولة اسرائيل ، فان الوضع العربي الرسمي قد انضم الآن الى العالم بالاقتناع بحكمة وواقعية التسوية المبنية على تحول اسرائيل نهائيا الى جزء من المنطقة العربية .

لن نغوص في تفاصيل المصالح التي دفعت أوروبا الى تبني المشروع الصهيوني بغزو فلسطين ، فقد أشبع هذا الموضوع بحثا ، ونكتفي فقط بالاشارة الى أن مراجعة نصوص أوروبية قديمة في مراكز البحث الفلسطينية قد اثبتت أن فكرة تجميع اليهود في فلسطين هي بالأصل فكرة أوروبية ، وان يهود أوروبا ظلوا فترة طويلة يحاربون هذه الفكرة ويعتبرونها منافية لمصالحهم حيث يستقرون .

لن ندخل اذن في تفاصيل المصالح الأوروبية ، بقدر ما سنقف عند المنطق الذي بنت عليه أوروبا اسلوبها في التعامل مع هذه القضية ، ومع أصحابها العرب .

من الواضح تماما أن القرارين الخطيرين (وعد بلفور والتقسيم) قد انبثقا — على التوالي — من أحداث وتوازنات الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية . ففي الحرب العالمية الأولى ، صفت قوى الاستعمار القديم حساباتها فيما بينها. الا أن القوى المنتصرة ، انجلترا وفرنسا (اميركا كانت لا تزال على هامش الوضع الدولي) خرجت بنصر مزدوج ، فقد صفتا منافستهما الأوروبية الاساسية (المانيا) ، كما صفتا المنافس العالمي الأخطر (الامبراطورية العثمانية) . وبانهيار الامبراطورية العثمانية أصبحت المنطقة العربية مفتوحة امام الاستعمار الاوروبي بلا اية قوة سياسية مركزية قادرة على الوقوف على قدميها (بعد فشل المد الاستقلالي القومي في افراز قيادة سياسية له قادرة على فهم طبيعة المطامع الاستعمارية الاوروبية والوقوف بوجهها) .

واذا انتقلنا من هذا الوضع العام الى ما يختص بالمشروع الصهيوني بالذات ، فسنرى انه مع انهيار الامبراطورية العثمانية انهارت عدة اشياء ، منها الحاجز الذي كان يقف في وجه مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين وقفة ثابتة حاسمة . لقد كان الوضع العام (عالميا وعربيا) الذي انبثق عن الحرب العالمية الأولى اول بوادر شعور الاستعمار الاوروبي بأن يده مطلقة في هذه المسألة ، خاصة في وجه العرب . وهذا ما يفسر الفارق بين تحفظ لهجة وعد بلفور (حول عدم مساس المشروع الصهيوني بحقوق الجماعات الأخرى في فلسطين) ، وبين سياسة اليد المطلقة التي اتبعتها بريطانيا خلال فترة احتلالها لفلسطين ، فيما يتعلق بموضوع الهجرة اليهودية وسائر المواضيع المتعلقة بالتمهيد لاقامة دولة اسرائيل .

ولو نحن توقفنا قليلا عند وعد بلفور ، فسنلاحظ ان هذا الوعد الذي صدر على شكل رسالة من اللورد بلفور (وزير الخارجية البريطانية) الى البارون الانجليزي اليهودي ليونيل روتشيلد ، لم تكن رسالة عادية تعبر عن خواطر شخصية في لحظة عابرة . فقد خصص ج . م . جفريز الانجليزي الفصل الحادي عشر من كتابه « فلسطين : الحقيقة » (١٩٣٩) ، لرواية الخلفيات الكاملة لوعد بلفور (صدر هذا الفصل في كتيب مستقل عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية) . ومن اهم ما يرويه جفريز في هذا الفصل أن الوعد ظل موضع مشاورات في جميع الأوساط الدبلوماسية الأوروبية ، وان

صيغته الأخيرة هي حصيلة ما لا يقل عن عامين من المشاورات البالغة التشعب والتنوع . ومما يلفت النظر في هذه المشاورات ، التي تمت قبل ان ينجلي غبار الحرب العالمية الأولى ، اي قبل ان يتضح ميزان القوى العالمي الجديد ، خاصة بالنسبة للامبراطورية العثمانية والمنطقة العربية بالذات ، ان لحظات كثيرة من هذه المشاورات كانت مشوبة بالحذر من العواقب التي يمكن ان تترتب على تجميع اليهود في قطعة من أرض فلسطين بل لقد اظهرت هذه المشاورات معارضة كلية للمشروع ــ احيانا ــ ولقد تجلت التحفظات والتخوفات من العواقب في اعادة صياغة البيان ــ الوعد عدة مرات ، وفي التوقف عند كلمات معينة ، واستبدال كلمات اخرى بها . فاذا قارنا هذا الحذر النسبي بسياسة اليد المطلقة التي اتبعتها بريطانيا بعد ذلك بجراءة كاملة عندما احتلت فلسطين ، فاننا سنلاحظ تماما كيف ان انهيار الامبراطورية العثمانية ، ثم الفشل الذريع للمشروع الاستقلالي القومي العربي ، ثم سقوط زعامات هذا المشروع نهائيا في الاستسلام الكامل للهيمنة الاستعمارية الأوروبية على المشرق العربي ، قد زينت للاستعمار الأوروبي عامة ، انه مالك اقدار هذه المنطقة من العالم ، وان ارادة ابناء المنطقة وتطلعاتهم وامالهم الوطنية لا يمكن ان تشكل اية عقبة جدية في وجه اي مشروع يجسد المصالح الغربية في المنطقة . ولو نحن راجعنا وثائق وزارات الخارجية الأوروبية والصحافة الأوروبية والكتب السياسية الأوروبية في تلك الحقبة للاحظنا كيف ان هذا الاستخفاف والشعور بالتملك الكامل لاقدار المنطقة لم يقتصر فقط على اتجاه المشاريع السياسية الأوروبية المتعلقة بمنطقتنا ، بل اصبح لهجة أوروبية يومية سائدة .

من هنا ، كان الاستخفاف بارادة شعوب المنطقة وبتطلعاتها الوطنية ، او على الأقل وضع هذه الارادة وهذه التطلعات في ادنى سلم الاولويات ، يبدو هو المنطق السليم ، وهو التفكير الواقعي ، فكان طبيعيا ، حتى في حال ظهور اصوات داخل النظام الاستعماري تعارض او تحذر من التمادي في الاستهتار بارادة العرب وتطلعاتهم الوطنية ، ان تتراجع هذه الأصوات تدريجيا ، حتى تختفي ، امام ما يبدو واقعيا ومنطقيا .

ولما تكونت توازنات جديدة داخل اوروبا والغرب عموما ، مع صعود النازية من جهة ، وتعاظم شأن الاتحاد السوفياتي من جهة ثانية ، وتعاظم القوة الاميركية عبر المحيط من جهة ثالثة ، ثم انفجرت هذه التوازنات في الحرب العالمية الثانية ، لم يكــن قد طرأ على وضع العلاقات الاوروبية ــ العربية ما يوحي بأن شعوب الامة العربية قادرة على طرح ارادتها وتطلعاتها كقوة اساسية في ميزان القوى لا على الصعيد الدولي ، ولا حتى على الصعيد الاقليمي ، فقد ظلت بريطانيا ، على الرغم من تورطها العلني لسنوات طويلة في التهيئة العملية لانشاء دولة اسرائيل ، قادرة على الاحتفاظ بسلطتها المطلقة داخل الانظمة العربية الموالية لها . بل ان هذه السيطرة ظلت مستمرة حتى عند ظهور قيادة عبد الناصر في مصر ، كبادرة تؤمل العرب بقدرتهم على الدفاع عن مصالحهم القومية في وجه الغطرسة الاستعمارية الأوروبية . ان مشهد نوري السعيد وهو يحرض انطوني ايدن على الاسراع في ضرب جمال عبد الناصر عند اعلان تأميم قناة السويس ، سيظل محفورا في التاريخ العربي المعاصر كحدث بالغ التعبير في هذا السياق .

وهكذا ، نرى انه عندما وقف المجتمع الدولي امام مفترق الطرق الحاسم في الجمعية العمومية في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، لم تكن لا أوروبا الغربية ولا اوروبا الشرقية ولا الولايات المتحدة الاميركية تشعر أن من الواقعية اعطاء العرب وزنا في الحسابات الدولية أكثر مما اعطوا في العشرينات والثلاثينات .

مرة أخرى ، خرجت بعض الأصوات التي تحذر من اثارة الغضب العربي الى أبعد من الحد المحتمل . وكان من بين هذه الأصوات الوزير الاميركي الشهير فورستال الذي مات منتحرا ، وبعض مدراء شركات النفط الاميركية ، إلا ان كل هذه الأصوات كانت تبدو لا واقعية في أسوأ الأحوال ، أو مغالية في التشاؤم ، في احسن الأحوال .

لقد قضى الغرب ، على هامش الصراع بين قواه الاستعمارية في حربين عالميتين ، على قوتين عالميتين من الشرق : الامبراطورية العثمانية في الحرب الاولى ، والامبراطورية اليابانية في الثانية ، الأمر الذي أفقده ، على ما يبدو ، الذاكرة التاريخية، فصار يتعامل مع كل الشعوب غير الأوروبية ، وكأن ميزان القوى الآني (عسكريا وسياسيا واقتصاديا وحضاريا) هو ميزان أزلي سرمدي .

ومع كل هذا الاختلال الفادح في ميزان القوى ، فقد بقيت اسرائيل تبدو مشروعا مستحيلا — بالمعنى التاريخي والبعد التاريخي — وقد يبدو غريبا القول أن هذه الاستحالة برزت أكثرما برزت في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، ففي الوقت الذي كان فيه « المنطق الواقعي » الذي كانت الامور تقاس به يشير إلى أن هزيمة بهذا الحجم لمصر عبد الناصر بالذات (بما تمثله من قوة مادية وقوة معنوية) لا بد لها من ان تثمر استسلاما عربيا للأمر الواقع ، اذا بالهزيمة نفسها تكون حافزا لبناء أول جيش عربي عصري بمعنى الكلمة ، لا على صعيد التسليح والتدريب فقط ، بل على صعيد التركيب البشري ، حيث تأسس على قاعدة مما لا يقل عن مائة الف من خريجي جامعات التعليم المجاني ، اي من أبناء العمال والفلاحين في معظمهم .

عند هذه النقطة بدات معالم المعادلة تتوضح امام جميع اطراف الصراع ، فاسرائيل لا تصبح مشروعا واقعيا ، اي لا يمكن تحولها من كيان مفروض على المنطقة بالقوة الى جزء طبيعي منها ، الا باستمرار العجز العربي كوضع ثابت ومتواصل ، لا تقطعه فواصل « شاذة » مثل مرحلة عبد الناصر .

لقد كان اكثر ما يخيف الغرب — والحكام العرب الموالين له — في مرحلة عبد الناصر ، أن تقتنع الجماهير العربية أن ما ينجزه عبد الناصر من نجاح في تحدي النفوذ الاستعماري ، هو أمر واقعي ، قادر على النجاح ، وقابل للاستمرار : لذلك كانت كل جهود الغرب منصبة على اسقاط عبد الناصر بالدرجة الاولى ، أو — في حال عدم سقوطه — على وصم منهجه أمام الجماهير العربية بعدم الواقعية ، وذلك عن طريق ضربات تأديبية دورية قاسية ، مثل حرب١٩٦٧ .باختصار شديد ، كان الغرب — وما زال — يهمه افهام الجماهير العربية ان تحدي النفوذ الغربي مستحيل ، حتى لو حقق نجاحا في بعض الاحيان ، وان الحاكم الذي يحاول جر الجماهير وراء مثل هذه الشعارات ، انما يورطها في السير على طريق مسدود .

كان خوف الغرب الأعظم من عبد الناصر أن ينجح في كسر خاتم الأزلية عن العجز العربي ، فيحوله من حالة دائمة ، الى حالة عابرة ، لأن في ذلك انهيارا« لواقعية » الغرب التي بنى عليها كل توجهاته في هذه المنطقة وكل مشاريعه ، وعلى رأسها المشروع الاسرائيلي .

لو اعدنا النظر الى مسيرة الصراع بنظرة طائر ، لرأينا أن الوعد الأوروبي المتحفظ في العام ١٩١٧ ، قد تحول بعد ثلاثين سنة الى قرار حاسم اجمع عليه المجتمع الدولي . ثم نال بعد ثلاثين سنة أخرى توقيع رئيس أكبر دولة عربية ، ذهب لزيارة اسرائيل ، وهي ما تزال تحتل كل أرض فلسطين ، وأجزاء شاسعة وهامة من أرض مصر وأرض سورية .

اذن ، وبرغم مرحلة عبد الناصر ، وبرغم انجازات التحدي في معركة احتكار السلاح ، وفي معركة قناة السويس أمام امبراطوريات الاستعمار القديم ، وبرغم بقاء قرار التحدي مرفوعاً على انقاض هزيمة ١٩٦٧ ، وبرغم بناء الجيش العصري القادر على التعاطي مع التحدي في حرب استنزاف حقيقية ، تم في معركة عبور مشرفة ، فان بدايات الأمور وخواتيمها ــ حتى الآن ــ توحي بأن مراهنة الغرب على ديمومة العجز العربي هي الأكثر واقعية ، ان لم تكن هي الواقعية بعينها .

لقد ادعى المجتمع الأوروبي الحكمة والواقعية عندما أصدر وعد بلفور ، وادعى المجتمع الدولي ــ بغربه وشرقه ــ الحكمة والواقعية عندما أصدر قرار التقسيم ، وادعى حاكم أكبر وأهم دولة عربية الواقعية والحكمة ــ ومن ورائه الوضع العربي الرسمي بأشكال مباشرة وغير مباشرة ــ في الاعتراف باسرائيل كأمر واقع نهائي في هذه المنطقة .

ولكننا نلاحظ ان « واقعية » القرارين الدوليين ظلت أقرب الى الادعاء منها الى الحقيقة ، حتى جاء الاقرار العربي (ولو جزئيا ، ولو على الصعيد الرسمي فقط) بشرعية المشروع الغربي ــ الصهيوني ، فهل هذا « الاقرار العربي » حجر زاوية حقيقي ، يمكن ان يبنى عليه سلام حقيقي ثابت ومستمر في المنطقة ؟

يبدو أن الغرب قد استوعب جيداً كل دروس المراحل السابقة ، فلم يعد يسمح لنفسه بأي وهم في تقييم مدى ثبات الأسس التي يبني عليها مشاريعه في المنطقة . من هنا ، وعلى الرغم من كل التهليل الذي يحيط به الغرب شخصية أنور السادات ومنهجه ومنطقه وخطواته ، فان الدوائر الغربية ، والاسرائيلية ، تدرك اكثر من غيرها أن ما تم حتى الآن ليس الرضى العربي التاريخي النهائي بمشروع اسرائيل ، بل الاعتراف العربي الرسمي بالعجز أمام المشروع الاسرائيلي . والفارق بين الاثنين كبير ، فالاول صامد ثابت ، والثاني متحرك زائل . من هنا فان الغرب لن يقف عند الانبهار بخطوة السادات والتهليل لها (على الرغم مما تعنيه من تحييد لحجر الزاوية العربي في الصراع مع اسرائيل) ، بل سيعمل كل يوم في تحويل السطحي الى عميق ، والمترجرج الى ثابت ، والطارىء الى ابدي .

صحيح أن الغرب ما زال يبني مشاريعه ويقيس واقعيتها على أساس العجز العربي ، ولكنه تعلم من مرحلة الخمسينات والستينات ، أن العجز العربي حالة لا يمكن أن تستمر الا بفرض وتعميق وترسيخ ظروف استمرارها .

لقد اخترت للدخول في هذا المقال سؤالا تركته معلقا بغير جواب : لو وقف المجتمع الدولي الآن (وليس سنة ١٩٤٧) أمام قرار بالسماح لليهود بانشاء دولة لهم على أرض فلسطين ، هل كان يجرؤ على تحمل تبعات اتخاذ مثل هذا القرار ؟ في رأيي أن تحمل تبعة مثل هذا القرار لا يمكن أن يستند الا الى المراهنة على ديمومة العجز العربي ، الى ما لا نهاية ، فهل هذا الرهان حكيم وواقعي ؟

ان قرار انشاء دولة اسرائيل ، مثل قرار فرض التسوية على أساس الاعتراف العربي باسرائيل ، لا يمكن أن يتحول الى واقع ثابت في المنطقة الا بقرار عربي ، لا يكتفي ان يحمل توقيع حاكم عربي او اكثر ، بل عليه أن يحمل تواقيع الأجيال العربية جيلا بعد جيل .

أيهما اكثر واقعية الآن واكثر قدرة على الحياة : الاعتراف باسرائيل ، أم تحرير فلسطين ؟

الوحدة العربية وقضية فلسطين

منير شفيق

مدير مركز التخطيط

في منظمة التحرير الفلسطينية

كانت هناك حاجة دائمة في التاريخ القديم ، قبل الاسلام ، لوحدة المنطقة الممتدة من المغرب على المحيط الأطلسي الى الخليج . وذلك بسبب موقعها المميز فيما بين قارات العالم القديم ، وكذلك فيما بين بلدانه . الامر الذي جعلها العقدة المركزية للتجارة العالمية . اي ما كان من الممكن ان يتحقق الاتصال والتواصل فيما بين أوروبا وأفريقيا وآسيا إلا عبر هذه المنطقة . وهذا جعل الاتجاه نحو الوحدة اتجاها اساسيا في تاريخ هذه المنطقة لأن انقسامها الى دويلات متنازعة ، أو الى عدد كبير من مناطق النفوذ المتنازعة ، كان يعني انقطاع طرق التجارة الدولية ، وهذا يعني بدوره ركودا عالميا ، ويتعارض مع أية قوة كبرى خرجت من حدودها تسعى لسيادة دولية . ومن هنا كانت هذه المنطقة كلها ، أو أجزاء كبيرة منها ، موحدة تحت سلطة مركزية واحدة سواء جاءت هذه السلطة من خارج المنطقة ، كما حدث مع الرومان واليونان مثلا ، أو من داخلها كما حدث مع المصريين والبابليين وسواهم .

وعند هذا الحد يمكننا ان نؤكد على سمة ثانية ذات أهمية في تحقيق هذه الحاجة الى الوحدة ، وهي وجود أجزاء كبيرة في هذه المنطقة تعتمد على ري الأنهار مثل مصر وما بين النهرين مثلا ، الأمر الذي حتم نشوء دول مركزية في تلك المناطق لكي تؤمن إقامة السدود ، وتوزيع المياه . وقد أدى هذا بدوره الى نشوء قوة كبيرة تستطيع أن تأخذ على عاتقها مهمة توحيد المنطقة تحت سلطانها . ومن ثم ، الامساك بسيادة عالمية عبر الامساك بهذه العقدة المركزية للمواصلات والتجارة الدوليين .

ولد هذا التاريخ لهذه المنطقة في داخلها حركة دائبة ، وتواصلا مستمرا فيما بين سكانها المحليين بما في ذلك موجات الهجرة الوافدة اليها . مما سمح بتقارب شديد فيما بين القبائل والشعوب والألسن المختلفة التي عاشت قرونا فوق هذه البلاد . ولعله من الملفت للانتباه أن نرى لغة الآراميين تسود المنطقة كلغة ثانية بالنسبة لكل لسان من السنتها ، لمدى يقارب الألفي عام قبل انتصار ثورة الاسلام .

إن ما تقدم سمح للاسلام بدعوته للتوحيد ، والوحدة ، وبلسانه العربي ، ان يدخل في أعماق هذه المنطقة المتعطشة للوحدة والاستقرار ، المتطلعة الى أن تصبح أمة واحدة ذات لسان واحد . وهذا ما يفسر السرعة الهائلة التي امتزجت فيها هذه المنطقة ، بغالبيتها ، في بوتقة الاسلام . وأصبحت المنطقة الممتدة من شواطىء الاطلسي حتى الخليج العربي أمة واحدة ، هي الأمة العربيـة .

حقا ان للعرب تاريخا وحضارات قبل مجيء الاسلام . ولكن الامة العربية بوضعها الراهن ، وبحدودها الراهنة ، أي من الخليج الى المحيط ، قد تكونت ، وتبلورت بعد انتصار الاسلام ، وفي رحابه .

ان الحقيقة التاريخية التي عاشتها المنطقة بعد انتصار ثورة الاسلام دخلت مرحلة جديدة أرقى ، من حيث وحدتها وميلها نحو الوحدة ، ولم يعد دافع تأمين طرق التجارة الدولية هو العامل الأول في نزوعها نحو الوحدة ، كما كان الحال فيما سبق ، ولكنه بقي فاعلا حتى القرن السادس عشر وذلك لأن تغيرا كيفيا حدث في المنطقة ، حيث تكونت الأمة العربية ، وأصبح الاسلام بدعوته الى الوحدة مسألة في أعماق الجماهير ، تتعدى عامل التجارة . ان هذه الملاحظة ذات اهمية لتفسير النزوع القوي نحو وحدة الأمة العربية حتى بعد تحول طرق التجارة الدولية في القرن السادس عشر الى طريق الرجاء الصالح ، ونشوء ثقل خاص لأميركا بالنسبة لأوروبا بعد اكتشافها . أي أصبحت لدينا حالة كيفية : هي حالة وحدة الأمة العربية .

ومن هنا يمكن القول ، ان تيار الوحدة كان التيار الأساسي في تاريخ هذه البلاد ، بعد انتصار الاسلام حتى مجيء الاستعمار الغربي . أن القول بهذا التيار الأساسي لا يعني ان المنطقة لم تشهد في تاريخها التفكك والتفتت والدويلات . بل يعني انه كان التيار الذي له الغلبة في اكثر المراحل . وكان لا يلقي السلاح في مراحل التفكك والتفتت . بل يمكن القول ان تفكك هذه الوحدة في التاريخ الاسلامي لهذه المنطقة ، لم يكن بسبب تطور اقتصادي يتجه نحو اقامة نظام اقطاعي مجزأ على النمط الأوروبي ، وانما كان يحدث لأسباب أخرى ، ليس هنا مجال مناقشتها . ولكن الشيء الأهم ان الانفصال عن الدولة المركزية كان يشمل في الغالب مناطق شاسعة ، وكان يحمل في طياته نزوعا نحو توحيد المنطقة ، تحت سيادته ، ومن ثم ما كانت فيه سمة المكوث وراء جدران التجزئة.بل حتى في الحالات التي نشأت فيها مثل هذه النزعات كانت تواجه ، باستمرار ، من قبل الدولة المركزية أو من قبل أجزاء أخرى ، تأتي لتعيدها الى صوابها : أي إلى الوحدة .

هذا هو تاريخ المنطقة بعد انتصار الاسلام حتى بدايات القرن التاسع عشر ، عندما أخذت طلائع الغزو الأوروبي تفد الينا محققة بعض النجاح هنا وهناك . ثم بعد أن تكرست الهيمنة الامبريالية الغربية ، مع انتهاء الحرب العالمية الأولى . وأصبحت السمة الغالبة في وضع الامة العربية هي التجزئة تحت السيطرة الاستعمارية الغربية .

لقد ارتبطت أهمية فلسطين بالنسبة للمنطقة في الحقبة السابقة للاسلام ، وفي الحقبة التالية ، بذلك الاتجاه الأساسي نحو الوحدة . فما دامت المنطقة تنزع للوحدة فموقع فلسطين يشكل الحلقة التي تصل مصر والسودان والصومال وارتيريا وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا من جهة ، بالمشرق من جهة أخرى . ولما كانت فلسطين تشكل الحلقة الرئيسية في عملية الوحدة ، فقد كانت الحلقة الرئيسية في عملية التجزئة للمنطقة والهيمنة عليها . ويكفي أن يتذكر المرء ما وقع فوق ربوع فلسطين من معارك فاصلة في التاريخ حتى يدرك أهميتها . فمعارك اجنادين واليرموك وحطين وعين جالوت أمثلة على ما ذهبنا اليه . وربما طال ذكر الأماكن التي وقعت فيها معارك شبيهة فاصلة ، في فلسطين ، قررت مصير المنطقة لعشرات ومئات السنين .

عندما نضع يدنا على هذه المكانة الخاصة لفلسطين في التاريخ العربي الاسلامي ندرك لماذا

كانت فلسطين الهدف الأول للحملات الصليبية ثم لحملات التتار ، ولماذا زرع الاستعمار الحديث الكيان الصهيوني فوق ربوعها . ببساطة ، انه وضع اليد على الجسر الموصل بين المغرب والمشرق العربيين .

ولن نبالغ اذا قلنا أن دماء عربية غزيرة ، ومن كل أجزاء البلاد العربية روت تراب فلسطين في أثناء خوض الامة معاركها الفاصلة لصد الغزاة ولاعادة توحيد البلاد . ويجب ان نتذكر ، على سبيل المثال ، تلك الجحافل المجاهدة من ابناء المغرب والجزائر وتونس وليبيا حين انخرطت في جيوش صلاح الدين ، وقاتلت على ربوع فلسطين ، واسهمت في صنع النصر في حطين . ان هذه الصورة لم تحدث مرة واحدة ، بل تكررت كثيرا وما زالت تتكرر . كما ان هذه الصورة لم تقتصر على منطقة دون أخرى ، وانما كانت ظاهرة عامة ، انطبقت عبر التاريخ ، وما زالت تنطبق ، على كل البلاد العربية من المحيط الى الخليج .

عندما حل الاستعمار الغربي في بلاد العرب وتمت له السيطرة على هذه الأرض الموحدة المترامية الأطراف ، راح يقسمها شر تقسيم . فجعل منها أكثر من اثنين وعشرين جزءا . بل أن الدولة الاستعمارية الواحدة قسمت مناطق نفوذها الى عدد من الأجزاء . الأمر الذي جعل تجزئة البلاد العربية تشكل خصوصية الهيمنة الاستعمارية في هذه المنطقة من العالم . لقد شكل فرض التجزئة على البلاد العربية الشرط الضروري لتحقيق الهيمنة الاستعماوية . أي إن الغايات التي يهدف اليها الاستعمار ، عادة ، كجني اقصى الارباح ، ونهب المواد الخام ، والسيطرة .. الخ لا تتحقق في بلادنا العربية الا في ظروف التجزئة . فالوطن العربي الموحد نقيض الهيمنة الاستعمارية . ولن يكون بمقدور اية قوة استعمارية ، أو قوى استعمارية مجتمعة ، إخضاع الأمة العربية إن كانت ضمن حدود واحدة . لأن القوة الشعبية المتولدة في هذه الحالة ستكون جبارة لا تقهر ، ولا تروض ولا يسيطر عليها . أما في المقابل فان إمكانات النضال العربي تأتي ضعيفة وعاجزة ، في ظروف التجزئة ، خاصة ، حين تتحكم الاقليمية بالنضال العربي .

ولكي يكرس الاستعمار تجزئة البلاد العربية ، زرع على أرض فلسطين الكيان الصهيوني ، حيث وضعت له مهمة فائقة الأهمية في خطة التجزئة . فتركيبته العنصرية الصهيونية الاستيطانية تجعله سرطانا لا يندمج في هذا الجسم ، بينما تدفعه اطماعه ، الى جانب طبيعته العسكرية ، وما زود به من قدرات تدميرية ، الى لعب دور مضمون في تكريس تجزئة الأمة العربية ، أي في حماية المصالح الامبريالية . ومن هنا قامت **العلاقة العضوية في بلادنا بين التجزئة وبين الهيمنة الاستعمارية والكيان الصهيوني .**

ان ادراك ما تقدم ، يجعلنا نضع ايدينا على الشروط الموضوعية الواجب توافرها لتحقيق الوحدة العربية : **وهي ضرب السيطرة الامبريالية والدولة الصهيونية ، وشل قدرة التدخل الامبريالي الخارجي .** لأن هذه ، هي العوامل ، رقم واحد ، التي فرضت التجزئة ، وما زالت تحرسها .

حقا لقد تولد ، مع استمرار التجزئة ردحا طويلا من الزمن ، عوامل داخلية في اقطار التجزئة ، تتناقض مصالحها مع الوحدة العربية . أو ترى مصلحتها في التجزئة . ولكن تلك القوى اذا نزلت الى الميدان مقابل العوامل الداخلية التي تدفع الى الوحدة، ولم يكن هناك تدخل مباشر من الاستعمار، فان

الانتصار محقق لقوى الوحدة، والهزيمة محققة لقوى الانفصال والتجزئة ـ لأننا نرى الغلبة بين هاتين المجموعتين من العوامل هي لمصلحة مجموعة العوامل الدافعة لتحقيق الوحدة .

ان التجزئة التي فرضها الاستعمار على الأمة العربية حتمت على قوى النضال العربي ان تناضل ، أولا وقبل كل شيء ، من أجل رفع الكابوس الاستعماري المباشر عنها . وهكذا كانت النقطة المركزية ، أو مركز الثقل ، في النضال العربي ، في المرحلة الأولى ، هي التخلص من الاستعمار المباشر .وقد أخذ هذا النضال يتكلل بالنجاح بعد الحرب العالمية الثانية . ولكن سرعان ما وجدت قوى النضال العربي نفسها أمام انظمة استقلال صوري ، ذات طبيعة رجعية مرتبطة بالاستعمار عبر معاهدات أو أحلاف . وذلك ضمن تحول المشروع الصهيوني ، في أواخر الأربعينات ، الى دولة ذات عضلات عسكرية متفوقة على ما قام من جيوش عربية . الأمر الذي جعل مركز الثقل في النضال العربي يتجه الى ضرب تلك الأنظمة.وقد تحققت نجاحات مرموقة في عدد من البلاد العربية في الخمسينات وأوائل الستينات . بل وصل الأمر نتيجة ضرب الاستعمار القديم وعدد من حكوماته العميلة الى تحقيق أول وحدة رائدة في العصر الحديث بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ . ولكن ذلك سرعان ما ارتطم بالكيان الصهيوني وتهديداته ، خاصة عندما تولت الامبريالية الامريكية بعد الاستعمار القديم مهمة السيطرة على المنطقة .أي **مهمة رعاية مشروع التجزئة** . ولهذا شهدت بداية الستينات المرحلة الثالثة التي تميزت بضرب وحدة سوريا ومصر . وبالهجمة الامبريالية الامريكية الشرسة . وقد أصبح مركز الثقل في النضال العربي العام يتجه الى مواجهة الامبريالية الامريكية ، خاصة ، من خلال قاعدتها الضارية ، الكيان الصهيوني . ان التحول الى هذا الوضع أخذ ينقل القضية الفلسطينية في سلم الأولويات الى **مركز الصدارة** . ففي عام ١٩٦٢ اعلن العدو تحويل مجرى نهر الأردن . ثم عقد مؤتمر القمة العربي الأول ، في عام ١٩٦٤ ، وقامت معه منظمة التحرير الفلسطينية . أما مطلع عام ١٩٦٥ فقد تحركت فيه حركة « فتح » لتعلن انطلاقة الثورة الفلسطينية ، وتعبر عن اتجاه مركز الثقل في النضال العربي . وقد جاء عدوان ١٩٦٧ ، حيث أكمل العدو احتلال كل فلسطين ، الى جانب سيناء والجولان . وبهذا ارتفعت الى السطح مسألة تركيز النار على الامبريالية الامريكية ، وخاصة في مرتكزها الرئيسي والمتميز ، أي الكيان الصهيوني . وهنا أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٨ بوتقة الوحدة الوطنية الفلسطينية والممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، ووقفت وما زالت تقف ، في مقدمة النضال العربي في شن الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني .

وهكذا يكون المسار الذي اتخذته الثورة العربية قد اخذ ينتقل من نقطة مركزية الى أخرى في تحديد أولويات النضال العربي . ونحن نعيش الآن في إحدى مراحل هذا المسار ، **وهي مرحلة تحول قضية تحرير فلسطين الى نقطة مركزية في النضال العربي العام .**

لقد عبرت الثورة الفلسطينية عن سمات هذه المرحلة حين قالت ، إن طريق تحرير فلسطين طريق الى الوحدة . وهي ولا شك ترى عبر هذه المقولة أن تحقيق وحدة عربية ، يشكل بدوره شرطا لتحرير فلسطين . فهذه العلاقة المتبادلة لها أولوية في مرحلة ما بعد ١٩٦٧ ، وهي **شن النضال المسلح لتحرير فلسطين** ، حيث يمكن من خلاله ، وفي أثنائه ، المضي قدما على طريق ضرب الامبريالية الامريكية وعملائها في عدد من الأقطار العربية . كما يسمح هذا الطريق بتعزيز الاستقلال الذي يشكل ، بدوره ، شرط التجرؤ على انجاز خطوات وحدوية . ومن ثم يعود ذلك ، أي الاستقلال والوحدة ، ليشكلا الشرط الضروري لانجاز تحرير فلسطين .

بكلمات أخرى ، ان رؤية العلاقة المتبادلة بين تحرير فلسطين والوحدة لا يعفي من التحديد لمن له الأولوية اليوم ، ولمن له الأولوية غدا ، وكيف يصب الواحد بالآخر يغذيه ويتغذى منه .

عندما تطرح قضية تحرير فلسطين باعتبارها نقطة مركزية في النضال العربي العام ، في هذه المرحلة ، يجب ألا نقع في براثن الالتباس الذي يعتبر أن هذا الطرح يتناقض مع النضال من أجل الوحدة ، أو النضال من أجل توجيه الضربات القاصمة ضد الامبريالية وعملائها في هذا القطر أو ذاك . الأمر على عكس ذلك تماما ، لان اعتبار قضية فلسطين نقطة مركزية (مركز الثقل) في النضال العـربي العام يشكل الشرط الضروري للنضال العام على النطاق العربي وعلى النطاق القطري ضد الامبريالية وعملائها ، وخاصة الامبريالية الامريكية .

لو أخذنا مصر مثلا ، والكل يعلم مكانة القطر المصري ، في مسار الثورة العربية ، فسنجد ان تطور الأحداث بعد توقيع معاهدة الصلح الاستسلامي مع العدو الصهيوني ، وباشراف الامبريالية الامريكية ، قد أعطى مزيدا من التأكيد على ارتباط التغيير الثوري الشعبي المنشود في مصر بالنضال ضد تلك المعاهدة التي توجهت مباشرة لتصفية القضية الفلسطينية . ان التغيير الثوري في مصر لا يرتبط بمشكل قطري محلي ، وإنما يرتبط بالمسألة المركزية ، وهي القضية الفلسطينية ، ان الصلح مع العدو الصهيوني هو الذي سيطيح بالنظام ، وليست أية مشاكل أخرى .

إن اعتبار قضية تحرير فلسطين مركز الثقل في النضال العربي العام ، في هذه المرحلة ، ونشدد على عبارة هذه المرحلة ، يحدد من جهة ، اتجاها عاما للنضال العربي المشترك في كل الاقطار العربية ، دون أن يمنع ذلك ، بل يفرض ، ان تترجم قوى النضال العربي هذا الاتجاه في قطرها حسب الظروف المعطاة ، بما في ذلك احداث أعمق تغيير ثوري شعبي . ولكن هذا التغيير لا يمكن ان يحدث بمعزل عن الامساك بالقضية المركزية إمساكا قويا .

ولنلاحظ هنا أن هذا انطبق حتى على إيران البلد الاسلامي الشقيق ، حيث تحول موقف الشاه المتواطىء مع الكيان الصهيوني ، الى انشوطة على رقبته ، شدت بها ايدي الثوار الذين رأوا في قضية تحرير فلسطين قضية مركزية أولى .

إن كل خطوة على طريق تحرير فلسطين سوف تحث على خطوة باتجاه المزيد من الاستقلال ، وباتجاه الثورة وباتجاه الوحدة . ومن ثم فان كل خطوة باتجاه الاستقلال والثورة والوحدة سوف تحث على خطوة باتجاه تحرير فلسطين . انها عملية يتم عبرها تبادل الأولويات بين عوامل متفاعلة مترابطة ، متبادلة التأثير على بعضها بعضا . وان هذه العملية تسير عبر مسار طويل معقد متعرج ، ولكنه يتجه حتما نحو انتصار أهداف الثورة العربية كافة .

اتفاقا كامب ديفيد في نظر القانون الدولي

د. محمد المجذوب

استاذ القانون الدولي في كلية الحقوق والعلوم السياسية بالجامعة اللبنانية ،
وعضو المكتب الدائم لاتحاد الحقوقيين العرب .

في ٢٩ و ٣٠ أيلول (سبتمبر) الماضي ، أقيمت في باريس ، بدعوة من الرابطة العالمية للحقوقيين الديموقراطيين ، ندوة دولية عالجت موضوع « اتفاقي كامب ديفيد والمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية في نظر القانون الدولي » . وشارك في أعمال الندوة حقوقيون متخصصون في القانون الدولي والشؤون الدولية ، ينتمون الى ٢٨ دولة ، من بينها مصر والكيان الصهيوني . وتركزت معظم المناقشات على البحث القيم الذي قدمه استاذان جامعيان فرنسيان ، هما : مونيك شميلييه ـ جندرو ، وجان بيار كولان . وكان الغرض الرئيسي من تنظيم الندوة اشراك المفكرين الأوروبيين في تعرية الاتفاقات التي وقعها مؤخرا حكام مصر واسرائيل والولايات المتحدة ، واثبات بطلانها قانونا وعرفا ، والتنبيه الى الأخطار التي تترتب عليها في حال تنفيذها ، والدفاع عن الشعب الفلسطيني الذي حرم من حقه في تقرير مصيره بحرية والعودة الى أرضه وانشاء دولته المستقلة فيها . وسنكتفي اليوم بمعالجة موضوع اتفاقي كامب ديفيد معتمدين على البحث المذكور وعلى المناقشات التي دارت حوله لتقديم فكرة واضحة عن مخالفة الاتفاقين لأبسط القواعد والمبادىء والقرارات الدولية .

ونبدأ بطرح السؤال التالي : هل يأتلف هذان الاتفاقان ، أو هل ينسجمان ويتلاءمان مع قواعد القانون الدولي العام ؟ ان الاتفاقين يدعيان ، في الديباجة ، بأنهما يأتلفان مع «أحكام ميثاق الأمم المتحدة والمبادىء الأخرى المقبولة في القانون الدولي والشرعية » ، وبأنهما يوفران للأطراف المتعاقدة « قواعد مسلكية مقبولة كلياً في العلاقات بين الدول » . إلا أن نظرة بسيطة الى مجموعة مصادر القانون الدولي العام حول هذا الموضوع تقنعنا بوجود تنافر وتناقض بين الاتفاقيـن من جهة والقواعد الدولية المعمول والمعترف بها من جهة أخرى .

ان المعاهدات ما زالت حتى اليوم تعتبر المصدر الأساسي للقانون الدولي . ويبدو ان هذا المصدر يتقدم رويداً رويداً نحو تحقيق تكامله . والمعاهدات تجسد الارادة المستقلة للدول . ومع ان هذه الارادة تكون المصدر الرئيسي لكل قانون ، فهي تعبر تقنيا عن نفسها بأعمال وتصرفات وتشريعات مختلفة . وهذه الارادة تتجلى اليوم في القوانين العامة الآمرة ، وميثاق الأمم المتحدة ، وقرارات المنظمات الدولية (ولا

سيما قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة) ، والمعاهدات الثنائية والجماعية بين الدول . وعلى الرغم من عدم وجود تسلسل تدرجـي في الأعمال والصكوك الدولية ، فان القانون الدولي يعرف بعض التدرج الهرمي في مصادره . وقد أكدت ذلك مؤخرا اتفاقية فيينا لقانون المعاهدات (الموقعة في ٢٩/ ٥/ ١٩٦٩ ، والتي ستدخل قريبا حيز التطبيق) . وبالاستناد الى هذا التدرج يقر الجميع بأن مبادىء القوانين الآمرة تتفوق على المعاهدات ، وبأن المعاهدة المخالفة او المناقضة لهذه المبادىء تعتبر بالتالي باطلة .

ويخضع القانون الدولي لمبدأ حسن النية ، الذي يعتمد على قاعدة منطقية تقوم على أساس انتفاء التناقض ، فليس بوسع الدولة أن تبغـي أو تريد ، في نفس الوقت ومعـا ، أمرا ونقيض هذا الأمر. وقد جعل الميثاق الأممي حسن النية من مبادىء المنظمة العالمية فنص في الفقرة الثانية من المادة الثانية على أن تنفذ الدول الأعضاء بحسـن نية الالتزامات التي أخذتها على نفسها بموجب الميثاق .

وبالاضافة الى مبدأ الارادة المستقلة للدول يطالعنا مبدأ آخر أخذ يحتل اليوم مكانا مرموقا في الفقه والاجتهاد الدوليين . انه مبدأ الفاعلية الذي كان ، في السنوات الأخيرة ، موضع دراسات عديدة من قبل كبار الاساتذة الجامعيين . وظهرت أهميته في مجالين : في اعتماده كأساس لحل مسألة لا نصوص فيها (فمحكمة الاستئناف في باريس ، بقرارها الصادر في ٧/ ٦/ ١٩٦٠ ، اعترفت لجمهورية فيتنام الشمالية ، على أساس وجودها الفعلي ، بالشخصية الدولية) ، ثم في اعتماده لايجاد حل مختلف عن الحل الذي تقدمه المصادر القانونية القائمة (وهذا ما أقره حكم محكمة العدل الدولية في قضية نوتبوهن بين غواتيمالا وإمارة لختنشتاين) .

حق تقرير المصير في المصادر الدولية

اهتم القانون الدولي الوضعي المعاصر ، منذ الخمسينات ، بالمشكلات التي طرحتها القضية الفلسطينية . وطرح منذ البداية مبدأ عاما هو حق الشـعوب في تقرير مصيرهـا . وازدادت أهمية هذا المبدأ حتى أصبح اليوم يتصدر كل محاولة لمعالجة قضية شعب يناضل من أجل حريته . وترسخت جذوره في الحقل الدولي الى درجة انه أصبح من العناصر الثابتة والبارزة في كل فئات المصادر القائمة للقانون الدولي العام . انـه موجود اليوم في المصادر المهمة التالية :

● **ميثاق الأمم المتحدة** . فالمادة الأولى منه تعدد مقاصد الأمم المتحدة وتنص في فقرتها الثانية على احد المقاصد ، وهو « تنمية العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ المساواة في الحقوق بين الشعوب وعلى ان يكون لهذه الشعوب حق تقرير مصيرها ... » .

● **الاتفاقيتان الدوليتان لحقوق الانسان،** اللتان وقعتا في عام ١٩٦٦ ودخلتا حيز التطبيق في بداية عام ١٩٧٦ . فقد نصت المادة الأولى من الاتفاقية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أن « لكافة الشعوب الحق في تقرير مصيرها . ولها ، استنادا الى هذا الحق ، ان تقرر بحرية كيانها السياسي وتؤمن بحرية نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي » .

● **قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة** . ان الاتفاقيتين المذكورتين المتعلقتين بحقوق الانسان قد صدرتا ، في البداية بشكل قرار (رقم ٢٢٠٠) تبنته الجمعية العامة بالاجماع في

١٦/ ١٢/ ١٩٦٦ . وكانت الجمعية ، في ١٤/ ١٢/ ١٩٦٠ ، قد وافقت بالاجماع (باستثناء تسع دول امتنعت عن التصويت) على قـرار (رقم ١٥١٤) يعرف باسم « الاعلان حول منح الاستقلال للاقطار والدول المستعمرة » ينص في فقرتيه الأولى والثانية على « ان اخضاع الشعوب للاستعباد أو السيطرة أو الاستغلال الأجنبي يشكل إنكاراً لحقوق الانسان الأساسية ويتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة ويعرض للخطر قضية السلام والتعاون العالمي . ان لكل الشعوب الحق في تقرير مصيرها بحرية . ولها ، بموجب هـــذا الحق ، ان تحدد بحرية كيانها السياسي وتواصل بحرية نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي » . وفي عام ١٩٧٠ ، وبالموافقة الاجماعية ، صدر عن الجمعية اعلان (رقم ٢٦٢٥) حول مبادىء القانون الدولي ، جاء فيه « ان انشاء دولة مستقلة ذات سيادة ، او الارتباط الحر أو الاندماج الحر بدولة مستقلة، أو الحصول على أي كيان سياسي آخر يقرره الشعب بحرية ، يشكل ، بالنسبة الى هذا الشعب ، وسائل لممارسة حقه في تقرير مصيره » .

ولهذه القرارات التي صدرت بالاجماع عن الجمعية العامة وهزت ضمائـر الشعوب اهمية قانونية خاصة تتعدى الأهمية القانونية التي تحظى بها عادة قرارات الجمعية . فهناك اجتهاد يضفي على هذا النوع من القرارات قيمة الزامية . وهذا الاجتهاد ينسجم حاليا مع الرأي الذي يعبر عنه الفقه الدولي المعاصـر . ففي ١٩/ ١/ ١٩٧٧ ، أصدرت محكمة التحكيم حكما في قضية الخلاف بين الحكومة الليبية وشركة (تكساكو كالازياتيك) . وبمـا انها اضطرت ، في بعض المواضع ، الى الاعتماد على بعض القرارات الصادرة عن الجمعية العامة ، فقد حرصت ، بالنسبة الى كل قرار ، على معرفة الظروف التي صدر فيها ومعرفة ما إذا كانت الأغلبية التي حصل عليها تمثل غالبية دول المجتمع الدولي . وعندما كانت المحكمة تتاكد من ذلك كانت تعتبر ان القرار يتمتع باعتراف دولي شامل .

● **المعاهدات الدولية الجماعية** . وابرزها اتفاقية فيينا لقانون المعاهدات، التي ادخلت مبدأ حق تقرير المصير في نطاق المبادىء القانونية العامة الآمرة ورفعته الى مستوى المبدأ المقبول والمعترف بـه من قبل الأسرة الدولية بأجمعها (المادة ٥٢ من الاتفاقية) . واذا كان هناك اختلاف وتباين حول تحديد المبادىء القانونية الآمرة ، فالكل مجمع على اعتبار مبدأ حق تقرير المصير واحدا منها .

والى جانب هذه المجموعة من المصادر المتناسقة تقوم مصادر أخرى خاصة ارتبطت بتطورات الأزمة في المنطقة العربية . وينبغي لنا الاطلاع عليها ودراستها من زاوية المصادر العامة قبل التدقيق في صحتها . ومن المصادر الخاصة بالأزمة المذكورة القراران (رقم ٣٢٣٦ ورقم ٣٢٣٧) الصادران عن الجمعية العامة في ٢٢/ ١١/ ١٩٧٤ . وهمـا يتفقان تماما مع المبدأ العام لحق تقرير المصير ، فالأول يكرر التأكيد على حقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف ، بما فيها حقه في تقرير مصيره دون تدخل خارجي ، وحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية . والقرار الثاني يمنح منظمة التحرير الفلسطينية صفة مراقب في الجمعية العامة للأمم المتحدة .

ومن حيث الشكل فان القرارين صدرا بأغلبية تدعو الى الارتياح ، فقد وافق على الأول ٨٩ صوتاً ، وعارضه ٧ ، وامتنع ٣٧ عن التصويت . وحصل الثاني على ٩٥ ، ضد ١٧ ، وامتناع ١٩ . صحيح أن القرارين لا يمثلان وجهة نظر الأسرة الدولية بكاملها ، ولكن الأصوات التي نالاها تمثل ارادة غالبية من الدول لا بأس بها . ولهذا يمكننا اعتبارهما متلائمين مع المبدأ العام الذي نتحدث عنه .

القرار ٢٤٢ ورفض الاعتراف بالشعب الفلسطيني

ومنذ صدور القرار ٢٤٢ عن مجلس الأمن الدولي ، في عام ١٩٦٧ ، أصبحت تسوية القضية الفلسطينية مرتبطة به . وكل محاولات التسوية التي جرت منذ ذلك التاريخ كانت تستهدف تطبيق القرار . ولم يخرج اتفاقا كامب ديفيد عن هذا الواقع ، فأكدا في الديباجة على « ان القاعدة المتفق عليها للتسوية السلمية للنزاع بين اسرائيل وجيرانها هو قرار مجلس الأمن ٢٤٢ بكل أجزائه » . ولكن هذا القرار لا يتضمن شيئاً عن الشعب الفلسطيني . انه يتضمن التأكيد فقط على « ضرورة تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين » . وهناك فرق شاسع بين الأمرين . ومع ان القيمة الحقيقية للقرار تكمن في أنه صدر في ظرف معين (حرب عام ١٩٦٧) لمعالجة قضية معينة (العدوان الاسرائيلي) ، فان اتفاقي كامب ديفيد يجعلان منه أساساً للتسوية السياسية للقضية الفلسطينية . وهذا التفسير الذي يلغي وجود الشعب الفلسطيني يتناقض كلياً مع القاعدة القانونية الأساسية المتعلقة بحق الشعوب في تقرير مصيرها . ولتوضيح هذه النقطة نشير الى أمرين :

١ ــ أن القرار ٢٤٢ يؤكد « الاعتراف بالسيادة والسلامة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة ... » . وهذا يعني ان القرار لا يعترف الا بالدول الموجودة وان همه ينصب على تسوية مسألة الحدود فيما بينها . وتجاهل القرار لحق تقرير المصير يشكل خرقاً فاضحاً للمبدأ القانوني الآمر .

٢ ــ ان القرار يؤكد ، من جهة ثانية ، « ضرورة تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين » . فهو يتجنب اطلاق كلمة « شعب » على الفلسطينيين . انه يعتبرهم لاجئيـن فقط ، متجاهلا بذلك كل التطورات والتغيرات التي طرأت على أوضاعهم منذ النكبة الفلسطينية (قيام المقاومة وظهور منظمة التحرير واعتراف العديد من الدول بها) .

ان مجرد التنكر لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وبالتالي رفض الاعتراف به كشعب ، يجرد القرار ٢٤٢ من كل اساس قانوني . ولهذا لوحت فئات من الفلسطينيين ، منذ صيف عام ١٩٧٧ ، باستعدادها لقبول القرار ٢٤٢ ، وبالتالي بامكان اعترافها بدولة اسرائيل ، اذا ما عدل مجلس الأمن البند المتعلق باللاجئين واستبدله ببند آخر يتحدث عن « الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني » .

ونجد ، على صعيد التنظيم الاقليمي ، الكثير مما يدعم وجهة نظرنا . وميثاق الأمم المتحدة يشجع قيام المنظمات الاقليمية ويقر بقدرتها على القيام بدور فعال في خدمة السلام العالمي ، وتحقيق الرفاهية والرخاء في اقاليمها ، وحل بعض المنازعات الدولية سلميا ومحليا ، ومساعدة الأمم المتحدة في كثير من مهامها . وقد خصص الميثاق الفصل الثامن للحديث عن الاتفاقات والمنظمات الاقليمية . وجامعة الدول العربية منظمة اقليمية معترف بها ، وكذلك المؤتمر الاسلامي . وفي شباط (فبراير) ١٩٧٤ ، أكد المؤتمر الاسلامي مجددا قراره باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . وفي تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٤ ، صدر عن القمة العربية المنعقدة في الرباط اعتراف مماثل ، بالاضافة الى التأكيد على حق الشعب الفلسطيني في اقامة سلطته الوطنية على كل

أرض فلسطينية محررة . وكل دراسة للقضية الفلسطينية لا يمكنها تجاهل القرارات الصادرة عن المنظمات الاقليمية .

وبعد ذكر النصوص والمصادر والوثائق نتساءل عن صحة اتفاقي كامب ديفيد وعن مدى انسجامهما مع المبادىء العامة التي اشرنا اليها . ولنبدأ بمسألة وجود الشعب الفلسطيني . ان الاتفاقين يحيلاننا ، بهذا الصدد ، على القرار ٢٤٢ ، الذي يكتفي باستعمال تعبير « اللاجئين » . غير

اننا نعثر ، اذا ما غصنا في اعماق الاتفاقين ، على اعتراف ضمني بالشعب الفلسطيني . وقد نخدع لأول وهلة بهذا الاكتشاف . فالبند الخاص بالضفة الغربية وغزة ينص على « وجوب اشتراك مصر واسرائيل والأردن وممثلي الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها » ، وعلى « ان الحل الناتج عن المفاوضات يجب ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة . وبهذا الاسلوب سيشارك الفلسطينيون في تقرير مستقبلهم ... »

ولكن الوقائع والأحداث تثبت ان للنصوص الواردة في الاتفاقين معاني مغايرة . فتقرير المصير يعني الحكم الذاتي أو الادارة الذاتية . وعلى مصر واسرائيل والأردن ان تتفاهم وتتفق على الطرق والوسائل الرامية الى اقامة هذا الحكم . ومجلس الحكم الذاتي لن يتمكن من سن القوانين الا بموافقة الحكومة الاسرائيلية . والمستوطنات التي اقيمت في الضفة والقطاع ستبقى ، وستعمد اسرائيل الى اقامة المزيد منها . وتصريحات المسؤولين الاسرائيليين (ولا سيما تصريحات بيغن ووزرائه) واضحة لا لبس فيها . انهم يكررون في كل مناسبة رفضهم الكامل لاقامة دولة فلسطينية ، واستنكارهم الشامل لفكرة السيادة الفلسطينية . وقد ادعى بيغن ان تعبير « الشعب الفلسطيني » ، الوارد في الاتفاقين ، يعني عرب أرض اسرائيل ، أي سكان الأراضي التي يعتبرها بيغن جزءا من الأرض التاريخية للشعب اليهودي . وفكرة اعادة اللاجئين الى وطنهم لا تنطبق الا على من هاجر من الضفة والقطاع في عام ١٩٦٧ . ولاسرائيل في هذه الحالة حق النقض . وبذلك يتحول الحكم الذاتي الى حكم اداري لا يشمل الا ثلث الشعب الفلسطيني .

ويمكننا القول ، باختصار ، بان الاتفاقين يغشاهما تناقضان أساسيان يجردانهما من شرعيتهما : الأول يتجلى في مخالفة الدول التي وقعتهما (أي مصر واسرائيل والولايات المتحدة) لميثاق الأمم المتحدة (الذي صدقت عليه الدول الثلاث) ، والاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الانسان (التي وقعتها مصر واسرائيل) . والتناقض القائم بين الاتفاقين والصكوك الدولية الأخرى يؤكد لنا ، كما أوضحنا ، وجود سوء نية ، لأن ارادة الدولة لا يمكن ان تتوجه ، مرة واحدة ، الى الشيء ونقيضه معاً . والتناقض الثاني نلمسه في مخالفة الاتفاقين للقرارات الدولية الصادرة عن الجمعية العامة ، وفي اقتصارها على مفهوم ضيق وخاطىء لحق تقرير المصير الذي يعتبر من المبادىء العامة الآمرة في القانون الدولي المعاصر . وبما ان المادة ٥٢ من اتفاقية فيينا لعام ١٩٦٩ تعتبر باطلا كل معاهدة تكون ، عند ابرامها ، مخالفة لمبدأ آمر من مبادىء القانون الدولي العام ، فان هذا البطلان يطال ، بلا أدنى شك ، اتفاقي كامب ديفيد .

وبقيت نقطة أخيرة تسهم في تعرية الاتفاقين من كل غلالة شرعية . ان الاتفاقين لا يمكن تحقيقهما دون اشتراك الغير فيهما ، ولكن هذا الغير لم يوقعهما حتى الآن ولم يوافق عليهما . والمقصود بالغير هنا الأردن وممثلي الشعب الفلسطيني والأمم المتحدة نفسها . وبذلك يتعارض

الاتفاقان مع قاعدة عامة في القانون الدولي هي نسبية المعاهدات . فالأصل في المعاهدات ان لا تنشيء حقوقاً وواجبات الا بين الدول الاطراف التي ابرمتها . وقد أيد القضاء الدولي هذا المبدأ في عدة أحكام ، اشهرها الحكم الصادر عن المحكمة الدائمة للعدل الدولي في عام ١٩٢٦ ، بشأن النزاع بين المانيا وبولونيا ، فقد تذرعت الأخيرة باتفاقية الهدنة لعام ١٩١٨ ، المعقودة بين الدول الحليفة ، الا أن المحكمة رفضت منحها هذاالحق وأعلنت ان بولونيا لم تكن بتاريخ عقد هذه الاتفاقية موجودة كدولة ، ولم تكن بالتالي طرفاً فيها وجاءت اتفاقية فيينا حول قانون المعاهدات تثبت اقدام هذا الاجتهاد بنصها في المادة ٣٤ على « ان المعاهدة لا تنشيء التزامات ولا حقوقاً لدولة ثالثة دون موافقتها » . وهكذا يكون اتفاقا كامب ديفيد قد حكما على نفسيهما بالشلل لأنهما رهنـا تطبيقهما بمـوافقة أطراف آخرى عليهما .

آثار التسوية على النظام الاقليمي العربي

مجدي حماد

باحث في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في الاهرام

تفرض تسوية الصراع العربي الاسرائيلي مجموعة جديدة من التوجهات السياسية لدول المنطقة العربية ، وهو ما يستتبع بناء شبكة جديدة من العلاقات المتبادلة فيما بينها . ويمكن القول ان هذه التوجهات وتلك العلاقات ستؤدي الى احداث عدة تغييرات جوهرية في « النظام الاقليمي العربي » ، ان لم تؤد الى اعادة صياغة هذا النظام كلية في ضوء المدخلات الجديدة التي تفرضها التسوية او تفترضها ــ وخاصة كما عبرت عنها بوضوح بنود المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية في ٢٦ مارس/ اذار ١٩٧٩ ــ وفي مقدمتها القبول بشرعية الانتماء الاسرائيلي لهذا النظام جغرافيا وحركيا[١] . وتثير هذه الاحتمالات عددا من التساؤلات عن مدى تأثير ذلك التطور الجذري على هوية «النظام الاقليمي العربي » ، من ناحية ، وعلى توازن القوى القائم في المنطقة العربية ، من ناحية ثانية ، وعلى الدول القائمة ــ في تلك المنطقة والعقائد السائدة فيها ، من ناحية ثالثة .

وينطلق البحث من ان التسوية المصرية ــ الاسرائيلية سبقها نوع من توازن القوى المبني على حقيقة الصراع العربي ــ الاسرائيلي . ويمكن القول ان ذلك التوازن الاقليمي كان يستند الى عدة عناصر اساسية : اولها ، اولوية القضية الوطنية على القضية الاجتماعية في داخل « دول المواجهة » ، وقد لخص ذلك شعار « لا صوت يعلو صوت المعركة » مع ، وربما رغم ، وضوح الاتباط الوثيق بين القضيتين في ادراك قيادات البلدين . ثانيها ، التضامن العربي كواقع او كامكانية ، باعتباره الشكل البارز للتعبير عن « النظام الاقليمي العربي » ومحور فعالية ذلك النظام . ويلاحظ في

---

(١) اثرنا استخدام مصطلح « النظام الاقليمي العربي » بدلا من مصطلحات عديدة تستخدم في هذا المجال من نحو : الدول العربية ، القومية العربية ، الامة العربية ، العروبة ، الوطن العربي . ويرد ذلك الى ان المصطلح الاول يفيد في توضيح انماط التفاعل والمشاركة القائمة بين الدول العربية وبعضها بعضاً ، بحيث تصبغ حركتها ووجودها بسمات معينة . وهو ما يساعد على تفهم آثار التسوية في المستقبل على هذه الانماط والحركة وذلك الوجود .
واساس ذلك ان اصطلاح « النظام » في معناه العام يشير الى « مجموعة العناصر المادية وغير المادية التي تترابط ترابطا يجعلها تؤلف كلا منظما » . ويلاحظ ان الترابط بين اجزاء الكل هو ترابط حركي . ولذلك تنشأ وحدة متتابعة بين الاجزاء المكونة له ، فتولد حركة كل جزء من حركة الجزء الذي سبقه . ويضاف الى ذلك « وحدة النظام » التي تمكن حركات مختلفة من التواتر في وجهة واحدة . ويفسر هذا التعريف مثلا امكانية الحديث عن « النظام الشمسي » و « النظام العصبي » . انظر : د . حسن صعب ، علم السياسة (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٢) ، ص ٥٣ ــ ٥٨ .

هذا الاطار تصاعد وغلبة دور الدول العربية « المعتدلة » ، وبروز اتجاه عام بين اغلبية الدول العربية الى « التسوية السياسية » للصراع العربي – الاسرائيلي ، مع الرغبة في تقليل الوجود والدور السوفيتي في المنطقة . ثالثها ، قيام شبكة علاقات اساسية بين الاتحاد السوفييتي ومجموعة من الدول العربية سواء من دول المواجهة (خاصة سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية) ، او من دول المساندة (خاصة العراق) . رابعها ، قيام شبكة علاقات اساسية بين الولايات المتحدة واسرائيل ، من ناحية ، وبين الولايات المتحدة ومجموعة من الدول العربية ايضا من دول المواجهة (خاصة مصر) ، ومن دول المساندة (خاصة السعودية والاردن) ، من ناحية اخرى .

وتعني التسوية في مفهوم البحث اختلالا في التوازن القائم بين القوى ، نتيجة للتغيرات الجوهرية في انماط المدخلات التي يتعرض له النظام الاقليمي العربي بعد التسوية ، فضلا عن شبكة العلاقات الجديدة التي لا بد وان ترتبط بالتسوية . وفي الواقع يمكن التمييز في صدد مجموعة العوامل التي ستقود الى الاختلال في التوازن بين ثلاثة انماط . فقد تؤدي التسوية الى افراز مجموعة جديدة تماما من الظواهر والتطورات ، ويبرز هنا بصفة اولية الانتقال من حالة الوفاق والتعاون وما يترتب على انهاء حالة الحرب . وقد تؤدي التسوية الى استمرار او ابراز وتدعيم مجموعة من الظواهر والتطورات التي سادت فيما سبق ، وفي مقدمتها بطبيعة الحال طغيان مفاهيم التعايش فضلا عن تصاعد حجم العلاقات الاميركية والدور الاميركي في المنطقة . وقد تؤدي التسوية الى اختفاء مجموعة من الظواهر والتطورات او الاقلال من وزنها واهميتها . وهنا لن تختفي حالة الصراع فقط ، وانما محل الجدال قد يكون دولا وعقائد ومؤسسات .

ويفرض ذلك الاختلال في توازن القوى ، السعي لاحلال نوع جديد من التوازن . والفرضية الاساسية هنا تتلخص في ان توازن القوى الذي تتمخض عنه التسوية هو الذي سيحكم الحركة السياسية لدول المنطقة من بعدها ، وفي تحديد اولوياتها والخيارات المفتوحة امامها . ومن هذه الناحية ، يمكن القول ان التسوية تتضمن تحولا اساسيا في نمط التوازن القائم بين اطرافها وفي المنطقة ، من نمط التوازن المبني على « الصراع » كقيمة اساسية ، الى نمط التوازن المبني على « الوفاق » ومن ثم « التعاون » كقيمة اساسية . ويمكن ايضا التعبير عن نفس التحول بصيغة اخرى لها اهميتها – اذا وضعنا في اعتبارنا وجهة النظر الاخرى التي تؤكد على الطبيعة الحضارية والايديولوجية للصراع العربي / الاسرائيلي – حيث يمكن القول ان التسوية تتضمن تحولا في نمط « الصراع » اساسا ، اي في الاساليب والوسائل ، من صراع مبني على « الصدام بين القوى » الى صراع مبني على « الوفاق بين القوى » . وهو ما يعني ضمنا ان التسوية لا تعني التوصل الى « حل »نهائي للصراع العربي – الاسرائيلي وانما الانتقال بممارسته وادارته الى مستويات وانماط اخرى . وهنا ايضا ينبغي ادراج وجهة النظر التي تذهب الى ان اسرائيل تتطلع فقط الى فترة من « الهدنة السلمية » بعد فترات « الهدنة المسلحة »التي اعقبت او فصلت بين الحروب الاربع السابقة ، وهي لذلك لا تهتم بمنطق « خبرة فرساي » ، حال اصرارها على تضمين المعاهدة المصرية – الاسرائيلية شروطا لا تستقيم مع تهيئة المناخ لقيام سلام حقيقي ، لانها لا تتطلع جوهريا للسلام . واذا كان ديان يقول انه لا يريد تسوية يخرقها ضابط عربي فمن يجرؤ على القول بان هذا الضابط المتوقع لن ياتي من اسرائيل ؟ .

ويرتبط بما تقدم ان التسوية ، على المستوى الداخلي ، تعني تحولا اساسيا في شكل وطبيعة

التناقضات وبالتالي الصراع التي تشهدها المنطقة العربية ، حيث تشهد الانتقال من نمط الصراع الوطني او القومي باعتباره مصدر التناقض وبالتالي الصراع الاساسي الى نمط الصراع الاجتماعي باعتباره مصدر التناقض وبالتالي الصراع الاساسي في المنطقة . والفرضية التي تتفرع عن ذلك تتلخص في ان احتمالات الاستقرار السياسي الداخلي ترتبط ارتباطا مباشرا بالحركة السياسية للدولة خارج حدودها . وبطبيعة الحال ترتبط هذه الفرضية اساسا ، وفي معناها العام ، بالتوصل الى تسوية شاملة للصراع العربي ــ الاسرائيلي بينما من منظور المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية ، يمكن القول انها ستلقي بتأثيراتها السلبية فقط على طرفي المعاهدة ، لان كلا منهما ما يزال يواجه حالة من حالات الصراع الخارجي وان اختلفت الظروف والمعطيات ، بينما لا يمكن ضبط حركة القوى السياسية والصراعات الاجتماعية ، وخاصة في مصر ، تحت شعار « استمرار المعركة » .

وفضلا عما تقدم ، تنبغي الاشارة الى الارتباط الوثيق بين هذا البحث ومجموعة اخرى من القضايا التي ينبغي دراستها وهي القضايا المرتبطة بالسياسات الدولية والاقليمية . ويتضح ذلك بصفة خاصة بالاشارة الى اهم مدخلات النظام الاقليمي المرتبطة بالتسوية ، بمعنى محددات توازن القوى في المنطقة على ضوء المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية ، ويمكن من هذه الزاوية ادراج المحددات الاتية مع ملاحظة انها تخرج عن نطاق التركيز في هذه الدراسة :

١ ــ شكل التسوية التي تم التوصل اليها في كامب دافيد ومن بعد في المعاهدة والخطابات التكميلية المرتبطة بها وانعكاس ذلك بصفة خاصة على نمط العلاقات العربية ــ المصرية وعلى نمط العلاقات العربية ــ الدولية .

٢ ــ ادراك الدول الاقليمية العظمى في المنطقة للنظام الاقليمي ولمصالحها ولدورها فيه . ويبرز هنا بصفة خاصة مصر واسرائيل والسعودية وايران . ويرد التركيز على هذه الدول الاربع الى عدة اعتبارات : **اولها** ، انها تملك امكانات قوة تمكنها من التأثير على التطورات الجارية في المنطقة باكثر من وسيلة ، **وثانيها** ، مدى مساهمة هذه الدول في تحقيق التسوية وفي ضمانها وفي الحرص على استمرارها ونجاحها ــ في ناحية ، او على العكس من ذلك في محاولة ابطال مفعول التسوية والعمل على عدم استمرارها ــ في الناحية الاخرى ، **وثالثها** ، ان هذه الدول هي اكثر وافضل دول المنطقة تسليحا بصفة عامة ، مع الوضع في الاعتبار المتغيرات الجديدة المرتبطة بالثورة الايرانية وعدم تحديد الاتجاهات المؤثرة في ايران بشكل نهائي او محدد . وهكذا يمكن القول ان هذه الدول مؤهلة لان تلعب الدور الرئيسي في تحديد وصياغة توازن القوى الاقليمي بعد التسوية ، دون ان يعني ذلك اغفال او اهمال دور مجموعة اخرى من الدول خاصة العراق وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية .

٣ ــ ادراك الدول العظمى ــ الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الاميركية ــ للنظام الاقليمي وموقعه في اطار مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية .

وبناء على ذلك يمكن القول ان عملية تغيير موازين القوى في المنطقة العربية ذات ابعاد ثلاثة . اولها ، العلاقة بين اسرائيل والقوى المحيطة بها . **وثانيها** ، عملية المواجهة بين الارادة العربية والارادات الاخرى المتحكمة في المنطقة . **وثالثها** ، عملية توزيع مناطق النفوذ بين التغلغل السوفيتي والتغلغل الاميركي . ولكي نفهم ابعاد التغيير المستقبلة في النظام الاقليمي العربي ، ينبغي ان نستعيد الى الاذهان ان الارادة الذاتية العربية المعبرة عن ذلك النظام لم يقدر لها التكامل والوجود كأحد

متغيرات الحركة الدولية منذ عدة قرون وحتى مجيء الرئيس عبد الناصر ومن ورائه الحركة التقدمية العربية التي رفعت شعارات « الحرية والاشتراكية والوحدة » . لقد استطاع الرئيس عبد الناصر ان يجعل من منطلق قيادته تعبيرا عن الارادة الذاتية في التحكم ولو بنسبة معينة في مسارات الحركة الدولية المنبعثة عن المنطقة العربية . ولا يقلل من هذه الحقيقة مأساة يونيو ١٩٦٧ ، بل ان هذه المأساة كانت رد الفعل الطبيعي من القوى الاخرى المتحالفة ضمن « نظام السيطرة والاستغلال العالمي » . ويمكن القول بصفة عامة ان هزيمة حرب يونيو رغم ذلك لم تستطع احداثها ان تحطم الارادة الذاتية المتكتلة حول قيادة الرئيس عبد الناصر . وبالاضافة الى ذلك ، قادت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ الى دفعة جديدة . فالارادة الذاتية العربية لم تقتصر على ان تتابع حركتها ــ بمعنى تثبيت قواعدها كأحد متغيرات الحركة الدولية الفاعلة في المنطقة العربية ، بل انها اصبحت ثقلا معينا يملك القدرة على الحركة المتوازنة مع الارادات الاخرى الدخيلة على المنطقة . ومعنى ذلك ان الارادة الذاتية التي اضحت مستقلة قد تقدمت خطوة اخرى لتصير متوازنة . وهذا التطور الجديد يمثل حالة قلقة وغير مستقرة ، فهي تمثل حقيقة فجائية ترتبت على واقعة انحسرت عنها موجات الحركة ، ولا بد بالتالي ان تسعى الارادات الاخرى في شكل رد فعل من خلال المواجهة او الالتفاف لان تشل من فاعلية هذا الموقف الجديد . ولم يكن هذا مستغربا ، فعدوان يونيو ١٩٦٧ لم يكن الا نتيجة لارتفاع ارادة المنطقة الى حد التحكم في الحركة الذاتية[٢] .

وفي ضوء ما تقدم يمكن تقسيم الموضوع الى قسمين اساسيين يعنى كل منهما باستكشاف الاثار المحتملة او المتوقعة التي قد تدعمها او تقلل من اهميتها ووجودها او قد تخلقها التسوية خلقا : اولهما ، يركز على اسرائيل والعقيدة الصهيونية ، وثانيهما ، يركز على الدول العربية والقومية العربية . فبالنسبة لاسرائيل والعقيدة الصهيونية ، يمكن القول ــ بايجاز ــ ان هناك احتمالين اساسيين من زاوية الاثار المحتملة والمتوقعة للتسوية المصرية ــ الاسرائيلية ، او العربيــة ــ الاسرائيلية ، **اولهما** ــ ان التسوية قد تعني ان اسرائيل على استعداد كاف لقبول التكاليف التي تترتب على انتصاراتها وتسليم طرف عربي او الاطراف العربية بوجودها وبالحقوق التي تدعيها لنفسها من منظور العقيدة الصهيونية باعتبارها العقيدة التاريخية والرسمية للدولة . وهكذا ينتهي هذا الاحتمال الى ان التسوية ستكون خاتمة المطاف بالنسبة لانتصارات العقيدة الصهيونية في تحقيق غاياتها من خلال انتزاع الاعتراف العربي بشرعية الكيان الذي اوجدته . **وثانيهما** ــ ان التسوية لن يعقبها انحسار العقيدة الصهيونية ، بل سوف يكون من شأن الانتصار الصهيوني تمهيد السبيل امام المزيد من الانتصارات ، ومضاعفة المطالب والادعاءات وربما تصعيد المد الصهيوني وتأمين التوجهات الجديدة له من خلال التطلع الى اهداف ابعد والسعي الى تحقيق انجازات اخرى تضمن التوسع الاقليمي على حساب الدولة العربية . وهكذا تصبح « الوسائل السلمية » مجرد « اداة » جديدة لتوطيد الدعائم وترسيخ المكاسب تحت ظل السلام المدعى ، اي ان تصبح التسوية مجرد « استمرار للصراع » ولكن بوسيلة اخرى ، وليست « بديلا » عن الصراع . ويعنى هذا البحث بالتركيز على **القسم الثاني** المتصل بآثار التسوية على النظام الاقليمي العربي ــ اي على الدول العربية والقومية العربية .

---

(٢) انظر في هذا المعنى . د . حامد ربيع ، تأملات في الصراع العربي ــ الاسرائيلي (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٦) ، ص ١٨ ــ ٧٨ .

اولا : من الصراع الى التسوية

يفيد في تحديد وفهم آثار التسوية على القومية العربية ، ان نشير الى احد اوجه المقارنة بين العقيدة الصهيونية في علاقاتها بدولة اسرائيل ، والقومية العربية في علاقتها بالدول العربية . فالعقيدة الصهيونية تتبناها بمنتهى القوة دولة واحدة ــ هي اسرائيل ــ تعتبر هي بدورها في منتهى القوة ، بل يمكن القول ان الارتباط يعتبر ضروريا بين قوة الدعوة وقوة الدولة انطلاقا من توجهات الحل الصهيوني ومتغيرات الكيان الاستيطاني . وليست هناك حاجة ، فضلا عما تقدم ، للاشارة الى ان العقيدة الصهيونية تعتبر بالنسبة لاسرائيل « مسألة حياة او موت » .

اما بالنسبة للقومية العربية فلا يمكن القول بتوفر مثل هذه الظروف والتطورات . فبداية تتبنى القومية العربية « عدة دول » هي الدول العربية وليست دولة واحدة ، ولا تصل هذه العقيدة في اقصى الدول العربية تمسكا بها الى المستوى الذي تنزله الصهيونية في اسرائيل . وليس هناك ارتباط واضح ــ على مستوى الحركة او ادارة الصراع المصيري ــ بين قوة الدعوة وقوة الدولة ، وهو ما يمكن رده الى ان الدول العربية لم تصل ــ حتى على مستوى الادراك ــ الى حد اعتبار القومية العربية مسألة حياة او موت ، بل على العكس من ذلك هبطت بها في بعض الاحيان الى دائرة المزايدات السياسية فيما بين بعضها بعضا . وبينما استفادت الصهيونية من « تجزئة » الوطن العربي الى عدة اقطار في توطيد دعائم « دولتها القومية » في اسرائيل ، فان الدول العربية لم تنجح في استثمار فرصة صراعها مع اسرائيل من اجل « توحيد » قواها المبعثرة وصولا الى « الدولة القومية العربية » الواحدة . ويبقى اخيرا ان الصراع ضد اسرائيل كان احد العوامل الهامة في توحيد الدول العربية ، على الاقل على مستوى السياسات وفي الاجل القصير . اي ان استمرار الصراع كان يرتبط ارتباطا طرديا باستمرار التطور نحو الوحدة العربية[3] . ومن هنا اهمية هذه المقارنة كمدخل لمناقشة آثار التسوية على القومية العربية والوحدة العربية ، لانها تعني ــ باختصار شديد ــ ان هناك استمرارية في الوظائف والجوانب « الايجابية » لحالة الصراع بالنسبة لاسرائيل ــ استمرار المشروع الصهيوني المبني على العنف والتوسع والاستيطان في مواجهة الدول العربية التي ترفض التسوية واستمرار التعبئة الصهيونية كنتيجة لذلك . بينما تعني في نفس الوقت ان هناك تغيرا في الوظائف والجوانب « السلبية » لحالة الصراع بالنسبة لاسرائيل ايضا ــ التوصل الى تحييد حقيقي للقوة المصرية . والخلاصة النهائية انه سيكون هناك استمرار للصراع وربما تصعيد للصراع ، ولكن مع تخفيض جوهري في حجم الخطر والتهديد الكامن في حالة الصراع بالنسبة للجانب الاسرائيلي[4] .

وحين ننتقل الى مناقشة النتائج المرتقبة والتوقعات المحتملة بالنسبة للقومية العربيـة

---

(٣) ولهذا فقد خلص د . نديم البيطار في تصور مبكر له ، عام ١٩٧١ ، عن التسوية السياسية الى ان « الحل السلمي قد يقضي ــ هذا ان لم نقل سيقضي ــ نهائيا على القصد الثوري الاول الذي نريده او يجب ان نريده ، او على الدولة الثورية الواحدة التي تجمعنا من الخليج الى المحيط » . انظر :
د . نديم البيطار ، « التسوية السياسية والنهوض العربي » ، شئون فلسطينية ، العدد ٣ (يوليو ١٩٧١) ، ص ٤٩ .
ولا يعني ذلك ــ في نظرنا ــ اتخاذ موقف المعارضة لكل او لاي تسوية للصراع العربي ــ الاسرائيلي . وانما يعني فحسب ضياع « فرصة تاريخية » نادرة استفادت منها اسرائيل ، مثل كثير من المجتمعات قبلها في تحقيق وحدتها وقوتها ، واساس ذلك ان اشكال الصراع المختلفة تعتبر من اهم اسباب التوحيد السياسي والقوة القومية وتاتي الحرب ضد عدو خارجي في طليعة هذه الصراعات .
(٤) انظر في موضوع وظائف الصراع :
Lewis A. · Coser, **The Functions of Social Conflict** (Gheincoe: The free press, 1956)

وللاتجاهات الفكرية والعقائدية بصفة عامة في الوطن العربي ، تحت ظل التسوية ، فربما كان من المناسب ان نستعيد الى الاذهان بعض التصورات والرؤى التاريخية المرتبطة بالقومية العربية كدعوة فكرية وحركة سياسية .

فمن ناحية اولى ، من المناسب استحضار الرؤيا التي اطلقها نجيب عازوري في مطلع هذا القرن ، فأصبحت تتميز اليوم برصيدها من القدرة على التنبؤ . فقد كتب عازوري في كتابه « يقظة الامة العربية » : « هناك حادثان هامان من طبيعة واحدة ، ولكنهما يقفان على طرفي نقيض . هما يقظة الامة العربية ، وسعي اليهود الخفي لاستعادة ملك اسرائيل القديم على نطاق واسع . ان مصير هاتين الحالتين هو الصراع المستمر ، حتى تتغلب الواحدة منهما على الاخرى . ومصير العالم كله منوط بالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متعارضين »(٥) .

وعلى سبيل التبسيط ، يمكن القول بان اعتراف « الدول العربية » بدولة اسرائيل ، والتوصل الى « تسوية شاملة » معها ، يعني بالتالي اقرار دعوة القومية العربية بحق « القومية اليهودية » وعقيدتها الصهيونية في الوجود فوق ارض فلسطين . وانطلاقا من هذه الفرضية العامة يمكن القول ان اعتراف مصر بدولة اسرائيل ، لا بد وانه سيتضمن اقرارا « قوميا عربيا » — وبالحجم الذي تمثله مصر بالنسبة للقومية العربية — بحق « القومية اليهودية » في الوجود فوق ارض فلسطين ، خاصة وان اتفاقيات كامب دافيد لم تشر من قريب او من بعيد الى المشروع الصهيوني وما يترتب عليه بالمنطق من توجهات وسياسات يجسدها مفهوم « ارض اسرائيل التاريخية » . بل اكثر من ذلك ، لقد اقترب الرئيس السادات الى حد بعيد من المنطق الاسرائيلي ، حين اشار في خطابه امام « الكنيست » الى مسالة قيام دولة اسرائيل قائلا : « واذا كنتم قد وجدتم المبرر القانوني والاخلاقي لاقامة وطن قومي على ارض لم تكن كلها ملكا لكم ، فأولى بكم ان تتفهموا اصرار شعب فلسطين على اقامة دولته في وطنه من جديد »(٦) . ومن هنا نفهم اشارة هاركابي الى ان اعتراف الدول العربية باسرائيل في اطار التسوية المتصورة لديه ، ينبغي ان ينصرف ، ليس الى مجرد « وجود » اسرائيل اي كأمر واقع وانما الى شرعية « تأسيس » دولة اسرائيل « من جديد »(٧) .

ومع ذلك ، فان انتصار الحركة الصهيونية على صورة انتزاع الاعتراف العربي بوجود الكيان الاسرائيلي ، قد لا يعني بالضرورة نهاية الصراع بين الحركة الصهيونية والحركة العربية ولا حسم المواجهة القائمة بشكل قاطع ، بغض النظر عن شكل التسوية ، بل وحتى بافتراض التوصل الى تسوية شاملة . واساس ذلك ان « التعايش » المتخيل بين الحركتين — فيما لو تم التوصل الى تعايش — سوف يصبح اشبه ما يكون بتعايش في ظل السلام الصهيوني ورهنا بتوجهاته الى حد بعيد . واية تسوية يمكن التوصل اليها مع اسرائيل الصهيونية ، سواء تسوية مصرية — اسرائيلية او تسوية شاملة ، لا بد وان تعكس حقيقة الانتصار التاريخي للحركة الصهيونية ، ولن يكون الاختلاف

---

(٥) Neguib Azowry, Le Réveil de la Nation Arabe (Paris, 1905), p.v. BAS

نقلا عن :

د . اسعد رزوق ، العقيدة الصهيونية في ظل « السلام » ، **شئون فلسطينية** ، العدد ٣ (يوليو ١٩٧١) ، ص ٤٥ .

(٦) **مبادرة السلام — توثيق وتحليل علمي** (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، ١٩٧٨) ، ص ٦٠ .

(٧) Yehoshafat Harkabi, Arab Strategies and Israel's Response (New York: The Free Press, 1977), pp. x-xi

بين شكل معين من اشكال التسوية وشكل آخر ، راجعا الى الاختلاف في طبيعة الانتصار الصهيوني ، وانما سيتركز الاختلاف في مدى ماتعكسه التسوية من « ثقل » أو « حجم » ذلك الانتصار الصهيوني . ولذلك فان اية « تسوية » لا بد وان تعبر عن غلبة « القومية اليهودية » وعقيدتها الصهيونية ، ويمكن توقع ان تستمر هذه الغلبة طوال فترة زمنية يصعب تحديدها . وليس ادل على ذلك من سيطرة مفهوم « الامن الاسرائيلي » على شكل التسوية التي تم التوصل اليها في اتفاقية كامب دافيد ، وبمختلف تفصيلاتها وتصوراتها . ويعتبر ذلك بغير شك احد مؤشرات نجاح اسرائيل في حصره الصراع العربي ـ الاسرائيلي « كله في مسألة « الامن الاسرائيلي » . وتكفينا هنا شهادة كاتب بريطاني مؤيد لاسرائيل ، هو تشارلز دوجلاس هيوم ، حيث يقول في خاتمة كتاب له عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي . « ان امن اسرائيل العسكري لم يتعرض لخطر شديد . ولا بد ان اسرائيل تشعر الان انها واحدة من اكثر دول المنطقة استمتاعا بالامن ، فلو تم التوصل الى اتفاقيات تقوم على مجرد توفير ضمان مادي لاسرائيل ، فان هذه الاتفاقيات من شأنها ان تتغاضى عن جميع الخلافات الرئيسية التي لا تزال قائمة بين الجانبين »(٨) . وعلى ذلك يمكن اعتبار الانتصار الذى تحرزه اسرائيل بمثابة كسب للجولة القائمة ، دون الالتزام بشيء حاسم بالنسبة للنتيجة النهائية للصراع .

ومن ناحية ثانية ، يفيد ان نستعيد الى الاذهان التيارات التاريخية الاساسية في محيط القومية العربية بالنسبة لمنهج « حل » الصراع العربي الاسرائيلي . ومن هذه الناحية يمكن القول ان قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر كان مقدمة لبروز تيارين اساسيين في محيط القومية العربية تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي وخاصة تجاه مفاهيم الحل او التسوية . **اولهما** ـ هو ذلك التيار الذي كانت تقوده ثورة يوليو المصرية ، والذي كان يفضل تركيز الهجوم و « الصراع » اولا على مركز بريطانيا ـ ومن بعدها الولايات المتحدة ـ في المنطقة العربية ، ثم التفرغ لمواجهة اسرائيل ، بعد ان يتحقق الاستقلال العربي الحقيقي . **وثانيهما** ـ هو ذلك التيار الذي كان العراق يقوده ، والذي كان ينادي باهمية « التعاون » مع الغرب ضد الاتحاد السوفيتي ، على امل ان يؤدي ذلك الى تحقيق نوع من تعاون الغرب ضد اسرائيل(٩) . ومن المنطقي ان كلا من هذين التيارين كان يصدر عن تصوير متكامل لطبيعة الصراع في المنطقة العربية ، ولاطراف ذلك الصراع وديناميباته ، ومن ثم لمنهج حل الصراع او تسويته .

فمن ناحية تحديد طبيعة الصراع ، انطلق التيار الاول من انه يخوض صراعا حضاريا وايديولوجيا معا ضد « نظام السيطرة والاستغلال العالمي » الذي يستخدم اسرائيل كمجرد « اداة » بارزة ضمن مجموعة اخرى من الادوات ، بينما تبنى التيار الثاني فكرة الصراع الاقليمي حتى لقد اعتبر الامر كله وكأنه صراع بين مجموعة من « الدول ذات السيادة » .

اما من ناحية تحديد اطراف الصراع ، فلقد كان من الطبيعي ان يفرق التيار الاول بين

---

(٨) تشارلز دوجلاس هيوم ، العرب واسرائيل ـ كتب مترجمة (القاهرة ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ١٩٦٩) ، ص ١١٩ ـ ١٢١ .

(٩) انظر في هذا الموضوع .

ـ تشارلز دوجلاس هيوم ، المرجع السابق ، ص ٦٤ ـ ٧٨ .

ـ د . بطرس بطرس غالي ، حرب اكتوبر والتوازن العربي الجديد ، بحث على الالة الناسخة قدم لندوة اكتوبر العالمية ـ جامعة القاهرة (اكتوبر ١٩٧٥) .

الطرف الاساسي في الصراع وهو نظام السيطرة والاستغلال العالمي بقيادة الولايات المتحدة ـ من ناحية ، والطرف المباشر في الصراع وهو اسرائيل ـ من ناحية اخرى . وهكذا حدد اطراف الصراع الذي يخوضه في . الاستعمار العالمي والرجعية العربية واسرائيل . اما التيار الثاني ـ وهو في الحقيقة ممثل الرجعية العربية ـ فلم ير سوى اسرائيل حيث كان حليفه الاساسي هو الاستعمار العالمي .

وبالنسبة لحركة الصراع وديناميات ، حدد التيار الاول لنفسه اهدافا ثلاثة يواجه بها اعداءه الثلاثة (ومن بينهم في الواقع التيار الثاني) : وهي الحرية والاشتراكية والوحدة . وهكذا تبلور الصراع بين الحركة التقدمية العربية بقيادة الفلاحين والعمال العرب وبين قوى الاستعمار والرجعية العربية واسرائيل وعلى هذا الطريق الطويل جاءت معركة الاحلاف العسكرية ، وكسر احتكار السلاح والعدوان الثلاثي على مصر ، والتحرش بسوريا وازمة لبنان والاردن عام ١٩٥٨ ، ثم ضربة الانفصال عام ١٩٦١ ، ومن بعدها حرب اليمن ، وتتابعت الصراعات حتى جاء عدوان يونيو ١٩٦٧ .

وهكذا كان من الطبيعي ان يتبنى التيار الاول في رؤيته لمنهج حل الصراع ، فكرة مواجهة العدو الاساسي اولا ممثلا في الاستعمار العالمي والرجعية العربية على ان يترافق مع ذلك محاولة بناء « القوة الذاتية العربية » ، والتفاعل في نفس الوقت مع خصائص الاطار الدولي الراهن المرتبط بالصراع العالمي ـ من ناحية ، والصراع العربي الاسرائيلي ـ من ناحية اخرى . اما التيار الثاني فقد كان تركيزه الاساسي على التحالف مع الغرب والنظر الى « الشيوعية » او « الاتحاد السوفيتي » باعتبارهما مصدر الخطر الاساسي . ومن ثم « التعاون » مع الغرب لحل « مشكلة اللاجئين الفلسطينيين »[١٠] .

وليس هنا مجال المفاضلة بين كل من هذين التيارين ، وانما تنبع اهمية هذه « التذكرة التاريخية » من انها تساعد على فهم التيار « القومي العربي » الذي توصل الى تسوية كامب دافيد ، ورد هذا التيار الى اصوله في التاريخ وفي الواقع العربي ، ومن ثم تحديد مجمل تصوراته لطبيعة الصراع ولاطرافه ، ولمنهج تسويته ، بما يفرضه التداعي المنطقي للمقدمات والنتائج . ولكي نفهم العلاقة بين هذه التسوية بالتالي وبين دعوة القومية العربية او التطور نحو الوحدة العربية ، فلنتابع منطق هذا التيار من مقدماته .

لقد رفع هذا التيار منذ ما قبل حرب اكتوبر شعار « التضامن العربي » . وكان المنطق الذي يستتر خلف هذا الشعار ـ وهو المنطق الذي ساد في النهاية ، وتقرر بمقتضاه خوض حرب اكتوبر ـ هو عدم حرمانه من حلفاء له في الوطن العربي ، يناصرون العالم الغربي ، ويعادون حركة التحرير العربية بشعاراتها في الحرية والاشتراكية والوحدة ، ولكنهم في نفس الوقت يعادون اسرائيل ، واصبحوا يملكون ادوات ضغط و « اسلحة » ينبغي استثمارها في المواجهة ، وعدم التفريط فيها . وهكذا لم تعد « الدول العربية المحافظة » طرفا من اطراف الصراع . وكانت حرب اكتوبر بالتالي مواجهة مع الولايات المتحدة واسرائيل .

وفي مرحلة تالية انتهى هذا التيار ـ وهو يصدر عن تصور محدد لطبيعة الصراع ـ الى

---

(١٠) انظر في النواحي النظرية لتفاعلات الصراع الدولي خاصة من زاوية العلاقة بين طبيعة الصراع واطرافه وديناميات ومناهج حله . ـ

-Anatol Rapaport, Fights, Games and Debates (Ann Arbor, Mich: University of Michigan Press, 1960).

-Erving Hoffman, Strategic Interaction (Philadelphia University of Pennsylvania Press, 1969)

« الفصل » بين اسرائيل والولايات المتحدة ، مع الاعتراف بخطورة « الارتباط » الوثيق بينهما طالما تقوم الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بشريان الحياة ثم لم تعد الولايات المتحدة بدورها طرفا من اطراف الصراع وانما اصبحت على العكس من ذلك « وسيطا » وطرفا محايدا ، ثم دعيت بصفتها هذه للتقدم خطوة اخرى لكي تصير « شريكا » في التسوية .

ومع مبادرة الرئيس السادات ، التي استهدفت اسقاط العوامل السيكولوجية في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، لم يعد باقيا في الادراك الرسمي المصري سوى (٣٠٪) فقط من عوامل الصراع ذات الصبغة الموضوعية . ثم تكفلت اتفاقيات كامب دافيد بتسوية هذا القدر المتبقي من عوامل الصراع طبقا للرؤية المصرية . ويترتب على هذا الانتقال بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة ، ان لا يعود هناك صراع ، وتتحول علاقات الصراع السابقة الى علاقات تعاون بالكامل . ومن الناحية المقابلة يصبح الاتحاد السوفيتي هو الطرف الاساسي في الصراع الجديد في المنطقة العربية ، تبعا للتغير في طبيعة وقضايا الصراع ، حيث اصبح موجها ضد « الشيوعية » وليس « الرأسمالية » . وهو ما يعني أن محور المواجهة بين الدول العربية واسرائيل كان قد « انتقل » ـ في اللحظة السابقة مباشرة على التسوية . ويعد ان كان احد طرفي المواجهة (اسرائيل) داخل نطاق « الكيان الاستعماري العالمي » ، والطرف الاخر (الدول العربية) ينتمي الى « حركة التحرير » ضد « السيطرة الاستعمارية » ، اصبح الطرفان معا يباشران الصراع ، ويسعيان الى التسوية ، داخل نطاق « حركة الراسمالية عالميا » ، وهو نفس الموقف السابق على قيام ثورة يوليو .

وهكذا لا يكون من المغالاة بان التسوية تجيء تسليما بالامر الواقع في جملة من النواحي الاساسية المرتبطة بالصراع في المنطقة ، وانها تتضمن بالتالي تغييرا في مجموعة من المبادىء والتصورات القومية ، ويجوز بالتالي ان نتوقع سلسلة من ردود الفعل على شتى المستويات الفكرية المرتبطة بالقومية العربية .

ثانيا : التسوية وتيارات التجزئة

لقد تميزت مراحل ممارسة الصراع بسيادة تيار« القومية العربية » في محيط الوطن العربي . ويمكن القول ان التسوية سوف ترتبط ببروز « تيارات اخرى » مناوئة للقومية العربية ، سواء صدرت هذه التيارات من « الداخل » او كانت وافدة من « الخارج » ، وسواء اكانت هذه التيارات متناقضة مع القومية العربية او متوافقة معها . وسنشير الان ايجازا الى اهم هذه التيارات على ان نعود لمعالجتها تفصيلا : تدعيم تيار العزلة الاقليمية في مصر ، خاصة تحت تاثير المقاطعة الدبلوماسية الجماعية من قبل الدول العربية لمصر بعد تبادل وثائق التصديق على المعاهدة : بروز التيار الاسلامي الذي يتصاعد دوره منذ حرب اكتوبر في تناسب طردي مع تصاعد دور « الثورة العربية » ، وخاصة بعد الثورة الاسلامية في ايران · استمرار التحدي الاصيل والقديم المتمثل في التيار الرأسمالي . خاصة اذا وضع في الاعتبار ان تسوية « الصراع العربي ـ الغربي » الذي فجرته ثورة يوليو في مصر تعتبر شرطا لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي : تغذية الاتجاهات الانفصالية في بعض الدول العربية ، ويساعد على ذلك ان اسرائيل لن تتوانى عن تاييد اية حركة من هذا النوع تمشيا مع منطق شرعية قيامها : تصاعد تيار الاشتراكية ، بمعنى تطرف التيار اليساري في الدول العربية ، وبمعنى تدعيم التطور الاشتراكي في الدول العربية التي سيساعدها الاتحاد السوفيتي في مواجهة الدول العربية الرأسمالية .

وليست هناك حاجة الى القول بان بروز هذه التيارات في دول بعينها انما يعكس مصادر مختلفة لتعميق ظاهرة « تجزئة » الوطن العربي . ويضاعف من هذه الظاهرة ان الصراع العربي — الاسرائيلي قد ارتبط في مرحلة تصاعده بقيام « ثورات » عديدة بالوطن العربي ، في مقدمتها ثورة يوليو في مصر ضد الاوضاع القائمة كعقبة في طريق « حل » الصراع . ومن المنطقي ان التسوية وهي تنطلق من مبدأ الامر الواقع ، سوف تسعى بدورها الى المحافظة على الوضع القائم . وهكذا بدلا من كون اسرائيل « عامل توحيد » للاقطار العربية في مرحلة تصاعد الصراع تصبح التسوية « عامل تجزئة » بين الاقطار العربية وبعضها بعضا .

ويقتضي الانصاف ان نقر بان هذه التيارات ليست كلها « رد فعل » للتسوية ، بل على العكس من ذلك ، ربما ساهمت بعض هذه التيارات في « صناعة » التسوية ، وهو ما يتضح بصفة خاصة اذا ترجمنا هذه التيارات الفكرية الى « ادوار دولية » محددة . واذا استعرضنا التيارات الاربعة الاولى ، لامكن الاشارة بصفة خاصة الى الادوار الدولية الاتية بالترتيب : الدور المصري ، الدور السعودي ، الدور الامريكي ، الادوار العربية والاجنبية في الحرب الاهلية اللبنانية . بل ويقتضي الانصاف ايضا ان نقر ان « التسوية الشاملة » سوف تساعد على فرز وتدعيم هذه التيارات بدرجة اكبر ، نظرا لان بعض هذه التيارات ما زال « كامنا » في اطار مجموعة الدول العربية الملتزمة بمقررات مؤتمر بغداد وان كانت « التسوية »بدورها سوف تعمل على تدعيم بعض التيارات وخاصة التيارين الاول والاخير .

وفضلا عما تقدم يمكن القول ان التسوية تطرح للمناقشة مستقبل الاقطار العربية — من ناحية ، ومستقبل الدعوة الى القومية العربية والوحدة العربية — من ناحية اخرى ، وذلك في ضوء قبول الدولة اليهودية في المنطقة العربية . ولا بد من التساؤل عن احتمالات الاتجاه على العكس من رفع مطلب الوحدة ، الى تدعيم التجزئة على اساس جغرافي فتتكرس اصطلاحات من نحو « اقليم الخليج » ، « المغرب العربي » ، « الشرق الاوسط » . وبصفة خاصة الاصطلاح الاخير الذي يعبر عن النظرة الغربية — الصهيونية للمنطقة العربية ، والذي لا يقوم على اساس جغرافي ولا ينبع من خصائص المنطقة البشرية والثقافية ، ويترتب عليه بالتالي اخراج دول عربية من اطار الاصطلاح السياسي وادخال دول غير عربية في اطاره[١١] .

وهنا ينبغي ايضا التعرض لقضية الاقليات القومية خاصة في التصور الاسرائيلي لهذه القضية الذي يقوم على ان تاريخ « الشرق الاوسط » في مجمله ليس الا تاريخ « الاقليات » القائمة فيه لانه يضم خليطا من القوميات والاديان والشعوب . ومن هذا المنطلق تشجع اسرائيل قيام دويلات عديدة في المنطقة تعتمد على الاقليات ، خاصة وا ن الاعتراف باسرائيل — كما تقدم — يشجع على ذلك[١٢] . ومعنى ذلك ان الامر قد لا يقف عند حد تدعيم اتجاه تجزئة الوطن العربي الى « اقاليم جغرافية » وانما

---

(١١) انظر :

د . علي الدين هلال ، « التجزئة والتقسيم في الوطن العربي » ، قضايا عربية ، العدد ١ — ٦ (ابريل — سبتمبر ١٩٧٦) ، ص ٤٣ — ٥٢ . وايضا : د . سلمان رشيد سلمان ، « اسرائيل والوحدة العربية » ، المرجع السابق ، ص ٥٣ — ٦٢ .

(١٢) انظر في موضوع الاقليات في الوطن العربي .

د . سعد الدين ابراهيم ، « نحو دراسة سوسيولوجية لا يحدة : الاقليات في العالم العربي » ، المرجع السابق ، ص ٥ — ٢٤ . وايضا .

د . على الدين هلال ، المرجع السابق ، ص ٤٨ — ٥٢ .

تشجيع تجزئة هذه الاقاليم بدورها الى وحدات اجتماعية او « قومية » اصغر ، او على الاقل تغذية النزعات القومية والانفصالية في داخل الدول العربية ، وبالتالي محاربة فكرة الوحدة العربية .

ولا شك ان الاعتراف بشرعية الوجود الاسرائيلي وربما قبول دور متزايد لايران في المنطقة بعد ثورتها الاسلامية ، سيؤدي الى تدعيم اتجاهات التجزئة الجغرافية والقومية للوطن العربي ، بما قد يؤدي اليه ذلك من تغيير هوية النظام الاقليمي من « نظام عربي » الى « نظام شرق اوسطي » وبالتالي تمييع مفهوم العروبة .

ثالثا : خط مصر القومي العربي

لقد اقترن تعاظم الامل في « الثورة العربية » وانزواء منطلق « الثورة العربية » كأساس « للتحرير والتعمير » ، بارتفاع اصوات معينة تطالب باعادة النظر في « خط مصر » عموما طوال سنوات الثورة ، حتى انتهت الى (ادانة) هذا الخط بكامله . ولم تكن الادانة تنصب فقط على انتهاج مصر طريق « الاشتراكية » ، او تطلع مصر الى التحول من قطر زراعي الى بلد صناعي يستطيع ان يجاري العصر ، بل تمتد الى ادانة انتهاج مصر طريق « القومية العربية » بمعنى انشغال مصر بالدفاع عن قضايا التحررالعربي ، وانشغالها بالذات بقضية شعب فلسطين ، وتورط مصر في الصراع العربي — الاسرائيلي ، ومواجهة التحدي الصهيوني بالرفض والحرب ، في اطار مواجهتها للتحدي الغربي والاستعماري . ولقد برزت هذه الاصوات على شكل « تيار جارف » على مختلف المستويات السياسية والاعلامية في مصر ، في الفترة الممتدة من يناير عام ١٩٧٧ (بالاحداث التي رافقته في الشارع المصري) ، الى مؤتمر كامب دافيد عام ١٩٧٨ ، مع وضع مبادرة الرئيس السادات في نهاية عام ١٩٧٧ ، التي تتوسط هذين الحدين ، في الاعتبار عند تحديد مصادر الطاقة المحركة لهذا التيار .

وتنبغي الاشارة في البداية الى ان المستقبل المنظور لمصر ، وللوطن العربي ، هو المستقبل الذي سوف تتم فيه « تسوية ما » للصراع العربي — الاسرائيلي . ليس هنا مجال الان لاستطلاع مستقبل لمصر ، او للوطن العربي ، منفصل عن هذا الصراع ، او منفصل عن قضية فلسطين . وذلك ان حركة التناقضات في المنطقة كلها مرتبطة بصورة او باخرى بهذا التحدي ويتعذر الان التنبؤ بخريطة للمنطقة بمعزل عن هذا التحدي ، او مع افتراض عدم وجوده اصلا انما يمكن القول ان الاطار الوحيد لمستقبل منظور للمنطقة هو الاطار الذي يتقرر فيه مصير الصراع ، مهما طال الوقت او قصر . تماما كما كانت المواجهة العربية الاسرائيلية هي الاطار الاساسي لكل تطورات المنطقة منذ قيام اسرائيل[١٣] .

على ذلك يطرح بروز تيار « العزلة » في مصر اسئلة هامة وخطيرة : هل مستقبل مصر المنظور هو ان تتنكر لماضيها القريب ، وتعود بعد ربع قرن من الثورة الى منطق سادها قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل قبل قيام اسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ؟ . واذا كان « التضامن العربي » و « التكامل العربي » شعارا الى الان واردا ومطلوبا — كهدف واداة ، فهل يكون على انقاض شعار « القومية العربية » المنطلق من فكرة انجاز الوحدة من خلال عملية التحرر ، تطبيقا لشعار ثورة ٢٣ يوليو : « حرية — اشتراكية —

---

(١٣) محمد سيد احمد ، بعد ان تسكت المدافع (بيروت : دار القضايا ، ١٩٧٥) ، ص ٢٦٣ — ٢٨٧ .

وحدة » . واذا كان هناك تمسك الى الان بوحدة اقطار الوطن العربي ، فهل اصبحت بنظرة تفصل مستقبل الامة العربية عن المواجهة مع اسرائيل والتحدي الغربي في المنطقة ؟

ان تيار العزلة في مصر ينطلق من تخطئة انشغال مصر بالدفاع عن قضايا التحرر العربي وقضية فلسطين بالذات ، كسبب اصيل للمشكلات « الداخلية » التي تعاني منها مصر الان ، كما يمتد تصوره الى تخطئة منطلق « القومية العربية » باعتبارها حركة تحرير عربية ضد الاستعمار ويفترض علاقة ممكنة مع اسرائيل بمعزل عن طابعها ككيان استعماري . ويمكن القول ان هذا الفصل بين اسرائيل كظاهرة ، والاستعمار كظاهرة ، جائز ، بل ربما كان مطلوبا سياسيا وتكتيكيا ، ولكنه لا يجوز فكريا ولا في النظرة الاستراتيجية العامة . واذا صح ان المستقبل القريب ، او المنظور ، لا ينبىء باختفاء الاستعمار كظاهرة عالمية ، فان ذلك لا يبرر عدم طرح تصور لمستقبل المواجهة العربية الاسرائيلية في غيبة الاستعمار ، ومع افتراض زوال نفوذه .

ومن هنا فان الاتجاه الى الفصل بين اسرائيل والولايات المتحدة ــ باعتبار ان انحياز الولايات المتحدة الى اسرائيل ليس امرا حتميا ، ولا هو يقتضي ارتباطا لا فصام فيه ــ لا يمكن تخطئته في مجمله . ولكن ما يمكن التحذير منه بهذا الخصوص ، هو ان يكون ثمن هذا الفصل هو التضحية بحلفاء مصر التقليديين ، رفقاء مصر ثورة ٢٣ يوليو ، داخل الوطن العربي ، واصدقاء مصر على المسرح الدولي ، وعلى راسهم الاتحاد السوفيتي .

ومن ناحية اخرى ، اذا كانت احداث يناير ١٩٧٧ ، ثم مبادرة الرئيس السادات في نوفمبر ١٩٧٧ ، واخيرا اتفاقيات كامب دافيد في سبتمبر ١٩٧٨ ــ بمثابة محطات اساسية ، على طريق تصاعد تيار العزلة في مصر ، فان التطورات المتصاعدة على الجانب الاخر في محيط الاقطار العربية قد اتخذت خطا موازيا . واذا كنا لا نتتبع « التطورات الماضية » الا بقصد استكشاف آفاق المستقبل ، فانه يمكن القول ان هذه « التطورات المصرية » كان لها رد فعل عربي حاد ، تفاوت بخصوص « احداث يناير » من دولة عربية الى دولة اخرى ، ولكن الامر كان مختلفا الى حد بعيد ، وان كان في نفس اتجاه « عزل مصر » بعد مبادرة الرئيس السادات ، حيث وقفت مصر منفردة في ساحة العمل العربي ، واصبحت الدول العربية على الجانب المواجه ، وان اختلف تصنيفها في هذه الحالة ما بين « دول التردد » الى « دول الصمت » الى « دول الرفض » . اما بعد مؤتمر كامب دافيد ، فقد اختفت من على الساحة العربية كثير من علامات التردد والصمت ، واصبح الفصل حادا بين مصر ــ في ناحية ، والدول العربية مجتمعة التى حضرت مؤتمر قمة بغداد ــ في الناحية الاخرى . وعلى ذلك فان النتيجة المباشرة للتسوية هي المساعدة على انضاج التفاعلات المرتبطة بعملية « انعزال مصر » ــ من ناحية ، ومحاولة « عزل مصر » من ناحية اخرى .

وتفصيل ذلك ، اننا اذا وضعنا في اعتبارنا مقررات مؤتمر بغداد تجاه التسوية ، فانه يمكن القول ان التوصل الى معاهدة للتسوية بين مصر واسرائيل طبقا لاتفاقيات كامب دافيد سوف ينتهي الى تصعيد صراع « عربي ــ مصري » قد يحتل مرتبة « الصراع الاساسي » في المنطقة العربية ، في محاولة لابطال مفعول المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية ومحاصرتها فيما يتصل بتصور مقررات مؤتمر بغداد للحد الادنى من « الحقوق العربية » . وسوف يترتب على ذلك ، من الناحية العملية ، الانتهاء الى « تحييد »الصراع العربي ــ الاسرائيلي الى حد بعيد . ويرد ذلك الى تقييم امكانية استخدام

« الاسلحة العربية » التي اثبتت فعاليتها في اطار حرب اكتوبر : خاصة النفط والقوة المسلحة . فقد تم استيعاب دروس « صدمة النفط » التي رافقت حرب اكتوبر من قبل الدول الغربية ، واكثر من ذلك ، التقطت الولايات المتحدة بالذات فرصة دخول الدول العربية معركة النفط ، بأمل استثمار هذا « السلاح » لصالحها هي : « في مواجهة » الثورة العربية » ، ومن اجل اعادة السيطرة على حلفائها في اوروبا الغربية[١٤] . اما بالنسبة للقوة العسكرية ــ اي العودة الى الحرب مهما كان حجمها او هدفها ــ فان القناعة السائدة لدى مختلف التيارات في الوطن العربي لم تتجاسر بعد على القول بأن « الحرب ضد اسرائيل ممكنة » بدون قدرات مصر وامكاناتها . وربما لهذا السبب بالتحديد تستهدف مقررات بغداد « محاصرة » التسوية وابطال مفعولها من اجل « استعادة » مصر الى الصف العربي . وفضلا عن ذلك فان اي تصور للحل العسكري لا بد ان يضع في اعتباره التزامات مصر بمقتضى اتفاقيات كامب دافيد والمعاهدة التي تم التوصل اليها بين مصر واسرائيل وفقا لهذه الاتفاقيات ، حتى بفرض تسليم اسرائيل بوجهة نظر مصر بخصوص مفهوم « الربط » بين اتفاقيتي كامب دافيد ، وبالتوفيق بين التزامات مصر « الاسرائيلية » والتزامات مصر « العربية » . واساس ذلك ان التصور المصري ــ الاميركي للربط قد انتهى الى ان التزامات مصر العربية لن تغطي حالات « الهجوم » او « العدوان » العربي على اسرائيل . فلنتأمل هذا المفهوم :بداية ليست هناك مواصفات محددة او متفق عليها في العمل أو الفقه الدوليين لحالات « الهجوم » او « العدوان » ، حتى يمكن تكييف حالات معينة سوف يحدث فيها اشتباك مسلح بين قطر او مجموعة اقطار عربية واسرائيل ' ان هذا المفهوم لن يغطي بالتأكيد الحالات التي تكون فيها اسرائيل في « موقف الدفاع الشرعي عن النفس » ، او الحالات التي تقوم فيها بهجوم وقائي ضد احد الاقطار العربية وهي الحالات التي برعت في تكييفها منذ قيامها انطلاقا من تصويرها « لحق العودة الى ارض الاباء » ومفهومها « لحرب التحرير » ؛ ان هذا المفهوم ايضا لن يغطي حالة قيام القوات السورية ــ وقد تكون معها قوات عربية اخرى ــ من أجل « تحرير اراضيها المحتلة » ، لانه ليست هناك حاجة لسوريا لتحرير اراضيها بالقوة ، طالما ان اتفاقيات كامب دافيد تقر ــ نظريا ــ ومن حيث المبدأ ان يطبق على الاراضي السورية المحتلة نفس القواعد التي طبقت على سيناء اي العودة الى الحدود الدولية التي كانت قائمة وقت الانتداب البريطاني على فلسطين ، بشرط ان تقبل سوريا مبدأ المفاوضات المباشرة ' واذا ابتعدنا عن مفاهيم التكييف القانوني والتصورات النظرية ، فانه لا بد ان يوضع في الاعتبار ان « ادوات الحرب الحديثة » لا تبقى متسعا من الوقت لهذه التكييفات والتصورات في مواجهة ثقل (الامر الواقع) الذي تجسده سريعا[١٥] .

---

(١٤) انظر في كيفية استيعاب « صدمة النفط » التي رافقت حرب اكتوبر . ــ
انتوني سامبسون ، **الشقيقات السبع : شركات البترول الكبرى والعالم الذي صنعته** ــ ترجمة سامي هاشم (بيروت : معهد الانماء العربي ، ١٩٧٦) ، خاصة ص ٣٢٣ ــ٤٠٦ . وايضا :
ــ محمد سيد احمد ، مرجع سابق .
ــ د . بطرس بطرس غالي ، مرجع سابق .
ــ د . نازلي شكري ، « سياسات البترول وحرب اكتوبر ١٩٧٣ » ، في الندوة الدولية لحرب اكتوبر١٩٧٣ ــ القطاع السياسي ، المجلد الثاني (القاهرة . ادارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة ، ١٩٧٦) ، ص ٤٧ ــ ١٣ .

(١٥) كتب هذا البحث في صورته الاصلية بعد توقيع اتفاقيات كامب دايفيد مباشرة وتمت مراجعته ، مع ادخال تعديلات طفيفة على الاصل ، اثناء توقيع المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية في واشنطن ولهذا لم تتضمن هذه التصورات اية اشارة لموضوع « مذكرة التفاهم الامريكية ــ الاسرائيلية » . وليست هناك حاجة لاية اضافة هنا ، حيث يكفي في رأينا الرد المصري الرسمي على ما تنطوي عليه هذه المذكرة من مخاطر اضافية على الامن العربي .

اما التوصل الى « تسوية ثلاثية » اي معاهدة للتسوية طبقا لاتفاقيات كامب دافيد وتقرها مصر واسرائيل « وطرف فلسطيني ما » دون منظمة التحرير الفلسطينية او دون الاجماع العربي من حول هذا الطرف ، فان ذلك يصبح مدخلا لتكاثر الصراعات في الساحة العربية بصورة لا نظير لها . ومن امثلة الصراعات التي قد تنشأ في محيط النظام الاقليمي العربي : صراع عربي ـ عربي بصفة عامة ، حيث من المتصور في هذه الحالة ان تنضم مجموعة من الاقطار العربية « لها وزنها » الى مصر طالما ان الاتفاق يغطي الحقوق الفلسطينية : صراع فلسطيني ـ فلسطيني بصفة خاصة ، بين الطرف الفلسطيني الذي يقبل بالتسوية والطرف الفلسطيني الاخر الذي سيعمد الى رفض التسوية وتحديها : صراع فلسطيني ـ لبناني ، رغبة من قيادات الثورة الفلسطينية والتي ترفض التسوية في توفير وتأمين « موطن » الكفاح الفلسطيني الاساسي في جنوب لبنان : صراع فلسطيني ـ اردني ، رغبة من قيادات الثورة الفلسطينية في اعادة فتح الحدود الاردنية للعمل الفدائي : صراع فلسطيني ـ سوري نتيجة للمواقف السورية المقيدة تجاه كل من لبنان والاردن ، وتجاه انطلاق المقاومة الفلسطينية من الاراضي السورية نفسها ؛ صراع عراقي ـ سوري نتيجة لموقف سوريا من المقاومة الفلسطينية ومن العمل الفدائي ، وربما من عدم الشروع في حرب استنزاف للعدو الاسرائيلي .

والمحصلة النهائية لكل ذلك هي تصاعد العنف السياسي في المنطقة العربية بصورة لم يسبق لها مثيل ، وهو عنف يوجه في مجمله « ضد » الاقطار العربية نفسها وضد المقاومة الفلسطينية ايضا . وسوف يساعد على ذلك بغير شك بروز التناقضات والصراعات الاجتماعية التي جرى ضغطها والسيطرة عليها في المراحل السابقة باسم الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، خاصة اذا وضعنا في حسابنا ترجيح احتمالات « الربط » بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية والديمقراطية في الاقطار العربية التي تقبل التسوية[١٦] . وتلك كلها هي الصراعات المرتبطة فقط بعملية « التسوية » . ولكن على امتداد الوطن العربي هناك تناقضات وصراعات اخرى حادة ، وهناك خمائر صراع وجيوب للمقاومة ولنتذكر ـ على سبيل المثال ـ منطقة القرن الافريقي ، منطقة الخليج العربي ، منطقة المغرب العربي ، اذا اعتبرنا ان الحرب اللبنانية جزء من الصراع العربي ـ الاسرائيلي . وذلك اذا اقتصرنا فقط على الصراعات « الدولية » اي التي تجرى بين مجموعة من « الدول » ولم نتعرض للصراعات النوعية وابرزها في المنطقة العربية الصراع حول مصادر الطاقة (النفط) ومصادر التمويل (النقد) والممرات البحرية الدولية .

وهكذا هل يسوغ لنا كل ذلك ، ان ننتهي الى القول بان التسوية تحمل تحديا جديا لدعوة القومية العربية ، بل والى الشعار المحدود والمحدد باسم « التضامن العربي » واكثر من ذلك انها تحمل تحديا جديا لمطلب « الوحدة الوطنية » داخل عدد من الاقطار العربية ؟ وهل تؤدي التسوية الى فصم الرابطة الوثيقة بين التقدم الداخلي والصراع الخارجي ، وبصفة خاصة بين الحل الاشتراكي والحل القومي ، وبين الولايات المتحدة واسرائيل والرجعية العربية ـ وتؤدي في نهاية الامر الى تشويه عملية التقدم

---

(١٦) على سبيل المثال يشير الاستاذ طارق البشري الى تطور العلاقة بين القضية الوطنية من ناحية ، والقضية والديمقراطية من ناحية اخرى من واقع الخبرة المصرية بقوله . لقد « امتزج مطلب الاستقلال الوطني مع مطلب البناء الديمقراطي في ثورة ١٩١٩ ، ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧ لتمثل تاريخيا لدى الراي العام المصري نهاية الفصل بين المسألتين الوطنية والديمقراطية ، وليعودا الى سابق عهدهما عملية سياسية واحدة » انظر : طارق البشري ، « ثورة ٢٣ يوليو وقضية الديمقراطية » ، في . د . على الدين هلال (محرر) · **الديمقراطية في مصر ـ ربع قرن بعد ثورة ٢٣ يوليو** (القاهرة . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، ١٩٧٧) ، ص ١٧ ـ ٣٢ .

العربي ؟ . وهل يملك احد ان يقر بان اسرائيل لن تعمد الى تغذية هذه الصراعات العربية ، والى استثمارها من اجل توطيد كيانها وتدعيم قدراتها ، وربما التطلع الى « توسع » جديد طالما يوجد طرف عربي من دول المواجهة بالذات في نطاق جبهة الرفض ؟ . وهل تنتظر اسرائيل – مثلا – حتى ينتصر الطرف الفلسطيني الذي يرفض « تسوية » ما قبلها طرف فلسطيني آخر ؟ وهل يمكن لنا ان نتصور ان طرفا عربيا يمكن ان يعترض على « حق » اسرائيل في الحيلولة دون اعادة فتح قواعد المقاومة الفلسطينية المسلحة ضدها ، او انطلاق هذه المقاومة اصلا ، طالما يوجد طرف فلسطيني ما يقبل بالتسوية ؟ . الا تدخل كل عمليات اسرائيل ضد العمل الفدائي الفلسطيني وكل ما يرتبط به من ترتيبات تمس بعض الاقطار العربية ، ضمن حق الدفاع الشرعي عن النفس ، طبقا لما هو مقرر في معايير الشرعية الدولية ؟ .

رابعا : ازمة الفكر العربي

يمكن القول ان انتصار الصهيونية في عقد الصلح من منطلق الامر الواقع ، لا يوازيه سوى الفشل الذريع من جانب التفكير العربي والممارسة العربية بشكل خاص في تحقيق بعض الانتصارات الآنية او المرحلية للحركة القومية العربية . وهو ما يحتمل ويحمل خطر ان يلجأ الفكر العربي الى اجترار الاحباط والانكفاء ضمن دائرة الذاتية والقصور[17] .

وحينما يقول ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل الاسبق في اعقاب زيارة الرئيس السادات للقدس انه يجب ان يكون هناك « تفهم كامل بان هناك خطا يهوديا في نسيج المنطقة سواء ارادت القومية العربية ذلك ام رفضته ، لان نسيج المنطقة يتالف من عدة الوان ، لا من لون عربي واحد ، ولم تصنعه اليد العربية فقط »[18] ، فانه يعلن بذلك بدء مرحلة جديدة لم يعد فيها للصوت واللون العربي الكلمة الاولى والاخيرة في صنع مستقبل المنطقة . ولا جدال في ان ايبان يؤكد بهذا التصريح انتصار الخط الاستراتيجي الرئيسي للفكر الصهيوني بعد ثلاثين عاما فقط من نشأة دولة اسرائيل ، اي في حياة جيل واحد من ابنائها ، في الوقت الذي يراجع فيه الساسة والمثقفون العرب كافة المعتقدات والمنطلقات السياسية التي حكمت رؤيتهم الاستراتيجية للامور خلال الثلاثين عاما الماضية .

وليس بمستبعد في ظل هذا المناخ ان يصاب « علم النكبة » و « ادب النكسة » و « هول الكارثة » بنوع من التضخم والتصاعد . ولا نغالي اذ نقول بان هذا « التسامي » والتصعيد اللفظي لا يعدو كونه بديلا مرضيا لارادة القتال او مرارة العجز والقصور . فهناك مقولة عامة تنسحب على الوطن

---

(١٧) ولقد عبر عن نفس هذا المعنى د . محمود عبد الفضيل في مقال له نشر بعد الانتهاء من هذه الدراسة ، ومن هنا اهمية الاشارة اليه اذ يقول :

« وباسترجاع شريط الاحداث في وطننا العربي خلال الاعوام الماضية لا يملك المرء ان يقاوم شعورا عميقا وصادقا بالمرارة والحسرة على ما آل اليه حال وطننا في السبعينات فرغم كل المظاهر الخادعة « للثراء » و « التحديث » من حولنا ، لا يستطيع المثقف الصادق مع نفسه مغالبة شعور عميق بالهزيمة الداخلية ، باننا نعيش فترة جدب وضمور وتقهقر في معظم مناحي الحياة الثقافية والحضارية والاقتصادية » انظر :

د . محمود عبد الفضيل ، « الوطن العربي في السبعينات – رؤية للعاصر كتاريخ » ، المستقبل العربي ، العدد ٧ (مايو ١٩٧٩) ، ص ١٦٣ – ١٦٧ .

(١٨) Abba Eban, «Camp David-The Unfinished Business», Foregin Affairs, Vol. 57, no. 2 (Winter 1978-1979), pp. 343-354.

وانظر ردنا على هذه الدراسة بعنوان : « رؤية ابا ايبان لكامب دايفيد » في مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٦ (ابريل ١٩٧٩) ص ١٥٣ – ١٥٩

العربي وتكاد ان تتصف بصفة القانون ، وهي ان ميل الاقطار العربية الى المبالغة في « الاوصاف » وفي اضفاء صفة الاطلاق عليها ، وفي ترتيب اهداف عليها « قولا » كثيرا ما كان في تناسب « طردي » مع مدى تخلفهم في التطبيق عن انجاز اهدافهم المعلنة « عملا » . ويمكن القول ان احساس الاقطار العربية « بعدم التكافؤ » مع اسرائيل ، كان له انعكاسه داخل الساحة العربية ذاتها ، بظهور عدم التكافؤ بين القول والفعل ، بين الاهداف المعلنة والانجازات في التطبيق ، واختفاء التوازن تماما بين الاهداف والانجازات . والعكس ايضا صحيح. فبالقدر الذي استربدت به الدول العربية الشعور بان لها انجازات يحق لها ان تفخر بها ، بنفس القدر ابتعدت اهدافها عن الخيال ، وعن مجرد مخاطبة الذات ، واشهار حالة انفعال . وهكذا فمن المتوقع ان ترتبط التسوية باعادة الاختلال بين « القدرات » و « الكلمات » على الساحة « العربية » ، بنفس الحجم الذي تمثله قدرات مصر في اطار القدرات العربية .

وهكذا ربما اسهم « الانتصار الصهيوني » في دفع موجات متتابعة من الشعور بالاحباط والعجز والتخلي لدى المفكر العربي الملتزم بقضايا الشعب المصيرية ، فادخل الى روعه اليأس والمرارة الى جانب النقمة العاجزة عن ترجمة غضبها الى فعل وعمل ، الى ثورة كاملة . وهناك احتمال بان يتم القضاء على البقية الباقية من ايمان المثقفين العرب بفكرتين شهدتا الكثير من التعثر في التطبيق خلال العقود الاخيرة من تاريخ العرب الحديث ، وهما : فكرة الاشتراكية او البناء الاشتراكي وفكرة الوحدة العربية .

ومن المحتمل بالتالي ان تشهد ساحة الافكار العربية انحسارا لموجة الافكار التقدمية والثورية ، يقابلة ارتفاع مد الافكار المحافظة والسلفية الى حدود لم تكن مألوفة من قبل . ان هذه « الردة » على الساحة العربية سوف تحمل في طياتها بذور ارتباط اوثق بالدول الراسمالية الغربية التي تقف وراء اسرائيل وتستخدمها كأداة لتحقيق اهدافها وحماية مصالحها في المنطقة العربية . بل ان الوطن العربي مهدد ــ حتى بغض النظر عن التسوية ، وان كان حدوثها يمثل دور المعجل ــ بزيادة استشراء منطق المجتمع القبلي ، بعد تعاظم شأن ودور « الثروة العربية » في تقرير مصائر التطورات على الساحة العربية كلها ، وبفضل كنوز تختزنها الارض ولم تكن ثمرة اجتهاد عقلي ولا جهد عضلي ، ولا معاناة انسانية ، ولا عملية ارتقاء حضاري . والقبيلة لا تقبل عاصي تقاليدها ، ولا الخارج على نظمها ، وترفض كل متطلع الى منهج مستنير ، لان منهج « الاستنارة » هو القضاء على « الحجة » التي تستمد احقيتها فقط من وزن وقوة « السلطة » لا من محاولة استكشاف الحقيقة .

فرغم كل هذا الذي نشهده من حولنا ، والذي لا تخطئ البصيرة دلالته التاريخية بالنسبة لمستقبل وطننا وشعبنا العربي ، نجد ان هناك الكثيرين ممن يخادعون النفس محاولين تصور الامور وكأننا على اعتاب مرحلة انطلاق عظيم نحو الرخاء والاستقرار والطمأنينة .

وقد لا يكون من قبيل المبالغة القول بان وطننا العربي قد شهد خلال السنوات الاخيرة ، ومنذ نهاية الستينات بداية عملية « احتواء » و « رشوة » واسعة لاعداد كبيرة من المثقفين والمهنيين العرب واذا بهم يوظفون كفاياتهم وخبراتهم وذكاءهم لخدمة مصالحهم الذاتية الانانية على حساب قضايا ومستقبل الانسان العربي . ولعل « الحقبة النفطية » الجديدة التي حلت على المنطقة العربية في السبعينات قد ساعدت الى حد كبير على تعميق هذه الاتجاهات والسلوكيات حيث اصبح لكل شئ

« ثمن » ولم تعد هناك « قيمة » لمبدأ او قضية . وتلك ظاهرة لها شواهد كثيرة في بلدان امريكا اللاتينية ، حيث ارتبط انتشار التعليم ونمو الفئات المهنية والادارية بعملية انسلاخ في اعداد متزايدة من ذوي المعرفة والتأهيل الفني عن مصالح وطموحات الجماهير العريضة من ابناء وطنهم ، لكي يعيشوا أسرى مصالحهم الضيقة الانانية على حساب « النمو المتوازن » لمجتمعاتهم وعلى حساب اشباع الحاجات الاساسية للسكان[19] .

وفضلا عما تقدم ، فربما يتزعزع ايمان الفكر العربي والمواطن العربي بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ويرسخ في الوجدان العربي الحديث ذلك القصور المخيف ازاء ما حل بالشعب العربي في فلسطين على ايدي الصهيونية والاستعمار والرجعية العربية ، دون ان تملك الملايين حيلة للوقوف بوجه التوسع .

مستقبل التسوية :الامن ام التكامل ؟

ان نزعة التحرر الوطني والتغير الاجتماعي سوف تجد نفسها رهينة الانتصار الصهيوني او مفاهيم « السلام الاسرائيلي » ومقتضياته وشروطه . فالتسوية ليست في الواقع سوى سلام المنتصرين على المهزومين . ومن الواضح ان هذا الامر لا يحتمل التمييع باسم « لا غالب ولا مغلوب » . فالتسوية تعني ان اسرائيل كدولة صهيونية ويهودية سوف تزداد رسوخا وتوطدا كجسم غريب في جسد الوطن العربي ، دون ان تكون منه في شيء او دون ان تحظى بقبوله ورضاه ، بينما هي تسعى الى السيطرة عليه .

وهنا بالتحديد ينبغي مناقشة مشكلة « الاندماج » الاسرائيلي في المنطقة العربية كجزء هام من اجزاء عملية التسوية مهما كان شكل هذه التسوية ولتوضيح ذلك يمكن ان نستعرض وجهتي نظر : **اولاهما** ــ تركز على ظاهرة « عدم التكافؤ » بين اسرائيل والاقطار العربية ، وتعتبرها سببا اصيلا لاستمرار الصراع ، **وثانيتهما** ــ تركز على ظاهرة « عدم التوافق » بين أسرائيل والاقطار العربية ، وتعتبرها مصدرا اصيلا للتوتر ، حتى بعد التسوية .

فمن ناحية اولى ، يمكن الاشارة الى مشكلة التعارض بين متطلبات « الامن » واعتبارات « التكامل » فيما يتصل بمستقبل اسرائيل بعد التسوية . ذلك ان « امن » اسرائيل ــ خلافا لغيرها من الدول ــ يتصل ببقاء ونقاء « شخصيتها اليهودية » فضلا عن كونها امتدادا وتجسيدا للحضارة الغربية ، بينما احتياجات التكامل تفرض عليها ان ترتبط بالبيئة المحيطة بها . وهكذا تتخلى عن الميل الدائم نحو العنف والتوسع ، ومعنى ذلك انه ليس امام التطور سوى احد احتمالين : اماسيطرة اسرائيل او اخضاعها[20] . وبناء على ذلك يمكن القول بانه من غير المتصور ان تسلم الدول العربية بمبدأ أن يكون لاسرائيل « دور وظيفي » في المنطقة ما لم تتبدد مخلفات نزاعها مع اسرائيل الذي دام اكثر من ثلاثين عاما . ومن هنا اهمية تحديد « العنصر الفاصل » الذي ترتب عليه « استمرار » الصراع طوال هذه المدة ، ويقصد بذلك العنصر بالذات الذي اذا ما زال ، زال كل سبب آخر يحول دون

---

(١٩) د . محمود عبد الفضيل ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ .

(٢٠) فؤاد جابر ، الاسلحة النووية واستراتيجية اسرائيل ــ ترجمة زهدي جار الله (بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١) ، القسم الثاني .

احلال « التعامل » محل العداء المستحكم ، وبروز صور « للتكامل » بدلا من استحكام « التعارض » . ولقد جرى في هذا الصدد الاشارة احيانا الى ان الصراع في جوهره ديني ، وفي بعض الاحيان الى ان الصراع في جوهره قومي ، وفي بعض الاحيان الى ان الصراع في جوهره اقليمي . ويمكن القول ان هذه العوامل مجتمعة ، التي ترجع اليها البلاد العربية في العادة سبب صراعها وعدائها المستحكم تجاه اسرائيل ، انما اخفت وراءها قلقا اكيدا من ان تسيطر اسرائيل بقرارها السياسي على المنطقة برمتها ، بفضل تفوقها التكنولوجي و « عدم التكافؤ » البارز بينها وبين الاقطار العربية في هذا المجال ، لا بمجرد احتلالها لاجزاء من الاراضي العربية .

ومن هنا يبدو أن خطر تفوق اسرائيل تكنولوجيا واقتصاديا على المنطقة هو سبب « جوهري » في رفض الاقطار العربية جميعها ، على اختلاف نظمها الاجتماعية ، التعامل معها طوال الفترة السابقة . ليس معنى ذلك انه السبب « الوحيد » ، وليس معنى ذلك ان اسبابا اخرى بالغة الاهمية ايضا لم تكن قائمة ، وخاصة عنصر احتلال الارض ، ولكن يمكن القول ان خطر التفوق التكنولوجي كان العنصر « الباقي » في رفض التعامل مع اسرائيل اذا ما حل بالذات عنصر احتلال الارض ، وتمت تسوية مقبولة بشأنه(٢١) .

ومن هنا ايضا تكتسب حرب اكتوبر قيمتها التاريخية الكبرى . ذلك ان كثيرا من « فجوات عدم التكافؤ » بين اسرائيل والاقطار العربية قد تم « عبورها » . ولا ينصرف ذلك فقط الى قيمة الدم العربي بعد معارك اكتوبر ، وقدرة العرب على خوض حرب تتسم بصفة الكفاءة العالية من نواحي التخطيط والمعدات والانجاز ، وانما ينصرف ايضا الى قيمة النفط العربي ، وقيمة المال العربي . وهذه صورة بارزة من صور « التكافؤ » التي نشأت بين اطراف الصراع بعد حرب اكتوبر . لم يعد « الكيف الاسرائيلي » قادرا على استيعاب « الكم العربي » . وفي المقابل اصبح في مقدور « الكم العربي » ان يحمي كيانه امام « الكيف الاسرائيلي » ، لا بطريق العداء المستحكم فقط ، ولكن ايضا دون ما حاجة الى حوافز « العداء المستحكم » وفي ظل تسوية شاملة تحقق مطالب عربية اساسية .

وفي اطار هذا التصور ربما تكون متطلبات « الامن » هي المدخل الى تحقيق اعتبارات « التكامل » بمعنى الانتقال من منطق « الروادع السلبية » لتوفير متطلبات الامن من نحو : مناطق منزوعة السلاح ، قوات طوارىء دولية ، نقاط انذار مبكر .. الخ ـ الى ابتكار « حوافز ايجابية » لتعزيز مصلحة الاطراف في عدم اللجوء مرة اخرى الى الحرب . ومن ابرز هذه الحوافز في منطق دوائر عديدة ، هو ان يقام ـ مثلا ـ « حزام » من التصنيع الثقيل على جانب خطوط المواجهة السابقة فضلا عن المشروعات المشتركة في منطقة « تكامل » على الحدود المشتركة .

ومن هذا التصور ننظر الى التسوية المصرية ـ الاسرائيلية في علاقاتها بمستقبل التسوية الشاملة ، وفي علاقتها بالتالي بالمستقبل العربي . ولنتأمل بعض الملاحظات :

١ ـ ان ابرام معاهدة التسوية بين مصر واسرائيل انما يعني حقيقة لا شك فيها ، ترتفع فوق الاحكام القيمية والتصورات الذاتية ، ونقصد بذلك حقيقة « تجزئة التسوية » مع اسرائيل . وهنا لا بد ان نستعيد الى الاذهان ان هذه التجزئة تتفق بالتأكيد مع التصور الاسرائيلي للتسوية . فاسرائيل لم

---

(٢١) محمد سيد احمد ، مرجع سابق ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٦ .

تنخر وسعا في سبيل ان تنجز التسوية فقط مع الاطراف العربيةالتي ترى فيها خطرا اساسيا،على ان ترجيء اي تفاهم مع الاطراف الأخرى،بأمل ان تكون هذه التسوية وسيلة لتجزئة الصف العربي، واستيعاب الاطراف الاضعف ، بدلا من ان تسلم بها جميعا كأطراف متكافئة ومتضامنة . وقد ينطوي هذا المنهج على خطر جسيم في الاجل الطويل ، اذ هو لن يزيل اسباب الصراع بين مختلف الاطراف المتنازعة ، وليس من شأنه اعادة الاستقرار الى المنطقة بل انه على العكس يهدد في الصميم هذه التسوية ذاتها ، ويحمل في طياته اسبابا قوية لتجدد الصراع ، وقد يصل الى حد الحرب بمضاعفاتها الخطيرة . ومع ذلك ، الا يحقق هذا « الخطر الجسيم » اهداف اسرائيل ــ « الكبرى » ــ في الاجل الطويل ايضا ، بحيث تكون التسوية بالنسبة لها مجرد « هدنة سلمية » ؟ .

٢ ــ ان التسوية التي اتخذت شكل المحادثات الثنائية ، انما تحقق لاسرائيل هدفا اخر ، يتمثل في تخطي اثارة مشكلة الشرعية . ان الارادة الجزئية تستطيع ان تتحدث مع ارادة جزئية اخرى من زاوية التكافؤ وبمنطلق الندية ، ولكنها ازاء الارادة العربية الكلية لا تملك الا ان تحدد موضعها من تلك الارادة استقلالا او تكاملا او تبعية . وهكذا يمكن القول ان اسرائيل قد استطاعت من منطلق التفاعل الاقليمي ان ترسب مفهوم التفاوض الثنائي الذي سمح له بأن تضرب عصفورين بحجر واحد : تخطي مشكلة الشرعية من ناحية ، وتحويل عملية التشكيك في الشرعية الى جانب الآخر ، بمعنى أن مشكلة الشرعية لم تعد ترتبط بموقف اسرائيل بل على العكس اصبحت مرتبطة بموقف الشعب الفلسطيني رغم انه صاحب الحق الاصيل في الارض العربية المغتصبة[٢٢]

وهنا بالتحديد كان من الممكن ان يكون هناك « مقابل » ضخم للاعتراف العربي باسرائيل . اما الاعتراف المصري ــ وحده ــ فهو لا يقدم شيئا لاسرائيل ، على حد تعبير قادتها ، طالما استمر الرفض العربي .

٣ ــ اذا كانت القدرات العربية قد اثبتت فعاليتها في حرب اكتوبر ، وفي تحقيق نوع من انواع التكافؤ بين اسرائيل والاقطار العربية ، فان مرد ذلك لم يكن لوجود هذه القدرات في حد ذاته ، وانما في خلق ارادة استخدامها وفي تكاملها وتكتلها معا وعلى سبيل المثال ، فان اسلحة النفط والنقد العربية لا يسهل تصور استخدامها بدون اشتباك عسكري شامل ضد اسرائيل ، بل ان عدم قيام هذا الاشتباك قد يجعل آلة الحرب الاسرائيلية ذاتها حرة وطليقة في التوجه لتنفيذ خطة الغرب التي تستهدف « احتلال » منابع النفط العربية .

وعلى ذلك فان « تجزئة التسوية » انما توجه ضربة في الصميم الى منطق استخدام القدرات العربية بفعالية . فلقد خرجت « قيمة الدم العربي » نهائيا من معادلة القوة العربيةوهي القيمة الاساسية والشرط الضروري لاي مواجهة عربية ــ اسرائيلية ، باختيار مصر هذه التسوية ، ومصر بالقطع هي مفتاح الحرب والسلام في المنطقة .

وفضلا عن ذلك فان صور « التكامل » المحتملة بين مصر واسرائيل سوف تكون بين قدرات اسرائيل ومظاهر تفوقها « كاملة » ، بينما قدرات مصر الاساسية في معادلة القوة العربية ــ وهي قيمة

---

(٢٢) د . حامد ربيع ، النموذج الاسرائيلي للممارسة السياسية (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤) ، ص ١٦٤ .

الدم المصري ــ قد جرى تحييدهـا ، بل واصبحت عاملا سلبيا بعد اعادة توجيهها نحو الدول العربية والافريقية . ولم يبق لدى مصر سوى « قيمة قوة العمل » . واذا تصورنا امكانية التوصل الى « تسويات تالية » ــ وهي بالقطع تختلف من حيث شكلها ونتائجها عن « التسوية الشاملة » ــ لامكن القول ان ما انطبق على مصر سوف ينطبق على قطر عربي آخر وهكذا يبقى الباب مفتوحا لتحقيق « التكامل » الاساسي الذي تسعى اليه اسرائيل ، مع الاقطار العربية التي لم تدخل معها في أي اشتباك عسكري مباشر ، وخاصة اقطار الخليج العربي بما لديها من قدرات النفط والنقد ، وهي بدورها تدخل عمليات (التكامل) ــ بفرض قبولها ــ بمعادلة قوة تختلف تماما عن معادلة القوة العربية في حرب اكتوبر .

وهنا ينبغي ان نعود لمناقشة « معركة النفط » في اطار حرب اكتوبر . لقد كانت معركة الاقطار العربية المنتجة للنفط من اجل انتزاع حقها في بناء «ثروة » من النفط ، بمثابة « ثورة » . وبهذا المعنى لا تعتبر « الثروة العربية » نقيض « الثورة العربية » ، حيث كان النفط سلاحا لا في معركة التحرير العربي ضد اسرائيل فحسب ، بل سلاحا عربيا في معركة التحرير ضد السيطرة بأوسع معانيها المعاصرة . ولكن ليس هذا الا « الوجه الاول » من العملة فقط اما الوجه الثاني ، فهو ان معركة النفط لم تجر بمعزل عن مناورات دوائر المال والاستعمار ، ولا بمعزل عن مناورات الولايات المتحدة بالذات ، لدعم مركزها التنافسي على نطاق العالم بأسره . ومن هنا ليس من المنطقي ان ننظر للعملة من احد وجهيها فقط ــ اي « الثروة العربية » كسلاح في يد « الثورة العربية » ـ وانما ينبغي ان ننتبه ايضا الى وجهها الاخر ــ اي « الثروة العربية » كسلاح ضد « الثورة العربية » ، لاجهاضها واحتواء الوطن العربي بأسره داخل اطار النظام الدولي الجديد للتبعية[٢٣] .

ومن هنا يمكن القول ان تحكم « الدم » في معادلة القوة العربية يعني ان « الثورة العربية » هي التي تقرر مصائر « الثروة العربية » ، وتسخرها لمصلحة الشعوب العربية ، ولاهدافها في التنمية والرفاهية . اما تحكم « النفط والنقد » فمعناه الانصياع لمخطط نظام السيطرة والاستغلال العالمي . والشروط هنا تتوقف على السلوك العربي . واول هذه الشروط ان يواصل النفط العربي والنقد العربي دورهما كأسلحة عربية من اجل ارساء اسس الاستقرار السياسي في المنطقة بتسوية شاملة تقوم على اساس عادل . وليست العبرة هنا بحجم الفوائض النفطية العربية ، ولكن الاهم من ذلك هو الا تترك الاقطار العربية ارصدتها الفائضة دون توظيف ، حتى تفترسها الدول الغربية ، وهي في اشد الحاجة اليها ، من أجل تسوية ازمتها هي على حساب الحقوق والمصالح العربية المشروعة . كذلك فان هذه الارصدة لا بد من توظيفها وفق خطة يكون للامة العربية كلمة فاصلة في تقريرها . ومنطق هذه الخطة لا بد وان ينطلق من استعادة الامة العربية السيطرة الكاملة على الاستثمارات في اراضيها . وفضلا عن ذلك على الاقطار العربية حماية « الاوبك » وحماية تضامنهم داخلها وداخل « اوابك » بتشجيع دول العالم الثالث المنتجة للمواد الخام على ان تنشأ وتطور هي الاخرى منظمات على غرار الاوبك تحمي بها مصالحها ، ويعتبر ذلك دعما للقوة العربية ، لصالح حركة التحرر عموما ، ولصالح القضية العربية خصوصا .

ان مقدار كفاءة السلوك العربي في مباشرة هذه المعارك هي التي سوف تقرر « حجم » و

---

(٢٣) محمد سيد احمد ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ ــ ٢٣٠ .

« وزن » اسرائيل في المنطقة بعد انجاز التسوية . والكفاءة العربية هنا تؤثر على قدرة الاقطار العربية على ملاحقة العصر ولن يتحقق ذلك عن طريق الاستعانة بخبراء اجانب بقدر ما يتوقف على تنمية خبرة عربية خالصة ، تتخطى النظرة التكنوقراطية المحضة ، وتدرك معطيات المعركة في ابعادها السياسية ، لا في ابعادها الفنية فقط .

وهنا تبرز اهمية خبرة الاقطار العربية ذات الرصيد الواضح في العلم والحضارة العصرية وبالذات خبرة الاقطار العربية التي باشرت تجارب ثورية ، والقادرة على ادراك معطيات المواجهة الشاملة ، وصولا الى « الحل الشامل » .

ومن هنا ايضا يبرز فساد الدعوى القائلة بان مصر ينبغي ان تتقوقع وتتكفىء على نفسها مرة اخرى ، وان تغض النظر عن الوطن العربي المحيط ، او تلتفت الى مشاكلها فقط . كما يبرز فساد منطق ادانة ثورة ٢٣ يوليو بحكم التزامها بالحل الاشتراكي وبالقومية العربية . فان منطلق الثورة الذي تتم ادانته ، هو وحده نقطة البدء الكفيلة باستثمار طاقات وقدرات الوطن العربي الجديدة ، من اجل مواجهة التحديات المتجددة ، وصنع مستقبل الامة العربية ـــ بما في ذلك مركز مصر مستقبلا ـــ من خلال صنع القدرة العربية على مغالبة هذه التحديات .

ومن ناحية اخرى ، فان ظاهرة « عدم التوافق » بين اسرائيل والاقطار العربية تثير بدورها مشكلات مماثلة . واذا كانت ظاهرة « عدم التكافؤ » تنصرف الى قدرات اسرائيل من حيث هي ، فان هذا ينقلنا الى الوجه الآخر لاسرائيل اي باعتبارها جسما دخيلا على المنطقة العربية . واساس ذلك ان ظاهرة « عدم التوافق » تنصرف الى طبيعة كيان اسرائيل وشخصيتها ، اي باعتبارها « اداة للاستعمار » وامتدادا للاستعمار . وفي اطار هذا التصور كان من الطبيعي ان يجري رد عناصر الانفجار في الموقف السياسي بالمنطقة العربية ، قبل التسوية ، الى طبيعة موقف اسرائيل كمركز خارجي او كوجود اجنبي منفصل عن العالم الذي يحيط بها . ولقد عبر عن ذلك الكاتب البريطاني « تشارلز دوجلاس هيوم » ، ـــ في معرض دفاعه عن التجربة الاسرائيلية ـــ بقوله . « ولعله امر لا يقاوم بالنسبة لشخص من اوروبا الغربية ان يتأثر ويندهش بالتجربة الاسرائيلية الكبيرة . وربما يعكس الاعجاب البريطاني هنا النزعات الاستعمارية المكبوتة والتي لا تزال موجودة في بريطانيا ، لان اسرائيل هي المثال الكامل للاستعمار في احسن صوره ، كما ارادها تيودور هرتزل ان تكون . ومهما كان الامر ، فان الانسان عندما يسافر الى الشرق الاوسط ويجد دولة ديناميكية متحضرة وبالغة الديمقراطية فان مشاعره تتجه نحوها . وبالنسبة لشخص من اوروبا الغربية ، فان اسرائيل تبدو كأحد مراكز حضارتنا ، ومثل لامع لما يمكن ان تحققه المدنية الغربية في مثل ذلك المناخ وفي مثل هذه الارض »(٢٤) .

وليست المشكلة فقط في ان اسرائيل « اداة » للاستعمار او في كونها امتداد للحضارة الغربية ، ولكنها تتضاعف حين تصر اسرائيل على الاحتفاظ بطابعها الغربي وبنقاء « شخصيتها اليهودية » التي تصبغ كل وجودها بطابع خاص . ولقد اشار نفس الكاتب الى ان هذا التكوين وتلك الشخصية يؤكدان التعارض الصارخ بين اسرائيل والدول العربية ، بحيث « تجعل كثيرا من العقول الغربية تعتقد ان اية دولة لها هذه المميزات ـــ متفوقة على جيرانها ـــ لا يمكن ان تكون ابدا مخطئة . وعلى الرغم من

---

(٢٤) تشارلز دوجلاس هيوم ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

انه ليس هناك موضوع اخلاقي في هذا الامر ، فانني اعتقد ان الامم بصفة عامة ينبغي ان تقبل ان سلوكها لا يمكن ان ينعزل تماما عن جيرانها . فالامة لها ان تختار اما توائم نفسها مع الطابع العام للمجتمع الاقليمي الذي تنتمي اليه (حتى بريطانيا واجهت متاعب لكي تتواءم مع المجتمع الاوروبي) واما تقبل النتائج التي تترتب على عدم القبول بذلك واحداها ربما تكون الطرد او النبذ من هذا المجتمع ، بينما النتيجة الاخرى هي اكراه الاجنبي لمجتمع الاخرين على ان يتأقلموا تبعا له . وبدون هذه المواءمة بأي شكل كان فلن يكون هناك توازن طبيعي او الارجح ان يكون هناك توتر اقليمي بطريقة او بأخرى والعرب ـ غريزيا ـ يرفضون ان يوجد بينهم شخص ليس مثلهم او مختلف عنهم »[25] .

---

(٢٥) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

الصراع العربي ـ الاسرائيلي والحركة نحو الفوضى الدولية

جهاد عوده

باحث بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالقاهرة له العديد من المقالات والتقارير عن القضايا السياسية بمنطقة المغرب العربي بمجلة السياسة الدولية القاهرية. الف ، وشارك في ، عدة كتب .

أن التسوية كعملية تجري في ما يسمى بالشرق الاوسط تعني نوعا من أنواع الاختلال في العلاقات القائمة ، سعيا وراء احلال نمط جديد من العلاقات في الشرق الاوسط بين اطراف الصراع العربي ـ الاسرائيلي . فالتسوية تعني تحولا من نمط التوازن في المنطقة ، من توازن مبني على الصراع الى توازن مبني على الوفاق . او بمعنى آخر هو تحول في نمط الصراع من صراع مبني على التوازن بين القوى الى صراع مبني على التوافق بين هذه القوى . وهذه الدراسة تدرس ميكانزمات التحول من نمط الى نمط ، فهي توضح معالم تلك المرحلة الفاصلة بين النمطين ، كما تهدف الى طرح مجموعة من الفرضيات التي تشكل تلك الميكانزمات ، بحيث يمكن ، بالاستعانة بالرسم البياني ، توضيح مرحلة الفوضى في عملية التسوية . ويقصد بالفوضى الدولية مرحلة التزامن في التحول السريع والمفاجيء في انتقال طرف من الصراع من موقع معروف الى موقع آخر مضاد مع عدم القدرة على منع تأثيرات تلك التحول السريع والمفاجيء ومع عدم الاعتراف بشرعية ذلك التحول ولا نتائجه ، اي جوهر هذه العملية هو التغير المفاجيء في قواعد ادارة لعبة الصراع .

اولا : الاسس الاولية للحركة نحو الفوضى :

يقول محمد سيد احمد في كتاب « بعد ان تسكت المدافع » . . « .. هذا القدر النسبي من الاستقرار في الماضي هو الذي اسميناه ـ حالة اللاسلم واللاحرب ـ وهي الحالة التي وصفها محمد حسنين هيكل ، بأنها موقف سكون في مقابل الحالة التي نشأت بعد حرب اكتوبر ـ حالة اللانصر واللاهزيمة ـ ووصفها هيكل بأنها موقف حركة ، واتسم موقف الحركة في قول هيكل بتغير مفاجيء ، ينجم عنه (صعود العرب الى أعلى) ، لانهـم لم يعودوا مهزومين ، كما نجم عنه (هبوط الاسرائيليين الى أدنى) ، لانهم لم يعودوا منتصرين ، ومن هنا نشأ موقف تبخرت فيه عوامل الاستقرار السالفة ، وتعددت فيه الاسباب التي تقاوم الرجوع الى حالة اللاسلم واللاحرب مرة اخرى. وموقف الحركة الذي تولد ، قد يدفع بالنزاع في اتجاه التسوية ، ولكن الاتجاه نحو التسوية لا تقرره حتمية مفروضة سلفا ، وما لم تتقدم الامور فعلا نحو التسوية ، فليس من بديل من موقف الحركة سوى اندفاع النزاع في

الاتجاه العكسي ، أي نحو مواجهة جديدة وحرب خامسة (١) . ويتابع قوله « واذا اصح ان تفاقم عوامل الاضطراب واللاستقرار نابع من طبيعة النزاع ذاته ، ومن زيادة عوامل الصراع فيه ، كثافة وضراوة ، فصحيح ايضا أن حالة عدم الاستقرار الناجمة عنه قد زادت انتشارا على رقعة اوسع من كوكبنا ، أي ان تكثيف النزاع هو تكثيف رأسي وافقي معا ، وكان لانتشار حالة الازمة ، وحالة عدم الاستقرار ، اكثر من مظهر . هنا كما قلنا ، امتداد حالة النزاع والازمة جغرافيا ، وهناك ايضا امتداد وانتشار حالة النزاع لارتباط ازمة الشرق الاوسط بأزمات نوعية ذات أهمية دولية بالغة »(٢)

وما يمكن استخلاصه ، بحيث يمكن أن يشكل المدخل للفرضية الاولى في هذه الدراسة هو أن حرب اكتوبر ١٩٧٣ ساهمت في كسر حالة اللاحرب واللاسلم ، وبدأت حركة جديدة للصراع ،ايضا ، كما يعتقد محمد سيد احمد نحو التسوية او نحو حرب خامسة . ورغم انه اغفل وصف تلك التسوية الا انه يفهم انها تسوية الحد الادنى المقبول عربيا وذلك لانه اورد الحرب الخامسة كبديل وحيد وجدي .ولكي نصل الى صياغة كاملة لتلك الفرضية يمكن ان نطور تلك المعاني من منظور اخر يوضح المقطع الثاني من حديث محمد سيد احمد ، فيقول جميل مطر « ومع استمرار ابتعاد شبح التوتر الدولي ، بدأ شعور ومزاج سلام وتفاؤل يسود مختلف دول العالم ، وفي ظل هذا المزاج تبدو مشكلات التوتر الاقليمية او المحلية في صورة اكبر واشد خطورة بينما كانت تبدو بالمقارنة بغيرها من الازمات الدولية الحادة في ظل الحرب الباردة مشكلات اقل اهمية ، لذلك وحين اصبحت مشكلة الشرق الاوسط هي الوحيدة التي تهدد مزاج السلام العالمي ، بدت في صورة مروعة خاصة وانها لم تعد مشكلة تناطح بأسلحة بل مشكلة تهدد بتفجير مشكلات دولية جديدة لم يعهدها العالم من قبل كمشكلة البترول والنقد السائل والعمل الفدائي الدولي »(٣) . ومن هذا يمكن القول ، أن حرب اكتوبر ادت لكي تنقل الصراع الى مستوى اخر ، لا ترد فيه احتمالية عودة بديل الحرب مرة اخرى ، لان هذا البديل سوف يقود الى دائرة اللاحرب واللاسلم .

ويتابع جميل مطر قوله : « لقد اثبتت حرب اكتوبر والنظرة الموضوعية الى الظروف الدولية التي احاطت بنزاع الشرق الاوسط ، بطلان بل وخطورة سيطرة هذا النوع من التفكير (نظرة العرب الى امكانيتهم وواقعهم نظرة وهمية) ، ولعل اهم ايجابيات هذه الحرب أن العرب أصبحوا يؤمنون بأن امكانيات متوافرة بلا ارادة سياسية قوية هي في التحليل النهائي أرقام جامدة لا تحرك او ضاعا ، ويؤمنون ايضا بأن الارادة السياسية العربية لا تشكل من مجموع ارادات فرعية ، بلا تاريخ او سوابق في العمل السياسي الدولي وانما تنطلق اساسا هذه الارادة من حيث بؤرة النشاط التقليدي والتاريخي في النظام الدولي العربي أي من حيث مصر اولا »(٤) .

وهكذا يمكن أن نتقدم اكثر من خطوة نحو صياغة الفرضية الاولى ، وهي ، ان الحركة التي ابتدأت بشرارة اكتوبر ١٩٧٣ ، كانت حركة تخلخل وضع قائم ، ولكنها لا تبني وضعا

---

(١) محمد سيد احمد : بعد ان تسكت المدافع ، دار القضايا ١٩٧٥ ص ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ .

(٣) جميل مطر ، « صنع قرار ٦ اكتوبر » في حرب اكتوبر دراسات في الجوانب الاجتماعية والسياسية ، مطابع الاهرام التجارية ص ٣١ يناير ١٩٧٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

جديدا . وهكذا يمكن ان نفهم دعوة جنيف للسلام التي صدرت من القاهـرة في ١٦ اكتوبر/تشرين الاول ١٩٧٣ واستجابت لها الدول الاطراف ، هي الخطوة نحو بناء وضع جديد للعلاقة بين اطراف الصراع . وهكذا فالفرض هي ان العلاقة بين (اكتوبر) و (جنيف) علاقة سببية طردية من حيث القوة في اطار الزمن النسبي ، بمعنى ان جنيف تفقد قدرتها وقوتها كلما تعدت في الزمن عن واقعة اكتوبر ، فاكتوبر هو المتغير المستقل وجنيف المتغير التابع ، ولكن ليس بصفة مطلقة .

والفرضية الثانية التي تشكل الاسسس الدولية للحركة نحو الفوضى ، تتعلق بظاهرة توزيع القوة الاقليمية . يحدد م . بريتشر النظام الاقليمي (٥) بعد ١٩٦٧ فيحدد دائرة القلب التي تضم ست وحدات هي العراق والاردن ولبنان وسوريا ومصر واسرائيل ، ويحدد الدائرة المحيطة التي تضم ٨ وحدات، اربعة اقطارعربية، الكويت والجزائر والعربية السعودية وتونس ودولتين اسلاميتين غير عربيتين ، ايران وتركيا ، ودولتين مسيحيتين ، قبرص واثيوبيا ، ويحدد الدائرة الخارجية التي تضم ستة اقطار عربية ، ليبيا والمغرب والصومال واليمن الجنوبي والسودان واليمن الشمالي . ويردف معلقا ، بأن الدول الاربع غير العربية كانت لها علاقات مع اسرائيل تتراوح من التعاطف للصداقة ، اما الاقطار العربية الاربعة عشر فقد ظلت على عدائها الثابت .

ومن هذا يمكن بدء الخطوة الاولى نحو صياغة الفرضية الثانية ، بان الصراع العربي ــ الاسرائيلي بعد ١٩٦٧ ، اصبح موضوعه الاول المتصارع عليه هو الارض المحتلة بعد ١٩٦٧ وليس ارض فلسطين ، والمعبر عن ذلك هو قرار ٢٤٢ وقبول الاقطار العربية التي في دائرة القلب له وان كان على فترات مختلفة . ويقول بريتشر « اما التفاعل بين دول القلب ودول المحيط بمقياس ما تراه اسرائيل فهو يختلف اختلافا اساسيا ، وذلك باستثناء السعودية والكويت اللتين تعتبران امتدادا لمنطقة القلب في هذا الصدد » . وهذا يقودنا الى تلك الفكرة التي تقول بأن الاقطار المحافظة وخاصة السعودية والكويت اصبحت اكثر تورطا في الصراع مع اسرائيل بعد ١٩٦٧ ، وأن هناك تغيرا في توزيع القوة الاقليمية بحيث سقطت الفكرة الناصرية عن وحدة الهدف الثوري وتراجعت الى فكرة وحدة الصف العربي لتضم السعودية والكويت اللتين تعهدتا بتحمل النصيب الاكبر من الدعم المالي لدول المواجهة وفقا لمقررات الخرطوم ١٩٦٧ .

ويقول فاتيكيوتس « انه خلال عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ اصبح المصريون مهتمين بفك ارتباطهم من قيادة النضال العربي ضد اسرائيل ، وظهر ذلك من خطب الرئيس عبد الناصر خلال هذه الفترة وخاصة بين انتخابات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تسيطر عليها فتح في فبراير ١٩٦٩ حتى مؤتمر قمة الرباط في ديسمبر ١٩٦٩ . وقد شعروا بأن هناك صراعا مصريا ــ اسرائيليا ، اكثر الحاحا وقريبا من الوطن ... وكانوا مهتمين بنقل نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية للدول العربية في الجبهة الشرقية والشمالية وخاصة الاردن ولبنان وسوريا »(٦) .

وهكذا ، يمكن ان نتقدم اكثر من خطوة نحو صياغة الفرضية الثانية المتعلقة بتوزيع القوة الاقليمية ، ان توزيع القوة الاقليمية اختلف معيار توزيعه قبل ١٩٦٧ عنه بعد ١٩٦٧ . فبينما كانت اسرائيل ، تستخدم كوسيلة لاثبات مدى درجة القومية ودرجة الثورية بحيث ارتبطت عداوة اسرائيل

---

(٦) Michael Brecher, **The Foreign Policy System of Israel**, New Haven, Yale University Press 1972.

(٦) P. J. Vaticotis **Conflict in the Middle East**, Great Britain, I 1971. pp. 146-147.

بعداوة الرجعية العربية ، بعداوة الامبريالية العالمية ، فاذا كانت الامبريالية هي العدو الرئيسي ، فاسرائيل هي العدو المباشر والرجعية هي العدو الحالي الذي بين صفوفنا ، وهكذا كانت تلك العلاقة الثلاثية الابعاد لظاهرة العدو تحدد مسالك واساليب الصراعات العربية ــ العربية ، وايضا الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وتوافق ذلك مع ضعف وبل اختفاء العامل الفلسطيني الفعال في الصراع حتى ١٩٦٥ . ولكن بعد ١٩٦٧ سقطت تلك العلاقة الثلاثية الابعاد لظاهرة العدو ، غير ان هذا السقوط لم يكن على مستوى الشعار السياسي بل ظهر بطريقة واضحة اكثر على مستوى التطبيق . فالعدو المباشر اصبح عدوا حاليا بسبب احتلاله للارض ، واصبحت الاقطار العربية دولا للمواجهة ودولا للمساندة ، واصبحت العلاقة بينهما قريبة للعلاقة بين اليهود في اسرائيل واليهود في الشتات ، فالاول يحارب ويأخذ القرار والاخر يدفع المال لتدعيم دافع الدم . وكان لذلك اثاره البعيدة كما ظهر فيما بعد .

وهكذا فالفرضية الثانية هي ان الاقطار العربية ، من حيث كونها في الممارسة دولا قومية ، ولو من حيث الشكل ، ارادت مجموعة منها ، بسبب مجموعة من العوامل الجيوبولتيكية ــ الايديولوجية ، ان تضيق من هامش الممارسة الفردية للدولة ــ كدولة قومية ــ لصالح الممارسة القومية الساعية لتكوين الدولة العربية الواحدة ، وكان الصراع العربي الاسرائيلي هو المجال والمدخل نحو تنفيذ هذه العملية ، وكانت المحاولات جادة للتقريب بين محور الحقائق ومحور الاماني القومية . وجاءت حرب ١٩٦٧ لتعظم من هامش الممارسة الفردية للدولة ، وذلك لاعتبار ١٩٦٧ هزيمة للقومية العربية في مواجهة الصهيونية . وهكذا اثبتت ١٩٧٣ ، كنصر للدول العربية الفردية ، الذي يفرض نهجا معينا للتسوية قائما على تعامل اسرائيل مع كل وحدة عربية بمفردها .

والفرضية الثالثة تتعلق بالمسألة الفلسطينية ، يقول فؤاد جابر : « كنتيجة لقوة المقاومة الفلسطينية المتنامية بعد ١٩٦٨ ، بالاضافة الى اثار نشاطها على امن الدول المحيطة باسرائيل ، فأن طبيعة وامتداد الوجود الفدائي في كل من هذه الدول ، اتجه الى ان يصبح مسألة داخلية مستمرة ، والوجود الفدائي ، نفسه اثبت انه عنصر عدم استقرار قوي في السياسة الداخلية »(٧) .

ومن ذلك المقطع ، نتقدم الخطوة الاولى نحو صياغة الفرضية الثالثة ، وذلك ان العمل الفدائي كان يحاول ذلك الهامش الناتج من الصراع بين القومية العربية وبين سيادة كل دولة على ارضها وما يفرضه ذلك من التزامات ، وكانت تلك الوضعية هي المدخل لمأساة العمل الفدائي وذلك طبقا للفرضية الثانية . فأن القومية العربية قد هزمت في ١٩٦٧ وظهرت الدول العربية الفردية ، وتراجع مفهوم الامن القومي العربي واصبح سائدا مفهوم الامن الوطني لكل دولة ، فكأن الفدائي قد ظهر ، تاريخيا ، متأخرا عن مرحلته التاريخية مرحلة التحرر الوطني القومي العربي .

ويقول نايف حواتمه «ان حركة المقاومة بكافة فصائلها ، مثلت امتدادا موضوعيا وسياسيا وطبقا لموقع حركة التحرر الوطني العربية وتناقضاتها . وهذا ليس بجديد ، فقد مثلت حركة التحرر الوطني الفلسطينية على امتداد التاريخ المعاصر امتدادا لواقع حركة التحرر الوطني العربية لكل تناقضاتها السياسية والايديولوجية والطبقية »(٨) . ويعلق د . صادق جلال العظم على ذلك المقطع بقوله « اننا

---

(٧) Fuad Jabber, the Arab Regimes and the Palestinian Revolution 1967-1971 **Journal of Palestine Studies**, Vol. II 2, winter 1973 p. 84.

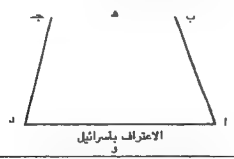
(٨) مقابلة مع نايف حواتمه ، **شئون فلسطينية** ، عدد/٥/ ، تشرين الثاني ١٩٧١ ص ٤٨ .

نجد في هذه الصياغة العامة والمقتضبة بالضرورة جوابا يقول ، أن حركة المقاومة انهزمت لانها كانت امتدادا ، بكل معاني الكلمة ، لحركة تحرر اعم واشمل منها كانت قد انهزمت في حزيران ١٩٦٧ ، وبما أن الاصل قد انهزم ، فلابد اذن للامتداد الذي تفرع عنه ان ينهزم ايضا ولو بعد فترة من الزمن ..ويبدو لي أن هذا التشخيص اقرب الى الحقيقة من غيره .... كما انه ينطبق بصورة افضل من غيره من التفسيرات المتداولة على واقع الكفاح الفلسطيني المسلح منذ بروزه حتى اليوم ... فالمسألة ليست مجرد مسألة الامتدادات التنظيمية الحزبية العربية الى داخل حركة المقاومة بل أن معنى الامتداد الذي يربط الحركتين اشمل واعمق وادق واكثر خطورة .. (فهو) التماثل القائم بين الطبيعة الطبقية لقيادات وكوادر وبرامج حركة المقاومة وتصوراتها الايديولوجية وبين الطبيعة الطبقية البرجوازية الصغيرة لمنشأ حركة التحرر العربية الام »[٩] .

وهكذا نتقدم اكثر من خطوة نحو صياغة الفرضية الثالثة ، فالى جانب التشابه الطبقي والايديولوجي بين حركة المقاومة وحركة التحرر الوطني ، فان المأساة الحقيقية تكمن في عنصر (الارض) غير المتوافرة والضروري لاية حركة ثورية [١٠] . وكان ذلك سببا في ان تحارب من ارض غير ارضها وذلك لسقوط فكرة الأرض العربية عمليا بعد ١٩٦٧ . فالفرضية الثالثة هي أن الفلسطينيين كانوا دائما موضوعا للصراع وليس فاعلا في الصراع ، منذ انشاء اسرائيل ١٩٤٨ حتى ١٩٦٥ (بروز فتح والقيام بأول عملياتها) ، واصبح الفلسطينيون ، بذلك ، بواسطة منظمة التحرير الفلسطينية ، فاعلا محتملا ، وذلك لغياب عنصر الارض ، وليس فاعلا حقيقيا في الصراع وذلك من منظور الدول العربية القطرية . وهكذا يمكن ان نفهم مقولتين اساسيتين في حركة المقاومة الفلسطينية ، اولها مقولة ياسر عرفات عندما نادى بأن المنظمة يجب أن تلعب فوق التناقضات العربية ، ومقولة المجلس الوطني الفلسطيني بأقامة السلطة الوطنية على أي ارض محررة .

وبعد صياغة الفرضيات الثلاث السالفة والتي تجمل طبيعة الصراع واسباب الصراع ونتائج الصراع ، يصبح التساؤل ، هو كيف نفهم علاقة هذه الفرضيات الثلاث بعضها مع بعض ؟ يجب فهم كل فرضية في ضوء الفرضيتين الاخرتين . فهذه الفرضيات الثلاث يوجد بها ثلاثة متغيرات . المتغير الاول هو اسرائيل الصهيونية، والمتغير الثاني هو الفلسطينيون العرب، والمتغير الثالث هو الدول العربية القطرية . ويمكن رسم تلك العلاقة بين هذه المتغيرات الثلاثة بيانيا كالتالي .

المرحلة الاولى حتى ١٩٦٥ وقبل ١٩٦٧ القضاء على اسرائيل



---

(٩) د . صادق جلال العظم ، دراسة نقدية لفكر المقاومة الفلسطينية ، دار العودة ، بيروت ، ط ا د/٣/١٩٧٢ ص ١٤ ــ ١٥ .

(١٠) راجع اسامة الغزالي حرب ، الحرب الثورية مفهومها وتطوراتها المعاصرة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٧٨ .

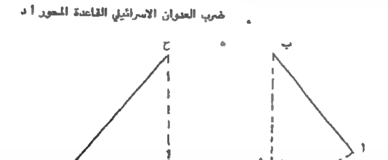
فالمحور ا ب : هو محور الحقائق المتمثل في مدى التوازن العربي ـ الاسرئيلي الذي جوهره توازن القوى المصري ـ الاسرائيلي ، والمتمثل في مدى التفسخ في الوطن العربي واخيرا في التوازن الدولي ، وهذا المحور من مظاهره الاعتراف بمقررات الامم المتحدة للتقسيم ١٩٤٧

والمحور ج د : هو محور الاماني الوطنية القومية بأستعادة الارض المحتلة بفلسطين العربية . وبلغ هذه المحور ذروته في التحقق مع بروز فتح ١٩٦٥

والمحور ا د : هو القاعدة المغذية للمحورين السالفين والمتمثل في استقرار النظم العربية الثورية وبزوغ نظم جديدة وخاصة في العراق وسوريا والعلاقات الوثيقة مع الاتحاد السوفييتي ، ونتائج الخطة الخمسية الاولى في مصر (المجتمع النموذج) ، وثورة اليمن .

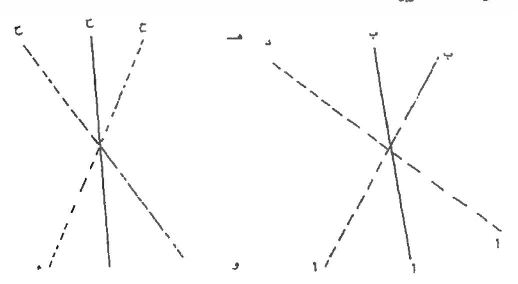
وكانت عملية هذا المثلث غير المكتمل الراس هو التفرقة بين وجود اسرائيل والمشكلات الناجمة عنها . فالقضاء على اسرائيل يفترض في البدء القضاء على المشكلات الناجمة عنها .

المرحلة الثانية ١٩٦٧ العدوان الاسرائيلي

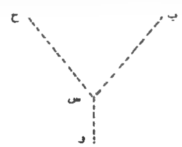


وكان من نتائج ضرب القاعدة المحور أ د ، أن اختلت العلاقة الحدية بين المحورين ا ب ، ج د ، وانتقل المحوران من مرحلة الحدية الموصلة للنقطة هـ الى مرحلة التوازي الذي تجمع بينهما النقطتان هـ و بدرجة علاقة واحدة ، وهذه مرحلة التوازي ، اطلق عليها مرحلة اللاحرب واللاسلم (مرحلة السكون) (راجع الفرضية الاولى) واصبح الامر يحمل نقيضين بدرجة متساوية ، اما الانتصار على اسرائيل او الاعتراف بأسرائيل . وسادت تلك الفترة في تمرير منطق الانتصار على اسرائيل على عوامل القوة الكامنة (الكمية) في الجانب العربي في المستقبل غير المنظور ، ولعبت اسرائيل على مدى صلابة الارادة السياسية للدول العربية الفردية لترجمة معطيات ١٩٦٧ الى حقائق سياسية مشروعة ومعترف بها .

المرحلة الثالثة اكتوبر ١٩٧٣



لقد جاءت حرب اكتوبر ١٩٧٣ كدافع للحركة واخلال توازي المحورين أ ب ، ج د ، واصبحت العلاقة احتمالية أما ان تصبح متفرجة وتتقابل عند (و) الاعتراف باسرائيل ، او ان ترجع حدية كما كانت في المرحلة الاولى (هذا من الناحية النظرية البحتة) ، ولكن واقعيا ، فالعلاقة وفقا للفرضيات السابقة سوف تصبح متفرجة ، ولكن الخلاف كان حول هل سيتقابل المحوران أ ب ، ج د عند النقطة (و) ام سيتقابلان عند نقطة اخرى غير (و) ، وهذه النقطة يفترض ان تتحرك النقطة (و) اليها وهي النقطة (س) وهي نقطة الحد الادنى العربي (جنيف)



وعند الوصول الى نقطة الضعف المتزايد لجنيف وذلك وفقا للفرضية الاولى ، بدأت في المنطقة ميكانزمات تسوية اخرى غير جنيف ، يطلق عليها الباحث ميكانزمات التسوية الفوضى ، والتي نقصد بها كما ذكرنا مرحلة التزامن في التحول السريع والمفاجىء في انتقال طرف من الصراع من موقع معروف الى موقع آخر مضاد مع عدم القدرة على منع تأثيرات ذلك التحول السريع والمفاجىء ومع عدم الاعتراف بشرعية ذلك التحول ولا نتائجه .

ثانيا : ميكانزمات الحركة نحو الفوضى :

انتهى القسم الاول الى استخلاص نتيجة هامة ، وهي ان التفاعلات في المنطقة العربية بعد ١٩٦٧ حتى دعوة جنيف للسلام ، كانت تتميز بأنها تفاعلات حادة في تركيب البنية العربية من حيث ارادة القتال ضد اسرائيل ومن حيث الامكانية الفعلية لها . ويعبر احمد بهاء الدين عن تلك الوضعية قائلا« المشكلة ان العقل العربي العام يريد من كل شيء احسنه ، ولا يريد أن يدفع ثمنه ، وبالتالي تقل فاعليته في توجيه الاحداث بالتدريج ، يرفض الاستسلام ولكنه يتركه يمر على اجزاء ، ولا يريد الرفض الكامل للعدو ، لانه لا يريد مثلا ان يوجع امريكا بطرد كل مصالحها تماما ونهائيا من العالم العربي كله حتى تضعها امام الاختيار الحاسم ولكنه يسب امريكا ويشتمها باكثر مما يشتمها الد اعدائها. ويفضل القتال والنضال لاسترداد الارض ولكنه لا يعبر عن رغبة حقيقة في دفع الثمن واحتمال التضحيات وتجميع القدرات وجعل الحرب على المستوى العربي كله حربا متصلة يقتنع العالم بحتميتها اذا لم يتغير موقف العدو . ورغم ان الشرعية معنا والاهداف معنا والقرارات الدولية معنا ولكن (تصديق العالم لنا) ليس معنا »[11] .

من هذا التعبير للعقلية العربية ، يتضح كما ظهر في القسم الاول من مقولات محمد سيد احمد ان العرب يضعون فعل الحرب مشروطا بفعل استرداد الحق ، بمعنى ان العلاقة بينهما علاقة عكسية ، بمعنى انه كلما ازدادت امكانية تحقق فعل استرداد الحق (الارض بعد ٦٧ وحقوق الشعب الفلسطيني) ضعفت امكانية الالتجاء الى فعل الحرب . ويمكن تفسير مجمل الاحداث في منطقة الشرق الاوسط من منظور تلك العلاقة . وعلى اساس تلك العلاقة قامت الفرضية الاولى

---

(١١) احمد بهاء الدين ، ابعاد في المواجهة العربية الاسرائيلية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، تموز ١٩٧٢ ص ٢٤٢

في القسم الاول (اكتوبر ـ جنيف) . ولكن ما حدث هو ان طرفا من اطراف الصراع وهو مصر ، رأى ان الطريق الى جنيف مرصوف بالعديد من العقبات ، ومن ذلك . اولا ، صعوبة الاتفاق على جدول اعمال المؤتمر . وقد ثارت بهذا الخصوص ثلاث عقبات اساسية (مسألة الانسحاب ومسألة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومسألة تطبيق السلام) . ثانيا ، الصعوبات التي تتصل بتمثيل اطراف الصراع في المؤتمر ، وبصفة خاصة قضية التمثيل الفلسطيني وقضية التمثيل العربي بين التوحد والتعدد . ثالثا ، الصعوبات التي تتصل بكيفية ادارة اعمال المؤتمر ، وبصفة خاصة هل تكون هناك لجان جغرافية ام لجان موضوعية . وبالاضافة الى ذلك كله ، بدا ان مواقف اطراف الصراع متباعدة للغاية ، واصبح من العسير التكهن بامكانية انعقاد مؤتمر جنيف اصلا ، وانه حتى لو انعقد فلن يؤدي الى نتيجة ، وربما نفهم من هذه الزاوية اشارة الرئيس السادات المتكررة الى ان مؤتمر جنيف ليس هدفا في حد ذاته ، وانه لا يتصور ان يلاقي ذلك المؤتمر المقترح نفس مصير مؤتمرات نزع السلاح العالمي التي امتدت جلساتها لما يزيد عن ٢٥ عاما دون ان تصل الى نتيجة محددة بخصوص القضايا محل النزاع . كانت هذه الصعوبات جميعها امام عملية اتخاذ قرار التوجه الى اسرائيل مباشرة ومخاطبة شعبها وقياداته لكي يقرروا لانفسهم ما يرون ، غير ان العامل الحاسم وراء هذا القرار ، وبالتالي تقييم ما تمخض عنه من نتائج انما يدور حول تصور الرئيس السادات لدور العوامل النفسية في الصراعات الدولية [١٢] ، وما يترتب على سوء الادراك المتبادل من تضخيم لابعاد الصراع وانحراف بمساره عن اية بوادر حقيقية للتسوية . لقد كان تقديره ان حرب اكتوبر قد ادت دورها الكبير في اسقاط جوهر نظرية الامن الاسرائيلي وتحدي جدار القوة العسكرية التي كانت تستند اليه في ادارة الصراع . ولكن كان ما يزال هناك جدار آخر يتعين تحطيمه اذا ما كان هناك سعي جاد من اجل السلام لكل شعوب المنطقة ، ذلك هو جدار الشك والمرارة المترسب عبر ثلاثين عاما من الحروب المستمرة . وفي ضوء ذلك كله كان القرار بمبادرة السلام ، في نوفمبر ١٩٧٧ ، لتجاوز جميع العقبات الاجرائية امام التسوية وازالة حاجز الشك والمرارة ، وتأكيد جدية المسعى من اجل السلام . ففي جلسة افتتاح دور الانعقاد العادي الثاني لمجلس الشعب المصري اعلن الرئيس السادات « انا امامكم وامام شعبنا وامام الامة العربية ، لا تهمني العمليات الاجرائية على الاطلاق ، فلتكن الاجراءات وليكن انفعال وهستريا اسرائيل ما يكون ... انا ذاهب الى جنيف ولن تستطيع لا اسرائيل ولا قوى العالم مجتمعة ان تثنيني عما اريد . سمعتوني اقول اني مستعد ان اسافر الى آخر هذا العالم اذا كان في هذا ما يحمي عسكري او ضابط من اولادي ... انا مستعد فعلا ان اذهب الى آخر العالم وستدهش اسرائيل حينما تسمعني الان اقول انني مستعد ان اذهب الى بيتهم الى الكنيست ذاته ومناقشتهم » . وكانت تلك هي اشارة البدء لمرحلة تاريخية حاسمة في المنطقة العربية كلها وتتابعت الاحداث حتى حمل السفير الامريكي في القاهرة نص دعوة لزيارة القدس[١٣] .

وبدات الخطوة الاولى نحو الفوضى . جوهر هذه الخطوة هو ابدال طرف المعادلة الثاني في معادلة (اكتوبر ـ جنيف) بحيث تصبح (اكتوبر ـ المبادرة) ، وهنا يختلف معنى الطرف الاول من المعادلة وتصبح فيه اكتوبر العربية ، اكتوبر المصرية ، وتنقل اكتوبر من واقعة

---

(١٢) راجع بصفة خاصة ، J. W. Eiseman, Reconciling «incompatible» Positions, journal of Applied Behavior, science vol. 14, no 2, 1978 Virginia U.S.A. pp. 133-150.

(١٣) مبادرة السلام : رحلة القرن العشرين ، توثيق وتحليل علمي ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ـ الاهرام ، يناير ١٩٧٨ . ص ص ٧ ـ ٥٨

متنامية محتملة يحدد على اساسها ثمن متنام محتمل الى واقعة محددة حدثت يحدد على اساسها ثمن محدد متوقع . وكانت تلك الخطوة خروجاً على المألوف من المنهج العربي لحل الصراع مع اسرائيل ، وكانت الخطوة الثانية هو رد الفعل العربي حيث انقسم الى ثلاثة انماط من الردود تتراوح بين رافض ومتحفظ ومؤيد ، والملاحظة الاولى على رد الفعل هذا ، ان الوطن العربي انقسم بطريقة قد تكون متساوية عدديا من حيث عدد الدول بين الانماط الثلاثة ، فالدول الرافضة هي العراق وسوريا وليبيا والجزائر واليمن الجنوبي ومنظمة التحرير الفلسطينية ، والدول المتحفظة هي السعودية والاردن والكويت والامارات العربية ، والدول المؤيدة هي المغرب والسودان واليمن الشمالي وعمان والصومال . والملاحظة الثانية ان الدول الرافضة عقدت اجتماعا لها في طرابلس ، في ١٩٧٧/١٢/٢ ، انتهى الى اصدار بيان في ٥ ديسمبر لم توافق عليه العراق . وهكذا انقسمت حركة الرفض ، ولم تطرح بديلا للسلوك المصري ، غير دعوة لاحياء الاساليب التقليدية في ادارة الصراع .

وكانت الخطوة الثالثة ، متمثلة في تصريحين للرئيس السادات في خطابه امام الكنيست ، اولهما ، التأكيد المتكرر والصريح انه لن تكون هناك حرب اخرى في الشرق الاوسط بمعنى الاتفاق على عدم الالتجاء الى القوة في تسوية الصراع ، وثانيهما الاعتراف القانوني والاخلاقي لاسرائيل في اقامة وطن قومي على ارض لم تكن ملكا لليهود .

ومن هذه الخطوات الثلاث ــ المبادرة وطبيعة الرفض العربي والاعتراف باسرائيل ، تشكلت الحركة الاولى لعملية الفوضى في المنطقة .

وكان افتتاح الحركة الثانية لعملية الفوضى في المنطقة ، بخطوة كمب ديفيد ، وهي محاولة لمنع سقوط ذلك التوجه المؤسس على الحركة الأولى ، وذلك لان سقوط ذلك التوجه الجديد في المنطقة يؤدي الى ارتداد عكسي لصالح المفاهيم والاساليب التقليدية في حل الصراع . فقد اثبتت تلك الخطوة بعد مؤتمر القاهرة التحضيري في ١٩٧٧/١١/٢٦ ولقاء الاسماعيلية في ١٩٧٧/١٢/٢٥ وزيارة كارتر لاسوان واجتماعات اللجنة العسكرية والسياسة في ١٩٧٨/١/١١ وزيارة الرئيس السادات لامريكا وعودة رحلات المكوك في ١٩٧٨/٢/٢٠ التي قام بها السفير المتجول اثرتون ، والاسئلة الامريكية التي وجهت الى الحكومة الاسرائيلية حول تصور الاخيرة لمستقبل الضفة الغربية وغزة ، ولقاء فينا في الاسبوع الثاني من شهر يوليو ومؤتمر ليدز في ١٩٧٨/٧/١٨ . واصيبت كافة تلك التحركات والاجتماعات بالفشل في دفع ذلك التوجه خطوة حقيقية بعد المبادرة ، فكان لقاء كمب ديفيد في ١٩٧٨/٩/٥ بالولايات المتحدة ، ذلك اللقاء الذي تم بين الرئيس السادات ومناحم بيجين رئيس وزراء اسرائيل ورئيس الولايات المتحدة الامريكية جيمي كارتر . وقد انتهى هذا اللقاء باصدار وثيقتين ، مثلت الوثيقة الاولى مجرد غطاء لا يرتبط بالوثيقة الثانية وهي خاصة بالانسحاب الاسرائيلي من سيناء . وكانت هذه الخطوة سببا في دفع المنطقة العربية الى دوامة حقيقية .

وكانت الخطوة الثانية هي مؤتمر بغداد الاول الذي جاء بعد مؤتمرات دول الصمود والتحدي (الرفض) ، وكان من اهم نتائجه وجود اتفاق بين مؤيدي الحل الامريكي (الدول المحافظة) وبين مؤيدي الوجود الامريكي المشارك في الحل دون الانفراد به (الدول الراديكالية) على عدم الضغط بصورة مباشرة على التنسيق الحركي المصري ــ الاسرائيلي ــ الامريكي بسلاح الاستعانة بالسوفييت . وتعتبر هذه النتيجة تراجعا عن منهج دول الصمود والتحدي الذي كان يرى ضرورة توثيق العلاقة بالسوفييت كمدخل ضروري لافشال الحركة المصرية ــ الاسرائيلية ــ الامريكية . ورغم

انه ، شكليا ، يعتبر التقارب العراقي ـ السوري ردا موضوعيا على التقارب المصري ـ الاسرائيلي ، الا انه موضوعيا لا يعتبر كذلك ، فانه كان يمكن ان يعتبر كذلك لو حدث منذ مؤتمر طرابلس في ديسمبر ١٩٧٧ ، الا ان العراق انشق عن هذا المؤتمر ، فما كان من سوريا الا ان انشقت موضوعيا وليس شكليا عن جبهة التحدي والصمود وذهبت الى العراق كمحاولة تجاوز الفرضية التي سادت في المنطقة بأن الحرب الاهلية اللبنانية كانت كافية للوجود الموضوعي لكامب ديفيد ، وذلك قائم على فكرة ان الصراع بين الاقطار الثورية في الوطن العربي يؤدي الى ارتماء المعتدلين خوفا من الاثار الجانبية للصراع في مجال المحور المصري ـ الاسرائيلي ، ولكن موضوعيا تم فعلا رغم تجاوز هذه الفرضية شكليا ، تمرير كمب ديفيد ، مؤشر ذلك طبيعة قرارات مؤتمر بغداد ، اذ ركز كليا على ضرورة معاقبة مصر ، دون وضع مخطط حقيقي ، لتجاوز هذا الظرف الموضوعي الذي شاركت فيه اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية . ويرجع ذلك الى عامل مهم جدا ، وهو الدور السعودي . ذلك ان السعودية ، كدولة تلعب دور الاقليمية المؤثرة ـ دون الامكانات الموضوعية الكافية لهذا الدور ـ رأت ان التنسيق الحركي المصري ـ الاسرائيلي ، يتضمن تهديدا فعليا لمكانتها في الوطن العربي ، فوافقت على اتجاه مؤتمر بغداد بمعاقبة قيادة مصر وعزلها عن الوطن العربي .

وجاءت الخطوة الثالثة لتتم الحركة الثانية في احداث عملية الفوضى الدولية في المنطقة متمثلة في احداث ايران وسقوط الشاه . فان احداث ايران تطرح معاني ومؤشرات جديدة تدل على تحول عميق في المنطقة . اهمها ، وجود نظام اسلامي على يسار المملكة العربية السعودية ، يدعي ان شرعيته مستمدة من قدرته على التعبير عن المسلمين والاسلام وينازع المملكة السعودية في ريادة العالم الاسلامي . وزاد من خطورة ذلك التنسيق بين الخميني ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وما يطرحه من احلال بديل مسلم غير عربي ، كمساند اساسي للحركة الفلسطينية وذلك لاول مرة منذ ثلاثين عاما .

وهكذا اكتملت الحركة الثانية في عملية الفوضى بثلاث خطوات ، كمب ديفيد ـ مؤتمر بغداد الاول ـ احداث ايران .وكان افتتاح الحركة الثالثة والاخيرة ، والتي تفترض بطبيعتها انها إعادة عرض بطريقة مختلفة للحركتين الاولى والثانية . وهذه الحركة الثالثة ليست مركبة او مكونة من خطوات من عمليات ساهمت فيها خطوات الحركتين الاولى والثانية ، فكان الافتتاح بعملية تقليص العلاقة الامريكية ـ السعودية ، وهذه العملية تعتمد على مفهوم السلام لدى اسرائيل ، حيث يقصد بالشرعية الاقليمية لديها ان تقبل دولة اسرائيل على انها دولة تنتمي عضويا الى المنطقة العربية ، لها ان تقول كلمتها بخصوص مشكلات هذه المنطقة وان تخلق العلاقات السياسية الدبلوماسية الكاملة وان تقيم العلاقات الاقتصادية الطبيعية مع جيرانها بقصد استغلال ثروات المنطقة ، وهذا الذي يمهد لاسرائيل تحقيق عنصر اساسي في استراتيجيتها ، هذا العنصر الذي يعني ان اسرائيل تمثل نموذجا « للدولة الاقليمية العظمى » التي تسعى الى ان يكون لها مجال حيوي في المنطقة المحيطة بها . ومعنى ذلك ان فكرة الشرعية لم تعد مرتبطة بوعد الهي ، ولكن ايضا لوقائع قائمة ، ولم تعد مقصورة على الحق في مجرد الوجود ولكن تتجاوز ذلك الى الحق في ان يكون لها دور بارز وربما قيادي في المنطقة (١٤) . ووفقا لطبيعة الصراع العربي الاسرائيلي ، كان دائما للولايات المتحدة الامريكية علاقات خاصة بعد ١٩٦٧ على جانبي الصراع . فهناك اسرائيل والسعودية والاردن ، ولكن الاهم هما

---

(١٤) مجدي حماد ، العلاقات الطبيعية في المفهوم الاسرائيلي ، **الموقف العربي** ، السنة الثانية ، العدد الرابع عشر ، يونيو ١٩٧٨ ص ٣٨ ـ ٣٩ .

اسرائيل والسعودية ، واسرائيل تريد ان تدخل مرحلة السلام ، ولا تكون للولايات المتحدة الامريكية علاقة خاصة مع دولة في المنطقة لها نفس القوة للعلاقة الخاصة الاسرائيلية ــ الامريكية ، فكان لا بد ان تكون احدى عمليات السلام الاسرائيلي تقليص العلاقة الخاصة الامريكية السعودية . وقد اختارت اسرائيل فعل التقليص وليس فعل الالغاء بسبب ما تمثله السعودية من مصلحة حقيقية للولايات المتحدة الامريكية ، فكانت اولى افعال هذه العملية محاولة احياء الرغبة في لعب دور الدولة الاقليمية المؤثرة لدى القوة التي تتوافر لديها الامكانات الموضوعية لذلك وهي مصر ، والتي تشترك مع السعودية في نهجها المحافظ داخليا وخارجيا ، وذلك عن طريق سيناريوهات تنمية القوة التي تؤهل مصر لاعادة لعبها هذا الدور . وهذه السيناريوهات قائمة على فكرة المركب (المصري ــ الاسرائيلي) .

والعملية الثانية في الحركة الثالثة هي عملية زرع عدم الاستقرار في المنطقة . وهذه العملية قائمة على فرضية ان تصفية الصراع الشامل يؤدي الى بروز التناقضات الثانوية والصراعات الكامنة بين اطراف كل فريق . فنجد تطبيقا لتلك الفرضية ان حواشي المنطقة العربية صارت تحظى باهتمام الاطراف العربية اكثر من اهتمام هذه الاطراف ببعضها ، كما ان الوطن العربي ــ ولاول مرة ــ يتمزق بصراعات داخلية غير محورية ، اما ان الحروب السائدة والصراعات القائمة تفشت بشكل لا يسمح بانشاء تكتلات عربية واسعة تحسم الصراع سلما أو حربا بل هي من النوع الذي يؤدي الى تفتيت العمل العربي الجماعي او شبه الجماعي . كما ان هذه الفرضية تفترض أن المنطقة تتعرض لمرحلة سيولة عالية الدرجة وهي مرحلة تميز عملية الفوضى الدولية السائدة في المنطقة .

كما ان العنصر الفلسطيني ، من منظور تلك الفرضية ، يلعب دورا فعالا في تحقيق عدم الاستقرار في هذه المنطقة مما يتيح للاستراتيجية الاسرائيلية ، لاول مرة ، ان تنقل عنصر عدم الاستقرار ، الذي اراد العرب ان يوجهوه الى اسرائيل وهو العمل الفلسطيني ، الى الساحة العربية ، وخاصة مع ما تتميز به عملية السلام المصري ــ الاسرائيلي من تحجيم الامال الفلسطينية في اطار الحد الادنى لهذه الامال . وهذه السياسة في عدم الاستقرار تشتد خاصة في اطار اختلال التوازن الدولي والاقليمي في المنطقة . ومن العرض السابق يتضح ان ميكانزمات الفوضى تتمثل في ثلاث حركات : ــ

● الحركة الاولى وهدفها : خلخلة النظام القديم . وتمت في اطار ثلاث خطوات . المبادرة ، طبيعة الرفض العربي ، الاعتراف باسرائيل .

● الحركة الثانية وهدفها : تفتيت النظام القديم . وتمت في اطار ثلاث خطوات . كمب ديفيد ، مؤتمر بغداد ، احداث ايران .

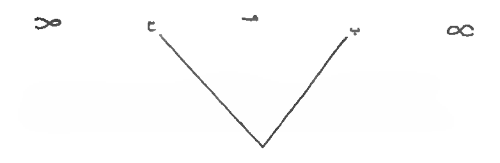
● الحركة الثالثة وهدفها : بذر بذور نظام جديد . في عمليتين : عملية تقليص العلاقة الخاصة السعودية/الامريكية ، وعملية زرع عدم الاستقرار في المنطقة العربية .

والسؤال الاتي : كيف يمكن التعبير عن ذلك بيانيا ؟

مرحلة المبادرة وكمب ديفيد : ــ



في هذا الشكل نجد حدوث اختلال لاول مرة في الاستراتيجية العربية تجاه اسرائيل فنجد محور الحقائق قد التقى عند (و) دون محور الاماني الوطنية والقومية حتى عند الفاعل العربي الذي ساهم في احداث محور ب و ، المحور الذي لا زال في مرحلة اختلال ولو شكليا ويريد ان يلتقي عند النقطة س التي يطلق عليها انها نقطة جنيف . ومن هنا يمكن ان نفهم معنى مصطلح (الصمود والتحدي) فهو صمود ضد النتائج والاثار الناتجة عن محور ب و والتي تتمثل في علاقة ∞ الدالة على التلاشي في اللانهائي وسيطرة النقطة (و) على عملية السلام . ويمكن ان نفهم معنى التحدي وذلك عند الرسم البياني للاستراتيجية الاسرائيلية الصهيونية .

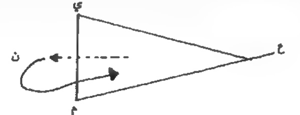


وهذه الاستراتيجية الدالة على ضرورة التقاء المحور ب أ ، والمحور ج د عند النقطة (و) بحيث يصبح المحوران ب و ، ج و ، وتحدث عملية التلاشي في اللانهائي بمعنى فقدان القدرة الذاتية للمحورين الاصليين ب أ ، ج د في تحديد اي مستقبل وخضوعهما للقدرة الذاتية للنقطة(و) في تحديد المستقبل .

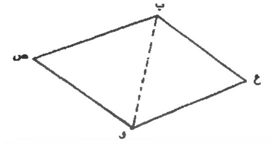
مرحلة زرع عدم الاستقرار : —



ومحور ب و يجري الان تاسيس مثلث مكتمل الزوايا عليه بحيث يكون ضلعاه ب ص ، و ص ، يلتقيان عند النقطة (ص) الدالة على مدى التعاون والتنسيق الاقليمي . وهذا المثلث لديه الحيوية والامكانية في اضواء العنصر (ن) الذي يشكل عنصراً عشوائيا . يريد المثلث ع م ي ان يوجهه الى المثلث ب ص و لتدمير المثلث . وعلى ذلك يكون الصراع متمثلا في الى اي مدى يكسب المثلث ع م ي العنصر ن النابع من المثلث قدرات وصفات تشكل عاملا عشوائيا وغير متوقع للمثلث ب و ص وبحيث تكون الحيوية المنتظرة لهذا المثلث غير قادرة على تعديل الشكل المثلث الى شكل ذي اربعة اضلاع ب ص و ن . كما ان العنصر ن في حالة عدم قدرته على تحطيم المثلث ب ص و سيكون في حالة ارتداد الى القاعدة المنطلق منها وهي المثلث ع ي م . ويشكل في حالة ارتداده عنصرا عشوائيا ويساهم في تحطيمه .



الهدف الامريكي : ــ ويتمثل الهدف الامريكي في الرغبة في جذب المحور ي م ليتماس مع المحور ب و الذي يمثل اساس التسوية (الحقائق) وبذلك يوجد احتمالان . اما ان يتحطم المثلث نتيجة للصراع بين قوة الجذب للمثلث ب ص و ، قوة الطرد للمثلث ع ي م لما بين المحاور الثلاثة في المثلث الاخير من عدم تجانس ، وأما ان يلتقي المثلثان ويشكلان الشكل التالي : ــ



وبذلك تكون مهمة هذا الشكل الرباعي الاضلاع هو التعاون الاقليمي الذي يكون هدفه هو افقاد العنصر (ن) كافة قدراته على الحركة وتحجيمه لينضم في النهاية ويشكل جزءا من المحور ب و .

خاتمة

يتضح مما سبق ان الصراع العربي ــ الاسرائيلي تحكمه مجموعة من الظروف الموضوعية ، المتعلقة ايضا بالصراع ذاته او باسرائيل او بطبيعة الدولة القومية في الوطن العربي ، تؤدي الى احداث فوضى في مجموعة العلاقات الدولية السائدة بين دول المنطقة ، ويلعب الدور المصري هنا مجرد المعجل لاحداث هذه الفوضى وليس خالقها او مسببها . واذا كان للباحث ان يرى ملامح المستقبل من خلال ذلك الركام المتساقط من البناء القديم ، يمكن تلخيص ملامح المستقبل في ملمحين اساسيين ، يشكلان القاعدة التي يبنى عليها سيناريو محصلة الفوضى : ــ

الملمح الاول : وهو يتعلق بمصير الدولة القومية القطرية في الوطن العربي ، وذلك لان قبول اسرائيل في المنطقة ، كدولة شرعية لها حق الوجود ، ينسخ من حيث المبدأ دعوى القومية العربية الساعية لتكوين دولة عربية واحدة ، ولكن ايضا من ناحية اخرى ، يعمل على تهديد تكوين الدولة القومية القطرية في الوطن العربي ، من حيث اعتبــار اسرائيل كاقلية عنصرية ودينية ، تتميز بقدرات اقتصادية عالية وممكنات سياسية مرتفعة متمثلة في طبيعة نظامها السياسي وفي نمط علاقاتها الدولية . وهنا تثار مشكلة الاقليات في الوطن العربي ، من حيث فتح باب المستقبل للمطالبة بحقها في تقرير مصيرها ، وذلك اتساقا مع الاعتراف بمشروعية الوجود الصهيوني بفلسطين والتعامل مع قضية الشعب الفلسطيني بأسلوب التعامل مع اقلية يجب منحها حقها في تقرير مصيرها .

وتثار مسألة مصير الدولة القومية القطرية من ناحية اخرى مرتبطة بازمة الطاقة التي يعاني منها النظام والمجتمع الدوليان ، وهناك في التفكير العربي الاستراتيجي سيناريوهات متعددة حول هذه المسألة وخاصة فيما يتعلق اساسا بالعراق والسعودية والسودان ، وهذا وفقا لما يطلق عليه الغرب « التفكير في مالا يفكر به » . كما تثار مسألة مصير الدولة القومية القطرية ، من زاوية ان الاعتراف باسرائيل سوف يصادر على مصدر هام من شرعية النظم القومية الثورية في الوطن العربي ، وخصوصا مع ذلك الازدهار الوقتي لاقتصاديات الدول العربية التي تتعامل مع اسرائيل ، كما يؤدي الى سقوط نظم سياسية قومية عربية عديدة في المنطقة .

الملمح الثاني وهو ما يتعلق بشكل النظام الدولي الاقليمي في المنطقة ، ويعبر ابا ايبان عن الفكر الاسرائيلي الصهيوني خير تعبير ، ففي مجموعة كتاباته التي نشرت في كتاب بعنوان « صوت اسرائيل » ، يعترض على الافتراض القائل بأن الشرق الاوسط يمثل وحدة ثقافية وان على اسرائيل ان تتكامل مع هذه الوحدة ، ويزعم ان العرب عاشوا دائما في فرقة عن بعضهم بعضا وان فترات الوحدة القصيرة كانت تتم بقوة السلاح ، ومن ثم فان التجزئة السياسية لم يحدثها الاستعمار وان روابط الثقافة والتراث التي تجمع البلاد العربية لا يمكن ان تضع الاساس للوحدة السياسية والتنظيمية . وهنا يمكن ان نفهم الدعوة الاسرائيلية بانشاء كمنولث شرق اوسطي ، تلعب اسرائيل فيه دور المدير العام لهذا التنظيم والضابط لايقاعه .وبذلك تتكون هناك مجموعة من الدول تمثل القلب للنظام الجديد ، وهي اسرائيل ومصر وسوريا والاردن والعراق (ان امكن) ، محاطة بمجموعة من الدول المساندة الصديقة الغنية وهي ايران والسعودية والكويت والعراق . ومن هنا التصور المبدئي لما يمكن ان يكون عليه النظام الاقليمي الدولي الجديد ، يمكن معرفة اية رياح تلك التي سوف تهب على المنطقة خلال السنوات الخمس القادمة على الاقل .

واخيرا ، تزداد الصعوبة وتتعقد المواقف أمام القوى الوطنية والقومية الرافضة للوجود الصهيوني في فلسطين ، مما يتحتم عليها ان تتدبر الامر عبر خطة طويلة الامد قائمة على رؤية صحيحة للحقائق الجديدة بغرض تغييرها .

بعد التطبيع السياسي

التطبيع الثقافي بين مصر واسرائيل

محيي الدين صبحي

كاتب وناقد . عمل سابقا رئيسا لتحرير مجلة المعرفة
ثم للنادي الثقافي العربي في دمشق

الاستقلال الثقافي هو الخطوة الأولى لنمو الوعي بأنواع الاستقلال الأخرى ، من استقلال سياسي واقتصادي وصناعي وعسكري . ومع الشعور بالحاجة الى الاستقلال ككل يتولد الشعور بالحاجة الى الوحدة العربية كضرورة عملية سواء في حالات التصدي للعدوان الاستعماري أو التنمية بفروعها المختلفة . وهنا أيضا يسعفنا الاستقلال الثقافي ببعث الوجدان القومي عند العرب ، لتطوير شخصية قومية حديثة تضرب بجذورها في أعماق تاريخنا المجيد لاستئناف اسهامنا في الحضارة البشرية .

تطبيع العلاقات الثقافية بين مصر واسرائيل يعني بالضرورة التنازل عن كل هذه الطموحات ــ وبالتالي الوقوع في التبعية الثقافية للفكر الصهيوني القائم على انكار الحضارة العربية في الماضي والوجود العربي في الحاضر وتطلعات العرب الى مستقبل أفضل . وتستلزم التبعية الثقافية الصهيونية ضرورة اعتناق فكر انفصالي ، مقاوم للوحدة العربية ، وتوجهات سياسية معادية للتحرر ، ومبادىء انهزامية تدعو الى سلسلة لا متناهية من التنازلات سواء عن الأرض أو الاستقلال أو الشخصية القومية .

فيما يلي دراسة هي محاولة في تقصي بواكير التطبيع الثقافي بين مصر واسرائيل ، وكشف آثارها في حقول المؤسسات الثقافية والتوجيه القومي والنتاج الأدبي .

في كل الدول الحديثة ، مهما كان نوع النظام الحاكم ، يتماشى الارشاد الثقافي مع التوجيه الاعلامي . الفرق بينهما أن الارشاد الثقافي ينضج على نار هادئة . لتكوين مواقف ثابتة في نفس المواطن . أما التوجيه الاعلامي فهو بمثابة « قراءة » سريعة للأحداث ، وتفسير مرتجل لها يستند الى القيم التي بثتها الثقافة من قبل . فكأن الثقافة هي الاستراتيجية والاعلام هو التكتيك في حقل العمل الفكري .

ولما كان الفكر الاستسلامي أبعد في العمالة من كل فكرة دخيلة تسللت الى النفس العربية في العصور الحديثة ، فانه فكر مقطوع الجذور عن النفس العربية عامة ، وعن الفكر المصري بخاصة . لذلك لم يجد مستنداً في الداخل سوى النزعة الاقليمية الانفصالية فأطلقها تعيث فساداً في أجهزة

الاعلام . ولم يغفل عن التوجيه التربوي في المدارس والتوجيه القومي في الجامعات فراح يخصص الساعات الطوال في المدارس لتشويه التاريخ العربي الحديث ، واعادة كتابته على أسس متوافقة مع النظرية الصهيونية في « حق » اليهود بفلسطين ، وفي تصوير الحروب العربية الاسرائيلية على أنها عدوان من الجانب العربي على الصهاينة « المسالمين » .

ولم يسلم من عملية الافساد الجانب التوجيهي في الدين ، فشوه أغراض الآيات الكريمة التي تجيز مسالمة العدو ، وسخر بعض أدعياء التدين للكذب على الله ورسوله في موقف الاسلام من العدوان على المسلمين ، والاعتداء على الاماكن المقدسة . كما تجاهل حقيقة ان اسرائيل عبثت بالقرآن الكريم وأعدت طبعة خاصة منه تخلو من الآيات الكريمة التي تعرض بلجاجة بني اسرائيل وماديتهم وجشعهم .

ولكن الجانب الاستراتيجي الآخر الذي لم يكشف النقاب عنه بعد ، هو أن مصلحة الاستعلامات في رئاسة الجمهورية المصرية تتولى مباشرة ترجمة الكتب الاسرائيلية من العبرية الى العربية ، دون تعليق ولا تنقيح . فقد صدر لمناحيم بيغن ، وعنه ، عدد من الكتب الصهيونية المحضة . نخص منها بالذكر كتاب فيكتور مالكا « بيغن : التوراة والبندقية » . وجاء على غلاف الكتاب « البيغنية . هي العمل الذي يقوم به رجل في محاولة لدفع التاريخ والسيطرة عليه » .

ان احلال « البيغنية » محل الناصرية في مصر لا تظهر فقط خواء الفكر الحاكم واعتماده على الصهيونية لتدعيم مواقفه الاستسلامية ، وانما تطلعنا أيضا على خطورة الغزو الفكري الذي تحاول السلطة فرضه على مصر . ان الغزو الثقافي المتمثل بصهينة مصر ، أخطر مؤامرة على الشخصية القومية العربية منذ محاولة فرنسة المغرب العربي .

أصبح واضحا الآن أنه كان لدى الحكم المصري ، منذ بدايته مخطط ثقافي واعلامي متكامل ، قوامه القضاء على الخط الفكري القومي ــ التحرري الذي أرساه الرئيس جمال عبد الناصر بالتعاون مع المثقفين القوميين واليساريين ، منذ بداية ثورة يوليو الى وفاته . وقد بدأ السادات عملية القضاء على الفكر القومي التحرري بالقضاء على الجناح السياسي الذي كان يمثله علي صبري . فلما واجه أزمة في المحررين والمفكرين عمد الى انقاص عدد الصفحات في الجرائد اليومية ، والغاء بعض المجلات الاسبوعية والشهرية ليحرم المثقفين من وسائل النشر . وأرفق كل ذلك بحملة ارهاب اعتقل فيها عشرات الكتاب والصحافيين لكنه أنهى هذه الحملة ، على الطريقة الاسرائيلية ، بأنه كان يفرج عن كل كاتب يعلن عن رغبته بمغادرة مصر ، الى ان فرغت مصر ، أو كادت ، من حملة الأقلام « الخطرة » . وخلال ذلك أتم الحكم تنظيم جهازه الاعلامي على النحو الذي نراه اليوم ، بحيث انه حين قام رئيس مصر بمبادرته في ١٩/١١/١٩٧٧ وزار القدس تحت الاحتلال الاسرائيلي ، لم يكن بحاجة الى أي تغيير في جهازه الاعلامي من حملة الأقلام الذليلة المشبوهة التي ظلت ترافقه الى ١٩٧٩/٣/٢٦ يوم توقيع اتفاقية الاستسلام .

ولكن اذا كان الامكان ملء أجهزة الاعلام بالمرتزقة والمستوظفين والانتهازيين، بعد التخلص من الصحافيين الشرفاء ، فان الجو الثقافي بدا أكثر مقاومة . اذ لا يمكن للنظام الحاكم ان يقضي على التراث الوطني في مصر ، والقيم الفكرية التي أرسى دعائمها مفكرون أصلاء منذ أيام رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده . فقد ترسخ في ضمير الأجيال ان مصر معقل العروبة ، وحصن الاسلام ، وقاعدة العالم الثالث

لمحاربة الاستعمار والصهيونية ، ورائدة الأمة العربية الى التحرر والاشتراكية والتصنيع والوحدة : بحيث صار من الصعب أن ينشأ شاعر او روائي اوقصاص أو ناقد أو مسرحي أصيل خارج هذه المنظومة من القيم . لذلك عمد النظام الى تفكيك الأجهزة الثقافية والغائها . فبدأ بالغاء « هيئات الكتاب والسينما والفنون والآداب » حسبما جاء في صحيفة الأهرام ١٩٧٨/١١/٣٠ : « تضمن المشروع بأن يلغى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وكذلك تلغى الهيئة المصرية العامة للكتاب ، والهيئة العامة للسينما والمسرح والموسيقى ، والهيئة العامة للفنون والآداب ، وتؤول اختصاصاتها التنفيذية الى المجلس الأعلى للثقافة والفنون » .

هذا المجلس الأعلى سمي فيما بعد « المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والاعلام » . وقد شكله السادات بمرسوم نشرته « الأهرام » في ١٩٧٨/١٢/١٤ على أن يكون المجلس تابعا لرئيس الجمهورية مباشرة ، وباشراف الدكتور محمد عبد القادر حاتم . كل هذه التدابير جاءت تبريراً لخطوتين هدامتين قام بهما النظام على صعيد الغاء الثقافة : أولاهما أنه الغى وزارة الثقافة ، على الرغم من أن اللجنة البرلمانية للثقافة طالبت بالاجماع فصلها عن الاعلام وتدعيمها . والخطوة الثانية أنه الغى المجلات الثقافية المصرية جميعها بحجة أنها خاسرة ماليا . علما بأن كل المجلات الثقافية العالمية خاسرة ماليا ، وتحظى بالدعم من المؤسسات الرسمية أو من الشركات أو من المخابرات. لكن الحكم حريص في عصر الانفتاح والديمقراطية على تهديم الثقافة العربية تمشيا مع المخطط الاسرائيلي . ففي مقابل التقتير على الكتاب المصري والكتاب المصريين ، نجد على الجانب الآخر انفاقا بغير حساب على الكتب الاسرائيلية المترجمة الى العربية ، بحيث يمكن ايجاد كتاب اسرائيلي كل أسبوع يعرف بالدين اليهودي ، أو بالتقاليد أو بالأدب أوحتى بالفكر الصهيوني . وأبرز ما صدر في هذا المجال طبعة لكتاب مناحيم بيغن « التمرد » ، وربما جاءت ترجمته رداً على ترجمة كتاب السادات « البحث عن الذات » الى العبرية .

في مقابل هذا « الكرم » على الفكر الاسرائيلي نجد تشهيراً بالكتاب المصريين والعاملين في الحقل الفكري ، على النحو التالي :« حدثت مفاجأة قبل صدور قرار الغاء المجلات الثقافية ، فقد قدم سعد الدين وهبة نفس المذكرة التي رفعها الدكتور رشاد رشدي رئيس تحرير مجلة « الجديد » الى نائب الرئيس ، وتتضمن ان مجلة الجديد توزع ٨٠٪ من أعدادها ، وتم تحويل المذكرة الى وزير الثقافة ، ثم الى وكيل الوزارة الذي عرضها على مجلس اتحاد الكتاب مرفقة بتقرير عن حال المجلات ، وثبت أن الجديد توزع ١٢,٦٪ من جملة أعدادها ، وأنها خسرت ما يقرب من ١٣٠ الف جنيه منذ صدورها حتى الآن ، وتليها مجلتا الكاتب والثقافة . وبلغت جملة الخسائر ما يقرب من ربع مليون جنيه . وتم التصويت في مجلس اتحاد الكتاب على الغاء هذه المجلات وضمها الى المجلس . بأغلبية ١٢ ضد ٣ أصوات » . هذا الخبر ، بهذه الصورة المشينة ، نشرته مجلة أكتوبر .

ان هذه التخبطات ان دلت على شيء فانما تدل على خوف الحكم من الأدباء ، وعجزه عن محاولة احتواء الكتاب القوميين التقدميين . ففي النهاية ، ومنذ البداية لم يقف الى جانبه سوى نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ، من بين كل الكتاب المصريين المعروفين على مستوى عربي . الا أن طروحات هذين الكاتبين تمثل اجتهاداً شخصيا أكثر مما تعبر عن خط فكري قادر على التصدي للقيم القديمة القومية والدينية الراسخة على مر العصور .

هذه المهمة تصدى لها بشكل استفزازي تحريضي طاقم مجلة أكتوبر برئاسة أنيس منصور وقد

اقتصر عمله خلال ثلاثين عاما مضت على أن يكون في صحافة المنوعات في جرائد المساء ، وكاتب رحلات و « بلاي بوي » فكري للمجلات الاسبوعية تجاوز دور الأنيس والنديم الذي يتقنه ، وهو يحاول أن يكون للسادات ما كانه ذات يوم حسنين هيكل للرئيس عبد الناصر ، أو أحمد بهاء الدين للفكر القومي في مصر .

ان قطع الأواصر القومية ، والاستخفاف بالوحدة العربية كهدف للنضال ومصير للأمة ، عن طريق استنفار الاقليمية المصرية ، والحط من قيمة الشعوب العربية الأخرى — ان ذلك كله هو الغاية والوسيلة في مجلة أكتوبر . فمثلا ، للسخرية من فكرة الوحدة ، يكتب فايز حلاوة مطالبا بالغاء عطلة عيد الوحدة في ٢٢/٢ من كل عام . وهي الوحدة السورية المصرية التي قامت في ١٩٥٨ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم سقطت تحت ضربات الرجعية العربية والمزايدات التقدمية والمؤامرات الغربية — الصهيونية . وها هو فايز حلاوة يضرب فيها بسهامه الكليلة . فيقول (في اكتوبر ٢٥/٢/٧٩) : « اعشق ايام الاجازات وخصوصا اذا كانت بدون خصم . أحب يوم الجمعة ويوم الوقفة وعيد النصر وعيد الخرفان وايضا عيد الفطر . ولكنني لا أحب أبدا هذا العيد المسمى بعيد الوحدة . ولقد كانت الأعياد أيام زمان تتخذ شكلا من اشكال الاحتفال والمهرجان . أما اضحوكة العصر الحديث فهي ذلك العيد الوهمي المسمى بعيد الوحدة والذي تعطل فيه اعمال المصالح والدواوين ويسرح الابناء والمدرسون . وأنا أبحث يا سادة في كافة المعاجم والقواميس ودوائر المعارف والقراطيس عن معنى تلك الوحدة فلا أجد الا ما سبق أن طبعوه لنا على ظهور الكراريس من وصايا وحكم وامثال « الوحدة خير من جليس السوء » أو كما قال : ولقد جربنا الوحدة مع سوريا واليمن وليبيا فعلمنا منها وتعلمنا ان الوحدة هي الطريق الصحيح الى معاشرة جلساء السوء » .

يتلو هذا المقطع تعريض بشجاعة الجيش السوري . واتهام لقدراته القتالية . يكتب فايز حلاوة هذه الافتراءات في الوقت الذي نشرت مجلة أكتوبر في عدديها ١٥/٤ و ٢٢/٤/١٩٧٩ قصة لكاتب اسرائيلي لم تذكر اسمه (وبالتالي فقد يكون الكاتب مصريا) بعنوان « عين الصحراء » تتحدث عن جنديين ، اسرائيلي ومصري ، تعاونا في عدوان ١٩٦٧ ضد ... الصحراء ، على النحو التالي : « الجندي المصري (حسن) والجندي الاسرائيلي (دون) يدونان على رمال سيناء قصة الكفاح المشترك ضد العدو المشترك » . ومهما يكن من أمر ، فان مقالات فايز حلاوة تمضي في الحديث عن الشعب السوري بشتائم تحقيرية لا يصح نقلها ولكنها على كل حال مستمدة من كتابات كاتبين آخرين تخصصا في ضرب مفهوم الوحدة من خلال العودة الانفصالية الى تشويه الوحدة السورية المصرية . هذان الكاتبان هما د . سيد نوفل الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية سابقا ، وزهير الشايب الذي نشر طول العام الماضي في مجلة اكتوبر رواية على شكل مذكرات متسلسلة عن تجربة معلم مصري عاش في حماة أيام الوحدة . وهذا التكنيك الروائي اتاح له فرصة خبيثة لكي تضم روايته الشتائم المتبادلة بين الانفصاليين من الاقليمين .اما المناضلون الوحدويون الذين قاوموا الانفصال وضحوا بأموالهم وأرواحهم لاعادة سوريا الى الخط الوحدوي ... اما ايمان الرئيس جمال عبد الناصر بأن الوحدة قدر لا بد منه ، فقد عميت عنه بصيرة الروائي . على أن وجود روائي لا يرى من الحقيقة العربية الا جانبها السلبي مضخما ، ليس أمرا غريبا ولا جديدا . العجيب المذهل أن رجلا كالدكتور سيد نوفل ، عمل في الجامعة العربية لمدة ثلاثين عاما ووصل في اواخرها الى منصب امين عام مساعد ، انضم الى جوقة انفصاليي مصر ، وبدأ في مطلع العام (١٩٧٩) ينشر مذكراته التي تدور حول

الاستخفاف بالعمل العربي والتيئيس منه وهو يستعرض تجربة التضامن العربي ضمن الجامعة وكأنها مسرحية من مسرحيات العبث غير المعقول :

فتأسيس الجامعة العربية كان ، في رأي الأمين العام المساعد ، ملهاة من ملاهي الخيال . « لا ريب أن مشكلة العمل العربي منذ بداية الأربعينات حتى اليوم ، هي الخلافات المزمنة : المستترة حينا والظاهرة حينا . وقد دعت مصر الى أول ملهاة للوحدة العربية في ربيع ١٩٤٢ . واستمر تمثيل فصولها في القاهرة والاسكندرية عامين . . وكان من سخرية الاقدار أن تتفق الدول العربية السبع المساهمة في هذه الملهاة ، على تسميتها : « محادثات الوحدة العربية » ، فمباحثات الوحدة العربية ملهاة من ملاهي الخيال ونتائجهـا كانت مأساة من مآسي الواقع الأليم وان لم يكف تجار السياسة عن الابتزاز باسمها ..فهذه المباحثات لم تنتج منظمة وحدوية ، وانما انتجت منظمة اقليمية للتعاون الاختياري أو مؤتمرا سياسيا ، تحفظ فيها الدول الأعضاء استقلالها وسيادتها تامين ، وتلتزم أدبيا بما يوافق عليه فقط من قرارات ، وتنفذ القرارات حسب نظمها وأوضاعها أو رغباتها .. وقد أدى الى ذلك ذات الخلافات العربية والمداخلات الأجنبية التي نعاني الآن منها» (« اكتوبر » ١٩٧٩/٥/١٣) .

ان المرء ليتساءل بدهشة : أبمثل هذه السطحية يمكن عرض الظواهر المتناقضة في السياسة العربية آنذاك ، دون أخذ تاريخ المنطقة بعين الاعتبار ، ودون أي نظر الى الصراع الفرنسي ــ البريطاني في المنطقة ، أو الغزو الصهيوني ــ الأمريكي لفلسطين ومناطق النفط والقواعد العسكرية التي تتحكم في المحكومين والحكام وهل يكون الرجل جاهلا الى هذا الحد أم سخيفا الى هذا الحد ، لكي يعرض الأمور بمثل هذه السطحية والابتذال ؟

لا ريب في أن لهذا القلم ماريا آخر سينكشف اذا تتبعنا طريقة عرضه المشوهة لأهم الأحداث التي مرت بها الأمة العربية : « ومن ملاهي الوحدة دخول العرب حرب فلسطين الأولى في عام ١٩٤٨ . بلا اعداد ولا تنسيق مسبقين . ومن ملاهي الوحدة توقيع معاهدة الدفاع العربي المشتـرك في ١٩٥٠/٦/١٧ . ومن مآسيها معارضة العراق والأردن ثم انضمامهما اليها تآمرا عليها من الداخل .. وباسم الوحدة العربية خاضت مصر الحرب وضحت بالأموال وأثارت الازمات ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل . وذلك من أجل قضايا فلسطين وتحرير بلاد المغرب والجنوب اليمني وامارات الخليج .. ولهذا تعرضت للعدوان الاسرائيلي البريطاني الفرنسي في ١٩٥٦/١٠/٢٩ .. لكن الملهاة الكبرى والمأساة المروعة كانت ملهاة الوحدة المصرية السورية في مطلع ١٩٥٨ ومأساة الانفصال السوري عن مصر في خريف ١٩٦١..وفي هذه السنوات أثقلت مصر كاهلها وعطلت مسيرة التنمية فيها بالأزمات السورية المتلاحقة والابتزازات التي تتصاعد نهما .. » .

ان الغرض من هذه الطريقة الاستعراضية المهزوزة هو اظهار العرب بمظهر الاختلاف الأبدي الذي لا يرجى له علاج وكذلك اظهار مصر بمظهر المتضرر من كل علاقة لها مع العرب . وهذا بدوره يقود الى النتيجة المنطقية الأولى بأن من الخير لمصر ان تنعزل عن العرب وأن تحل مشكلاتها بنفسها ــ مما يفضي الى ايقاع الاعتقاد في نفوس القراء بأن الاتفاق مع اسرائيل أفضل وأهون من الاتفاق مع العرب . وهذه هي المقولة التي يسوغ بها الحكم عملية استسلامه للعدو الصهيوني وللمخططات الأمريكية ولا ريب في أن من المستحيل نشر مثل هذه الأفكار الاقليمية الهدامة دون ان ينبش انفصاليي مصر من قبورهم .

وقد كنا نتساءل عن أسباب عجز الجامعة العربية عن أية مبادرة بناءة ، وعن تخاذلها عن اتخاذ خطوات ايجابية بسيطة على الأصعدة الثقافية والاقتصادية ، وها نحن نكتشف بعض الأسباب لذلك من خلال وجود مسؤولين مثل سيد نوفل على قمة هرمها الوظيفي . فقد عمل فيها ثلاثين عاماً دون أن يؤمن بأهدافها القومية في تحرير العرب وتوحيدهم وتطويرهم ، بل كان يفهم جهودها لتحقيق تلك الأهداف من خلال مقولتي الملهاة والمأساة .

التطبيع الادبي بين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ

الاديب ضمير الأمة ولسانها . لذلك فان الأدباء الأصيلين هم المقاومون الحقيقيون لأي غزو ثقافي . ومما يدل على مغزى كبير في المقاومة الأدبية للتطبيع الثقافي أن كاتبين فقط ، بين مئات الاقلام الطليعية التي تزخر بها مصر العربية ، هما اللذان استجابا لدعوة السادات في التطبيع الثقافي . ومن اللفت للنظر أيضاً ان الكاتبين قد أحيلا على التقاعد الادبي وفقدا كل تأثير منذ مدة طويلة . لم يبق لهما من الروح الطليعية التي كانت تميز انتاجهما السابق سوى ذكرى تقابلها الأجيال باحترام لم يعودا يستحقانه.ومع ذلك فان الأسباب التي قدماها لتسويغ استجابتهما الى دعوة التطبيع الأدبي تنم اما عن سذاجة أو عن تضليل .وفيما يلي مناقشة لاقوالهما .

في ٧/٥/١٩٧٩ أجرى المذيع الاسرائيلي أميل خزعل مقابلة مع توفيق الحكيم أذيعت من راديو اسرائيل . في المقابلة ، تحدث توفيق الحكيم عن ترحيبه بالسلام ، وقال إنه « حادث يتصل بالأديب والشاعر لانه حدث يتصل بالقلب والمشاعر » .

وبما أنه عين حديثاً رئيساً لاتحاد الكتاب ورئيس تحرير لمجلة « المثقفون » ، فقد أعطى التوجيه ــ عبر اذاعة اسرائيل ــ الى كتاب مصر بأن يبشروا بالسلام والمحبة للصهيونية:«..أما الكتاب والشعراء ، فان وظيفتهم هي تمهيد الجو للسلام ، عن طريق المشاعر . فلا قيمة للمواثيق والمعاهدات دون احساس ومشاعر طيبة . هذه هي وظيفتنا الان في كل البلاد التي كانت متباعدة بالأمس وأصبحت قريبة اليوم. فلنبدأ العهد الجديد بالمحبة، بعيداً عن الشك والخوف والعداوة». ولكن هل خطر على بال « الحكيم » ان المحبة تتحول الى مأساة ان كانت من طرف واحد ؟ ومن الذي يزرع الشك والخوف والعداوة ان لم يكن هم الاسرائيليون الذين يقومون بغزو لا نهائي واستيطان بلا حدود ؟ .

قد يبدو توفيق الحكيم طوباويا في تطلعاته ، لكنه كان واقعيا تمام الواقعية حين سأله المذيع الاسرائيلي: « وهل توجد بوادر من هذه المشاعر في مصر ؟ » فأجاب : « لا توجد بوادر واضحة ، لان الوقت ضيق جداً . وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن الشعب المصري شعب مسالم ، وشعب سلام . وأعتقد أنه سيصدر عنه دائما أدب يعبر عن تلك المشاعر » ولـم يفت المذيع الاسرائيلي أن يسأل الكاتب السابق توفيق الحكيم عن رأيه في مواقف الدول العربية ، امعانا في بث التفرقة ، وتأصيل انحراف النظام المصري عن الخط القومي العام . وكان جواب الحكيم انفصاليا بلباقة . غير ان لباقته لا تستطيع اخفاء انحرافه : « أنا كتبت عن الحياد . لانه من لوازم السلام أن تكون كل دولة حرة في اختيار ما يصلح لها ولمستقبلها ويكون في صالح ظروفها . وحتى في العائلة الواحدة ، عندما يستقل فرد بنفسه لا يسمح لأخيه بأن يتدخل في شؤونه ، برغم المودة التي تجمع بينهما . والحياد عندي هو حياد في التصرف السياسي ، وفيما يتعلق بشؤوننا التي تعنينا فقط . وقد وجدنا ان بعض الدول تعمل على حل مشاكلها على حسابنا وحساب حريتنا . والعدل هو أن يكون الانسان فيما يختص بذاته حرا

في تقدير مصالحه . وعليهم أن ينظروا لمصالحهم أولا ، ثم ينظروا الى مصالحنا بعد ذلك . هذه هو مفهوم الحياد عندي » .

بعبارة أخرى ، يقول توفيق الحكيم ان الدول العربية لا علاقة لها بتصرفات مصر . فاذا تساءلنا : وما جدوى الوحدة القومية ، والمصير القومي المشترك ؟ فلا بد ان يكون جواب الحكيم نفيا لوجود رابطة او مصير قوميين . هذا هو مضمون الكلام الذي تحتويه اجابته . ومن ناحية اخرى ، فاننا لو اخذنا بكلام الحكيم الى نهايته ، لوجدناه يتضمن الموافقة على تفتيت ذري لكل فئات الشعب . اذ يصبح من حق كل فئة ان تتصرف بما يحلو لها ، وبما تراه مصلحتها مهما كان مضرا بمصالح الفئات الأخرى . ينطبق هذا على مختلف الطوائف والطبقات في مصر مثلما ينطبق على بقية الأقطار العربية . فهل يوافق الحكيم على تجزئة مصر احتراما منه للوقوف على الحياد ؟ .

اما عن علاقة أبا ايبان — وزير خارجية اسرائيل السابق — بتوفيق الحكيم ، فيذكر هذا الأخير ان ايبان « كان له الفضل في ترجمة رواية « يوميات نائب في الأرياف » الى اللغة الانكليزية عام ١٩٤٧ . ... لقد أصبحنا شريكين في كتاب ثم فرقت بيننا ظروف الحرب . وأرجو — بعد السلام — أن يعاد طبع هذا الكتاب ، ونكتب له مقدمة مشتركة ، أنا وهو ، نتحدث فيها كيف ان حملة الاقلام اضطروا الى الابتعاد » .

اضطروا الى الابتعاد ! هل هي قصة حب وهجر وفراق ؟ أم انها قضية غزو وتشريدواستيطان ؟ كيف يمكن للحكيم ان يختزل علاقته بأبا إيبان ضمن هذه الحدود الفردية الضيقة ، وهي القصة التي تصلح — اذا ما اعطيت كامل أبعادها — لان تكون رمزا لعدوان الحركة الصهيونية وأطماعها وشراهتها التي تعصف بكل القيم الانسانية في سبيل مصالحها الشوفينية الضيقة ؟ وهل يحق لتوفيق الحكيم ان يتناسى قصة مصر مع جاحد مثل ابا ايبان : جاء الى مصر قبيل الحرب العالمية الثانية ، فأوته مصر واكرمت مثواه ، وسهلت له جهوده العلمية التي كان يتخفى وراء ردائها ، فاذا به يتنكر لكل ذلك الكرم المصري الأصيل ، والشهامة والتسامح العربيين ، فينتقل الى فلسطين ليقاتل الجيش المصري ، وينذر حياته وفكره لتكريس العدوان على العرب ، في الأمم المتحدة ومختلف وسائل الاعلام الغربية والصهيونية : في العدوان الثلاثي على السويس عام ١٩٥٦ ، في حرب حزيران ١٩٦٧ ، في حرب تشرين ١٩٧٣ . ثلاثون عاما من العدوان على العرب ومحاولة اذلالهم ، كان خلالها أبا إيبان الفكر الذي يسوغ العدوان واللسان الذي يزين للعالم تقتيل العرب وتشريدهم واقتطاع أراضيهم ، والصوت العالي الذي يتواطأ مع دوائر الاعلام الاستعمارية على تغطية قرقعة المدافع وهزيم الطائرات وأزيز الصواريخ . ولو أن أبا إيبان من « حملة الاقلام » لأبصر ما تنطوي عليه قعقعة السلاح من أنين الجرحى وصيحات الثكالى وبكاء الأيتام والايامى — لكنه من حملة السلاح وليس من حملة الاقلام . وهذا ما ينساه توفيق الحكيم او يتناساه في حديثه الى راديو اسرائيل ، بل يضيف عليه انه يطالب باستئناف العلاقة بين « حملة الاقلام » فهل يرضى أبا إيبان بذلك ؟ وكيف ستكون هذه العلاقة ان لم تكن علاقة التابع المهان بالغازي المستبد ؟ وقد رأينا صورة عنها في العلاقة بين مسؤولي البلدين .

افتتح الروائي نجيب محفوظ عام ١٩٧٦ بتصريح مشهور في صحيفة « القبس » الكويتية طرح فيه بشكل صارم مقولة التنازل عن جزء من الارض مقابل السلام قال : « ماذا يريد هؤلاء الناس هل يريدون استمرار الحرب الى مالا نهاية ... الا يعلمون ان الحرب ضد الحضارة والمستقبل ، وأن

السلم هو الذي يبني الحضارة ويبني المستقبل ؟ ان على العرب ان يدركوا هذه الحقيقة ، وأن يخرسوا كل أصوات المزايدين التي ترتفع مطالبة بالمواقف المتطرفة واستمرار الصراع . انني أريد السلام ، وأقبله حتى لو اقتضانا التنازل عن جزء من الأرض . فالأرض لا قيمة لها في ذاتها . الأهم هو الهدف . ويجب أن يكون هدفنا هو بناء الحضارة . نحن نضحي بالانسان وندفعه الى الحروب ليقتل من أجل الهدف . فلماذا لا نضحي بالأرض اذا كانت هذه التضحية ضرورية لتحقيق الهدف الأكبر ، وهو . السلام من أجل بناء الحضارة ؟ » .

المدقق في حديث نجيب محفوظ يجد أنه قد تضمن مفردات رصفت فيه من غير معنى ، كقوله « الحرب ضد الحضارة والمستقبل » . بالتأكيد ، الحرب عمل وحشي ، وبالتالي فهي ضد الحضارة . ولكن لماذا تكون ضد المستقبل ؟ الحرب لا تكون ضد المستقبل الا اذا افترضنا أن العرب سوف يخسرون كل الحروب التي يخوضونها في المستقبل . وهذا تفكير ميتافيزيقي أشبه بالتنجيم .

وأما أن « السلم هو الذي يبني الحضارة ويبني المستقبل » فهو تعميم فاسد . اذ ان أكثر من نصف المخترعات البشرية قد اخترعت أثناء الحروب أو من أجلها ــ ثم نقلت الى استعمالات سلمية ، والعكس صحيح .

ومن ناحية أخرى ، فان اسرائيل استفادت من حالة الحرب لتخلق شعوراً بالمواطنة كان مفقوداً بين اليهودي البولوني واليهودي الالماني أو الامريكي أو اليمني أو المغربي .. كما استخدمت اسرائيل الحرب لتشد الأواصر بين اليهود في فلسطين ويهود «الشتات» المنتشرين في أنحاء العالم. وأخيراً فقد استخدمت اسرائيل الحرب لتشد اليها مشاعر العالم الغربي بأكمله ، وتمنعه من تفهم حقيقة عدواناتها المستمرة على العرب بغية الغزو والتوسيع وهددت كل كاتب يخالف دعاواتها المغرضة بأن تتهمه بتهمة الفاشية .

على الجانب العربي ، كانت مكاسب الحرب ــ ولو أنها خاسرة ــ أكثر من ان تحصى . فقد كشفت للعالم حقيقة العدو الصهيوني وحقوق الشعب الفلسطيني ، ودمجت القضية العربية بالقضية الفلسطينية أكثر من أي وقت مضى. وشدت الينا الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي وشعوب العالم الثالث . كما أن الحرب أيقظت في العرب احساساً ملحاً بضرورة الاسراع في التحديث والتعمق في العلوم التطبيقية وانشاء الصناعات ، مما أدى الى ضرورة التحول الاشتراكي والاصلاح الزراعي والحرب هي التي حولت الشعور القومي الذي استيقظ في مطلع القرن في اتجاه الوحدة بصورة عملية ملحة تجلت في مناسبتين رائعتين هما قيام الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، والتضامن العربي الرائع كما أظهرته حرب تشرين المجيدة ــ وهي الحرب التي جعلت مصير العالم معلقاً بارادة العرب . كل هذا، والحرب مفروضة على العرب يخوضونها دفاعا عن أراضيهم تارة ، وعن بحارهم وممراتها تارة أخرى ، وعن أجوائهم ومياههم .. وأخيرا عن خيامهم التي طردهم اليها الاسرائيليون !

ان موقف نجيب محفوظ مماثل لموقف توفيق الحكيم . كلاهما يشجب الحرب متجاهلا ان الاسرائيليين هم المعتدون. وهذا يعني انه يوافق الخرافة التي نشرها الاعلام الصهيوني والغربي في ان العرب هم المعتدون أو هم الذين يرفضون السلام .

وأما قوله بأن « الأرض في ذاتها لا قيمة لها ، الاهم هو بناء الحضارة » فهو قول ينطوي على

مغالطة لا يتقصدها ، سوى مجنون أو خائن وأعتذر للقراء عن استعمال هاتين الصفتين الاخيرتين لكنني لا اجد سواهما للتعبير عن تضليل بهثل هذا الحجم ، يقوم به واحد من كبار الأدباء في العربية ، علماً بأن مهمة الاديب هي توعية الأجيال بسلم القيم القومية لتقديم رؤية عن مصير الأمة في مستقبلها ، كما فعل دوستويفسكي وتولوستوي وديكنز ، ومن قبل هوميروس والمتنبي والمعري ولم نشهد أحداً من المفكرين والادباء أو الأنبياء والزعماء والثوار ، دعا أمته الى التخلي عن أرضها بدعوى ان الهدف هو بناء الحضارة . لأن الحضارة تبنى على الأرض ، ومن مواردها ــ فاذا خسر شعب ارضه ومواردها ، فبماذا يبني حضارته ، وأين ؟

الرد الصهيوني على هذا السؤال يتلخص في أن للعرب أراضي شاسعة ، ولا يضيرهم في شيء أن يتخلوا عن بعضها . وهم حين يحاسبوننا على أرضنا القومية يحسبون علينا مساحات الصحاري في الربع الخالي وبادية الشام والصحراء الغربية في مصر وصحراء سيناء ، وصحراء ليبيا والجزائر والسودان ... لكنهم حين يجتاحون بلادنا غازين ، بهجراتهم الاستيطانية ، لا يتنازلون بالسكنى في هذه المساحات الشاسعة القاحلة ، وانما يختارون الشريط الساحلي الضيق الخصيب الصالح للزراعة . حدث هذا الاختيار حين استعمر الفرنسيون الجزائر « واستحلوا » مناخها ، فطردوا الجزائريين الى الصحراء . ولما اكتشف موسوليني أن عدداً من الرومان اقاموا لبضعة قرون في ليبيا بدأت عملية استيطان الأراضي الليبية على الشواطىء الخصيبة في طرابلس وبنغازي . وحين توغل الطليان في الداخل أقاموا في الواحات والسهول . أما الصحراء فقد دفع اليها عرب ليبيا دفعاً وبقوة السلاح . فقاتلوا الى أن تمكنوا من طرد الغزاة في ليبيا والجزائر .

ومنذ أيام طرح مصير « اللاجئين الفلسطينيين » في الكنيست الاسرائيلي ، واستحال اجراء أية مناقشة بسبب صيحات النواب الاسرائيليين : « ليذهب الفلسطينيون الى السعودية » ــ وهو التعبير الحديث والديبلوماسي للمخططات الغربية الاستراتيجية التي توضع منذ الحروب الصليبية الى اليوم تحت شعار : « ليذهب العرب الى الصحراء » .

ان الاسرائيليين يعرفون أنهم جاؤوا الى المشرق لطرد العرب منه . لكن نجيب محفوظ لا يعرف . أو يعرف ويتجاهل . وبدلا من أن تكون مهمته الأدبية تتضمن الحرص على الأرض والتحريض على تحريرها باعتبار ان الوطن هو أثمن ما تملكه الأمة نجده ينادي بالسلام « حتى لو اقتضانا التنازل عن جزء من الأرض » وفي هذه الجملة فكرتان خطيرتان ، أولاهما اقرار مبدأ التنازل عن الأرض . وهو مبدأ لم تقره أمة من الامم في عصور التاريخ كلها من قديمة وحديثة ، لان الوطن التاريخي لأية أمة هو ملكية قومية عامة ليس من حق الحكومات او الافراد أو الأحزاب أو المراحل ان تجعل هذه الملكية موضع مساومة أو تسوية . قد تحدث كوارث في تاريخ الأمة فتضطر تحت ضغط هزائم متوالية تاريخية تجاه قوة قاهرة الى الانسحاب عن جزء من أرضها ، كما حدث للمكسيك تجاه الولايات المتحدة الأمريكية في القرن الماضي ، وكما حدث لليونان تجاه الغزو التركي الكاسح في القرن الخامس عشر ، وكما حدث للأرمن على يدي الاتراك في مطلع هذا القرن ، وللايرلنديين على يدي الانكليز منذ القرن الثاني عشر . غير أن هذه الكوارث جميعها أخفقت في دفع أية أمة الى الاقرار بالتنازل ، أو التسليم بالتخلي عن ملكيتها القومية ، مهما كان الأمر الواقع شائناً أو مثبطاً او ميؤوساً منه . فأحقاد المكسيكيين القومية طرحت بأقصى حدة على العالم خلال زيارة الرئيس الأمريكي كارتر للمكسيك في نهاية عام ١٩٧٨ . فالاستقبال الذي أعده له المكسيكيون لم يخل فقط من مظاهر الترحيب . وانما

تضمنت خطبهم وكلماتهم ومواقفهم من التقريع والتعريض ما لم يسبق له مثيل بين دولة ودولة . كل هذا والمكسيك بلد متخلف ، ومجاور لبطش أعتى قوة عرفها التاريخ في العالم . وما زال الايرلنديون في ثورة مستمرة لا يعرف أحد في العالم الغربي كيف يعالجها . لأن الانكليز استوطنوا شمالي الجزيرة الايرلندية منذ قرون ، فلا انسحابهم ممكن ولا خضوعهم للسيطرة الايرلندية ممكن ــ علماً بأن الايرلنديين فقدوا لغتهم واندمجوا في المجتمع الانكليزي منذ قرنين . وعلى الرغم من أن مهارة الأرمن وحيويتهم وتمدنهم قد مكنتهم من الازدهار والتعايش مع كل الأمم التي استضافتهم الا ان ذلك لم يمنح نفوسهم راحة أو عزاء عن ارضهم القومية واستقلالهم المفقود . بل انهم حتى حين ينالون جنسية البلد المضيف فانهم يعتبرون الجنسية منحة سياسية لتسهيل اقامتهم ، أما وطنهم وقوميتهم فلا علاقة لهما بالظروف السياسية . وما يزال اليونانيون يحيون بعضهم بعضاً في الاعياد القومية بجملة « العام المقبل في القسطنطينية » على الرغم من أن القسطنطينية سقطت في يدي السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣ وصار اسمها « اسلامبول » منذ ذلك الحين الى الآن .

وهذا بدوره يذكرنا بأن اليهود ظلوا ثلاثة الاف عام يريد واحدهم للآخر : « العام القادم في أورشليم » ــ علماً بأن اسمها « القدس الشريف » أو « بيت القدس » منذ الف وثلاثمائة وثمانين عاماً . وقد جندت أوربا طاقاتها الروحية والمادية خلال ثلاثمائة عام . منذ مطلع القرن الثاني عشر الى بدايات القرن الرابع عشر ، لاحتلال فلسطين وقد اكتسحت الجيوش الصليبية على طول الشاطىء السوري من انطاكية الى اللاذقية الى حيفا وعكا والقدس ، فلم يهلع أجدادنا ولم يخوروا . لم يظهر فيهم أديب مثل نجيب محفوظ ينادي بالتخلي عن الأرض أو يدعو الى التنازل أمام العدو الغازي باسم الحضارة ــ علما بأن العرب كانوا هم المتحضرين وكان الاوربيون شعوبا همجية بالقياس الى حضارة العرب ومدنيتهم . لكن أجدادنا ــ باسم الحضارة ــ وجدوا ان من واجبهم الصمود والتحرير . لقد حدثت هدنات ومعاهدات بين العرب والصليبيين ، لكنها جميعها لم تتضمن فكرة التنازل عن جزء من الأرض . لقد ظل « التنازع » على أي جزء من الأرض العربية جوهر العلاقة بين العرب والصليبيين في حالتي الحرب والسلم الى ان تم تطهير القدس الشريف من الغزاة ، وعادت الى العرب ارضهم كاملة غير منقوصة .

ولو لم يفعل العرب ذلك ، ولو لم يقوموا بطرد الصليبيين لكان الصليبيون هم الذين أجلوا العرب عن أراضيهم وحلوا محلهم فيها . لأن الوطن التاريخي قطعة لا تتجزأ . فالتنازل عن أي جزء من الأرض لا بد أن يتلوه تنازل عن جزء آخر . وهكذا الى النهاية المحتومة لأحد الطرفين المتنازعين .

كما أن اسرائيل لا تخفي أن حدودها المأمولة تمتد من الفرات الى النيل . وهي تعتبر كل جزء تحصل عليه من الأرض العربية بمثابة تمهيد للحصول على جزء آخر : قبلت بحدود التقسيم عام ١٩٤٧ ثم وثبت فاقتطعت مساحة اكبر من الأرض التي خصصها لها قرار التقسيم . وفي ١٩٦٧ احتلت أراضي تعادل عشرة أمثال مساحتها فأعلنت قيام « اسرائيل الكبرى » . وهي ما تزال ماضية في مشاريعها الاستيطانية الى اليوم . بل انها فسرت حتى « الحكم الذاتي للفلسطينيين » في الضفة الغربية بأنه ينطبق على السكان ولا يشمل الأرض ، لأن الأرض هي « أرض اسرائيل » !

ثم انها لم تكتف بكل ذلك فها هي تعمل على تقسيم لبنان ولئن سكت العرب عليها في لبنان عادت الى تهديد سوريا . وليس الأردن أو نفط السعودية بمنجاة من أطماعها ، بل ولا حتى سهول المغرب أو جبال الأوراس . أليس جابوتنسكي ــ معلم بيغن ــ هو القائل : « لو أن دولة حديثة نشأت في أقصى

المغرب العربي لكان في ذلك تهديد لنا».أما مناحيم بيغن ، الحائز على جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٧٨ فانه يقول : « أنتم الاسرائيليون . يجب الا تأخذكم شفقة أو رحمة عندما تقتلون عدوكم . يجب أن تقضوا عليه حتى ندمر ما يسمى بحضارة العرب التي سوف نشيد على انقاضها حضارتنا » .

حين يدعو نجيب محفوظ العرب الى التنازل عن أرضهم في سبيل الحضارة ، فان ما يدعو اليه بالضبط هو قيام حضارة يهودية على انقاض الحضارة العربية وعلى أرضنا القومية التي امتلكناها عبر التاريخ بشجاعة أمتنا وعدم تنازلها عن اي شبر منها .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

موسوعة السياسة

المؤلف الرئيسي

رئيس التحرير

د. عبد الوهاب الكيالي

شارك في التحرير

ماجد نعمة	د. محمد عمارة	طارق البشري
د. لبيب شقير	د. عبد الملك عودة	د. ذوقان قرقوط
د. يوسف شبل	د. عبد الرحمن منيف	مسعود الخوند
محمد يوسف القرعي	ماهر كيالي	جيروم شاهين ...

مدخل الى دراسة :

موقف الصهيونية واسرائيل من القومية العربية والوحدة العربية

أسامة الغزالي حرب
أمل رياض الشاذلي

باحثان في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في « الاهرام » . لكل منهما كتابات وكتب في المواضيع الاسرائيلية والصهيونية .

على الرغم من الأهمية الفائقة لهذا الموضوع ، اي موقف الصهيونية واسرائيل من القومية العربية والوحدة العربية ، فان الدراسات التي تتناوله هي جد قليلة ، بل ونادرة . هناك دراسات عديدة عن القومية العربية والوحدة العربية ، وهناك ايضا ـ ومنذ منتصف الستينات على وجه الخصوص ـ دراسات وابحاث قيمة حول الصهيونية واسرائيل من جوانب متعددة ، ولكن قليلة هي تلك الدراسات حول العلاقة بين الظاهرتين. فالكتابات حول القومية العربية والوحدة العربية ، نادرا ما تتناول الصهيونية او اسرائيل ، سواء كعنصر حافز او معوق ، إلا في شذرات قليلة متنافرة . وبالمثل ، فان الدراسات حول الصهيونية واطماعها في المنطقة العربية ، اوحول السياسة الخارجية الاسرائيلية او الاستراتيجية الاسرائيلية ، لا تتضمن هي ايضا موقف هذه السياسة او تلك الاستراتيجية من القومية العربية او الوحدة العربية ، على نحو تفصيلي * . وانطلاقا من تقدير اهمية هذا الموضوع ، فان الدراسة الحالية يمكن أن تكون مدخلا أوليا لدراسته على نحو أكثر تفصيلا واتساعا، مدخل قد لا يقدم ـ في كثير من جزئيات الدراسة ـ الجديد ، ولكنه يهدف الى تقديم إطار عام ، وتحليل علاقات ، كأرضية للدراسة الشاملة والعميقة لهذا الموضوع الهام .

في ضوء هذا الهدف يتحدد إطار التحليل الذي تتم من خلاله معالجة هذا الموضوع على اساس الفصل بين كل من « محددات « النظرة الصهيونية للقومية العربية والوحدة العربية ، « وملامح وابعاد » تلك النظرة ، ثم « السياسة الاسرائيلية » وقضية الوحدة العربية ، وذلك في مباحث ثلاثة متوالية . ومع ان هذا التقسيم يقوم في جوهره على اساس « موضوعي » ، الا ان ذلك لا ينفي المعيار

---

* إن كتاب مايكل بريتشر « نظام السياسة الخارجية الاسرائيلية » يتحدث باسهاب عن تصورات العقدة الاسرائيلية التقليدية للعرب وللشخصية العربية ، ويقسمها الى البوبرية (نسبة الى مارتن بوبر) والبن جوريونية (نسبة الى بن جوريون) والوايزمانية (نسبة الى حاييم وايزمان) . ولكن لا يخفى هنا ان « الصورة القومية » للعرب أو « الشخصية القومية » شيء ، والقومية العربية شيء آخر . بل إن هناك انتقادا هاما لتلك التصورات بأنها لا تمثل حتى « صورا قومية » بقدر ما تمثل « استراتيجيات مختلفة دعا الى تطبيقها اعضاء الصفوة الاسرائيلية تجاه العرب » أنظر في هذا السيد ياسين : **الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلي والمفهوم العربي** (القاهرة . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام . ١٩٧٤) ص ١٢٣ .

التاريخي في ترتيب تلك العناصر بشكل عام . وعلى سبيل المثال ، فان التعرف على محددات الموقف الصهيوني ربما يتعلق اكثر بالعقود الأولى للصهيونية المعاصرة ، في حين ان السياسة الاسرائيلية تجاه قضية الوحدة العربية ترتبط ــ بداهة ــ بالفترة المعاصرة ، وهكذا .

اولا : محددات النظرة الصهيونية للقومية العربية والوحدة العربية

يقصد بمحددات النظرة الصهيونية للقومية العربية والوحدة العربية ، تلك العوامل الكامنة في طبيعة الحركة الصهيونية ، وفي طبيعة اطماعها في فلسطين ، والتي كان لا بد وان تشكل وتحدد نظرتها للقومية العربية والوحدة العربية . ان كلا من الطابع العنصري والاستعماري والاستيطاني للحركة الصهيونية مسائل تتناولها عديد من الأبحاث والدراسات ، ولكن يظل من الضروري الاشارة اليها ، ففي تلك الخصائص للحركة الصهيونية يكمن تفسير نظرتها للقومية العربية والوحدة العربية ، مثلما يكمن تفسير نظرتها لكافة الوقائع والافكار المرتبطة بها .

١ ــ المحدد الاستعماري ، والارتباط بالقومية الاستعمارية :

إذا كان من الصحيح ان الفكرة الصهيونية هي وليدة بيئة اوروبية معينة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فان احد الملامح التي ميزت تلك البيئة في الفترة المذكورة انما كانت هي ذلك التحول الذي طرا على فكرة القومية ، فربط العظمة القومية بعجلة التوسع السياسي والامبريالي ، وافسح المجال لممارسة سياسة استعمارية تقوم على اعتبار « الأجناس المتفوقة » حاملة الرسالة التمدينية الى الأجناس المتأخرة. وكما يقول مكسيم رودنسون فان «الفلسفة التي كانت قائمة في اوربا انذاك قامت على اعتبار كل رقعة من الأرض تقع خارج ذلك العالم (أي اوروبا) خالية ، ليس من السكان بالطبع ، بل بكونها تؤلف نوعا من الفراغ الحضاري ، وبذلك تصبح ملائمة للاستعمار »[١] .

وعلى ذلك ، فان وجود فلسطين كاحدى الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية لم يؤلف عقبة كبرى امام المشروع الاستعماري الصهيوني . بل لقد ادرك هرتزل منذ البداية ان حجة « الحق التاريخي » في فلسطين لا قيمة لها من الناحية القانونية والدولية ، وكما هو معروف ، فقد احتلت مسألة وجود « براءة » تخول لليهود استيطان فلسطين منزلة هامة في الأفكار والممارسات السياسية للصهيونية منذ قيام الحركة وحتى صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ . وعلى غرار الامتيازات الاجنبية التي حصلت عليها الدول الأوروبية في الامبراطورية التركية ، حاول هرتزل الحصول على براءة تمنح اليهود حق الاستيطان في فلسطين ، وتحايل باكثر من وسيلة لتحقيق ذلك[٢] .

والحقيقة هي ان هذا السعي للحصول على اذن او براءة لاحتلال فلسطين ، انما عكس ــ في واقع الأمر ــ عجز الحركة الصهيونية بذاتها عن تحقيق اطماعها ، وحاجتها ــ بالتالي ــ الى الاعتماد على قوى كبرى لتحقيق اهدافها . في هذا الصدد صاغ ماكس نوردو المبدأ العام للسياسة الخارجية الصهيونية في عبارته : « ان امانينا واطماعنا تشير الى فلسطين مثلما تشير البوصلة الى

---

(١) مكسيم رودنسون ، اسرائيل والرفض العربي (القاهرة : الهيئة العامة للاستعلامات ، بدون تاريخ) ص ١٠ .

(٢) د. اسعد رزوق ، الصهيونية وحقوق الانسان العربي ، الجزء الاول (بيروت : مركز ابحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٦٨) ص ١٢٨ ــ ١٣٨ .

الشمال . لذلك يتوجب علينا توجيه انفسنا شطر تلك الدول التي تخضع فلسطين لنفوذهـا وسيطرتها »[٣] .

وليست مجهولة هنا عبارات هرتزل في « دولة اليهود » : « فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يمكننا نسيانه . ومجرد الاسم هو صرخة جامعة عظيمة . لو يعطينا جلالة السلطان فلسطين ، نأخذ على عاتقنا ادارة مالية تركيا كاملة مقابل ذلك ، ونقيم هناك جزءا من حائط لحماية اوربا في اسيا ، يكون عبارة عن حصن منيع للحضارة في وجه الهمجية ، ويتوجب علينا كدولة محايدة ان نبقى على اتصال مع أوربا ، التي ستضمن وجودنا بالمقابل »[٤] .

ولقد حاول هرتزل ، في الفترة التي سبقت عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل التقرب من الاطماع الامبريالية الألمانية الى درجة كبيـرة ، مع استغلال الاهتمام الأوربي انذاك بمصير الامبراطورية العثمانية . وبدا ذلك واضحا من العروض المغرية التي تقدم بها هرتزل الى رجال الامبراطورية الالمانية لجعل فلسطين « محمية المانية » تنعم بعطف المنشأ الأصلي ، وتعلن الولاء الاسمي للباب العالي . وكتب الى الامبراطور غليوم في خريف عام ١٨٩٨ « الحركة الصهيونية الحاضرة حركة عصرية بكل معنى الكلمة ، تنشأ من اوضاع الحياة الماضية وظروفها ، وتهدف الى حل المسألة اليهودية على اساس المجالات التي يتيحها عصرنا »[٥] .

وعندما تواترت الانباء عن المشروع الفرنسي ــ الروسي الرامي الى اصلاح مالية تركيا تخوف هرتزل من أن يؤدي ذلك الى « قطع الطريق الى فلسطين » . وخاطب اللورد سالزبوري ليعرض عليه الخطة الصهيونية مبينا أن « وجود الاستعمار اليهودي في الشرق يفتح امام السياسة البريطانية افاقا جديدة»، وصور هرتزل الحل الصهيوني من زاوية المصالح البريطانية ،أي«أن قيام الدولة اليهودية في فلسطين يؤمن ايجاد طريق جديد الى الهند يكون اقصر في نظر بريطانيا »[٦] .

ولقد ظل الاعتماد على قوة كبرى خارجية ــ في نظر اليمين الصهيوني على وجه الخصوص ــ هو الحل الأساسي للتناقض مع العرب. وكما يعبر عن ذلك جابوتنسكي : « إن معنى وعد بلفور والانتداب بالنسبة لنا ، هو ان قوة غير محلية القت على نفسها تعهدا بخلق ظروف ادارة وامن في البلد ، يمكن معها منع السكان المحليين من القيام بأي محاولة لعرقلة نشاطنا ..... وكلنا ... بدون استثناء ، نطالب هذه القوة الخارجية بتنفيذ التزاماتها بصرامة وشدة »[٧] .

---

(٣) د. اسعد رزوق ، **الصهيونية وحقوق الانسان العربي** ، الجزء الثاني (بيروت : مركز ابحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٦٨) ص ٦٦ .

(٤) هرتزل ، دولة اليهود في : **الفكرة الصهيونية النصوص الاساسية** ــ سلسلة كتب فلسطينية رقم ٢١ (بيروت : مركز ابحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، يونيو ١٩٧٠) ص ١٢٠ .

(٥) د. اسعد رزوق ، **المرجع السابق** ، الجزء الاول ، ص ٤٤ ــ ٤٨ .

(٦) **المرجـع السابق** ، ص ٤٧ ــ ٤٨ .

(٧) صبري جريس ، اليمين الصهيوني: نشأة وسياسة وعقيدة في **شؤون فلسطينية** عدد ٦٨/٦٩، ابريل ــ مايو ١٩٧٧ ، ص ٤٢ .

ب ـ المحدد العنصري ، والتلاعب بالعداء للسامية :

لم تكن العنصرية شيئا جديدا ، ولم تكن ايضا المشاعر العنصرية لدى اليهود بالتحديد هي ايضا شيئا جديدا ، ولكن ما كان جديدا في اوربا القرن التاسع عشر هو الثوب العلمي الذي اسبغ عليها . وقابل ذلك ايضا ظهور عمالقة الصهيونية على المسرح الاوروبي . كان المجتمع البشري في ذلك الحين قد وصل الى نقطة الانطلاق في التقدم ، وظهرت الهوة السحيقة بين انجازات الرجل الأبيض ، والعجز المخيف لبقية البشرية.ومثل كل العنصريين وجد الصهاينة ضالتهم في «نيتشه»الذي عبر في مناسبات عديدة عن اعجابه الشديد بالدين اليهودي . وقد كان هرتزل واحد هاعام من تلاميذه الصهاينة . وفي حين ناقش هرتزل معلمه في تمجيد القوة ، فتش احد هاعام في كتاباته عن افكار التفوق العرقي[٨] . وفي تعليق شهير لأحد هاعام على كتاب نيتشه « إعادة تقييم القيم » يرى احد هاعام ان اليهودية سبقت النيتشوية بعدة قرون بفكرة الرجل اليهودي المتفوق ، الرجل التقي الصديق ، الذي هو غاية في حد ذاته ، والذي خلق العالم من اجله . وكما ان نيتشه حاول ان يبرهن على ان ظهور الانسان المتفوق يؤدي الى ايجاد الشروط الضرورية لظهور الامة المتفوقة ، فان احد هاعام استنتج « ان هذه الفكرة تفتح افاقا واسعة تظهر اليهودية من خلالها بثوب جديد وفاخر »[٩] . ايضا فان افكار سيزار لامبروسو (ذو المساهمات العنصرية في علم الجريمة) أثـرت بشكل خاص في ماكس نوردو (المساعد الأيمن لهرتزل) الذي وصف لامبروسو بقوله : « انه اضخم ظاهرة عقلية في هذا القرن » ، وحاول نوردو في كتابه « الانحلال » ان يثبت ان الانحلال « ليس الا انحرافا مرضيا عن النموذج الأصلي » .

لم يكن غريبا اذن ان اقدم الصهاينة على اقتفاء خطوات « رابطة الجامعة الجرمانية » التي مثلت التعبير التنظيمي عن الحركة الالمانية عام ١٨٩٠ ، فاسسوا بدورهم وكما هو معروف ـ جمعية اسرائيل الفتاة للطلاب اليهود الالمان في برلين . ومثلما قامت الجامعة الجرمانية على الفكرة القائلة بان جميع الاشخاص المنحدرين من العرق الجرماني او تربطهم قرابة الدم او الأصل الجرماني ، حيثما وجد هؤلاء والى اي دولة كان انتماؤهم يكون ولاؤهم الأول نحو المانيا ، ويجب ان يصبحوا مواطنين في الدولة الالمانية الشاملة ، او وطنهم الأصلي ، فقد نسج هرتزل ونوردو على نفس المنوال ، في اعتبار يهود العالم اجمع امة واحدة يجب ان يكون ولاؤها الأول والأخير للدعوة الصهيونية ، لان الصهيونية في نظرهما تؤلف جوهر اليهودية . وانطوت حركة الجامعة اليهودية على طراز فريد من الامبريالية القائمة على عنصرية شديدة التعصب[١٠] .

واذا كانت الفكرة الجوهرية التي حركت الحركة الصهيونية هي ان العالم يشتمل على امم مختلفة في نزاع دائم ، وان هذا النزاع بلغ مستويات لا تطاق حين وصل الى اليهود ، الذين اصبحوا عناصر غير مرغوب فيها واهدافا سهلة ، بسبب عدم وجود وطن لهم ، فان تلك الفكرة بالضبط هي ما كان يبشر بها العنصريون الأوربيون . ان رفض النظام الدولي ، والأخوة الانسانية ، والحكومة

---

(٨) خالد القشطيني ، **الجذور الايديولوجية للعنصرية الصهيونية** ، من ابحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونية بغداد ١١ ـ ١٣ نوفمبر ١٩٧٦ (غير منشور) ص ٥ .

(٩) المرجـع السابق ، ص ٦ .

(١٠) د. أسعد رزوق ، المرجع السابق ، الجزء الاول ص ٤٠ .

العالمية ، والانصهار التدريجي للقوميات والمناطق ، كل هذه افكار مشتركة في كلتا الحركتيـن . وقد وصل تطابق الآراء بين الصهيونية والعنصرية الى اقصى مداه في الموضوع المتعلق باليهود وبالمسألة اليهودية . فالعنصريون هم الذين قالوا بان العنصر اليهودي عنصر متميز غريب عن اوربا بسبب أصله السامي . ان أفكارا مثل فكرة نقاء الدم اليهودي ، وخلود اليهود ، « والخصوصية » اليهودية ، قد تشبع بها الادب العنصري . وينطبق الأمر نفسه كذلك على فكرة حتمية اضطهاد اليهود[١١] . ولقد نوه هتلر بأنه ليس هناك شعب كالشعب اليهودي « لم تطرا عليه الا تغييرات قليلة جدا في الذهن والشخصية على مدى الفي سنة » . وحافظ اليهود ــ من بنسكر الى بن غوريون ــ على مفهوم النقاء العنصري، وكرروا الاشارة المتعلقة بمعاداة السامية «للأنف اليهودي» و «الشعر اليهودي» الخ. واتخذت المسألة ابعادا خطيرة بتحول « النقـاء » الى علامة تفوق . ان النوع اليهودي (كما يرى موسى هس الانتروبولوجي) ليس فقط موهوبا بذكاء وثقافة مسيطرين ، ولكنه ايضا متفوق في الزواج ..... ان مثل هذه الادعاءات الشوفينية المتطرفة تاخذ حجم ظاهرة طاغية في الأدب الصهيوني . ان كل شيء في اعتقادهم من عمل اليهود منذ اكتشاف الكتابة ، وحتى رحلات الفضـاء ![١٢] .

اما العداء للسامية ، الوجه الآخر للعنصرية ، فقد وجد فيه أباء الصهيونية فضائل عديدة تخدم ــ في النهاية ــ غرضهم للاستيلاء على فلسطين. وكما هو معروف فقد رأى هرتزل في العداء للسامية عاملا ايجابيا يفتح امامه الآفاق للصهيونية الجديدة ، ومتنفسا للتعبير عن مكنونات فكره الحائر بين شتى الاهواء والميول . وظل همه الأول ينصب على ضرورة الابقاء على ظاهرة العداء للسامية ، بدلا من السعي لازالتها او المساهمة جديا في الجهود الرامية الى القضاء عليها . وانتهى الى « ان العداء للسامية هو وحده دون سواه الذي جعل منا يهودا » . وتكون لدى هرتزل الاقتناع بأن جميع الأمم والشعوب الأخرى من غير اليهود اعداء للسامية . وكما قال بالنص : « ان الامم التي يعيش فيها اليهود كلها معادية للسامية ، إما في الباطن او في الظاهر » . وبذلك اصبح العالم كله قائما على التصنيف التالي : المعسكر المعادي للسامية سواء كان العداء ظاهرا أم باطنا ، يضم جميع الشعوب والأمم من غير اليهود بلا استثناء ، واليهود الذين يعانون من عداء هذا العالم لهم[١٣] .

ج ــ المحدد الاستيطاني ، ونفي القوى الوطنية :

يفترض الاستيطان ــ بحكم التعريف ــ نفي وجود القوى الوطنية . وقد حاول الصهاينة تحقيق هذا النفي بالتجاهل او الاستخفاف ، قبل ان يحاولوه بالتحايل ثم بالطرد والعنف ، وظهرت ــ باستمرار ــ اصوات تنبه الى الحقيقة العربية ، لا حبا في العرب ، وانما حرصا على سلامة تطور المشروع الصهيوني . وانعكس كل ذلك على الرؤية الصهيونية للقومية العربية .

ففي البداية ، لم ينظر اليهود للعرب ــ في محاولاتهم للاستيطان ــ كعامل سياسي هام يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار . بل كانت جهودهم تدور حول تركيا ، ومن له كلمة فيها ، من أجل إزالة القيود

---

(١١) خالد القشطيني، مرجع سابق ، ص ٩ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(١٣) د. اسعد رزوق ، مرجع سابق ، الجزء الاول ص ٥٩ .

المفروضة على عملية الهجرة والاستيطان . الا ان هناك استثناءات قليلة ومتباعدة . وكان أحد هاعام من الأوائل الذين تبينوا الخطر الذي قد تشكله المسألة العربية امام تقدم المشروع اليهودي ، فكتب في مقالته « الحقيقة من ارض اسرائيل » عام ١٨٨١ . « نحن في خارج فلسطين قد الفنا الاعتقاد بأن العرب جميعا هم وحوش كاسرة من الصحراء ... شعب شبيه بالمغفلين الذين لا يفهمون ما يدور حولهم ولكن هذا خطأ كبير ، إذ ان العرب مثل كل الساميين لديهم ذهن حاد ملىء بالفطنة»..... « ولو حان الوقت الذي يتطور فيه وجود اخواننا اليهود في فلسطين الى حد كاف لتهديد السكان المواطنين بالابعاد بقدر كبير او صغير ، عندها لن يسلم الآخرون مراكزهم بسهولة »[١٤] .

وبعد المؤتمر الصهيوني الأول ، ظل الزعماء الصهاينة ، وحتى اليهود في فلسطين ، لا يعيرون اهتماما كبيرا للمسألة العربية . وحين عقد المؤتمر الصهيوني السابع في اغسطس ١٩٠٥ وقف ماكس نوردو ليدق ناقوس الخطر من حركة عربية محتملة : « ان الحركة التي استحوذت على قسم كبير من الشعب العربي يمكنها ان تتخذ لنفسها بسهولة فائقة وجهة سير تطال فلسطين ايضا . وهكذا تصبح ارض اجدادنا من جديد ، وكما كانت في معظم ادوار التاريخ ، محور اهتمام العالم السياسي ومحط انظاره». ومن المرجح ان الحركة التي تحدث عنها نوردو كانت تتعلق بافكار نجيب عازوري في كتابه « يقظة الأمة العربية » الذي صدر عام ١٩٠٥ كما ان بيانه التاريخي الذي اصدره في نهاية عام ١٩٠٤ واوائل عام ١٩٠٥ بعنوان « بلاد العرب للعرب » وصل الى فلسطين وانتشر بسرعة بين الأهالي ، مما الجأ السلطات العثمانية الى القيام باعتقال بعض الأعيان العرب في يافا وغيرها من المدن ، والاقدام على تفتيش منازلهم واوراقهم »[١٥] .

في نفس تلك الفترة تقريبا ، ومع ازدياد موجة العداء للعرب التي حملتها موجة هجرة « العالية الثانية » حاول ايضا لغوي يهودي هو « ابيشتين » ان يوجه الاهتمام الى خطورة تجاهل المسألة العربية ، مشيرا الى الشعب في فلسطين ، بقوله . « هذا الشعب يشكل جزءا من امة كبيرة تملك كل المنطقة التي تحيط ببلدنا ، سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر ، يجب الا نثق في الرماد الذي يكسو الجمرة ... شرارة واحدة قد تعيد اشتعال النار وتسبب حريقا يصعب اخماده »[١٦] .

ومع تغير الاوضاع السياسية في تركيا عام ١٩٠٨ اخذ العرب يلعبون دورا اكثر اهمية مما دفع اليهود الى الاهتمام بالمعارضة العربية وعدم التقليل من شانها على الرغم من ظروف الدولة العثمانية المؤاتية . وقد توازت الجهود الصهيونية للاقتراب من الحركة العربية الوليدة ، قبل الحرب العالمية الأولى ، مع الجهود البريطانية التي تمت في هذا المجال . وبذلك فان سياسة التقارب مع رجال الحركة العربية الوليدة كانت تهم الحركة الصهيونية سواء من زاوية التقارب مع الاستعمار البريطاني ، اومن زاوية احتواء الحركة الفتية ومحاولة احتواء عدائها للصهيونية ، والتفت الصهيونيون الى البرجوازية العربية المثقفة بالذات ، محاولين استمالة رجالها المنتمين الى الجمعيات والندوات والاحزاب ، في بحثهم عن حلفاء ومؤيدين لقضيتهم . وبعد عقد المؤتمر العربي الاول في باريس عام

---

(١٤) د. خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨ ،سلسلة كتب فلسطينية رقم ٤١ (بيروت : مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية مايو ١٩٧٣) ص ٢٣ .

(١٥) د. أسعد رزوق ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٧ .

(١٦) د. خيرية قاسمية ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

١٩١٣ ضاعف الصهاينة مساعيهم للاقتراب من الحركة العربية ، وكان الصهاينة على معرفة بأسباب المعارضة العربية للاستعمار اليهودي لفلسطين ، وبالشروط التي تحدث عنها بعض رجال الحركة العربية حينئذ لتساهلهم ازاء الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ولكنهم ــ اي الصهاينة ــ لم يكونوا مستعدين بالطبع للوفاء بهذه الشروط او للقبول بالتحفظات العربية على استعمار فلسطين ، اي لم يكونوا مستعدين ــ في واقع الأمر ــ « للمساهمة في تكوين قوة يمكن لها ان ترتد عليهم »(١٧) .

وهكذا وفي الوقت الذي كان يجري التخطيط فيه لرسم مستقبل فلسطين ، لم يكن امر المعارضة العربية للنشاط الصهيوني مجهولا على المخططين ، وخاصة تلك الأوساط الصهيونية التي عاشت في المنطقة ، الا ان ظروف الحرب العالمية الأولى ، وما قدمته من فرصة ممتازة لتحقيق الامل الصهيوني تحت الحماية البريطانية قد دفعت الصهيونيين ــ وهم يقدمون حججهم للمطالبة بالوطن القومي في فلسطين ــ الى اهمال شأن الوجود العربي . وحتى لو اعترفوا به أو اشــاروا اليــه ، كانوا يقللون من اهميته ، ويستبعدون خطره ، ويستخفون به ، بل ويسعون للاستئثار بالبلاد دونــه(١٨) .

ثانيا : ابعاد النظرة الصهيونية للقومية العربية والوحدة العربية :

شكل الطابع (العنصري ــ الاستعماري ــ الاستيطاني) للصهيونية ملامح وأبعاد نظرتها للقومية العربية وللوحدة العربية . ومع ان استخلاص تلك النظرة من بين اختلافات الى يمين صهيوني ويسار صهيوني ، واختلافات بين معتدلين ومتشددين ، واختلافات بين قدماء ومعاصرين .. يبــدو احيانا امرا صعبا الا ان هذا لا يلغي امكانية الحصول على تصور عام يجمع ــ في إطار الحقيقة الصهيونية (العنصرية ــ الاستعمارية ــ الاستيطانية) شتات تلك التصورات .

ا ــ إنكار القومية العربية والوحدة العربية :

لا يقصد بانكار القومية او الوحدة العربية ، انكار « الحقيقة العربية » التي احاطت بالصهاينة في فلسطين من كل جانب ، ومقتضاها ان هناك عربا يقيمون في المنطقة المجاورة والتي قد تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ، وكذلك في فلسطين ، وان هؤلاء العرب يشتركون في الدين وفي اللغة . تلك مسلمات خرجت عن نطاق الانكار . اما الشيء الذي كان محــلا للانكار ، وبالتالي للخلاف ــ ان كان ثمة خلاف جوهري ــ فهو : الى اي مدى يشكل هؤلاء العرب « قومية » واحدة ، والى أي مدى يمكن ان يكونوا « وحدة » واحدة .

لا يعدم التراث الصهيوني واليهودي افكارا واراء لدى « المعتدلين » تتحدث باعجاب عن الامة العربية « ذات التاريخ » وذات « المستقبل المرموق » ، خاصة عندما يكون الكلام موجها للعرب ! . وينقل عن وايزمان ، في خطاب له بالقدس لدى زيارته لها في ابريل/نيسان ١٩١٨ وفي حضور مستمعين من العرب : « ان اليهود يرقبون مرة أخرى نهوض دولة العرب وقوة سلطتها السياسية » . ويحدد هذه النهضة في « هذا المثلث التاريخي بين مكة وبغداد ودمشق ، حيث سيقوم نظام عربي سياسي قوي متحد ، سيعيد تراث العرب العظيم في الأدب والعلوم القريبة من علوم اليهود وآدابهم »(١٩) .

---

(١٧) د. اسعد رزوق ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ٥٤ وما بعدها .

(١٨) د. خيرية قاسمية ، مرجع سابق ، ص ٣٠٧ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

ويقول يهودا ماجنس ــ الحاخام المعتدل الذي كره دائما فكرة العداء للعالم العربي ــ « انه لمن الاحتقار لليهودية ، والتقليل من الأهمية الحقيقية للشعب اليهودي ان نضعهما في جانب من الميزان وان نضع على الجانب الآخر الجالية العربية في فلسطين التي هي قليلة الاهمية نسبيا . ان القوى التي يجب موازنتها هي اليهود واليهودية في جانب، والشعوب العربية وحتى الاسلامية في الجانب الآخر. فبهذه الطريقة نستطيع أن نرى الجميع بمنظار افضل ، وان نزيد من اهمية فلسطين كنقطة تلتقي فيها اليهودية بالاسلام من جميع الأطراف ، كما التقينا قبل قرون سابقة ، وكان في التقائنا اغناء للثقافة الانسانية » .

وفي الواقع ، مثل الاعتراف بالعروبة وبالقومية العربية او بالأمة العربية ، تبريرا لدى بعض المفكرين الصهاينة للاستئثار بفلسطين . فالعرب ــ كأمة ــ وفقا لهذه الرؤية ، حصلوا على حقوق كافية. ومن المنطقي أن يندمج في تلك الأمة عرب فلسطين. يقول أحدهم : «لقد حصل العرب كأمة على ما هو اكثر من حصتهم الحقيقية » . فجرى انشاء دولتين في العراق والحجاز للامة الواحدة بالذات . ويؤكد الخبراء ان العراق يستوعب عشرة ملايين اضافية من السكان . ان عرب فلسطين يؤلفون فرعا من فروع الشعب العربي ، وليس من المعقول ان يطالبوا بتأسيس دولة عربية ثالثة . لذا فليس غريبا أن كاتب هذه الكلمات تحاشى الحديث عن « الشعب الفلسطيني » مفضلا الحديث عن « الجماعة العربية »[٢٠] .

ويلخص يوري افنيري هذا الجانب بقوله . « اعترفت « الدعاية » الصهيونية بدولة عربية موحدة قبل أن تتحمس الجماهير العربية لهذه الفكرة فقد كان ذلك يخدم الحجة الصهيونية . كانت الصهيونية في اصرارها على اخراج فلسطين من العالم العربي ــ بغية انشاء دولة تحل المسألة اليهودية ــ كانت تؤكد ان العرب يملكون ارضا شاسعة ليست فلسطين سوى قسم ضئيل منها. إذن ؟ فلن يتضرر العرب اذا حرموا من هذا الجزء للتعويض عن الظلم التاريخي الذي كان اليهود ضحيته »[٢١] .

بل ان محاولة الحركة الصهيونية احيانا ، للالتفاف حول العرب الفلسطينيين ، والاتصال بغيرهم من العرب انطوى على تسليم ضمني بحقيقة الارتباط العضوي بينهما ، وان كانت تامل كثيرا في تهاون الآخرين في حقوق فلسطين . ولهذا الغرض « تفاوض وايزمان وعدد من كبار رجالات الحركة الصهيونية في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، مع الأمير فيصل بن الحسين تم مع والده ومع اخيه عبدالله . وهذا ما عبر عنه بصراحة رئيس اللجنة الصهيونية في فلسطين في العشرينات ، حين كتب في مذكراته : « كنت ولا ازال اعتقد ان التفاهم الذي يجب ان نصل اليه مع عرب فلسطين لا يتحقق الا بتحسين علاقاتنا مع العالم العربي بشكل عام ، اي مع الزعماء الحقيقيين اصحاب السلطة في البلاد العربية المجاورة »[٢٢] .

---

(٢٠) د. أسعد رزوق ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠١ .

(٢١) يوري افنيري ، حرب بين أخوة ساميين ، في : من الفكر الصهيوني المعاصر سلسلة كتب فلسطينية رقم ١١ (بيروت : مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، فبراير ١٩٦٨) ص ٣٥٤ .

(٢٢) د. أنيس صايغ ، ــ فلسطين والقومية العربية (بيروت. مركز الأبحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية ، اكتوبر ١٩٦٦) ص ٤٤ .

وعلى اي حال ، وبالرغم من تلك الاستثناءات او التحفظات ، فان الصوت المسموع في تقييم القومية العربية والوحدة العربية ظل ــ كما تدل على ذلك الممارسات الصهيونية ــ هو صوت المنكرين للقومية العربية وللوحدة العربية . يقول ماكس نوردو في تفسيره للمقاومة العربية للاستيطان اليهودي في فلسطين : « على رأس هذه المقاومة تقف حفنة من المسيحيين السوريين ، التي استطاعت أن تشد الى جانبها بعض دعاة العروبة ، الذين أضفوا على أنفسهم شيئا من المدنية الأوربية ، وبعض المسلمين من القوميين المتعصبين ، الذين يقومون بكل ما في وسعهم لاثارة شعور الكراهية من الصهيونية والهجرة اليهودية الى أرض اسرائيل » . ويثير أولئك لتحقيق هذا الهدف « مشاعر الفلاحين الجهلة والمساكين ، بحلم مسكر عن امبراطورية عربية كبيرة ، في اسيا وافريقيا الشمالية ، تضم سوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية ومصر ، وبدون شك ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ايضا». وليس لدى الصهيونيين على كل حال سبب وجيه لمعارضة تلك الأماني « ما دامت محصورة خارج فلسطين ، أما في فلسطين ، فينبغي معارضة هذه المشاريع »[23] و « إن الصعوبات التي نواجهها في علاقاتنا مع السكان العرب في أرض اسرائيل ليست أكبر الصعوبات ولا أسوأها ، بالنسبة للمسألة العربية بأسرها . إن أكبر أعدائنا هم القوميون دعاة العروبة ، خارج أرض اسرائيل ، وخصوصا في سوريا ومصر » ..... و « اعتقد أنه من واجبنا أن نثبت للعرب أن مشاريع الوحدة العربية ليست إلا وهما .... والدول الأوربية .... ستضطر ان تدرس المسألة ، اذا كانت مصالح كل واحدة منها متطابقة مع تطلعات دعاة العروبة »[24] .

وفي مقال كتبه ماكس نوردو عام ١٩٢٠ جاء : « لحسن حظنا لا يزال تعبير « الأمة العربية » ــ حتى الآن على الأقل ــ كلمة فارغة . انه غير موجود الا في عقول الصحفيين السوريين المسيحيين المتبجحين ، وعقول بعض تلامذتهم وشركائهم من المسلمين . هناك حقا عرب ، ولكن لا توجد أمة عربية ، بمفهوم المدنية الأوربية لتعبير الأمة . ولا وحدة بين جماهيرها . إن بدويا في شمال افريقيا بعيد كل البعد عن مواطن في بغداد، كبعد الهندي الأحمر في ... الولايات المتحدة عن رجل الأعمال في وول ستريت أو السياسي في مجلس النواب الامريكي . ان القرابة بين فلاح من مصر ، وتاجر من مسقط ، أو بدوي من العراق ، وبين بائع من اليمن أو حرفي في بيروت اقل من القرابة بين مزارع أرز ايطالي في لومباردو ومربي أبقار فرنسي في نورماندي . وحتى الآن لم تسيطر فكرة القومية والاستعمارية عقولهم . ويستطيع بعض المثقفين الافراد منهم فقط ، الذين اندمجوا في أوربا ، استيعاب أفكار سياسية . والعلاقة بين ملايين السكان محصورة في اللغة والدين ، وليست في التطلع نحو دولة مستقلة قوية ، تضم مساحات واسعة من آسيا وافريقيا ، ولا تستطيع تحمل تدخل أجنبي داخل حدودها . ان الخلافات الداخلية المستمرة منذ مئات السنين تمزقهم . والقبائل المختلفة تناصب بعضها بعضا العداء ، والمنافسة التقليدية القائمة بينها اقوى ــ الى حد بعيد ــ من شعورها بالتضامن . واخيرا ..... في الطور الحالي من التطور القائم في مقدمة اسيا ، لا يزال من المبكر بالنسبة لنا ، أن نرتعد خوفاً من خطر دولة عربية مجاورة معادية لنا . ان هذه الدولة غير قائمة حتى الآن ، والى أن

---

(٢٣) صبري جريس ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

تقوم ــ هذا إذا قامت في يوم من الأيام ــ سيكون لدينا متسع من الوقت لملاءمة انفسنا مع الوقائع الجديدة »(٢٥) .

ولم ير جابونتسكي ــ وهو يبحث قضية توزيع الارث التركي في كتابه « تركيا والحرب » أي داع لأن تولي الدول الكبرى مسألة المطامح العربية القومية اهمية ، رغم انها مظهر قد يكون له شأنه في المستقبل ، فهي لم تصل بعد الى مرحلة النضوج ، وان ما يطلق عليه « حركة عربية » ليس الا تسمية سابقة لأوانها ، بل هي ليست اكثر من تعبير عن اتجاهات محلية لا انسجام بينها . وبنظره ان الآمال العربية بالنهضة القومية والاستقلال غامضة كفكرة الأمة العربية التي تشكل قاعدة هذه الآمال ، ويستخف بفكرة المتحمسين الداعين للوحدة العربية ، وحجته ان مجرد تشابه اللغات لا يشكل امة واحدة ، لأن رابطة الأمة هي الشعور بالوحدة القومية وهذا الشرط الأساسي لا تحققه قبائل مختلفة تسكن شريطا متصلا من الارض يمتد على الشاطىء الشمالي لافريقيا وغرب آسيا من المحيط الى الخليج ، والذي يمكن ان يشكل يوما ما اساسا لدعاية نشطة للوحدة القومية ، ولكنه يرى ان هذا اليوم لا يزال مختفيا وراء حجب المستقبل البعيد . ومع انه يتمسك بالرأي القائل بأن التحدث عن العرب كأمة واحدة سابق لأوانه ، الا ان مجرد القول بأن العالم العربي تتوفر فيه شروط خاصة يمكن ان تتطور الى وحدة قومية ، سيكون بالنسبة لأوربا « اعظم الكوارث الاستعمارية المعروفة في التاريخ ، لأنه سيهدد الوجود الاوربي في شواطىء افريقيا ، وتلك الأجزاء من آسيا التي تزمع أوربا انشاء حكم فيها »(٢٦) .

فاذا كانت تلك الافكار كلها تعبيرا عن اتجاه يتحدث عن « خرافة » الوحدة العربية ، التي لا يمكن ان تقوم على مجرد الاشتراك في اللغة والدين ، فان هناك اتجاها آخر يعترف بوجود القومية العربية ، بمعنى « مجموعة روابط ثقافية وعاطفية وتاريخية بين العرب ، ولكنه يفصل بين ذلك وبين الدعوة الى الوحدة العربية ، التي يعتبرها مستحيلة . وابرز ممثلي هذا الاتجاه من بين المعاصرين هو أبا إيبان ، فهو يرى ان العرب عاشوا دائما في فرقة عن بعضهم البعض ، وأن فترات الوحدة القصيرة كانت تتم دائما بقوة السلاح ، ومن ثم فان التجزئة السياسية لم يحدثها الاستعمار ، وان روابط الثقافة والتراث التي تجمع البلاد العربية لا يمكـــن أن تصنع الأساس للوحدة السياسية والتنظيمية »(٢٧) .

ب ــ التناقض العدائي مع القومية العربية الوحدة العربية :

دأبت كثير من التحليلات على ترديد فكرة التناقض بين«القومية العربية» و «القومية اليهودية» كأحد أسباب الصراع في المنطقة العربية . وكما يقول مكسيم رودنسون : « لسوء حظ هذا النوع من القومية اليهودية ، التي سميت بالصهيونية ، فان سكان فلسطين الأصليين بدأوا في التأثر بحركة فكرية مماثلة ، وهي القومية العربية ، في اللحظة التي تقرر فيها الاتجاه الى المطالبة بتكوين دولة

---

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(٢٦) د. خيرية قاسمية ، مرجع سابق ، ص ٣١١ .

(٢٧) د. علي الدين هلال ، التجزئة والتقسيم في الوطن العربي ، في : قضايا عربية ، السنة الثالثة العدد (١ ــ ٦) ابريل ــ سبتمبر ١٩٧٦ ص ٥٢ .

يهودية في فلسطين » . و .. « يقال دائما ، ان الثورات وليدة الحروب . ولكن الأمم ايضا وليدة الحروب ، ولقد سمحت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) لكل من القوميتين العربية واليهودية ، بأن تخطو خطوة حاسمة »(٢٨) .

والحقيقة هي ان التسليم اصلا بالسمة القومية للمسألة اليهودية كان احد الأهداف الأساسية للحركة الصهيونية . وبكلمات هرتزل فان : « المشكلة اليهودية ليست مشكلة اجتماعية او دينية مع انها في بعض الأحيان تتخذ هذين الطابعين وغيرهما ، انها مسألة قومية ، ولايجاد حل لها يجب علينا ان ننظر اليها كمشكلة سياسية دولية ، تجمع الامم المتحضرة لمناقشتها وايجاد حل لها » . وكما يقول ماكس نوردو ايضا . « النقطة الوحيدة التي تسبب عدم التفاهم بين الصهيونيين وغير الصهيونيين هي مسألة القومية اليهودية ، فمن لا يؤمن بأن اليهود امة ليس بصهيوني حتما ، ولا يستطيع الالتحاق بحركة تهدف كليا الى ان تجعل شعبا يعيش في ظروف غير عادية ، يحيا في ظروف طبيعية . من يؤمن بهذا يجب ان يتحول الى صهيوني ، لانه فقط بالعودة الى الوطن الأصلي تتخلص الأمة اليهودية من الكره والاضطهاد والتدمير المادي والفكري الذي تتعرض له في كل مكان »(٢٩) .

ايضا وكما هو معروف ، فان بداية القرن العشرين شهدت يقظة القومية العربية التي بدأت تتطور من حركة احياء ثقافي الى نوع من الوعي السياسي والمطالبة بالحقوق القومية في ظل الحكم العثماني ، وكان لها بالتالي تأثيرها على حياة العرب في فلسطين . وفي اولى الاشارات المبكرة من الحركة العربية التي عرفتها اوربا ، ان كتاب عازوري « يقظة الأمة العربية » تنبأ ببعد نظر فريد، سواء بين العرب او بين اليهود في تلك الفترة ، عن امكانية الصراع بين اليقظة العربية القومية ، والحركة الصهيونية . « تبرز في هذا الوقت ، وبشكل لم يثر الاهتمام سابقا ظاهرتان خطيرتان متعارضتان رغم تماثل طبيعتهما ، وهما يقظة القومية العربية وجهود اليهود لاعادة تأسيس مملكة اسرائيل القديمة على نظام واسع للغاية ، انه مقرر لهاتين الحركتين ان تتصارعا باستمرار حتى تتغلب احداهما على الأخرى ، ومصير العالم كله يعتمد على نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متناقضين »(٣٠) . وفي الوقت الذي كانت فيه الاتجاهات القومية العربية قد بدأت تتضح في المشرق العربي ، كانت قد بدأت موجة جديدة من الهجرة اليهودية ــ العالية الثانية ــ في الوصول من اوربا الشرقية ، يحمل افرادها معهم مطامع اكثر بعدا وخطورة ، لاعادة الاستيطان الى موقعه ، فبدأوا حملة شعارها « قهر العمل » و « العمل اليهودي البحت ، بدلا من العمل العربي المأجور » .

ولقد سلم جابوتنسكي بحتمية رفض عرب فلسطين للاستيطان اليهودي فيها لأنه « لا يوجد ولو مثال واحد على الأقل لاستيطان بلد بموافقة ابنائه الأصليين » واستنتج من ذلك ضرورة المضي في المشروع الاستيطاني الصهيوني دون اكتراث بالفلسطينيين . وفي موضع آخر ، وفي مواجهة الافكار الصهيونية بالتعاون مع الحركة القومية العربية اعلن جابوتنسكي صراحة : « لا يمكننا حتى ولا دعم الحركة العربية ، لانها تقف منا موقف العداء في الظرف الحالي . ونحن نفرح من صميم القلب لكل

---

(٢٨) مكسيم رودنسون، مرجع سابق ، ص ١٠ ــ ١٧ .

(٢٩) ماكس نوردو ، في : **الفكرة الصهيونية النصوص الاساسية** ، مرجع سابق ، ص ١٣٨ .

(٣٠) د. خيرية قاسمية ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

فشل تمنى به هذه الحركة ، ليس فقط في شرق الأردن المجاور أو سوريا فحسب ، بل وفي مراكش أيضا »(٣١) .

ويعترف هاركابي ــ في سياق اخر ــ باصالة الشعور القومي العربي ضد اسرائيل . « ينبغي الاعتراف بأن معارضة العرب لمجيء الاجانب كانت تعبيرا عن شعور قومي طبيعي . ومن السذاجة بمكان ان يعتقد المرء ــ في زمن تكتسب فيه فكرة الانبعاث القومي فاعلية متجددة في العالم أجمع ، وفي البلدان السائرة في طريق النمو خاصة ــ ان العرب سوف يشذون عن القاعدة ، ويتصرفون إزاء مجيء الأجانب بعدم اكتراث ، ويبدون استعدادا لمشاطرة هؤلاء ميراث الأجداد . وبالاضافة الى ذلك ، فان السعي الى تفسير النزاع على انه نتيجة لاضطرار القادة العرب الى ايجاد كبش فداء فابتكرت الانظمة الحاكمة هذه الخدعة على نحو مصطنع لتحرف الانتقادات الموجهة لها عن وجهها الصحيح ، إن وجهة النظر هذه تبدو لي مغلوطة . لا شك في ان القادة العرب يستغلون النزاع ، انهم يسعرونه ، ولكنهم لم يخلقوه »(٣٢)

ج ــ النظرة المتعالية للامة العربية :

ان الطابع العنصري للصهيونية ، مضافا اليه انكار القومية العربية والوحدة العربية ، والشعور بالعداء لهما ، كان لا بد وان يستتبع بداهة الشعور بالتفوق القومي ، والاعتقاد بدونية الآخرين . على ان هذه النظرة تلازمت في نشأتها ــ في واقع الأمر ــ مع المناخ الثقافي الذي ساد اوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ففي تلك الفترة سادت ــ كما هو معروف ــ النظريات التي تتحدث عن « الفراغ الحضاري » في المناطق غير الاوربية والاجناس المتفوقة التي عليها القيام بتأدية رسالة تمدينية للأجناس المتأخرة والمنحطة » .

وقد استمدت الصورة الصهيونية للعرب عناصرها من هذا المناخ ، ومن التقليد الطويل لنظرة اوربا الى « الشرق » واهله ، كما يبدو ان قصص الف ليلة وليلة ، فعلت فعلها في نفس ثيودور هرتزل وامدته بالكثير من الاساطير والملامح التي اختار ان ينظر من خلالها الى العرب في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين(٣٣) . وتعددت في كتابات هرتزل اوصاف العرب بالجهل والتأخر والفقر والجوع والمرض ، وتعدد ذكر الفوائد التي ستعود اليهم من الاستيطان الصهيوني في فلسطين .

على ان هذه الصفات ، وتلك الفوائد ، لم تتعلق فقط بعرب فلسطين ، وانما تعلقت في الفكر الصهيوني بمجمل المنطقة العربية ككل . كذلك فان العديد من الكتابات تحدثت ، ليس فقط عن الدور الذي يمكن ان يلعبه الصهاينة في تطوير وتمدين العالم العربي ، وانما ايضا « العالم الاسلامي » أو « الشرق » ! يقول سايدبوتام في كتاب نشر عام ١٩٢٣ : « ان الشرق قد حصل الى الآن على مظهر خادع فقير للفكر الغربي ، بسبب نقص العنصر الحضاري الحقيقي . وسيكون اليهودي المترجم المثالي للغرب نحو الشرق ، وللشرق نحو الغرب . اذ ان تاريخه وعادات تفكيره تجعله قريبا من جهة الى الشعوب السامية المكرسة نحو الله ، ومن جهة اخرى الى الغرب المكرس للتقدم الانساني وسيكون

---

(٣١) انظر . د. اسعد رزوق ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠١ .

(٣٢) هاركابي ، عقبان وحمائم ، في : من الفكر الصهيوني المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

(٣٣) د. اسعد رزوق ، مرجع سابق ، ص ١١٤ ــ ١١٥ .

عنصر توفيق لاعادة الساميين من جديد الى مجتمع الفكر والعمل مع سائر العالم المتحضر » . ويرى بتويتش في كتابه المنشور عام ١٩١٩ « ان اليهود هذ القدم كانوا حلقة الاتصال بين الساميين والمسيحيين ولعبوا دور الوسيط واعدوا الطريق للاصلاح والنهضة ... وهم سيعودون الى فلسطين ليؤدوا المهمة معكوسة ، اذ يحملون ثانية الى وطنهم افكار ومخترعات مواطنهم المؤقتة ، ويعدوا الطريق بذلك لاصلاح وبعث الشرق »[٣٤]

وفي السيرة الذاتية لوايزمان يتساءل . « اعتقد انه من المناسب ايضا طرح السؤال عما يكون قد تبقى من الحقوق العربية اليوم ، ليس في فلسطين وحدها ، بل في سوريا والعراق وحتى في العربية السعودية ، لو لم يبادر بعد النظر الصهيوني الى خلق مواطىء القدم البريطاني في الشرق الأوسط الأدنى ، وتعزيز هذا الموطىء بمستوطن يهودي نشط لا يكون ولاؤه لقضية الديمقراطية على صعيد اللفظ المجرد ، بل يعرب عن نفسه بالفعل والعمل » .

ولقد طبعت هذه المقارنة بين اسرائيل « الديمقراطية » والعالم العربي « ذي الحكم المطلق او الاستبدادي » غالبية الافكار والكتابات الاسرائيلية المعاصرة ليس فقط لاثبات تفوقهم على العنصر العربي ، وانما ايضا لتقديم انفسهم كقوى يمكن ان تعتمد عليها البلاد الامبريالية ذات المصالح الحيوية في المنطقة .

ثالثا : السياسة الاسرائيلية وقضية الوحدة العربية :

مثلما يمكن ان تدرس العلاقة بين السياسة الاسرائيلية وقضية الوحدة العربية من زاوية موقف هذه السياسة من قضية الوحدة العربية ، والمحاولات التي تمت لتجسيدها نظاميا ،فانهـــا يجــب ان تدرس ايضا من زاوية تاثيرها ــ كعنصر تحد خارجي ــ على جهود الوحدة العربية .

١ ــ اسرائيل والصهيونية كحافز للقومية العربية والوحدة العربية :

اذا كان من الأمور المسلم بها ان الخطر الاستعماري والصهيوني قد اسهم في بلورة المشاعر القومية في الوطن العربي ، وفي دفعه نحو الوحدة ، فان العديد من الكتابات الصهيونية والاسرائيلية اهتمت بالعزف على تلك النغمة وتضخيمها ، لتصوير المشاعر القومية والاتجاهات الوحدوية في الوطن العربي ، على انها مجرد ردود فعل سلبية للتحدي الصهيوني والاسرائيلي . وفي هذا الخصوص ، فاننا نتفق تماما مع الراي القائل بانه : « يخطىء من يعتقد ان الخطر الصهيوني والاستعماري هو صاحب الفضل الوحيد في توعية العرب وتوحيدهم معنويا ، وكأن لولا الصهيونية والاستعمار لما كانت هناك قومية عربية ، ولا امان عربية . تسعى نحو الاستقلال والحرية والوحدة . فمهما كان الاستعمار والصهيونية عاملين قويين في توعية العرب على حقيقتهم ... .. لم يكن الوعي مجرد رد فعل ، ولا كان امرا مصطنعا ومكتسبا بشكل سطحي متقطع عديم الجذور »[٣٥] .

في هذا الاطار فقط ، يمكن الاتفاق ايضا على القول بأن خلق اسرائيل « كان نقطة تبلور للحركة العربية ، ولم يكن نقطة انحلال كما امل هؤلاء ، فبقدر ما يؤدي وجود اسرائيل الجسم العربي ،......

---

(٣٤) د. خيرية قاسمية ، مرجع سابق ، ص ٣١٠ ــ ٣١١ .

(٣٥) د. انيس صايغ ، فلسطين والقومية العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

فانه يخدم الحركة العربية من حيث جعلها في نشاط حيوي ، وفي حالة حذر مستمرة ، ومن حيث البرهنة على سلامة نظرها ، وصحةتوقعاتها ، وصدق تحذيراتها ، وصواب برامجها لمستقبل ناهض »(٣٦) .

ولقد نوه مكسيم رودنسون — في عرضه لتطور الأوضاع في فلسطين — بانه« على الرغم من ان العرب كانوا منقسمين الى طوائف واحزاب لا تتفق بسهولة فيما بينها ، حتى مع انعدام اهمية الانقسام الديني بين مسلمين ومسيحيين ، ولكن كان الاتفاق تاما على نقطة رئيسية : وهي معارضة فكرة أن يقوم اليشوف بطريقة او بأخرى بتأسيس دولة فلسطينية يسيطر عليها اليهود ، ولا يكون للعرب فيها سوى الاختيار بين الخضوع او الرحيل والاضرابات والمظاهرات »(٣٧) .

ويذكر احد الكتاب الاسرائيليين بالمؤتمر العربي الذي عقد في ربيع ١٩٣٩ تحت شعار الكفاح ضد الصهيونية . « اذ ذاك التقى ممثلو جميع الدول العربية ذات السيادة (مصر والعراق والمملكة السعودية واليمن وشرق الأردن) بحثا عن حل للمسألة الفلسطينية . أما مكان اللقاء فكان لندن ، واما المضيف فالحكومة البريطانية . في مؤتمر المائدة المستديرة هذا ، كان على ممثلي الدول المنتدبة وممثلي العرب ، وممثلي الوكالة اليهودية ، ان يتفاوضوا سويا . لكن القادة الفلسطينيين . ورؤساء العرب الآخرين لم يكونوا يعترفون بالوفد الصهيوني ، فعقد مؤتمران متوازيان أحدهما يهودي بريطاني ، والثاني عربي — بريطاني . في ذلك الوقت من عام ١٩٣٩ كان ظل الحرب العالمية الثانية قد بدأ يخيم على العلاقات الدولية »(٣٨) . ويستطرد نفس الكاتب : « ان تقوي الوجدان القومي بالاحتكاك مع حركة قومية اخرى ، لا يشكل سمة خاصة بالقومية العربية . الى ذلك ، اخذ « العامل الاسرائيلي » بفعل تصفية الاستعمار في الشرق الأوسط ونيل الدول العربية سيادتها من ناحية ، وبفعل ترسيخ اسرائيل من ناحية أخرى ، يتكرس يوما بعد يوم ، على انه النقطة الحساسة ومركز الاهتمام وهدف الكفاح العربي »(٣٩) .

ويركز سيمحا فلابان على دور الفلسطينيين في المعركة من أجل الوحدة العربية . « فالوحدة العربية كانت تبدو لهم الطريق الاقصر نحو تحرير فلسطين فاندفعوا بحرارة وحماس في طريق العمل العربي الشامل وفي جميع المشاريع والمبادرات التي تعمل على توحيد العالم العربي » . ويرى سيمحا فلابان انه كان للفلسطينيين الأثر الاكبر في الاندفاع الوحدوي الذي عصف بالوطن العربي بين سنتي ١٩٥٨ و ١٩٦٠ . وان هذا ما يفسر « الدور المزدوج » الذي يلعبه الفلسطينيون في قلب النزعة الوطنية العربية ، فقد ادخلوا الى البلاد التي تسودها انظمة ملكية ونصف اقطاعية تقوم على المصالح الخاصة (الأردن ، العراق ، السعودية ، الكويت ، الامارات البترولية ... الخ .) روحا ثورية تشجع الميول الجمهورية وأفكار التضامن والوحدة العربية ، بالاضافة الى المشاركة في شئون العالم العربي ،

---

(٣٦) د. انيس صايغ ، تطور المفهوم القومي عند العرب الطبعة الأولى (بيروت : دار الطليعة ، ابريل ١٩٦١) ص ١٠٠ .

(٣٧) مكسيم رودنسون ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٣٨) اليازر بري ، النزاع اليهودي العربي والسياسة الداخلية العربية ، في : من الفكر الصهيوني المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ .

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٤١٨ .

لكنهم ادخلوا في البلاد التي تسير في طريق النمو والتحولات الاشتراكية عاملا تحريضيا يحولها عن هذا الطريق ويقودها الى مغامرات وحدوية جديدة . وهم ، اذ يجعلون من المشكلة الفلسطينية المهمة النهائية « للصراع ضد الامبريالية » ويموهون حرب الثأر ضد اسرائيل بشعارات مثل « حركة التحرير » فانهم ينجحون في طمس الصراع الطبقي ، ويخفون الأهداف الحقيقية للاشتراكية العربية » ! والحقيقة هو ان هذا التحليل لسيمحا فلابان ، والذي يستوي فيه قلقه على النظم المحافظة ، مع قلقه على سلامة التحول الاشتراكي في النظم الاخرى ، انما يحركه هدف واحد : أي الفصل بين الفلسطينيين وبقية العالم العربي ، واثبات استحالة تحقيق الوحدة العربية ، أي بتعبير آخر : تحطيم الامكانية التي تنطوي عليها القضية الفلسطينية في دفع فكرة الوحدة العربية .

ب ــ المواجهة الاسرائيلية للاحتمالات الوحدوية :

اذا بدأنا هنا بالاشكال النظامية لتوحيد العمل العربي ، فلاحظ ان الاسرائيليين يهتمون كثيرا بابراز الدور الذي لعبته بريطانيا في انشاء جامعة الدول العربية ، فمن وجهة النظر تلك « كانت بريطانيا تحاول توطيد احتكارها الامبريالي في الشرق الأوسط بالتحالف مع القومية العربية وفق الحكمة الجديدة « وحــد وسيطر » التي حلت محل « فرق تسد » . هكذا غدت بريطانيا هي الناطقة باسم التطلعات العربية الى التوحد . وفي اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٩٤١ وهو يوم سقوط الحكومة التي كان يرأسها رشيد عالي الكيلاني وكانت مؤيدة للمحور ، صرح ايدن ان بريطانيا تدعم دعما كاملا كل برنامج توحيد عربي يحظى بقبول الجميع . كذلك شجعت بريطانيا المفاوضات التي ادت عام ١٩٤٥ الى قيام الجامعة العربية »(٤٠) .

ويمكن القول ان رد فعل الحركة الصهيونية لقيام جامعة الدول العربية والتصريحات البريطانية على لسان ايدن بتشجيع تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية « وحتى السياسية » بين البلدان العربية ، كان يدور ــ في الأساس ــ حول مسألة فلسطين بالذات . وارسل وايزمان اكثر من رسالة الى رئيس الوزارة البريطاني ، والى وزير الخارجية البريطاني ، يستنكر فيها ما جاء في الملحق الخاص بفلسطين والصادر مع ميثاق جامعة الدول العربية .ورأى وايزمان ــ في رسالته للخارجية البريطانية في ١٧ أبريل ١٩٤٥ انه « حين تقوم جامعة عربية منظمة ، تتألف من مندوبين عن دول مستقلة ، وتقرر ان فلسطين بلد مستقل ــ من الناحية الشرعية ــ وتدعي التكلم باسم البلاد ، فان هذا العمل يشكل خرقا لوضع فلسطين الدولي ، وتعتبر تعديا على الحقوق اليهودية »(٤١) .

على ان جامعة الدول العربية حملت لاسرائيل مضمونين هامين ، احدهما رمزي والآخر جوهري.فمن الناحية الأولى ، تعبر الجامعة العربية عن شرعية اقليمية وحيدة في الشرق الأوسط ، خاصة في القلب منه ، مما يعني بالتالي الحق في استبعاد او طرد اي دولة غير عربية . وبذلك فان الجامعة مثلت التعبير التنظيمي المرئي للنداء العربي المستمر لشن الحرب ضد اسرائيل . ومن الناحية الثانية ، وعلى مستوى أكثر تفصيلا ، يفترض ان تسهل الجامعة القيام باجراءات متناسقة عسكرية واقتصادية وسياسية ونفسية للدول العربية ضد اسرائيل . ومع ان الجامعة العربية لم تقم دائما بدور

---

(٤٠) المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

(٤١) د. اسعد رزوق ، مرجع سابق ، الجزء الثاني ص ١٣٤ .

فعال في توحيد الموقف العربي إلا انها تسهل انشاء تنظيمات اخرى للتعاون الوظيفي . هذه التحديات الرمزية والجوهرية واجهت صانعي السياسة الاسرائيليين منذ عام ١٩٤٨ وهي تحديات تسارعت بفعل الجهود المختلفة لتحقيق مزيد من الوحدة التنظيمية العربية الرسمية مثل وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ (٤٢) .

ومع أنه يصعب القول أن قيام الوحدة المصرية السورية كان محصلة لوجود اسرائيل فقط، الا انها كانت عاملا رئيسيا لذلك. وعلى اي حال، فقد خلقت تلك الوحدة تأثير «شقي الرحى» حول اسرائيل ، خاصة مع التوحيد الرسمي لجيش يقف على الجبهتين الشمالية والجنوبية، ولكن مظهر التحول في القوى كان أكثر من حقيقته الفعلية . وعندما سقط النظام الملكي في العراق عام ١٩٥٨ تزايد الخوف من حدوث مزيد من سيطرة القوى الناصرية . ولذلك فقد تمت « معادلة » هذه الأحداث بسرعة عن طريق انزال الامريكيين والبريطانيين في لبنان والأردن على التوالي . ايضا فان الخطط التي وضعت عام ١٩٦٣ لتحقيق وحدة ثلاثية بين مصر وسوريا والعراق استرعت في حينها اهتماما شديدا من جانب اسرائيل ، ولكنها سرعان ما اظهرت انها لا تحمل تغييرات حقيقية في ميزان القوى مع اسرائيل(٤٣) .

ايضا فقد وقفت اسرائيل دائما موقف الترقب والحذر من مؤتمرات القمة العربية التي بدا معها ان هناك دفعة جديدة للثقة في الوطن العربي . وكما هو معروف ، فان المؤتمر الأول الذي عقد في القاهرة في يناير/كانون الثاني ١٩٦٤ كان قد توصل الى ثلاثة قرارات هامة في حينها ، وهي : انشاء منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني ، ووضع خطة لتحويل مصادر مياه نهر الأردن لافشال المشروعات الاسرائيلية في النقب ، وانشاء قيادة عربية موحدة . اما في القمة الثانية بالاسكندرية في سبتمبر/ايلول ١٩٦٤ فقد خبت صورة الوحدة العربية الجديـــدة ، ثم ظهر ذلك بصورة اوضح في مؤتمر الدار البيضاء عام ١٩٦٥ ، ثم جاءت تصريحات الرئيس بورقيبة عن مقترحات لحل القضية الفلسطينية لتحدث استنكارا في الوطن العربي . على ان مؤتمرات القمة ما لبثت ان استعادت اهميتها وقوتها بعد حرب ١٩٦٧ . ومن خلال هذا الاطار التنظيمي اعلن العرب رفضهم للخضوع للغطرسة الاسرائيلية ، واتفقوا على خطوات مشتركة اسهمت بلا ادنى شك في دعم دول المواجهة مع اسرائيل ، وفي شد ازر منظمة التحرير الفلسطينية ، وتأكيد الدعم لها امام العالم ، وفي مواجهة اسرائيل بالتحديد .

اما على مستوى الحركة السياسية المباشرة ، فيمكن القول ان هناك دائما تربصا اسرائيليا مستمرا بأي أمكانـــات محتملة للوحدة العربية ، وان هناك شعورا مسيطرا بحقيقة الارتباط بين الأجزاء المختلفة من الوطن العربي ، الامر الذي دفع اسرائيل دائما الى ان تدعم نفوذها في فلسطين ، ليس فقط بممارساتها فوق ارض فلسطين نفسها ، وانما ايضا من خلال ضرب اي مصدر للقوة العربية سواء اكان ذلك في الجزائر ، أم مصر أم عدن أم اي مكان آخر .

يتساءل احد الكتاب الاسرائيليين عن دعم اسرائيل لفرنسا في حرب الجزائر « مع ان دول المغرب العربي لم تشترك في الحرب ضد اسرائيل عام ١٩٤٨ ولم ينزل على شواطئها لاجئون عرب يحملون

---

(٤٢) Michael Brecher, **The Foreign Policy System of Israel** (New Haven : Yale University Press, 1972) P. 50

(٤٣) **المرجع السابق** ، ص ٦١ .

معهم ، بالاضافة الى مأساتهم ، بذور الحقد والكراهية . وطالما برهن مثقفو المغرب ورجاله السياسيون عن موقف موضوعي عقلاني ازاء النزاع الاسرائيلي العربي ، وعن نضوج سياسي حقيقي ، وذلك عن طريق نضالهم ضد اللاسامية وتساهلهم ازاء الهجرة اليهودية مما اتاح للكثيرين من يهود افريقية الشمالية المجيء الى اسرائيل . وحافظوا ايضا على اتصالات عديدة مع الأوساط التقدمية في اسرائيل »[٤٤] .

ان كل هذا لم يتغلب على حقيقة التخوف الاسرائيلي من استقلال الجزائر ومن اعتبار هذا الاستقلال اضافة الى رصيد القوة لدى الأمة العربية (الواحدة) الأمر الذي يهدد اسرائيل في نهاية المطاف ، لذلك فقد مثلت اسرائيل حليفا طبيعيا لفرنسا في حرب الجزائر . وشهدت فترة منتصف الخمسينات تحالفا واقعيا بينهما ، لما مثله من مصلحة مشتركة بينهما . ومثلت فرنسا بهذا التحالف موردا رئيسيا للسلاح الى اسرائيل ، خاصة السلاح الجوي ، لمواجهة تدفق الأسلحة السوفيتية الى مصر وسوريا . بل يرى مايكل بريتشر انه — في الادراك الاسرائيلي — كانت اول نقطة تحول حاسمة في تطور الشرق الأوسط (كنظام اقليمي) منذ عام ١٩٤٨ هي حصول الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢ . فمنذ تلك اللحظة ، دخلت الجزائر (ومعها المغرب وتونس) الى النظام الاقليمي للشرق الأوسط على نحو مؤثر في السياسة الاسرائيلية (على الرغم من ان الاخيرتين حصلتا على الاستقلال منذ عام ١٩٥٦)[٤٥] . وخلال مفاوضات ايفيان شنت الصحافة الاسرائيلية والصهيونية حملة تدعو الى بقاء السيطرة الفرنسية على الجزائر ، ووقفت المخابرات الاسرائيلية الى جانب منظمة الجيش السري لاقامة دويلة فرنسية في الجزائر .

وفي عام ١٩٥٦ وقفت اسرائيل موقفا معارضا لاستقلال عدن ومحميات جنوب شبه الجزيرة العربية ، ووقفت مع الاستعمار البريطاني ضد ثورة الجنوب اليمني . وانحازت الى جانب انجلترا في مفاوضات الجلاء مع مصر ، ثم تحركت في موقف موحد — مع انجلترا وفرنسا — بعد تأميم قناة السويس ، ولم تنظر الى التأميم الا باعتباره بداية لظهور زعامة عربية يمكن ان تهدد وجودها في المنطقة »[٤٦] .

ويفسر مكسيم رودنسون دوافع بن جوريون للاشتراك مع فرنسا وبريطانيا عام ١٩٥٦ : « لقد تسلط على عقله (أي بن جوريون) منذ وقت طويل خوفه من حدوث انتفاضة للعالم العربي ، وكان يتساءل عما اذا كان ناصر هو مصطفى كمال الذي سيخرج بذلك العالم العربي من الفوضى ، وكان يرى التحالف العربي مع الشرق وقد تجلى حين تدفقت الاسلحة والذخائر ، وفكر ان الوقت قد حان لتوجيه الضربة ، وللقضاء على القوة الصاعدة ، او على الاقل للحصول على الاعتراف باسرائيل وهي في مركز القوة ، بدلا من الانتظار حتى فوات الأوان ، كما انه ينبغي استغلال الظروف القائمة والتي

---

(٤٤) سيمحا فلابان ، الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية ، في : **من الفكر الصهيوني المعاصر** ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ .

(٤٥) Brecher, op. cit, P — 61 .

(٤٦) سلمان رشيد سلمان ، اسرائيل والوحدة العربية ، في : قضايا عربية ، السنة الثالثة ، العدد (١ — ٦) ابريل — سبتمبر ١٩٧٦ ص ٥٣ .

تدفع دولتين غربيتين مسلحتين تسليحا قويا للوقوف الى جانب اسرائيل ، فقد لا تتكرر مثل هذه الفرصة قبل مرور وقت طويل »[٤٧] .

واذا كان عدوان يونيو/حزيران ١٩٦٧ قد حقق لاسرائيل انتصارا هائلا لم تكن هي تحلم به ، على العرب في مصر وسوريا والأردن ، الا انه يظل يثير التساؤل عن الأثر الذي احدثه على فكرة الوحدة العربية او للاتجاه نحوها . لقد نتج عن هذا العدوان مزيد من التبلور لقضية الشعب الفلسطيني ، ومزيد من الدعم العربي لهذه القضية. واتخذت مؤتمرات القمة التالية للعدوان قرارات اكثر فعالية واكثر اتزانا . وكانت ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ هي الدافع الأساسي لحرب اكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣ التي ومضت فيها ــ لفترة قصيرة للغاية ــ امكانية العمل العربي الموحد ، واظهرت اي قوة كامنة يتمتع بها الوطن العربي المعاصر .

على أن خوض الحروب ضد الوطن العربي ، وضد مصر على وجه التحديد ، لم يثبت لدى الاسرائيليين على انه وسيلة ناجعة للقضاء على احتمالات الوحدة العربية . وكان هذا دافعا مستمرا للتفكير في وسائل اخرى . ومنذ ما يقارب من اثنتي عشر سنة كتب شيمون بيريز : « ينبغي الملاحظة أن ثمة مرشحين عربا للصلح مع اسرائيل ، هناك مرشحون من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة ، لكن ما ينقص هو المرشح الأول وهذا المرشح كان وسيظل دائما على ما يبدو مصر . ان مفتاح السلم او خطر العدوان يوجد اذن في مكان ما على ضفاف النيل . مصر هي مقدمة الصف كما انها اهم الدول العربية . فعلينا اذن أن ندرس موقف مصر تجاه النزاع العربي الاسرائيلي »[٤٨] .

---

(٤٧) مكسيم رودنسون ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٤٨) شيمون بيريز ، يوم قريب ويوم بعيد ، في . من الفكر الصهيوني المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

خطر الصناعة الاسرائيلية على الوطن العربي

حسين ابو النمل

اعد الكاتب ، وهو باحث في الاقتصادين الفلسطيني والاسرائيلي
[له « بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي » ، « الضفة الغربية
والقطاع ٦٧ ـ ١٩٧٨ » ، « قطاع غزة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ »]

ستصدر له قريبا دراسة حول الصناعة الاسرائيلية تعتمد على المصادر الاسرائيلية وتقدم
وجهة نظر تخالف الشائع بيننا عن اقتصاديات العدو
وتفضح محاولاته لبناء اساس مادي صلب يمكنه من مجابهة تحديات المرحلة المقبلة ،
سلما كانت ام حربا ، بما يتلاءم ومخططاته التي تبدأ باستيطان
ارضنا العربية في فلسطين وتمد نطاق الاستغلال الصهيوني الى الوطن العربي باكمله .
والمقال التالي هو خاتمة الدراسة المذكورة ، التي ستصدر عن دار « الطليعة » .

في دراسة الصناعة الاسرائيلية يمكن لنا تسجيل جملة حقائق اقتصادية سياسية هامة تستدعي التوقف مليا من قبل جميع المعنيين بالصراع العربي الاسرائيلي . وبادىء ذي بدء يمكن تسجيل اولى هذه الحقائق واخطرها وهي :

١ ـ عدم توفر الحد الادنى من المعرفة بحقيقة اوضاع العدو ومخططاته الاقتصادية ، وهذا تقصير كبير للمراكز العلمية المختصة التي لم تقدم الا فيما ندر ، وعلى فترات متقطعة ، وبشكل مجتزأ ، بعض الحقيقة ، وأحيانا مشوهة ، عن حقيقة اوضاع ومخططات العدو .

٢ـ ان تخلف البحث الفلسطيني والعربي عن تقديم صورة دقيقة عن العدو الاسرائيلي، هو شأن بحثي سياسي ، في آن معا ، فمن الصعب ان يزدهر البحث العلمي ، ان لم تكن له وظيفة سياسية ، وجهة سياسية ترعاه ، تشجعه ، تطلبه ، وتعمل بموجبه ومع الاسف الشديد ، فان البحث العلمي ليس بخير ، بل ، وكما تؤكد وقائع الامور ، يتراجع الى الخلف لدرجة الانحطاط والتلاشي .

٣ ـ لا يتوقف الضرر عند حدود « عدم المعرفة » بل الترويج الى « وعي زائف » بأوضاع العدو الصهيوني ، وهو وضع اخطر بكثير من « عدم المعرفة » لان التوهم بوجود الوعي يخلق استرخاء واطمئنانا ، لا يقطعه الا « مفاجأة » تترتب عليها نتائج مصيرية لا يمكن الانفكاك من اسارها بسهولة .

٤ ـ ثمة خطة سياسية اقتصادية عسكرية لدى العدو الصهيوني ، ينفذها وعلى مراحل ، على طريق استكمال المشروع الصهيوني . وفي حدود ما هو قائم حاليا ، يمكن لنا القول ان تلك الخطة قد حققت نجاحا لا يجوز الاستهانة به ، ووضعت « اسرائيل » على اعتاب التحول الى دولة امبريالية .

٥ ـ بلغ « الانتاج المحلي الاجمالي » في اسرائيل سنة ١٩٧٦ « GROSS DOMESTIC PRODUCT (G. D. P) ١٢,٦٤٠ مليار دولار ، مقابل ١٢,٣ مليار دولار لمصر . وذلك حسب ما اشارت اليه

موسوعة« العالم في ارقام » من منشورات الايكونوميست البريطانية ، بفارق لصالح اسرائيل يبلغ ١,٣٤٠ مليار دولار .

٦ ــ بلغ الانتاج الصناعي للعام ١٩٧٦ ، وبناء على نفس المصدر ، ٢,٨٦٤ مليار دولار في اسرائيل مقابل ٢,٠٩١ مليار دولار لمصر ، اي بفارق يبلغ ٧٧٣ مليون دولار ، لصالح اسرائيل . وهذا الرقم يزيد بـ ١١٩,٢مليون دولار عن الانتاج الصناعي للجمهورية العربية السورية والذي بلغ خلال نفس العام ٦٥٣,٨ مليون دولار .

٧ ــ نمو الانتاج القومي ، الصناعة الاسرائيلية ، يشير الى حقيقتين لا يجوز الفصل بينهما . الاولى سلبية ، وتتمثل باستيراد اسرائيل للموارد الاقتصادية من بشرية ومالية من الخارج . والثانية ايجابية ، وتتمثل بقدرة العدو على توظيف الامكانات المتاحة له بطريقة سليمة ، وتخدم برامجه المستقبلية ومخططاته للتنمية ، ولبناء صناعة متطورة مجمل ما تلقته اسرائيل من تعويضات ومساعدات وهبات من « الامبريالية » لا تمثل الا رقماً متواضعاً الى جانب « البترو دولار » الذي تحتفظ به بعض الحكومات النفطية في بنوك « مساعدي وممولي اسرائيل » .

٨ ــ حققت اسرائيل معدلات تنمية صناعية تتجاوز معدل نمو الانتاج القومي ، والذي تجاوز بدوره معدل نمو السكان . فقد بلغ متوسط الزيادة السنوية في الانتاج الصناعي خلال السنوات العشر الاخيرة ١٥٪ مقابل ٨٪ متوسط الزيادة في الانتاج القومي و ٣٪ متوسط النمو في عدد السكان .

٩ ــ شهدت الصناعة الاسرائيلية تحولات هامة لناحية زيادة وزن الصناعات التحويلية الانتاجية في توليد القيمة المضافة في الصناعة الاسرائيلية من ٤٩٪ سنة ٦٥/١٩٦٦ الى ٦٠٪سنة ٧٥/١٩٧٦ .

١٠ ــ ترافقت الزيادة في دور ووزن الصناعة ، كما ونوعاً ، في الاقتصاد الاسرائيلي ، مع ميل واضح جداً نحو « التمركز » والذي اتى في اعقاب مرحلة التوسع التي شهدتها الصناعة الاسرائيلية ، في حقبة ما قبل ١٩٦٦ ، حيث ارتفع عدد المنشآت الصناعية من ٥٥٨٠ منشأة يعمل بها ٧١,٢٦٨ شخصاً سنة ١٩٤٧ الى ٨ ٢٤,٥٢ منشأة صناعية يعمل بها ٢٢٢,٧٩٢ شخصاً سنة ١٩٦٥ .

١١ـ في الفترة اللاحقة لسنة ١٩٦٥ ، دخلت الصناعة مرحلة التمركز ، فقد هبط عدد المنشآت التي توظف عمالا لديها من ١٥,٤,٥٨ منشأة سنة ١٩٦٥ الى ١٢,٠٨٣ منشأة سنة ١٩٧٧ ، أي بنقص يبلغ ٣٣٧٥ منشأة صناعية ، وهو ما يساوي ٢١,٨ ٪ من عدد المنشآت التي كانت قائمة سنة ١٩٦٥ .

١٢ ــ طال النقص معظم المنشآت التي توظف لديها اقل من خمسين عاملا ، ٨٣٪ من مجمل النقص لحق بالمنشآت الصغيرة ، أي التي تشغل اقل من خمسة عمال . مقابل ذلك فقد ازداد عدد المنشآت التي يعمل بها أكثر من خمسين عاملا ، اكبر زيادة كانت من نصيب المنشآت التي توظف لديها ما يزيد على ٣٠٠ عامل .

١٣ ــ ترافق النقص في عدد المنشآت مع زيادة في عدد المستخدمين في الصناعة ، طرا تبدل هام جداً على كيفية توزيع العاملين على المنشآت المختلفة . وهبطت نسبة العاملين في المنشآت التي تشغل لديها اقل من خمسة عمال ، من ١٠,٦٪ مجمل المستخدمين في الصناعة سنة ١٩٦٥ الى ٤,٦٪ سنة ١٩٧٧ . وهبط الرقم المطلق لعدد العاملين في هذه الفئة من المنشآت من ٢٢,٤٢٠ شخصاً سنة ١٩٦٥ الى ١٣

الف شخص سنة ١٩٧٧ . مقابل ذلك ازداد نصيب المنشآت الضخمة التي توظف لديها ما يزيد على ٣٠٠ عامل ، من ١١,٨٪ من اليد العاملة الصناعية سنة ١٩٥٥ ، الى ١٩,٣ ٪ سنة ١٩٦٥ ، الى ٣٩,٢٪ سنة ١٩٧٧ ، رغم أن عدد هذه المنشآت لم يكن ليزيد سنة ١٩٧٧ عن ١٥٥ منشأة صناعية ، اي ١٠,٣٪ من اجمالي عدد المنشآت .

١٤ ـ ازداد متوسط عدد العاملين في المنشأة الصناعية الواحدة من ١٣,٦ عمال سنة ١٩٦٥ الى ٢٣,٥ عمال سنة ١٩٧٧ . متوسط عدد العاملين في المنشآت الصناعية من جميع الفئات بقي شبه ثابت ١٩٦٥ ـ ١٩٧٧ ، مقابل ذلك فقد ازداد متوسط العاملين في المنشآت التي توظف لديها ما يزيد على ٣٠٠ عامل من ٥٢٧ عاملا سنة ١٩٦٥ الى ٧١٩ عاملا سنة ١٩٧٧ . وبالتالي فان الحديث عن زيادة في متوسط عدد العاملين محصور في المنشآت التي توظف لديها ما يزيد على ٣٠٠ عامل .

١٥ ـ من بين المنشآت التي توظف لديها اكثر من ٣٠٠ عامل وعددها ١١٥ منشأة توجد ٣٥ منشأة ، تشغل لديها ٤٠,١ الف عامل بمتوسط ١١٤٥ مستخدما للمؤسسة الواحدة . وتعود ملكية هذه المنشآت للدولة . مقابل ذلك فان متوسط عدد المستخدمين في المنشآت التابعة للهستدروت يبلغ ٩١,٩ عامل . بلغ المتوسط العام في المنشآت التابعة للقطاع الخاص ١٧ شخصا ، بكلمة اخرى فان ملكية الاحتكارات/المنشآت الضخمة تعود لراسمالية الدولة .

١٦ ـ لقد ضبطت عملية التمركز في الصناعة الاسرائيلية ، بدرجة او بأخرى ، مع مخططات الاستيطان ، لناحية توزيع المنشآت على المناطق المختلفة بالشكل الذي يعزز عمليات الاستيطان ، خصوصا في الاطراف ، والتي وجه اليها تلك الصناعات التي تستفيد من التمركز ، وبالتالي وفورات الحجم الكبير ، مقابل ذلك خصصت مناطق الوسط ، ولاسباب تاريخية واقتصادية وامنية ، بالصناعات الثقيلة ، عالية التقنية . وفي هذا الاطار تجدر الاشارة الى الاهتمام المتزايد بمنطقتي الشمال (الجليل) والجنوب ، وذلك لاعتبارات سكانية واقتصادية ، آنية ومستقبلية في آن معا .

١٧ ـ اولى نتائج التمركز في الصناعة ، وفورات الانتاج الكبير ، وهي مسألة لها مظاهر عدة ابرزها ، واكثرها دقة ومعيارية ، استهلاك الكهرباء مقيما بالكيلووات : ارتفعت كمية الكهرباء المباعة ١٩٥٠ ـ ١٩٧٧ بعشرين ضعفا ، من ٤٦٤ مليون كيلووات سنة ١٩٥٠ الى ٩,٣ مليار كيلووات سنة ١٩٧٧ خلال نفس الحقبة تزايد نصيب الصناعة بـ٢٣ ضعفا ، وذلك من ١٤١ مليون كيلووات سنة ١٩٥٠ الى ٣,٢ مليار كيلو وات سنة ١٩٧٧ .

١٨ ـ معظم الزيادة في استهلاك الكهرباء حدث في الفترة التي شهدت بها الصناعة الاسرائيلية وطأة التمركز . ارتفع استهلاك الصناعة من الكهرباء ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ من ١,٢ مليار كيلووات الى ٣,٢ مليار كيلووات .

١٩ ـ ارتفع متوسط استهلاك الكهرباء سنويا بالنسبة للعامل الواحد في الصناعة من ٧,٢ الف كيلووات سنة ١٩٦٦ ، الى ١١,١ الف كيلووات سنة ١٩٧٧ . وتعكس الزيادة في استهلاك الكهرباء مقدار التوسع في استخدام الآلات المتطورة ، التي تحتاج الى قدر كبير من الطاقة لتشغيلها .

٢٠ ـ يلاحظ تفاوت هائل في معدل استهلاك الكهرباء بالقياس للعامل الواحد بين صناعة واخرى ،

وذلك تبعاً لمقدار تطورها . مقابل متوسط عام يبلغ ١١,١ ألف كيلو وات ، تبلغ النسبة في صناعة الكيماويات ٤٩,٧ ألف كيلو وات في حين لم تبلغ في صناعة الملابس سوى ٥٢١ كيلو وات للعامل الواحد سنويا .

٢١ ـ ازدياد استهلاك الكهرباء قياساً للعامل الصناعي الواحد ، بحكم التمركز الذي شهدته الصناعة الاسرائيلية . ترافق مع تزايد المفرغين للبحث العملي في مجال الصناعة ، فقد ارتفع عددهم ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ من ١٥٥٧ باحثا سنة ١٩٧٠ الى ٣٦٣٣ باحثا سنة ١٩٧٦ .

٢٢ ـ الغالبية الساحقة من الباحثين كانت مستوعبة في الصناعات المتطورة وارتفع نصيب صناعة الالكترونيات ، الكهرباء ، الكيماويات ، من الباحثين من ٤٦,٨٪ من مجمل الباحثين سنة ١٩٧٠ الى ٦٦,٥٪ سنة ١٩٧٦ .

٢٣ ـ ثمة تركيز واضح على الصناعات الالكترونية والكهربائية حيث وجه اليها حوالي ٧٠٪ من الزيادة التي طرأت على عدد الباحثين ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ . استوعبت هذه الصناعة سنة ١٩٧٦ ، ٤٧٪ من مجمل الباحثين في القطاع الصناعي .

٢٤ ـ لاسباب متعددة ، حافظت اسرائيل على اوثق العلاقات العلمية مع مراكز البحث العلمي في الخارج ، وذلك عبر العلماء اليهود الذين كانوا يعملون في هذه المراكز قبل ان يهاجروا الى اسرائيل ، على الجانب الثاني حرصت دولة العدو على حضور المؤتمرات العلمية التي تعقد في الخارج وبذلك كان ترتيبها الدولة الثانية بعد الولايات المتحدة الاميركية ، قياساً لعدد المؤتمرات التي حضرت .

٢٥ ـ حرصت اسرائيل على عقد اتفاقيات علمية مع الدول البرجوازية الصناعية المتقدمة تتيح لها الحصول على الابحاث العلمية التي تنجز ، وبراءات الاختراع التي تسجل في تلك البلدان . وعلى سبيل المثال فقد بلغ عدد براءات الاختراع المسجلة في اسرائيل سنة ١٩٧٦ ، ٢٤٢٤ براءة ، ٥٦١ منها لباحثين اسرائيليين و١٨٦٣بحثا اجنبيا منها ٩٤٨ اختراعا في مجال الكيمياء و ١٠٤ في مجال الكهرباء و ٦٤ في مجال الكومبيوتر .

٢٦ ـ توسعت اسرائيل في استخدام الكومبيوتر ، ارتفع عدد المؤسسات التي تستخدمه من ٢٨ مؤسسة سنة ١٩٦٦ الى ٤٠٧ مؤسسات سنة ١٩٧٧ وازداد عدد الاجهزة من ٥٦ جهازا الى ٦١٠ اجهزة ، منها ١٢٥ جهازا مستخدما في الصناعة ، مقابل ٤ اجهزة فقط سنة ١٩٦٧ .

٢٧ ـ بفعل التمركز ، والتوسع في استخدام الالات الحديثة ، وازدياد استهلاك الكهرباء ، هبط نصيب العاملين (الاجور) من الثروة التي ينتجونها . فقد بلغت نسبة الاجور ٢١,٧٪ من الانتاج الصناعي النهائي سنة ١٩٦٦ ، هبطت النسبة سنة ١٩٧٧ الى ١٤,٢٪ فقط ، اي بفارق يبلغ ٧,٥٪ ، اي ما يزيد على الثلث . مقدار الاجور المدفوعة سنة ١٩٧٧ بلغت ١٣,٦ مليار ليرة اسرائيلية . لو دفعت اسرائيل سنة ١٩٧٧ نفس النسبة التي كانت سنة ١٩٦٦ لكان عليها ان تدفع اجوراً تبلغ ٢٠,٧ مليار ليرة ، بدلا من ١٣,٦ مليار ليرة قيمة الاجور التي دفعت فعلا سنة ١٩٧٧ .

٢٨ ـ العمالة الصناعية في اسرائيل تبلغ حوالي ٢٥٪ من قوة العمل المدنية ، وهي نسبة تضع اسرائيل في نقطة وسط بين دولة صناعية متقدمة كالمانيا الغربية ، حيث تبلغ النسبة ٣٤,٧٪ ، ودولة متخلفة صناعيا كمصر حيث لا تبلغ النسبة سوى ١٤٪ .

٢٩ ــ رغم ثبات نسبة العمالة الصناعية خلال السنوات العشر الاخيرة ، فقد شهدت اليد العاملة الصناعية عملية اعادة توزيع بين الصناعات المختلفة ، حيث زاد نصيب الصناعات المتطورة كثيفة المهارة ، وحيث القيمة المضافة اعلى ، وكذلك الاجور الصناعية المدفوعة . بين ١٩٦٦ ــ ١٩٧٧ ازداد عدد العاملين في الصناعة ككل بـ ٥٢٪ . وبلغت الزيادة في « الكيماويات » ٨٣٪ ، في « المنتجات المعدنية » ١١٤٪ وفي « الالكترونيات والكهربائيات » ٢٤٣٪ .

٣٠ ــ تعاني اسرائيل على صعيد اليد العاملة من مشكلة مزدوجة : زيادة في عدد المهارات ونقص في اليد العاملة غير الفنية ، كان حل المشكلة الاولى عبر التوسع في الصناعات كثيفة المهارة ، وبالتالي توفير عمل لاعداد متزايدة من الفنيين والمهارات ، وكان حل المشكلة الثانية من خلال استخدام اليد العاملة العربية . في حين بلغت الزيادة في اليد العاملة اليهودية بين ١٩٧٠ ــ ١٩٧٧ ، ١٦٩,٩ الف عامل ، ازداد عدد العرب من منطقتي الاحتلال ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧ ، بـ ٦٨,٤ الف عامل ، أي عامل عربي لكل ٢ ١/٢ عامل يهودي .

٣١ ــ اليد العاملة العربية في الصناعة الاسرائيلية ازدادت ١٩٧٠ ــ ١٩٧٧بـ ١٦,٣٥٥ مستخدما جديدا ، مقابل ٤٢,٦٤٥ مستخدما يهوديا جديدا . أي ان العرب قد اسهموا بـ٣٨,٣٪ من الزيادة في عدد المستخدمين اليهود في الصناعة الاسرائيلية .

٣٢ ــ بين ١٩٧٢ ــ ١٩٧٧ انخفضت نسبة الشغيلة اليهود (Workers) من بين المستخدمين مقابل اجر في الصناعة (Employed) من ٤١٪ الى ٣٥,٣٪ ، هبط العدد المطلق بـ١٨,٧ الف شغيل . رغم ان عدد المستخدمين قد ازداد بـ ٩٩,٥ الف مستخدم جديد .

٣٣ ــ هبوط نسبة المستخدمين اليهود في الصناعة الاسرائيلية ، والمصنفين كشغيلة ، ترافق مع زيادة العمل العربي الذي يندرج تحت هذا التصنيف . لذا فقد بلغ عدد الشغيلة العرب ٣٩٪ من عدد الشغيلة اليهود (١٤٣,٨٦٠ شغيلا عربيا : ٣٦٨,٥ الف شغيل يهودي) .

٣٤ــ تكرر اسرائيل ، باعتمادها المتزايد على اليد العاملة العربية ، مثلا ما عرفته الدول البرجوازية الصناعية المتقدمة منذ مطلع هذا القرن وحتى الآن ، مكرسة بذلك قاعدة تقسيم سوق العمل الدولي على النمط الامبريالي .

٣٥ ــ كان للنمو الذي شهدته الصناعة آثاره الواضحة على تركيب التجارة الخارجية الاسرائيلية . تحسنت بشكل مضطرد نسبة الصادرات للواردات فبلغت (سنة ١٩٧٧) ٦٩,٥٪ . وعلى سبيل المثال ، وحسب ما اشارت اليه « الاهرام الاقتصادي » عدد رقم ٥٦٤ تاريخ ١٥/٢/١٩٧٩ ص ٥ ، فان نسبة صادرات مصر الى وارداتها لم تبلغ سنة ١٩٧٨ سوى ٢٥٪ (٦٧٩,٨ مليون جنيه صادرات ، ٢٦٣٣,١ مليون جنيه واردات) علما بأن نسبة الصادرات للواردات المصرية قد بلغت في العام السابق ٣٥,٤٪ (٦٦٨,٥ مليون جنيه صادرات ، ١٨٨٤,٢ مليون جنيه واردات) .

٣٦ ــ سنة ١٩٧٧ ، كان نصيب الصادرات الصناعية ٨٥,٩٪ من مجمل الصادرات ، وقد ترافق مع تبدل في تركيب الصادرات ، حيث ازداد نصيب الصناعات المتطورة من ٣٦٪ من مجمل الصادرات سنة ١٩٦٧ الى ٦١٪ سنة ١٩٧٧ . وعلى سبيل المقارنة فقد كانت صادرات اسرائيل من الحمضيات سنة ١٩٦٧ تساوي حوالي ١٠٤٪ من قيمة صادرات اسرائيل ، من سبع صناعات متطورة هي :

الكيماويات ، المطاط والبلاستيك ، المعادن القاعدية ، المنتجات المعدنية ، الآلات ، المعدات الالكترونية والكهربائية ، وسائل النقل . سنة ١٩٧٧ ، لم تشكل الحمضيات سوى ٢٠٪ من قيمة ما صدر من منتجات الصناعات السبع المشار اليها . بل ان صناعة واحدة هي « الكيماويات » قد صدرت سنة ١٩٧٧ منتجات تساوي ١٤١٪ مما صدر من حمضيات في نفس العام ، والذي كان عبارة عن انتاج ٢٥٢ الف دونم .

٣٧ ــ من اصل ٢٦٥٠,٢ مليون دولار صادرات صناعية سنة ١٩٧٧ ، كان نصيب الالماس ١٠٩٩ مليون دولار . اي ما يساوي ٤١٪ من مجمل الصادرات الصناعية . الامر الذي ولدسوء فهم لدى البعض ، لناحية القول بأن صادرات اسرائيل هي من سلعة واحدة هي الالماس . تجدر الاشارة الى ان ارتفاع نصيب الالماس من صادرات اسرائيل هو الوجه الآخر لارتفاع نصيب الالماس من واردات اسرائيل . صافي الفرق بين ما تصدره اسرائيل من ماس مصقول ، وما تستورده من ماس خام لم يبلغ سنة ١٩٧٧ سوى ٦٥,٢ مليون دولار فقط ، هو مقدار العائد على اسرائيل من هذه الصناعة/ التجارة ، اضافة لذلك فان نصيب الالماس من الانتاج الصناعي الاسرائيلي لم يساو خلال العام المذكور ، الا ١,٨٪ ومن الانتاج القومي الصافي ٠,٤٪ فقط .

٣٨ ــ شهدت الواردات الاسرائيلية تبدلات هامة . لم يبلغ نصيب السلع الاستهلاكية سوى ٧٪ من مجمل الواردات ١٩٧٧ . بلغ نصيب السلع الاستثمارية ١٣٪ ، وما تبقى أي ٧٩,٥٪ كان من المواد الخام .

٣٩ ــ ١٥٪ من واردات اسرائيل سنة ١٩٧٧ كانت من النفط (٧٣٨,٨ مليون دولار) مقابل ٤,٩٪ سنة ١٩٧٣ (٩٨ مليون دولار) . رغم ذلك فقد تمكنت اسرائيل من تعويض الزيادة في اسعار وارداتها النفطية عبر زيادة صادراتها من السلع الصناعية . وفي حين لم تشكل صادراتها سوى ٥٢,٢٪ من قيمة وارداتها سنة ١٩٧٣ ، فقد بلغت النسبة سنة ١٩٧٧ ، ٦٩,٥٪ . وبذلك تكون اسرائيل قد احتوت الآثار الضارة التي كانت لارتفاع اسعار النفط ولحرب تشرين على اقتصادها .

٤٠ ــ تتوزع واردات وصادرات اسرائيل ، وبنسب متفاوتة ، على كثير من دول العالم . ويلاحظ ان بعض الكتل الاقتصادية تلعب دور الطرف الثالث في تأمين واردات اسرائيل من المواد الخام . ويلاحظ أيضا ان نسبة الصادرات للواردات تتفاوت بين منطقة واخرى . كقاعدة عامة فان الميزان التجاري مع المناطق المتخلفة هو لصالح اسرائيل ، والعكس صحيح بالنسبة لعلاقة اسرائيل ، مع المناطق المتقدمة .

٤١ ــ على عكس الفكرة الرائجة عن ان اسواق اوروبا وامريكا تستوعب ٩٠٪ من صادرات اسرائيل ، فان نصيب هذه الاسواق هو ٥٤,٤٪ من اجمالي صادرات اسرائيل ، و٥٠,٩٪ من صادرات اسرائيل الصناعية و ٤١,٤٪ من صادرات اسرائيل الصناعية عدا الالماس .

٤٢ ــ نصيب المناطق المحتلة ١٩٦٧ من صادرات اسرائيل الصناعية عدا الالماس بلغ سنة ١٩٧٧ ١٩,١٪ ، في حين لم تستوعب اسواق « الولايات المتحدة » و « السوق الأوروبية المشتركة » و « منطقة التجارة الحرة » مجتمعة سوى ٤١,٤٪ فقط . من الجدير بالذكر أن المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ هي أكبر مستورد منفرد من اسرائيل .

٤٣ ـ مجال الصادرات الصناعية الاسرائيلية ومستقبلها هو في توسيع نطاق تعاملها مع اسواق الدول والمناطق المتخلفة . وأي حديث آخر هو غير صحيح ويكذبه واقع الحال والقراءة الدقيقة لارقام ونسب الصادرات وطبيعة الصادرات نفسها .

٤٤ ـ لا تشير اسرائيل البتة الى مصدر وارداتها من النفط الذي يرد تحت عنوان « دول اخرى » . وهي تحصل على النفط من مناطق الانتاج القريبة ، يساعدها على ذلك امتلاكها اسطول نقل بحري ، كان مكونا سنة ١٩٧٦ من ٢٧ ناقلة نفط تبلغ حمولتها ١,٥ مليون طن جميعها مسجلة باسم دول اجنبية ،والعاملون فوق ظهر الناقلات اجانب . اي انها قادرة على دخول اي ميناء عربي بسهولة .

٤٥ ـ صادرات اسرائيل من الاسلحة تسجل تحت بند « صادرات الى دول غير مصنفة » . وتبلغ حوالي ١٠٪ من اجمالي صادرات اسرائيل . إن على صعيد الصادرات او الواردات ، تلجأ اسرائيل الى « طرف ثالث » لتأمين احتياجاتها او لتصريف منتجاتها . وعلى سبيل المثال فان سويسرا تحتل المرتبة السادسة في قائمة مزودي اسرائيل بالمواد الخام . وتحتل هونغ كونغ المرتبة الخامسة في قائمة المستوردين الرئيسيين من اسرائيل .

٤٦ ـ عقدت اسرائيل سنة ١٩٧٥ اتفاقيتين هامتين جدا مع السوق الاوروبية المشتركة والولايات المتحدة الاميركية . وصفت المصادر الاسرائيلية الاتفاقية الاولى بانها « فرصة تاريخية ... وتطور مثير ينتظر الاقتصاد الاسرائيلي » ، ترتب عليها قبول اسرائيل عضوا في السوق المشتركة له كامل الحقوق وليس عليه نفس الواجبات . وبحكم التسهيلات التي قدمت للصادرات الاسرائيلية ارتفعت نسبة الصادرات الى الواردات مع السوق المشتركة من ٣٥٪ سنة ١٩٧٤ العام السابق للاتفاق ، الى ٥٦,٢٪ سنة ١٩٧٧ . ووصف الاتفاق مع الولايات المتحدة بأنه « وثيقة سخية ومتمادية ولا مثيل لها من قبل » . وهي فعلا كذلك لانها قدمت لاسرائيل تسهيلات في السوق الاميركية ، ستكون لها نفس اثار التسهيلات التي قدمتها السوق الاوروبية المشتركة لاسرائيل .

٤٧ ـ التغيرات الايجابية التي شهدتها التجارة الخارجية لاسرائيل لناحية تحسن نسبة الصادرات للواردات رغم ضجيج وسائل الاعلام عن تزايد تدهور الميزان التجاري هي دون امكانات اسرائيل ، لانها قادرة على ضغط وارداتها اكثر ، لناحية وجود بعض الواردات التي يمكن الاستغناء عنها مؤقتا ولو كان هنالك وضع ضاغط على اسرائيل . اذ ، وبالرغم من وجود طاقة انتاجية عاطلة ، وبنسب كبيرة في الصناعة الاسرائيلية ، فقد استوردت اسرائيل سنة ١٩٧٧ بـ ٦٣٢,٩ مليون دولار سلعا استثمارية . وهذا الرقم يساوي ٤٢٪ من مقدار العجز في الميزان التجاري الاسرائيلي لسنة ١٩٧٧ . وفي ضوء مخططات اسرائيل لتعمير النقب ، من المتوقع ان يزيد العجز في الميزان التجاري بحكم ازدياد الحاجة الى السلع الاستثمارية اللازمة لعملية التعمير تلك .

٤٨ ـ اعطت اسرائيل اهتماما خاصا لفرع « الصناعة الحربية » الذي شهد نموا شبيها بالنمو الذي عرفته الصناعة ككل . وان كان للصناعة الحربية بريق خاص فان ذلك لا يعني ان الفكرة القائلة بان هنالك « صناعة حربية » تتبع لها صناعة اسرائيلية هي فكرة صحيحة . ان سياسة اسرائيل بتصنيع ما امكن من السلاح الذي تحتاجه ، جزء من التوجه العام الذي حكم سياسة اسرائيل الصناعية ، اي احلال المنتج محليا مكان المستورد كمرحلة اولى ، والتحول نحو التصدير كمرحلة ثانية .

٤٩ ـ تطورت الصناعة الحربية من الانتاج البسيط الى انتاج اعقد الاسلحة ،في ضوء الخبرات التي

تراكمت والاحتياجات التي برزت ، والامكانات التكنولوجية التي توفرت .

٥٠ ـ تنتج اسرائيل معظم احتياجاتها من مختلف انواع الاسلحة بما في ذلك الاسلحة المتطورة من صواريخ وطائرات ودبابات ودفعها لذلك أكثر من اعتبار تكنولوجي وأمني وسياسي ، واخيراً اقتصادي .

٥١ ـ ثمة تعاون وثيق جداً بين الصناعة الحربية الاسرائيلية والصناعات الحربية في اوروبا والولايات المتحدة . وان كان هنالك تركيز اعلامي على جوانب « الخلاف » و « التنافس » و « القيود » فان المساعدات الاجنبية التي تقدم للصناعة الحربية هي في تزايد وتنظمها اتفاقات واضحة وصريحة ومتناقضة مع الاخبار التي تقال للاستهلاك . باعتبار ان العلاقة بينهما هي على قاعدة الوفاق وليس الصـــراع. فراس المال الأجنبي موجود في هذه الصناعة ، وبالتالي فان الرساميل الأجنبية تجني نصيبها من أرباح الصناعة الحربية الاسرائيلية .

٥٢ ـ ضبطت اسرائيل عملية توظيف الرساميل الاجنبية في الصناعة الحربية الاسرائيلية على قاعدتين : تسهيل تسويق منتجاتها ، واكتساب مزيد من الخبرة التقنية . اضافة لذلك ، فهنالك « اسواق متروكة » لصادرات اسرائيل من الاسلحة لا تريد الامبريالية الامريكية لاعتبارات سياسية ان تتورط بعلاقات مكشوفة معها .

٥٣ ـ تحرص اسرائيل ، وعبر خطة مبرمجة ، على تخفيف ارتباط واعتماد صناعاتها الحربية بالصناعة الحربية الامريكية والاوروبية ومحاولة الدخول كشريك لها .

٥٤ ـ ثمة تركيز على مقدار ربحية الصناعة الحربية الاسرائيلية وحصر الموضوع في الاطار الاقتصادي والمالي المحض . تحقق نسبة كبيرة من فروع الصناعة الحربية ارباحا ، اضافة لذلك فان اكتساب خبرات تكنولوجية ، وتوافر صناعة محلية يمكن تصميمها بما يتناسب وظروف اسرائيل الخاصة ، اضافة الى ظروف الصراع العربي ـ الاسرائيلي وضمان السرية المطلقة حول ما لدى اسرائيل من اسلحة ، جميعها « مرابح » تعوض الخسائر المالية التي قد تتسبب بها الصناعة الحربيـــة الاسرائيلية ، هذا ان وجدت هذه الخسائر .

٥٥ ـ رغم التحالف الوثيق بين اسرائيل وحلفائها ، فانها تعمل بناء على القاعدة التالية . « الاهمية الأولى للصناعة الحربية هي تعميق استقلال اسرائيل ... ان السلاح يأتي من اميركا بصورة طبيعية لكنه خاضع لظروف سياسية » . ان وجود صناعة حربية اسرائيلية ، يوفر على حلفائها « احراجا » اذ هم قد يطالبون من قبل « عربهم » بمنع اسرائيل من استخدام اسلحتهم في اعتداءات اسرائيل . عندها يكونون قادرين على التملص ... فالسلاح الذي استعمل في العدوان هو سلاح منتج في اسرائيل لا تملك الولايات المتحدة او غيرها حق ممارسة ضغط بعدم استخدامه !

٥٦ ـ تحرص اسرائيل على تعميق التشابك والتداخل بين الصناعتين المدنية والحربية ، وتوفير امكانية تحويل الطاقة العاملة في الصناعة المدنية الى الحربية والعكس بالعكس في ضوء أي مستجدات . واسرائيل ليست النموذج الاول الذي يحدث مثل هذا التزاوج والتبادل ، ومن يخطط لصناعة محرك

قوته ٩٠٠ حصان يستخدم في الدبابة او الطائرة ، قادر وبسهولة على تحويله لصنع محرك السيارة او الجرار .

ختاما :

٥٧ ـ أن الصناعة الاسرائيلية المتنامية ، والتحولات البنيوية الجذرية التي شهدتها ، وتوسعها ، ومن ثم تمركزها ، يجعل من تصنيف البعض لاسرائيل بأنها دولة امبريالية ، وصف به قدر كبير من الصحة . ويوما بعد يوم تمتلك سمات الدولة الامبريالية لناحية اشتراكها في عملية تقسيم العالم على النمط الامبريالي بين دول تتخصص في تصدير المواد الخام واخرى في تصدير المواد المصنعة .

٥٨ ـ ان كانت اسرائيل لا تملك سمة أساسية من سمات الامبريالية الا وهي تصدير رؤوس الاموال ، فمن الاهمية بمكان التذكير بأن حركة رؤوس الاموال قد شهدت توجهات جديدة غير تلك التي كانت في مطلع هذا القرن ، حيث كان انسياب الرساميل من الدول البرجوازية الصناعية المتقدمة الى المناطق المتخلفة . بينما حدث في العقدين الاخيرين العكس ، فالنسبة الغالبة من حركة رؤوس الاموال هي بين الدول المتقدمة نفسها ، وفي هذا النطاق يمكن العودة الى الدراسة الرائدة لـ «بيرجالية» المعنونة بـ « الامبريالية عام ١٩٧٠ » و « نهب العالم الثالث » . اضافة لذلك تجدر الاشارة الى ما شهدته السنوات الأخيرة من هذا العقد لناحية تزايد حركة رؤوس الاموال من الدول المتخلفة الى الدول المتقدمة .

٥٩ ـ ان اسرائيل كجزء اصيل من المعسكر الامبريالي ، تسرع الخطى نحو التحول الى شريك متواضع ، بحكم حجمه ، للامبرياليات التقليدية يحمل في داخله بذور الأزمة التي تعاني منها الدول الامبريالية لناحية عدم التناسب بين تطور القوى المنتجة وعناصر الانتاج المختلفة ، خصوصا لناحية دخولها ان عاجلا أو آجلا في مرحلة « فيض الانتاج » الذي لا حل له الا بتصديره للخارج ، وتوفير رقع جديدة للاستغلال ، كما حدث تاريخيا بالنسبة لمختلف الدول الامبريالية وكما هو شأن اسرائيل سنة ١٩٦٦ ، حيث شهدت أزمة « فيض انتاج » وجدت لها حلا في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ والعلاقات الكولونيالية التي اقامتها معها .

٦٠ ـ تزايد الطاقة الانتاجية العاطلة في الصناعة الاسرائيلية ، من عام لآخر ، والتوسع المستمر في زيادة الطاقة الانتاجية ، يعني فيما يعنيه ان اسرائيل تجابه أزمة « فيض انتاج » جديدة مرشحة للتزايد ، تبحث عن حل لها عبر « تطبيع » العلاقات بينها وبين المنطقة العربية ، وبذلك سيمكن لها توفير حل لمشاكلها باسم السلام وتطبيع العلاقات بعد أن وفرت حلا لازمتها سنة ١٩٦٦ عبر حرب ١٩٦٧ . ان تطبيع العلاقات سيعني توفير امكانية تصدير اسرائيل لازمتها للخارج ، وهو شأن ستكون له آثار سلبية عديدة تمس مختلف جوانب الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، ومن ناحية ثانية ستكون له آثار ايجابية على مجمل التركيب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لدولة العدو ... وهذا مدخل بحث آخر الا وهو آثار السلام ، وتطبيع العلاقات على الاقتصاد الاسرائيلي .

صدر حديثاً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الجزء الثاني من :

الموسوعة العسكرية

رئيس التحرير
المقدم الهيثم الايوبي

شارك في اعداد هذا الجزء ٦٣ باحثاً عربياً
من المختصين بالعلوم العسكرية ،
أو العلوم الملامسة لعلم الحرب بمعناه الشمولي .

وهو يضم الموضوعات
التي تبدأ اسماؤها من حرف (خ) حتى حرف (ر) .

عدد الصفحات . ٨٤٨ . عدد الصور : ٤٩٤ .

عدد الخرائط · ١٢٦ . عدد المخططات التوضيحية ٩٩ .

السعر ١٨٠ ل.ل

القضية الفلسطينية في التعليم العربي

د. عدنان فياض أبو عمشة

الخبير بالجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبار .

التعليم رسالة ، وهو كأي رسالة له ثلاثة أبعاد هي : بعد المصدر الذي يعمل على تهيئة البرامج التعليمية وتنفيذها ونشرها وتقويم نتائجها : بعد الآخذ الذي يأخذ تلك البرامج التعليمية ويتمثل ما فيها من خبرات ومعلومات ، ينفعل بها ويفعل بها : بعد المحتوى وما فيه من خبرات ومفاهيم وقيم . وفيما يلي تحديد لهذه الابعاد في ضوء أهداف الدراسة .

اولا — بعد المصدر : يقتصر المصدر هنا على المؤسسات التربوية في أقطار الطوق العربية دون غيرها من الاقطار ، فمع الاخذ بعين الاعتبار ان القضية الفلسطينية هي قضية تحرر قومي وأن نضال العرب في سبيل تحرير فلسطين امتداد تاريخي وجغرافي لمسيرتهم النضالية في سبيل التحرر من يد الاستعمار وتحقيق الوحدة العربية وبناء المجتمع الموحد تكون العدالة الاجتماعية افضل ضمانة لتماسك صفوفه وقدرته على التطور والانتاج والصمود المستمر في وجه العدوان : ومع أنه لا يمكن اعتبار النضال في سبيل تحرير فلسطين منفصلا عن النضال في سبيل تحرير الامة العربية وتوحيدها وانقاذها من التخلف ، وأنه لا يصح النظر الى القضية الفلسطينية على أنها قضية الشعب العربي الفلسطيني وحده أو قضية الاقطار العربية المجاورة لفلسطين أو قضية مصر وسوريا وحدهما ، أو قضية قطر عربي دون آخر ، وانما هي قضية العرب جميعا ، وليس ذلك لاننا أبناء أمة عربية واحدة تشترك في وحدة المصير ، بل لان الخطر الصهيوني يتناول جميع أقطار الوطن العربي ، اما مباشرة عن طريق العدوان المسلح والتوسع أو بصورة غير مباشرة عن طريق بسط النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية والاستغلال : وأن الاطماع الصهيونية لا تنحصر في أرض فلسطين (الانتداب) وانما تمتد ساحتها لتشمل أجزاء كثيرة من الوطن العربي : ومع ذلك كله — وكثير غيره — يبقى ان أراضي لاربعة اقطار عربية محيطة بفلسطين مهددة بصورة مباشرة بالتوسع الصهيوني في مرحلته الاولى ، وأن استمرار هذا التهديد مرتبط باستمرار سعي الحركة الصهيونية في سبيل تحقيق المرحلة التالية من مشروعها . وأن الواجب يقتضي على المؤسسات التربوية في دول الطوق أن تعد شبابها اعدادا خاصا يناسب التصدي للاطماع الصهيونية ، فيكونون جدارا واقيا للعرب يحول دون التوسع الصهيوني . والمؤسسات التربوية المشرفة على هذا الاعداد مؤسسات حكومية ، متمثلة أساسا بوزارات التربية

والتعليم ، يساعدها مؤسسات تعليمية أهلية خاصة.وهي ترمي الى تحقيق هدف أو جملة أهداف ، يرسمها أصحاب القرار في القطر الذي تنتسب اليه . ونظرة سريعة الى هذه الاهداف نجد فيها الاتجاهات التالية :

(١) نأخذ بعين الاعتبار « هدف التربية والتعليم » الذي رسمته دول الجامعة العربية في « ميثاق الوحدة الثقافية » الذي ينص على : « تنشئة جيل عربي واع مستنير ، مؤمن بالله ومخلص للوطن ، يثق بنفسه وأمته ، ويدرك رسالته القومية والانسانية ، ويتمسك بمبادىء الحق والخير والجمال ، ويستهدف المثل العليا الانسانية في السلوك الفردي والجماعي . جيل يهيء لافراده أن ينموا شخصياتهم بجوانبها كافة ، ويملكوا ارادة النضال المشترك وأسباب القوة والعمل الايجابي متسلحين بالعلم والخلق ، كي يسهموا في تطوير المجتمع العربي والسير به قدما في معارج التطور والرقي ، وفي تثبيت مكانة الأمة العربية المجيدة وتأمين حقها في الحرية والامن والحياة الكريمة »[١].

(٢) وعملت الدول الاعضاء على سن التشريعات التربوية التي[٢] تنهض بهذا الهدف العام وابرازها في مجال العمل والتنفيذ . وبتحليل هذه التشريعات التربوية الصادرة نجد أنها تسعى الى تحقيق الاغراض التالية . فردية : فهي تريد تربية شخصية الطالب تربية متكاملة عقليا وخلقيا وبدنيا . واجتماعية : بحيث يشعر الطالب بأنه عضو في مجتمع له حقوقه وعليه نحوه واجباته وأن تكون أسس هذه الحقوق والواجبات مبنية على فكرة الحرية والعدل والمساواة واتاحة الفرص المتكافئة لجميع ابناء الشعب . وقومية : وأن تغرس في نفوس الطلبة محبة الوطن والاعتزاز بالقومية العربية وادراك وحدة الوطن العربي ومقومات الامة العربية . وعملية : وأن يكون مواطن الغد قادرا على استثمار أرض الوطن بجهوده الانتاجية . وانسانية . وأن يهدف هذا المواطن الى المثل العليا في السلوك الفردي والاجتماعي وأن يتمسك بمبادىء الحق والخير والجمال . وروحية : وأن يكون الجيل الجديد سليم العقيدة مؤمنا بالله متحليا بالاخلاق الفاضلة .

(٣) ولكنها قصرت دون التوصل الى الغاية القومية العربية في الوحدة والاشتراكية وأن مساهمتها في تحقيق هذه الغاية ما زالت دون ما يؤمل منها ولعل ذلك يعود الى جملة من العلل يعود بعضها الى حداثة عهد النهضة العربية والتحرر من الاستعمار ويرتبط بعضها الاخر بمتطلبات مقاومة التحدي الصهيوني من تعبئة جهد وتوجيه امكانات اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية لدرء خطره والتخلص منه . فالعرب جميعا لا يزالون يعانون من مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية وادارية ، لم يتغلبوا عليها لقلة تعاونهم وضالة موارد بعضهم وعجز وسائلهم وانعكس ذلك على التربية ، فبقيت غاياتها دون ما تأمل جماهير الامة العربية تحقيقه .

ونظرة فاحصة تبرز ما تعانيه تلك التربية من ضعف فيما يلي بعض وجوهه :

أ ـ الفلسفة القومية : فالتربية العربية لم تبن على فلسفة قومية عربية واضحة . فهي في هذا القطر تنطلق من فلسفة وطنية مغلقة نادرا ما تبرز صلاته القومية بالاقطار العربية الاخرى . وهي في قطر آخر تنطلق من فلسفة قومية اشتراكية تدعو للوحدة والحرية والاشتراكية . وهي في قطر ثالث

---

(١) جامعة الدول العربية ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ميثاق الوحدة الثقافية (ص ١ ، ٢) .
(٢) للاستزادة من معرفة هذه الاهداف يمكن الرجوع الى : المرسوم ٩١٠٠ الصادر سنة ١٩٦٨ في بيروت ، القرار رقم ١٣٨٥ الصادر سنة ١٩٦٧ في دمشق ، قانون التربية والتعليم رقم ١٦ لسنة ١٩٦ ، عمان ، قانون التعليم رقم ٦٨ لسنة ١٩٦٨ ، القاهرة .

تنطلق من تصور عربي اسلامي وتنطلق في قطر رابع منطلقا قوميا عربيا . فالتربية العربية لم تستمد فلسفتها من عقيدة أو غاية محددة ، وانما نظمت في أدوار متعاقبة سيطر عليها تقليد الدولة المستعمرة لهذا القطر العربي أو ذلك حيث وجب التجديد حينا آخر ، وهي في تقليدها أو تجديدها لم تبن على تجارب نفسية اجتماعية مستمدة من التاريخ العربي المشترك والحاجات القومية العربية المشتركة .

ب ــ المعاصرة : والتربية العربية تعتــز بالماضي ، حيث تسعى لانشاء جيل معتز بتراثه العربي ، والواجب أن تقف التربية العربية من حضارة العرب القديمة موقفا ايجابيا فاعلا فتجعل من الشعور بمآثر الاجداد حافزا على اكمال رسالتهم بما يضمون الى قديمهم من جديد ، فكما أنه ليس بمكنة العرب أن يقطعوا صلتهم بماضيهم ، كذلك ليس في مقدورهم أن يتجاهلوا التطور الذي حدث ويحدث في العالم .

جـ ــ الوظيفية . التربية العربية لا تحض بما فيه الكفاية على توجيه التعليم نحو الحاجات الاقتصادية التي تجمع بين استثمار موارد الطبيعة وتنمية الصناعة وتحسين مستوى الحياة ولم تهيىء المواطن المنتج القادر على استثمار ثروات الوطن الزراعية والمعدنية . ان قصر العمل التربوي على انماء الوعي القومي المجرد دون ربطه بنمو الانتاج عمل يقصر متطلبات العصر فالقول باحياء الوعي القومي من الامور البديهية ، ولكن الامر الذي يصل الى مستوى ذلك هو أن الأمة العربية لا تتغذى بالنظريات وحدها انما تتغذى أيضا بنمو الثقافات العلمية وتوجيه التعليم نحو الانتاج الاقتصادي . فالتعليم الذي لا يكون عاملا أساسيا في الانتاج القومي لا يبلغ غايته .

(٤) ــ ولم تتضمن أهداف التربية في لبنان نصا صريحا يؤكد عروبة فلسطين . وقد تحدثت أهداف التربية في سوريا عن القومية العربية والوحدة العربية والوطن العربي شاملة القضية الفلسطينية في حديثها مؤكدة عروبتها . وأبرزت أهداف التربية في الاردن ومصر بالنص الصريح عروبة فلسطين وضرورة العمل على استردادها وأكدت أهداف التربية في مصر الصلة بين الاستعمار والصهيونية وبين احتلال فلسطين[٣] .

ثانيا ــ بعد المستقبل : يتحدد المستقبل في هذه الدراسة بطلبة المرحلة الثانوية ، فهي تضم شبابا يتراوح أعمارهم بين ١٥ ــ ١٨ سنة ، والشباب أقدر على ادراك قضاياه القومية ، وهي (المرحلة الثانوية) تمتاز عن غيرها من المراحل (دون الجامعية) في قدرتها على تقديم معلومات وحقائق ترتبط بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني . والمرحلة الثانوية بالاضافة الى ذلك تكون نهاية التعليم عند كثير من الطلاب ، وبداية التدريب العسكري كما أنها تهيىء الشباب لمواصلة الدراسة في التعليم العالي أو العمل في ميادين الحياة .

ثالثا ــ بعد المحتوى : يقتصر بعد المحتوى هنا على محتوى كتب المواد الاجتماعية في المرحلة الثانوية فهي أقرب الكتب الى طبيعة هذه الدراسة « القضية الفلسطينية في التعليم العربي » وسيشخص محتواها ــ في ضوء أهداف الدراسة ــ في خطين متوازيين هما : الاول : كيف تقدم هذه الكتب المعلومات والحقائق المرتبطة بالمغتصب الصهيوني للارض الفلسطينية وستدور هذه المعلومات حول النقاط التالية : هوية الحركة الصهيونية ، المطامع الصهيونية التوسعية ، ارتباط مصالح الاستعمار بالصهيونية . والثاني : كيف تبرز ــ هذه الكتب ــ مقاومة العرب للمغتصب الصهيوني

---

(٣) كتبت هذه الدراسة قبل تغيير الأهداف والبرامج التعليمية في مصر مؤخرا .

ومحاولاتهم في استرداد ما اغتصبه ومن عناصره . مقاومة العرب للتحدي الصهيوني ، قضية فلسطين قضية قومية عربية ، اهمية الوحدة العربية في تحرير فلسطين .

(١) المعلومات والحقائق المرتبطة بالتحدي الصهيوني :

أ ـ **هوية الحركة الصهيونية** : تختلف كتب المواد الاجتماعية في المرحلة الثانوية في تحديد هوية الحركة الصهيونية ، وقد يظهر هذا الاختلاف في الكتاب الواحد في القطر الواحد وربما يعود السبب في ذلك الى الطريقة التي يتم فيها اعتماد الكتب المدرسية ، فالكتب اللبنانية ترى الحركة الصهيونية انها « حركة سياسية عنصرية قام بها زعماء اليهود المشتتون في جميع أقطار العالم وخاصة يهود أوربا والولايات المتحدة الامريكية لانشاء وطن قومي لهم في فلسطين »[٤] . وتراها الكتب السورية انها « حركة قومية تعمل من أجل انقاذ اليهود من الشتات وتجميعهم في وطن قومي واحد ... »[٥] . وهي في الكتب الاردنية « حركة سياسية دعامتها الرئيسية الايمان القومي اليهودي وهدفها احياء الروح القومية وتنميتها وانعاشها ... من أجل بعث دولة اسرائيل على أن تكون فلسطين قاعدتها »[٦] وهي في الكتب المصرية « حركة سياسية عنصرية هدفت الى تجميع يهود العالم وهجرتهم الى فلسطين لينشئوا وطنا ودولة يهودية فيها ، وليقيموا دولة اسرائيل من الفرات الى النيل »[٧] .

فالصهيونية في هذه الكتب حركة عنصرية عدوانية توسعية فهي عنصرية تهدف الى احياء الروح القومية اليهودية وتنميتها وأن يكون هذا الوطن لليهود دون سواهم من الناس وفقا لمقولة « شعب الله المختار » ، وعدوانية تغتصب وطن الآخرين بقوة العدوان ، وتوسعية تسعى لاقامة دولة اسرائيل من الفرات الى النيل . وهي بالاضافة الى ذلك تتصف بخصائص عديدة منها . المكر والخداع[٨] ، الاستيطان[٩] .حركة رأسمالية[١٠] .

ب ـ **المطامع الصهيونية التوسعية** : ابراز المطامع التوسعية الصهيونية ، وهي احدى أهم سمات العدو الصهيوني ، ليست ضرورية لتوضيح طبيعة العدو لعرب فلسطين فحسب ، بل لجميع العرب في سائر الاقطار العربية المحيطة بفلسطين ولا سيما دول الطوق ، فالتهديد بالتوسع يصلح أن يكون رباطا بين أبناء تلك الاقطار من زاوية هامة وهي مواجهة العدو المشترك الذي يهدد وجود الجميع على حد سواء .

وترد الاشارة الى المطامع التوسعية في الكتب اللبنانية على النحو التالي « ... وتطمع اسرائيل أن يصير عدد سكانها أربعة ملايين في وقت قريب جدا وأن تستوعب جميع يهود العالم البالغين ١٢ مليونا اذا واتتها الظروف وتوسعت على حساب الارض العربية»[١١]. وتشير الكتب السورية الى ذلك بقولها « .. أقيم بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٨ كيان اسرائيلي صهيوني قدم سكانه عن طريق البحر وسيطروا على فلسطين واحتلوا الجسر الواصل بين آسيا العربية وأفريقية العربية ... وما زالوا

---

(٤) التاريخ الجديد النموذجي للسنة الثانية الثانوية في لبنان ، ص ١٥٠
(٥) التربية القومية الاشتراكية . للمرحلة الثانوية في سورية . الجزء الاول ، ص ٦٢ .
(٦) القضية الفلسطينية . للصف الثالث الثانوي في الاردن ، ص ٢٨ ، ٣٢ .
(٧) التربية القومية :القومية العربية للصف الثالث الثانوي في مصر ، ص ١٥٩ .
(٨) التاريخ الجديد النموذجي ، مصدر سابق ، ص ١٥٥ .
(٩) التربية القومية الاشتراكية ، مصدر سابق ، ص ٤١ .
(١٠) التربية القومية الاشتراكية ، مصدر سابق ، ص ٦٢ .
(١١) التاريخ الجديد النموذجي للسنة الثانية الثانوية في لبنان ، ص ١١ .

يحاولون التوسع من حولها الى اليوم بشن الحرب بين آونة وأخرى وكان آخر ما شنوه عام ١٩٦٧ ، وبذا فقدت بلاد الشام مساحة تقرب من ٩٠ ألف كم ٢ ، يسكنها زهاء ٤ ملايين نسمة وهبطت مساحة الاقطار الحرة منها الى أقل من ٣٠٠ ألف كم ٢ يقطنها نحو ١٢ مليون نسمة في سورية ولبنان والاردن ....»[١٢] . وتتحدث الكتب الاردنية عن الاطماع التوسعية الصهيونية فتقول « ... قال بن غوريين في بيانه الرسمي الذي اذاعه على شعبه في اليوم الاول لقيام اسرائيل : تتميز دولتنا بأنها الوحيدة التي لا تعتبر غاية في ذاتها بل هي وسيلة فقط لتحقيق رسالة الصهيونية .... ليست هذه هي نهاية كفاحنا ، بل اننا اليوم قد بدأنا وعلينا أن نمضي حتى نحقق قيام الدولة التي جاهدنا في سبيلها . من النيل الى الفرات، ان هذه الخريطة ، خريطة فلسطين ليست خريطة دولتنا ... بل ان لنا خريطة اخرى عليكم أنتم أيها الطلاب مسؤولية تصميمها في الغد ، خريطة الوطن الاسرائيلي الممتد من النيل الى الفرات »[١٣] . وجاء في الكتب المصرية عن هذه الاطماع قولها « الحركة الصهيونية ذات اهداف توسعية ، فلم تكتف بما احتلته من فلسطين بل تنادي بأن دولتهم يجب ان تمتد من الفرات الى النيل ، ولذلك فان مطامع العدو الاسرائيلي غير قاصرة على دولة عربية واحدة ، بل تشمل كل الشرق العربي . ان خطر اسرائيل ليس قاصرا على فلسطين بل يتعداها الى سائر البلاد العربية . فهي تنادي باسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات ، كما وضح أن الدفاع عن الاراضي العربية وعروبة فلسطين لا يتحقق الا عن طريق الوحدة العربية وبذلك الدم العربي فلا يجوز الركون الى اية دولة اجنبية في هذا السبيل »[١٤] .

هذه النصوص وكثير غيرها تقرب من ذهن الطالب العربي في المرحلة الثانوية في اقطار المواجهة خطر الصهيونية المباشر عليه . فالصهيونية ليست مكتفية باغتصابها لارض عربية لشعب عربي شقيق فحسب وانما تهدد الوجود العربي بأطماعها التوسعية وان ابراز هذا التحدي وتأكيد اخطاره يهيىء الطالب « مواطن الغد » ويحثه على الاستعداد لمواجهته .

جـ ــ **ارتباط مصالح الاستعمار بالصهيونية** : كثيرا ما تبرز المواد الاجتماعية الرابطة بين المصالح الاستعمارية في الوطن العربي والمصالح الصهيونية . فالكتب اللبنانية مثلا تحدثت عن هذا الارتباط بقولها « ... والظاهر أن الصهاينة كانوا على اتفاق مسبق مع قوات الاحتلال البريطانية ، وأنها لن تحرك ساكنا ضدهم ، لذلك بدأوا هجومهم على العرب بوحشية لم يسبق لها مثيل ... وخافت الولايات المتحدة على ربيبتها اسرائيل أن يقذف بها العرب في البحر فاقترحت اقامة وصاية دولية على فلسطين ريثما تهدأ الاحوال فيها » [١٥] . وجاء في الكتب السورية قولها « ... فالاستعمار عمل على اقامة الدولة الصهيونية فوق أرض فلسطين من أجل تحقيق الاستراتيجية الهادفة الى السيطرة على المنطقة العربية واستغلال ثرواتها واعاقة تطورها ، وذلك عن طريق اناطة المهمات التالية بالدولة الصهيونية ، أن تكون دولة الصهاينة عقبة أمام النضال العربي الوحدوي وحجر عثرة أمام نزوع جماهير الامة العربية الى الوحدة ، وأن تكون فاصلا جغرافيا بين عرب المشرق في آسيا وعرب المغرب في أفريقيا . أن تكون قاعدة مسلحة للاستعمار وعصا يلوح بها في وجه حركة التحرر العربية ويستخدمها عند الاقتضاء لوقف المد الثوري العربي وذلك بدفعها الى العدوان المسلح . ان تكــون وسيلة لدى

---

(١٢) جغرافية الوطن العربي للصف الثالث الثانوي الادبي في سورية ، ص ٢٨ .
(١٣) التربية القومية العربية للصف الثالث الثانوي في مصر ص ١٦٢ ، ١٧٧ .
(١٤) التربية القومية العربية للصف الثالث الثانوي في مصر ، ص ١٦٢ ، ١٧٧ .
(١٥) التاريخ الجديد النموذجي للسنة الثانية الثانوية ، ص ١٦١ .

الاستعمار لتكريس التخلف العربي ، وذلك لانها تشكل من جهة عقبة أساسية أمام قيام الوحدة العربية التي سينطوي تحقيقها على القضاء على التخلف ولانها من جهة ثانية تمثل اعاقة مباشرة لتطور الوطن العربي اقتصاديا واجتماعيا بسبب اضطرار الامة العربية لرصد الجزء الاكبر من طاقاتها البشرية والاقتصادية للدفاع عن نفسها أمام الخطر الصهيوني »[١٦] .

وذكرت الكتب الاردنية هذا الارتباط فقالت . « من المرجح أن بريطانيا اعطت وعد بلفور لليهود حرصا منها على تقطيع أوصال الوطن العربي الذي يهدد سيطرة انجلترا على القناة في حالة اتحاده واتصال أبنائه بأشقائهم المصريين فأرادت خلق اسرائيل في قلب الوطن العربي من جهة القناة للاطمئنان على مصالحها من تلك الناحية كما وضعت يدها على خليج العقبة »[١٧] . وترى الكتب المصرية أن الحركة الصهيونية مرتبطة ارتباطا عنصريا بالاستعمار في نشأتها وبنيانها وأهدافها ومصيرها وهي تشكل أخطر حلقة في سلسلة الغزوات الاستعمارية للوطن العربي في عصرنا الحاضر[١٨] .

ومن ذلك جميعه يتضح جليا سبب اتفاق الاستعمار والصهيونية على اقامة كيان غريب في المنطقة يفصل شرق الأمة العربية عن غربها ويفرض عليها التجزئة ويحول بينها وبين الوحدة العربية وهي دولة اسرائيل .

(٢) التصدي العربي للتحدي الصهيوني :

أ ـ مقاومة العرب للتحدي الصهيوني : البحث في مقاومة العرب للتحدي الصهيوني بشقيها العربي والفلسطيني يستدعي القيام بوضعها في اطارها التاريخي الصحيح ومعالجتها داخل ذلك الاطار ، كما يستدعي النظر اليها من زاوية المراحل المختلفة التي مرت بها ووصلت اليها غداة قيام الحركة الصهيونية المنظمة واعلانها الرسمي عن الاهداف والغايات التي تعمل جادة في سبيلها ، خلال الفترة التي انقضت من تاريخ الصهيونية حتى اليوم . أما الاسلوب الذي جرى اعتماده هنا في بحث الموضوع وعرض المرتكزات الرئيسية التي تدخل صلب المقاومة فقد انتهج فيه التقسيم الزمني والتاريخي الى مرحلتين رئيسيتين (ضمنها مراحل فرعية) اجتازتها المقاومة العربية والفلسطينية وهذه هي : مرحلة ما قبل قيام دولة اسرائيل ١٩٤٨ ، والمرحلة التي تلت قيام الدولة .

بدأت المقاومة العربية للصهيونية منذ أن بدأت الهجرة اليهودية المنظمة الى فلسطين تتخذ طابع الاستيطان والاقامة الدائمة فيها ولكنها اشتدت خلال فترة الانتداب ، خاصة بعد أن افتضح التواطؤ البريطاني الصهيوني وانكشف غايته وبانت أساليبه ، وقد ابرزت كتب المواد الاجتماعية في المرحلة الثانوية ذلك على النحو التالي : جاء في كتاب التاريخ الجديد النموذجي للسنة الثانية الثانوية في لبنان ما يلي : « لم يقف الفلسطينيون العرب مكتوفي الايدي أمام ما كان يجري في بلادهم بل الفوا الجمعيات وأرسلوا الاحتجاجات وقاموا بالمظاهرات والاضرابات وعمدوا الى الثورة المسلحة فاصطدموا أولا في سنة ١٩٢١ ببعض الصهاينة في مدينة يافا ولولا تدخل بريطانيا آنذاك لعمت الثورة جميع أنحاء البلاد ... وجدد العرب اضطراباتهم في سنة ١٩٢٢ وكانوا في هذه المرة منظمين وموجهين

---

(١٦) التربية القومية الاشتراكية للمرحلة الثانوية في سورية ، الجزء الاول ، ص ١٠٠ .
(١٧) الوطن العربي للصف الثالث الثانوي ، العلمي في الاردن ص ٥٨ .
(١٨) التربية القومية ، القومية العربية للصف الثالث الثانوي في مصر ، ص ١٠٠ .

من قبل اللجنة العربية العليا فاستدعى عندئذ البريطانيون عشرين ألف جندي رابطوا في فلسطين لدرء كل خطر يهدد السلام في البلاد »(١٩) .

ويخصص كتاب التربية القومية الاشتراكية للمرحلة الثانوية في جزئه الاول أكثر من عشرين صفحة للحديث عن النضال العربي ضد الصهيونية خلال مراحله المختلفة . قبل الحرب العالمية الاولى وخلالها ، في مرحلة ما بين الحربين ، الحروب العربية الاسرائيلية . وقد أبرز أهم ميزات المرحلة على النحو التالي عنف نضال الشعب العربي الفلسطيني ضد كل من الانتداب البريطاني والاستيطان الصهيوني وتلاحم الثورات العربية واعتمادها على الفلاحين والطليعة المثقفة والعمال الذين كان اسهامهم الثوري يتزايد بشكل واضح مع تزايد نموها · اصرار القيادات التقليدية والزعامات المحلية على عدم الاصطدام بالسلطة البريطانية وتوجيه العنف ضد الصهيونية فقط · ضعف الاتصال في بادىء الامر مع الاقطار العربية المجاورة لفلسطين وانشغال هذه الاقطار نفسها بكفاح عنيد ودام ضد جيوش الاحتلال ثم نجاح القوى الثورية العربية ولا سيما في سورية في اعادة التواصل الثوري وفي دعم الثورة الفلسطينية وامدادها سنة ١٩٣٦(٢٠) .

وأما الكتب الاردنية فقد أوردت مقاومة العرب الفلسطينيين لمشاريع الاستيطان الاستعمارية على النحو التالي : « ثار العرب الفلسطينيون ابطالا مناضلين مدة ثلاثين عاما لم يهنوا خلالها ولم يلينوا ولم يستكينوا » . ثم يبرز كتاب القضية الفلسطينية للصف الثالث الثانوي أهم الثورات الفلسطينية في هذه الفترة وهي عدة : ثورة عام ١٩٢١ ، ثورة عام ١٩٢٩ ، ثورة عام ١٩٣٣ ، ثورة عام ١٩٣٦ . وأنه يرى أن ثورة ١٩٣٦ قد تميزت بظواهر لم تتوافر لغيرها من الثورات فهي : واجهت الانتداب البريطاني باعتباره رأس الداء ؛ كانت ثورة تخللها معارك حربية عنيفة منظمة ؛ تكاتف العرب الفلسطينيون صفا واحدا في الثورة بحيث اشتركت فيها جميع طبقات الأمة ؛ اشترك بالثورة اشتراكا فعليا ولاول مرة العرب غير الفلسطينيين عن طريق التطوع وامداد المجاهدين بالسلاح والعتاد · اشتركت الحكومات العربية بالثورة بطريق غير مباشر وذلك بأن تدخلت على الصعيد الرسمي للوصول الى تسوية ترضي عرب فلسطين . ومن رأي مؤلف الكتاب أيضا أنه بهذه المميزات برزت ثورة عام ١٩٣٦ ثورة شعب عربي واحد كان يرنو الى غاية واحدة : المحافظة على فلسطين عربية وانقاذها من براثن الصهيونية(٢١) .

وينتقل مؤلف الكتاب الى ناحية أخرى من نواحي مقاومة العرب للمشروع الصهيوني وهي ناحية المؤتمرات فيقول : « ولدرء الخطر الصهيوني عن فلسطين العربية عقد العرب عددا من المؤتمرات كان منها · مؤتمر انشاص ٢٨/٥/١٩٤٦ ، مؤتمر بلودان ٨/٦/١٩٤٦ ، مؤتمر لندن . وكان من أهم قرارات هذه المؤتمرات الآتي : « ... تهديد مصالح بريطانيا والولايات المتحدة الاقتصادية والنفطية وذلك بعدم السماح لها أو لرعاياهما بأي امتياز اقتصادي ؛ عدم تأييد مصالح الدولتين الخاصة في أية هيئة دولية؛ النظر في الغاء ما لهما من امتيازات في البلاد العربية؛ رفع الشكوى ضدهما الى مجلس الامن أو هيئة الأمم المتحدة ... »(٢٢) .

---

(١٩) التاريخ الجديد النموذجي ، السنة الثانية الثانوية في لبنان ، ص ١٥٦ .
(٢٠) التربية القومية الاشتراكية ، للمرحلة الثانوية في سورية ــ الجزء الاول . ص ٨٩ ، ٩٠
(٢١) القضية الفلسطينية للصف الثالث الثانوي في الاردن ، ص ٨٩ ــ ٩٠
(٢٢) القضية الفلسطينية للصف الثالث الثانوي في الاردن ، ص ١٠٧ .

وتمضي السنون ولا يجد قرار من هذه القرارات فرصة تطبيقه وتراجع العرب عن مواقفهم حتى أننا نجد اليوم من لا يجرؤ مناقشة مثل هذه القرارات ويعتبرها ضربا من المغامرة وان امتناع دول النفط عن مد الدول الغربية بنفطها خلال حرب ١٩٧٣ يعتبر نصرا قوميا كتبت وتكتب حوله الدراسات والابحاث ولا يذكر بجانبه شهادة الشهداء من العرب الذين آمنوا بحقهم القومي فصدقوا ما امنوا به واستشهدوا في سبيله .

وتحت عنوان « كفاح فلسطين ضد أطماع الصهيونية والانتداب البريطاني » يتحدث كتاب « تاريخ العرب الحديث والمعاصر » للصف الثالث الثانوي الادبي في مصر عن مقاومة عرب فلسطين للتحدي الصهيوني فيقول . « وادرك عرب فلسطين ما يدبر لهم ، ففي الوقت الذي تقوم فيه محاولة اقامة مملكة عربية سورية في دمشق (مملكة فيصل) رأوا بلادهم تقتطع من الوطن السوري لتفتح أبوابها لشذاذ الافاق من اليهود من كل فج وانفجر شعور العرب في ابريل سنة ١٩٢٠ في شكل مظاهرات عنيفة سالت فيها الدماء ، فكانت الحلقة الاولى في سلسلة الاضطرابات التي عبر بها العرب عن سخطهم على السياسة البريطانية والاطماع الصهيونية ، ومنذ ذلك الوقت تبلور كفاح العرب في الاهداف الرئيسية التالية · الغاء وعد بلفور ، رفض الانتداب البريطاني ، استقلال فلسطين وتشكيل حكومة نيابية(٢٣) . واتصلت الحركة العربية في فلسطين ــ في المدة بين الحربين ــ بالحركات المجاورة في سورية ومن ذلك اجتماع المؤتمر العربي الفلسطيني (اغسطس ١٩٢٢) وقراره بطلب الاعتراف بحق سورية ولبنان وفلسطين في الاتحاد وتأليف حكومة مشتركة والغاء الانتداب ووعد بلفور وجلاء القوات الفرنسية والانجليزية(٢٤) .

وتساهم كتب المواد الاجتماعية في المرحلة الثانوية في تقديم معلومات وحقائق ترتبط بالحروب والمعارك التي دارت بين اسرائيل ومن يناصرها من جهة وبين الدول العربية ، فبعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٥/٥/١٩٤٨ هاجمتها الدول العربية بجيوشها النظامية واجتاحتها من جميع الجهات ولم يمض زمن طويل على ذلك حتى كانوا على أبواب تل أبيب ، يهددون جميع المواقع اليهودية الهامة ، تجاه هذا الموقف الحرج ضغطت الدول الكبرى على مجلس الامن فاتخذ قرارا بوقف القتال ...(٢٥) .

وفيما يلي أسباب دخول الجيوش العربية النظامية الحرب وبيان نتائج الحرب وأسباب خسارتها كما تقدمها كتب المواد الاجتماعية لطلبة المرحلة الثانوية :

1 ــ أسباب دخول الجيوش العربية يوم ١٥/٥/١٩٤٨ المعركة ضد اسرائيل : عدم تنفيذ بريطانيا لما تعهدت به بالكتاب الابيض سنة ١٩٣٧ · جور قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ وظلمه ومجافاة ما ورد فيه لحقوق شعب فلسطين المشروعة : وضع حد للفوضى التي انتشرت في فلسطين عند اعلان انتهاء الانتداب البريطاني : رغبة العرب في منع امتداد الفوضى والاضطرابات في فلسطين الى البلدان المجاورة بسبب هياج الرأي العام فيها : مساعدة سكان فلسطين في اعادة النظام لبلادهم في انشاء دولة فلسطينية موحدة وفق المبادىء الديمقراطية ...(٢٦) .

---

(٢٣) تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، للصف الثالث الثانوي الادبي في مصر ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢٤) تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ .
(٢٥) التاريخ الجديد النموذجي ، للسنة الثانية الثانوية في لبنان ، ص ١٦٢ .
(٢٦) التربية القومية الاشتراكية ، للمرحلة الثانوية (مصدر سابق) ص ٩٢ ــ ٩٤ .

هناك عبارتان وردتا في الفقرة السابقة جديرتان بالمراجعة والتحليل لم يعطهما المؤلف ما يستحقانه من العناية رغم أن كتابه يدرس في الصف الثالث الثانوي في الاردن في العام الدراسي الحالي أولاهما : حقوق شعب فلسطين المشروعة : فقد وردت دون تحديد ، فقد كانت بالامس تعني حقوق كامل الشعب العربي الفلسطيني على جميع أراضي الوطن الفلسطيني دون أخذ بالاعتبار لعامل الديانة ، وأن على رأس هذه الحقوق حق تقرير المصير وأن يقيم الفلسطينيون دولتهم المستقلة على أرض وطنهم ، وأصبحت الان ـ بعد عدد من الحروب وكثير من المعارك ـ تقتصر على حقوق جزء من الشعب العربي الفلسطيني على جزء بسيط من أرض وطنه .... وما رفض بالامس صار مطلبا قوميا اليوم نرجو الاعداء أن يوافقوا عليه . والعبارة الثانية . رغبة العرب في منع امتداد الفوضى والاضطرابات . رغم صدق العبارة الا انها لا تمثل رغبة العرب حقيقة بل هي رغبة الانظمة العربية السائدة حينذاك في الدفاع عن وجودها لذلك جاءت محاولتها غير جادة اقتصرت على حماية حدودها ووقوف جيوشها عند حدود التقسيم ولم يتجاوزها .... بينما استشهد كثير من العرب غير الفلسطينيين على أرضهم القومية لا منعا لامتداد فوضى أو انتشار الاضطرابات بل دفاعاً عن وطن يحتله الأعداء .

ب ـ نتائج حرب ١٩٤٨ . يلخص كتاب التربية القومية الاشتراكية للمرحلة الثانوية في سورية نتائج حرب١٩٤٨ على النحو التالي : قيام الدولة الصهيونية قاعدة عسكرية للامبريالية العالمية قائمة في قلب الوطن العربي : سيطرة الدولة الصهيونية على حوالي ٢٠ الف كم ٢ ٠ خروج حوالي ٧٥٠ ألف عربي من ديارهم وتحويلهم الى لاجئين في الاقطار العربية المجاورة وفي مناطق أخرى من العالم ٠ وقوع ١٧٠ الف عربي ممن بقوا في فلسطين تحت حكم اسرائيل الجائر الذي فرض عليهم القيود ٠ ضم الضفة الغربية الى شرق الاردن وما ترتب على ذلك من محو اسم فلسطين تماما من خارطة العالم ...(٢٧) .

جـ ـ أما أسباب اخفاق العرب في حرب ١٩٤٨ فيوردها كتاب التاريخ الجديد النموذجي للسنة الثانية الثانوية في لبنان كما يلي . قضاء الاسرائيليين على المقاومة العربية في فلسطين قبل دخول الجيوش العربية النظامية : تواطؤ بريطانيا السافر مع اسرائيل ، فقد تركت اليهود يتسلحون ومنعت ذلك عن قوات الانقاذ : فقدان الانسجام بين القوات العربية لعدم وجود القيادة الموحدة وافتقار العرب الى الصناعات العسكرية ، ورفض الدول الكبرى امدادهم بالسلاح والذخيرة وامداد اسرائيل بذلك : تأييد الدول الكبرى كالولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي وفرنسا وانجلترا للصهيونية وضغطهم على العرب : قلة الجيوش العربية بالنسبة للجيوش الاسرائيلية ، فقد كان مجموع القوات العربية المقاتلة خمسة عشر الفا فقط بينما كان عدد الجنود الاسرائيليين ٧٠ الفا ٠ طول المواصلات العربية ، فقد كان على المصريين والعراقيين أن يقطعوا مئات الكيلو مترات لتموين جيوشهم المشتركة في القتال : روح الشهامة التي حارب بها العرب ، وقد تجلت عند محاصرتهم للقدس فانهم سمحوا بامداد سكانها بالطعام والماء : الخلافات التي كانت ناشئة بين العرب أنفسهم واختلاف ارتباطاتهم الدولية(٢٨) .

ما تقدم يبين أن كتب المواد الاجتماعية في المرحلة الثانوية قد أبرزت مراحل تطور القضية

---

(٢٧) التربية القومية الاشتراكية ، للمرحلة الثانوية (مصدر سابق) ص ٩٢ ـ ٩٤ .
(٢٨) التاريخ الجديد النموذجي ، للسنة الثانية الثانوية في لبنان ، ص ١٦٤ ، ١٦٧

الفلسطينية ، وقدمت معلومات مرتبطة بالتحدي الصهيوني من حيث طبيعته وأهدافه وأساليبه ووسائله ومن حيث مقاومة العرب له . وحتى تتمكن — هذه الكتب — من اداء رسالتها على الوجه الاكمل ينبغي أن تحقق ما يلي . تنسق فيما بينها — في جميع البلاد العربية — في عرضها لمراحل القضية الفلسطينية فلا ينفرد كتاب في قطر في عرض جانب دون اخر ولا يلتفت اليه كتاب آخر في قطر اخر · أن توحد المفاهيم المستخدمة ، ولا سيما المرتبطة بالوحدة العربية ومقاومة التحدي الصهيوني ، وبأهمية الوحدة في مقاومة التحدي الصهيوني · أن تنطلق في مقاومتها للتحدي الصهيوني من منطلق قومي عربي : أن تعتبر الكفاح المسلح بمثابة الطريق الوحيد لتحرير فلسطين ، فهو يعتمد على الشعب العربي الفلسطيني كأساس وعلى الشعب العربي كمركز كبير للتنفس من خلاله تدريبا واعدادا وامدادا ومشاركة ، وأن تبرز ما يمكن أن يقوم به طالب المرحلة الثانوية في هذا المجال وما يترتب عليه أن يفعله غدا · رفض كل حل لا يؤدي الى تصفية الكيان الصهيوني المحتل لفلسطين ورفض كل المشاريع الرامية الى تصفية الحقوق القومية العربية في فلسطين أو تدويلها أو فرض الوصاية على الشعب العربي الفلسطيني من قبل اية جهة : العمل على ابراز الشخصية الفلسطينية بمحتواها النضالي الثوري في الحقل الدولي .

ب — **قضية فلسطين قضية قومية عربية** : ان التحدي الذي تثيره قضية فلسطين ليس قائما بين الشعب العربي وبين اليهود لانهم يهودا ، وهذا خطأ جسيم في فهم القضية . ان العروبة قومية واليهودية دين . ولكل منهما دلالة مختلفة ، على مضامين مختلفة. القومية العربية علاقة انتماء الى مجتمع قومي . والدين اليهودي علاقة ايمان بمقولات ميتافيزيقية ، وكما يكون العربي يهوديا ويبقى عربيا ، يكون اليهودي منتميا الى أي واحد من المجتمعات التي تملأ الارض دون أن يكون ثمة تناقض بين انتمائه الاجتماعي وايمانه الديني . ليس ثمة شيء أبعد عن حقيقة قضية فلسطين وأكثر تشويها لها من القول بأنها قضية تحد ديني يحلها قبول التعايش بين الاديان على أرض فلسطين . فيوم أن اغتصب الصليبيون المسيحيون أرض فلسطين ، قاتل العرب مسلمين ومسيحيين الى أن استردوا الارض المغتصبة ، ومن قبل أن يبدأ العدوان الصهيوني على فلسطين كان العرب من كل دين يعيشون في سلام على أرض فلسطين . ان قضية فلسطين قضية أرض مغتصبة وليست قضية تبشير بأحد الاديان ، قضية قومية ليست قضية دينية ، اذا كان الصهاينة يخلطون القومية بالدين ويبررون العدوان بنصوص من التوراة ، فذلك ما يقوله المعتدون أنفسهم لخدمة أغراضهم ، أو لتبرير عدوانهم .

وانه عندما ينزلق أحد من العرب الى هذا الخطأ يكون قد قبل حجة المعتدين وشوه حقيقة القضية فلا يعرف حلها الصحيح ولا يستطيع أن يحلها . فعندما ينسى الأمة التي ينتمي اليها والواقع القومي الذي تثور فيه القضية ويقدم الدين بديلا عن القومية أو عندما ينفعل اخر ويصب جام غضبه على ابناء أمته العربية من اليهود ، لا يفعل شيئا بتلك الاخطاء سوى خذلان امتهم المعتدى عليها والانتصار للصهيونية اذ عندما يصبح الدين بديلا عن القومية ثم تطرح قضية فلسطين ينتهي الامر الى اقتسام الوطن العربي فيما بين الاديان الثلاثة على الاقل ، وأيا ما كانت النسبة بين الاقسام فيمنعون على كل مسلم أو مسيحي أن يخرج من أرض اليهود بهذا أن يقبلوا الحل الصهيوني الذي يظنون أنهم يحاربونه .

ويترتب على ما سبق أن قضية فلسطين هي قضية تحرر قومي ، تشكل المحور الاساسي للنضال

العربي المعاصر ، فدحر العدوان الصهيوني وتحرير الأرض العربية سبيلان سويان لانعتاق الامة العربية من القيود التي تعوق انطلاقها في سبيل تحقيق أهدافها وفي الوحدة والحرية والاشتراكية وما دام الوجود الصهيوني على الارض العربية فانه يشكل عائقا اساسيا يحول دون تحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الموحد(٢٩) .

جـ ـ **أهمية الوحدة العربية في تحرير فلسطين** : تربط كتب المواد الاجتماعية في المرحلة الثانوية بين الوحدة والتحرير ويكتفي بعضها بابراز هذه الرابطة ، في حين يسعى بعضها الاخر على تأكيد العلاقة الجدلية بين الوحدة والتحرير من ذلك مثلا . كيف نستطيع التغلب على اسرائيل؟ سؤال يطرقه كتاب التاريخ الجديد النموذجي للسنة الثانية الثانوية في لبنان ويجيب عنه بما يلي . « ..... والجواب بسيط جداً وهو في جمع كلمة العرب فكل انشقاق في الصفوف العربية وكل خلاف مهما كان بسيطا يقوي اسرائيل »(٣٠) . فالوحدة العربية هنا تأخذ شكل جمع الكلمة من أجل غاية محددة بذاتها : التغلب على اسرائيل ، دون عرض لكيفية جمع الكلمة وسبل جمعها ومحتوى هذا الجمع وهل يمكن أن يكون له أهداف أخرى غير التغلب على اسرائيل ؟

ويحاول كتاب التربية الاشتراكية للمرحلة الثانوية في سورية أن يسد النقص فيتحدث عن جدلية الوحدة العربية وتحرير فلسطين قائلا :« ... ان تجزئة الوطن العربي وبعثرة قواه البشريـة والاقتصادية والعسكرية ضمن مجموعات متعددة تعجز كل واحدة بمفردها عن مواجهة الوجود الصهيوني المدعم بالامبريالية العالمية ، يكشفان عن عمق ارتباط مسألة الوحدة العربية بالنضال العربي ضد الصهيونية والامبريالية ، واذا كانت الصهيونية والامبريالية تشكلان مجتمعتين أخطر تحد للوحدة العربية فان هذه الوحدة تشكل بدورها أخطر تحد لهما ... »(٣١) . ويشير في مكان اخر الى علاقة نسبية بين مسعى العرب نحو الوحدة ومحاولة القوى المعادية وعلى رأسها الحركة الصهيونية احباط هذا المسعى ، كما يلي : « وبكلمة واحدة ، اذا كانت أهداف جماهير الامة العربية من المحيط الى الخليج تتلخص في الوحدة والحرية والاشتراكية فان دولة الصهاينة هي الاداة الرئيسية في يد الاستعمار والاستغلال والتخلف ، وان الخطر الصهيوني على الامة العربية ليزداد استفحالا كلما زاد المد الثوري العربي واشتد ساعد النضال الجماهيري في سبيل بلوغ أهداف جماهير الامـة العربية ... »(٣٢) .

ويربط كتاب القضية الفلسطينية للصف الثالث الثانوي في الاردن بين الوحدة العربية الاسلامية وبين تحرير فلسطين على النحو التالي « ... الوحدة العربية وسيلة لا بد من تحقيقها كي نضمن النجاح في المعركة المقدمة لتحرير فلسطين وهذه الوحدة بحاجة لان تلتقي حول رسالة العرب الاسلامية والقضاء على موجة الالحاد والفساد التي دخلت العالم العربي وقسمت شبابه الى أحزاب أشعلت نار البغضاء والعداوة بين الاخوة والاشقاء »(٣٣) . فالوحدة العربية هنا ذات مضمون اسلامي ، والصراع الذي يدور رحاه على الارض العربية منذ قرابة قرن من الزمان صراع بين اسلام ويهود وهو امتداد للصراع التاريخي الذي بدأ مع بداية الدعوة الاسلامية . والكتاب بالاضافة الى ذلك يقف موقفا

---

(٢٩) التربية القومية الاشتراكية ، للمرحلة الثانوية في سورية ، ص ١٠١ .
(٣٠) التاريخ الجديد النموذجي ، للسنة الثانية الثانوية في لبنان ـ مصدر سابق ـ ص ١٧٢ .
(٣١) التربية القومية الاشتراكية ، للمرحلة الثانوية ، مصدر سابق بالجزء الثاني ، ص ٤٣ .
(٣٢) القضية الفلسطينية ، للصف الثالث الثانوي في الاردن ، مصدر سابق ، ص ١٦٦ .
(٣٣) القضية الفلسطينية ، مصدر سابق ، ص ١٦٦ .

معاديا من الانتماء الى الاحزاب ، الامر الذي تدعواليه بحرارة الكتب السماوية . وهو يرى أن الاحزاب مسؤولة عن اشعال نار البغضاء والعداوة بين الاخوة والاشقاء وفي ذلك مبالغة لا مبرر لها . ولو أنه كان يقصد التحزب أو التعصب بدلا من الحزبية لكان أقرب الى ما يريد ولا يخفى على المؤلف الفارق بين الانتماء الى حزب وبين التعصب لرأي أو عقيدة ما فتاريخه السياسي يشهد له بذلك . وبهذه المناسبة ايضا يثور السؤال التالي : لم يواجهنا العدو في كل حروبه التي يشنها علينا متحدا رغم أن ما عنده من الاحزاب يفوق عددا على عدد الاحزاب العاملة في الوطن العربي ؟

والمؤلف يدعو الى « اعادة النظر في خطط الثقافة والاعلام في الدول العربية وتوجيه أجهزتها الى خطة جديدة تبعد عن شبابنا كل ما يساعد على فساد العقول وانحلال الاخلاق ولا بد من اعادة النظر في برامج التعليم بحيث يساهم في اخراج جيل مسلم شجاع يضحي بنفسه في سبيل الله ، متين الخلق صلب المراس ... »(٣٤) .

اعادة النظر في خطط الثقافة والاعلام في الدول العربية واجبة حتى تأتي موافقة لحضارة العصر وما تتطلبها عملية المعاصرة من عادات جديدة وقيم مناسبة . ولكن المؤلف لم يرسم للجيل المسلم الشجاع القادر على التضحية دورا في بناء وطنه كما فعلت بعض الكتب السورية مثلا وأبرزته على النحو التالي « ... تؤكد منطلقات اتحاد شبيبة الثورة على ضرورة الاخذ بأهداف الطبقة الكادحة وضرورة الانتماء اليها ، وكذلك بروح المثل والتربية القومية والاشتراكية التي يجسدها الانسان العربي الثوري في تطلعه لبناء وطنه وتحريره من الاستغلال والقهر الاستعماري والنضال من أجل بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد وقد قامت الشبيبة باسهامات كبيرة في التوعية والعمل الشعبي الطوعي واقامت معسكرات العمل والتثقيف وتبرع الشباب بساعات عمل مجانية في المصانع ، كما قامت بدور مشرف في حرب السادس من تشرين أول (أكتوبر) التحريرية ، اذ قامت باخلاء المرافىء من المواد الاولية تحت القصف الوحشي للعدو وانقذ الشباب اسطوانات الغاز من مصفاة حمص تحت حرارة النيران وغير ذلك من الاعمال المجيدة التي ستبقى خالدة خلود شعبنا العربي الاصيل بالاضافة للاعمال الاخرى من حراسة ودفاع مدني وغير ذلك ... »(٣٥) .

فالكتاب يجعل للطالب دورا مزدوجا فهو يساهم في بناء وطنه العربي من ناحية ويدافع عن أمته وسلامته ضد أي عدوان عليه من ناحية أخرى . وموجز القول ، فالتضامن العربي الذي يتجلى باستمرار في جميع المعارك التي تخوضها الاقطار العربية منفردة ومجتمعة ضد الرجعية والامبريالية العالمية والصهيونية انما يفرضه الانتماء الى القومية العربية الذي يشد الجماهير العربية ويدفعها الى الكفاح المشترك بحكم الوجود العربي ووحدة مصيره الفعلية ، وقد أثبتت تجربة النضال العربي هذه الوحدة بأقوى أشكالها في جميع المعارك النضالية التي خاضتها الاقطار العربية من أجل التحرر والتقدم ولا سيما في مواجهة الصهيونية العالمية .

تعليم الفلسطينيين العرب

الفلسطينيون العرب موزعون على أقطار عربية وأجنبية عديدة ويعوزهم وجود علاقات انتاج

(٣٤) القضية الفلسطينية ، مصدر سابق ، ص ١٦٦ .
(٣٥) التربية القومية الاشتراكية ـ مصدر سابق ـ الجزء الثاني ، ص ٨٩ ـ ٩٠

تتميز بثبات نسبي تحفظ لهم تماسكهم الداخلي وتمنحهم تكتلا بحيث يتعرف فيه الفرد الفلسطيني على نفسه ويحدد موقعه من جماعته . وقد جاء توزعهم نتيجة نكبات أو قعتها بهم قوى خارجية صهيونية وامبريالية فرضت سيطرة ارادتها على ارادتهم على النحو التالي . الاراضي المحتلة ١,٨٤٥,٠٠٠ ، الضفة الشرقية ١,١٦٦,٠٠٠ ، لبنان ٣١١,٠٠٠ ، سورية ٢٣٢,٠٠٠ ، الكويت ١٨٢,٠٠٠ ، الاقطار العربية الاخرى ١١٤,٠٠٠ ، بقية أنحاء العالم ١٦,٠٠٠ . والمجموع ٣,٨٦٧,٠٠٠ (سنة ١٩٧٧)

وتختلف أماكن السكن والاقامة بالنسبة للفلسطينيين فمنهم من يقيم بالمخيمات ومنهم من يسكن القرى والمدن . والفلسطينيون رغم فقدهم طراز معيشتهم ورغم أنهم يعانون من سوء التكيف أحيانا مع الأحوال والظروف المعيشية الطارئة ، الا أنهم يعتبرون من أكثر شعوب العالم نموا ، وقد تضاعف عددهم ثلاث مرات منذ تشردهم وتتراوح نسب نموهم بين ٣٤ ــ ٤٢ لكل الف من السكان وهي من أعلى نسب النمو بين الشعوب ، لذلك فهم شعب فتي يكثر فتيانه ويقل شيوخه ويميل هرمه السكاني نحو الامتداد في قاعدته وقلة ارتفاع قمته ، ويشكل من هم دون العشرين فيه نسبة عالية تبلغ ٥٨,٦٪ ، وتبلغ نسبة الاطفال الذين هم في سن التعليم بمراحله المختلفة (٥ ــ ١٩) ٤٣,١٪ من مجموع الشعب العربي الفلسطيني ، ويتوزعون بحسب فئات العمر والجنس على النحو التالي :

الاطفال الفلسطينيون الذين هم في سن التعليم
لعام ١٩٧٧

الفئة العمرية	المجموع	ذكور	اناث
٥ ــ ٩	٦٧٦٧٢٥	٣٥٣٦٥٤	٣٢٣٠٧١
١٠ ــ ١٤	٥٥٢٩٨١	٢٩٧٠١٤	٢٥٥٩٦٧
١٥ ــ ١٩	٣٩٨٣٠١	٢٠٦٦٥٥	١٩١٦٤٦
المجموع	١,٦٢٨,٠٠٧	٨٥٧٣٢٣	٧٧٠٦٨٤

ويقدر عدد الاطفال الفلسطينيين الذين يعيشون في المخيمات بنصف مجموع الاطفال الفلسطينيين .

ويشرف على تعليم الفلسطينيين هيئات مختلفة منها : وزارات التربية والتعليم في الدول العربية المضيفة ، وكالة الغوث الدولية في كل من لبنان وسورية والاردن وقطاع غزة : المدارس الخاصة في الاقطار العربية المضيفة ، ادارة تعليم العرب بوزارة المعارف والثقافة الاسرائيلية ، يساعدها مجموعة من المدارس الخاصة .

ويزيد عدد الطلبة الفلسطينيين في مراحل التعليم المختلفة عن مليون طالب وطالبة يشكلون ٢٧,٧٥٪ من مجموع الشعب العربي الفلسطيني وتتراح نسب استيعابهم بين ٤٧,٥٪ في لبنان وبين ١٠٠٪ في الكويت اقطار الخليج العربية . وهم يتوزعون بحسب البلاد على النحو التالي :

الطلبة الفلسطينيون في مراحل التعليم المختلفة لعام ١٩٧٧

المنطقة	عدد الفلسطينيين	عدد الطلبة	نسبة الطلبة الى العدد الكلي
الاراضي المحتلة	١,٨٤٥,٠٠٠	٥٤٦,٠٠٠	٢٩,٦٪
الضفة الشرقية	١,١٦٦,٠٠٠	٣٥٩,٠٠٠	٣٠,٨٪
لبنان	٣١١,٠٠٠	٥٧,٠٠٠	١٨,٣٪
سورية	٢٣٢,٠٠٠	٦١,٠٠٠	٢٦,٤٪
الكويت	١٨٢,٠٠٠	٤٢,٠٠٠	٢٣,٠٪
الدول العربية الاخـرى	١١٤,٠٠٠	٨,٠٠٠	٦,٧٪
بقية أنحاء العالم	١٦,٠٠٠	—	—
المجموع	٣,٨٦٧,٠٠٠	١,٠٧٣,٠٠٠	٢٧,٧٥٪

ان ملاحظة الارقام السابقة تبرز أن أعداد الطلبة الفلسطينيين تفوق في نسبتها الى عدد السكان النسب المقابلة لها في البلدان العربية المضيفة (سورية مثلا ١٧,٧٪) وفي أحيان أخرى نجد أرقاما تفوق في نسبتها نسبا تقابلها في بعض البلدان المتقدمة .

ان مردود الاستثمار في مجال تعليم الفلسطينيين لا يعاد استثماره في التجمعات الفلسطينية ، بل تمتصه سوق العمل العربية التي يعمل فيها الفلسطينيون . لذلك يجب أن يكون الاستثمار في المجال البشري الفلسطيني عربيا لان مردوده يعود على اقطار عربية كثيرة وهي في حاجة اليه الان وفي المستقبل .

ويعاني الفلسطينيون من ظاهرة هجرة الادمغة بشكل مضاعف . فحيث تجري في البلدان الأخرى هجرة العناصر الفائضة عن القدرة الاستيعابية لهذه البلدان ، فان التجمعات الفلسطينية لا تملك في معظمها أية قدرة استيعابية على الاطلاق ،ولهذا يضطر، ليس فقط حملة المؤهلات العلمية العالية ، بل أيضا حملة المؤهلات الفنية المتوسطة ، وفي أحيان كثيرة حملة أي نوع من المهارات الى الهجرة ، وفي اغلب الحالات الى بلدان بعيدة وأجنبية . والمصلحة القومية تقتضي استيعاب هذه العناصر ، لان في هجرتها فقدان عائد لاستثمار عربي انفق على اعدادها وتأهيلها، وخسارة قومية يصعب تعويضها .

والغالبية الساحقة من الطلاب الفلسطينيين يتلقون العلم في مؤسسات تشرف عليها وتمولها هيئات غير مهتمة بطموحات الشعب العربي الفلسطيني . وزارة المعارف والثقافة الاسرائيلية ــ وكالة الغوث الدولية ــ المدارس الخاصة ... الخ ولتجنب هذه السلبيات ، فالمصلحة القومية تقتضي اتباع أحد هذين الطريقين : أ ــ ايجاد نظام تعليم فلسطيني تشرف عليه وتخطط له وتدير شئونه منظمة التحرير الفلسطينية . وفي هذا الحل لا بد من تقديم المساعدات العربية للمنظمة لا سيما أن تعليم العرب الفلسطينيين يخرج قوى بشرية مؤهلة يستخدمها سوق العمل العربي في جميع أجزاء الوطن

العربي . وهي بهذا تشكل عاملا هاما في تحقيق الوحدة العربية بما تغرس وتنمي من معتقدات ومواقف واتجاهات قومية عربية ساعية الى تحقيق أهداف الامة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية . ب ــ وحدة ثقافية عربية شاملة الاهداف التربوية والمناهج والمقررات وهو أمل يصبو جميع العرب الى تحقيقه .

بعد هذه الدراسة الموجزه للقضية الفلسطينية في التعليم العربي ، وبيان ايجابيات عرض هذه القضية في كتب المواد الاجتماعية في المرحلة الثانوية وسلبياته ، يقدم الباحث جملة المقترحات التالية ، التي يرى أنها تساعد على التخلص من كثير من تلك السلبيات ، وهي :

١ ــ تختلف الكتب موضوع البحث في معالجتها للتحدي الصهيوني ونتائجه وبيان اخطاره المقبلة على الامة العربية في ناحيتي الكم والكيف : فهي موجزة لا تفي بالغرض في بعض الكتب المقررة، وتعتمد على سرد بعض الاحداث التاريخية المصاحبة أو الناتجة عن الصراع العربي الصهيوني دون أن تقدم تحليلا لهذه الاحداث فتبين منطلقاتها وآليات عملها في كتب اخرى.ودرءاً لهذا النقص يقترح الباحث أن يحدد قدر أدنى مشترك لمعالجة موضوعات الصراع العربي ــ الصهيوني ، فتبين الحق العربي وعناصر القوة والامكانات المتوافرة لدى العرب من جهة ، وتبين الزيف الصهيوني وتحدد الجهات التي تساعده وتدعم وجوده . ولا بأس أن تتولى جهة عربية كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تأليف لجنة خبراء تقوم بوضع الحد الادنى المشترك الذي يجب تدريسه عن الصراع الصهيوني في جميع المراحل التعليمية .

٢ ــ توحيد المفاهيم والمصطلحات المرتبطة بالصراع العربي الصهيوني التي تقدم للطلبة في جميع الاقطار العربية .

٣ ــ عرض المعلومات والحقائق المرتبطة بهذا الصراع من وجهة نظر عربية قومية يؤكد فيها على أهمية الوحدة العربية في تحرير فلسطين .

٤ ــ ضرورة استعمال أسماء المواقع والقرى والمدن الفلسطينية العربية .

٥ ــ دراسة أحوال الفلسطينيين العرب (داخل الاراضي المحتلة وخارجها) لا بوصفهم شعبا من اللاجئين ، ولكن بوصفهم أصحاب حق مشروع في وطن احتل بالقوة .

٦ ــ معالجة الاوضاع الداخلية في اسرائيل ، وابراز ما يسود هذا المجتمع من تناقضات ، وكشف مدى تسلط القوى العنصرية والدينية على نظام الحكم .

٧ ــ تقديم المعلومات المرتبطة بالصراع العربي الصهيوني خالية من الخطأ والمغالطة بعيدة عن تفاصيل التي لا لزوم لها ، والاكتفاء بذكر الحقائق والمبادىء والاسس التي يقوم عليها الحق العربي في فلسطين .

٨ ــ تدعيم الحقائق والمعلومات المقدمة للطلبة في مراحل التعليم المختلفة بوسائل الاعلام التربوي اللازمة من شرائح ضوئية وأفلام سينمائية وفيديو وصور فوتوغرافية وغيرها من الوسائل .

وموجز القول ، فعلى الكتب المدرسية ـ في جميع المراحل التعليمية أن تتجه لابراز مقاومة التحدي الصهيوني ضمن نضال الشعب العربي كله كوحدة متكاملة،وأن تبرز المقاومة كقضية قومية عربية لها أبعادها الدولية وأن تعالج بطريقة علمية وتربوية ، ذلك لأن فلسطين ليست وحدها المقصودة بهذه المؤامرة الاستعمارية الصهيونية وانما المقصود هو قيام دولة المستوطنين الصهاينة كقاعدة تهدد الوطن العربي كله وتحاول تنفيذ مؤامرات الاستعمار والصهيونية بوصفها الاداة ورأس الحربة في هذه المنطقة .

حرب الاستنزاف (١٩٦٨ ـ ١٩٧٠) :
نموذج المواجهة العربيةطويلة الأمد ضد اسرائيل

حسن بكر

مدرس سابق بالكلية الحربية المصرية
ومعيد بقسم العلوم السياسية جامعة اسيوط .
له ابحاث منشورة بمجلتي الكلية الحربية والسياسة الدولية .

تعتبر حرب الاستنزاف أحد الجولات العربية الاسرائيلية طويلة الامد التي استطاع فيها الجانب العربي أن يواجه الجانب الاسرائيلي مواجهة حقيقية وحضارية . وتحاول إسرائيل قدر الامكان عن طريق وسائل اعلامها في الداخل و في الخارج إلقاء ستار من الغموض والشك حول هذه الجولة . رغم ذلك فان حرب الاستنزاف تعتبر بحق نموذج الحرب الطويلة الأمد ضد اسرائيل ، فهي في جانب منها حرب غير معلنة على كافة الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ... الخ . وهي حرب تعتمد من ناحية أخرى على المواجهة الحضارية بين القومية العربية واسرائيل والحركة الصهيونية . وهي ثالثا عملية استنزاف متبادلة لكلا الطرفين ولكن قدرة الجانب العربي فيها على التحمل اكبر بكثير من قدرة الجانب الصهيوني . إن حرب الاستنزاف في مفهومها العسكري « هي تلك الصورة من الصراع المسلح الايجابي الذي يدور بين خصمين ، أو عدة خصوم ، لا يستطيع أحدهم أو بعضهم ـ مؤقتا ولاسباب مرحلية ـ أن يستخدم قواته الرئيسية الضاربة لحسم الموقف لصالحه في مسرح الحرب ، بل يفضل حصر مجال نشاطه الحربي في شن أعمال عسكرية متعددة ، وان كانت محدودة الهدف ، مميزة المدى والزمن ، تشكل في مجموعها عبئاً على العدو . ويعني ذلك أن حرب الاستنزاف يجب أن تشتمل على أنشطة عسكرية تدار بغرض انهاك الخصم بشريا واقتصاديا ومعنويا ، كما يجب أن تهدف الى اكتساب الخبرة الميدانية ، واتمام الاستعداد لمواجهة تكون اشد حسما في المستقبل . وهذه هي الاهداف العامة لحرب الاستنزاف ، أما الاهداف التفصيلية فهي : انزال اكبر قدر ممكن من الخسائر البشرية بالعدو ؛ النيل من معنويات العدو ؛ توفير افضل الظروف الممكنة لبناء جيش متمرس على الحرب بهدف إنتزاع النصر في المواجهة الحتمية التالية »[١] .

إن حرب الاستنزاف بهذا المعنى كانت حرباً ذات طبيعة خاصة تختلف عن حروب الاستنزاف المعروفة تاريخيا والتي أسهم الفكر الماركسي بقدر كبير في تأصيل طبيعتها الكفاحية والفكرية كما حدث في فيتنام وكمبوديا قبل عام ١٩٧٥ ، وكذلك في الصين الشعبية قبل عام ١٩٤٩ . وتاتي خصوصية هذه الجولة من الصراع مع العدو الاسرائيلي في عدة عناصر اساسية :

---

(١) اللواء الركن حسن البدري : حرب الاستنزاف (٢٨ سبتمبر ١٩٦٨ ـ ٧ اغسطس ١٩٧٠) ، مجلة السياسة الدولية القاهرية ، العدد (٥٤) ، اكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٨٤ .

١ ــ انها كانت حرباً نظامية بمعنى إشتراك الجيوش العربية النظامية في مواجهة الجيش الاسرائيلي النظامي ، بقصد إستنزاف هذا الاخير ، وهذا لا يلغي دور العمل الفدائي الفلسطيني ، على كافة جبهات القتال ، فهو وإن كان قد ساهم بقدر لا يمكن تجاهله في أول مواجهة حقيقية طويلة بين العرب واليهود ، إلا ان الطابع الغالب كان طابع المواجهة النظامية .

٢ ــ إن الدور الشعبي العربي قد ساهم في هذه الحرب الطويلة الأمد ، ويتضح هذا الدور في عدة نواح أولها أن الحرب لم تعتمد فقط على قدرة الجيش النظامي في مواجهة نظيره الآخر ولكن اعتمدت على فكرة تحمل الجبهة المدنية للمواجهة في كلتا الجبهتين اثناء الغارات المضادة في العمق ، وثانيها المشاركة الشعبية في بناء قواعد الصواريخ والتي راح ضحيتها على الجانب المصري عشرات العمال المصريين ، وثالثها قيام منظمات شبه رسمية وشعبية بالتدرب على حمل السلاح في شكل ميلشيا مسلحة لحماية المناطق الداخلية . نذكر منها : الدفاع المدني والشعبي في مصر . كل هذا يبرز اشتراك الشعب العربي اشتراكاً حقيقياً سواء على الجبهة المصرية أو على السورية أو اللبنانية لأول مرة في حرب مع اسرائيل .

٣ ــ إن حرب الاستنزاف كما سبق القول كانت أول حرب طويلة وتسمى في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي بحرب السنوات الثلاث. فقد كان من الواضح أن غاية النظرية العسكرية المصرية في ادارة حرب الاستنزاف « هي توريط اسرائيل في حرب نشطة طويلة المدى تتضمن اشكالا متنوعة من الصراع المسلح تعلو فوق مستوى الحرب الباردة وتهبط عن مستوى الحرب الشاملة وتتدرج في الشدة والمهاودة بين هذه وتلك ، تبعاً للفرصة السانحة والظروف السائدة في المسرح »(٢) . إن هذا كان يتم في مواجهة جيش يعتمد اسلوب مواجهته للعرب على الضربة الخاطفة واحراز نصر سريع . إن الدليل على ذلك هو أن إسرائيل احتفظت بحالة التعبئة العامة لفترة طويلة نسبياً وهو ما ترك آثاراً سيئة على الناحية الاقتصادية والمعنوية ... الخ في المجتمع الاسرائيلي على نحو لم يسبق له مثيل ، ولقد اجبر العرب اسرائيل على أن تحارب ولأول مرة في تاريخها العسكري حرباً طويلة وعلى مسارح متعددة فقد اضطرت اسرائيل بفضل القصف المدفعي السوري في الفترة الاخيرة من حرب الاستنزاف وبفضل المقاومة الفلسطينية النشطة بالدرجة الأولى أن تحارب على جميع الجبهات ، فقد أدى ذلك الى تغيير جذري بعد ذلك في الاستراتيجية الاسرائيلية ليس فقط في الجانب العسكري ولكن في الجوانب الاخرى ايضاً .

هذه الصفات الثلاث لحرب الاستنزاف تؤكد خصوصيتها في مصاف حروب الاستنزاف السابقة عليها واللاحقة لها .

عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ سادت الوطن العربي روح من الهزيمة والاستسلام وانعدام الثقة في الذات العربية وفي المقابل اعلاء دور الجيش الاسرائيلي والعقلية الاسرائيلية ومن ناحية أخرى استطاعت إسرائيل أن تقنع ليس فقط العرب بل والعالم بأسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يعرف الهزيمة ويضعف وتآكل العقلية العربية ، هذا بالاضافة الى الآثار الاخرى المترتبة على الحرب فقد تحطم ما يزيد على ٨٠ ٪ من عتاد الجيش المصري . هذا بالاضافة إلى آلاف الشهداء واحتلال الجولان

---

(٢) اللواء الركن حسن البدري ، المرجع السابق ص ١٩١ .

وسيناء والضفة الغربية .. ألخ ، كذلك فان هذه الحرب كانت ضربة قاصمة لحركة التحرر العربية التقدمية ، فمن ناحية وجهت هذه الضربة للنظام الناصري في مصر والأنظمة العربية التقدمية الأخرى ومن ناحية أخرى زودت من قدرة الادارة الامريكية في منطقة الشرق الأوسط على فرض إرادتها .

وسط هذا المناخ العام بدأت حرب الاستنزاف . ويمكن القول بأنها بدأت رسمياً في ٢٨ سبتمبر/أيلول ١٩٦٨ . وقد اختارت مصر إستراتيجية حرب الاستنزاف في مواجهة اسرائيل لأنها لم تكن قادرة على توجيه ضربة قاضية في حرب حاسمة تجبر اسرائيل على قبول الاهداف السياسية المصرية . « وكان الطابع الغالب لهذه الحرب هو ابقاء القوات ثابتة في مواقعها على ضفتي القنال باستثناء النشاط الجوي وعمليات العبور المحدودة التي قامت بها قوات الطرفين. وكان لقناة السويس دوراً اساسياً في منع قوات بحرية ضخمة لأحد الطرفين في اتجاه الطرف الاخر ، وربما كان من غير الممكن ان يحدث هذا لو كان خطر وقف إطلاق النار على حدود النقب مثلا . كانت إستراتيجية مصر (الطرف البادىء) في حرب الاستنزاف تدعو للقيام بعمليات عسكرية محددة المدة ضد الاسرائيليين و في نفس الوقت الامل بأن تقبل اسرائيل (قواعد اللعبة المصرية) بحيث تكون لدى مصر القدرة على امتصاص الاستنزاف الاسرائيلي المضاد »[٣] . وقد نجحت مصر في فرض قواعد اللعبة خلال المرحلة الأولى من الحرب أي حتى يوليو/تموز ١٩٦٩ حين صعدت اسرائيل استنزافها المضاد الى درجة عالية ، فالطرف البادىء في الحرب لا يستطيع دائماً فرض قواعد اللعبة على الطرف الآخر .

ويمكن تناول جوانب حرب الاستنزاف على الاصعدة التالية :

اولا : على الصعيد العسكري :

يلاحظ ان هذا الجانب هو أبرز الجوانب واكثرها أهمية . كذلك فمن المعروف ان المراحل المتقدمة من هذه الحرب كانت استنزافا متبادلا أي أن الاستنزاف لم يكن قصراً على الجانب الاسرائيلي فحسب وانما ايضاً على الجانب العربي ، ولكن العبرة كما يقولون تكون دائما بالنتائج .

ومنذ بداية حرب الاستنزاف في ٢٨ سبتمبر/ايلول ١٩٦٨، وحتى نهايتها في ٧ اغسطس/آب ١٩٧٠ مرت هذه الحرب بست مراحل أساسية هي :

المرحلة الاولى : (من ٢٨/٩/١٩٦٨ حتى ٨/٣/١٩٦٩) : قبل هذا اليوم وقعت حادثتان كان لهما الدور الاكبر في رفع معنويات الجيش المصري . وهما معارك راس العش في يوليو ١٩٦٧ واغراق المدمرة ايلات في اكتوبر ١٩٦٧ . ولكن في يوم ٢٨/٩/١٩٦٨ قامت المدفعية المصرية بقصف مركز على المواقع الاسرائيلية قتل من جرائها ١٥ جنديا اسرائيليا وجرح ٣٥ جندياً أخر . وفي نوفمبر ١٩٦٨ قامت وحدات الكوماندوز الاسرائيلية بضرب محولات « نجع حمادى » الكهربائية داخل الاراضي المصرية واعلن ليفي أشكول : « ان عملية نجع حمادى تهدف الى ايضاح امكانيات القوات الاسرائيلية في الرد على العدوان المصري »[٤] .

---

(٣) احمد الخالدي ، حرب الاستنزاف ، الحلقة الدراسية حول (اسرائيل) ، البحث رقم (٢٥) جامعة بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٢ ، ص ٣ .

(٤) الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٨ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٦٦٨ .

المرحلة الثانية : (من ١٩٦٩/٣/٨ الى ١٩٦٩/٧/٢٠) : بدأت هذه المرحلة بشكل مفاجيء في ١٩٦٩/٣/٨ حيث قامت المدفعية المصرية بقصف مركز على المواقع الاسرائيلية شرق القناة (لضمان عدم تدخل الطائرات الاسرائيلية) . وركزت الخطة المصرية خلال هذه المرحلة على أربعة عناصر تدمير خط بارليف بواسطة المدفعية المصرية عبور وحدات من رجال الكوماندوز المصرية بهدف اقتحام المراكز الاسرائيلية والالتحام بالجيش الاسرائيلي ثم الانسحاب ، تدريب قطاعات الجيش على العبور والتنسيق بين مختلف الوحدات المسلحة به وذلك اثناء عبور القناة : القيام بعملية عبور ضخمة بهدف تحرير سيناء أو قطاع منها من أجل تقوية مركز مصر في اية محادثات قادمة .

في هذا الوقت بدأ محمد حسنين هيكل بالحديث عن ضرورة ان تكون هناك جبهة شرقية وجبهة غربية وان يكون هناك تنسيق بينهما(٥) . ولم يكن للجبهة الشرقية آنذاك سوى الموقف الدفاعي بينما كانت العمليات الفدائية في أوجها .

المرحلة الثالثة : (من ١٩٦٩/٧/٢٠ حتى ١٩٧٠/١/٧) : من الملاحظ انه في الفترة السابقة استخدم سلاح الطيران الاسرائيلي لدحر المواقع المصرية . وهكذا بهجوم السلاح الجوي الاسرائيلي على جبهة السويس دخلت حرب الاستنزاف مرحلة الاستنزاف المضاد وأخذت اسرائيل زمام المبادرة « واصبح امام مصر خيار اما ان تسقط حرب الاستنزاف من اساسها وتجبر على وقف اطلاق النار او أن تستعيد زمام المبادرة »(٦) . وفي ١٩٦٩/٧/٢٤ قام السلاح الجوي المصري بضرب المواقع الاسرائيلية في سيناء وردت الطائرات الاسرائيلية بهجوم مضاد على المواقع المصرية مستهدفة مواقع المدفعية وصواريخ سام ــ ٢ المضاد للطائرات(٧) . وهكذا بدأت معركة الطيران . هجوم اسرائيلي بهدف توسيع الجبهة ورد مصري بقصد تحطيم روح الجيش الاسرائيلي وبدأ الاسرائيليون في استدراج الطيران المصري بقصد اضعافه وضربه ، فهاجموا شبكات الرادار والمواقع المصرية على ساحل السويس واعتمد المصريون بالتالي على وحدات الكوماندوز في الهجوم على الجيش الاسرائيلي في عمق سيناء .

تتسم هذه الفترة بالاستنزاف والاستنزاف المضاد . وخلال هذه المرحلة ايضاً لعبت الجبهة الشرقية دوراً ثانوياً بالنسبة للمجابهة المصرية ــ الاسرائيلية ، فقامت اسرائيل بضرب مواقع الفدائيين والجيش الاردني . والتغيير الوحيد هو اشتعال الجبهة اللبنانية . فقد زادت العمليات الفدائية من منطقة العرقوب اللبنانية مما دعا اسرائيل الى ضربها بالمدافع والطائرات(٨) . وبدأ اعتماد اسرائيل الواضح على السلاح الجوي .

المرحلة الرابعة : (من ١٩٧٠/١/٧ الى ١٩٧٠/٤/١٣) : رفعت اسرائيل من حدة الاستنزاف المضاد بهدف تعرية الجبهة المصرية من الدفاع الجوي ، تستهدف الخطة الاسرائيلية خلال هذه المرحلة ما يلي : منع اعادة بناء القوة الدفاعية المصرية ؛ ضرب المواقع المصرية في العمق ؛

---

(٥)الاهرام ١٩٦٩/٣/٢٨
(٦) احمد الخالدي ، المرجع السابق ، ص ١٣ .
(٧) احمد الخالدي ، المرجع السابق ، ص ١٥ .
(٨) احمد الخالدي ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

استخدام الحرب النفسية أولا لكي تصل حقيقة الحرب الى الشعب المصري وثانيا من أجل اضعاف النظام وربما اسقاط حكم عبد الناصر ' اضعاف قدرة الجيش المصري على غزو سيناء وتحويل الموقف المصري من موقف المهاجم الى موقف المدافع . وهكذا بدأت عمليات الانزال في الاراضي المصرية .

اما موقف مصر فقد تمثل في الموقف الدفاعي الى ان جاءت المساعدات السوفيتية واعادت زمام المبادرة الى مصر ، وواضح ان مصر كانت قد اتخذت قرارها بالتالي .

● تعبئة الجبهة الداخلية لمواجهة مضاعفات الهجمات الاسرائيلية من الناحية النفسية ، فتم تشكيل لجان المواطنين من اجل المعركة في جميع انحاء مصر(٩) .

● الهجوم قدر ما أمكن واستخدام الطيران المصري على جبهة القناة والضرب في العمق الاسرائيلي بالقوات الخاصة .

● الصمود امام الهجمات الاسرائيلية انتظاراً للمساعدات السوفيتية . وفي ٧/٤/١٩٧٠ ضربت الطائرات الاسرائيلية منطقة بحر البقر واصيبت مدرسة مصرية بقذيفة اسرائيلية . وكان لهذا العمل بالاضافة الى اصابة مصنع ابو زعبل آثاراً سيئة بالنسبة للرأي العام العالمي . عندئذ توقفت الغارات الاسرائيلية على العمق وذلك لعدة أسباب . منع تصعيد المواجهة مع مصر بعد ما بدأت بوادر المساعدات السوفيتية لمصر في الظهور ؛ ارتباك اسرائيل لرد الفعل العالمي والمحلي بسبب حادثتي أبو زعبل ومدرسة بحر البقر ؛ استنفاد النتائج المطلوبة من حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية . ولكن رغم التفوق الجوي الاسرائيلي استطاعت مصر مواجهة اسرائيل في حرب الاستنزاف وذلك بالعمليات النشطة جواً وبراً وبحراً .

اما على الجبهة الشرقية :- فقد حدثت معارك واسعة في الاردن وسوريا وتصاعد ملحوظ في العمليات العربية على الجبهة اللبنانية . وفي ٢/٤/١٩٧٠ قامت اسرائيل باضخم هجوم جوي على سورية منذ حرب ١٩٦٧ . وكذلك قامت بضرب الاردن بشكل دوري . ولم تنته الاشتباكات بالاسلحة الخفيفة والثقيلة مع الجبهة الاردنية يومياً تقريباً . اما الجبهة اللبنانية فقد شهدت هجمات من القوات الخاصة والطائرات الاسرائيلية(١٠) .

المرحلة الخامسة : (من ١٣/٤/١٩٧٠ – ٧/٨/١٩٧٠) : استطاعت مصر خلال هذه المرحلة الانتقال من موقف الدفاع الى موقف الهجوم على عكس ما كانت عليه في المراحل الثانية والثالثة والرابعة . يعود ذلك إلى الدعم السوفيتي ومد مصر بعدد كبير من الخبراء والطيارين بكامل أسلحتهم مما شكل رادعاً سياسياً وعسكرياً أمام اسرائيل في ضرب العمق المصري وتوفير الجهد المصري لمواجهة اسرائيل في جبهة القتال . وهكذا لم تستطع اسرائيل الاستمرار في حرب الاستنزاف المضاد . وكانت الخطة المصرية تتطلب ما يأتي . حشد جميع الطاقات الحربية المصرية في منطقة الصدام المباشر لمواصلة الضغط على الخطوط الامامية الاسرائيلية ؛ تحريك الصواريخ المصرية الى داخل منطقة الصدام المباشر لتجميد التفوق الاسرائيلي الجوي ؛ متابعة الغارات الجوية والبرية على الخطوط الاسرائيلية الامامية والخلفية باستكمال سلسلة الحلقات من الحرب النفسية .

---

(٩) الاهرام ٩/١/١٩٧٠ .
(١٠) النهار ٢٠/٣/١٩٧٠ .

وهكذا فقدت اسرائيل السيطرة الجوية التامة ليس فقط فوق المواقع المصرية بل فوق مواقعها الامامية ايضاً . فكلما اقتربت الصواريخ المصرية من قناة السويس تقلصت السيطرة الاسرائيلية فوق اراضيها ، وكلما ازداد خطر عبور مصري شامل ناجح وتكررت الهجمات المصرية والهجوم المصري المستمرعلى المواقع الاسرائيلية واوقفت اسرائيل خطتها على منع زحف الصواريخ المصرية الى منطقة الصدام المباشر وقام الطيران الاسرائيلي بما لا يقل عن ٥٢٦ طلعة خلال شهر مايو/ ايار ١٩٧٠ لضرب هذه المواقع ، وفي يوم واحد قبل نهاية مايو قامت اسرائيل بحوالي ١٨٢ طلعة على القناة(١١) . وازدادت حدة الهجوم المصري في ضرب الدوريات الاسرائيلية على القناة وعلى الأخص في القطاع الشمالي من القناة وبدأ الموقف الاسرائيلي يسوء .

وفي ٢٤/٦/١٩٧٠ بدأت الناحية السياسية للمجابهة تتفاقم . فأعلن وليام روجرز وكيل وزارة الخارجية الامريكية عن مشروع لوقف اطلاق النار . وامكن لصواريخ سام ٢ إسقاط الطائرات الاسرائيلية من طراز فانتوم وسكاي هوك . وبدأت الحرب الاليكترونية بين مصر واسرائيل ، عندما أرسلت الولايات المتحدة أجهزة الكترونية لاسرائيل بهدف ضرب المواقع المصرية . ولكن الحرب الاليكترونية لم تنجح في ايقاف الجانب المصري عن اسقاط الطائرات الاسرائيلية . وعلى ذلك تحدث الرئيس المصري جمال عبد الناصر بقوله : « إننا لا نتحرك من موقف ضعيف وانما نتحرك من موقف القوة ، لقد كان هناك عوامل كثيرة في صالح موقفنا القوي ، أبرز عاملين في هذا الموقف تزايد قدرة قواتنا على الردع ، العامل الثاني تزايد الدعم السوفيتي السياسي والعسكري لنا »(١٢) . وهكذا أعلنت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل ــ ولأول مرة في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي ــ « انها تدرس احتمالية قبول وقف اطلاق النار شرط ان تكون هناك ضمانات امريكية بأن مصر والاتحاد السوفيتي ، لن يستغلا الهدنة لصالحهما »(١٣) .

كانت هذه أول مرة تطلب فيها اسرائيل وقف اطلاق النار مع العرب ، والحقيقة أن الموقف المصري العام عند انتهاء القتال كان اقوى من أي وقت مضى رغم الخسائر الكبيرة التي أنزلتها الغارات الاسرائيلية بالجيش المصري . وقد انعكس هذا الشعور بالصحف في المقالات التي ظهرت في الصحف العبرية تسأل عن سبب قبول إسرائيل لوقف إطلاق النار بعد أن رفضت طوال السنوات الثلاث الماضية المشاريع التي تدعو الى الانسحاب من الاراضي المحتلة . « فلقد أصبحت العبارة الامريكية وسيلة خلاص . كما انها أوجدت كلمة الخلاص : الانسحاب ، لذلك ينبغي الا نعرقل سير تنفيذ هذه العبارة المباركة ولنساعد الامريكيين لكي يخرجوننا من هذا الموقف المعقد الذي تعرضنا له بواسطة حرب الايام الستة وحرب السنوات الثلاث »(١٤) .

وقبلت مصر وقف اطلاق النار في ٧/٨/١٩٧٠ .

خلال هذه المرحلة من حرب الاستنزاف لعبت الجبهة الشرقية دوراً هاماً في تخفيف الضغط على مصر ولو بشكل جزئي وزادت عمليات الجيش والطيران الاسرائيلي على لبنان ، كما زادت الاشتباكات السورية ــ الاسرائيلية بشكل ملحوظ ، وكان ذلك أثناء فترة بناء شبكة الدفاع الجديدة داخل منطقة

---

(١١) احمد الخالدي ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(١٢) الاهرام ٢٤/٧/١٩٧٠ .
(١٣) احمد الخالدي ، المرجع السابق ، ص٤٥ .
(١٤) دافار ١٤/٨/١٩٧٠ .

الصدام المباشر في جبهة القناة ، وقد أحيا تلك الأمل في قيام جبهة شرقية حينما اشتبكت اسرائيل بشكل متقطع خلال هذه المرحلة مع سوريا ، كذلك شهدت الجبهة اللبنانية هجمات متكررة واشتبكت القوات الاسرائيلية مع الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين واستمرت هذه الهجمات بعد ذلك وكانت اسرائيل تهدف منها إلى تقويض العلاقات بين السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية .

المرحلة السادسة (من ١٩٧٠/٨/٧ حتى اخر عام ١٩٧٠) : تعد هذه المرحلة مرحلة استكمالية لما سبق ، فقد كان اهداف مصر منها الاستمرار في اقامة قواعد جديدة ' تركيب الصواريخ في قواعد كانت خاوية : نقل المعدات إلى داخل المنطقة المحظورة .

وقامت الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بأحدث الأسلحة مما دعاها إلى خرق وقف اطلاق النار بعمليات الاستطلاع . وفي نوفمبر ١٩٧٠ بدا واضحا أن المبادرة الامريكية وموضوع روجرز قد انتهيا بالفشل . وجاء انسحاب اسرائيل من محادثات « يارنج » مبعوث الامم المتحدة في الشرق الاوسط أنذاك تأكيداً على ذلك ولا شك أن التبدلات السياسية الداخلية في مصر وحوادث الاردن الدموية في سبتمبر ١٩٧٠ حولت المجهود العربي السياسي والعسكري عن العدو الخارجي وتحول الصراع العربي الاسرائيلي خلال الأشهر الاخيرة من عام ١٩٧٠ إلى سلسلة من المناوشات والهجمات الاسرائيلية المتكررة على جبهة واحدة هي الجبهة اللبنانية . وتجنبت سوريا الدخول في أي عمل عسكري ضد اسرائيل رغم أنها لم توافق على وقف إطلاق النار في ١٩٧٠/٨/٧ .

جدول (١) حجم الانشطة التي قامت بها المقاومة الفلسطينية خلال حرب الاستنزاف(١٥) .

	الجبهة	عدد حوادث القتال	النسبة المئوية	ملاحظات
١	لبنان	١٨١	٪١,٩	اقل الجبهات نشاطاً
٢	سوريا	٢٤٦	٪٢,٧	—
٣	الاردن	٣٤٢٥	٪٣٦,٦	غالبيتها انشطة للمقاومة الفلسطينية
٤	مصر	٤٤٣٣	٪٤٧	—
٥	داخل اسرائيل	٩٩٦	٪١٠,٨	غالبيتها انشطة للمقاومة الفلسطينية
	المجموع	٩٢٨١	٪١٠٠	—

ثانيا : على الصعيد الاقتصادي :

ندرس في هذا الجزء الآثار التي ترتبت على حرب الاستنزاف في الجانب الاقتصادي لجميع الاطراف المشتركة في هذه الحرب . وقبل الدخول في المعايير المادية فانه ينبغي ادراج ملاحظة هامة هي ان التأثير النفسي الذي أحدثته الخسائر البشرية في هذه الحرب على الجانب الاسرائيلي يفوق بكثير ما

(١٥) د . يوسف عبد الله صايغ إستنزاف إسرائيل نتيجة للصراع العسكري ، مجلة شئون فلسطينية ، عدد (٤) ، سبتمبر ١٩٧١ ، ص ٥١ — ٦٤ .

أحدثته في الجانب العربي . ولعل حرب الاستنزاف قد أحدثت نجاحا كبيرا في هذا الجانب بالذات .

في الجانب الاسرائيلي : اذا اردنا بحث الآثار الاقتصادية لعملية الاستنزاف فينبغي التشديد على أمرين هامين

● طرح منهاجية التحليل التقليدي الضيق جانبا والقيم المألوفة عندما يبحث في العوامل والقيم التي تحرك التصرف الاقتصادي وتوجه المقررات الاقتصادية في اسرائيل . ففي القضايا التي تتعلق بمصير الدولة والمجتمع الاسرائيليين تخضع الغايات والأهداف الاقتصادية للغايات والأهداف المصيرية . ومع ان كل موقف او قرار اقتصادي يظل خاضعاً لحساب الكلفة والمردود (أو لحساب فاعلية الكلفة) ، الا ان ما يقرر بالنهاية بين عدة بدائل ممكنة هو مصلحة الدولة والمجتمع . هذا ما يفسر قيام الكثير من المستوطنات والمصانع في اسرائيل ، أو بناء الطرق أو شبكات الري التي لا يبررها الحساب الاقتصادي وحده ــ ذلك أنها تجد تبريرها على الصعيد العسكري أو السياسي أو الاعلامي ، أي على صعيد مصلحة الدولة والمجتمع . وبالتالي فان اعتبارات الدولة لا الاعتبارات الاقتصادية المحض هي التي تقرر في اسرائيل حجم الموارد التي ينتجها المجتمع والتي يستقدمها ، ونمط توزيع الموارد المتاحة والاولويات من استخدامات الموارد .

● إن المؤشرات الواجب تعيينها وتفحصها في سبيل قياس مدى الاستنزاف الاقتصادي الناجم عن الصراع بين العرب واسرائيل تشمل في الواقع عدداً كبيراً من الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ــ كما أشرنا قبلا . وفي نطاق جملة الموارد المتاحة ومصادرها : يقع العبء الاقتصادي الأساسي في اي صراع عسكري على الناتج القومي . ومن المؤكد ان الناتج القومي الاسرائيلي نما بنسبة مرتفعة جدا بين ١٩٤٩ ونهاية ١٩٧٠ (فيما عدا ١٩٦٦ و ١٩٦٧) ــ اذ حقق نمواً سنويا متوسطاً يبلغ نحو ١٠٪ . والجدير بالذكر ان ابتداء انخفاض النمو في عام ١٩٦٥ ، اذ هبط الى ٨,٢ تم انخفاضه الى ٠,٦٪ في عام ١٩٦٦ و ١,٢٪ في عام ١٩٦٧ ، كان نتيجة سياسة انكماش متعمدة وضعت سنة ١٩٦٤ لفرض الحد من مدى الاضطرار للاعتماد على الموارد الاقتصادية الخارجية . ويكفي للتدليل على مدى هذا الاعتماد ان المتوسط السنوي لحجم عجز الحساب الجاري في ميزان المدفوعات لحقبة الخمسينات (١٩٥٠ لغاية ١٩٥٩) بلغ ٢٩٧ مليون دولار ، في حين بلغ هذا المتوسط السنوي لحقبة الستينات (١٩٦٠ ــ ١٩٦٩) مبلغ ٦٠٤ ملايين دولار .

هناك تناقض ظاهري بين اطراد تصاعد الناتج القومي في اسرائيل واطراد تزايد العجز في الحساب الجاري بميزان المدفوعات . اما تفسير هذا التناقض فهو أن المجتمع الاسرائيلي يحاول أن يحقق أربعة اهداف ضخمة في ذات الوقت هي الحفاظ على جيش قوي مسلح بأحدث الاسلحة والمعدات ؛ استقبال واستيعاب كل المهاجرين اليهود الراغبين في الاستيطان ؛ الحفاظ على معدل مرتفع للنمو الاقتصادي ؛ تأمين خدمات عامة مرتفعة المستوى وواسعة النطاق .

ومن هنا يتضح اضطرار اسرائيل باستمرار للحصول على موارد خارجية ضخمة لتتمكن البلاد بما يتحقق لديها من موارد اجمالية يوفرها الناتج القومي زائداً المعونات الخارجية من النهوض بالأهداف الأربعة معاً وفي آن واحد . واذن فمن الضروري عند بحث قدرة اسرائيل على مجابهة حرب الاستنزاف الاقتصادي ان تبحث هذه القدرة في ضوء واقع الموارد المتاحة جملة لا الناتج القومي فحسب . وينبغي الايضاح فوراً أن هذه الموارد المتاحة لاسرائيل تتألف من : الناتج القومي زائداً :

تفوق المستوردات على المصدرات المعروف « بفائض الاستيراد » الذي يعادل عجز الحساب الجاري — زائداً : تفوق المعونات الخارجية على هذا العجز اي على فائض الاستيراد — ذلك ان حجم المعونات في السنوات السابقة لعام ١٩٦٨ كان يتفوق على عجز الحساب الجاري ، مما مكن اسرائيل من تجميع احتياطي ضخم من العملات الاجنبية بنهاية ١٩٦٧ ، غير ان الوضع انقلب في الاعوام ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ اذ زاد العجز عن المعونات الاقتصادية الخارجية مما أدى الى المزيد من الضغط على احتياطي العملات الاجنبية .

والجدير بالذكر في صدد الناتج القومي وجملة الموارد المتاحة هو ارتفاع نسبة « فائض الاستيراد » للناتج القومي ولجملة الموارد المتاحة اذ تارجحت هذه النسبة في حقبة الستينات بين ١١,٣٪ حداً أدنى لعام ١٩٦٦ ، و٢٤,٧٪ حداً اعلى لعام ١٩٧٠ قياسا بالناتج القومي ، وبين ١٠,١٪ و ٢٠,٠٪ بالنسبة لجملة الموارد المتاحة ، وكان متوسطها العام للسنوات ١٩٦٠ — ١٩٧٠ نحو ١٦,٨٪ للناتج القومي و ١٤,٣٪ بالنسبة لجملة الموارد المتاحة . وقد ارتفعت النسبة بانتظام من عام ١٩٦٦ ولنهاية عام ١٩٧٠ .

الا ان عام ١٩٦٨ شهد ظاهرة جديدة هي تفوق العجز في الحساب الجاري على المعونات الخارجية بمقدار ٢٣ مليونا . وقد تكررت هذه الظاهرة في عام ١٩٦٩ بعجز قدره ٢٠١ مليون . كما تشير البيانات الأولية الى انخفاض المعونات دون العجز بمقدار ١٥ مليون دولار لعام ١٩٧٠ — مما خفض الاحتياطي بنهاية ١٩٦٩ إلى ٧٨٢ مليونا وبنهاية ١٩٧٠ إلى ٧٦٧ مليونا . غير ان تقرير بنك اسرائيل لعام ١٩٦٩ يسجل ان مجموع احتياطي النقد الاجنبي كان بنهاية ١٩٦٩ ٣٦٩ مليون دولار . كما ذكر عدد من البيانات الصحافية الغربية إلى أن الاحتياطي بنهاية ١٩٧٠ هبط دون ذلك بحيث تأرجح بين ٣٠٠ و ٣٥٠ مليون دولار ، مما يشير إلى أن إسرائيل استخدمت حوالي ٤٥٠ مليون دولار من احتياطي عملاتها الاجنبية حلال ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ لمشتريات (أسلحة في الغالب) خارج قيود ميزان المدفوعات أي بالاضافة الى ما ترتب من مدفوعات من اصل الموارد الجارية في ميزان المدفوعات .

أخيراً ، في هذا المجال ، تنبغي الاشارة الى تراكم الدين الخارجي على اسرائيل خلال السنوات ١٩٤٩ — ١٩٦٩ بحيث بلغ هذا الدين ٢٠١٨ مليون دولار بنهاية ١٩٦٩ . على أن قسما يذكر من هذا المبلغ يشكل سندات دين وهي طبعا لا تشكل عبئاً يقلق اسرائيل لان حاملي هذه السندات هم من الصهيونيين في الغالب . (بلغت قيمة السندات وحدها بنهاية ١٩٦٩ حوالي ٨٨٤ مليون دولار) .

واهم النتائج التي يمكن استخلاصها من الوضع الاقتصادي الاسرائيلي هي كما يلي —

(١) إن الموارد التي يستهلكها القطاع العسكري الاسرائيلي بتشعباته وضخامته ولكافة أغراضه بدأ يظهر عليها بوادر الارهاق بدليل عجز المساعدات الاقتصادية الاجنبية خلال أعوام ١٩٦٨ — ١٩٦٩ — ١٩٧٠ عن سد عجز الحساب الجاري بميزان المدفوعات بما جملته ٢٣٩ مليون دولار والاضطرار لخفض احتياطي العملات الاجنبية خلال نفس الاعوام بمقدار ٦٥٦ مليون دولار .

(٢) ان ما يخصص من الموارد للاغراض العسكرية ليس كله بسبب عملية الاستنزاف بل نسبة قليلة منه ، حيث ان تكلفة الاستنزاف تبلغ نحو ٣٠٠ مليون دولار سنويا وهو رقم يشمل كلفة

رفع التعبئة بنحو ٢٥،٠٠٠ إلى ٣٠،٠٠٠ جندي لمجابهة المقاومة الفلسطينية ولرفع عدد الجنود المرابطين على القناة تحت ضغط عمليات الاستنزاف هناك ، زائداً كلفة التحصينات والمنشآت الأخرى التي اقيمت خصيصاً لمجابهة الفدائيين ومنعهم من التسرب ولوقاية الجنود على القناة من القصف المدفعي والجوي زائداً تعطيل دورة الحياة الاقتصادية بسبب نشاط الفدائيين في مناطق الحدود خاصة (نصيب ارتفاع الكلفة العسكرية نحو ٢٥٠ مليون دولار وتعطيل الاقتصاد نحو ٥٠ مليوناً) .

(٣) تمويل العبء العسكري : تبلغ الموازنة العسكرية للعام (١٩٧٠ ــ ١٩٧١) نحو ١،٢٥٠ مليون دولار . على ان هذا الرقم انما يمثل الموازنة الظاهرة الصريحة ولا يشمل مخصصات أخرى متعددة مبررها الوحيد هو الاعتبار العسكري وانشاء المستوطنات في الارض المحتلة وبناء الكثير من الطرق والقيام ببحوث علمية هدفها الاستعمالات العسكرية . كل هذه المخصصات تقع تحت وزارة غير وزارة الدفاع لكنها في الواقع مخصصات عسكرية . وهكذا فان الموازنة العسكرية الصريحة التي تبلغ ٤٠٪ من الموازنة العامة ونحو ٢٥٪ من الناتج القومي و ٢٠٪ من جملة الموارد المتاحة ، هي في الواقع اقرب الى ثلث الناتج القومي منها الى الربع ، والى نصف الموازنة منها الى ٤٠٪ منها .

ومن هنا كان اضطرار اسرائيل لفرض ضرائب جديدة والحصول على قروض جديدة ، داخلية وخارجية ، والحصول على منح امريكية مالية جديدة والتخطيط لمعدل نمو يتأرجح حول ٨ أو ٨،٥٪ (بدلا من ١٢،٥ و ١٠،٥٪ للاعوام ١٩٦٨ و ١٩٦٩ في ١٩٧٠ على التوالي و١٠٪ وهو المعدل الوسطي للسنوات ١٩٥٠ ــ ١٩٧٠) ، وأخيراً اللجوء الى الاحتياطي العام الذي انخفض كثيراً كما بينا .

في الجانب العربي ــ هنا يصطدم المحلل بصعوبة تعيين تلك النسبة من الجهد العسكري العائد الى محاولة الاستنزاف ، مقابل بقية الجهد الذي لا بد له ان يبذل في أي حال حتى لو كانت جميع الجبهات هادئة تماماً . فالجهد العسكري مقارناً بالناتج القومي القائم وبجملة الموارد المتاحة لكل من مصر والاردن وهما البلدان المعنيان في الدرجة الأولى بالاستنزاف ولكل من لبنان وسورية وهما يتأثران الى حد أقل بعمليات اسرائيل من استنزافية وردعية ، يفوق في مجموعه بالارقام المطلقة جهد اسرائيل ، لكنه ينقص عنه كنسبة مئوية الى جملة الناتج القومي وجملة الموارد المتاحة ، وكرقم مطلق بالنسبة للفرد . على ان العبء الفردي مقارناً بالناتج القومي للفرد يبدو اقل تباعداً بين الدول العربية من جهة واسرائيل من جهة أخرى ، خاصة فيما يتعلق بمصر والاردن مقابل اسرائيل .

ومن اجل اخراج الصورة المقارنة بالمزيد من الوضوح نضع جدولاً يمثل الثمن الاقتصادي المباشر للجهد العسكري الشامل ، اي عبء الموازنات العسكرية وهو لا يتناول الاعباء غير المباشرة المترتبة على اعادة توزيع الموارد بسبب الجهد العسكري في نمط يختلف عن النمط الذي يميز حالة يكون فيها الجهد العسكري طبيعياً واكثر تواضعاً . وكذلك فان الجدول لا يظهر كليا التكلفة المالية لحركة المقاومة ففي حين قد تشمل موازنتا مصر وسورية المساعدات التي تقدمها حكومتا هذين البلدين للعمل الفدائي ، فان هناك مساعدات تأتي من مصادر اخرى لاتنعكس في الجدول . على ان مجموع المساعدات غير المبينة انما هو مبلغ متواضع نسبياً لا يؤثر بشكل ملموس في رفع مجموع الموازنات الدفاعية أو رفع نسبتها الى الناتج القومي باكثر من جزء صغير من واحد بالمئة .

جدول (٢) الموازنة العسكرية في اربعة بلدان عربية مجاورة لاسرائيل
مقارنة بالموازنة العسكرية الاسرائيلية
(الارقام لسنة ١٩٧٠ او لسنة ١٩٧٠/١٩٧١)[١٦]

البلد	الناتج القومي زائد فائض الاستيراد (مليون دولار)	الناتج القومي القائم (مليون دولار)	الموازنة العسكرية				
			مليون دولار	/ من القومي	/من الناتج زائد فائض الاستيراد	دولار بالنسبة للفرد	العبء الفردي بالنسبة للناتج القومي للفرد/
ج ع م	٦٠٧٠	٥٥٠٠	١١٥٠	٢٠,٩	١٨,٩	٢٥	٢٠,٦
الاردن	٦٥٥	٥٠٠	١٢٦	٢٥,٢	١٩,٢	٦٢	٢٥,٢
سوريا	١٧٠٠	١٥٠٠	١٥٨	١٠,٥	٩,٣	٢٤	١٠,٦
لبنان	١٦٥٠	١٦٠٠	٥٤	٣,٤	٣,٣	٢٢	٣,٧
المجموع أو المتوسط	١٠٠٧٥	٩١٢٠	١٤٨٨	١٦,٤	١٤,٨	٣٣,٧	١٦,٣
اسرائيل	٦٢٩٥	٩١٠٠	١٢٥٠	٢٤,٤	١٩,٦	٤١٧	٢٤,٣

ان تحليل اثر حرب الاستنزاف على الاقتصاد الاسرائيلي يقود الى نتيجة مؤداها « ان حالة المصاعدة من المجابهة تؤدي الى تخفيض معدل نمو الاقتصاد الاسرائيلي فقط دون ان تصيبه بالشلل » . على ان العرب منوا بخسائر اقتصادية ملموسة نتيجة عمليات الاستنزاف ، هي تدمير قسم كبير من مدن القناة ومنشآتها الاقتصادية ، والكثير من المنازل الاردنية في منطقة الغور ، وكذلك قسم من قناة الغور الشرقية ، وعدد من منازل قرى الجنوب اللبنانية ، وبعض المنازل والمنشآت في سوريا ، كما تعطلت دورة الحياة الاقتصادية العادية في المناطق المعرضة للقصف . وتقدر المصادر الاسرائيلية تكلفة الاستنزاف الاقتصادية بالنسبة لمصر بمبلغ ٣٥٥ مليون دولار سنويا موزعة كالاتي ٢٣٥ مليون دولار من جراء تعطيل النشاط الصناعي من منطقة القناة ، ٧٠ مليونا اعانات لسكان المنطقة النازحين ، ٥٠ مليوناً من هبوط الدخل السياحي .

جدول (٣) حجم التكلفة الاقتصادية والعسكرية لحرب الاستنزاف[١٧] .
(بالمليون دولار)

الدولة	تعطيل الاقتصاد	التكلفة العسكرية	المجموع
البلدان العربية والمقاومة	٤٠٥	٢٥٠	٦٥٥
اسرائيل	٥٠	٢٥٠	٣٠٠

(١٦) د . يوسف عبد الله صايغ ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .
(١٧) د . يوسف عبد الله صايغ ، المرجع السابق ، ص ٧٠ .

ثالثا : على الصعيد السياسي :

بدأت حرب الاستنزاف باللاءات الثلاث : لا صلح ، لا تفاوض ، ولا اعتراف باسرائيل . وانتهت بقبول مبادرة روجرز ، والتي كانت تعني امكانية التفاوض مع اسرائيل . وكان الاثر الاكبر للمبادرة وقف اطلاق النار على الجبهة المصرية ــ الاسرائيلية فقط يوم ١٩٧٠/٨/٧ بينما رفضت كل من سوريا والمقاومة الفلسطينية في جبهتي الاردن ولبنان القبول به . ويتحدد التطور السياسي اثناء حرب الاستنزاف في المجالين الداخلي والخارجي على الوجه التالي

أ ــ **في المجال الداخلي والقومي** : أحدثت حرب الاستنزاف آثارها على الجبهة الداخلية العربية في عدة مناطق منها : ــ

(١) اعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكي بمصر من القاعدة الى القمة ، وصدور بيان ٣٠ مارس الشهير والذي كان بمثابة النقد الذاتي لما حدث في مصر خلال التجربة الاشتراكية التي قام بها نظام عبد الناصر .

(٢) قيام الجبهة التقدمية في سوريا ومثل هذه الخطوة ساهمت في تعزيز العلاقة بين حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم وبقية الجماعات السياسية على الساحة السورية ومنها الأحزاب اليسارية والتقدمية الأخرى « وكان هذا يعني توحيد الجبهة الداخلية في مواجهة العدو الاسرائيلي داخليا كما كان يعني حقيقة حية تجسد وحدة القوى المكافحة ضد الامبريالية والصهيونية »(١٨) .

(٣) قيام وضع قومي عربي في ليبيا حقق بعض الانجازات على الصعيدين العربي والداخلي وكانت ثورة الفاتح من سبتمبر وثورة ٢٥ مايو في السودان عضداً لعبد الناصر وشكلتا لديه إنتصاراً وتحدياً للهزيمة وظهيرا لمصر في حربها المقبلة .

(٤) قيام اتحاد تعاقدي بين مصر وليبيا وسوريا فيما يعرف باسم اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة ، كان في بدايته يعتبر الرد العملي على الهزيمة لو تمكنت رئاسته وحكوماته من الاتفاق على ميثاق عمل ثوري واحد ووضع سياسة واحدة واستراتيجية واحدة تشمل كل الابعاد .

(٥) عقد اتفاق عام ١٩٦٩ بالقاهرة بين المقاومة الفلسطينية والسلطة اللبنانية لدرء تنفيذ المخطط الصهيوني الرامي إلى احداث صدام بينهما عن طريق ضرب الجبهة اللبنانية بطلعاته الهجومية المكثفة مما كان يؤجج الخلاف بين القيادات اللبنانية اليمينية والثورة الفلسطينية .

ب ــ **في المجال الخارجي** : سجلت حرب الاستنزاف مجموعة من الانجازات لصالح القضية العربية خارجياً تواكب مع تطور هذه الحرب : ــ

(١) كسب قطاعات هامة من الحركات التقدمية العالمية لصالح القضية الفلسطينية وبروز رأي عام اوروبي لصالحه . وكان هذا يعني الدعاية غير المدفوعة لايديولوجية الثورة الفلسطينية وخلق انصار لها في العالم .

---

(١٨) اكرم ديري . التطورات السياسية والعسكرية لقضية الشرق العربي بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ ، مجلة شئون فلسطينية ، العدد (١٨) ، فبراير ١٩٧٣ ، ص ١١ ــ ١٢ .

(٢) انبثاق المقاومة الفلسطينية كواقع عربي وكتجسيد رفض الامر الواقع الذي تحاول اسرائيل فرضه ، واستمرار الصمود والمقاومة العربية واحياء للجبهة الشرقية بالتضامن مع سوريا وحكومتي الاردن ولبنان وهو أمل طالما تاق اليه العرب عامة والمصريون خاصة

(٣) دعم التحرك الدبلوماسي العربي في الخارج بحرب استنزاف ضد العدو في داخل المنطقة .

حرب الاستنزاف كنموذج واستنتاجات .

ابرزت حرب الاستنزاف دروساً عديدة لا بد للعقل العربي من استيعابها ، وأهم هذه الدروس جميعها ـ وهو ما قد وقع بالفعل في حرب اكتوبر ١٩٧٣ ـ هو التضامن العربي ، ذلك أن المصير الذي يواجه هؤلاء العرب واحد فاذا لم تكن هناك وحدة سياسية عربية ، فعلى الاقل ايجاد نوع من الوحدة في الحركة وهذا يفترض ضرورة ايجاد نوع من التنسيق في بعض المواقف ازاء أحداث بعينها .

إن حرب الاستنزاف قد نتج عنها ما يلي ـ

أولا : امكانية إحراز نصر ـ ولو جزئيا ـ على عدو يدعي أنه لا يهزم بسبب تفوقه التكنولوجي والحضاري ، وهذا يلقي الشك على إحدى الفرضيات الاساسية التي يبني العدو الاسرائيلي عليها دعايته وتطنطن لها وسائل الاعلام الغربية . وقد جاءت حرب اكتوبر بعد ذلك لتؤكد صحة هذه المقولة .

ثانيا : إن حرب الاستنزاف عن طريق كسر حاجز الخوف ، من الهزيمة الذي احدثته الجولات العربية الاسرائيلية السابقة قد أوجدت سابقة لامثيل لها في الوجدان العربي وهي القدرة والثقة بالنفس في أية مواجهة قادمة مع العدو الاسرائيلي .

ثالثا : إن الدور الشعبي قد برز خلال هذه الجولة وهو الدور الذي حاولت الأنظمة العربية طرحه جانباً خلال الجولات السابقة . ان الأنظمة العربية بحكم التكوين الاجتماعي للنخب الحاكمة فيها لا تميل الى تسليح الشعب في مواجهة عدو متفوق ، أما في حرب الاستنزاف فقد كان لدور حرب العصابات والدفاع الشعبي « ولجان المواطنين من أجل المعركة » في مصر والمشاركة الدؤوبة للعمال المصريين في بناء قواعد صواريخ (سام) السوفيتية على جبهة القناة ، كان لكل هذا أثره في إحراز النصر النهائي . ولعل أحد الدروس التي يمكن الاستفادة منها هي ضرورة تسليح الشعب في أية حرب استنزاف ضد العدو مستقبلا بالاضافة الى الجيوش النظامية . لقد سادت في الاوساط العربية نظرية تقول بأن حرب الاستنزاف ستكون استنزافاً متبادلا . ولكن لو أن حرب الاستنزاف بدأت بالقوة نفسها من كل الجبهات العربية وكان دور المقاومة محدداً ومعيناً فيها ومرتبطاً بمسارح العمليات ، لما كانت هذه الحرب استنزافاً متبادلا فما الذي نخشى عليه في الاعماق لو أن شعبنا سلح ودرب على حماية مؤخرتنا ؟ إننا لا نملك صناعات حربية نخشى عليها ، ولا صناعات متقدمة ولا نعتبر من الدول الصناعية التي تضطر إلى نقل مصانعها ومؤسساتها إلى داخل البلاد واعماقها لاستمرار المجهود الحربي . وان الحرب الطويلة الأمد هي الحرب التي لا طريق أمامنا غيرها ، فليس في وسعنا حتى الآن شن حرب شاملة خاطفة ، فلماذا لا نستمر في إقلاق العدو وازعاجه وتوجيه اكبر الاخطار لمواقعه الحيوية ومؤسساته ، وان شرارة واحدة تبدأ في الجبهة المصرية والسورية كافية لاشعال حماسة الشعب العربي من المحيط الى الخليج ليتدفق لهذين البلدين سيل عربي لا ينقطع من العتاد والسلاح والمال والمتطوعين . ان التعلل بعامل الجغرافيا الذي لا يساعد على قيام حرب شاملة شعبية لاسند له

خصوصا وان جيوشنا النظامية موجودة وقائمة بالاضافة اليها ، وأن عدم وجود التضاريس والجبال والكهوف في الارض العربية لا يبرر السكوت على العدوان إلى الابد[19] .

رابعاً : ان اشراك المقاومة الفلسطينية مشاركة فعلية وتحديد دورها مسبقاً وبحكم تجاربها السابقة في حروب الاستنزاف يعد أحد العوامل الاساسية في انجاح اية حرب استنزاف ضد العدو الاسرائيلي . إن دور المقاومة الفلسطينية كان محدوداً في حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ولكن حتى حرب الاستنزاف بدت أهمية هذا الدور . وهذا يفترض بداية فتح جبهات للمقاومة الفلسطينية على طول حدود الجبهة الشرقية مع اسرائيل وأن يتم هناك نوع من التنسيق بين الانظمة العربية والمقاومة الفلسطينية ، أضف الى ذلك الدعم غير المحدود للمقاومة الفلسطينية والاستعداد مقدماً لاية حرب خاطفة قد يشنها العدو .

خامساً : إن حرب الاستنزاف تعد احدى الحروب القليلة التى أديرت ضد العدو وفق قيادة عربية موحدة ، وكان للشهيد الفريق أول عبد المنعم رياض شهيد حرب الاستنزاف دور بارز في هذا التوحد .

سادساً : إن الحليف الاساسي للشعوب العربية في مواجهة الامبريالية والصهيونية والدعم غير المحدود من العتاد بل واحيانا المحاربين كان مصدره دول المنظومة الاشتراكية خلال هذه المرحلة . لقد كان للدولتين الاعظم دور واضح في هذه الحرب فمن المعروف أن الولايات المتحدة وحلفاءها الغربيين قدموا دعماً قوياً لاسرائيل ، بينما وقفت دول الكتلة الاشتراكية مع العرب .

كانت حرب الاستنزاف إستنزافا حقيقياً لاسرائيل والعرب على السواء . ولكنها في التحليل الاخير وبأي مقياس من المقاييس كانت على المدى الطويل لصالح العرب وليس لصالح اسرائيل . ويوجد عديد من المحللين يتفقون مع هذه النظرة . ويمكن أن نقول بان حرب الاستنزاف بهذا المعنى تعد نموذجاً للحرب الطويلة الامد ضد إسرائيل .

---

(١٩) اكرم ديري ، المرجع السابق ، ص ١٥

القدس في الصحافة العربية

د . عواطف عبد الرحمن

استاذة في كلية الاعلام ـ جامعة القاهرة ،
لها كتابات كثيرة في الشؤون الاسرائيلية
والافريقية والتوثيقية .

ما من مدينة في التاريخ استأثرت باهتمام العالم والبشرية عامة كما استأثرت به مدينة القدس هذا الاهتمام النابع من وجدان الانسانية وقيمها الروحية والحضارية • فالقدسية التي تتمتع بها هذه المدينة لدى الديانات الثلاث باعتبارها مهبط الأنبياء جعل منها مدينة مميزة . كما أن المكانة الدينية والتاريخية الخاصة التي تتمتع بها دون سائر المدن العربية جعل أنظار المستعمرين قديما وحديثا تتجه اليها فخاضوا غمار حروب طاحنة بسببها أو من أجلها أو متذرعين بها . وقد برزت قضية القدس في العصر الحديث كقضية خاصة من خلال القضية الفلسطينية وذلك بفعل التدخلات الأجنبية والاطماع الاستعمارية التي تسترت خلف اقنعة دينية للوصول الى أهدافها . ان القدس هي رمز في غاية الاهمية بالنسبة للحركة الصهيونية كما كانت رمزا في غاية الاهمية بالنسبة للصليبيين في حملاتهم على فلسطين منذ حوالي ٨٠٠ عام. فالعدوان الصليبي والعدوان الصهيوني متشابهان في الغاية والوسيلة ، انهما يستغلان الدين ليخدما به أغراضا اخرى هي السيطرة والاغتصاب والعدوان على أصحاب الحق والارض والتاريخ في هذه المنطقة من العالم ونحن إذ نطرح قضية القدس نؤكد على حقيقة أولية وهي استحالة تناولها بمعزل عن القضية الام ونعني بها القضية الفلسطينية . فالقدس جزء من قضية اشمل وتناولها لا يمكن أن يتم بمعزل عن هذه القضية المحورية التي يرتبط بها المستقبل السياسي والاجتماعي والحضاري لشعوب المنطقة العربية بكاملها ودون استثناء . وان تاريخ القدس المعاصر هو تاريخ مدينة عربية انتزعت من أيدي أصحابها الشرعيين وأعطيت نظاما دوليا عام ١٩٤٧ ثم قسمت عام ١٩٤٨ الى أن ضمتها اسرائيل عام ١٩٦٧ . وتحت ستار نظام التدويل وقد بقي نظريا وتم اقراره دون ما اكتراث بالسيادة الفلسطينية وسعت اسرائيل احتلالها بالاستيلاء على قسم من المدينة فالاستيلاء عليها بكاملها . وقد كانت القدس طيلة بقائها تحت السلطة العربية ملتقى الديانات التوحيدية الثلاث تستقبل الجميع بكل تسامح وتتيح لهم ممارسة شعائرهم الدينية بأوسع حرية . وذلك طبقا لمقررات مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذي وزع الأبنية الدينية كما حدد شروط ممارسة الشعائر الدينية . وبالرغم من ذلك فان الأمم المتحدة في قرارها الصادر في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧ قضت بتدويل القدس في الوقت الذي أقرت فيه تقسيم فلسطين . والواقع أن نظام التدويل الذي تبنته الأمم المتحدة في قرارها السابق لم ير النور لأن الحرب الاسرائيلية العربية نشبت فور خروج القوات

البريطانية من فلسطين . وقد كرست اتفاقية وقف اطلاق النار بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٤٨ واتفاقية الهدنة التي تبعتها بتاريخ ٣ ابريل/ نيسان ١٩٤٩ تقسيماً واقعياً للقدس حدوده هي حدود خط وقف اطلاق النار وليس تقسيماً قانونيا يعني التخلي الاقليمي عن السيادة على القسم الجديد من المدينة . واذا سلمنا جدلا بان تقسيم القدس يشكل نظاما قانونيا دوليا ، فلا بد من الاعتراف بأن أعمال العنف في ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧ التي اقترنت بالاستيلاء الكامل على المدينة وضمها لاسرائيل قد خرقت هذا النظام بصورة واضحة . وقد قامت اسرائيل بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بعدة اجراءات في المدينة تهدف الى تغيير طابعها ومعالمها وتتمثل هذه الاجراءات في تشريعات وقرارات اتخذت بعد الاحتلال مباشرة . وتهدف هذه الاجراءات الى ضم القدس العربية الى السيادة الاسرائيلية (من هذه الاجراءات حل مجلس امانـة القـدس ، توسيـع منطقـة البلديـة لتشمـل قرى ومناطـق مجاورة ، تشريعات في مجال القضاء، الاستيـلاء على بعض المنـازل والأراضي وتهجـير السكان).وقد أدانت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها غير العادية في يونيو ١٩٦٧ بقرار صدر في ٤ يوليو/ تموز ١٩٦٧ ضم القسم العربي من القدس ودعت اسرائيل الى الغاء جميع الاجراءات الرامية الى تعديل وضع المدينة . ولم تقم اسرائيل بأي اجراء من شأنه الرجوع عن ضم المدينة . بل على العكس بعد أن أعلنت القدس عاصمة للدولة بقرار من الكنيست في ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٩ ونقلت اليها معظم وزاراتها تابعت هذه السياسة بالرغم من قرارات الأمم المتحدة واستنكار الرأي العام العالمي فقد صدرت عن الأمم المتحدة عدة قرارات تتعلق بالقضية الفلسطينية ووضع مدينة القدس عبر تاريخ هذه القضية التي مر عليها في أروقة الأمم المتحدة ما يزيد عن ثلاثين عاما . غير أن أهم قرارين صدرا في هذه القضية هما القرار رقم ١٨١ /٢ بتاريخ ٢٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤٧ المتضمن مشروع تقسيم فلسطين وتدويل القدس والقرار رقم ٢٤٢ الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧ عن مجلس الأمن الدولي . والواقع أن القرار الأخير لم يشر صراحة الى موضوع القدس بينما تضمن القرار الأول نصاً خاصاً بمدينة القدس بحيث توضع تحت نظام دولي ويترتب على ذلك ان القرار ٢٤٢ لم يعدل قرار تقسيم فلسطين وتدويل القدس . ومركز القدس في اطار التسويات الواردة في مقررات الأمم المتحدة لا تخرج المدينة عن وضعين : أولهما : العودة الى الوضع الذي كان قائما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ وهو وضع مرحلي مؤقت : وثانيهما : وضع المدينة بقسميها تحت الادارة الدولية وهذا الوضع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقرار التقسيم رقم ١٨١ /٢ وايجاد دولتين في فلسطين احداهما عربية والأخرى يهودية .

وتشكل القدس احدى العوائق الأساسية في طريق السلام وذلك بسبب تمسك اطراف الصراع بوجهات نظر متناقضة ازاء مستقبل هذه المدينة ، فوجهة النظر الاسرائيلية تتلخص في أن المدينة يجب أن تكون موحدة وتحت السيادة الاسرائيلية مستندة في ذلك الى افكار ونظريات لا سند لها في القانون الدولي المعاصر لأنها تقوم على تسويغ الضم الفعلي واستمرار الاحتلال . أما وجهة النظر العربية فهي تقوم على رفض اسانيد ادعاء الصهيونية بحقها في فلسطين كأساس للصراع على السيادة . إذ لا يترتب على الاحتلال نقل للسيادة واجراءات الضم الفعلي للمدينة التي قامت بها اسرائيل تفتقر الى الشروط القانونية للضم وتتعارض مع أحكام القانون الدولي . وقد تأيد ذلك بعدة قرارات صدرت عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن . وتبعا لذلك لا بد لاسرائيل أن تسحب قواتها من مدينة القدس العربية وان تعيد الوضع الى ما كان عليه قبل العدوان . إن عمق الخلاف حول وضع هذه المدينة العظيمة يكفي لاحباط عزائم جميع القوى الساعية لخلق الاستقرار في الشرق الأوسط . ويجدر

الملاحظة أن جميع محبذي التسوية الذين يصرون على رفض واقع القدس العربية الحالي من كتاب عرب وغربيين متفقون على وجوب الضغط الشديد على اسرائيل بغية تأمين وضع جديد للقدس أياً كان . وسواء أكان الحل البديل تدويل المدينة أو الاشتراك في حكمها أو اعادتها الى السيطرة العربية أو أي خليط من هذه البدائل . فان الرفض الاسرائيلي المعلن والصريح للانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وخاصة مدينة القدس لم يعد يحتمل أي تأويل أو تفسير أو مناورة ويجب ان يقابل باستراتيجية عربية واضحة المعالم تنبع من ارادة الشعب العربي وتبنى على قدراته وقوته الفعلية وترفض الاستسلام طريقاً للسلام . ولا جدال في ان منح شعب فلسطين حق تقرير المصير وتمكينه من اقامة دولته واعادته الى وطنه يجعل مركز القدس واضحاً لا يشوبه الغموض ولا تكتنفه التعقيدات الناجمة عن حلول سياسية لا تقوم على أسس قانونية عادلة ولا تشكل قناعة ذاتية لدى الأطراف بضرورة احترامها . فالمجتمع الدولي لا يملك اجراء تغييرات اقليمية جديدة ولا يملك فرض تسويات لا تستند الى حق الشعوب في تقرير مصيرها .

مدخل إلى البحث :

يهدف هذا البحث الى الاحاطة الشاملة باتجاهات الصحافة العربية ازاء قضية القدس ، وذلك من خلال المعالجات المختلفة التي تناولت بها الصحف العربية تلك القضية منذ انتهاء معارك يونيو/ حزيران ١٩٦٧ حين فوجىء عرب القدس بما أعد لهم ولمدينتهم من مؤامرات ومآس استهدفت ولا تزال تصفيتهم تدريجياً ومصادرة أراضيهم وعقاراتهم وطمس حضارة أجدادهم والاعتداء على مقدساتهم وتغيير معالم مدينتهم المقدسة ، ولم تتوان اسرائيل في سبيل تحقيق ذلك عن تحدي وانتهاك جميع المواثيق الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومنظمة اليونسكو ولجنة حقوق الانسان مصممة على تنفيذ مخططها في أقصر فترة زمنية ممكنة كي تضع العالم أمام الأمر الواقع . ولا تزال معركة القدس تشتعل وتلتهم كل يوم جزءاً من المقدسات العربية والاسلامية والمسيحية معاً . والأهم من ذلك أنها تؤكد أن القضية الأولى على الخريطة العربية اليوم وهي قضية فلسطين لم ولن تحسمها الادانات الدولية أو بطولة أبناء المدن العربية وفي مقدمتها القدس فحسب بل تحتاج الى مخطط عصري ذي تصور استراتيجي شامل يضع في اعتباره القوى الذاتية لأصحاب الأرض أولا وقدراتهم الآتية والمستقبلة والاطار الذي يتحركون فيه باعتبارهم طليعة لحركة التحرير العربية أولا ، وجزءاً من حركة التحرر الوطني بالعالم الثالث ، كما يحدد بوضوح جبهات الاعداء والحلفاء الاستراتيجيين والمرحليين .

ما هو موقف الشعوب العربية من قضية القدس ؟ وما هو حجم الاهتمام الذي يبديه الرأي العام العربي مثلا في الصحف ازاء الانتهاكات والاجراءات التعسفية التي تقوم بها اسرائيل ضد القدس وضد سكانها العرب وضد مقدساتها وحضارتها ؟ ما نوع هذا الاهتمام وما هو التصور الذي تطرحه الصحف العربية من أجل انهاء هذه المحنة التي تواجهها المدينة المقدسة ؟ هذه بعض التساؤلات التي سوف يتناولها البحث ويحاول الاجابة عليها من خلال دراسة وتحليل الكتابات التي تناولت قضية القدس في الصحافة العربية خلال عام ١٩٧٧ .

ولقد استقر الرأي على اختيار عينة تمثل بعض الأقطار العربية كي تصبح محوراً للبحث . وقد روعي في هذا الاختيار عدة اعتبارات تتعلق بمدى أهمية وحجم هذه الأقطار سياسياً واقتصادياً وجغرافياً . وبناء على ذلك تم اختيار الأقطار العربية التالية : مصر : السودان : الجزائر : الأردن : الكويت .

أما فيما يتعلق بباقي خطوات العينة فقد انحصرت في ثلاثة اجراءات أولها تحديد عينة الصحف وثانيها تحديد العينة الزمنية وثالثها تحديد عينة القضايا التي ستخضع للتحليل والدراسة . لقد تم اختيار عينة الصحف طبقاً للاتجاه التحريري لكل منها مع مراعاة الاطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تتحرك في داخله بالنسبة للأقطار العربية التي وقع عليها الاختيار . وقد أسفر ذلك عن اختيار ما يلي : الاهرام (القاهرية) ، الدستور (الأردنية) ، القبس (الكويتية) ، الوطن (الكويتية) ، الصحافة (السودانية) ، المجاهد (الجزائرية) .

وكان قد تحدد الاطار الزمني للعينة بالفترة التي تبدأ بعد العدوان الاسرائيلي ١٩٦٧ وما تلاه من احتلال القدس بشطريها واعلان القدس الموحدة عاصمة لدولة اسرائيل وما أثاره ذلك من ردود فعل عالمية ومحلية مع مراعاة ان تمتد فترة البحث حتى نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٧ حين بدأت قضية الصراع العربي الاسرائيلي تأخذ مساراً مختلفاً في الجوهر والشكل وذلك بعد مبادرة الرئيس السادات وزيارته للقدس . وقد حالت عدة اعتبارات دون امكان تغطية هذه الفترة التي تقرب من عشر سنوات ، وكان يتصدر هذه الاعتبارات صعوبة الحصول على مجموعات الصحف العربية كاملة فضلاً عن افتقار معظم دور الصحف العربية الخاضعة للدراسة لوجود ارشيف صحفي يضم أعداد الصحف المطلوبة . كما لوحظ أن فترة السنوات العشر الماضية قد شهدت بعض التطورات السياسية الهامة على المستوى العربي وقد كان لذلك تأثير على اختفاء لبعض الصحف التي كانت تصدر في نهاية الستينات وبداية السبعينات وصدور صحف جديدة كلسان حال للنظم الحاكمة الجديدة . بسبب كل الاعتبارات السالفة تقرر اتخاذ عام ١٩٧٧ بكامله اطاراً زمنياً للعينة . مع مراعاة الاشارة الى مواقف بعض الصحف التي عاصرت القضية منذ حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧ (الاهرام القاهرية ، الصحافة السودانية) .

وبعد اجراء المسح الاستطلاعي لعينة الصحف استطعنا تحديد القضايا الجزئية المتفرعة عن القضية الرئيسية موضع البحث وهي القدس ، وتنحصر أهم القضايا الفرعية فيما يلي : تدويل القدس : اجراءات تهويد القدس : اعادة السيادة العربية الى القدس : المقاومة العربية في القدس : المكانة الدينية لمدينة القدس : الوضع القانوني لمدينة القدس : تقسيم القدس ٠ القدس عاصمة اسرائيل ٠ القدس جزء من المفاوضات لحل أزمة الشرق الأوسط : القدس عموما .

وروعي اتخاذ الموضوع كوحدة أساسية للتحليل مع تنوع المادة الاعلامية سواء كانت خبراً أو مقالاً أو افتتاحية أو حديثاً أو تحقيقاً . كما تقرر اعتبار الفكرة السائدة كوحدة قياس داخل اطار كل موضوع .

وفيما يتعلق بتحديد الفئات التي تم على ضوئها جمع المعلومات وتصنيفها فقد تقرر بعد المسح الاستطلاعي تقسيمها الى قسمين رئيسيين : **القسم الاول :** يتناول فئات المضمون (انماط التحرير) وتشمل . نوع المادة الاعلامية (خبر ، افتتاحية ، حديث ، مقال) : مصدر المادة الاعلامية (وكالات أنباء وصحف أجنبية ، وكالات أنباء وصحف عربية ، محرر الصحيفة ووكالة أنباء محلية) : اتجاه المادة الاعلامية (مؤيد ، معارض ، محايد ، متوازن) . **والقسم الثاني :** يتناول فئات الشكل (انماط الاخراج الصحفي) وتشمل : موقع المادة في الصحيفة (صفحة أولى ، صفحات داخلية) ٠ اسلوب التعبير (الاستشهاد ، التعميم ، الاسناد لمصدر موثوق به) : الصور والرسوم (صور موضوعية أو شخصية أو خرائط) .

لقد تمت بلورة عدة فروض رئيسية بعد دراسة العينة ويمكن ايجازها فيما يلي : تطرح معظم الصحف العربية اهتماما متقاربا من حيث الحجم بقضية القدس وخصوصا بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وذلك رغم اختلاف الرؤية والمعالجة : تطرح جميع الصحف العربية المواقف الرسمية لحكوماتها ازاء قضية القدس : يغلب على معالجات بعض الصحف العربية الرؤية الدينية في تناول قضية القدس · يتذبذب موقف بعض الصحف العربية في الحل الذي تطرحه لقضية القدس ويتراوح ما بين تأييد التدويل احيانا والحرص على عروبة القدس احيانا اخرى : تتصدر الصحافة الأردنية باقي الصحف العربية في حجم الاهتمام وتنوع المعالجات لقضية القدس · بعض الصحف العربية تتناقض مع حكوماتها في الحل الذي تراه مناسبا لمسألة القدس : يغلب الطابع الخبري الوصفي على معظم معالجات الصحف العربية لقضية القدس .

اتجاهات الصحف العربية نحو قضية القدس في السبعينات :

أسفرت التحليلات الجزئية لاتجاهات الصحف المصرية والأردنية والكويتية والجزائرية والسودانية ازاء قضية القدس في السبعينات عن النتائج التالية :

أولا : من ناحية المعالجة الصحفية وتتضمن انماط التحرير وأشكال الاخراج فيما يتعلق بانماط التحرير .

تتصدر صحيفة الدستور الاردنية الصحافة العربية في استخدام الاخبار والموضوعات الخبرية في معالجتها المختلفة لقضية القدس (٣٥ خبرا) ويليها مباشرة صحيفة الاهرام القاهرية (٢٧ خبرا) وتتساوى بقية الصحف العربية فيما عدا صحيفة القبس الكويتية التي كانت اقل الصحف العربية اعتماداً على الخبر بينما انفردت باستخدام القوالب الصحفية التي تحمل وجهات نظر مثل المقال والتحقيق (١٨ مقالا وتحقيقا) ويليها مباشرة في هذا الصدد صحيفة المجاهد الجزائرية (١٢ مقالا وتحقيقا) وقد انفردت هذه الصحيفة باستخدام الافتتاحيات (٦ افتتاحيات) يضاف اليها صحيفة الوطن الكويتية التي تفوقت على الصحف الأخرى في اعتمادها على الافتتاحيات (٧ افتتاحيات) . ويمكننا أن نعزو هذه الفوارق والاختلافات الى عدة اسباب تتعلق بالسياسة العامة التي تحكم موقف كل صحيفة من القضايا العالمية والمحلية المطروحة فضلا عن مدى توافر كوادر متخصصة من الصحفيين المحليين : علاوة على عامل آخر تنفرد به قضية القدس وهو العامل الجغرافي . فمن الملحوظ ان صحيفة الدستور الأردنية تتأثر في معالجاتها للقضية بسبب صدورها في أقرب الأماكن العربية للقدس وما يمكن أن يسمى خط المواجهة الأول . فهي بحكم هذا العامل تصبح أقدر الصحف العربية على متابعة كل ما يتعلق بالقضية بشكل مباشر سواء اجراءات تهويد المدينة والمقاومة العربية لقوات الاحتلال الاسرائيلي في القدس وسائر القضايا الفرعية المشار اليها في الجدول رقم (١) . ولذلك نلاحظ أن التغطية الخبرية تحتل المكان الأول في الجزئية الخاصة بمحاولات اسرائيل لتغيير معالم المدينة (١١ خبرا) ، يليها ردود الفعل العربية المتمثلة في المظاهرات والاضرابات والانتفاضات الشعبية في القدس (٩ أخبار) . كذلك المكانة الدينية للقدس (٧ اخبار) .

ويتأكد لدينا أهمية الدور الذي يلعبه العامل الجغرافي في تحديد نوعية المعالجات الصحفية لقضية القدس عندما نلقي نظرة على القوالب الصحفية التي استخدمتها صحيفة المجاهد فنرى أن المتابعة الخبرية كانت أقل بكثير من صحيفة الدستور . ولا شك أن صدور المجاهد في الجانب الآخر من الوطن

العربي وهي منطقة المغرب العربي تحول دون القيام بالتغطية الخبرية المباشرة التي تتاح بقدر أكبر بكثير لصحيفة الدستور التي تصدر على بعد بضعة أميال من القدس . وتحاول صحيفة المجاهد تعويض هذا الجانب بالتركيز على الافتتاحيات والمعالجات التحليلية ، بينما يلاحظ انعدام الاستعانة بالافتتاحيات في صحيفة الاهرام القاهرية وتتفوق في استخدام الحديث الصحفي في هذا المجال (٩ احاديث صحفية) .

تتفوق صحيفة الاهرام القاهرية في استخدام الصور الصحفية المصحوبة بتعليقات في معالجتها لقضية القدس (١١ صورة) يليها مباشرة صحيفة الدستور الأردنية والقبس الكويتية (كل منهما ٩ صور) . ولكن من الملحوظ ان الصور التي استعانت بها الاهرام كان يغلب عليها الطابع الشخصي بينما يغلب الطابع الموضوعي على الصور التي استخدمتها كل من الدستور والقبس . كذلك يلاحظ أن الدستور تهتم بالتركيز على صور المدينة ذاتها سعيا لابراز المحاولات الاسرائيلية الدائمة لتغيير معالم المدينة واهتمت كل من القبس والدستور بنشر بعض الخرائط والرسوم المصحوبة بتعليقات في تناولها لقضية القدس . وتعتبر المجاهد اقل الصحف العربية استعانة بالصور والرسوم (٤ صور) بينما تحتل صحيفة الوطن الكويتية مكانا متوسطا في هذا الصدد إذ استعانت في بعض المناسبات بصور شخصية وموضوعية وخريطة (٧ صور ورسوم) .

ثانيا : مصدر المادة الاعلامية : قد يبدو غريبا ان تكون وكالات الانباء الأجنبية (الغربية بالذات) ثم الصحف الأجنبية هي المصدر الرئيسي الذي اعتمدت عليه معظم الصحف العربية في تغطيتها لقضية القدس . وتتصدر صحيفة الاهرام القاهرية الصحف العربية في هذا الصدد (٢٥ خبرا) ويليها مباشرة صحيفة الدستور الأردنية (٢٠ خبرا) . وتعتبر صحيفة القبس الكويتية أقل الصحف العربية اعتمادا على وكالات الانباء والصحف الأجنبية (٤ أخبار) أما باقي الصحف العربية فهي تكاد تتقارب : الوطن والمجاهد (كل منهما ٧ أخبار) ثم الصحافة السودانية (خبرا).

ويلاحظ أن المصادر المحلية التي تتمثل في محرري الصحف وكتابها ومراسليها الخصوصيين تمثل مصدرا اساسيا لمختلف المواد الاعلامية التي نشرتها الصحف العربية عن القدس وخصوصا الافتتاحيات والمقالات والتحقيقات والأحاديث ، وتبرز القبس الكويتية في المقدمة(١٦مادة اعلامية) ويليها مباشرة الدستور الأردنية والوطن الكويتية (١٥ مادة اعلامية لكل منهما) ثم تأتي الاهرام القاهرية (١٢ مادة اعلامية) فالمجاهد الجزائرية (٨ مواد اعلامية) .

ومما يجدر ذكره أن بروز القبس الكويتية في المقدمة يرجع الى وجود مراسل خاص لها بمدينة القدس يواليها بالتحقيقات والأحاديث بشكل منتظم . وتحتل الصحف ووكالات الانباء العربية مكانة لا بأس بها كمصدر للمواد الاعلامية التي تتناول الصحف العربية من خلالها قضية القدس.وتعتبر صحيفة الدستور الأردنية أولى الصحف في هذا المقام (١٠ مواد اعلامية) وتليها مباشرة الوطن الكويتية (٨ مواد اعلامية) فالمجاهد الجزائرية (٧ مواد اعلامية) ثم القبس الكويتية (٦ مواد اعلامية). وتعتبر صحيفة الاهرام القاهرية أقل الصحف العربية اعتمادا على المصادر العربية في تغطيتها لقضية القدس (٢ مادة اعلامية) .

جدول يوضح حجم المواد الاعلامية التي نشرت بالصحف العربية عن قضية القدس في السبعينات

أسماء الصحف	حجم المواد الاعلامية الاجمالي	التفاصيل			
		الخبر	الافتتاحية	الحديث	المقال والتحقيق
الاهرام القاهرية	٤٠	٢٧	—	٩	٤
الدستور الاردنية	٤٥	٢٥	٤	٢	٤
القبس الكويتية	٢٦	٧	—	١	١٨
الوطن الكويتية	٣٠	١١	٧	—	١٢
المجاهد الجزائرية	٢٠	١١	٦	١	٣
الصحافة السودانية	٢٨	١٥	١١	٢	
المجموع	١٨٩	١٠٦	١٥	٢٨	٤٠

ثالثا : موقع المادة الاعلامية : يتفاوت موقع المواد الاعلامية التي عالجت الصحف العربية من خلالها قضية القدس طبقا لنوع القوالب الصحفية التي اعتمدت عليها هذه الصحف وأيضا حسب السياسة التي تلتزم بها كل صحيفة في توزيع المواد الاعلامية على صفحاتها المختلفة . ويلاحظ أن صحيفة الدستور الاردنية تتصدر الصحف العربية الاخرى في تخصيص الصفحة الأولى لأغلب معالجاتها لقضية القدس (٢٦ مادة اعلامية) . وهذا يرجع أساسا الى اعتماد هذه الصحيفة على التغطية الخبرية كصحيفة رئيسية للمعالجة أكثر من القوالب الصحفية الاخرى . كما يعكس ذلك مدى أهمية القضية بالنسبة للصحيفة مما جعلها تحرص على نشر معظم الاخبار التي تتعلق بالمقاومة العربية في القدس واجراءات تهويد القدس والمكانة الدينية للقدس في الصفحات الاولى . وقد نالت الصفحات الداخلية في الدستور ١٩ مادة اعلامية فقط . ويلي ذلك بفارق كبير نسبيا صحيفة المجاهد الجزائرية التي نشرت في صفحاتها الاولى (١٦ مادة اعلامية) عن قضية القدس منها ٥ افتتاحيات تتعلق بالوضع السياسي للقدس وضرورة اعتبارها جزءا أساسيا من أزمة الشرق الأوسط . بينما لم تنل الصفحات الداخلية في المجاهد اكثر من ٥ مواد اعلامية عن قضية القدس .

وتتقارب الصحف العربية الأخرى في نسبة المواد التي خصصتها عن القدس وكان نصيبها الصفحات الأولى . فنجد مثلا أن الوطن الكويتية تتساوى فيها نسبة المواد التي نشرت في الصفحة الأولى(١٥ مادة اعلامية)عن تلك التي نشرت في الصفحات الداخلية . ويبدو الفرق واضحا بالنسبة لصحيفة الاهرام القاهرية اذ خصصت ١٤ مادة اعلامية للصفحات الأولى بينما كان نصيب الصفحات الداخلية يقارب ضعف هذا الرقم (٢٦ مادة اعلامية) . وتتساوى القبس الكويتية مع الصحافة السودانية في عدد المواد الاعلامية التي نشرت في الصفحات الأولى عن القدس اذ بلغت ١١ مادة اعلامية .

رابعا : وسيلة التعبير : اختلفت وسائل التعبير لدى الصحف العربية طبقا لموقف هذه الصحف من القضية وطبقا لنوع المعالجة سواء كانت خبرية أم تحمل وجهة نظر مباشرة من خلال الافتتاحيات

أو المقالات والتحقيقات وأيضاً طبقاً للمصادر التي اعتمدت عليها هذه الصحف .

وفي ضوء ذلك يمكننا رصد الملاحظات التالية حول اسلوب التعميم وهو يمثل وسيلة التعبير البارزة في معظم الصحف العربية ، وتتفاوت نسب الاستخدام من صحيفة الى اخرى . ولكن تتصدر صحيفة الدستور الأردنية الصحف العربية الأخرى في استخدام هذا الأسلوب اذ تبلغ نسبة المواد الاعلامية التي استعانت الصحيفة بهذا الاسلوب في تناولها (٣٢ مادة اعلامية) ، ويليها مباشرة الاهرام القاهرية (٢٦ مادة اعلامية) ، ثم تتقارب النسبة الى حد كبير في باقي الصحف العربية إذ تبلغ لدى كل من القبس الكويتية والمجاهد الجزائرية (١٥ مادة اعلامية) بينما يهبط هذا الرقم الى ١٢ مادة اعلامية لدى كل من الوطن الكويتية والصحافة السودانية . ويلاحظ أن أسلوب التعميم كان أكثر استخداماً في معالجة الجزئية الخاصة باجراءات تهويد القدس (٩ مرات) لدى الدستور الأردنية (٨ مرات) لدى الاهرام القاهرية وقد انفردت الدستور في استخدام اسلوب التعميم في معالجة الجزئية الخاصة بالمقاومة العربية في القدس (٨ مرات) ويليها كل من الاهرام والمجاهد والوطن (٣ مرات) . كذلك انفردت الاهرام في استخدام هذا الاسلوب في معالجة الجزئية الخاصة باعادة السيادة العربية الى القدس (٦ مرات) وقد استخدمت الصحف العربية اسلوب التعميم بشكل متفاوت في معالجة الجزئية الخاصة بمكانة القدس الدينية (٧ مرات) لدى كل من الدستور الأردنية والاهرام القاهرية ثم تأتي القبس الكويتية (٥ مرات). هذا وقد تم استخدام اسلوب التعميم بشكل متساو في معالجة باقي جزئيات القضية ما عدا الجزئية الخاصة باعتبار القدس جزءا من المفاوضات لحل أزمة الشرق الأوسط إذ انفردت المجاهد بالاعتماد على هذا الاسلوب (٤ مرات) .

خامساً : الصور والرسوم : تنفرد صحيفة الاهرام القاهرية بأكبر عدد من الصور الصحفية (١١ صورة) في تناولها لقضية القدس . ويغلب على هذه الصور الطابع الشخصي . وكانت غالبا ما تنشر مصحوبة بتصريحات لبعض المسؤولين العرب أو الاسرائيليين أو الامريكيين أو رجال الدين . وقد نالت الجزئية الخاصة باعادة السيادة العربية الى القدس أكبر عدد من الصور التي نشرتها صحيفة الاهرام (٣ مرات) . وتأتي صحيفة الدستور الأردنية والقبس الكويتية في المرتبة الثانية من حيث عدد الصور التي نشرتها كل منهما عن القدس وكانت الصور التي نشرتها الدستور أغلبها صور موضوعية (٩ صور) موزعة بالتساوي على مختلف جزئيات القضية وقد تركز بعضها على اجراءات تهويد القدس (٢ صورة) والمقاومة العربية في القدس (٢ صورة). أما القبس فقد خصصت أغلب الصور للجزئية الخاصة بالمكانة الدينية للقدس (٥ صور) . ويلي ذلك صحيفة الوطن التي استخدمت ٧ صور كانت معظمها موضوعية وقد تركز بعضها على المقاومة العربية في القدس (صورتان) ويلاحظ أن المجاهد تأتي في نهاية الترتيب اذ كان لجوئها الى الصور قليلا ولم يزد عن ٤ مرات وكذلك الصحافة السودانية لم تلجأ الى الصور إلا نادراً .

المعالجات الفكرية والسياسية :

يتحدد قياس الاتجاهات الفكرية والسياسية للصحف العربية ازاء قضية القدس على ضوء اعتبارين أساسيين : أولهما . حجم الاهتمام ويتضمن قياس المواد التي عالجت من خلالها الصحف العربية قضية القدس ككل وحجم المعالجات الجزئية لفرعيات القضية كل فيها على حده . وثانيهما: نوع الاهتمام ويتضمن قياس اتجاه المواد الاعلامية والمنطلقات الفكرية والرؤى السياسية التي استندت اليها كل صحيفة من الصحف التي خضعت للدراسة سواء في تحليلاتها أو نوع التغطية الخبرية التي قامت بها لقضية القدس بجزئياتها المختلفة .

حجم المواد الاعلامية :

يتضح من مراجعة الجدول الوارد سابقا ان الاهتمام الكمي للصحف العربية لقضية القدس ككل قد حقق أرقاما مرتفعة نسبيا (١٨٣ مادة اعلامية) ، مما يشير الى أن الصحافة العربية قد أولت اهتمامــا كبيراً لهذه القضية خصوصا عام ١٩٧٧ الذي يمثل الاطار الزمني للدراسة وحين بلغ الاهتمام العربي الدولي ذروته سواء بقضية الصراع العربي الاسرائيلي ككل أو بقضية القدس كمحور رئيسي للقضية الأم . ويتفاوت اهتمام الصحف العربية من حيث حجم المواد الاعلامية التي خصصتها كل صحيفة على حدة لقضية القدس . ونلاحظ أن الدستور الأردنية تتصدر الصحف العربية الأخرى في حجم الاهتمام الذي أولته للقضية (٤٥ مادة اعلامية) تليها مباشرة الاهرام القاهرية (٤٢ مادة اعلامية) ويتقارب حجم الاهتمام الذي أولته الصحف الكويتية لقضية القدس إذ أن صحيفة الوطن خصصت ٣٠ مادة اعلامية بينما خصصت القبس ٢٦ مادة اعلامية لمعالجة القضية . وتأتي في نهاية القائمة صحيفتا المجاهد الجزائرية (٢١ مادة اعلامية) ثم الصحافة السودانية (١٩ مادة اعلامية) .

وعندما نحاول القاء نظرة متأنية لحجم المواد الاعلامية التي نشرتها الصحف العربية عن القضايا الجزئية المتفرعة عن قضية القدس نجد أن الجزئية الخاصة بالمكانة الدينية للقدس تنال المكانة الاولى من حيث الاهتمام الكلي (٣٩ مادة اعلامية) وتليها الجزئية الخاصة باجراءات تهويد القدس (٣٧ مادة اعلامية) . وتأتي المقاومة العربية في القدس في المرتبة الثالثة (٢٩ مادة اعلامية) ، ثم الجزئية الخاصة باعادة السيادة العربية الى القدس (٢٥ مادة اعلامية) . أما البعد السياسي لقضية القدس الذي يطرحها كجزأ أساسي من المفاوضات لحل أزمة الشرق الأوسط فهو لا ينال سوى (١٢ مادة اعلامية) . وتتقارب الجزئيات الأخرى للقضية سواء تدويل القدس (١١ مادة اعلامية) والجانب العام للقضية (٨ مواد اعلامية) أو المقولة الخاصة باعتبار القدس عاصمة لاسرائيل (٧ مواد اعلامية) أو مسألة تقسيم القدس (٦ مواد اعلامية) . ويتضاءل حجم الاهتمام الذي توليه الصحف العربية للجزئية الخاصة بالوضع القانوني للقدس . ويبدو هذا واضحا في الرقم الذي استقيناه من الجداول (٣ مواد اعلامية) .

وتبرز صحيفة الدستور في مقدمة الصحف العربية من حيث حجم الاهتمام الذي أولته بعض الجزئيات المتفرعة عن قضية القدس ونلاحظ أنها تحتل المرتبة الأولى في هذا الصدد في اهتمامها بالقضايا التالية : اجراءات تهويد القدس (١٤ مادة اعلامية) وتليها مباشرة الاهرام القاهرية (١١ مادة اعلامية) : المقاومة العربية في القدس (١٠ مواد اعلامية) وتليها الوطن الكويتية (٦ مواد اعلامية) . وتبرز القبس الكويتية في حجم الاهتمام الذي أولته للمكانة الدينية للقدس (١٠ مواد اعلامية) ويأتي بعدها مباشرة كل من الاهرام القاهرية والدستور الأردنية (٩ مواد اعلامية كل منهما) . أما صحيفة المجاهد الجزائرية فقد احتلت المرتبة الأولى في حجم اهتمامها بالجزئية الخاصة باعتبار قضية القدس جزءاً من المفاوضات الجارية لحل أزمة الشرق الأوسط (٥ مواد اعلامية) رغم انها في الأساس لا تتبنى الاتجاه الخاص بترجيح الحل السلمي لقضية الصراع العربي الاسرائيلي . وقد كانت من أولى الصحف العربية التي عبرت عن هذا الاتجاه في وقت مبكر يرجع الى اعتراضها على القرار ٢٤٢ (نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧) وجميع البنود التي ينص عليها لحل أزمة الشرق الأوسط . ومن المعروف ان صحيفة المجاهد تعبر عن الموقف الرسمي للحكومة الجزائرية ازاء قضية

الصراع العربي الاسرائيلي وتأتي صحيفة الوطن الكويتية في المرتبة الثانية فيما يتعلق بحجم اهتمامها بالجزئية الخاصة بعلاقة القدس بأزمة الشرق الأوسط (٤ مواد اعلامية) .

والواقع أن الفروق الضئيلة في حجم اهتمام الصحف العربية بالجزئيات الأخرى المتفرعة عن قضية القدس لا ترجع في الأساس الى اختلافات جوهرية في المواقف السياسية والفكرية من القضية بقدر ما ترجع الى الاختلافات النوعية في توجهات الصحف العربية وسياساتها التحريرية ومدى كفاءة محرريها في هذا المجال .

اتجاه المواد الاعلامية : يعتبر اتجاه المواد الاعلامية أكثر المؤشرات دلالة على تحديد مواقف الصحف العربية واتجاهاتها من قضية القدس . واذا كانت هناك بعض الجزئيات قد نالت اجماعا من هذه الصحف سواء بالتأييد أو المعارضة ، فان هناك تفاوتا واختلافات غير قليلة في اتجاهات الصحف ازاء بعض الجزئيات الهامة للقضية ويتضح ذلك من المؤشرات التالية .

١ ـ اجراءات تهويد القدس . نالت هذه الجزئية اجماعا على المعارضة من جانب جميع الصحف العربية التي خضعت للدراسة ، ولا شك أن ذلك يرتبط في الأساس بحجم المعالجات الكلية والجزئية لكل صحيفة . الدستور الأردنية مثلا خصصت ١٤ مادة اعلامية لمعالجة هذا الجانب من القضية منها ٩ مرات معارض و٣ مرات متوازن ومرتان محايدة ، بينما كان موقف الاهرام من نفس الجزئية التي خصصت لها ١١ مادة اعلامية منها ٩ مرات معارض ومرتان محايد، بينما كان موقف القبس ٤ مرات معارض ومرة واحدة متوازن .

٢ ـ المقاومة العربية في القدس : نالت هذه الجزئية اجماع الصحف العربية على التأييد دون استثناء . فالدستور الاردنية تبنت هذا الاتجاه في جميع المواد الاعلامية التي عالجت من خلالها هذا الموضوع (١٠ مرات) ، كذلك الوطن الكويتية (٦ مرات) ، ثم الاهرام والمجاهد (٤ مرات) كل منهما، فالقبس الكويتية (٣ مرات) ، وتأتي أخيرا الصحافة السودانية (مرتان) .

٣ ـ أما الجزئية التي تتفاوت مواقف الصحف العربية منها فهي المكانة الدينية للقدس . إذ تتراوح الاتجاهات بين التأييد والتوازن ثم الحياد . ويلاحظ أن القبس الكويتية تتخذ موقف التأييد ٧ مرات والتوازن ٣ مرات . وكذلك الاهرام القاهرية تتخذ موقف التأييد ٧ مرات والتوازن مرتين . بينما تتوزع اتجاهات الدستور الاردنية التي تتساوى مع الاهرام في حجم الاهتمام بهذه الجزئية (٩ مواد اعلامية) فنراها تتخذ موقف التأييد ٦ مرات والتوازن ٣ مرات والحياد مرة واحدة . أما الوطن الكويتية فهي تتبنى اتجاها متوازنا ٤ مرات ومؤيدا مرتين فقط في موقفها من المكانة الدينية للقدس . وتنفرد جريدة الصحافة السودانية باتخاذ موقف التأييد فقط ازاء هذه الجزئية (٥ مرات) ، بينما تحرص المجاهد على تبني الاتجاه المتوازن في المرة الوحيدة التي تناولت فيها المكانة الدينية لمدينة القدس .

٤ ـ لم تنل الجزئية الخاصة بتدويل القدس سوى المعارضة أو التوازن في جميع معالجات الصحف العربية ما عدا الاهرام القاهرية . وقد اتخذت كل من الدستور الاردنية والمجاهد الجزائرية والقبس الكويتية والصحافة السودانية موقف المعارضة لمسألة تدويل القدس بينما أيدتها الاهرام (مرتين) . وتبنت الوطن الكويتية اتجاهين في هذا الصدد (مرتين معارضة ومرة متوازنا) .

تحليل الاتجاهات والمواقف : يتضح من خلال الرصد الكمي والتحليلات الكيفية لاتجاهات ومواقف الصحف العربية من قضية القدس ان هذه الاتجاهات تتبلور حول رؤيتين رئيسيتين للقضية

الرؤية القومية والرؤية الدينية وتختلف المنطلقات الفكرية لهذه الرؤى ولكن يمكن ردها بمختلف جزئياتها الى منطلقين اولهما : المنطلق الاستراتيجي الملتزم ، وثانيهما . المنطلق التكتيكي المتذبذب غير الملتزم . وعند استعراض مواقف الصحف العربية ومحاولة ردها الى أصولها السياسية والفكرية نلاحظ الآتي :

١ ــ الرؤية القومية : وتتلخص في تناول قضية القدس من منظور سياسي في الأساس يضعها في اطارها الصحيح باعتبارها جزءا من قضية اشمل هي القضية الفلسطينية والصراع العربي الاسرائيلي . وترفض هذه الرؤية الفصل المتعسف بين القضية واطارها الموضوعي . بل ترى ان المعالجات التي تتناول قضية القدس بشكل مستقل ولا تشير الى علاقتها العضوية بباقي مكونات القضية الأم ، انما تهدف في الأساس الى تشويه الوعي العربي وتضليل الراي العام العربي والعالمي حول هذه القضية من الناحية السياسية والقومية وبالتالي تطمس الوعي حول الحل الصحيح للصراع المثار حولها . وتتبنى هذه الرؤية كل من الوطن الكويتية والمجاهد الجزائرية اللتان تحرصان على طرح قضية القدس من منظور سياسي واضح يتأكد من خلال تركيزهما على تناول القضية من خلال تناولهما لقضية الصراع العربي الاسرائيلي. علامة على اهتمامهما بابراز نشاط المقاومة العربية داخل القدس باعتبارها السلاح الحقيقي الآتي والمستقبلي لعودة السيادة العربية الى القدس .

٢ ــ الرؤية الدينية : والواقع أن هذه الرؤية لا تتناقض مع الرؤية القومية بل تتكامل معها ولكن الاقتصار على طرح هذه الرؤية فحسب يؤدي الى تشويه الوعي بقضية القدس ويجرد القضية من مقوماتها الموضوعية والقومية ويجعلها قاصرة على البعد الديني الذي كثيرا ما يستخدم كقناع لخدمة اغراض سياسية ، مما يؤدي في النهاية الى ترويج الرؤية العنصرية التي تتبناها اسرائيل والتي تتخذ من الدين قناعا تتستر خلفه لاخفاء اطماعها في السيادة والتوسع في المنطقة العربية . ومما يلفت الانتباه في اتجاهات الصحف العربية نحو القدس هو شيوع الرؤية المختلطة اي التي تجمع بين الرؤيتين القومية والدينية . وتتبنى هذا الموقف بشكل واضح صحيفة القبس الكويتية التي يتصاعد اهتمامها بالبعد الديني للقضية وينعكس ذلك على حجم ونوع معالجاتها . كما انها نادرا ما تناولت قضية القدس كجزء من المفاوضات لحل ازمة الشرق الأوسط رغم اهتمامها باجراء العديد من التحقيقات الصحفية من داخل القدس عن موقف واتجاهات السكان العرب واليهود ازاء الوضع الحالي للمدينة المقدسة . كما أنه من الواضح أن القبس تساند الحل الخاص بعودة السيادة العربية للقدس وتبرز الرؤية المختلطة أيضا في معالجات الاهرام القاهرية والدستور الأردنية اذ يتساوى اهتمامها بالبعد الديني للقضية كما انهما لا يغفلان البعد القومي . وبينما تبدي الدستور اهتمامها بمتابعة نشاط المقاومة العربية في القدس ومساندتها للحل الخاص بعودة السيادة العربية للقدس ورفضها تماما لفكرة التدويل نلاحظ أن الاهرام تتذبذب في مواقفها والحلول التي تطرحها للقضية . فهي تارة تؤيد التدويل وتارة اخرى تؤيد التقسيم وان كان الخط الأساسي لها هو مساندة عودة السيادة العربية للقدس . كذلك نلاحظ أن الصحافة السودانية تنتمي الى هذه الفئة التي يحكم موقفها الرؤية المختلطة للقضية وهي تتبنى الحل الخاص بعودة السيادة العربية للقدس وترفض فكرتي التدويل والتقسيم .

٣ ــ اما فيما يتعلق بالمنطلقات الفكرية نلاحظ ان الوطن الكويتية والمجاهد الجزائرية تنطلقان من خط استراتيجي ملتزم ازاء قضية القدس ويتضح ذلك في تبنيهما موقفا متكاملا من القضية ككل وفي

تمسكهما بهذا الخط في جميع معالجاتهما وطوال فترة الدراسة .

أما المنطلق التكتيكي المتذبذب الذي لا يلتزم برؤية محددة ولا يملك خطا استراتيجيا واضحا في تناول قضية القدس باعتبارها جزءا من الصراع العربي الاسرائيلي فهو يبرز لدى صحيفتي الاهرام القاهرية والقبس الكويتية . وتبرز أمامنا من خلال المعالجات المتنوعة ثلاثة حلول لقضيـة القـدس تطرحها الصحف العربية بالشكل التالي :

١ ـ تدويل القدس : وقد أجمعت الصحف العربية على رفض هذا الحل ما عدا صحيفة الاهرام القاهرية إذ نشرت في عددها الصادر في ٢٢/٢/١٩٧٧ (ص ٥) حديثا صحفيا للرئيس السادات مع مندوب التليفزيون البريطاني جاء فيه :« إن اي مسلم في العالم بأسره لا يوافق على سيادة اسرائيل على الجزء العربي من القدس ان هذه حقيقة واقعة.. وأضاف الرئيس « لماذا لا تدول القدس برمتها الجزء العربي والجزء الاسرائيلي ؟ » علما بأن الاهرام قد طرحت الحلول الثلاثة في فترات مختلفة .

٢ ـ عودة السيادة العربية الى القدس . وقد أجمعت عليها الصحف العربية بـاعتبارها الحل العادل الأوحد لهذه القضية .

٣ ـ التقسيم . وتنفرد صحيفة الاهرام ايضا بتأييد هـذا الحل ، ويبدو ذلك في الحديث الذي نشرته للرئيس السادات مع محطة سي . بي. اس، الامريكية اذ قال : « القدس العربية يجب ان تبقى عربية اما بقية القدس فهي قابلة للتفاوض » (الاهرام ٢٩/١١/١٩٧٧ ص ١) .

النتائج النهائية للبحث :

تتحقق صحة الفروض التي طرحت في مدخل الدراسة على النحو التالي : **الفرض الأول :** الذي يشير الى أن معظم الصحف العربية تطرح اهتماما متقاربا من حيث الحجم لقضية القدس . وقد ثبت عدم صحة هذا الفرض إذ يتفاوت الاهتمام بشكل ملحوظ . فنلاحظ أن حجم اهتمام الدستور الاردنية قد بلغ ٤٥ مادة اعلامية خلال عام ١٩٧٧ بينما لم يزد حجم اهتمام المجاهد الجزائرية عن ٢١ مادة اعلامية والصحافة السودانية عن ١٩ مادة اعلامية في نفس الفترة . وقد يرجع ذلك الى عدة اعتبارات جيوبولتيكية تتعلق بموقع الأردن بالقرب من قلب الأحداث في القدس فضلا عن ارتباطها التاريخي والسياسي بالقضية الفلسطينية ويمكن تصحيح المقولة بأن بعض الصحف العربية تطرح اهتماما متقاربا مثل الاهرام(٤٢ مادة اعلامية) والدستور (٤٥ مادة اعلامية) والقبس الكويتية والوطن (٣٠ مادة اعلامية) .

أما الفرض الثاني : الذي يرى ان جميع الصحف العربية تطرح المواقف الرسمية لحكوماتها ازاء قضية القدس وقد ثبت صحة هذا الفرض جزئيا اذ ينطبق على أغلبية الصحف العربية التي خضعت للدراسة مثل الدستور والاهرام والقبس والمجاهد والصحافة ولكن لا ينطبق تماما على صحيفة الوطن الكويتية .

الفرض الثالث : الذي يرى ان الرؤية الدينية تغلب على معالجات بعض الصحف في تناول قضية القدس . وقد ثبت صحته وينطبق على القبس الكويتية والاهرام القاهرية والدستور الاردنية . ولكن لا يعني هذا اغفال أو تجاهل هذه الصحف للبعد القومي للقضية . بل حاولت ان تطرح رؤية مختلطة للقضية .

أما الفرض الرابع : الذي يشير الى تذبذب موقف بعض الصحف العربية في الحل الذي تطرحه لقضية القدس والذي يتراوح ما بين تأييد التدويل أحيانا والحرص على عروبة القدس احيانا اخرى ، فقد ثبت صحة هذا الفرض اذ ينطبق على موقف الاهرام القاهرية بشكل واضح .

الفرض الخامس : الذي يشير الى بروز الصحافة الأردنية في مقدمة الصحف العربية سواء في حجم اهتمامها بقضية القدس أو تنوع المعالجات التي قامت بها . وهذا صحيح تماما اذ بلغ حجم اهتمام الدستور ٤٥ مادة اعلامية موزعة على مختلف فنون التحرير الصحفي من خبر (٣٥ خبر) وافتتاحيات (٤ افتتاحيات) وحديث صحفي (٢ حديث) ومقالات وتحقيقات (٤ مقالات وتحقيقات) .

الفرض السادس : الذي يشير الى تناقض بعض الصحف العربية مع حكوماتها في الحل الذي تـراه مناسبا لمسألة القدس . والواقع أن هذا الفرض صحيح جزئيا ولكن لا يصل الموقف الى حد وقوع تناقض بين بعض الصحف العربية وحكوماتها ازاء قضية القدس ويمكن القول ان هناك اختلافا محدوداً بين موقف بعض الصحف وحكوماتها في الحلول التي تطرح لقضية القدس . وينطبق هذا على صحيفة الوطن الكويتية التي تطرح قضية القدس من منظور قومي مع حرصها على استخدام البعد الديني للقضية بشكل متقدم يهدف الى طرح قضية تحرير القدس من الاغتصاب الاسرائيلي وعودة السيادة العربية اليها على أساس الحقوق السياسية وليس الحقوق الدينية فقط .

اما الفرض السابع والأخير : الذي يشير الى غلبة الطابع الخبري الوصفي على معظم معالجات الصحف العربية لقضية القدس فهو صحيح تماما اذ يبلغ عدد الاخبار التي تناولت الصحف العربية من خلالها القضية ١٠٦ اخبار من مجموع المواد الاعلامية التي تبلغ ١٨٩ مادة اعلامية تشمل الاخبار والاحاديث والافتتاحيات والتحقيقات .

بعض الاهتمامات المصرية بالقضية الفلسطينية قبل ثورة ١٩٥٢

د . عواطف عبد الرحمن

(١) مصر والصحافة الصهيونية في الثلاثينات والاربعينات

لقد بذلت الصحافة اليهودية والصهيونية في مصر قصارى جهدها لابعاد مصر عن الصراع العربي الصهيوني في فلسطين وذلك ادراكا منها للوزن التاريخي والحضاري والسياسي الذي تشغله مصر في المنطقة العربية ، وخوفا من الاثار السلبية التي سوف تنعكس على مصالح الحركة الصهيونية ونشاطها في فلسطين في حالة اذا ألقت مصر بثقلها الى جانب الحركة الوطنية الفلسطينية . فضلا عما سيؤدي اليه الموقف المصري من تأثير على سائر الدول العربية التي لابد انها ستحذو حذو مصر في النهاية . وتطلعا الى تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي بالنسبة للحركة الصهيونية في مصر لجأت القوى الصهيونية الى استثمار جميع امكاناتها العلنية والخفية والمباشرة وغير المباشرة من أجل أستمالة القوى السياسية المصرية ومحاولة استقطاب المثقفين المصريين وكسب تأييدهم للجانب الصهيوني بشتى الوسائل سواء باصدار صحف مشتركة او التسلل داخل الصحف المصرية او الضغط على الصحافة الوطنية بالاساليب الاقتصادية (الاعلانات والاشتراكات) او التصدي المباشر للصحف المصرية التي قامت بفضح الاهداف الصهيونية وتنبهت الى الخطر الصهيوني منذ وقت مبكر . وفي هذه الحالة كانت الصحافة الصهيونية لا تتوانى عن شن هجومها والعمل على تشويه سمعة الصحف الوطنية في مصر واتهامها بالعمالة والتشكيك في وطنيتها .

ورغم تسلل العناصر الصهيونية داخل الحركة الوطنية المصرية ورغم المحاولات الصهيونية لاستقطاب كبار المثقفين والمفكرين المصريين الى جانبها ، فاننا عندما نحاول استقراء موقف الصحافة الصهيونية من الحركة الوطنية المصرية سوف نكتشف انها لم تحظ الا باهتمام ضئيل من جانب هذه الصحف ، بل لم يقتصر الامر على ذلك ولكن يمكن اعتبار هذا الاهتمام الضئيل مرادفا صحيحا لموقف الصحف الصهيونية ونوع المعالجات التي تناولت بها هذه الصحف المسائل المصرية وخصوصا القضية الوطنية . اذ انه علاوة على الاسلوب السطحي في التناول كان هناك حرص بالغ من جانب هذه الصحف لتأييد كل من يتولى السلطة في مصر حتى تكسب رضا جميع القوى السياسية المصرية على حد سواء .

وقد كان الموقف المتوقع نتيجة لكل ذلك هو تظاهر الصحف الصهيونية بتأييد الحركة الوطنية المصرية في نضالها ضد الاستعمار البريطاني وذلك كي تبدو جزءا لا يتجزأ من المجتمع المصري الذي تحرص على الادعاء بالانتماء اليه ، رغم ما قد يحمله هذا الموقف من تناقض شكلي بالنسبة للمصالح الصهيونية في مصر . ولكن خريطة الاعداء والحلفاء كانت واضحة المعالم في اذهان الساسة الصهيونيين وركائزهم في مصر كما ان الازدواجية وتغيير المواقع بما يتفق مع طبيعة كل مرحلة من مراحل النشاط الصهيوني كان يعد احدى السمات المدروسة بالنسبة للتحرك الصهيوني في مصر .

وكي تتضح الصورة امامنا لا بد ان نستعرض علاقة الصهيونية بكل من القوى التالية . القوى السياسية المصرية ، المثقفون المصريون ، الصحافة المصرية .

اولا : القوى السياسية المصرية والصهيونية : مع نهاية الحرب العالمية الاولى وظهور الحركة الوطنية المصرية كقوة حاسمة في مواجهة الاستعمار البريطاني ، تلك القوة التي بلغت اوجها في قيام ثورة ١٩١٩ اول ثورة تحررية في العالم الثالث بعد الحرب العالمية الاولى وكانت تهدف في الاساس الى تحقيق الاستقلال الكامل لمصر ولكنها انتهت الى الاستقلال المقيد بالتحفظات الاربعة التي نص عليها تصريح ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٢٢ . وقد شهدت تلك الفترة صدور وعد بلفور ١٩١٧ وما تمخض عنه من تكثيف للنشاط الصهيوني في الشرق العربي وخصوصا في مصر التي كانت تمثل احدى مراكزه الهامة حيث اعلن قيام اول فرع للمنظمة الصهيونية العالمية فور صدور الوعد مباشرة وتزعمه ليون كاسترو المحامي الصهيوني المعروف الذي تمكن من خلال المواقع العديدة التي شغلها في الحياة المصرية ان يقدم خدمات جليلة للحركة الصهيونية . وقد انضم ليون كاسترو الى قيادة الحركة الوطنية المصرية التي كان يمثلها الوفد ، وتمكن من كسب ثقة الزعيم سعد زغلول الذي صحبه معه في وفد المفاوضات الى لندن وقام بتكليفه بالتحدث باسم حزب الوفد في اوربا . كما صرح له باصدار صحيفة تنطق باسم الوفد باللغة الفرنسية . وقد نجح ليون كاسترو من خلال الدور المزدوج الذي لعبه في استثمار كل الامكانات التي اتاحتها له الحركة الوطنية المصرية لصالح الحركة الصهيونية واقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين . فقد جند صحيفته اليومية الوفدية للدعاية للفكر الصهيوني وكان يقوم بتحويل الاعتمادات المخصصة للدعاية للحركة الوطنية المصرية في الخارج الى الصندوق القومي اليهودي (الكيرن كايمت) لشراء الاراضي الفلسطينية واقامة مستعمرات صهيونية عليها .

ولا شك ان الخط الفكري والسياسي لحزب الوفد الذي كان يلتزم بالمضمون القومي المصري فحسب ولم يول القضايا العربية اهتماما كافيا قد شجع الى حد كبير العناصر الصهيونية على التسلل داخله . كما ان السياسة الحكيمة التي اختطها الوفد لتحقيق الوحدة الوطنية باحتضانه جميع الطوائف والاديان قد مهدت الطريق فسيحا امام اليهود المصريين المنتمين للصهيونية للتغلغل داخل صفوف الوفد واستثمار ذلك لصالح الصهيونية في النهاية . غير ان موقع حزب الوفد على رأس الحركة الوطنية المصرية وكفاحه ضد الاستعمار أدى الى اقترابه من الحركات الوطنية في الاجزاء الاخرى من الوطن العربي من خلال استجابة الجماهير المصرية المتعاطفة مع قضايا الوطن العربي وخصوصا حادث البراق الذي اهتزله الشعب المصري بعمق . وكان هذا الحدث نقطة تحول هامة في موقف حزب الوفد من القضية الفلسطينية . ومن هنا بدأت نظرة الوفد الى القضايا العربية تتطور شيئا فشيئا . وفي مطلع الثلاثينات اخذ الوفد يعترف بوجه مصر العربي . وفي ابريل/ نيسان ١٩٣٦ نشبت ثورة فلسطين الكبرى واستمرت ثلاثة اعوام . وفي هذا الوقت كانت المفاوضات المصرية البريطانية تجري

لحل القضية المصرية . وكانت مظاهر التضامن مع شعب فلسطين قد تجاوزت رسميا وشعبيا الحدود التقليدية واتجهت الى مشاركة الفلسطينيين وتأييد نضالهم . وذلك رغم ان الحكومة المصرية تعمدت اخفاء مشاعرها المتضامنة مع شعب فلسطين حرصا على مفاوضاتها مع بريطانيا التي انتهت بمعاهدة ١٩٣٦ على ان هذا كله لم يمنع النحاس باشا من الاعراب عن تضامن مصر حكومة وشعبا مع شعب فلسطين حين صرح « ان مصر لا تستطيع ان تقف مكتوفة الايدي تجاه ما يجري في فلسطين » ، واعلن عن مساندتها لمطالب الشعب العربي الفلسطيني[١] . وكان النحاس باشا قد عقد جلسة خاصة مع المستر ايدن ناقش فيها القضية الفلسطينية واوضح له عدم رضائه عن مشروع التقسيم ، كما اعرب عن ذات الموقف للسفير البريطاني السير مايلز لامبسون في يوليو/ تموز ١٩٣٧ ، واوضح له انه لا يستطيع ان يشعر بالاطمئنان وهو يفكر في قيام دولة يهودية على حدود مصر ، « اذ ما الذي يمنع اليهود من ادعاء حقوق لهم في سيناء فيما بعد »[٢] . والواقع ان هذه المخاوف التي جسد بها النحاس باشا ادراكه لابعاد الخطر الصهيوني كانت الصحف الوفدية قد اشارت لها منذ عام ١٩٢٨ عندما نشرت كوكب الشرق مقالا منقولا عن صحيفة (ديراما يوم) العبرية وصحيفة (بالستين ويكلي) البريطانية تحت عنوان « مصر وسيناء » ويدعو هذا المقال الى جعل فلسطين وطنا لليهود على ان تصبح مستعمرة بريطانية مثل كندا واستراليا وتضم اليها شبه جزيرة سيناء بعد ان تقتطع من مصر . وقد اشار الكاتب الى عدم اهمية سيناء لمصر وبدليل ذلك ان الحكومة المصرية قد وافقت منذ ٢٥ سنة للدكتور هرتزل على ارسال بعثة الى جزيرة سيناء لتدرس امكان اتخاذها وطنا لليهود ، وان هذا المشروع كاد يتم لولا ان البعثة لم تعجبها سيناء[٣] . وتعلق كوكب الشرق على ذلك بان هذا المشروع هو في اساسه احد مشروعات السياسة البريطانية وقد جاء ذكره في كتاب اسمه الدومينيون السابع . وتبدي الصحيفة الوفدية دهشتها بسبب موقف الحكومة المصرية انذاك (حكومة محمد محمود باشا) التي تقرر فتح اعتمادات مالية كبيرة لاصلاح الطرق في شبه جزيرة سيناء في الوقت الذي يتردد فيه ذكر هذا المشروع في الصحف البريطانية والصهيونية وتتساءل هل يمكن ان يكون ذلك محض صدفة ؟ ثم تعود الصحيفة وتستدرك قائلة « لو ان في مصر حكومة دستورية تقاوم اطماع الاستعمار ومن خلفها شعب يقف كتلة واحدة ولو ان فيها برلمان تعلم انجلترا انه لا يفرط في حقوق البلاد ـ وقد استطاعت انجلترا ان تقتطع واحة جغبوب من مصر في غيبة البرلمان فهل تستطيع الان ان تلحق بها سيناء بعد ان محيت الحياة النيابية اصلا »[٤] .

والواقع ان حزب الوفد باعتباره قيادة الحركة الوطنية المصرية إذا كان قد سمح للعناصر الصهيونية بان تنشط وتستفيد من مناخ التسامح الديني والسياسي السائد فان ذلك كان يرجع الى عدة اسباب ابرزها غياب البعد العربي عن الرؤية الايديولوجية والسياسية للوفد . يضاف الى ذلك انشغال الوفد فترة ما بين الحربين بمعركة الدستور ضد القوى المنسلخة منه والتي وضعت نفسها في خدمة السراي والاحتلال . فاذا كان الانجليز قد القوا في المعركة بحزب الاحرار الدستوريين فان السراي بدورها القت بحزب الاتحاد وحزب الشعب وحزب السعديين ضد الوفد[٥]

١ ـ عبد العظيم رمضان ، الحركة الوطنية المصرية ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨ ، القاهرة،هيئة الكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥٦
٢ ـ المصدر السابق ص ٢٥٧
٣ ـ كوكب الشرق ١٩٢٨/١٢/٢٨
٤ ـ كوكب الشرق ١٩٢٨/١٢/٢٨
٥ ـ محمد انيس ورجب حراز ، التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث ، دار النهضة،القاهرة، ١٩٧٢ ، ص ١٠٣ .

وقد تفاوتت درجات العداء لدى القوى السياسية المصرية ازاء القضايا العربية . وكانت بريطانيا تغذي هذا الاتجاه وتشجعه . وفي اطار هذه السياسة كان الانجليز يعارضون اي اقتراب مصري من الشعب الفلسطيني والعربي . علاوة على الاهداف البعيدة التي كانت بريطانيا ترمي اليها من محاولة استغلال البعد الطائفي للصهيونية وما سيترتب على وجودها في فلسطين من ردود الفعل الدينية مما يضمن لانجلترا انحراف الحركة الوطنية عن اتجاهها السياسي والاجتماعي الصحيح الى مسارات عنصرية وطائفية ليس في فلسطين فحسب بل في المنطقة العربية بأكملها . ولكن بالنسبة لمصر استطاع الوفد ان يحبط تلك الخطة الاستعمارية وفتح ابوابه لجميع عناصر الامة من مسلمين واقباط ويهود . وقد كان لذلك نتائجه السلبية من ناحية اخرى اذ استغلت العناصر اليهودية ذات الانتماء الصهيوني تلك الروح العلمانية لدى الوفد وجندت امكاناتها لصالح الاطماع الصهيونية في فلسطين كما سبق ان اسلفنا .

وبالنسبة لموقف الاحرار الدستوريين من القضية الفلسطينية والنشاط الصهيوني في مصر فقد كان محكوما بفلسفتهم السياسية التي تبلورت في الفكرة القومية المصرية المنعزلة عن العرب في خارج الدولة وعن الشعب المصري في داخلها . وقد وقفت حكومتهم ١٩٢٩ (حكومة محمد محمود باشا) ضد ثورة شعب فلسطين . وكتبت صحيفة السياسة لسان حال الحكومة في ذلك الوقت تهدد الوطنيين الفلسطينيين في مصر بالطرد لاتهامهم باثارة الفتنة الطائفية لدى الشعب المصري وتهييجهم للرأي العام . كذلك عندما تولى اسماعيل صدقي الوزارة ١٩٣٠ وصادر و اغلق كثيراً من الصحف الوطنية فضلا عن الارهاب والبطش الذي مارسه ضد الحركة الوطنية المصرية اغلق جريدة الشورى الفلسطينية التي كانت تصدر في مصر وكان يرأس تحريرها محمد علي الطاهر من مؤيدي حزب الوفد . هذا في الوقت الذي شمل برعايته صحيفة اسرائيل التي انشأها البرت موصيري منذ عام ١٩٢٠ — وكانت لسان حال الحركة الصهيونية في مصر . وكان اسماعيل صدقي وهو وزير للداخلية ١٩٢٥ قد اعتقل الوطنيين الفلسطينيين الذين هتفوا ضد بلفور صاحب الوعد الشهير اثناء مروره على القاهرة في طريقه الى فلسطين لافتتاح الجامعة العبرية . وكذلك اوفدت حكومة زيور باشا احمد لطفي السيد مندوبا عن الجامعة المصرية لحضور احتفالات افتتاح الجامعة العبرية ١٩٢٥ . كما اشتركت حكومة اسماعيل صدقي في معرض تل ابيب الصهيوني الذي اقيم في ربيع ١٩٣٢ متجاهلة جميع التحذيرات والنداءات التي وجهتها اليها الاوساط الوطنية في فلسطين . فضلا عن أن المعروضات المصرية التي ارسلت الى المعرض عادت كلها الى مصر بدون ان يبتاع منها اليهود شيئا . وقد ذكر ممثل مصر في تقريره عن معرض تل ابيب اسباب ذلك الكساد الذي اصاب المعروضات المصرية في المعرض فقال ان اهل فلسطين وهم يمثلون ٨٠٪ من السكان قد قاطعوا ذلك المعرض مقاطعة تامة(٦) .

اما السراي فقد عبرت عن موقفها من الصهيونية من خلال الصحيفتين اللتين اصدرهما حزبا الاتحاد والشعب وهما صحيفتا الاتحاد والشعب . وقد كانت الاتحاد تصور الصراع في فلسطين على ان المسلمين والمسيحيين في فلسطين يواجهون تهديدا خطيرا لكيانهم القومي يتمثل اساسا في الخطر الصهيوني علاوة على وقوع بلادهم تحت الانتداب البريطاني وترى ان انشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين هو الحل الاوحد المطروح لمشكلة اليهود في العالم(٧) . وكانت الاتحاد تطرح حلا للصراع

---

٦ — كوكب الشرق ١٩٣١/٢/٩
٧ — الاتحاد : ١٩٢٩/٩/٨ ، ١٩٣٠/١/١٣ ، ١٩٣٠/٢/٢

الفلسطيني الصهيوني البريطاني يلتقي مع الحلول التي طرحتها الصحافة الصهيونية في مصر وروجت لها المقطم والسياسة ، وهي ضرورة الاتفاق بين الفريقين لتسوية ما بينهما من خلافات . وقد دأبت الاتحاد على ترديد هذه النغمة في اكثر من مقال حتى وصلت الى حد الادعاء بان الدوائر العربية المتطرفة قد بدأت تقتنع بهذا الحل . هذا وقد تولت صحيفة المقطم نقل وجهة نظر الاحتلال البريطاني فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية والنشاط الصهيوني في مصر وفلسطين . وقد كان من المتوقع بالنسبة لهذه الصحيفة في ضوء ما عرف عنها من ارتباط وثيق بالسياسة البريطانية ان تكون لسانا للدفاع عن الصهيونية في مصر وتسفر عن موقف شديد العداء لحقوق الشعب الفلسطيني . ولكن ما حدث كان مختلفا من ناحية الشكل على الاقل . اذ طبقت المقطم هذا المخطط بالفعل ولكن من خلال سياسة حكيمة شديدة الدهاء والنعومة . فهي الصحيفة المصرية الوحيدة التي اتاحت الفرصة للكتاب العرب واليهود لابداء وجهات نظرهم على صفحاتها في مختلف التطورات التي طرأت على مسرح الاحداث في فلسطين خلال تلك المرحلة . ورغم انها كانت تتيح للفلسطينيين فرصة الكتابة والرد على وجهة النظر الصهيونية حظي المدافعون عن الفكر الصهيوني والدعوة الصهيونية بنصيب مضاعف . ومن خلال اجراء احصاءسريع لهذا الوضع تبين لنا ان النسبة تبلغ مرة واحدة لكل كاتب فلسطيني مقابل مرتين ونصف او ثلاث مرات للكاتب اليهودي . ولذلك اصبحت وجهة النظر الصهيونية مطروحة بشكل شبه دائم على صفحات المقطم .

وفيما يتعلق بموقف سائر القوى السياسية المصرية من الصهيونية فاننا نجد ان حركة الاخوان المسلمين قد استطاعت ان تحرك الراي العام المصري تجاه القضية الفلسطينية من الزاوية الدينية مما يترتب عليه ردود فعل معادية للحركة الصهيونية واليهود في مصر . وقد استفادت حركة الاخوان المسلمين سياسيا عندما نجحت في امتصاص السخط لدى الشعب المصري ازاء الحركة الصهيونية بتصويرها المعركة في فلسطين على انها معركة بين اليهودية والاسلام وليست معركة قومية . وقد دأبت صحيفة الاخوان المسلمين على توجيه اللوم والنقد لموقف المفكرين المصريين المتسم بالسلبية ازاء هذه القضية الاسلامية الهامة . ولم تكف عن اجراء المقارنة بين سلبية هذه القيادات الفكرية والدينية وبين ايجابية القوى الصهيونية الظالمة التي وفدت على فلسطين من سائر بقاع الارض دون وجه حق وتجمعت حول الحرم تهتف في « العام القادم يا اسرائيل » . لو نظر المسلمون الى ذلك وفهموا ما يرمي اليه اليهود « لتجافت جنوبهم عن المضاجع وسارعوا لانقاذ الحرم قبل ان يأتي الوقت الذي يريدون فيه الصلاة فلا يستطيعون »[٨] .

اما حركة مصر الفتاة فقد عرفت باتجاهها العربي منذ بدء تكوينها في اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٣٣ . وقد كان اهتمام مصر الفتاة بالقضية الفلسطينية نابعا في الاساس من مصدر عنصري متعصب ضد اليهود مبعثه كراهية اليهود كطائفة ، وقد ترتب على هذا المفهوم الخاطىء لطبيعة الصراع الفلسطيني الصهيوني تورط مصر الفتاة في القيام بحملات عنصرية معادية لليهود المصريين وتحريض المواطنين على مقاطعتهم اقتصاديا ومحاولة تهييج واستثارة الرأي العام المصري ضدهم[٩] .

ثانيا : المثقفون المصريون والصهيونية : لقد نجحت الدوائر الصهيونية في مصر في

---

٨ ـ الاخوان المسلمون ١٩٣٦/٤/٢٨ ، ١٩٣٦/٥/١٩ .

٩ ـ احمد حسين ، نصف قرن من العروبة وقضية فلسطين ـ المكتبة العصرية ، صيدا ١٩٧١ص ٥٨

اجتذاب اهتمام وتعاطف القيادات الفكرية والثقافية في مصر وذلك من خلال عدة اساليب ومحاولات انتهت معظمها بضمان تحييد فئة المثقفين المصريين وخصوصا هؤلاء الذين ينتمون الى التيار القومي المصري ويؤمنون بانتماء مصر الى الحضارة المتوسطية . ويهمنا في هذا الصدد ان نشير الى حادثتين هامين تجسدت فيهما مشاركة المثقفين المصريين للدوائر الصهيونية نتيجة تأثرهم بالدعاية الصهيونية التي استغلت جميع المداخل الدينية والعلمانية للنفاذ الى العقل المصري مستهدفة السيطرة عليه وكسبه الى جانبها . والحدث الاول هو اشتراك مصر في الاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية سنة ١٩٢٥ بايفاد الاستاذ لطفي السيد مدير الجامعة المصرية مندوبا رسميا عنها ، وقد اثار اشتراك مصر في افتتاح تلك الجامعة الصهيونية عاصفة من الاحتجاج من جانب الفلسطينيين عبرت عنها الصحف الوطنية في فلسطين وكثير من القيادات الوطنية[١٠] . وقد حاول لطفي السيد استدراك الامر فقام بزيارة للمعاهد الاسلامية كما اصدر بيانا رسميا اعلن فيه الظروف والملابسات الدقيقة التي احاطت بمهمته في القدس خصوصا وان الدعوة صادرة من معهد علمي من المفروض انعدام صلته بالسياسة كما هو شأن الجامعات العلمية . ولكنه ابدى ارتيابه من المبالغة التي احيط بها الاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية مما ينطوي على الترويج للدعوة الصهيونية . ومما اكد له ذلك ما نما الى علمه من ان لغة الجامعة هي اللغة العبرية . ولذلك امتنع عن القاء كلمته في الاحتفال مما قد يفهم منها تأييد مصر للعنصر الصهيوني وتفضيله على العنصر العربي في فلسطين[١١] . والواقع ان الدعوة لحضور احتفالات الجامعة العبرية لم تقتصر على الجامعة المصرية فحسب بل وجهت دعوة مماثلة الى الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقا وكذلك الدكتور احمد زكي باشا فأهملاها ولم يردا عليها . وقد ذهب فريق من اليهود الى الشيخ بخيت ورجوه باسم العلم ان يحضر تلك الحفلة فاعتذر بكبر السن ومشقة السفر فألحوا عليه وعرضوا عليه تسهيلات كبيرة في السفر فلما ضاق بهم ذرعا اوضح لهم بانه لا يستطيع ان يحضر احتفالا يسيء الى اهل فلسطين الذين هم في حالة حداد بسبب هذه الجامعة[١٢] .

وقد استغلت الدوائر الصهيونية حضور لطفي السيد لحفل افتتاح الجامعة العبرية من الناحية الدعائية الى مدى بعيد ، وشاركتها في ذلك وكالات الانباء الاوربية والصحف والاذاعات حتى أن وكالة رويتر لم تذكر اسماء من حضروا تلك الحفل الا اسم لطفي السيد . كذلك علقت صحيفة بالستين ويكلي الصهيونية على ذلك بقولها « ان حضور مندوب مصر هذه الحفلة كان دليلا على ان مصر العاقلة لا ترى في الصهيونية رأي أهل فلسطين». كما اشاد اليهود المصريون باشتراك مصر في افتتاح جامعتهم بالقدس . وقد نوه يوسف بوتتسو عضو مجلس الشيوخ المصري وأحد اليهود المصريين الذين شاركوا في احتفالات الجامعة العبرية بعطف الحكومة المصرية على القضية الصهيونية واستشهد على ذلك بارسالها «صاحب العزة احمد لطفي السيد مندوبا عن الجامعة المصرية »[١٣] .

اما الحدث الثاني فهو يتعلق بمجلة الكاتب المصري التي تقدم اقوى دليل على المحاولات الصهيونية للسيطرة على اكبر عدد من النخبة المثقفة المصرية فقد اسندت رئاسة تحريرها الى طه حسين كما حشد الى جانبه عددا كبيرا من الكتاب والمثقفين المصريين . وقد لعبت هذه المجلة دورا خطيرا في

---

١٠ ـ المقطم ١٩٢٥/٣/٣١
١١ ـ كوكب الشرق ١٩٢٥/٥/٥
١٢ ـ الشورى ١٩٢٥/٥/١
١٣ ـ المقطم ١٩٢٥/٤/١٥

الدعاية غير المباشرة للحركة الصهيونية وذلك من خلال موقف التجاهل المتعمد والمعالجات السطحية المحدودة للصراع الفلسطيني الصهيوني . وقد يكون من عدم الانصاف ان يسجل لهذه المجلة تورطها المباشر في الدعاية للاهداف الصهيونية ولكنها ساهمت بقدر وافر في ذلك بعدم التصدي للحركة الصهيونية او كشف حقيقتها او تحديد موقف واضح للمجلة من الحركة الوطنية الفلسطينية خصوصا وان الصراع الصهيوني الفلسطيني كان في ذلك الوقت (الاربعينات) في ذروة اشتعاله . فيما يتعلق بموقف الصحف الصهيونية من القوى السياسية المصرية نلاحظ ان تلك الصحف قد دابت على سياسة واحدة التزمت بها بشكل عام رغم اختلاف درجات اقترابها او ابتعادها عن القوى السياسية المصرية . تتحدد هذه السياسة في محاولة الانتماء او التقرب الى حزب الاغلبية اي الوفد مع مراعاة عدم الدخول في صدام مع الاحزاب السياسية الاخرى والحرص في ذات الوقت على تاييد السلطة السياسية مهما كان انتماؤها الحزبي . وقد سارت على هذا الاتجاه معظم الصحف الصهيونية واليهودية التي شغلت الرأي العام المصري طوال العشرينات والثلاثينات والاربعينات ، وهي الاتحاد الاسرائيلي واسرائيل والشمس والتسعيرة والكليم والصراحة .

وعند متابعة الصحف الصهيونية ومحاولة رصد وقياس مواقفها ازاء الحكومات المصرية ، نلاحظ ان هناك اجماعا من جانب هذه الصحف على تأييد الوفد والاشادة بمواقفه ومتابعة نشاطاته واخباره . مثلا عيد الجهاد الوطني الذي كان يقام له احتفال وطني ضخم في ١٣ نوفمبر/ تشرين الثاني من كل عام لم تكن تخلو صحيفة صهيونية من الاشارة اليه وتغطيته خبريا والتعليق عليه[١٤] . كذلك عندما وقعت الازمة الدستورية في مصر في يونيو/ حزيران ١٩٣٠ التي انتهت باستقالة وزارة النحاس باشا دافعت صحيفة اسرائيل عن الوفد والقت المسئولية على بريطانيا متهمة اياها بالتدخل في تصعيد الازمة وطالبت المصريين بضرورة تغيير سياستهم مع بريطانيا ومحاولة الاقتداء بالهند من اجل الحصول على حقوقهم كاملة ، وخصوصا بعد ان ثبت فشل سياسة اللين وحسن التفاهم مع بريطانيا[١٥] . وبعد مجيء الوزارة الصدقية التي خلفت وزارة مصطفى النحاس نفاجأ بأن صحيفة اسرائيل قد بدأت تدريجيا في تغيير موقفها من الوفد ونقل ولائها الى الحكومة الجديدة ــ وقد برز موقفها الجديد في محاولة الدفاع التي قامت بها لتبرير الاجراء الدكتاتوري الذي اتخذه اسماعيل صدقي بتعطيل الحياة النيابية ومصادرة دستور ١٩٢٣ .

وبالمثل فعلت صحيفة الشمس حينما هللت للوزارة الجديدة برئاسة توفيق نسيم باشا في نهاية عام ١٩٣٤ واعربت عن فرحتها بقولها ان « الأمة قد طال انتظارها لحكومة تمثل الاغلبية بعد ان سادت حكومات الاقلية زمنا طويلا»[١٦]. وكذلك استقبلت الشمس الوزارة الجديدة التي قام بتشكيلها مصطفى النحاس في مايو/ ايار ١٩٣٦ . اذ اعربت عن الفرحة الغامرة التي استقبلت بها الأمة الوزارة الجديدة مشيرة الى ان « الوزارة الجديدة ستعنى بحالة الفلاح وترقية مصادر البلاد والسعي للوصول الى حل شريف للمسألة المصرية يضمن لمصر استقلالها ويصون مصالح بريطانيا . ومن الخطأ ان يتوهم الانجليز ان هناك وزارة اقدر من هذه الوزارة على تمثيل الشعب تمثيلا صحيحا»[١٧] .

---

١٤ ــ انظر الاتحاد الاسرائيلي ١٦/١١/١٩٢٦ . اسرائيل١٥/١١/ ١٩٣ والشمس ١٩/١١/١٩٢٥
١٥ ــ اسرائيل ٢٧/٦/١٩٣٠
١٦ ــ الشمس ١٦/١١/١٩٢٤
١٧ ــ انظر الشمس ١٤/٥/١٩٣٦ ، ٢٦/٥/١٩٣٩

وبالمثل عندما اسند الى علي ماهر تأليف الوزارة الجديدة عام ١٩٣٩ اشادت الشمس بشخصية رئيس الحكومة الجديد وابدت اعجابها الشديد بمشروعاته الاصلاحية ورغبته في تقوية الجيش .

اما صحيفة التسعيرة فقد اعلنت انتماءها للوفد منذ العدد الاول كما سبق ان اشرنا وقدمت نفسها للرأي العام المصري كصحيفة وفدية فكانت تتابع تحركات الزعيم مصطفى النحاس وتحاول تسليط الاضواء على مشروعات الوفد وانشطته المختلفة . وقد التزمت التسعيرة بتلك السياسة طالما كان الوفد في السلطة ، وعندما خرج من الحكم سنة ١٩٤٤ سرعان ما انقلبت عليه وشاركت الاحزاب الاخرى في الهجوم عليه ، بل وترددت في الحملات العدائية التي حاولت تشويه الزعامات الوفدية من الناحية الشخصية . وسارعت التسعيرة الى تقديم فروض الولاء والطاعة لحكومة احمد ماهر باشا واضفت عليه كل الصفات الايجابية التي كانت تطلقها على النحاس باشا من قبل والتزمت بهذا الموقف الانتهازي حتى حانت عودة الوفد للسلطة مرة اخرى سنة ١٩٤٩ وهنا نفاجأ بموقف تلك الصحيفة الذي يتسم بقدر كبير من الجرأة والصفاقة اذ عادت الى الدفاع عن الوفد . ولم يقتصر الامر على ذلك بل اصدرت صحيفة اخرى وفدية اسمها الصراحة .

وعندما نحاول استعراض موقف الصحافة اليهودية من الزعامات الوطنية والسياسية في مصر نلاحظ انها جريا على عادتها دأبت على انتهاز مختلف المناسبات لتأكيد ولائها واغداق مختلف الوان المديح والاطراء لهؤلاء الزعماء ، وكذلك كان موقفها من السراي والملك[١٨] . وعندما توفي سعد زغلول خرجت معظم الصحف الصهيونية في مصر (الاتحاد الاسرائيلي واسرائيل) متشحة بالسواد وقد خصصت افتتاحياتها ومعظم صفحاتها للاشادة بالزعيم الوطني وتاريخه النضالي ضد الاستعمار البريطاني علاوة على اظهار مشاعر الاسى والحسرة لفقده في تلك المرحلة الهامة من تاريخ مصر الوطني[١٩] .

وعندما توفي الملك فؤاد الاول ١٩٣٦ اعلنت صحيفة الشمس الحداد وخصصت صفحة كاملة لهذا الحدث . وبعد ان تولى الملك فاروق العرش كتبت الصحف الصهيونية عن مشاركة الطائفة اليهودية في الاحتفال الذي اقيم بهذه المناسبة . كما نشرت صحيفة الشمس صورة كبيرة للملك فاروق تتوسط الصفحة الاولى وخصصت الافتتاحية للحديث عن هذه المناسبة . وعندما تزوج الملك فاروق نشرت الشمس ان يهود مصر قدموا هدية ثمينة لجلالة الملك للاعراب عن فرحتهم بهذه المناسبة وتعلقهم بمليكهم المفدى . هذا عدا الصفحات التي خصصتها الصحيفة لنشر تهاني الشعراء والكتاب اليهود لصاحبي الجلالة[٢٠] .

وفي عام ١٩٤٨ شاركت صحيفة الشمس الاحتفال بذكرى الزعيم مصطفى كامل فاشادت به وبدوره العظيم في الحركة الوطنية المصرية وحرصت على ابراز الدور الذي قام به بعض اليهود المصريين في مساندة وتأييد مصطفى كامل اثناء نضاله ضد الاحتلال البريطاني[٢١] .

ثالثا : الصحافة المصرية والصهيونية : تباينت العلاقة بين الصحف الصهيونية والصحافة

---

١٨ ـ انظر التسعيرة ١٩٤٥/١/٦ .
١٩ ـ الاتحاد الاسرائيلي ١٩٢٧/٩/٦ . اسرائيل ١٩٢٧/٩/٢٠ .
٢٠ ـ الشمس ١٩٣٦/٤/٣٠ ، ١٩٣٧/١/٢٩
٢١ ـ الشمس ١٩٤٨/٣/٢٦ .

المصرية طبقا للمواقف التي كانت تتبناها الاخيرة ازاء الحركة الصهيونية في مصر من ناحية والصراع الفلسطيني الصهيوني من ناحية اخرى . وقد تفاوتت درجات التقارب والعداء فهناك بعض الصحف المصرية قدمت مساندة كاملة للصحافة الصهيونية في مصر وصلت الى المستوى الذي لا نستطيع ان نفرق من خلاله بين ما تطرحه الصحف المصرية وتلك الصحف الصهيونية خصوصا في وجهات النظر المؤيدة للجانب الصهيوني في صراعه ضد الشعب العربي في فلسطين . ونذكر بهذه المناسبة المقطم اللسان الناطق باسم الاحتلال البريطاني في مصر ، وقد قامت بدور رئيسي في الدعوة والترويج للفكر الصهيوني طوال الفترة السابقة على صدور صحف صهيونية في مصر . وبعد أن قام ليون كاسترو باصدار اول صحيفة صهيونية تعبر عن المنظمة الصهيونية العالمية ١٩١٨ وهي المجلة الصهيونية ظلت المقطم تواصل دورها في خدمة الحركة الصهيونية بأساليب متعددة سبق ان اشرنا اليها . وكذلك صحيفة السياسة لسان حال حزب الاحرار الدستوريين ، فقد كانت تروج للدعوة الى التفاهم بين العرب واليهود وترى ان حل المشكلة الفلسطينية يمكن في تحقيق هذا التفاهم من اجل اقامة الوطن المشترك . وقد كان لهذه النغمة صدى مقبول لدى الدوائر الصهيونية عبرت عنه صحيفة هايس الصهيونية التي ارسلت ردا نشرته صحيفة السياسة في عددها الصادر في ٢٨ سبتمبر/ ايلول ١٩٢٩ اذ اكدت اسفها الشديد لانها لاول مرة فقط تسمع صوتا مستنيرا في العالم الاسلامي « يشجب سياسة العنف » التي يسلكها الشعب الفلسطيني لتحقيق امانيه[٢٢] وكانت صحيفة السياسة قد نشرت مقالا لعبد الله عنان في عددها الاسبوعي استنكر فيه اسلوب « العنف » الذي لجأ اليه الشعب الفلسطيني في احداث البراق ١٩٢٩. .

وقد تبنى الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير صحيفة السياسة دعوة التفاهم بين العرب واليهود فدعا الى تأليف لجنة يهودية عربية تضطلع بهذا العبء . اذ كان يرى ان حل المشكلة الفلسطينية لا يكون الا بين العرب واليهود ولا ينتظر من الدولة الانجليزية او عصبة الامم ان تتوسط لهذا التفاهم لانه يلوي عليها مقاعدها الاستعمارية[٢٣] . وقد اشادت صحيفة اسرائيل صوت الحركة الصهيونية في مصر بمقال الدكتور هيكل باعتباره « خير ما كتب الى الان باللغة العربية باسلوب بريء من الهوى ومليء بروح الاخلاص والصراحة في مشكلة فلسطين »[٢٤] كما قامت صحيفة السياسة باستعداء السلطات ضد الفلسطينيين المقيمين في مصر مهددة اياهم بالطرد ، وقد وجهت اليهم تهمة اثارة الطائفية في مصر بسبب النشاط الدعائي الذي كانوا يقومون به لتزويد الرأي العام المصري بالمعلومات والحقائق عن احداث البـراق . ولم تنس السياسة ان تشيد باليهود المصريين وتؤكد اعتزاز مصر بوجود هذا العنصر الذكي العامل بين عناصرها[٢٥] .

وتعد صحيفة الاتحاد من ابرز الصحف المصرية التي كانت تربطها بالصحافة الصهيونية علاقة تفاهم ومودة . وتجسد صحيفة الاتحاد موقف السراي من الصراع الصهيوني الفلسطيني خلال فترة العشرينات والثلاثينات . وقد ابدت الاتحاد اهتماما متزايدا بمتابعة احوال اليهود في مصر والدول

---

٢٢ ـ السياسة الأسبوعية ١٩٢٩/٩/٧ .
٢٣ ـ السياسة الاسبوعية ١٩٣٠/٦/٢٤ .
٢٤ ـ اسرائيل ١٩٣٠/٦/٢٧ .
٢٥ ـ السياسة ١٩٢٩/٩/١ .

العربية وكانت تركز على حوادث الاضطهاد والتي تعرض لها اليهود في روسيا والمانيا[٢٦] . وكانت ترى ان حياة فلسطين قد بلغت من الازدهار والقوة خلال السنوات التي تدفقت فيها الهجرة اليهودية مصحوبة برؤوس الاموال مما لا يمكن اغفاله . وانه من الخطأ البين الاعتقاد بأن فلسطين اصبحت مأوى للفقراء والمشردين ولذلك فان انشاء الوطن القومي في فلسطين يعد فاتحة عهد جديد فيها وسيكون هذا العهد حاملا بالعجائب والمدهشات[٢٧] .

هذا وقد كان يوجد بجانب الصحف المصرية المتعاطفة مع الصهيونية مثل المقطم والسياسة والاتحاد والشعب بعض الصحف ذات الاتجاه المعتدل مثل الاهرام . وقد حظيت هذه الصحف سواء الموالية للصهيونية او المعتدلة بعناية واهتمام الصحافة الصهيونية في مصر بينما تعرضت الصحف الوطنية ذات الاتجاه المعادي للصهيونية مثل البلاغ وكوكب الشرق والمصري والاخوان المسلمون والصرخة ومصر الفتاة والاشتراكية وصوت الأمة للهجوم الشديد من جانب الصحافة الصهيونية . كما عمدت الدوائر الصهيونية في مصر الى ممارسة شتى اشكال الضغوط الاقتصادية والمهنية للتأثير على اتجاهاتها العدائية للصهيونية . ويمكننا ان نحصر اهم الاساليب التي لجأت اليها الحركة الصهيونية للضغط على الصحف الوطنية في مصر فيما يلي : التسلل داخل هذه الصحف ومحاولة السيطرة على المراكز الحساسة بداخلها : استخدام الاعلانات كوسيلة ضغط : تشويه الصحف الوطنية واتهامها بالعمالة .

وفيما يتعلق بالاسلوب فقد وجدت العناصر الصهيونية ان هناك بعض الصحف المصرية التي لا يمكن التأثير على مواقفها ازاء الحركة الصهيونية والصراع الفلسطيني الصهيوني الا باختراقها من الداخل والتغلغل فيها بحيث يتمكنون بعد فترة وجيزة من تبوء المراكز الحساسة داخل هذه الصحف ومن ثم تسهل عليهم توجيهها لمصالحهم . وقد كانت وظيفة مدير الاعلانات هي المنصب الحساس الذي يتيح لهم التحكم في جزء هام من موارد الصحيفة الاقتصادية . ولذلك حرصوا على الاستئثار به في معظم الصحف المصرية . فتلاحظ ان دار الهلال كان البير انكونا اليهودي يشغل منصب مدير الاعلانات بها . كذلك الاهرام كان مدير اعلاناتها يهودي اسباني يدعي انخمان . وفي صحيفة الاساس كان يرأس قسم الاعلانات بها يهودي يدعى كوهين . يضاف الى هذا سيطرة اليهود على اكبر دار لنشر الصحف الاجنبية في مصر وهي الشركة الشرقية للاعلانات التي كانت تصدر صحيفتين ناطقتين بالانجليزية هما اجيبشيان جازيت واجيبشيان ميل وكذلك البروجريه والبورص الناطقتان بالفرنسية . علاوة على تغلغل اليهود في سائر المناصب الصحفية كمراسلين لبعض الصحف والاذاعة المصرية .

وحاولت الدوائر الصهيونية التأثير على الصحف المصرية من خلال سيطرتها على وكالات الاعلان واستخدام هذا السلاح في فرض وجهة نظرها على بعض الصحف او على الاقل ضمان حيادها ازاء الصراع الصهيوني الفلسطيني . وقد كانت الصحف المصرية تخضع لمراجعة دقيقة من جانب الدوائر الصهيونية . وفي حالة نشر اية معلومة او رأي يحمل شبهة الهجوم على الصهيونية او اطماعها في فلسطين كانت هذه الصحف تتعرض لسلسلة من الضغوط من جانب وكالات الاعلان اليهودية تنتهي بحرمانها من جزء كبير من الاعلانات الخاصة بالمتاجر والبضائع اليهودية اذا لم تستجب تلك

---

٢٦ ـ الاتحاد ١٩٢٣/٤/٢٢ ، ١٩٣٣/٨/٧ ، ١٩٣٤/١١/٣٠ ، ١٩٣٤/١٢/٢٤ .
٢٧ ـ الاتحاد ١٩٢٥/٥/١٧ .

الصحف للانذارات التي تبعثها اليها الدوائر اليهودية محذرة اياها من التمادي في ذلك الطريق الوعر اي الاستمرار في الهجوم على الصهيونية وقد قامت صحيفة مصر الفتاة بكشف هذه الاساليب في سلسلة من الموضوعات .

وبجانب سلاح الاعلانات الذي برعت الدوائر الصهيونية في استخدامه كوسيلة للترغيب والترهيب ضد الصحف الوطنية في مصر ، لجأت هذه الدوائر ايضا الى سلاح آخر هو الاشتراكات بمبالغ ضخمة . وهو ما يمكن اعتباره رشوة مقنعة كمحاولة لصرف هذه الصحف عن مهاجمة اليهود والصهيونية . وقد تزعمت شركة الاعلانات الشرقية القيام بهذا الدور اذ كان برأسها هنري حاييم اليهودي ، كما كان يعمل معه جهاز كامل من اليهود الذين كانوا مجندين لخدمة الحركة الصهيونية في المجال الاعلامي . وقد اشارت صحيفة التسعيرة الى ذلك عندما كشفت عن علاقة هنري حاييم بعصابة شتيرن في فلسطين حيث قام بتصدير كميات من السكر والارز الى هذه العصابة في عام ١٩٤٥ في الوقت الذي كانت البلاد تعاني من أزمة طاحنة في هذه المواد . وقد تحدت الصحيفة بنشر اذن التصدير في حالة اذا ما حاول حاييم انكار ذلك[٢٨] .

كذلك استطاعت شركة الاعلانات الشرقية من خلال تحكمها في تجارة الورق ان تستخدم هذا السلاح في الضغط على الصحف المصرية خصوصا اثناء الحرب العالمية الثانية . فقد كانت تمنح للصحف الصهيونية والصحف المصرية الموالية لها اولوية الحصول على حاجتها من الورق مثلما حدث مع صحيفة الشمس الصهيونية ومجلة الكاتب المصري التي كان برأس تحريرها طه حسين ، اذ انهما حصلا على حاجتهما من الورق رغم صدور القانون الذي يحرم بيع ورق الصحف والاتجار فيه ويعفي وزارة التموين من مسئولية توفير الورق للصحف الجديدة . ولكن مجلة الكاتب المصري التي صدرت بعد هذا القانون استطاعت ان تحصل على الورق عن طريق شركة الاعلانات الشرقية[٢٩] .

وعلاوة على كل ما سبق لم تتوان الدوائر الصهيونية عن تقديم رشاو سافرة لبعض الصحف المصرية على شكل مصاريف سرية .

ودأبت الدوائر اليهودية والصهيونية في مصر على متابعة كل ما ينشر في الصحف المصرية مما له علاقة مباشرة او غير مباشرة بالصهيونية او بالقضية الفلسطينية وكانت تقوم بالرد فورا سواء بالمدح او التصحيح وذلك بالنسبة للصحف المتعاطفة مع الصهيونية . اما الصحف الوطنية او التي كانت ذات اتجاهات عربية واسلامية فقد كان العداء سافرا بينها وبين الصحف الصهيونية . وفي تلك الحالة كانت الصحف الصهيونية تسارع الى شن هجوم مكثف على تلك الصحف المصرية مستخدمة مختلف الاساليب التي تصل الى ادنى مستويات التعامل الثقافي والاخلاقي بل ومحاولة استعداء السلطات ضد الصحف والصحفيين الوطنيين متهمة اياهم بالعمل على اثارة الفتنة الطائفية وتمزيق الوحدة الوطنية والاضرار بالقضية المصرية[٣٠] .

ولقد تولت صحيفة الشمس الصهيونية مسئولية الهجوم على الصحف الوطنية وتشويه صورة الصحفيين المصريين ، واستخدمت عدة اساليب في مقاومتها للدعاية المضادة للصهيونية في مصر

---

٢٨ ـ التسعيرة ١٩٤٥/١١/١٢ .
٢٩ ـ التسعيرة ١٩٤٥/١١/٢٤ .
٣٠ ـ الشمس ١٩٣٩/٧/٧ .

منها ، على سبيل المثال، حث ابناء الطائفة على عدم السكوت ازاء الهجمات التي كانت تشنها الصحف الوطنية ضد الصهيونيين والعمل على التصدي لهذه الطعنات بتكريس مزيـد من الجهد لبناء الذات ونشر الوعي بين الجماهير المصرية من خلال القاء المحاضرات ونشر الدراسات والبحوث التاريخية الخاصة باليهود واظهار فضل اليهود المصريين . بل طالبت الشمس بانشاء مكتب استعلامات ينطق باسم اليهود يتولى تصحيح الاخطاء ونفي التهم التي توجه للصهيونيين المصريين . وكانت هذه الصحيفة تلح في المطالبة بانشاء صحيفة يومية كبيرة للدفاع عن اليهود وذلك بعد أن اشتدت حملة الصحف الوطنية على النشاط الصهيوني وخصوصا تلك الصحف(٣١) التي لم تعبأ بالتهديدات او الاغراءات الصهيونية . وقد استغلت صحيفة الشمس مسألة الوحدة الوطنية وضرورة المحافظة عليها فشنت عدة حملات تدور حول اهمية حماية البلاد من النغمة العنصرية التي قد تؤدي الى ذات العواقب الوخيمة التي ترتبت على سياسة هتلر الخاطئة . وقد طالبت الشمس باستخدام مادة جديدة في التشريع المصري تمنع التحريض حرصا على صيانة الوحدة الوطنية(٣٢) . وقد استجابت بعض الهيئات المصرية لهذا المطلب وخصوصا الاذاعة المصرية التي اصدرت قرارا بعدم السماح باذاعة اخبار او احاديث تتصل بالتحريض الديني او تاليب طائفة على اخرى او مهاجمة طائفة من الطوائف التي يتكون منها الشعب المصري .

---

٣١ ــ الشمس ١٩٤٧/٦/١ .
٣٢ ــ الشمس ١٩٤٨/٣/٥ .

(٢) مصر وفلسطين في الاربعينات

من أبرز ما تتميز به الاوضاع السياسية في مصر في الاربعينات هو تبلور انتمائها العربي على المستوى الشعبي واستبدال السراي بمطامحها الاسلامية في العشرينات والثلاثينات مطامح عربية . وقد اختارت السراي المجال العربي كي تمارس فيه سلطاتها في مواجهة الحكومة والبرلمان والحركة الشعبية على اساس ان هذا المجال سوف يقلل احتمالات الصدام التقليدية بينها وبين القوى السياسية المعارضة وسيتيح لها فرصة انتزاع بعض المكاسب من خلال التقائها الشكلي مع الجماهير على المائدة العربية . وقد لعب الكفاح العربي في كل قطر على حدة ضد العدو المشترك الذي تمثل في الدول الاستعمارية دورا اساسيا في تقريب المشاعر والاهتمامات القومية . ومن هنا دخلت الشئون العربية تدريجيا في صميم النضال اليومي للحركة الوطنية المصرية ضد الاحتلال البريطاني وركائزه المحلية في مصر وفي المنطقة العربية كما أصبح الجانب العربي من السياسة الرسمية احد مجالات الصراع السياسي بين الحركة الوطنية باجنحتها المختلفة وبين الرجعية المحلية والاحتلال .

ومن أبرز دلالات تصاعد الاهتمام الشعبي في مصر بالقضايا العربية موقف الوفد الذي تبلور بوضوح عند تكوين الطليعة الوفدية حيث جاء في قرار تشكيلها انها اداة رئيسية للاتصال مع شعب الوادي وشعوب الدول العربية[١] . أما القوى السياسية الاخرى مثل مصر الفتاة ، فقد عرفت بتوجيهها العربي منذ بداية تكوينها في الثلاثينات وكذلك جماعة الاخوان المسلمون الذين كانوا يتبنون الاتجاه العربي كرابطة حضارية ومقدمة ضرورية لتحقيق الوحدة الاسلامية .

بالنسبة لليسار المصري فقد ظهر بوضوح حرصهم على الاهتمام بالتوجيه العربي وتنميته في وجدان الشعب المصري وفي طرح مفاهيم صحيحة له وعند تتبع الصحف اليسارية في مطلع الاربعينات مثل الجماهير لسان حال الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني او الفجر الجديد لسان حال طليعة العمال والفلاحين فاننا نلاحظ اهتماما متزايدا بالقضايا العربية وبضرورة توحيد كل القوى الثورية العربية في المعركة الموحدة ضد الرجعية العربية . وقد كانت القضية المحورية في ذلك كله في نظر اليسار المصري هي قضية فلسطين .

والخلاصة ان البعد العربي للواقع السياسي والحركة الوطنية في مصر قد استكمل ملامحه الرئيسية في تلك الحقبة وأصبح جزءا لا يتجزأ من برامج وممارسات القوى السياسية والحكومة ذاتها . كل حسب اهدافه وطموحاته . ويمكن القول انه اذا كانت النزعة الاسلامية هي مدخل مصر الى الفكرة العربية في العشرينات والثلاثينات فان التضامن بين الشعوب العربية ضد العدو المشترك وهو الاستعمار كانت هي المنطلق المصري الى العروبة(اثناء وبعد الحرب العالمية الثانية) . ولقد طرحت القضية الفلسطينية نفسها بعد الحرب العالمية الثانية باعتبارها ذروة الصراع الدامي بين الشعب الفلسطيني والشعوب العربية في جانب والقوى الاستعمارية والصهيونية في الجانب المقابل . وكانت مظاهرات ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٥ التي قادها الاخوان المسلمون التجسيد المادي لحضور القضية في الشارع المصري وكان عنفها وشمولها تعبيرا عن موقف المصريين عامة من قضية مصير فلسطين . كما كان مظهراً لالتحام قضية هذا البلد بالقضايا السياسية تشغل المصريين عامة .

---

١ ــ رابطة الشباب ١٩٤٧/٣/٢٠

ومنذ ذلك الحين بدأت القضية الفلسطينية وتتبع تطوراتها واحداثها تحتل مكان الصدارة لدى الرأي العام المصري . ويمكن ان نعتبر ان فلسطين كانت محك الصراع المباشر بين الحركة الوطنية المصرية وبين الاستعمار الجديد المتمثل في الولايات المتحدة . ومن خلال الصراع بين الاستعماريين البريطاني والاميركي من اجل-الاستحواذ على الشرق الاوسط بامكانياته الاستراتيجية والبترولية ومحاولة التركيز على فلسطين باعتبارها المحور الذي سوف يمكن القادمين الجدد من تحقيق طموحاتهم واهدافهم .،علاوة على تحرك الصهيونية نحو الولايات المتحدة باعتبارها السيد الجديد القوي وانتقال الولاء الصهيوني من بريطانيا الى امريكا بعد الحرب العالمية الثانية كل ذلك كان مدرسة تلقت فيها الحركة الوطنية المصرية دروسا هامة في فهم دورها كجزء من قوى التحرر العربية في مواجهة الخصوم الجدد والتقليديين معا اي امريكا وبريطانيا والصهيونية .

واذا ما حاولنا ان نتعرض لموقف مصر الرسمي من قضية فلسطين منذ مطلع الاربعينات وحتى نشوب حرب ١٩٤٨ فاننا سوف نجد الملامح الرئيسية لهذه السياسة في كلمة القاهرة التي القاها عبد الرزاق السنهوري ممثل المملكة المصرية في مؤتمر فلسطين الذي عقد بلندن في نهاية عام ١٩٤٦ . ويمكن تلخيص الموقف المصري في ثلاث نقاط جوهرية اولا :رفض مصر القاطع لاي شكل من اشكال التقسيم او اقامة دولة يهودية في هذا الجزء من العالم : **ثانيا** : ان مصر لن تقف موقفا سلبيا حتى يصير الخطر اليهودي للعالم العربي حقيقة واقعة : **ثالثا** : رفض اقتراح اللجنة الانجلو امريكية الخاص بتحويل فلسطين الى دولة اتحادية تتكون من الدولة العربية والدولة اليهودية باعتبار ان التقسيم ليس حلا يمكن فرضه الا اذا كان هناك استعداد للابقاء عليه بالقوة . واكد السنهوري باشا ان اليهود صمموا على تهويد فلسطين من خلال الهجرة وشراء الاراضي ثم التقسيم . وقد اوضح ممثل مصر في المؤتمر كيف زاد عدد اليهود من خلال الهجرة من ٥٠ الفا في مطلع الانتداب الى ٦٠٠ الف عند انعقاد المؤتمر . وكذلك بالنسبة للاراضي فقد اشترى وانتزع اليهود حتى ذلك الوقت أكثر من مليوني دونم واصبح متوسط ما يملكه اليهودي ٢٠٠ دونم مقابل ٨ دونمات فقط لكل عربي . ومعنى ذلك ان ملكية اليهود للاراضي قياسا الى اعدادهم اصبحت تزيد على ملكية العرب بمقدار ٥,٢٥ . وفيما يتعلق بالتقسيم اوضح السنهوري انه غير عملي وصعب التحقيق كما انه مرفوض من الحكومة المصرية رفضا باتا . ثم ختم المندوب المصري كلمته بتاكيد عروبة فلسطين وطالب بمنحها حق تقرير المصـ.ـر وأكد عدم اعتراف مصر بحق اليهود في اقامة وطن قومي خاص بهم في فلسطين . كما طالب بوقف الهجرة اليهودية تماما وبصورة عاجلة لانها تشكل اهم جوانب المشكلة الفلسطينية[٢] .

ذلك كان موقف مصر الرسمي من فلسطين الذي اعلنته في مؤتمر لندن . ولكن كانت الساحة المصرية تشهد في ذلك الحين احتدام المعركة بين الحركة الوطنية المصرية في مواجهة السراي والاحتلال والحكومة الصدقية بسبب مشروع صدقي بيفن ومع فشل مشروع صدقي بيفن أتضحت خيوط الموقف الغربي من القضية الفلسطينية والقضية المصرية في ان واحد . فقد ادعت بريطانيا في فبراير/ شباط ١٩٤٧ انها غير قادرة على حل المشكلة الفلسطينية وانها سوف تعرض الامر على الامم المتحدة لكي توصي بما تراه . والواقع ان الموقف البريطاني كان ترجمة عملية للاتفاق الذي تم بين بريطانيا

---

٢ ــ ملف الوثائق الفلسطينية ــ الجزء الاول ١٩٢٧ ــ ١٩٤٩ ــ الهيئة العامة للاستعلامات القاهرة ١٩٧٠ ــ ص ٧٥٦ ــ ٧٧٠

والولايات المتحدة والذي يقضي بان تترك فلسطين للولايات المتحدة من خلال تمكين الصهيونية منها وان يبقى الانجليز في مصر وبهذا زاد تمسك بريطانيا بالبقاءالعسكري في مصر .

وفي ابريل/ نيسان ١٩٤٧ طلبت بريطانيا من السكرتير العام للامم المتحدة ادارج قضية فلسطين في جدول اعمال الجمعية العامة في دورتها العادية وانتهت جولة القضية داخل الامم المتحدة بتشكيل لجنة تحقيق سميت لجنة فلسطين اقترحت في التقرير الذي اعدته تقسيم فلسطين وانشاء دولتين احداهما للعرب والاخرى لليهود . وقد تابع الرأي العام المصري جميع مراحل بحث القضية الفلسطينية داخل الامم المتحدة والتي انتهت بقرار التقسيم في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧ . وقد كان لهذا القرار صداه العنيف في الشارع المصري اذ اجتاح الجماهير سخط عارم وبدأت الاضرابات والمظاهرات منذ بداية نظر القضية امام الجمعية العامة وقدكان اضراب ١٧ سبتمبر/ ايلول ١٩٤٧ هو البداية ودعت اليه احزاب مصر الفتاة والاخوان المسلمون والحزب الوطني . وفي دمشق وبيروت اعلن عن اعتبار يوم ٤ اكتوبر/ تشرين الاول يوم فلسطين وتم الاضراب يومها هناك وأعلنت مصر في ذلك اليوم حالة الطوارىء وتم تشكيل الهيئة العليا لوادي النيل لانقاذ فلسطين التي قامت بتنظيم حملات للتبرع والدعوة لانشاء كتائب التحرير[٣] .

ومنذ تلك اللحظة بدات شعارات الكفاح المسلح ضد الصهيونية تطرح نفسها بحدة على الساحة المصرية وانقسمت ازاءها القوى الوطنية . فالوفد رغم اعتراضه الكامل على قرار تقسيم فلسطين لم يرفع شعار الكفاح المسلح كما لم يدع الى انشاء كتائب لتحرير فلسطين بل تبنى هذا الموقف كل من جماعة الاخوان المسلمون ومصر الفتاة اذ نظر كلاهـما الى فلسطين كمجال لحرب مقدسة وطنية ودينية ضد الصهيونية . وقد اعلن حزب مصر الفتاة عن تأليف عدة افواج للنضال ضد الصهيونية في فلسطين وسافر أحمد حسين مع هذه الافواج الى سوريا باعتبارها خط الدفاع الاول عن فلسطين . كذلك الف الاخوان كتائب للجهاد واقـاموا معسكرا للجبهة الجنوبية بفلسطين[٤] .

اما عن موقف اليسار المصري من تطورات القضية الفلسطينية في ذلك الحين فقد عارضت طليعة العمال والفلاحين قرار التقسيم وكانت تؤيد الدخول في الحرب ضد اقامة الدولة اليهودية . ولكـن ايدت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) قرار التقسيم وعارضت الدخول في الحرب من اجل فلسطين . بل كانت ترى ان الكفاح المسلح يجب ان يوجه ضد بريطانيا وليس من اجل هذه الحرب في فلسطين[٥] . وفي ٢١ ديسمبر/ كانون الاول ١٩٤٧ اصدرت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني بيانا اوضحت فيه موقفها من التقسيم والحرب وعلقت على موقف الحكومات العربية وفسرت تأييدها لدخول الحرب من اجل فلسطين بانه محاولة لصرف انظار الجماهير الكادحة عن الكفاح في سبيل حل مشاكلها الاجتماعية والوطنية الى امر خارجي ينسيها هذا الكفاح . وقد دفعت الحركة الشيوعية بسبب هذا الموقف ثمنا غاليا من رصيدها الشعبي وتعرضت لهجوم عنيف من جانب مصر الفتاة والاخوان المسلمون اذ طعناها في وطنيتها واتهماها بالتبعية للاتحاد السوفييتي الذي ايد قرار التقسيم ايضا.

---

٣ ــ الاهرام اعداد شهر يناير ١٩٤٨ .
٤ ــ الاهرام ١٩٤٨/١/٢٧
٥ ــ نظم الجماهير ، ١٠/١٩ ، ١٩٤٧/١١/٢٢

لقد وصلت الاوضاع الداخلية في مصر الى ذروة تأزمها بسبب فشل المفاوضات المصرية الذي اعقبه الفشل الثاني عند عرض القضية المصرية في مجلس الامن . فضلا عن تصاعد الازمة الاقتصادية وانتشار الاضرابات والمظاهرات الشعبية . وكان لابد للسلطة السياسية المصرية من البحث عن مخرج . وكانت القضية الفلسطينية بما وصلت اليه من تطورات معقدة تمثل مخرجا ملائما للنظام المصري اذ كان قرار الاشتراك في الحرب من اجل تحرير فلسطين من الصهيونية يمثل بمثابة طوق الانقاذ للسراي والحكومة كما انه صادف استجابة جماهيرية بعيدة المدى . ولكن العقبة الوحيدة التي كانت تحول دون اتخاذ القرار هو سوء احوال الجيش المصري وعدم استعداده للدخول في حرب على ارض فلسطين . والواقع ان الملك قد وجد في المسألة الفلسطينية ما يمكنه من استرداد بعض سمعته فضلا عن حرصه على ان يبني لنفسه زعامة عربية في مواجهة العائلة الهاشمية في العراق والاردن . ولذلك اوعز الملك الى وزير الدفاع المصري باصدار اوامره الى الجيش بالتحرك دون علم رئيس الوزراء ودون انتظار موافقة البرلمان او مجلس الوزراء ، ورغم ان النقراشي رئيس الوزراء المصري آنذاك كان مصرا على عدم اللجوء الى القوة المسلحة حتى لا يدفع الجيش المصري الى الهلاك بسبب وجود القوات البريطانية المرابطة في منطقة السويس وراء ظهره . ولكن فجأة تغير موقف النقراشي وطلب عقد جلسة عاجلة للبرلمان للحصول على موافقته على الاشتراك في الحرب[٦] . ويعزى التحول في موقف النقراشي الى رغبته في عدم نشوب ازمة دستورية فضلا عن ان استمرار معارضته لدخول الجيش المصري معركة فلسطين كان سوف يؤخذ على انه خيانة وطنية كبرى .

وقد دخلت مصر الحرب مع الاردن وسوريا والعراق في ١٥ مايو/ ايار ١٩٤٨ لانقاذ فلسطين . وكان الجميع يتوقعون ان تنتصر القوات العربية وان الحرب ستكون نزهة لن تستغرق اكثر من ايام . وفعلا بدأت انتصارات الجيش المصري المحارب في فلسطين . وخلال اسبوعين وصل الجيش المصري الى مشارف تل ابيب وبدأت البلاغات العسكرية المصرية تتخذ لهجة حاسمة وهي تعلن للرأي العام ان القضاء على اسرائيل اصبح قاب قوسين . ولكن فجأة بدأت اخبار انتصارات الجيش المصري في فلسطين تتباعد وبدأت الضغوط الدولية حيث بدات الهدنة الاولى وقبلتها الدول العربية وعندما استؤنفت الحرب بدأ الصهاينة يحققون انتصارات متوالية ثم تبعتها هدنة ثانية وحرب ثانية . ولكن اصبح واضحا هذه المرة ان القوى التي تقف وراء اسرائيل قوة ضخمة ومريبة وان القوى التي يستند اليها العرب لا تعدو ان تكون قوة محلية ضعيفة مهتزة تفتتها الصراعات الخاصة .

الصحافة المصرية ومشروع تقسيم فلسطين ١٩٤٧ وحرب ١٩٤٨

اجمعت الصحف المصرية بمختلف اتجاهاتها ما عدا صحف اليسار المصري على رفض قرار تقسيم فلسطين الذي اتخذته الامم المتحدة في نوفمبر ١٩٤٧ . والواقع ان الامم المتحدة كانت قد قررت في مايو ١٩٤٧ تأليف لجنة تحقيق دولية تكونت من السويد وكندا واستراليا والهند وبيرو وهولندا وايران وتشيكوسلوفاكيا وجواتيمالا ويوغوسلافيا واوروجواي كلفتها ببحث القضية وايجاد حل لها . وقد زارت اللجنة فلسطين واستمعت الى شهادات القادة الصهيونيين بينما قاطعها قادة الحركة الوطنية الفلسطينية .

---

٦ ـ انظر طارق البشري ـ الحركة السياسية في مصر ، القاهرة ، ص ٢٦٦ .

وقررت اللجنة الدولية بأكثريتها تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية . اما اقليتها وتتضمن ممثلي الهند وايران ويوغوسلافيا فقد دعت الى اقامة دولة ثنائية القومية اتحادية الشكل . ثم أقرت الجمعية العامة للامم المتحدة قرار التقسيم في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وهو يستند الى مشروع الاغلبية . وقد قابلت الدول العربية مشروعي اللجنة (اغلبية واقلية) وقرار الجمعية العامة للامم المتحدة بالرفض التام والقاطع دون ان تقدم اي بديل او حل يتفق مع توازنات القوى العالمية والمحلية بل اكتفت برفع شعار فلسطين عربية مستقلة موحدة وقد وافقت على مشروع التقسيم مجموعة الدول الاشتراكية وعلى راسها الاتحاد السوفييتي[٧] . ورغم ان مشروع التقسيم وقيام دولة يهودية بفلسطين كان يمثل جزءا من الاستراتيجية التي رسمتها الولايات المتحدة لمنطقة الشرق العربي بعد الحرب العالمية الثانية فقد كان تبرير الكتلة الاشتراكية لموقف التأييد الذي اتخذته تجاه تقسيم فلسطين ينحصر في اعتباره الحل الوحيد المتاح وان توازنات القوى لا تحتمل حلا أفضل منه . وقد تأثر اليسار المصري بموافقة الاتحاد السوفييتي على قرار التقسيم فاتخذ موقفا مماثلا . ورغم ان طليعة العمال والفلاحين قد عارضت قرار تقسيم فلسطين وأيدت الدخول في الحرب ضد اقامة الدولة الصهيونية ولكن الحركة الديمقراطية للتحرر (حدتو) ايدت قرار التقسيم وعارضت بشدة دخول مصر الحرب[٨] . وقد عكست صحيفة الجماهير موقف حدتو من التقسيم . وبررت تأييدها لمشروع التقسيم بقولها « اننا لا نريد ان ننزع فلسطين من العرب ونعطيها لليهود بل ننزعها من الاستعمار ونعطيها للعرب واليهود ولا نوافق على التقسيم الا مضطرين كأساس لاستقلال فلسطين ثم يبدأ كفاح طويل للتقريب بين وجهات النظر في الدولتين العربية واليهودية »[٩] .

والواقع ان الحركة الشيوعية في مصر قد عانت كثيرا بسبب هذا الموقف الذي تمسكت به في وجه تيار قوي جارف مشحون بالعواطف القومية والدينية التي رفضت قرار التقسيم وحاولت الحركة استثمار هذه المشاعر الجارفة بالعمل على توجيهها ضد العدو الرئيسي اي الاستعمار « فلنوجه سلاحنا الى الاستعمار البريطاني في فايد والقنال والسودان ولن يمكن تحرير فلسطين وظهورنا مكشوفة للعدو فلنحرر وادي النيل كي نتمكن من تحرير الشرق كله »[١٠] .

على ان الرأي العام المصري الذي بلغ ذروة تعلقه واهتمامه بالقضية الفلسطينية التي كانت تحرك لديه مزيجا مركبا من المشاعر القومية والدينية ، وجد في رفض التقسيم والدعوة للكفاح المسلح ضد اقامة الدولة الصهيونية على ارض فلسطين العربية الاسلامية الوسيلة الوحيدة لمواجهة الاستعمار العالمي وعلى رأسه بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية . ولذلك التقت كل التيارات السياسية على هذا الاتجاه العام الرافض لتقسيم فلسطين وكان في مقدمة هذا القوى الوفد وجماعة الاخوان المسلمين وحزب مصر الفتاة . وقد عبرت المصري عن موقف الوفد من التقسيم وشنت هجوما حادا على المنظمة الدولية واعتبرتها متواطئة مع التكتل الغربي الجديد بقيادة امريكا التي تهدف الى تحويل فلسطين الى قاعدة ارتكاز لها في المنطقة العربية بجانب المملكة العربية السعودية حقل النفط الكبير[١١] وبعد صدور

---

٧ ــ جامعة الدول العربية ــ الامانة العامة ــ ادارة شئون فلسطين ــ مذكرة عن مراحل تطور القضية الفلسطينية ــ عام ١٩٦٠ ص ٣٥٢

٨ ــ طارق البشري ــ مصدر سابق ص ٣٦٢ .

٩ ــ الجماهير ١٩٤٧/١١/٢٢

١٠ ــ الجماهير ١٩٤٧/١٢/٧

١١ ــ المصري ١٩٤٧/١٠/١٩

قرار التقسيم في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ خصصت المصري افتتاحياتها لاعلان رفضها لقرار التقسيم وتأكيد عروبة فلسطين والدعوة الى الكفاح المسلح باعتباره البديل الوحيد لفشل العرب في اقناع المنظمة الدولية بحقوقهم العادلة . اما صحف الاخوان المسلمين ومصر الفتاة فقد عبرت عن مواقف تنظيماتها التي تتسم بالتشدد الذي وصل في بعض الاحيان الى حد التعصب والطابع العنصري . وقد انتهز صالح العشماوي فرصة صدور قرار التقسيم وشن هجوما شاملا على المنظمة الدولية وبريطانيا والولايات المتحدة والدول العربية واعتبرهم جميعا مسئولين عما حدث لفلسطين ورفع شعار الجهاد المقدس على اساس انه لاحل لقضية فلسطين الا السيف[١٢] . وفيما يتعلق بموقف صحيفة مصر الفتاة قد اتسم بدرجة عالية من الانفعال والعدوانية تجاه الحكومات العربية بالذات فقد حملتها الصحيفة الجزء الاكبر من مسئولية ما حدث لفلسطين ولم تكتف بالدعوة الى الكفاح المسلح فحسب بل بادر احمد حسين نفسه باعلان تطوعه في صفوف المناضلين من اجل فلسطين متخذا من ذلك وسيلة لتوجيه اللوم والنقد للقادة العرب الذين لم يفعلوا لفلسطين شيئا سوى بعض الضجيج المزعج . ويعلق احمد على ذلك في احدى افتتاحيات مصر الفتاة بقوله « كيف يستطيع زعيم ان يبعث الناس الى الميدان وهو قاعد في بيته يكتفي بالخطب والعظات ... فاذا كنت قد اسرعت الى سوريا لا تترب فلكي استطيع ان احمل غيري على متابعتي »[١٣] .

وتعتبر الحرب العربية الاسرائيلية ١٩٤٨ خاتمة للمؤامرة الصهيونية التي سعت منذ البداية الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ولم تلبث القوى الخارجية والمؤثرات الدولية والاوضاع المحلية في المنطقة العربية وفلسطين ان ساهمت في خلق المناخ المناسب لاعلان دولة اسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني .

وقد جاء قرار دخول مصر حرب فلسطين في ١٣ مايو ١٩٤٨ تجسيداً واقعيا لالتقاء مصالح السلطة السياسية في مصر انذاك مع موجة الحماس الجماهيري للحرب . وكانت حرب فلسطين اول نشاط للجيش المصري في القرن العشرين يرتبط بالامال الشعبية والوطنية مما جعل الجماهير تحتضن كافة العمليات العسكرية بامالها وحماسها ، ونما لديها الشعور بانتماء الجيش او على الاقل انتماء بعض ضباط المقاتلين الى الحركة الشعبية . وقد بدأت الصحف تعبر عن هذا الاتجاه . وقد تابعت الصحافة المصرية مختلف مراحل حرب فلسطين على المستوى المحلي والعربي والعالمي اذ امتلأت الصحف المصرية بتنوع تياراتها وتعدد انتماءاتها الرسمية والشعبية منذ بداية مايو ١٩٤٨ بالاخبار والبرقيات الخاصة باستعدادات الجيوش العربية للدخول الى فلسطين والفظائع التي كانت ترتكبها الصهيونية في تلك الفترة . ويلاحظ الاهتمام المتزايد الذي ابدته صحف الوفد وهي المصري وصوت الأمة في تتبع انباء الحرب وتطوراتها والتعليق عليها . وقد طغت اخبار فلسطين على صفحات صحيفة المصري حتى أن صفحة الرياضة قد تقلصت او كانت تزول كما اختصرت صحفة الوفيات الى عمود واحد . وتخصص المصري بعض افتتاحياتها للهجوم على امريكا خصوصا بعد اعترافها بالدولة اليهودية . كذلك تندد بموقف الاتحاد السوفييتي لنفس السبب . كما يلاحظ اهتمام المصري بالصور والخرائط والرسوم التي توضح موقف الاطراف المتحاربة[١٤] . وتستنكر الصحيفة موقف مجلس

---

١٢ ـ انظر الاخوان المسلمون اكتوبر ونوفمبر ١٩٤٧ .
١٣ ـ مصر الفتاة ١٩٤٨/١/١٢ .
١٤ ـ انظر جريدة المصري طوال شهور مايو ويونيو ويوليو ١٩٤٨ .

الامن من القضية وتتهمه بالتخبط . ويلاحظ ان المصري كانت تنشر بانتظام البلاغات العسكرية التي تصدر عن الجيش المصري هذا فضلا عن تفاصيل المعارك التي كانت تدور على ارض فلسطين . هذا ولا تخفي صحيفة المصري فرحتها عند اعلانها نبأ دخول القوات المصرية مدينة الخليل وتثني على الجيش المصري وقياداته مشيرة الى (ان ما فعلته القوات المصرية الى الان يدل على شدة بأس وعلو كعب في التكتيك الحربي وعلى ان الثقة الكبيرة التي وضعت في قوادها كانت في محلها حقا)[١٥] .

وتحمل المصري على مجلس الامن وامريكا وبريطانيا معا بسبب الاقتراح الذي قدمته بريطانيا بايعاز من امريكا بتكليف المقاتلين في القدس بوقف اطلاق النار . وقد حذرت المصري من غدر الصهيونيين ولذلك كانت ترى ضرورة الاستمرار في القتال دون الاخذ في الاعتبار لقرار مجلس الامن الذي يقضي بـوقف القتال . وقد شاركت معظم الصحف المصرية صحيفة المصري في موقفها من الهدنة وحذرت وأنذرت واصرت على ضرورة الاستمرار في الحرب رغم قرار مجلس الامن . وقد تزعمت هذا الموقف صحف الاخوان المسلمين ومصر الفتاة وصوت الأمة . وعندما عين الكونت برنادوت السويدي الجنسية وسيطا لحل الخلاف بين العرب والصهيونيين علقت صحيفة المصري قائلة « ان وساطة الكونت برنادوت الاولى قد انقذت اليهود من اضطهاد ظالم (مشيرة بذلك الى توسطه بين الحلفاء والمانيا النازية اثناء الحرب العالمية الثانية) واكبر الرجاء ان تكون وساطته الثانية كفيلة بانقاذ العرب من اغتصاب يهودي ظالم »[١٦] . وتزف الصحيفة الى كل عربي نبأ سقوط القدس القديمة في ايدي العرب وان كانت تبدي اسفها لتهدم بعض مبانيها التاريخية وتحمل اليهود مسئولية ذلك فهم الذين حولوا مدينة السلام الى مدينة استمر فيها القتال[١٧] . والمعروف ان القدس ظلت محاصرة طيلة اثنا عشر يـوما من جانب القوات الاردنية .

اما القرار الثاني الذي اصدره مجلس الامن بفرض هدنة في فلسطين مدتها اربعة اسابيع فقد قوبل بهجوم كبير من جانب جميع الصحف المصرية وقد اجمعت هذه الصحف على ان هذه الهدنة لن تكون في صالح العرب بل سوف تعطي لليهود فرصة ذهبية لاعادة النظر في خططهم واحوال دولتهم المزعومة ولذلك قبلوا الهدنة ورحبوا بها[١٨] . وقد نددت صحيفة الاخوان المسلمون بقرار الهدنة وكتب صالح عشماوي يطالب برفض مقترحات برنادوت واستئناف القتال فورا ورفض مد الهدنة لفترة تالية . وعندما تعذر الغاء الهدنة وفرض وقف القتال اشتدت الصحيفة في هجومها على الانجليز والامريكان والأمم المتحدة وطالبت الدول العربية بضرورة الانسحاب من المنظمة الدولية والسعي لتكوين عصبة الأمم الاسلامية[١٩] . اما صوت الأمة فقد استنكرت قبول العرب للهدنة وأوضحت اهمية استئناف القتال في رفع معنويات الجماهير ومواصلة النضال المسلح حتى يتم تحرير فلسطين باكملها[٢٠] . وتحت عنوان (وقف القتال) نددت المصري بخرق اليهود للهدنة وكتبت تقول « لقد كان هذا منتظرا منهم لانهم قوم قامت سياستهم على الغدر وعلى خلف الوعد فهما صنوان » . وتبرر المصري قبول العرب للهدنة بقولها« ان الشعوب العربية قبلت الهدنة على كره لانها تريد ان تثبت للعالم

---

١٥ ـ المصري ١٩٤٨/٥/٢٢ .
١٦ ـ المصري ١٩٤٨/٥/٢٧ .
١٧ ـ المصري ١٩٤٨/٥/٢٩
١٨ ـ المصري ١٩٤٨/٥/٣٠
١٩ ـ انظر الاخوان المسلمون٣ ، ٧ ، ٧/١٠ ، ١٩٤٨/٧/٢٤
٢٠ ـ صوت الأمة ١٩٤٨/٧/١١

كله حسن نيتها ورغبتها الدائمة في صون السلام »[٢١] .

ولا تتوقف صحيفة الاخوان المسلمون عن ترديد وجهة نظرها التي تتمثل في ان قضية فلسطين لن تحل الا على ارض فلسطين ولن تحل بغير اسلوب واحد هو القوة ومنطق الامر الواقع . وترى الصحيفة ان استئناف القتال في جميع الجبهات هو الكفيل برد العدوان الصهيوني خصوصا وان العالم اليوم لا يفهم لغة المنطق والبرهان بقدر ما ينصت الى لغة القوة وصوت المدفع[٢٢] .

ومن المواقف المشهودة لصحيفتي الاخوان المسلمون ومصر الفتاة تصديهما للدفاع عن اشتراك مصر في حرب فلسطين خصوصا بعد ان ارتفعت بعض الاصوات المصرية التي تنتمي الى قطاعات البورجوازية الصناعية تستنكر المشاركة المصرية والتضحية بالشباب المصري في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل . وترد صحيفة مصر الفتاة على لسان احمد حسين قائلة باننا ما نظرنا في يوم من الايام الى قضية فلسطين باعتبارها قضية عربية بل باعتبارها قضية مصرية بحتة وان الوضع في فلسطين لم يعد يحتمل اي تهاون خاصة اذا نظرنا الى الخطر الذي يمثله قيام دولة يهودية على حدود مصر . وتتساءل الصحيفة ماذا سيكون الحال اذا قامت هذه الدولة واستمرت لبضع سنوات والدول الغربية تؤازرها هذه المؤازرة . اشهد ان هذا سيكون البلاء المبين[٢٣] . اما صحيفة الاخوان المسلمون فقد قامت بالرد على رئيس اتحاد الصناعات المصري الذي اعلن اشفاقه على الجيش المصري ونصح بالعمل على قبول الهدنة وهنا انبرت الصحيفة الاسلامية للدفاع عن واجب الشعب المصري والجيش المصري في الاسهام في الحرب المقدسة ضد الصهيونية . وحرصت صحيفة الاخوان المسلمون على كشف حقيقة العلاقة المريبة التي تربط بين باشوات مصر ورأسماليها بالشركات اليهودية وسادتهم البريطانيين . ونعت على الشعب المصري تعاسته وبؤسه في ظل وجود باشوات يتلهون بمشاهدة الدماء والاشلاء ولا بأس بأن يقوموا بدور القضاة والوسطاء ايضا[٢٤] .

---

٢١ ــ المصري ١٩٤٨/٦/١٢
٢٢ ــ انظر الاخوان المسلمون ١٩٤٨/٧/١٠ ، ١٩٤٨/١٠/٢٢ ، ١٩٤٨/١٠/٣٠
٢٣ ــ مصر الفتاة ١٩٤٨/١٢/١٠
٢٤ ــ الاخوان المسلمون ١٩٤٨/٥/٢٩ .

الشعب الفلسطيني ونظرية الثورة العربية

خيري عزيز

خبير بالشؤون العربية
في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في الاهرام
له العديد من الكتب ، ودراسات في « السياسة الدولية » .

ما هو قانون الثورة الشعبية العربية المعاصرة ، ثورة الجماهير الشعبية العربيةضدكل اشكال الوجود الاستعماري الاستيطاني على الأرض العربية من ناحية ،وضد كل اشكال الظلم الاجتماعي واستغلال الانسان لاخيه ، على اتساع الوطن العربي من ناحية اخرى ؟ ان هذا التساؤل لا يفترض قط معاملة الوطن العربي على اتساعه ، وتعدد اقطاره ، معاملة البلد الواحد ، في وضوح صراعاته ، وبساطة تحليل تطوره نسبيا . ذلك ان الوطن العربي ، كما اتضح ، ويتضح من مجمل تطوره ، هو ظاهرة اكثر تعقيداً من ذلك بكثير بسبب التفتت القطري لبلدانه من ناحية ، واختلاف درجة تطورها من ناحية أخرى ، واختلاف اوضاعها السياسية والاجتماعية من ناحية ثالثة . ومن هنا ، فان الثورة الشعبية العربية المعاصرة والآتية ، هي ظاهرة جديدة كل الجدة على الحركة الثورية العالمية ، لها طابعها المختلف عما سبقها من ثورات ديموقراطية شعبية ، ولها خصوصيتها الذاتية . فالثورات الهامة الكبرى التي سبقتها كانت تتم في بلد واحد فقط او اساسا سواء كانت هذه الثورات بورجوازية ، او اشتراكية . حدث هذا بالنسبة للثورة البرجوازية في انجلترا التي قامت في منتصف القرن السابع عشر تحت رداء الاصلاح الديني ، وبالنسبة للثورة الفرنسية الكبرى في اواخر القرن الثامن عشر ، والثورة الروسية في الربع الأول من القرن العشرين ، والثورة الصينية التي انتصرت عام ١٩٤٩ ، والثورة الكوبية التي انتصرت عام ١٩٥٩ الخ . وربما كان الوضع في الهند الصينية من ناحية التفتيت القطري الى فيتنام ، ولاوس ، وكمبوديا ، وتايلاند ، يحمل معه طابعا نسبيا من التشابه من هذه الناحية، ولكن مع الفارق، بالمقارنة مع أوضاع التفتت القطري في الوطن العربي. خاصة إذا عرفنا ان الحركة الثورية المضادة للاستعمار الياباني والفرنسي ، بدات في الواقع بحركة ثورية واحدة لكل الهند الصينية ، بحزب ثوري هندو ــ صيني واحد . وان كانت شبه الجزيرة وحركاتها الثورية قد قسمت الى عدة اقطار ، وعدة حركات ثورية قطرية ، تجري في الآونة الأخيرة محاولات لتوحيدها بزعامة الفيتناميين ، ومع فارق آخر ، هو ان الهند الصينية لم توحدها عوامل عديدة مشتركة ، كاللغة الواحدة ، والرابطة الدينية الواحدة ، والثقافة المشتركة ، وغيرها ، بالصورة التي وحدت بها ــ تاريخيا ــ الوطن العربي .

ومن هنا يمكن القول ان ظاهرة الثورة الشعبية العربية المعاصرة والآتية ، ظاهرة جديدة تماما في اتساعها وتباينها وتعقيداتها . وهي تختلف بكل تاكيد اولا عن الثورة البرجوازية في انجلترا ، التي حدثت في القرن السابع عشر تحت رداء الاصلاح الديني ، وحيث الصراع في سبيل حق الصلاة وفق كتاب صلوات معين ، على شكل صراع ضد الملك والارستقراطية والأمراء وكنيسة روما . وكان البريسبيتيريون والبيوريتانيون يعتقدون كل الاعتقاد بأنهم وضعوا مصالحهم الدنيوية تحت حماية السلطة الالهية التي لا تتزعزع . وكانت الاهداف التي تقاتل الطبقات الجديدة من أجلها تختلط في عقل هذه الطبقات مع نصوص من « التوراة » وعدد من الطقوس الدينية . إن وضعا شبيها بهذا الوضع غير موجود واقعيا على الساحة العربية. كذلك فليس هناك « باستيل » مركزي عربي ، تحطمه الطبقة الدنيا العربية ، على غرار « الباستيل » الفرنسي الذي تهاوى تحت معاول « عامة » باريس ، وتحت اقدام العمال والفلاحين الفرنسيين الذين كانوا جنود الثورة الكبرى ، التي اقتنص البرجوازيون ثمرتها . فليست الثورة العربية المنشودة ، بالثورة التي تستهدف دفع البرجوازيات الى السلطة ، لسبب وحيد ، هو أن البرجوازيات العربية وصلت بالفعل الى السلطة في معظم بلدان الوطن العربي .

ولن يتخذ شكل الثورة الشعبية العربية كذلك ، صورة « بتروجراد » عربية ذلك ان الوطن العربي لن يتم تحريره من السيطرة الصهيونية والاستعمارية ومن الاستغلال الاجتماعي والطبقي الداخلي ، باستيلاء العمال المسلحين وحلفائهم الجنود على السلطة في « عاصمة » عربية ، كما حدث في روسيا سنة ١٩١٧ عندما سقط النظام القيصري بسقوط العاصمة بتروجراد في ايدي الثوار . ولن يتكرر عربيا قيام اقلية مثل سكان بتروجراد ، البالغ عددهم انذاك مليوني نسمة من تعداد روسيا البالغ عندئذ ١٥٠ مليون نسمة ، هذه الاقلية التي كانت تمثل ١ / ٧٥ من تعداد الشعب ، والتي نابت عن كل الشعب في القيام بالثورة ، والتي لم يكن مظهر عملها هذا ينم عن اي ديموقراطية ، ومع ذلك حققت كما قال تروتسكي « اعظم ديموقراطية في التاريخ » ، مثل هذا التفجر الثوري في مجرد عاصمة ، ليس هو الطريق الذي سيسلكه الثوار العرب ، أو الذي يقود اليه الواقع العربي . ذلك ان ظروفا استثنائية هي التي جعلت روسيا تقوم بالثورة على هذا النحو ، وجعلت بتروجراد تشعل فتيلها . فقد كانت روسيا كما هو معروف عامة ، اضعف حلقة في سلسلة النظام الرأسمالي في اوربا ، وكانت تناقضاتها الداخلية أكثر تناقضات هذه الأنظمة الرأسمالية احتداما . كما كانت الطبقة العاملة الروسية والجنود في العاصمة على درجة كبيرة من الوعي الثوري ، ومؤهلين لتقبل اكثر الأفكار الثورية جرأة في نفس الوقت الذي كان يسود فيه بالعاصمة والبلاد نظام القمع القيصري المركزي بما كان يحمله معه من ردود افعال مضادة . وكان الفقر الروسي ايضا أكثر حدة ، فقد اضطرت الدولة الروسية تحت ضغط اوربا وتهديدها إلى أخذ جزء من الثروة العامة يفوق نسبيا الجزء الذي اخذه الغرب . وأدى ذلك الى القاء الجماهير الشعبية في بؤس مضاعف ، كما أضعف قواعد الطبقات المالكة حيث تزايد اقتراب الدولة الروسية من الأنظمة الآسيوية التسلطية . كذلك اتسمت روسيا عامة بضعف الطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة ، حيث عجز التجار الروس عن ان يشغلوا في الحياة الاجتماعية مكانا مشابها للمكان الذي شغلته في الغرب البورجوازية المتوسطة والصغيرة لتجمعات الحرفيين والتجار والصناعيين .

وساعد على تفجر الثورة الروسية بهذه الصورة ، التركيز الواضح للصناعة حتى بالنسبة الى البلدان الغربية المتقدمة أنذاك ، فعلى الرغم من حالة التخلف التي كانت سائدة في الاقتصاد الروسي

عامة ، إلا ان تقنية الصناعة الروسية وبنيتها الراسمالية كانت ترتفع الى مستوى البلاد المتقدمة وتتجاوزها في بعض المجالات . اي ان تركز الطبقة العاملة الروسية كان بارزا بصورة خاصة ، مما جعل منهم قوة في بتروجراد وخاصة بعد ان تسلحوا . ونجد بهذا الصدد انه بينما كانت المشروعات الصغيرة التي لا تتجاوز اليد العاملة فيها ١٠٠ شخص تضم في الولايات المتحدة ذاتها في عام ١٩١٤ حوالي ٣٥٪ من مجموع العمال الصناعيين ، فانها لم تكن تضم في روسيا اكثر من ١٧٪ منهم . وكانت المصانع التي تضم اكثر من الف رجل تستخدم في الولايات المتحدة الامريكية ١٧,٨٪ من مجموع العمال على حين انها كانت تستخدم في روسيا ٤١,٤٪ . وكانت الصناعة الروسية تتسم بنفس الصفة اذا قورنت بالصناعة البريطانية او الالمانية(١) . وقد كان التركيز الواضح للصناعة هذا ، يدل على انعدام اي تسلسل وسطي بين الأوساط الراسمالية العليا ، والجماهير الشعبية . كذلك استطاعت روسيا ان تتجاوز نقطة الضعف التي عانت منها العديد من الثورات ، وهي نقطة الحزب بصفة خاصة . فقد توفرت لها قيادة ثورية استثنائية في شخص لينين ، كما وجدت البروليتاريا الروسية على راسها حزبا موهوبا ايضا بصورة استثنائية ويتميز بالوضوح السياسي وبتجربة لا مثيل لها بفضل مزج ملائم للشروط التاريخية الداخلية والدولية . على هذا النحو امكن تفجير الثورة الروسية ، بانتفاضة بتروجراد المسلحة ، بسبب نجاح الشعب الروسي في تجاوز نقطة الحزب وهي اضعف الحلقات في سلسلة الشروط حتى الآن في كل الثورات عامة ، كما يشهد التاريخ على ذلك بدءا من كومونة باريس ، والثورتين الالمانية والنمسوية في عام ١٩١٨ ،وسوفييتات المجر وبلغاريا ، والثورة الايطالية عام ١٩١٩ ، والازمة الالمانية في عام ١٩٢٣ ، والثورة الصينية في سنوات ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ ، والثورة الاسبانية عام ١٩٣١ ، حيث كان دائما اصعب شيء للطبقة العاملة هو انشاء تنظيم ثوري على مستوى مهامها التاريخية .

ولذا فبوجه عام من المؤكد ان ظروفا مماثلة لتلك الظروف غير قائمة في الوطن العربي او في عدد من بلدان اليوم .

ولن تكون هناك ايضا « مسيرة كبرى » عربية ، لأن الواقع العربي الراهن والمقبل يختلف عن واقع صين ما قبل الثورة، وواقع تطور الثورة الصينية: فقبل ماوتس تونج، كانوا يتندرون في أوربا والعالم بأن قوة الصين « تعادل قوة الاسطول السويسري » اي صفر ، لأنه لا وجود للأسطول السويسري في الحقيقة . اما العرب فيملكون على اقل تقدير في النفط سلطة استراتيجية بالغة الاهمية عالميا ، غير عوامل قوتهم الكامنــة الأخرى بما فيها المقومات الراهنة لقوتهم العسكرية .

كذلك كان الاستقطاب الطبقي الواضح بين كبار ملاك الأراضي والبورجوازية الكبيرة الصينية من جانب ، والفئات الكادحة والمعدمة من جانب آخر،مع ضعف الطبقة المتوسطة سمة اخرى مميزة للصين . وهو امر يختلف عن واقع العالم العربي اليوم . ولقد دفع الوضع المذكور في الصين بعض المحللين الى القول بأنه لم يكن يوجد في الصين طبقة متوسطة ، وكل ما كان يوجد هو الفقراء جداً من ناحية والاثرياء جدا من ناحية اخرى ، الأمر الذي كان راجعا الى الازدياد المطرد لافلاس الفلاحين ، كلما ازداد تركيز الثروة والأراضي لدى الاقطاعيين والمرابين نتيجة الانهيار الكامل لنظام الملكية

---

(١) ليون تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ــ الجزء الاول ــ ترجمة الهيثم الايوبي واكرم ديري المؤسسه العربيه للدراسات والنشر . بيروت الطبعة الاولى اكتوبر ١٩٧١ ص ٥٠ ــ ٥١ .

المتوسطة . ولم يحل عام ١٩٣٥ إلا وكانت الصين كلها ملكا لاربع اسر ، اسرة تشيانج كاي شيك ، واسرة سونج وهي اسرة زوجته، واسرة تونج ، واسرة تشن. وكانت الأسر الأربع تقتسم فيما بينها السيطرة على المصارف الحكومية الأربعة ، وعن طريقها تسيطر على جميع الأعمال المصرفية في الصين ، ومن ثم على الاقتصاد الصيني بأجمعه . واحتكرت الأسر الأربع سوق الأرز والقطن وصناعة الدخان ، كما احتكرت تحديد الأسعار والحصص عن طريق مكتب حزب الكومنتانج في نانكين ، وعقدت قروضا مع المصارف الخارجية واحتكرت السيطرة على صناعات الصلب والصناعات الهندسية وصناعة العدد والآلات الناشئة ، وأخيراً اشترت الأسر الأربع اراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب بابخس الأثمان . ولا نعتقد ان وضعا مماثلا لهذا الوضع قائم في الوطن العربي اليوم .

وقد كانت الثورة الصينية ايضا ، ثورة ارياف حاصرت المدن واسقطتها . ولم تكن ثورة مدن او عاصمة مركزية . ولقد فشل تشن توهسيو ولي لي سان ، الزعيمان اللذان قادا الحزب الصيني قبل ماو ، ودفعا بالحزب الى نكسات خطيرة في الفترة من ١٩٢٧ ــ الى ١٩٣٠ ، بمحاولة تكرار بتروجراد اخرى في شنغهاي ١٩٢٧ . وبعدم ثقتهما في استراتيجية المناطق المحررة الريفية التي تؤدي في النهاية الى حصار المدن واسقاطها ، واعتمادهما الاستراتيجية القائمة على التركيز على العواصم الاستراتيجية الكبرى مثل شنغهاي ، وتشانجشا ، ووهان ، ونانتشانج بشن هجمات صاخبة عليها من الخارج ترافقها تمردات بالداخل . ولكن مع ترك المؤخرة مفتوحة امام العدو خلال هذه التحركات المغامرة ، وهي الاستراتيجية التي ثبت فشلها التام وعقمها ، قبل ان ينتصر خط ماو في الحزب الصيني .

وقد يقول قائل ان احد اوجه التشابه بين وضع البلاد العربية والصين ، هو تجزئة الصين ، وانقسامها الى مقاطعات مستقلة تقريبا ، يحكمها « امراء حرب » يفرضون عليها انظمة مختلفة جدا ، وهو الأمر الذي كان احد الأسباب الرئيسية في اخفاق انتفاضات ١٩٢٧ حسبما ادرك ماوتسي تونج خاصة وان واقع التجزئة والتفتت القطري يسود الوطن العربي مشرقا ومغربا حتى اليوم . إلا ان الظروف العامة التي احاطت بهذه التجزئة وهذا التفتت في الصين ، اختلفت تماما ، بل وكانت على نقيض التجزئة والتفتت العربيين وفي الواقع فلقد كانت هذه التجزئة فرصة كشف فيها ماوتسي تونج عن ابرز سمة في الديالكتيك الذي يستخدمه، وهو قدرته على تحويل الاشياء السيئة الى اشياء حسنة ، والظروف غير المواتية الى ظروف مواتية . فقد تحقق ماوتسي تونج من ان السلطة المحلية في الصين تضعف كلما ابتعدنا عن مركز المقاطعة ، إلى ان تصبح في مناطق الحدود بين المقاطعات ، لا وجود لها عمليا(٢) . ولذا فقد شكل هذا الوضع فرصة رائعة استغلها ماوتسي تونج بابداع خلاق عندما كون الفرق الثورية المسلحة في مناطق الحدود بين المقاطعات الصينية ، وحيث تكون السلطة المركزية اضعف ما تكون .

وهذا الوضع يختلف تماما عن الوضع في الوطن العربي ، لأن مناطق الحدود بين مختلف الاقطار العربية ، كانت عامة اكثر المناطق تحصينا من الوجهة العسكرية ، وتقف فيها القوات المسلحة لكل بلد حارسة لحدودها القطرية ، وكانت ــ تقليديا ــ مناطق تركيز وحشد للقوة العسكرية

---

(٢) ك س . كارول صين ماو (او الشيوعيه الاخرى) ترجمة دومان مرموط . دار الاداب بيروت ص ٥٩ .

التي كثيرا ما اشتبكت في صراعات قطرية مسلحة ادت الى تعميق التجزئة والتفتت القطريين . ولقد كان تصور ماوتسي تونغ اصيلا جداً ومتسقا جداً مع السمة الخاصة التي تنفرد بها الصين . ذلك ان مناطق الحدود في القارات الاخرى ، ولا سيما في أوروبا ، وكما أشرنا بالنسبة للمنطقة العربية ايضاً هي التي تكون في الحقيقة أكثر المناطق تحصينا وأصعبها في الركون اليها . وعلى عكس ذلك في الصين كما أشرنا إذ كانت هذه الأماكن هي التي استطاع فيها النظام الجديد ان يقوم بكل سهولة . وكان ماوتسي تونغ يشرح باستمرار بأن توطيد هذه المناطق يستلزم بالضرورة تكوين جيوش ثورية فيها ، لأن الكفاح السياسي في الصين ، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالكفاح المسلح .

وفي الوقت الذي لم يكن فيه للثوار الصينيين عام ١٩٢٨ سوى قاعدة واحدة على حدود كيانجس ــ هونان بالقرب من جبل شينج ــ كانج شان اصبح لهم في عام ١٩٣٠ عشر قواعد مماثلة في مناطق حدود مختلفة بين المقاطعات . واقترح ماوتسي تونغ وشوته بعد ان اقاما قاعدتهما في جبل شينج ــ كانج ــ شان اكتساح الارياف بعملية صبورة تقود اذا ما تحققت الى تطويق المدن على المدى البعيد لتتساقط كالثمار اليانعة .

كذلك فهناك فارق اخر يتعلق بالخصم ، فلقد كانت اليابان خصم الصين انذاك والتي احتلت مساحات كبيرة من اراضيها قوة بحرية لم تستطع ان تعزل وتحاصر شمال غرب الصين ، وجنوب غرب الصين . في حين ان اسرائيل قوة برية ــ جوية استطاعت ان تفصل بريا بين مشرق الوطن العربي ومغربه لعدة عقود حتى الآن .

كذلك لن تاخذ الثورة الديموقراطية الشعبية العربية ، صورة هجوم على ثكنة « مونكادا » عربية ، كما فعل فيدل كاسترو مفتتحا بذلك طريق الثورة الكوبية،ذلك ان اي هجوم او صدام لرجال حرب العصابات العرب ، على ثكنات الجيوش النظامية العربية ، لا يمثل واقعيا ، المفتاح المؤدي لتصاعد ثورة شعبية عربية ، او لتحقيق مكاسب متصاعدة في النضال للتحرر من الاستعمار الاستيطاني في قلب الوطن العربي . ولن تأخذ الثورة الشعبية العربية ايضا ، تلك الصورة المبسطة ولكن البطولية والجسورة بكل تاكيد ، صورة عشرات المقاتلين من رجال حرب العصابات يحملهم يخت « جراغا » عربي الى شاطىء الكفاح ، او يتحصنون في « سييرا مايسترا » عربية ، لا وجود لها في الواقع الطوبوغرافي العربي ، على غرار الجبال التي شكل فيها كاسترو وجيفارا ، وراؤول ، وجوان الميدا ، وكاميلو سيينفويجوس وحداتهم المسلحة الأولى ثم طوابيرهم المسلحة التي اقتحمت سانتيا جو دي كوبا وهافانا واسقطتهما في ايدي الثورة الشعبية .

وليس ثمة شك ايضا ان القاعدة الاجتماعية للثورة في الوطن العربي التي ستاخذ صورة تحولات ثورية قطرية متتالية تشبه الى حد كبير نظرية الدومينو في اسيا عموما وجنوب شرقها خصوصا ، هذه القاعدة الاجتماعية المركبة المتباينة في درجات تطورها ونضجها على اختلاف وتباين الاقطار العربية انما تختلف عن القاعدة الاجتماعية البسيطة للثورة الكوبية . فلقد كانت القاعدة الاجتماعية للثورة الكوبية تتمثل باختصار في ٦٠٠ الف عاطل عن العمل (٢٠٪ من السكان القادرين على العمل) ، و٥٠٠ الف عامل زراعي و٤٠٠ الف عامل صناعي وصانع ، و١٠٠ الف فلاح لا ارض لهم و٢٠ الف معلم يتقاضون مرتبات سيئة ، و٢٠ الف تاجر صغير تسحقهم الديون و١٠ الاف خريج جامعة لا عمل

لهم[٣] . وفضلا عن ذلك فان الملكية الزراعية الصغيرة والمتوسطة كانت ضئيلة في كوبا ، وانما كانت هناك الملكيات الزراعية الضخمة لكبار الملاك وللشركات الزراعية الامريكية والتي كانت مجالا لخلق تجمعات زراعية كبيرة . وكانت التبعية لامبريالية الولايات المتحدة تبعية تامة ، وكان الامريكيون يتحكمون في ١,٢٠٠,٠٠٠ هكتار من الأراضي (٢٥٪ من أصلها من المساحات الزراعية الكبرى) كما كانت الجماعات المالية الامريكية تتحكم في الطاقة الكهربائية ، وصناعة الحليب ، وكذلك الوقود ، وكل الائتمان المصرفي تقريبا ، وكان القسم الأعظم من الانتاج صادرا عن الملكيات الكبيرة ، لأن المالك الصغير او المستثمر الصغير على الطريقة الأوروبية قد اختفى من كوبا منذ اوائل القرن العشرين ، وكان العمال الزراعيون في المزارع الكبيرة قد تشبعوا بعادات جديدة متأثرة بنضال الحركة النقابية ، وبأسلوب بروليتاري في الحياة .

كذلك لن تتخذ الثورة العربية مجرد صورة الاتحاد بين الطالب الثوري والفلاح الفقير مثلما حدث في « السييرا » الكوبية ولن يكون شكل تحركها في البداية على اقل تقدير هو دفع الفلاحين في هذا القطر العربي ، او ذاك الى الثورة باعتبار ذلك سبيلا الى تفجير ثورة شعبية إذ سيؤدي ذلك في الواقع العربي الراهن الى فشل ذريع ، حيث تعد الأرياف العربية عامة ، وخاصة في الاقطار الرئيسية ، مناطق سكون ثوري تحتاج الى جهد كبير لجذبها الى المسرح الفاعل للاحداث ، والى جهد خارق للارتقاء بها الى مستوى المشاركة الفعالة في التطلعات الوطنية والثورية القومية .

واذا كان التوصل الى قانون حركة كل ثورة من هذه الثورات المذكورة ، وبصفة محددة الثورات الديموقراطية الشعبية ، التي حدثت كل منها في بلد واحد فقط قد مثل مشكلة كبـرى ، تعين على الطلائع الثورية في كل من هذه البلدان ، ان تحلها بالصورة التي تتفق مع خصائص الثورة في كل بلد ، ومن أجل ان تصل الى ختام ظافر لها ، لذا تصبح المهمة المطروحة على الثوريين العرب اكثر تعقيداً من ذلك بكثير ، إذا كان يتعين عليهم ان يكتشفوا ، او على اقل تقدير ، ان يتبينوا معالم بوادر الطريق الثوري ، الكفيل باجراء تحويل ثوري شعبي جذري بين شعوب امة ، تعيش في ٢١ بلداً ، ومن هنا نقول ان الفارق بين ثورة تحدث في بلد واحد مع كل تعقيداتها وثورة من المفروض ان ينتظم في سلكها النهائي ٢١ بلداً ، انما هو فارق كبير يعكس سمات التعقيد والتركيب بل والتناقض احيانا ، والتي تتسم بها بصورة استثنائية وفريدة حركة الثورة الشعبية العربية المعاصرة .

وبصدد حركة الثورة العربية نقول في محاولة اولية لتلمس بعض معالم الطريق الثوري الذي تختطه الأمة العربية ، انه إذا كان من المسلم به في الكلاسيكيات السياسية العلمية ان الدور الطليعي في تفجير الثورات الشعبية الحقيقية التي تتبنى طريق الاشتراكية العلمية تقوم به البروليتاريا ، وطليعتها المتمثلة في حزب الطبقة العاملة عامة : فان تفجير الثورة الشعبية العربية ضد الاستعمار الاستيطاني ، وضد الظلم الاجتماعي في الوطن العربي عامة ، لم يكن منوطا بأي طبقة بروليتارية عربية ، ولا بأي حزب طليعي للبروليتاريا في هذا القطر العربي او ذاك . وانما نعتقد في الواقع ان تفجر حركة الثورة الشعبية العربية ، قد حدث على ايدي طليعة ثورية ، لنضالها مغزى ابعد من ان يكون قطريا ، قد تفجر على ايدي الحركة الثورية المسلحة للشعب الفلسطيني ، واقصد بصفة محددة ،

---

(٣) سانتيرير تيتسينو، تاريخ الثورة الكوبية ، ترجمة د. فؤاد ايوب ، دار الحقيقة للطباعة والنشر في بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٥٢ .

طليعتها المتمثلة في حركة التحرر الوطني الفلسطيني (فتح) التي اعقبتها فيما بعد فصائل ثورية مسلحة اخرى لنفس الشعب . على هذا النحو نجد بالنسبة لمسار الثورة الشعبية العربية المعاصرة ، ان الدور الطليعي الذي تلعبه البروليتاريا وطليعتها الحزبية ، على مستوى الشعب الواحد ، يلعبه الشعب الفلسطيني وطليعته المسلحة على مستوى الأمة العربية المتعددة الشعوب . واذا كانت البروليتاريا هي الطبقة الطليعية للكفاح الثوري لشعب ، فان الشعب الفلسطيني كوحدة هو المجموعة البشرية الطليعية للكفاح الثوري للأمة العربية . الشعب الفلسطيني باختصار هو . بروليتاريا الأمة العربية .

ونحن لا نريد بهذه الصفة ان نفرض سمة طوباوية على نشاط هذا الشعب وعلى الوجود الاقتصادي لمختلف فئاته خاصة وان مختلف القطاعات البرجوازية الفلسطينية تنتشر على اتساع ارجاء الوطن العربي ، والعالم عامة ، وانما نحاول ان نتبين الموقع الحقيقي لكفاح هذا الشعب من أجل استعادة وطنه وحريته ، في طوبوغرافيا الكفاح الثوري العربي العام من أجل التحرر من وطأة الاستعمار الاستيطاني المغروس في قلب الوطن العربي ، والذي استنزف ودمر ، ويستنزف ويدمر ، الكثير من طاقاته الماضية والحاضرة ، ويخطط لتدمير واستنزاف طاقاته المقبلة والحيلولة دون تقدمه وازدهاره ، الذي يشكل في حد ذاته ، خطراً أي خطر على الوجود الاستعماري الاستيطاني برمته .

ومن هذه الزاوية نقول ان مصير الكفاح الثوري لأي بروليتاريا قطرية عربية ، مع اهميته البالغة بالنسبة للتطور الثوري في القطر العربي المعين ، إلا انه لا يتسم باي حال باهمية مصيرية بالنسبة لمستقبل كل الكفاح الثوري العربي ، مثلما يتسم من هذه الناحية ، مصير الكفاح الفلسطيني المسلح .

والواقع ان قولنا ان الشعب الفلسطيني هو بمثابة بروليتاريا الأمة العربية لا يعني بالضرورة انه اكثر الشعوب العربية فقرا وانقاعاً او الشعب الذي يحتل موقع القاع من ناحية الدخل السنوي للفرد من السكان في داخل الوطن العربي ، فالذي يحتل هذا الموقع في الواقع هو الصومال الذي يبلغ متوسط الدخل الفردي السنوي فيه ١١٠ دولارات بالمقارنة مع اعلى دخل للفرد من السكان في الكويت والامارات والذي يزيد عن ١٥ الف دولار في العام . ولكن الفرق في الدخول بين أعلى دخل عربي ، وأقل دخل عربي لا يجعل من الصومال البلد أو الشعب الأكثر ثورية في الوطن العربي . فحد الفقر لا يمثل بالضرورة ، وبصورة ميكانيكية ، حد الثورية . ولأن الشعب الصومالي ، قبل وبعد كل شيء لم يتعرض لمثل تلك المأساة الفريدة تاريخياً ، مأساة الفقدان التام للوطن والأرض ، ولم يكن الضحية وكبش الفداء لمخطط استعماريٍ كبير يستهدف منطقة بأسرها .

والواقع انه يمكن ان يقوم تماثل ما بين احد الظروف التي احاطت بالثورة والبناء الاشتراكي في شبه الجزيرة الكورية بعد حرب التدخل الامريكية من ١٩٥٠ الى ١٩٥٢ وبين الظروف التي نجمت عن اغتصاب فلسطين . فلقد ادى المستعمرون الامريكيون بتدمير كل صور الوجود المادي في كوريا الشمالية ، الى خلق وضع ثوري ، بل واكثر ثورية من حيث لا يريدون ، فبتحقيقهم لجميع اهداف التدمير المادي التي ابتغوها ، حطموا معهم كل شكل مادي لوجود الطبقات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وحطموا اقتصاد اغنياء الفلاحين . وفي نهاية الحرب عام ١٩٥٢ عندما لم يكن هناك حجر قائم على حجر تقريبا في هذه الجمهورية ، اصبح الجميع بروليتاريين . وبالطبع ، فلم يكن من مهام

القوى الثورية في كوريا الشمالية ان تعيد بناء اقتصاد البرجوازية الصغيرة والمتوسطة الذي دمر من جراء الحرب ذاتها .

ويفسر الزعيم الكوري كيم ايل سونج هذه الظاهرة فيقول : « خرب الامبرياليون الأمريكيون ليس فقط مساكن العمال والفلاحين وممتلكاتهم ، بل ودمروا تماما ايضا اقتصاد اصحاب الأعمال الصغار والمتوسطين والفلاحين الأغنياء . ازالت بعض الشعوب الأخرى ابان ثوراتها الاشتراكية الراسماليين والفلاحين الاغنياء بصفتهم طبقات ، عن طريق نزع ملكيتهم عن ممتلكاتهم ، اما نحن فلم تكن لنا حاجة بهذا . كنا منذ ما بعد التحرر مباشرة قد اتبعنا سياسة متسقة على اساس تشجيع اقتصاد رجال الأعمال الصغار والمتوسطين . في وسع رجال الأعمال الصغار والمتوسطين ان يقاتلوا الامبريالية الى جانب العمال والفلاحين . وفوق هذا ، كان لزاما علينا ان نحمي راس المال الوطني في وضعنا حيث لم تكن الصناعة بالغة النمو . غير ان اقتصاد الراسماليين الصغار والمتوسطين والفلاحين الاغنياء ما دام قد دمر تماما من جراء الحرب ، فلم تكن ثمة ضرورة لدى حكومتنا ان تعني ببعثه »[٤] . واضاف كيم ايل سونج قائلا في نفس الصدد . « وعندما اصبح كل شيء دمارا من جراء الحرب ، لم يعد ثمة فرق بين رجال الأعمال الصغار والمتوسطين والحرفيين في المدن ، بهذا المعنى صار كل فرد بروليتاريا كان عليهم ان يضموا جهود بعضهم الى بعض ويسيروا على طريق الاشتراكية . كان هذا سبيلهم الوحيد للبقاء .. » وقال فيما بعد . « اما فيما يخص اصحاب الأعمال الصغار والمتوسطين والفلاحين الأغنياء ، فقد اخترنا طريقا فذا ايضا هو ضمهم في التعاونيات واعادة تكوينهم على نمط اشتراكي ، نظرا لأنه لم تكن ثمة حاجة لنزع ملكيتهم » .

وبالطبع ، فاننا لا نقول بوجود تماثل ميكانيكي بين الظروف التي جرت بها الثورة الكورية بعد حرب التدخل الامريكي ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ ، وبين ظروف الثورة الفلسطينية ، وانما اردنا ان نشير الى فعل التدمير المادي في القضاء على البيئة المادية التي تفرخ طبقات برجوازية باسرها ، وتحويل شعب باسره الى مجموعة من البروليتاريين .

اما في حالة فلسطين فلم يكن التدمير المادي هو الذي ادى الى فقدان شعب باسره ، بكافة طبقاته العاملة والبورجوازية ، لكل اراضي بلاده ،ولمساكنه وممتلكاته ، وانما كان الاغتصاب بالقوة المسلحة هو الذي لعب دوره هنا في تحقيق ذلك . واذا كان قدر التدمير الذي احدثه الاسرائيليون والصهاينة للمناطق والمدن والقرى والممتلكات العربية التي اغتصبوها يعد محدودا ، إذا قورن بالدمار الشامل الذي الحقه الامريكيون بكوريا الشمالية ، مثلا ، إلا ان الاغتصاب ونزع الملكية في فلسطين ، كان اغتصابا كاملا لوطن باسره طرد منه جزء كبير من شعبه بفعل المذابح والتخويف والارهاب الدموي . يقول الدكتور فايز صايغ في حديث ادلى به للتليفزيون الامريكي « ان كل اسرائيلي يعيش الآن في اسرائيل ، انما يعيش في منزل شخص عربي لم يتلق تعويضا عن ممتلكاته ، وكل اسرائيلي يعيش في اسرائيل ، انما وجد هناك ، لأن عربيا قد طرد من ارضه »[٥] . ومن هنا فهي ليست عملية تحويل بروليتاري عن طريق تدمير الممتلكات ، وانما عن طريق نزع ملكيتها بالقوة .

---

(٤) كيم ايل سونج، حول بعض المسائل ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ٩ ـ ١٠ .

(٥) د . فايز صايغ : القضية الفلسطينية في حديث في التلفزيون الأمريكي . دائرة المطبوعات والنشر وزارة الثقافة والاعلام الاردنية . عمان نوفمبر سنة ١٩٧٠ ، ص ١٩

وفي الحقيقة فلقد دمر المستعمرون الأمريكيون في كوريا اهدافا مادية شاملة ، فدمروا معها شكل ملكيةمعينةفحسب ، شكل علاقة انتاج اجتماعية معينة فحسب ، ولكن الشعب هناك ، احتفظ بوطنه،باستقلاله ، بسيادته على ارضه ، اما في فلسطين ، فحدث ما هو اخطر من ذلك ، إذ تم انتزاع الممتلكات والأرض ، واغتصاب وطن بأسره ، ومحو وجوده من خريطة العالم ، ورايته من قوائم الاعلام .

واذا كانت البروليتاريا والطبقة العاملة في كل قطر عربي ، كسائر الطبقات العاملة في مختلف بقاع العالم ، تتعرض للاستغلال عن طريق ما تقدمه من « فائض قيمة » اقتصادي ، فـان الشعب الفلسطيني العامل الذي يشاركها هذه الصفة ، دفع ويدفع فوق ذلك ، ووفقا لنسبته العددية ، ضريبة اضافية أخرى من الأرواح البشرية هي « فائض قيمة » سياسي من نوع جديد يدفع ثمنا مضاعفا للمخطط السياسي والاقتصادي الاستعماري الصهيوني الموجه ضد الأمة العربية بأسرها ومشرقها بصفة خاصة ، وثمنا لموقع فلسطين الجيوبوليتيكي في قلب الوطن العربي ، ثمنا « لتوسطها في اكثر اقاليم العالم القديم توسطا » كما يقول د . هـ . كول ° وثمنا لكونها تلك «الشوكة على حزام العالم » كما قال كيبلنج .

وحتى على مستوى القيادات السياسية العليا ، ووفقا للنسبة العددية ، او حتى بدونها لن نجد هيئة اركان عربية او قيادة او حكومة ، او مجلس وزراء عربي ، قدم من صفوف ابرز كوادره العدد من الضحايا الذين قدمتهم الثورة الفلسطينية تحت تلك الأسماء البطولية الشهيدة : محمد يوسف النجار ، كمال ناصر ، كمال عدوان ، ابو علي اياد ، غسان كنفاني ، ابو حسن سلامة ، محمود الهمشري ، وغيرهم وغيرهم .

ونجد ايضا انه إذا كانت كل طبقة عاملة عربية تعمل في مختلف مجالات العمل والبناء القومي ، تقدم يوميا « فائض القيمة » الاقتصادي هذا دخلا صافيا لمن يستغلونها ، فان الاخيرين يدفعون لها على اي حال الأجور الكفيلة بالابقاء على حياتها لضمان سير المصالح الاقتصادية ولضمان الحصول على سيل يومي متزايد التراكم من فائض القيمة . وبينما نجد الحفاظ على حياة ووجود هذه الطبقات العاملة العربية ، امرا قائما ومطبقا في كل السياسات العربية القطرية إلا اننا نجد ان الشعب الفلسطيني وخاصة في المخيمات مواجه بمخطط مناقض تماما ، مخطط للمطاردة والتهجير ، والتصفية الجسدية والابادة .

وبعد ، وعلى هذا النحو ، فانه حتى الطبقات العاملة العربية ، البروليتاريات العربية التي تمثل في عرف التحليلات السياسية العلمية ، اكثر الطبقات ثورية ، واكثرها تعرضا للاستغلال والاضطهاد محاطة في مجتمعاتها بضمانات بقاء ، وبضمانات امن تحت حماية دروعها القطرية النظامية المسلحة ، ولكن انسان المخيم الفلسطيني معرض دوما لمخططات القصف والافناء .

وتتم هذه المخططات احيانا على ايدي بعض القوى العربية المحلية في الحروب الاهلية العربية ، او على ايدي سلاح الطيران الاسرائيلي والقوات الاسرائيلية عامة احيانا اخرى . ويكاد يكون هناك قانون متتال لمخطط الابادة الموجه ضد الشعب الفلسطيني هو ان اسرائيل تترك المجزرة ضده تستمر لاقصى مداها ، طالما تدور رحى الحرب الاهلية العربية ، ثم تشرع هي في الاضطلاع بعمليات القصف تحت مختلف المزاعم ، من أن تضع الحرب الاهلية اوزارها . ومن هنا كان مخطط « الابادة »

الاسرائيلي للفلسطينيين ، هو عملية قصف مستمرة بين كل حربين اهليتين عربيتين .

كل ذلك جعل الشعب الفلسطيني ، بما فيه قطاع كبير من عناصره البرجوازية بمختلف فئاتها . اكثر الشعوب العربية تاهلا لقبول وتشرب الافكار الثورية ، جعله ببساطة ، اكثر الشعوب العربية ثورية وبطولة ووعيا سياسيا .

ولقد انعكس ذلك الوضع بالطبع على الشكل الكفاحي الذي اختطه الشعب الفلسطيني لنفسه ، شكل الكفاح المسلح وهو شكل كفاحي ، لم يختطه او يسلك سبيله بصورة عامة اي حزب ممثل لاي بروليتاريا عربية . إذ لم تدفع الظروف بعد ، اي طبقة عاملة عربية لان تلجأ لمثل هذا الشكل الكفاحي الصعب الحاد ، ولم يتطلب كفاحها داخل حدودها القطرية بعد ، اشكالا اكثر نضالية من اشكال الكفاح النقابي الاقتصادي او الكفاح الحزبي السياسي المدني عامة . ولا اعتقد ان ايا من الاحزاب الممثلة او التي تدعي لنفسها حق تمثيل الطبقات العاملة في اي قطر عربي ، يستطيع ان يزعم ان نضاله القطري يمثل طليعة للنضال الشعبي العربي ، مثلما يمثل الكفاح المسلح الفلسطيني ذلك ، وان كان كفاح هذه الأحزاب الذي يكتسب من الناحية الواقعية ـ مغزى قطريا في المحل الاول ، يسهم دون شك بصورة غير مباشرة في محصلة المجرى العام للنضال العربي القومي ومن هنا يمكن القول ، ان حركة فتح التي اشعلت شرارة الثورة الفلسطينية المسلحة في الاول من يناير عام ١٩٦٥ ، قد مثلت طليعة الثورة الشعبية العربية المعاصرة ، ولقد كان نضال فتح ، الذي اعقبته فصائل فلسطينية ثورية مسلحة اخرى « نقلة » جديدة في النضال الثوري العربي ، مثل بداية مرحلة كيفية جديدة .

ولا نستطيع على سبيل المثال ، ان نقارن تلك الاضافة الكيفية بالنضال السياسي التقليدي والثوري الذي خاضه او يخوضه حزب طليعي كالحزب الشيوعي الاردني مثلا على كثرة ما قدم من تضحيات ومواقف وطنية مشهودة .

إن القيمة الثورية والمكانة الطليعية للكفاح الفلسطيني بالنسبة لمجرى النضال العربي العام ، انما تنبع بالتحديد من كونه كفاحا مسلحا ، ومفجرا لثورة الجماهير الشعبية العربية ضد الاستعمار الاستيطاني وكل انواع القهر الاجتماعي والطبقي . فالشكل المسلح هو الشكل الذي اتخذته الثورات الحقيقية الكبرى ، التي كانت ـ تاريخيا ـ اعمالا مسلحة فلقد كانت الثورة الانجليزية في القرن السابع عشر ثورة مسلحة ، وكانت الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ثورة مسلحة ، وكانت الثورة الروسية انتفاضة مسلحة ، وكانت الثورة الصينية كفاحا مسلحا ، وكذلك كانت الثورة الكوبية والفيتنامية والكورية ثورات مسلحة . وان الثورة العربية هي ايضا ليست استثناء من كل ذلك ، وانها لكذلك ثورة مسلحة .

وعلى عكس الفكرة الماركسية التي تقول انه من السهل ان تبدا الثورة في اطراف العالم البرجوازي لا في المركز او القلب ، فان الثورة الفلسطينية تفجرت في مركز الوطن العربي وقلبه . وذلك ان الضربة الاستعمارية الاستيطانية الاشد عنفا كانت في القلب والمركز ، في فلسطين التي كانت اكثر حلقات السلسلة العربية تفجرا بعوامل الثورة. وهكذا نجد انه على خلاف الثورات الاخرى التي شبت في اطراف العالم البورجوازي مثل الثورة الروسية التي شبت في ذلك الطرف الشرقي النائي للعالم البورجوازي الأوروبي او الثورة الصينية التي تفجرت طلائعها في الاطراف النائية للاقاليم الصينية ، تفجرت الثورة العربية في المركز ، وتلك سمة خاصة اخرى من خصوصيات الثورة العربية .

والواقع ايضا ان الثورة الفلسطينية ، والقضية الفلسطينية بمتد اعياتها من صراع عربي — اسرائيلي ، لا تلعب دورا تحرريا فحسب ، وانما دورا توحيديا كذلك بالنسبة لشعوب الآمة العربية . ففي حرب اكتوبر/ تشرين الاول ۱۹۷۳ ، اشتركت في القتال في جبهتيه الجنوبية والشمالية ، قوات مسلحة من اقصى غرب الوطن العربي (من المغرب والجزائر) ومن اقصى شرقه (من العراق) . ومن هنا يكون الصراع التحريري العربي ، هو في نفس الوقت صراع توحيدي . وهي سمة تقترب فيها الثورة العربية ، بوجه من الوجوه من الثورة الصينية ، حيث لم يؤد الكفاح المسلح الذي قاده الحزب الصيني الى تحرير الصين فحسب ، وانما الى توحيدها ايضا تحت قيادة مركزية واحدة بعد ان كانت لقرون طويلة نهبا للتمزق والانقسامات والصراعات الداخلية ، والمطامع الاستعمارية .

ونجد من ناحية أخرى ان هناك ظرفا ذهبيا ساعد على بقاء واستمرار الثورة الفلسطينية الا وهو التطور غير المتكافىء للبلدان والدول والانظمة العربية ، والتناقضات التي تنشأ فيما بينها ، والتي لا تتيح لأحد اطرافها ، منفردا ، حتى اذا رغب في المساومة والتهادن بل والخضوع للعدو ، ان يتمكن من اخماد الكفاح المسلح الفلسطيني وقطع رقبة الثورة الفلسطينية كثمن لاستمرار وجود هذا النظام العربي وبقائه بالطبع فلقد استطاع نظام عربي او آخر ان يوجه ضربات للثورة الفلسطينية ، لكنه لم يستطع بفضل معارضة وكشف وتصدي الأنظمة العربية الاخرى ان يجهز على هذه الثورة . بل يمكن القول ان نظاما عربيا لن يستطيع انجاز مثل هذه الجريمة الوحشية والخيانية ، دون ان يؤدي الى تدهور مراكزه المحلية الداخلية على نحو خطير .

ومن هنا يختلف هذا الظرف الذهبي المتاح للثورة الفلسطينية عن الظروف التي تحيط بأي حزب طليعي عربي قطري ايا كانت درجة ثوريته ،حيث يسهل على القوى المحلية الحاكمة ان توجه في ظروف معينة ضربات قاصمة بل وان تصفي الوجود التنظيمي ذاته لمثل هذه الاحزاب الطليعية حتى ولو كانت تقتصر على مجرد وجود مدني سلمي. فلقد استطاع النظام في مصر مثلا ان يصفي الوجود التنظيمي للحزب الشيوعي بعد الضربات القاصمة والمتتالية التي وجهها له في الفترة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٤ ، ولكن اي نظام عربي منفرد ، حتى لو أراد ، لن يستطيع بسبب تضافر العديد من الظروف الموضوعية تصفية الثورة الفلسطينية وذراعها المسلح .

ومن ناحية اخرى ، فان الخط السياسي والقومي الذي تتبعه الثورة الفلسطينية يتفق عامة ، ويتسق مع مصالح جميع الطبقات البروليتارية العربية ، ومع الخط الوطني التقدمي والثوري الذي تتبناه الأحزاب المعبرة عن هذه الطبقات ، ولقد كان التضامن متبادلا دائما بين القوى العربية البروليتارية واحزابها ، وبين الثورة الفلسطينية ، وليس ثمة شك ان ازدياد نفوذ وتوطد مواقع هذه القوى في كل اقطار الوطن العربي يمثل دعما اكيدا لقوى الثورة الفلسطينية ، وبالمثل فان ازدياد نفوذ وتوطد مواقع قوى الثورة الفلسطينية يمثل دعما اكيدا ايضا للقوى التقدمية وللقوى البروليتارية والكادحة وممثليها الحزبيين في كل الأقطار العربية .

كذلك كانت قوى الثورة الفلسطينية ، على اتساع الساحة العربية ، اكثر القوى تحذيراً على سبيل المثال من المخاطر الاستراتيجية الكبرى على حركة الثورة العربية ، والتي يمكن ان تنجم عن تحطيم العلاقات الودية القائمة وعلاقات التضامن والتعاطف بين بلدان الأمة العربية وبلدان المعسكر الاشتراكي وخاصة الاتحاد السوفييتي ، ولقد كان منطلقها بهذا الصدد نابعاً من ادراكها الاستراتيجي الأعمق والأكثر نفاذا لمن هم الأصدقاء الحقيقيون والأعداء الحقيقيون للأمة العربية ،

ومن هنا كانت رؤيتها واقعيا ـ اكثر الرؤى بروليتارية وثورية ، بالنسبة لمصالح الثورة العربية ، وبدون ان تدعي هذه الثورة لنفسها انها تقاتل تحت اعلام بروليتارية . ولقد وجهت تحذيرها الشديد بهذا الصدد تحت شعار « ليس دفاعا عن السوفييت ، وانما دفاعا عن انفسنا » .

وبعد ، فانه ينبغي بصدد الثورة الشعبية العربية ان نفرق بين مفاهيم مثل « القوة الطليعية » والقوة الحليفة ، و«القوة الرئيسية» . وبهذا الصدد نقول إن **الشعب الفلسطيني هو طليعة الثورة الشعبية العربية المعاصرة ، والشعبان اللبناني والسوري هما اقرب حلفائه المباشرين ، والشعب المصري هو القوة الرئيسية للثورة الشعبية العربية المعاصرة ، اما الشعب العراقي ، فهو الظهير الاستراتيجي الكبير لقوى المجابهة الفلسطينية ـ اللبنانية السورية في الجبهة الشمالية .**

واذا كان الشعب الفلسطيني ، بدعم من اقرب حلفائه المباشرين الشعبيين اللبناني والسوري ، يقومون معا بدور راس الرمح وطليعة الصدام حقا ، فلسوف تكون من اصعب مهامهم اجتذاب الشعب المصري اليهم فيه ، وان نجاح الطليعة في اجتذاب الشعب المصري اليها ، معناه نجاحها في اجتذاب القوة الرئيسية ذات الثقل الحاسم في حركة الثورة الشعبية العربية المعاصرة ومعناه ان الصراع بدا يدخل مرحلة استقطابه الحاسم .

ومن هنا ، فان الحفاظ على الوجود المسلح للثورة الفلسطينية ، ودعم هذا الوجود ماديا ومعنويا وتنمية فعاليته ، انما هو الحلقة الرئيسية التي يتوقف عليها مجمل النضال الوطني التحرري العربي المقبل ، مجمل مستقبل ومصير الثورة العربية الشاملة . واذا كانت الامة العربية تستطيع على سبيل المثال ، ان تتحمل شرف القضاء على اي حزب طليعي قطري ، ايا كانت درجة اهميته فانها لا تستطيع ان تتحمل كارثة تصفية الوجود المسلح للثورة الفلسطينية . فالقضاء على اي حزب طليعي قطري ، مع مخاطره ، لن يدفع مجمل الحركة الوطنية والتقدمية والثورية الى الوراء قوميا ، وانما سيدفعها الى الوراء قطريا فحسب ولذا فان الامة العربية لا تستطيع ان تتحمل او تقبل بالكارثة القومية التي يمثلها تصفية الوجود المسلح للثورة الفلسطينية ، او توجيه ضربات قاصمة جديدة اليه : دون ان تصاب بطعنة نجلاء في صميم وجودها ذاته ، ودون ان يكون لذلك اي معنى اخر سوى الشك في مدى حقيقتها وجدارتها بالحياة ذاتها .

مسألة الدولة الديمقراطية في الفكر الفلسطيني

وحيد عبد المجيد
باحث في معهد البحوث والدراسات العربية .

كانت احدى السمات المميزة للفكر العربي في الفترة السابقة على حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧ هي قلة الاهتمام ببحث ملامح الصورة التي ستكون عليها فلسطين المستقبل . فمنذ أن رفض الفكر الفلسطيني ، والفكر العربي عموما ، قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ وهو يدور في حلقة من الشعارات العامة التي تدور حول مقولتين رئيسيتين هما التحرير والعودة . وهكذا لم يعن الفكر الفلسطيني بطرح تصورات أو مشروعات محددة لماهية فلسطين بعد التحرير ، حيث انصب جل الجهد آنئذ على موضوعة التحرير ذاتها[١] . وربما يعود ذلك الى الاعتقاد الذي ساد في الفكر الفلسطيني في هذه المرحلة ومؤداه أن الوحدة العربية هي الطريق الى قيام دولة عربية موحدة تكون قادرة على مواجهة اسرائيل وتحرير فلسطين ، ومن ثم فانه لا سبيل الى التحرير الا بالوحدة . وواكب ذلك اتجاه الجماعات الفلسطينية النشطة سياسيا الى اعتبار أن الحكومات العربية هي المسئولة أساسا عن هزيمة ١٩٤٨ ، ولذلك انتسبت هذه الجماعات الى الاحزاب العربية القومية وشاركت فيها بنشاط مثل حزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب[٢] . ومؤدى ذلك أن الثورة الفلسطينية لم تكن منفصلة ، في نشأتها ، عن ارتباطها القومي بالساحة العربية ، بل كانت في الواقع ثورة عربية بين الفلسطينيين ، حيث كان التعبير عن الارادة الفلسطينية الثورية يتجلى في المشاركة العضوية في كل الصياغات التنظيمية والحزبية التي أفرزتها الساحة العربية [٣] . ورغم أن هذا الذوبان الفلسطيني في العمل القومي العربي كان ذوبانا بمعنى القناعة الوحدوية وليس بمعنى الغاء خصوصية الهدف الفلسطيني ، الا أنه جعل لهذه الخصوصية مدلولا يرتبط أوثق الارتباط بالوحدة العربية . ولذلك فربما كان الاعتقاد في أن المستقبل سيكون لدولة عربية واحدة مدعاة لعدم الاستغراق في التفكير في مستقبل فلسطين بعد التحرير طالما أنها ستصبح جزءا من الدولة العربية الواحدة . وعلى هذا النحو يمكن لنا أن نفهم بواعث عدم اهتمام الفكر الفلسطيني باثارة قضية الدولة الفلسطينية طوال العشرين عاما

---

(١) انشغل الفكر الفلسطيني ايضا في هذه المرحلة بما يمكن ان نسميه (مهام دفاعية) ضرورية لعل من اهمها التصدي للافكار الداعية الى توطين اللاجئين عن طريق اقامة وحدات سكنية دائمة لهم ، ومن ثم انهاء وضعهم كلاجئين بما يعنيه ذلك من قبول وجود اسرائيل ـ وكذلك كانت احدى مهام الفكر الفلسطيني التاكيد على التناقضات العدائية بين العرب واسرائيل بما يحول دون بروز اية دعوة للتقارب مع اسرائيل .

(٢) Leila khalid , Origins of the Armed Resistance , in. Russell stetler (ed) , **Palestine« the Arab . Israeli Conflict** , Ramparts Press , San Franciso , California , 1972 , P . 127

(٣) د . كلوفيس مقصود ، معالم المشاركة العربية في الثورة الفلسطينية ، شئون فلسطينية ، العدد ١٠ ، حزيران (يونيو) ، ١٩٧٢ ، ص ٥ ، ٣١ .

الممتدة من ١٩٤٧ الى ١٩٦٧ . غير أنه مما تجدر الاشارة اليه أن هذا التوجه العام الذي ساد الفكر الفلسطيني في هذه الفترة لم يحل دون طرح موضوع الكيان الفلسطيني بصورة محدودة . فمن الثابت ان مجلة (فلسطيننا) — التي ظهرت في بيروت عام ١٩٥٩ وعرف فيما بعد ان حركة فتح هي التي كانت تشرف على اصدارها — اهتمت بهذه المسألة . فقد اثارت (فلسطيننا) أكثر من مرة فكرة اقامة كيان فلسطيني على الجزء الذي لم يغتصب من فلسطين (الاعداد ١١و ١٣و ١٥ في أواخر ١٩٦٠ وأوائل ١٩٦١)[٤] .

فكرة الدولة الديمقراطية — جذورها وتطورها

عندما طرحت حركة المقاومة الفلسطينية هدف الدولة الديمقراطية الفلسطينية في أعقاب حرب ١٩٦٧ ، لم تكن هذه أول مرة تطرح فيها هذه الفكرة كحل للمشكلة الفلسطينية . فمن الثابت أن هذا الحل ، رغم عدم اتخاذه موقعاً متقدماً في أولويات الفكر الفلسطيني من ١٩٤٨ الى ١٩٦٧ ، يعتبر من أقدم الحلول العربية من الناحية التاريخية . فقد كان الفلسطينيون منذ ثلاثينات هذا القرن يأملون في اقامة دولة فلسطين موحدة ديمقراطية تضمهم والمستوطنين اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين[٥] ، وذلك بعد خمود الاتجاه الذي برز في أعقاب الحرب العالمية الأولى داعيا الى وحدة فلسطين مع سوريا وتسمية فلسطين باسم سوريا الجنوبية ابرازا لكونها جزءاً طبيعيا من سوريا ، على النحو الذي عبر عنه الميثاق القومي الفلسطيني الذي عرضه الوفد الفلسطيني في المؤتمر السوري لعام ١٩٢٠ . فمع تطور الاحداث في الثلاثينات بدأ الفلسطينيون في المطالبة باستقلال فلسطين وقيام حكومة وطنية تمثل الاغلبية العربية مع بقاء اليهود كأقلية تتمتع بكافة الحقوق التي يكفلها القانون . وكان هذا المطلب واضحا في الشهادة المقدمة الى لجنة بيل عام ١٩٣٧ ، وفي المذكرة التي رفعتها اللجنة العربية العليا الى لجنة التحقيق الانجلو — أمريكية (لجنة موريسون) عام ١٩٤٦ ، وطرح هذا المطلب للمرة الأخيرة عام ١٩٤٨ خلال وساطة برنادوت . ويمكن تلخيص الخطوط العامة التي تضمنتها هذه الوثائق في رفض فكرة تقسيم فلسطين وتأكيد أن الحل الوحيد الذي يضمن السلام والاستقرار هو قيام دولة واحدة في فلسطين يتمتع فيها اليهود بكافة حقوقهم الدستورية والقانونية كمواطنين .

ولقد عادت فكرة الدولة الديمقراطية الفلسطينية الى الظهور في الفكر الفلسطيني المعاصر من جديد في أوائل عام ١٩٦٨ ، وذلك في الميثاق الصادر عن المؤتمر الأول للمنظمات الفدائية الذي انعقد بالقاهرة (١٧ — ٢٠ يناير/كانون الثاني ١٩٦٨) ، والذي نص على أن من أهداف حركة المقاومة « اقامة دولة فلسطينية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة تحفظ للمواطنين الاصليين حقوقهم الشرعية دون تمييز في الدين أو العقيدة وتكون القدس عاصمة لها » ومنذ ذلك الوقت تكرر الاعلان عن فكرة الدولة الديمقراطية كهدف نهائي للنضال الفلسطيني في كثير من الكتابات والوثائق الفلسطينية .

ويبدو أن هذا التطور الذي طرأ على الفكر الفلسطيني في هذه الفترة اقترن ببعض المتغيرات التي جدت على الساحة العربية . فمن ناحية أولى أصيب الترابط الموضوعي بين الثورة الفلسطينية ومحيطها العربي بصدمة عنيفة نتيجة لهزيمة ١٩٦٧ مما أدى الى حدوث تحول في الفكر الفلسطيني بصدد تقييم أبعاد العلاقة بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية . وتمثلت أبرز نتائج هذا التحول في

---

(٤) انظر عصام سخنيني ، دليل الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية ، شئون فلسطينية ، العدد ١٥ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ص ١٩ — ٣٦ .

(٥) د . نبيل شعث ، فلسطين الغد ، شئون فلسطينية العدد ٢ ، أيار (مايو) ١٩٧١ ، ص ٥ — ٢٣ . وانظر ايضا في هذا الصدد

— د . محمد رشيد ، نحو فلسطين ديمقراطية ، مركز ابحاث منظمة التحرير ، بيروت ، ١٩٧٠ .

— د . علي الدين هلال ، مشروعات الدولة الفلسطينية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، ١٩٧٨ .

اتجاه الفكر الفلسطيني الى التركيز على فلسطينية الثورة ، الأمر الذي كان يعكس نوعاً من رد الفعل للهزيمة العربية والشك في جدوى العمل القومي[٦] ومن ناحية ثانية أدى بزوغ الكفاح المسلح الفلسطيني مع اشراقة عام ١٩٦٥ واتساع نطاقه على أثر حرب ١٩٦٧ الى حدوث تغير هام في نظرة الفكر الفلسطيني للمشكلة برمتها ولليهود ترتب عليه اعادة تحديد لاعداء الشعب الفلسطيني ومن ثم اعادة صياغة الهدف الفلسطيني في اطار رؤية ثورية جديدة ويمكن القول بأن هذه الرؤية الفلسطينية الثورية لم تكن لتنبثق الا من المقاومة المسلحة ، ذلك أن الكفاح الشعبي المسلح الذي يحتاج الى تعبئة الجهود القومية لمدة طويلة يتطلب أن تكون هناك رؤية واضحة للغد . وهكذا كان توهج الأمل مرة أخرى بانبعاث المقاومة الفلسطينية وما ولدته من ثقة بالنفس تمهيداً لا بد منه لبروز فكرة الدولة الديمقراطية [٧]

وقبل أن نلج الى تحليل التيارات التي انطوى عليها الفكر الفلسطيني في تعبيره عن فكرة الدولة الديمقراطية ، يجدر التنويه بأن المدلول العام لهذه الفكرة يدور حول اقامة دولة ديمقراطية على كامل الأرض الفلسطينية ، أي فلسطين بحدودها تحت الانتداب ، يعيش فيها الفلسطينيون بكل طوائفهم في مجتمع ديمقراطي حيث يتمتعون بحقوق متساوية دون تمييز بسبب الدين أو اللغة أو الأصل أو اللون . ومع قبول الاتجاه السائد في الفكر الفلسطيني بالاطار العام لفكرة الدولة الديمقراطية بالمعنى المشار اليه ، كانت هناك بعض التمايزات عند التطرق الى القضايا التفصيلية ، وبوجه خاص حول علاقة الدولة الديمقراطية بالوطن العربي وحول شكل الدولة ونظامها الاجتماعي

الدولة الديمقراطية وعلاقتها بالوطن العربي : بالرغم من أن اتجاه الفكر الفلسطيني الى طرح هدف الدولة الديمقراطية جاء في اطار تركيز الاهتمام على مستقبل القضية الفلسطينية أساساً كانعكاس لفقدان الثقة في العمل العربي القومي نتيجة لهزيمة ١٩٦٧ ، الا أن هذا لم يحل دون تأكيد الفكر الفلسطيني بصورة عامة على وجود علاقة وثيقة بين الدولة الديمقراطية الفلسطينية ومحيطها العربي ، وذلك مع تباين في تحديد طبيعة هذه العلاقة . ويمكن التمييز في هذا المجال بين تيارين رئيسيين عبر عنهما الفكر الفلسطيني . **أولهما** يذهب الى امكانية قيام دولة ديمقراطية فلسطينية في ظل ظروف التجزئة العربية بحيث تشكل هذه الدولة جزءاً من الحركة الثورية العربية وتمثل مرحلة نحو الدولة العربية الموحدة في المستقبل . **وثانيهما** يرى صعوبة قيام دولة ديمقراطية في فلسطين دون القضاء على كل مظاهر الوجود الاستعماري في المنطقة من خلال تكامل النضال العربي ، بحيث تصبح فلسطين المحررة جزءاً من الدولة العربية الموحدة .

التيار الأول[٨] : ويمكن تلخيص الملامح العامة لرؤية التيار الاول للعلاقة بين الدولة الديمقراطية والوطن العربي على النحو التالي . ١ ــ ان الدولة الديمقراطية الفلسطينية جزء من الأمة العربية وتهدف الى أن تكون جزءاً من الدولة العربية الواحدة في المستقبل . ٢ ــ أن الدولة الديمقراطية ، بهذا المعنى ، هي مرحلة نحو فيدرالية عربية يتمتع فيها اليهودي الفلسطيني بحقوق سياسية وثقافية ودينية كاملة بعيداً عن التمييز والاضطهاد والاستغلال : ٣ ــ أن الهوية الفلسطينية للثورة لا يمكن الا أن تكون هوية نضالية وليست اقليمية ، وتحرير فلسطين لا يمكن أن يتم دون التحام

---

(٦) د . كلوفيس مقصود ، مرجع سابق .
(٧) د . نبيل شعث ، مرجع سابق .
(٨) أنظر في هذا الصدد
ــ د . نبيل شعث ، مرجع سابق .
ــ د . علي الدين هلال ، مرجع سابق .
ــ رسالة حركة فتح الى المؤتمر السادس للحزب الاشتراكي الفرنسي عام ١٩٦٩ . . في **الكتاب السنوي لحركة فتح** ١٩٦٩ ، ص ١٢١ .
ــ حديث السيد ياسر عرفات الى . . Free Palestine , August 1969 , P . 1 .
ــ نقد هاني مندس لكتاب (دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية) من شئون فلسطينية ، العدد ١ ، اذار (مارس) ١٩٧١ ، ص ١٨١ ، ١٨٣ .

الثورة الفلسطينية بالثورة العربية ، وفلسطين الديمقراطية لا يمكن ان تكون كيانا منعزلا او منفصلا عن الجسد القومي العربي . ٤ ــ أن الدولة الديمقراطية ستساهم مساهمة فعالة في بناء مجتمع عربي تقدمي موحد .

ويلاحظ أن بعض انصار هذا التيار لا ينفون أنهم (قطريون) لكنهم يرفضون أن يقال أنهم (اقليميون) ، ويعبرون عن وجهة نظر مؤداها أن الثورة العربية الكبرى لن تتم الا من خلال النضالات القطرية ، فعلى كل شعب عربي أن يتولى مهمة تحرير قطره وبالذات شعب فلسطين المشتت والممزق ، فقد كان ضروريا من أجل قيام الثورة أن يعاد اليه احساسه بفلسطينيته .

وقد تصدى هذا التيار للرد على الانتقادات التي وجهت لهذه الرؤية التي طرحها ، وهي الاتهامات التي انصبت على أن هناك تعارضا ضروريا بين قيام الدولة الديمقراطية الفلسطينية في ظروف التجزئة العربية وبين الالتزام بالاهداف العربية القومية في التحرر والوحدة ، وان هذه الدولة ستقع في اسار (الاقليمية) و(الانعزالية) . وطرح انصار هذا التيار عددا من المجادلات في نطاق تصديهم للرد على هذا الانتقاد نسوق هنا أبرزها :

١ ــ ان الدولة الديمقراطية الفلسطينية لا تتعارض مع كون تلك الدولة عربية ، لان العوامل الاجتماعية والجغرافية والتاريخية تقوم بدور رئيسي في تقرير طبيعة أية دولة وهويتها . وبالنظر الى المشكلة الفلسطينية في اطارها التاريخي يمكن ادراك أن الدولة اليهودية فشلت في جعل نفسها مقبولة لانها غريبة عن الوطن العربي . أما فلسطين فقد اكتسبت هويتها العربية في ظل التطور التاريخي للمنطقة ، ولذلك فمن المستحيل على أية دولة فلسطينية أن تنعزل عن محيطها العربي ، بعد ان ثبت تاريخيا أن أية دولة قامت على ارض فلسطين وكانت أجنبية عن المنطقة لم تستطع الاستمرار . إن كلمة (عرب) تتضمن حضارة مشتركة ولغة مشتركة وماضيا مشتركاً ، واكثرية سكان الدولة الديمقراطية سيكونون من العرب

٢ ــ ان من الخطأ ربط وجود الدولة الديمقراطية بتكامل النضال ضد الاستعمار في مختلف أجزاء الوطن العربي ، لان النتيجة المنطقية لمثل هذا التصور هي التعجيز المطلق . وفضلا عن ذلك فأن هذا التصور غير صحيح من الناحية التاريخية والسياسية لأن مستويات النضال تتعدد وتتفاوت من قطر الى آخر . ولذلك فان اقامة دولة ديمقراطية في فلسطين مرهون بالدرجة الاولى بتنامي النضال الفلسطيني والعربي في المنطقة المحيطة باسرائيل أولا ، أما في المستقبل البعيد فمن المؤكد أن مثل هذه الدولة ستكون جزءا من الدولة الممتدة على نطاق الوطن العربي ، وذلك عندما يتطور النضال المتفاوت في بعض الأقطار العربية الى المستوى الذي سبقتها اليه اقطار أخرى .

ومن المعروف أن حركة فتح هي التي مثلت السند الرئيسي لهذا التيار الفكري . ولما كان ثابتا أن المنطلق الأول لفكر فتح هو الوطنية الفلسطينية ، فقد ذهب بعض الدارسين الى تقييم هذا التيار بأنه تعبير عن الفكرة الوطنية الفلسطينية أساسا وأن أنصاره كانوا في حاجة الى اقامة نوع من الصلة بين الوطنية الفلسطينية والقومية العربية ، وذلك لتجنب الاتهام بالاقليمية وما يترتب على ذلك من عزلة وفقدان للتأييد العربي السياسي والمادي الضروري لانجاز الاهداف الفلسطينية الوطنية[٩] .

اما التيار الثاني فتتلخص وجهة النظر التي عبر عنها في العناصر التالية :

١ ــ أن فلسطين الديمقراطية يجب أن تكون جزءا لا يتجزأ من المجتمع العربي الجديد الذي سيقوم في نطاق الحل الثوري للمشكلة القومية على نطاق الوطن العربي بأسره . وكانت هناك بعض

---

(٩) Mohammed I Mushh, Moderates and Rejectionists Within the PLO , **The Middle East Journal**, vol . 30 , no . 2 , Spring 1976 , PP. 127 - 140

التمايزات في التعبير اللفظي عن هذه العلاقة ، فهناك من ذهب الى أن الدولة الديمقراطية ستشكل جزءاً من الوجود العربي الديمقراطي التقدمي المتعايش بسلام مع كل قوى التقدم في العالم ، وهناك من قال أن هذه الدولة ستصبح جزءا من دولة اتحادية عربية ديمقراطية المحتوى ومعادية للاستعمار والصهيونية والرجعية . وفضلا عن ذلك يمكن ملاحظة بعض التمايزات في التسميات التي أطلقها أنصار هذا التيار على الهدف الذي يسعون اليه . فقد استخدم الاتجاه الماركسي مصطلحي الدولة الوطنية الديمقراطية ، والدولة الديمقراطية الشعبية ، بينما تحفظ الاتجاه القومي العربي أحيانا على استخدام مصطلح (الدولة) وفضل الحديث عن حل ديمقراطي او وضع ديمقراطي ، كما تحدث احيانا عن دولة عربية ديمقراطية .

٢ ـ ان هذه الدولة ، بحكم الارتباط التاريخي المصيري بين فلسطين والامة العربية ، لا يمكن أن تقوم بمعزل عن انتصار الثورة العربية الشاملة على كل اعدائها ودحرها لكل قوى الاستعمار ومصالحه ، أي أن وجود مثل هذه الدولة مرهون بتكامل النضال في كل الوطن العربي والقضاء على الوجود الاستعماري وتفرعاته في المنطقة ، على أساس أن الحل الجذري الثوري للمشكلة القومية لا يمكن ان يتأتى الا على نطاق الوطن العربي بأسره .

٣ ـ ودلالة ذلك أنه لا يمكن الفصل بين العمل من أجل قيام الدولة الديمقراطية وبين النضال من أجل انهاء كل أشكال النفوذ الاجنبي في الوطن العربي ، وأن عدم الاقرار بذلك يقود الى خطر مؤداه تقليص وجود الشعب الفلسطيني الى دويلة تابعة لاسرائيل مع الامل او التمني بأن تصبح هذه الدويلة فيما بعد جزءا من دولة عربية موحدة .

٤ ـ ان التمسك بعروبة فلسطين هو الخط الفاصل بين تحرير فلسطين وبين التسوية وأنصاف الحلول . ولذلك يجب التحذير من طرح شعار الدولة الديمقراطية دون أن يرافقه تصور عربي ، أي النظر الى المشكلة من خلال اطار عربي . ومؤدى ذلك انه من المستحيل استمرار المعركة على شكلها الاقليمي الراهن لان مسيرة التحرير لا بد أن تؤدي الى ازالة الكيانات المصطنعة ، وهنا يكون الحل الديمقراطي الصحيح لكل القوميات والاقليميات ليس فقط في فلسطين ولكن في مختلف أنحاء الوطن العربي .

٥ ـ ترتيبا على كل ذلك يجب رفض أي تصور يكون مؤداه انتزاع فلسطين من الوطن العربي لبناء كيان خاص منفصل مزدوج للقومية مثلا دون هوية عربية .

وقد وجد هذا التيار سنده الاساسي في المنظمات الفلسطينية ذات الامتداد العربي مثل جبهة التحرير العربية ومنظمة طلائع حرب التحرير الشعبية (قوات الصاعقة) ، وكذلك في المنظمات اليسارية الماركسية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين ، فمن المعروف أن كثيرا من قادة هاتين المنظمتين كانوا أعضاء بارزين في حركة القوميين

---

(١٠) انظر في هذا الصدد
ـ د . صادق جلال العظم ، دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٠ .
ـ الاستراتيجية السياسية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، في **الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٩** ، ص ٧٨ ـ ٩٣ .
ـ مشروع قرار مقدم من الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين الى الدورة السادسة للمجلس الوطني الفلسطيني ، في **الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٩** ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
ـ تقرير جبهة التحرير العربية عن أعمال الدورة السادسة للمجلس الوطني الفلسطيني ، في المرجع السابق ، ص ٤٠٧
ـ حديث د . جورج حبش الى **مجلة الهدف** في ١٩٦٩/١٢/٢٠ .
ـ **مجلة الثائر العربي** الصادرة عن جبهة التحرير العربية . الاعداد ١٦ (٦٩/١٢/١) ، ١٧ (٦٩/١٢/١٥) ، ٢١ (٧٠/٣/١٥) ، ٢٢ (٧٠/٣/٣١) .
ـ **مجلة الحرية** في ، ١٩٧٠/١/١٢ ، ١٩٧٠/١/١٩ .

العرب[١١] ، وهو ما يفسر التوجه العربي البارز في فكر هاتين المنظمتين ، وجوهر هذا التوجه أن القتال الناجح ضد اسرائيل يتطلب توسيع نطاق العمل الفدائي ليصبح ظاهرة كفاح مسلح عربي[١٢] .

وهكذا فبعد استعراض الملامح العامة للتيارين الرئيسيين اللذين اشتمل عليهما الفكر الفلسطيني في تكييفه للعلاقة بين الدولة الديمقراطية والوطن العربي ، يجدر التنويه بنجاح حركة المقاومة الفلسطينية في ايجاد صياغة توفيقية بينهما . ويمكن الاشارة في هذا الصدد الى ما نص عليه البرنامج السياسي الذي اقره المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الحادية عشرة في يناير/كانون الثاني ١٩٧٣ من العمل على « اقامة المجتمع والدولة الديمقراطية ضمن اطار مطامح الامة العربية في التحرر القومي والوحدة الشاملة »[١٣] .

شكل الدولة ونظامها الاجتماعي : وبصدد هذه القضية يمكن التمييز أيضاً بين تيارين رئيسيين : أولهما يتجنب الخوض في هذا الموضوع ويرى أنه من الصعب تحديد طبيعة النظام الاجتماعي للدولة المنشودة في هذه المرحلة ، وثانيهما يؤكد على أهمية هذا التحديد ويذهب بصورة عامة الى تفضيل الاشتراكية كنظام اجتماعي للدولة الديمقراطية الفلسطينية .

التيار الأول[١٤] : ينطلق من أنه ليس ثمة ضرورة للدخول في جدل فكري أو متاهات نظرية حول الشكل السياسي أو النظام الاجتماعي لهذه الدولة ، لان مثل هذه الموضوعات غير مطروحة من الناحية العملية ولا ترتبط بالمرحلة التاريخية الراهنة ، وفضلا عن ذلك فان الثورة لا تملك من الوقت ما تنفقه في المفاضلة بين اليمين واليسار والنقاش حول نظام الحكم في فلسطين بعد تحررها ، وأنه من خلال العمل ذاته يمكن أن يتكون فكر الثورة ويتبلور .

ويستند هذا التيار الى أنه ما زال من الصعب اصدار تصريح واضح ومحدد عن فلسطين الجديدة ، وأن الواقعية وليست أحلام اليقظة الرومانسية هي التي يجب أن تؤلف المنحى الثوري الاساسي ، وأنه ليس من السهل التنبؤ مسبقاً بما سيحدث خلال سنوات الكفاح في سبيل التحرير . فالمرحلة الراهنة ، لدى أنصار هذا التيار ، هي مرحلة تحرر وطني ديمقراطي والتناقض الرئيسي فيها مع القوى الامبريالية العرقية ، وهي مرحلة أولية لن تنتهي الا بتفكك المؤسسات والأبنية الاقتصادية والعسكرية والسياسية التى تكرس السيطرة العرقية على الفلسطينيين العرب ، ولذلك فمن الصعب تحديد صورة البلد الديمقراطي الجديد في هذه المرحلة ، بل ان ذلك سابق لأوانه ، وعلى ذلك فقد تؤدي محاولات الوصول الى صورة نهائية مفصلة للبلد الجديد الى أوهام طوباوية . وفضلا عن ذلك فان طرح هذا الموضوع يمكن أن يؤدي الى خلافات وانقسامات لا مبرر لها مما يجعل من تحقيق الوحدة الوطنية أمرا صعبا . ويشير أنصار هذا التيار الى الخبرة الفيتنامية في هذا المجال حيث لم يرد حتى ذكر كلمة (اشتراكية) في برنامج جبهة التحرير الوطني الفيتنامية ولا في ميثاق الحكومة الفيتنامية المؤقتة .

---

(١١) See: Wahd Kazziha , **Revolutionary Transformation in The Arab Warld**Charles Knight and Company limited , London, 1975.

(١٢) Mohammed Muslih, ,op . cit , P. 135

(١٣) الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ص ٨ ، ٩ .

(١٤) انظر د . محمد رشيد ، مرجع سابق .
د . نبيل شعث ، مرجع سابق .
طلال سلمان ، مع فتح والفدائيين ، دار العودة ، بيروت ١٩٦٩ .

ودلالة ذلك عندهم أن تحديد المضمون الاجتماعي للثورة في مرحلة التحرير الوطني يمكن أن يؤدي الى حرمان بعض الطبقات من شعب فلسطين من المشاركة في النضال . كما أنه يحمل خطر تفجير الصراع بين الطبقات بينما تحرير فلسطين يتطلب تكتيل الجهود في الصراع ضد الصهيونية .

وكذلك فمن المجادلات التي يثيرها انصار هذا التيار ان التطبيق الحقيقي لفكرة الدولة الديمقراطية يتطلب مشاركة المستوطنين اليهود مشاركة ديمقراطية كاملة في تقرير شكل هذه الدولة ونظامها الاجتماعي ، وهذا أمر يصعب حدوثه واقعيا الا بعد التحرير .

وفي نطاق هذا التيار كانت هناك محاولات لتحديد ما سوف لن يكونه البلد الجديد ، على أساس أن هذا أسهل بكثير من محاولة تحديد ما سوف يكون . ذلك أنه من السهل أن يتصور أن الدولة الديمقراطية الفلسطينية لن تكون دولة عرقية منفصلة عن العرب ولن تسمح بانبعاث دولة يهودية جديدة ، ولذلك فلن تسمح بأن يحل أي نوع من التمييز العنصري بحكم الواقع محل دولة يتم فيها التمييز العنصري بحكم القانون . وهذه الدولة أيضا لن تكون ثيوقراطية ولا اقطاعية ولا ارستقراطية ، ولن تكون قاعدة لاية قوة امبريالية ، ولن تسمح بأي شكل من أشكال القهر السياسي أو الاستغلال الاقتصادي . وبعبارة اخرى فالدولة الديمقراطية ستمنع اضطهاد فئة أو استغلالها على يد فئة اخرى ، وستتيح الفرص المتكافئة لمواطنيها سواء كان ذلك في مجال العمل أو العبادة .

أما التيار الثاني[١٥] : فينطلق من ضرورة تحديد طبيعة النظام الاجتماعي للدولة الديمقراطية المنشودة ، وان هذا النظام سيكون بالضرورة اشتراكيا ، حتى يكون المجتمع الجديد قادرا على توفير الحل لمشكلات الفقر والتخلف والاضطهاد والاستغلال التي يعاني منها انسان هذا الوطن ، وعلى مواجهة كل ألوان الاستغلال الطبقي أو القهر القومي بين العرب واليهود ، وعلى فك ارتباط فلسطين بالامبريالية وتحويلها الى قلعة ثورية .

ويستند أنصار هذا التيار الى تحليل نظري مفاده أن المعركة ضد اسرائيل هي معركة تحرر وطني ديمقراطي ذات أفق اشتراكي هدفها انهاء كيان اسرائيل كدولة عنصرية مرتبطة بالامبريالية العالمية ، وأن انهيار هذا الكيان يقود الى وضع من الطبيعي أن يكون لكل مواطن فيه حق العيش المتكافىء والمتفق مع أفق الثورة الاشتراكية . ومؤدى ذلك أن خوض معركة التحرر الوطني الديمقراطي حتى نهايتها يقود الى المرحلة الاشتراكية ، وأن هذا شرط ضروري لكي يكون التحرير حقيقيا وكاملا .

كما استند بعض أنصار هذا التيار الى تحليل ماو تسي تونغ لمرحلة التحرر الوطني الديمقراطي باعتبارها مرحلة تاريخية لا بد من تحقيقها بالنسبة لكل شعوب آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية لانها مرحلة الانتقال من المجتمع شبه الاقطاعي الكومبرادوري الى المجتمع الديمقراطي الشعبي القائم على أساس (الديمقراطية الجدية) أي ديمقراطية العمال والفلاحين الفقراء والصغار والمتوسطين والبورجوازية الصغيرة والوطنية ضد الصهيونية والامبريالية والكمبرادور . ويبدو أن هناك تأثيرا يعتد به لنظرية ماوتسي تونغ عن الطبقات على انصار هذا التيار ، ويظهر ذلك بوجه خاص في تبني اطروحة

---

(١٥) انظر مشروع قرار مقدم من الجبهة الشعبية الديمقراطية الى الدورة السادسة للمجلس الوطني الفلسطيني ، في الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٩ ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
ـ الاستراتيجية السياسية للجبهة الشعبية ، المرجع السابق ، ص٧٨ ٩٣ .
ـ حديث السيد نايف حواتمة الى مجلة الحرية ، العدد ٤٨٨ ، ٦٩/١١/٣
ـ حديث د . جورج حبش الى مجلة الهدف ، العدد ٢٢ ، ٦٩/١٢/٢٠
ـ نقد منير شفيق لكتاب (نحو فلسطين ديمقراطية) ، في شئون فلسطينية ، العدد ١ ، اذار (مارس) ١٩٧١ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٢

(معسكر الثورة ومعسكر العدو) عند تحديد القوى الاجتماعية التي يقع على عاتقها مهمة اقامة الدولة الديمقراطية .

وترتيبا على ذلك أثار هذا التيار قضية محتوى الديمقراطية ، ذلك المحتوى الذي يقرر لمن هذه الديمقراطية ، أي لاية طبقات وضد أية طبقات ، لأن هذه هي المسألة الرئيسية التي يتوقف عليها مدى عدالة الحل المقترح وانسانيته وثوريته . ومحتوى الديمقراطية ، عند أنصار هذا التيار ، يتحدد من خلال مسألتين

١ ــ ربط الهدف الرئيسي للثورة الفلسطينية بشعار الدولة الديمقراطية ، واعتبارهما كلا متكاملا لا شعارين منفصلين عن بعضهما بعضا ، وهذا يقود الى ادراك ان الثورة الفلسطينية قد حددت ، سواء عن وعي أو بلا وعي ، المحتوى الاجتماعي ــ الاقتصادي للدولة الديمقراطية عندما طرحت شعار « تصفية الكيان الصهيوني بكل مؤسساته العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية » . ذلك أن المقصود بالتصفية الاقتصادية هو مصادرة الملكية الصهيونية والامبريالية في فلسطين ، ولما كانت فروع الصناعة والتجارة والزراعة والخدمات في اسرائيل ذات طابع متطور ، فان مصادرة الملكية لا يمكن أن يكون الا لحساب الدولة الفلسطينية أي لحساب كل الفلسطينيين ، إذ أن مثل ذلك الاقتصاد لا يمكن أن يستمر في العمل الا على يد الدولة .

٢ ــ وبالنسبة للأرض الفلسطينية هناك ملاحظتان : أولاهما أن قسما كبيرا من الأراضي التي كان يمتلكها افراد عرب فلسطينيون قد أممت حدودها ضمن اقتصاد « الكيبوتز » و « الموشاف » وأصبحت خاضعة لنظام خاص في الري والزراعة والتسويق ، ومثل هذا النظام لا يمكن أن يحل محله الا التعاونيات الزراعية الحكومية والفلاحية حتى يستمر الانتاج ويعمل بأقصى طاقته . وثانيهما أن اعادة ملكية الأرض الفلسطينية للملاك السابقين سيعني تجزئتها بين الجيل الثالث أو الرابع من الورثة بشكل سيفتت الملكية الزراعية والعقارية بدرجة عالية ، ولذلك ربما يكون انسب حل لهذا الوضع هو التعويض على ورثتها واعادة توزيعها على الفلاحين الفقراء ، على أن يكون التعويض فقط للذين يسهمون بشكل أو بآخر في تأييد الثورة ودعمها دون الذين يتعاونون مع العدو أو القوى المضادة للثورة .

الدولة الديمقراطية وقضية العلمانية : ثمة اتفاق عام في الفكر الفلسطيني على أن الدولة الديمقراطية المنشودة سيعيش فيها الفلسطينيون بكل طوائفهم : مسلمين ومسيحيين ويهوداً دون تمييز ، وأن هذا هو الحل التقدمي والانساني للمشكلتين الفلسطينية واليهودية . وثمة اتفاق ايضا على أن هذه الدولة يجب الا تكون لبنانا آخر أو قبرص أخرى ، أي أنها لن تكون دولة ثنائية القومية أو متعددة الأديان ، وانما ستكون دولة موحدة لا طائفية ، بمعنى أن الفواصل الطائفية لن يسمح لها أن تتغلب ولن يتم تقسيم المناصب او المقاعد بين السكان طبقا لأديانهم لان نظام اقتسام المناصب يعزز الفواصل الدينية ، ولذلك لن يكون هناك أي وضع تمييزي طبقا للدين أو العرق أو اللون . غير أن أحد تيارات الفكر الفلسطيني تحفظ على ابراز الوجهة الدينية للدولة[١٦] ، وعلى الأخص في الصياغة التي تتحدث عن دولة للمسلمين والمسيحيين واليهود ، وأكدت على ضرورة ابراز الوجهة العلمانية للدولة التي تستبعد تقسيم المواطنين حسب الدين ، وهذا التيار هو الذي يستخدم دائما تعبير (الدولة الديمقراطية العلمانية) . ويبدو ان تيارا آخر في الفكر الفلسطيني يتجنب استخدام مصطلح (العلمانية) كوصف للدولة ، وربما يعود ذلك الى الرغبة في تجنب اساءة فهم المقصود به من بعض القوى المناصرة للمقاومة الفلسطينية وبالذات في العالم الاسلامي .

---

(١٦) د . نبيل شعث ، مرجع سابق .

من الدولة الديمقراطية الى السلطة الوطنية

عندما اتجه الفكر الفلسطيني الى طرح هدف الدولة الديمقراطية في أوائل عام ١٩٦٨ ، كان الاتجاه السائد يضع فكرة الدولة الديمقراطية ، التي يتحدد اطارها الجغرافي بكل الارض الفلسطينية المحتلة سواء عام ١٩٤٨ أو عام ١٩٦٧ ، في مواجهة فكرة الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة . ولم يكن هناك سوى اتجاه هامشي تمثل في بعض فلسطينيي الضفة الغربية هو الذي دعا الى اقامة دولة في الضفة ، ويمكن الاشارة في هذا الصدد الى الافكار التي قدمها حمدي التاجي الفاروقي وعزيز شحادة في ١٩٦٧ ومحمد علي الجعبري في ١٩٧٠ ومحمد أبو شلباية في ١٩٧١[١٧] . وكان أحد المشاغل الرئيسية للاتجاه السائد في الفكر الفلسطيني هو التمييز والتفريق بين هدف الدولة الديمقراطية وفكرة الدولة في الضفة الغربية التي كانت توصف بأنها (فلسطينستان) أو (الدويلة) أو (الدولة العميلة) .

وكان ادراك الفكر الفلسطيني لفكرة الدولة في الضفة الغربية[١٨] يدور حول اعتبارها بديلا للدولة الديمقراطية قامت القوى المعادية للثورة بتلفيقه ، وكانت هناك وجهة نظر مؤداها أن هذه الفكرة هي فكرة بعض المجموعات الدراسية الامريكية التي تعتقد أن حل القضية الفلسطينية بدون الملك حسين قد يسهل تسويق الصيغة الامريكية لدى الشعب الفلسطيني وقيادته . وأقام الفكر الفلسطيني مشابهة بين هذه الفكرة وبين البنتانتوستانات التي انشأتها الحكومة العنصرية للسود في جنوب افريقيا تطبيقا لسياسة العزل العنصري . كما عبر الفكر الفلسطيني عن قناعة مؤداها أن اقامة دولة فلسطينية داخل اسرائيل أو بجانبها كنتيجة للتسوية السياسية لن يأتي بأفضل مما قدمته اسرائيل فعلا للفلسطينيين في الأرض المحتلة قبل ١٩٦٧ والذين تعتبرهم ضمن مواطنيها أو للفلسطينيين في الأرض المحتلة بعد ١٩٦٧ الذين تحاول اغراءهم بكافة الطرق للتعايش معها . وكان الراجح في الفكر الفلسطيني أن الاطار الجغرافي لهذه الدولة هو الضفة الغربية أساسا باستثناء القدس ومنطقة قلقيلية وطولكرم وتلال الخليل أو الخليل كلها ، وبذلك تصبح جزيرة سياسية بين اسرائيل والاردن لا يربطها بالوطن العربي الا الجسور (المفتوحة) على نهر الاردن . وواكب ذلك سيادة الاعتقاد في أن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني يعني التحرير الكامل واقامة الدولة الفلسطينية على كامل تراب الوطن ، على النحو الذي عبر عنه المؤتمر الشعبي الفلسطيني بالقاهرة في ابريل/نيسان ١٩٧٢ . وهكذا ظل الفكر الفلسطيني يرفض فكرة الدولة على جزء من الأرض الفلسطينية طوال الفترة الممتدة من ١٩٦٨ حتى أوائل ١٩٧٤ ، وعبرت الوثائق الصادرة عن مختلف فصائل حركة المقاومة عن هذا الموقف ، ويمكن الاشارة الى أبرز العناصر التي انطوت عليها هذه الوثائق فيما يلي :[١٩]

- ان هذه الفكرة هي حلقة في سلسلة التآمر على الثورة الفلسطينية
- وهي تهدف الى تصفية القضية الفلسطينية من خلال الصلح مع اسرائيل واقامة علاقات دائمة معها .

---

(١٧) انظر نبذة عن هذه الافكار في د. علي الدين هلال . مرجع سابق .
(١٨) انظر : د . نبيل شعث ، مرجع سابق .
ـ د . كلوفيس مقصود ، الابعاد الامريكية الاسرائيلية لمشروع الملك حسين وكيفية احباطه . شئون فلسطينية ، العدد ٨ ، ايار (مايو) ١٩٧٢ ، ص ٥ ـ ١٩ .
(١٩) تبرز هذه العناصر او احدها او بعضها في كثير من الوثائق الفلسطينية . وعلى سبيل المثال
ـ بيان حركة فتح في الذكرى الرابعة للثورة الفلسطينية ، ١٩٦٩/١/١ .
ـ حديث السيد ابراهيم بكر ـ نائب رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الى مجلة الحرية ، العدد ٤٥٣ ، ١٩٦٩/٣/٣
ـ بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير في منتصف فبراير ١٩٧٢ .
ـ بيان الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة في ١٩٧٣/٦/٢٢

● وتؤدي بالتالي الى النيل من وحدة التراب الفلسطيني ومن حقوق الشعب الفلسطيني على أرضه ووطنه .

● وهي ترتبط بمحورين هما مشروع الحل السلمي من ناحية وخلق ظروف في المنطقة لاحداث صدام بين الثورة وبين بعض القوى العربية من ناحية اخرى .

● ومحصلة كل ذلك أن هذه الفكرة سيكون نتاجها كيانا عاجزاً من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وستصبح بعجزها هذا جسرا يعبر عليه النفوذ الاسرائيلي الامريكي الى المنطقة العربية .

على أنه في الفترة التالية لحرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ بدأ موقف الفكر الفلسطيني تجاه فكرة الدولة على جزء من الأرض الفلسطينية يتطور نحو القبول المشروط . وبدا ذلك واضحاً في الحوار الذي دار في أوائل ١٩٧٤ حول قضية السلطة الوطنية الفلسطينية ، وذلك بعد أن كان الفكر الفلسطيني يرفض مجرد مناقشته للموضوع . ويبدو أن هذا التطور ارتبط أكثر من أي شيء آخر بالنتائج التي ترتبت على حرب اكتوبر والتي كان في مقدمتها وضع عملية تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، الامر الذي أثار قضية مصير الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ في حالة جلاء اسرائيل عنها . وازاء ذلك اتجه الفكر الفلسطيني بصورة عامة الى تأكيد حق الشعب الفلسطيني في السيادة على هذه الأراضي مع بعض التمايز في شرح مبررات ذلك ، وفي طبيعة الشروط الضرورية لقبول اقامة سلطة وطنية فلسطينية على هذه الأراضي ، وهو التمايز الذي يمكن ملاحظته بين ورقة العمل التي قدمتها حركة فتح ومنظمة الصاعقة والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين ، وبين ورقة العمل التي قدمتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين[٢٠] ، وذلك ابان اجتماعات الدورة الثانية عشر للمجلس الوطني الفلسطيني (١ ـ ٩ يونيو/حزيران ١٩٧٤) . ويلاحظ أن هذا التطور الذي شهده الفكر الفلسطيني لم يعن احلال هدف السلطة الوطنية على جزء من أرض فلسطين محل هدف الدولة الديمقراطية على كامل الأرض الفلسطينية . فقد ظل التيار السائد يعتبر أن الهدف الاستراتيجي للنضال الفلسطيني هو اقامة دولة ديمقراطية على كل أرض فلسطين . أي أنه مع القبول باقامة سلطة وطنية على أي أرض فلسطينية يجري تحريرها ، ظل شعار تحرير فلسطين كاملة قائما ، على أساس التمييز بين الهدف الاستراتيجي وبين الاهداف الحالية والمباشرة . ويتضح ذلك بالرجوع الى البرنامج السياسي المرحلي الصادر عن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة ، حيث نص هذا البرنامج على « اقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة على كل جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها » ، وعلى أن « أية خطوة تحريرية تتم هي حلقة لمتابعة تحقيق استراتيجية منظمة التحرير في اقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية »[٢١] .

---

(٢٠) انظر عصام سخنيني ، شهريات المقاومة الفلسطينية ، شئون فلسطينية ، العدد ٣٢ ، نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ، ص ١٧٨ ـ ١٨٢

(٢١) انظر ، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٩ ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

عز الدين القسام
بين جمهورية فرحات وبؤرة غيفارا

عبد القادر ياسين

مدير تحرير مجلة الكاتب الفلسطيني
مؤلف عدد من الدراسات السياسية والتاريخية

عربية تقدمية ... تلكم هي السمة الرئيسية لحركة الشيخ عز الدين القسام . فالقسام نفسه ، قائد الحركة التي حملت اسمه ، من جبلة ، البلدة القريبة من اللاذقية شمال شرقي سورية . وحين استشهد شاركه شهادته مناضل مصري هو الشيخ محمد الحنفي . فكانا اثنين من اربعة استشهدوا في المعركة العسكرية غير المتكافئة التي وقعت بين جماعة القسام والجنود البريطانيين .

ولان هذا المقال ليس مكرسا لتحليل حركة القسام ، فانني ساكتفي بدراسة مقارنة بين القسام وغيفارا ، في الفكر والممارسة .

كان حوارا ملفتا للنظر ، غنيا بالدلالات ، جريئا ، وبسيطا ، في آن . دار بين الشيخ عز الدين القسام وبين عبد الغني الكرمي .

قال القسام : يمين الله ان شباب العصر الاخير ابتعدوا كثيرا عن النهج القويم ، وامعنوا في الضلال ، فلم يبق على هذه الأمة الا ان تعتصم بما في قلوب الفلاحين والعمال من بساطة وايمان ، وبعد عن بهارج مدنيتكم الزائفة ، وعلومكم ، وآدابكم ، التي تقصي الانسان عن « الفطرة » المستحبة .

فبادره الكرمي : اتدري انهم يتهمونك بالشيوعية اذا سمعوك !

فقال : انظر ، لقد اشتعل راسي شيبا ، وخبرتي الطويلة تجعلني ارجو خيرا كثيرا من الفلاحين والعمال ، فهم واثقون بالله ، مؤمنون بجنات الخلد واليوم الآخر . ومن كانت هذه صفاته كان اقرب الناس للتضحية ، واجراهم على الاقدام ، اضف الى ذلك انهم أقوى بنية ، واكثر احتمالا للمشاق والمتاعب .

وكان عدم نفور الشيخ عز الدين القسام من اتهامه بالشيوعية امرا محيرا ، حقا . فهذا الحديث الصحفي يعود تاريخه الى خريف العام ١٩٣٥ ، حين كانت الشيوعية ليست « بعبعا » فحسب بل زندقة ورجسا من عمل الشيطان ، ايضا . تلك كانت دعاية الاستعمار آنذاك . وهي دعاية وجدت تربتها الخصبة في المجتمعات المتخلفة ، وبضمنها المجتمع الفلسطيني ، اسير القيادة شبه الاقطاعية ، والفكر السلفي ، والأمية التي تفتك باكثر من ثلاثة ارباع افراده .

واذا كان هذا هو حال السواد الاعظم من ابناء الشعب الفلسطيني ، فمن باب أولى ان يكون المشايخ أشد تعنتا في مواجهة « البلشفية » كما كان يحلو للعرب ، آنئذ ، تسمية الشيوعية .

ومن هنا كان الاستهجان ، وبهذا الحجم ، للحديث البسيط الجريء الذي دار بين الشيخ عز الدين القسام وعبد الغني الكرمي ، قبيل استشهاد الاول بايام معدودات .

ومن يقرأ هذا الحوار سرعان ما تقفز الى مخيلته قصة الدكتور يوسف ادريس الطريفة ، التي نشرها في القاهرة عام ١٩٥٦ ، وحملت عنوان « جمهورية فرحات » . وفيها يحكي قصة « صول » شرطة مصري يحلم بمجتمع مثالي ، هو — في حقيقته — المجتمع الاشتراكي ، عتبة المجتمع الشيوعي . وحين يلتقي الصول فرحات بشاب مثقف في قسم البوليس ، يسترسل في تصوير ملامح مجتمعه ، الذي يحلم به ، لهذا الشاب . لكنه بمجرد ان يعلم بان هذا الشاب ليس الا متهما بالشيوعية محتجزا لديه ، يسارع الصول فرحات الى « شد جلد وجهه ، حتى عاد كالطبلة الصامته وجذب (الكاب) حتى بلغ موضعه التقليدي من جبهته تماما » .

ارتد الصول فرحات مذعورا ، بمجرد علمه بان من استمع اليه ليس الا « منهم » ، من اولئك الذين يناضلون من اجل بناء نفس المجتمع الذي يحلم به الصول فرحات ، ليل نهار .

ان نقطة الالتقاء بين القسام وفرحات هي في تطلعهما الى مجتمع افضل ، وحلمهما بوطن اشتراكي . لكن الفارق بينهما كان في ردة فعل كل منهما . فالقسام لم ينفر من اتهامه بالشيوعيه ، بينما الصول فرحات تذكر فجاة انه يمثل السلطة امام « المتهم » الشيوعي ، فتبرا حتى من احلامه وطموحاته ، دفعة واحدة ، بلا مقدمات او مقابل !

صحيح ان القسام هو ابن الحقيقة التاريخية بينما الصول فرحات ليس سوى وليد خيال قاص بارع . لكن المقارنة ممكنة ، فمثل الصول فرحات بين صفوفنا كثيرون !

وقد شيخنا القسام الى حيفا بفلسطين ، في شباط (فبراير) ١٩٢٢ ، مخلفا في سوريا ثورة متنكسة ، واقارب في جبلة (شمال شرقي سوريا) يتحرقون شوقا الى ابنهم ، وان كانوا لا يجرؤون على دعوته لزيارتهم ، فحكم الاعدام ، الذي اصدرته محاكم الانتداب الفرنسي ضده ، في الانتظار .

وفي حيفا عمل القسام اماما لمسجد الاستقلال ومدرسا في مسجد النصر ، ومأذونا لقرى شمال فلسطين ، ورئيسا لفرع جمعية الشبان المسلمين بحيفا ، منذ تأسيسه ١٩٢٦ ، ومشرفا على مدرسة ليلية لمحو الامية ، اسسها بنفسه .

وغرسته وظائفه الخمس هذه وسط تجمعات جماهيرية غفيرة ومتباينة في تركيبها الطبقي . من المصلين ، الى المدعوين في الافراح ، والمجتذبين الى جمعية الشبان المسلمين ، اعضاء وجماهير تستزيد من علم الشيخ وفكره السياسي ، الى متعطشين لنور الحرف والكلمة .

ومن خلال دروسه وخطبه ومواعظه ، في المسجدين والمدرسة والجمعية والاعراس ، كان القسام يبث دعايته السياسية من جهة ، وينتقي عناصر طليعية ، يضمها الى تنظيمه السري ، من جهة اخرى ، في انتظار اللحظة الثورية ، اللحظة الأكثر ملاءمة لتفجير الكفاح المسلح ضد الاستعمار والصهيونية .

وقبل ان يتوارى العام ١٩٣٥ ، التقط الشيخ عز الدين جملة من الشواهد والمؤشرات تؤكد نضوج الوضع الثوري في فلسطين .

● حيث انشقت الحركة الصهيونية ، فخرج جابوتنسكي وانصاره ، وهم الذين عرفوا بالتصحيحيين ، اسلاف الليكود الاسرائيلي الحاكم الان :

● الاستعمار البريطاني مرتبك ، بعد صعود هتلر الى الحكم في المانيا (مطلع ١٩٣٣) ، وما اقترن بهذا الصعود من اخطار هددت الوجود الاستعماري البريطاني في انحاء مختلفة من العالم :

● القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية تكاد تشهر افلاسها السياسي ، وهي معنية ، فقط باللهاث وراء سلطات الانتداب البريطاني ، علها تحوز على بعض الفتات من الاستقلال السياسي

● والجماهير الشعبية الفلسطينية سئمت من اساليب قيادة الحركة الوطنية ، وهي اشد ما تكون سخطا على الانتداب البريطاني والصهيونية ، في ان . وكان واضحا ان هذه الجماهير انما تتحرق شوقا الى البديل الثوري .

وفي موازاة نضوج الظرف الموضوعي كان العامل الذاتي قد قطع شوطا غير قصير في طريق النضوج .

● فتنظيم القسام اتسع وتما ، وغطى اجزاء غير قليلة من فلسطين ·

● وقيادة التنظيم نجحت في تخزين بعض الاسلحة والذخائر والمفرقعات ، كما وفرت بعض المال اللازم لاستمرار القتال .

وفي منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ ، خرج القسام على راس كوكبة من رفاقه ، قوامها ٢٤ مقاتلا ، الى احراش يعبد ليبدا الكفاح المسلح من هناك ، حيث الأرض الوعرة الاشد ملاءمة لحرب العصابات ، وحيث قبضة الاحتلال تتراخى في الريف عنها في المدينة . وان كان هذا لا يعني ان المقاتلين الثوريين هنا في منأى عن ايدي جهاز الامن الاستعماري المنبثة في اغلب ارجاء فلسطين . على انه لا مفر من اللجوء للريف ؛ حيث الغلبة الاقتصادية في فلسطين كانت ــ حتى ذلك الوقت ــ للريف . فالحركة الثورية تولد في المدينة ، حيث الطبقة الاكثر ثورية (العمال) ، والجماهير الاشد ميلا للتنظيم ، ثم تمر هذه الحركة بالريف ، وتنمو ، في الوقت نفسه ، في المدينة ايضا · من خلال اشكال كفاحية مختلفة .

لكن خطا عسكريا عجل بقصف عمر الثورة المرتقبة ، اذ اطلق احد رجال القسام النار على شاويش صهيوني ، ضمن دورية شرطة ، فارداه قتيلا . مما كشف موقع مجموعة القسام . فسيرت سلطات الانتداب المئات من جنودها ، الذين نجحوا في قتل القسام واثنين من رفاقه وجرح واسر ستة اخرين ، بينما نجا الباقون .

اذا كانت اوجه الشبه بين **القسام** و**غيفارا** تنحصر في البطولة الاستثنائية والاصرار على « **النصر او الاستشهاد** » ، اضافة الى « **البؤرة الثورية** » **التي انتسبت الى غيفارا** ، في حين كان **القسام** هو مبتكرها قبل **غيفارا** باكثر من ربع قرن ، فان الفوارق بينهما لم تنحصر في الزمان فحسب ــ حيث الفارق الزماني كان بين استشهاد هذين البطلين يقترب من اثنتين وثلاثين سنة ــ بل تعدته الى مجالات سياسية وفكرية وتنظيمية متعددة .

● كانت الظروف الموضوعية لخوض الكفاح المسلح قد نضجت في فلسطين ، وعندها قرر القسام اشعال شرارة الكفاح المسلح . اما غيفارا فعندما نزل الى بوليفيا لم تكن الظروف الموضوعية قد نضجت ، بعد ، لخوض مثل هذا الكفاح . ومع ذلك نسج بؤرته الثورية ، ظنا منه انها ستعجل بانضاج الظروف الموضوعية للكفاح المسلح :

● اقام القسام تنظيمه السياسي قبل ان يقدم على بناء بؤرته الثورية ، في حين توهم غيفارا بأن بؤرته الثورية هي التي ستقيم الحزب الثوري :

● نجح تنظيم القسام في التغلغل بين الطبقات الثورية (العمال ، الفلاحين ، المثقفين الثوريين ، والبرجوازيين الصغار) ، بينما عانى غيفارا الأمرين من عزلة بؤرته عن كافة طبقات الشعب البوليفي ، بما فيها الطبقات الثورية المشار اليها :

● في حين اعتمد تنظيم القسام ـ اساسا ـ على ابناء البلاد ، نجد غيفارا قد تجاهل هذا الامر . فكان هذا التجاهل احد اهم نقاط ضعف بؤرته الثورية . وهو لم يكتف بتجنيد « الغرباء » عن بوليفيا للنضال فيها ، بل انه بدا كفاحه ، ايضا ، بمجموعة ينتمي افرادها الى الايبيريين ، في حين ينحدر فلاحو بوليفيا من اصول هندية حمراء . ومن هنا يكون القسام قد وعى بان « الثورة لا تصدر » ، بينما حالت حماسة غيفارا دون رؤيته هذه البديهية الهامة

ومع ان كل هذه النقاط هي لصالح القسام ، الا انه لم ينجح في اشعال شرارة الكفاح المسلح . ولا يعود الاخفاق هنا فقط الى الخطة العسكري التكتيكي الذي ارتكبه احد رفاق القسام ، بقتله الشاويش الصهيوني ، بل ان ثمة اسبابا فكرية وسياسية وتنظيمية تقبع وراء هذا الاخفاق ، لعل اهمها :

● خاض القسام كفاحه بدون برنامج سياسي . ففي مجال البرنامج ، لا يكفي مجرد اعتماد الكفاح العسكري اسلوبا في مواجهة الاستعمار والصهيونية ، بل لا بد من توضيح اطراف معسكر الثورة من ناحية ، ومعسكر الأعداء من ناحية اخرى ، اضافة الى القاء الضوء على الهدف الاستراتيجي والأهداف المرحلية . فلا كفاح سياسي الا عندما يعي المناضلون لماذا يناضلون ، وكيف ، وضد من ، ومتى ، واين ؟ ! وكراهيتهم الاستعمار والصهيونية ، وحدها ، لا تكفي . بل لا بد من توفر القناعة بوجوب وامكانية دحر الاستعمار والصهيونية ، مع الالمام الجيد بأساليب دحرهما :

● بحث القسام ـ تجريبيا ـ عن طريق استراتيجي ، بخروجه الى الريف ، بدون امتلاك النظرية سلفا :

● كان يمكن للتوجيه السياسي ان يجنب حركة القسام نهايتها التراجيدية . فمناضلو البؤرة الثورية ليسوا مجرد عسكريين ، بل هم ، اولا ، مناضلون في حركة سياسية . وكان من شأن التوجيه السياسي حشد التأييد السياسي الجماهيري القادر على احتضان البؤرة الثورية وحمايتها من ضربات الاستعمار والصهيونية ، بما يتيح لها امكانية الضرب بالجذور في تراب الوطن . ويضفي ـ في الوقت نفسه ـ على العمل العسكري نجاحا سياسيا لدى الشعب وضد العدو ، في ان ، اذ ليس المطلوب قاعدة عسكرية مضمونة الاتصال والمواد التموينية والدعاية فحسب ، بل لا بد ـ ايضا ـ من توفير التعبئة السياسية والمشاركة الشعبية .

ولو ان القسام كان شيوعيا لطلبنا منه وضوحا اشد في الرؤية السياسية ، عن طريق تحليل صحيح للعملية التاريخية ، بتحليل اقتصادي ـ اجتماعي ـ سياسي لمجمل اوضاع المجتمع الفلسطيني ، مع التاكيد ـ عمليا ـ على ان الطليعة المقاتلة هي قوة منظمة ومنضبطة ، وصلبة ... هي حزب سياسي . فليس في امكان الا حركة محكمة التنظيم واسعة التأييد في المدينة والريف ، معا ، ان تحرز النصر . فالتنظيم هو السلاح الأشد مضاء . وكيف يمكن لانتفاضة ضد عدو مزدوج بالغ الشراسة ان تحرز النصر عليهما معا ، دون استخدام ميزات شعبها الى الحد الأقصى ، ونقاط ضعف الاعداء الى الحد الاقصى ، ايضا ! واستخدام الميزات ونقاط الضعف لا يتم الا عبر جهاز تنظيمي محكم ، منسق ، ومتنوع .

صحيح ان حركة القسام قد كسبت تأييدا سياسيا جماهيريا كاسحا ، ولكن هذا لم يحدث الا

بعد استشهاد القسام وصحبه . والزمان هنا بالغ الأهمية .

● كان الاعداد للبؤرة ينقصه الاحكام . ولو ان عدة بؤر ثورية اشعلها القسام في آن ، لأمكن ضمان النجاح للكفاح المسلح ، بالصورة التي طمح اليها القسام . ذلك ان قيام عدة بؤر كان سيجبر سلطات الانتداب على بعثرة قواها العسكرية ، وتشتيت جهود قادتها السياسيين والعسكريين ، على السواء ، مما يحول دون تركيزهم على نقطة واحدة ، أو بؤرة ثورية واحدة . فاذا « ركز العدو قواه خسر الأرض ، وإذا تفرق خسر قوته » ، على حد تعبير معجزة الحرب الشعبية الفيتنامية ، الجنرال جياب . كما ان العمل كان ينقصه ترتيب القوات الرئيسية والاحتياطية ، مع تحضير لجان قيادية بديلة ، يمكن ان تحتل مكانها بمجرد ان يشغر موقع القيادة بمقتل او اسر اعضاء القيادة .

● لم يقترن اتخاذ القرار بتفجير انتفاضة القسام المسلحة بتوفير ضمانات الامن والاستمرار لهذه الانتفاضة على النحو الأفضل . وهذه الضمانات هي ، اساسا . التنظيم ، القيادة الثورية الصلبة المجربة ، والوضوح الفكري .... الى جانب السلاح ، والمال ، والتأييد الجماهيري ، الذي يمد الانتفاضة بالدماء الجديدة ، كلما نزفت بعضا من دمها .

ومهما يكن من امر هذه السلبيات ، فهي ليست سوى ذات طابع اجرائي ، في اغلبها . وعلينا ان لا نظلم الشهيد القسام وحركته ، او نجور في الحكم عليهما ، فنحاكمه وفق مقاييس راهنة ، وليس بمقاييس عصره هو . فالقسام اجتهد ، وابتكر ، وثابر ، وناصل ، وضحى بأعز ما يملك في سبيل مثله وافكاره .

لقد استشهد القسام قبل ان يأخذ فرصته ، حيث لم يكمل الاسبوع الاول من خروجه الى الأحراش . على ان حركته هذه كانت « البروفة » الأخيرة لثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية المسلحة ، والتي امتدت حتى اواخر ١٩٣٩ . فاستشهاد القسام زاد المشاعر الوطنية التهابا ، وقدم البديل الثوري للجماهير الشعبية الفلسطينية ، بعد ان عافت الأساليب « النضالية » التي افرزتها القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية (مذكرات ، عرائض استرحام ، مؤتمرات ، وفود الى المندوب السامي بالقدس والحكومة البريطانية بلندن) ، واخيرا فان رفاق القسام هم ــ دون غيرهم ــ الذين اطلقوا الرصاصات الأولى في هذه الثورة ، وهم الذين خاضوا غمار اشرس واشرف معاركها . لذا كان الحق ، كل الحق مع التلاثين الفا الذين هتفوا ، وهم يودعون الشهيد القسام الى مثواه الأخير : « عز الدين يا مرحوم موتك درس للعموم » .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديث :

* الاسلام والوحدة القومية — د. محمد عمارة
* عمر بن عبد العزيز — د. محمد عمارة
* الاسلام وفلسفة الحكم — د. محمد عمارة
  (طبعة جديدة في مجلد واحد) .
* ابو حيان التوحيدي — عبد الرزاق محي الدين
* ابو عبيدة بن الجراح — عبد الوهاب الاسواني
* الشريف الادريسي — راجي عنايت
* جدل الشعر والثورة — نزيه ابو نضال
* الرحلة الثامنة — جبرا ابراهيم جبرا
* آفاق الفن — جبرا ابراهيم جبرا
* ينابيع الرؤيا — جبرا ابراهيم جبرا
* الحرية والطوفان — جبرا ابراهيم جبرا
* أحوال الفلسطينيين الصحية والاجتماعية في لبنان — د. فتحية السعودي
* دراسات في الاستراتيجية الاسرائيلية — محمود عزمي

حقوق الانسان الفلسطيني
في فلسطين المحتلة

د . أنيس فوزي قاسم

محام ومستشار قانوني ومؤلف .

يتناول هذا البحث حقوق الانسان الفلسطيني في فلسطين المحتلة . سوف تعالج هذه الحقوق على المستويين الفردي والوطني ، أي حقوق الانسان المتعلقة بالفرد الفلسطيني وحقوق الانسان المتعلقة بالشعب الفلسطيني . وسوف تتم مناقشة بعض حقوق الانسان الفلسطيني في فلسطين المحتلة في مواجهة المستوطنين اليهود وبما يمثله ذلك من احتلال صهيوني تمارسه رسميا دولة اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية . ولأغراض هذا البحث فان كلمة فلسطين تعني فلسطين كما حددها صك الانتداب ، وحدة اقليمية متكاملة ذات حدود دولية معترف بها . وبهذا فان التعابير المستحدثة كالضفة الغربية وقطاع غزة والقدس ومنطقة الحزام الاخضر ، هي تجزئة مصطنعة لا تستند الى أساس قانوني .

الحقوق الفردية للانسان الفلسطيني

ان الحقوق الفردية لأي انسان عديدة ويصعب حصرها لاسيما في عصر شرعة الامم المتحدة ونشاطها المكثف الذي يستهدف تقنين هذه الحقوق اما على شكل قرارات وتوصيات كالاعلان العالمي لحقوق الانسان أو على شكل اتفاقيات دولية كاتفاقية ازالة جميع أشكال التمييز العنصري . وموضوع حقوق الانسان في فلسطين المحتلة بحث طويل ومتشعب . فمناقشة اتفاقيات جنيف المتعلقة بالسكان المدنيين وقت الحرب ومعاملة أسرى الحرب هي من المواضيع التي يجب ان تحظى باهتمام كبير [1] . ان اسرائيل تتبع رسميا سياسة « العقوبة الجماعية » وتدمير المنازل والاعتقالات العشوائية والتوقيف الاداري ، وترفض معاملة المقاتلين الفلسطينيين الذين يقعون في الأسر كأسرى حرب ، وتقوم باستعمار منظم لمناطق عديدة في فلسطين المحتلة وباقامة المستوطنات وجلب المهاجرين

---

(١) ان أبحاثا قليلة نشرت حول هذا الموضوع . انظر الياس حنا . الوضع القانوني للمقاومة العربية في الارض المحتلة (مركز الأبحاث ، ١٩٦٨) .

Mallison and Mallison, 'The Juridical Status of Irregular Combatants under the International Humanitarian Law of Armed Conflict, 9 Case Western Reserve **Journal of Int'l L.** 39, 70-72 (1972).

اليها [٢] . وهذه أعمال تخالف قوانين الحرب واتفاقيات جنيف التي وقعت عليها اسرائيل والتزمت بنصوصها [٣] .

أما وان المجال يضيق عن بحث متكامل ، فسوف نتناول بعض هذه الحقوق الفردية ، دون القصد من الانتقاص من أهمية الحقوق الاخرى .

١ ــ **حقوق الملكية** : ان الملكية الفردية حق ثابت وقديم قدم الانسان ، وبرغم ما طرأ على هذا الحق من قيود ثابتة نتيجة لفلسفات سياسية معينة أو قيود اقتضتها المصلحة العامة ، فان المساس بأساس هذا الحق بقي عملا عدوانيا في القانون .

مع قيام المنظمة الصهيونية العالمية ، بدأ النشاط الرسمي والمنظم للحصول على الارض وتأمين الهجرة اليهودية الى فلسطين . وهذان هما العمودان الفقريان اللذان تقوم عليهما الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل . وتم تأسيس الصندوق القومي اليهودي في المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد عام ١٩٠٣ .ونص دستور الصندوق على :

« ان المبدأ الاساسي لسياسة الأرض الصهيونية هو ان تصبح جميع الأرض التي سيجري عليها الاستعمار اليهودي ملكا عاما للشعب اليهودي »[٤] .

وكان ممنوعا على الصندوق أن يشتري أي أرض في فلسطين يملكها يهودي « مهما كانت أهمية الأسباب التي توجب مثل هذا الشراء »[٥] ، وانما يجب الشراء فقط من غير اليهودي ، واذا تم مثل هذا الشراء امتنع على الصندوق أن يبيعها أو يرهنها أو يتصرف بها ، كما وجب على الصندوق أن يحمي هذه الأرض من « الأخطار القومية أو الاجتماعية .... [٦] . وفي تعريف لهذه « الأخطار » ، كتب الدكتور جرانوفسكي ، خبير الأرض الصهيوني ، يقول :

« من وجهة النظر الوطنية ، فان استعمار الارض ذات الملكية الخاصة تكون خطرة لانه لا يوجد هناك ضمان من انها سوف لا تباع في وقت ما وتخرج من الملكية اليهودية . فقد يتسرب غير اليهود الى قلب المستوطنات اليهودية »[٧] .

ووضع الصندوق نظاما لاستغلال الأراضي التي يشتريها من غير اليهود، فاذا كانت الأرض زراعية أو لاقامة ابنية عليها ، فانها تؤجر بعقد ايجار طويل الأجل يمكن توارثه بين المستأجر اليهودي. فقد نصت المادة (٢٣) من عقد الايجار الذي وضعه الصندوق على أنه « يلتزم المستأجر أن ينفذ جميع الأعمال المتعلقة باستغلال المأجور بالعمل اليهودي واذا اخل (المستأجر) بهذا الالتزام فاستخدم عملا غير يهودي فانه يكون مسؤولا ... »[٨] . واستكمالا لعملية التهويد ، فقد أجبر المستوطنون في فلسطين على شراء المنتجات اليهودية فقط . وقد لخص الدكتور ارثر روبين ، رئيس

---

(٢) See, for example, the **Memorandum** issued by the Israel League for Human and Civil Rights to the U N Commission on the Israel Practices in the occupied territories dated 8-6-1970, A-8089, Annex VI, N. Y. T. Nov 13, 1969 and Nov 16, 1969.

(٣) Mallison, The Geneva Convention for the Protection of Civilian Persons. **The Arab World** (N Y. Dec. 1969-Jan, 70 p. 16 -22.

(٤) Quoted in I ESCO, **Palestine A Study of Jewish, Arab, and British Policies,** 340 (1947).

(٥) Granovsky, **Land Problems in Palestine,** (Trans. by Wedgood, 1926)

(٦) Id., 34.

(٧) Id., 20.

(٨) **Cmd., 3686** (1930) p. 32.

دائرة الاستعمار بالوكالة اليهودية مجمل الوضع في فلسطين أمام المؤتمر الصهيوني المنعقد في عام ١٩١٣ بقوله .

« ان الهدف الذي أمامنا هو خلق وضع يهودي واقتصاد يهودي مغلق يكون فيه المنتجون والمستهلكون والوسطاء من اليهود »[٩] .

وبقيت هذه السياسة هي القاعدة المتبعة في « القانون والممارسة الصهيونيين »[١٠] .

ان سياسة التهويد المنظمة سواء في التملك أو العمل أو الانتاج أدت الى تجريد الفلاحين الفلسطينيين من أملاكهم وحرمانهم من فرص العمل وامكانيات تسويق منتجاتهم . ان التقرير الرسمي الذي وضعته لجنة التحقيق البريطانية التي كان يرأسها رئيس القضاة السير والترشو قد أكد على فشل حكومة الانتداب في حماية الفلاحين ضد طردهم من الارض ، وحيث أنه « لم تكن هناك أراض بديلة لهم ، .... فالنتيجة كانت خلق طبقة من الفلاحين .. بدون أرض » . وكانت هذه هي احدى المسببات الرئيسية للاضطرابات التي وقعت في فلسطين عام ١٩٢٩ [١١] . وكانت هي أيضا احدى الأسباب الرئيسية للثورة الفلسطينية ١٩٣٦ـ ١٩٣٩ والتي اجتاحت الريف الفلسطيني[١٢] .

اذا كان هذا هو الطريق الذي سلكته المنظمة الصهيونية العالمية قبل قيام دولة اسرائيل في سلب ملكية الأرض من المالكين الشرعيين ، فان الدولة الجديدة سارعت الى سن تشريعات جديدة بالاضافة الى استغلال أنظمة الدفاع (الطوارىء) لعام ١٩٤٥ . ان مجموع هذه التشريعات والانظمة مع تعديلاتها يزيد عن ستة قوانين والخوض فيها تفصيلا يحتاج الى مجال أرحب من هذا البحث . الا أنه يمكن اجمالها في أنها تنفيذ لسياسة صهيونية قديمة وثابتة وهي مواصلة أسلوب مصادرة الاراضي الفلسطينية من مالكيها بتشريعات سنها أو وافق عليها جميعها الكنيست الاسرائيلي . فقد أقر الكنيست عام ١٩٥٠ قانون أموال الغائبين ، ويفترض في هذا التعبير انهم اللاجئون الفلسطينيون . يكفي أن نشير الى أنه بموجب هذا القانون تم هدم ما مجموعه ٣٧٤ قرية في فلسطين تم تسليمها مع أراضيها التابعة لها للمستوطنين اليهود . « وقانونا » ، كان هذا يتم من خلال القنوات التي رسمها القانون المذكور ، حين نقل أملاك الغائبين الى « القيم » الذي سمح له القانون ببيع تلك الأملاك الى « سلطة التعمير والانشاء » التي بدورها يحق لها نقل تلك الأملاك الى « الصندوق القومي اليهودي » أو مباشرة الى « الدولة » ان بعض هذه الاملاك تعود الى فلسطينيين ما زالوا في اسرائيل ويعتبرون « غائبين » بمفهوم القانون [١٣] .

واستغلالا لقوانين الدفاع (الطوارىء) ، فقد استغلت الدولة المادة (١٢٥) والتي تمنح الحكام العسكريين سلطة اعلان مناطق معينة بأنها مغلقة لا يسمح بدخولها أو الخروج منها الا

---

(٩) Ruppin. **Three Decades of Palestine,** (Jerusalem, 1936)

(١٠) Granott. **Agrarian Reform and the Record of Isreal,** 17 (1956). See also Weinstock, The Impact of Zionist Colonization on Palestinian Arab Society Before 1948, in **Journal of Palestine Studies,** Vol. II No. 2 (1973) p. 19

(١١) **Cmd. 3530** (1930), 162

(١٢) **Cmd., 5479.**

(١٣) للبحث في التشريعات الاسرائيلية المتعلقة باستملاك الاراضي الفلسطينية ، استند المؤلف على الكتاب الذي وضعه الاستاذ صبري جريس العرب في اسرائيل (الطبعة الثانية ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٣) ١٣١ ـ ١٧٢ حيث أن المراجع التي استخدمها المؤلف تستند الى مصادر رسمية أو شبه رسمية .

بتصريح خطي من الحاكم العسكري . وهكذا عمدت السلطات الاسرائيلية ــ في سبيل انتزاع ملكية ارض أو قرية من أصحابها الشرعيين ــ الى اعلان تلك المنطقة « منطقة مغلقة » لأسباب « أمنية » . واذا لجأ أصحابها الى المحاكم الاسرائيلية ، فان ادعاءات « الامن » تلجم أية مناقشات أو استفسارات قضائية ، حين تمتنع المحكمة عن الطلب للجهات الرسمية بابداء أسباب الامن المدعى بها .

أما انظمة استغلال الاراضي المبورة لعام ١٩٤٩ فقد عبرت هذه الأنظمة عن المأزق الذي وقع فيه الفلسطينيون بسبب التنسيق المحكم الذي قام بين الحكام العسكريين ومسؤولي الحكومة المنوط بهم تنفيذ هذا القانون . فالحاكم العسكري يعلن ان منطقة ما أصبحت منطقة مغلقة لأسباب أمنية ، ولا يجيز الدخول اليها الا بتصريح خطي . وبذا يمنع أصحابها الفلسطينيون من الوصول اليها وفلاحتها . وهكذا تتحول هذه الاراضي بعد فترة من اغلاقها الى أراض « غير مفلوحة » . وحسب القانون المذكور ، فان لوزير الزراعة الحق « من أجل تأمين فلاحتها » في « تسليمها الى شخص آخر لفلاحتها » . أما ذلك « الشخص الآخر » فكان دائما المستوطنون اليهود .

ثم جاء قانون تنظيم الاستيلاء على عقارات في ساعة الطوارىء لعام ١٩٤٩ . وقد اختص هذا القانون بالعقارات الواقعة في المدن الفلسطينية . لقد أعطى القانون الحكومة صلاحية اصدار « أمر بالاستيلاء على عقارات أو أمر اسكان » في الحالات التي تعتقد فيها الحكومة أن اصدار مثل هذه الاوامر « ضروري لحماية البلاد والمحافظة على الامن العام ... أو استيعاب العائدين ... »

وجاء القانون السادس ــ قانون استملاك الاراضي لعام ١٩٥٣ . ان الاساس الذي قام عليه هذا القانون هو نقل ملكية الأراضي والعقارات التي تم الاستيلاء عليها بموجب القوانين السابقة الى الدولة . فالقوانين السابقة نقلت سلطة ادارة واستغلال الاراضي دون نقل ملكيتها ، وجاء هذا القانون لحسم هذا الامر نهائيا ، وبذا يعتبر أخطر القوانين الاسرائيلية الصادرة بهذا الشأن .

واذا كان الظن ان تلك التشريعات اقتضتها ظروف الدولة ، فان الكنيست ، بعد حرب يونيو ١٩٦٧ قد سنت قانون الاستيطان الزراعي حيث فرضت قيودا شديدة على المستوطنين لمنعهم تأجير أراضيهم للفلسطينيين أو بيعهم حقهم في مياه الري [١٤] . وبهذا أكدت السياسة الصهيونية عن اتباعها منهجا ثابتا لا تحيد عنه وهو تجريد السكان الاصليين من ممتلكاتهم ، والحؤول دون عودتهم الى الأرض حتى ولو على شكل عمال مأجورين .

٢ ــ **حق الجنسية**[١٥] : لقد الزم صك الانتداب على فلسطين الدولة المنتدبة وضع قانون للجنسية الفلسطينية . وتأكد هذا في معاهدة لوزان (١٩٢٤) حيث نصت على ان الرعايا العثمانيين الذين يقيمون بشكل اعتيادي في فلسطين « سيصبحون حكما » مواطنين في تلك الدولة . واستنادا لذلك ، أصدرت بريطانيا ، بصفتها الدولة المنتدبة ، قانون الجنسية الفلسطيني لعام ١٩٢٥ حيث

---

(١٤) Jirvis, Recent Knesset Legislation and the Arabs in Israel, **Journal of Palestine Studies**, Vol. I, No. 1 (1971) p. 53.

(١٥) هذا البحث يستند الى دراسة للمؤلف معنوان . قانون العودة وقانون الجنسية الاسرائيليان ــ دراسة في القانونين المحلي والدولي (مركز الابحاث ١٩٧٢) ٤١ ــ ٦٤ . كما يمكن مراجعة النص العربي لقانوني العودة والجنسية في ملاحق الكتاب .

اصبح ساري المفعول في الأول من أغسطس/ آب من نفس السنة .

حين قيام دولة اسرائيل ، توقف العمل بقانون الجنسية الفلسطيني ، وبالتالي فقد أصبح الفلسطينيون بلا جنسية . وعلى هذا استقر اجتهاد المحاكم الاسرائيلية . وحين جاء قانون الجنسية الاسرائيلي الصادر في ١٩٥٢ جعل الفلسطينيين بلا جنسية من الناحية القانونية أيضا . فقد ألغى هذا القانون أولا قانون الجنسية الفلسطيني بأثر رجعي يعود الى ١٤ مايو/آيار ١٩٤٨ ثم رسم اجراءات التجنس للفلسطينيين . تنص المادة الثالثة من القانون على ما يلي .

« أ . من كان قبيل انشاء الدولة فلسطيني الجنسية ، ولم يكن اسرائيلي الجنسية بموجب المادة ٢ ، يكون اسرائيلي الجنسية اعتبارا من يوم انشاء الدولة اذا توفرت فيه الشروط التالية . ١ ــ في يوم ٤ آذار ٥٧١٢ (أول آذار ١٩٥٢) كان مسجلا قاطنا بموجب مرسوم تسجيل السكان ، لسنة ٥٧٠٩ ــ ١٩٤٩ : ٢ ــ في يوم بدء العمل بهذا القانون كان قاطنا في اسرائيل ٣٠ ــ من يوم انشاء الدولة الى يوم بدء العمل بهذا القانون كان في اسرائيل ، أو في أراض صارت أراضي اسرائيلية بعد انشاء الدولة ، أو دخل اسرائيل خلال هذه المدة بصورة قانونية » .

يلاحظ من قراءة النص أن الفلسطيني الذي لم يكتسب الجنسية الاسرائيلية بموجب المادة (٢) من القانون عليه استيفاء الشروط المبينة . المادة (٢) هي المادة التي تمنح أي يهودي مهاجر الى اسرائيل حقا اتوماتيكيا وفوريا باكتساب الجنسية الاسرائيلية بحكم العودة الى اسرائيل أما الفلسطيني الذي عاش في فلسطين لأجيال سحيقة ، واكتسب الجنسية الفلسطينية بتشريع محلي واعتراف دولي ، فعليه ان يستوفي الشروط الثلاثة . ان الشرط الأول وهو التسجيل في السجل السكاني ، فقد كان عمليا شرطا شبه مستحيل . ان السلطات الاسرائيلية التي أنيط بها عمليات الاحصاء عام ١٩٤٩ تعمدت في كثير من الأحيان عدم تسجيل الفلسطينيين . وحتى يثبت الفلسطيني انه كان يحمل الجنسية الفلسطينية عليه أن يبرز جواز سفر أو هوية شخصية . ولم يكن هذا بمستطاع بسبب ان كثيرا منهم لم يحصل على جواز سفر أو هوية شخصية أو انهم فقدوها أثناء الحرب الفلسطينية . ثم ان واقع الحرب فرض حدوداً للهدنة الأولى والثانية ثم اتفاقيات رودس . فأية حدود هي التي كان يقطنها الفلسطيني لكي يثبت أنه كان قاطنا في اسرائيل ؟ أما شرط الدخول المشروع الى اسرائيل ، فهو شرط قد يكون مقبولا في أوضاع اعتيادية حيث هناك مراكز الدخول البرية والبحرية والجوية ، أما تطبيقه في أوضاع حرب كالحرب الفلسطينية فهو شرط قصد به باطل . ان من سافر ولو فترة قصيرة الى مدينة مجاورة ، وأعلن أثناء غيابه عن اتفاقيات رودس والتي بموجبها تم تعديل الحدود واكتساب مناطق فلسطينية جديدة لصالح اسرائيل ، وأراد أن يعود هذا المسافر الى أهله ، فهل يدخل اسرائيل بصورة مشروعة ؟ وهل كان في « اسرائيل » من الناحية القانونية ؟ تجب الاشارة الى أن اسرائيل حتى يومنا هذا ترفض رسميا تحديد حدودها الدولية .

ان ما تقدم يشكل نصف المشكلة . أما النصف الآخر فهو أنه ما زال حتى الآن فلسطينيون في اسرائيل يولدون بلا جنسية . يتضح هذا بقراءة متمعنة في الفقرة (ب) من نفس المادة (٣) من قانون الجنسية الاسرائيلي :

« ب من ولد بعد انشاء الدولة وفي يوم بدء العمل بهذا القانون كان قاطنا في اسرائيل ، وكان والده أو والدته اسرائيلي الجنسية بموجب الفقرة « أ » فيكون اسرائيلي الجنسية منذ يوم ولادته » .

بادئ ذي بدء ، يجب عدم الخلط بين النص السابق وبين الحق التقليدي في الحصول على الجنسية بالمولد (حق الدم) . فالنص مرتبط بالفقرة (أ) من نفس المادة المذكورة سابقا . وبمفهوم

المخالفة . فالمولود لأب أو لأم لم يستطع أي منهما اكتساب الجنسية الاسرائيلية بموجب الفقرة (أ) فانه لا يستطيع أن يكتسب الجنسية الاسرائيلية ، اي انه يولد بلا جنسية . وهكذا يتوالد فلسطينيون بلا جنسية في اسرائيل حتى يومنا هذا .

ان المقارنة بين طريقة اكتساب الجنسية بالاقامة والمقررة للفلسطينيين بطريق اكتسابها بحكم العودة والمقررة لليهود تظهر درجة التمييز العنصري بشكل لم ينازع به الكتاب الاسرائيليون أنفسهم [١٦]

تنص المادة الثانية من قانون الجنسية الاسرائيلي على ان « كل مهاجر بمقتضى قانون العودة ، لسنة ٥٧١٠ ـ ١٩٥٠ يكون اسرائيلي الجنسية » . وبالرجوع الى قانون العودة ، فانه ينص في مادته الأولى على انه « يحق لكل يهودي أن يهاجر الى اسرائيل » . وهكذا تبدو العلاقة واضحة بين القانونين : بينما يعطي قانون العودة اليهودي حقا بالهجرة ، فان قانون الجنسية يمنحه الجنسية الاسرائيلية فورا . وطالما ان « العودة » « حق » لكل يهودي ، فان هذا اليهودي العائد لا يخضع لأي التزام قانوني باتخاذ أي اجراء في سبيل الحصول على الجنسية الاسرائيلية . فالقانون لا يتطلب منه « التقدم بطلب » الحصول على الجنسية ، ولا يفرض عليه ان « يقيم » فترة من الزمن قبل أن يصبح صالحا للحصول على الجنسية ، ولا يشترط عليه ان يؤدي « قسم الولاء » أو أن يتنازل عن جنسيته الأصلية ولا حتى أن يعلن عن رغبته أو نيته أن يصبح مواطنا اسرائيليا . وفي ذلك يقول أحد المحامين الاسرائيليين البارزين أن اليهودي المهاجر يصبح مواطنا اسرائيليا حتى دون توافر أدنى قدر من الرغبة لديه أو دون حق الاعتراض من جانب الحكومة [١٧] . بل ان القانون يلزم اليهودي القادم الى اسرائيل بأن يعلن أمام مسؤول اسرائيلي « رفضه » للجنسية الاسرائيلية اذا كان لا يريد أن تخلع عليه هذه الجنسية . وهذا ما تشير اليه الصياغة الدقيقة للمادة الثانية حيث نصت على أنه :

لا تسري هذه المادة على :

١ ـ ....

٢ ـ البالغ الذي كان قبيل بدء العمل بهذا القانون أو ـ أن قدم الى البلاد بعد ذلك ـ قبيل قدومه ، أو قبيل يوم منحه شهادة المهاجر ، كان اجنبي الجنسية ، وصرح ، في ذلك اليوم او قبله ، بانه لا يرغب في ان يكون اسرائيلي الجنسية . (التأكيد مضاف) .

حقوق الانسان المتعلقة بالشعب الفلسطيني

ان حقوق الانسان المتعلقة بأي شعب ، كوحدة قومية ، هي أساسا حقه في تقرير المصير . وتتساوى في هذا الحق جميع الشعوب بغض النظر عن قومياتها ، واجناسها ، وألوانها ودياناتها . وقبل مناقشة هذا الحق بالنسبة للشعب الفلسطيني ، ينبغي وضع الاطار القانوني ، وتحديد المفهوم القانوني لحق تقرير المصير .

١ ـ **الاطار القانوني لحق تقرير المصير** : يدور الجدل بين بعض فقهاء القانون حول هل تقرير المصير « مبدأ » أم « حق » . ؟ ويحتدم النقاش بشكل تعسفي ، مما قد يثير شبهة السفسطائية التي لا طائل تحتها . ان أي شعب يعيش على رقعة محددة من الأرض له مطلق الحرية في تقرير وضعه السياسي وله السلطة الكاملة على مصادره الطبيعية . ومن خلال تشكيل أطره السياسية يستطيع هذا

---

(١٦) نفس المرجع ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(١٧) Rosenne, The Israel Nationality Law 5712-1952 and the Law of Return 5710-1950. 81 J. D Int. 5, 19 (1954).

الشعب أن يتعامل مع نفسه ويتعامل مع غيره من الشعوب ، أي يبدأ بتنظيم تشريعاته الداخلية والمساهمة في وضع التشريعات والأعراف الدولية .

وتقوم منظمة الأمم المتحدة بدور بارز في هذا المضمار . وقد أشار ميثاق الأمم المتحدة في الفقرة الثانية من مادته الأولى وفي المادة (٥٥) الى « مبدأ » تقرير المصير . الا أن قرارات الأمم المتحدة ومشاريع الاتفاقيات الدولية التي أعدتها اشارت الى « حق تقرير المصير » وطرحت تعريفا لذلك هو « حرية الشعوب في تحديد وضعها السياسي وحرية تطوير حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... وحرية التصرف بثرواتها الطبيعية »(١٨) . وفي سلسلة من القرارات الدورية وشبه الاجماعية ، عبرت المنظمة الدولية عن اعز التوقعات لجميع الشعوب التي أحرزت حق تقرير مصيرها او ما زالت تحاول للوصول الى ذلك الحق .

٢ ـ **المحتوى القانوني لحق تقرير المصير** : لو اعتبرنا دستور منظمة الأمم المتحدة على أنه تقنين لأهم مبادىء القانون الدولي ، فان المادة الثانية ، الفقرة (٤) من الميثاق تنص على التزام الدول بالامتناع عن استخدام القوة أو حتى التهديد باستخدامها ضد « الاستقلال السياسي » و « السلامة الاقليمية » للدول الأخرى . أما المادة (٥١) من الميثاق فقد حرمت العدوان تحريما باتا ، واحتفظت لكل دولة بحق الدفاع عن النفس فقط . ومن ربط هذين النصين معا ، يمكن الوصول الى نتيجة مؤداها ان المحتوى الأساسي لحق تقرير المصير هو الاستقلال السياسي والسلامة الاقليمية لكل شعب . وحين حرم القانون الدولي العدوان ، فانما التحريم يقع حصرا على استخدام اية قوة من شأنها تهديد المحتوى الأساسي لحق تقرير المصير . وحين أباح حق الدفاع عن النفس ، فان الاباحة تقع فقط على المحافظة على الاستقلال السياسي والسلامة الاقليمية .

لقد استخدم حق تقرير المصير في ثلاثة أطوار : الاول . تم استخدامه في البداية لأغراض استعمارية وتوسيع المجالات الحيوية للدول . ان مبدأ مونرو هو أحد الأمثلة البارزة على ذلك . فقد أعلن الرئيس الأميركي مونرو أن القارتين الأميركيتين سوف لا تخضعان من الآن وصاعدا لمزيد من استعمار الدول الأوروبية لان « أمن وسلامة الولايات المتحدة يتطلب هكذا »(١٩) . وقبل توقيعها على معاهدة باريس ، أبدت بريطانيا تحفظا بالنسبة لبعض المناطق في العالم والتي تعتبر أساسية « لسلامة وأمن » بريطانيا (٢٠) . أما الطور الثاني لحق تقرير المصير ، فهو استخدامه للمحافظة على الوضع الراهن للدول التي اكتسبت وضعا سياسيا محددا وتريد الابقاء على هذا الوضع . فالدول ـ كما استقرت أوضاعها في العصر الحديث ـ بدأت تؤكد على استقلالها السياسي وسلامتها الاقليمية ، وتعزز مفاهيم في القانون الدولي تخدم ذلك الغرض ، كمفهوم السيادة للدول ، ومبدأ المساواة بين الدول ، وتحريم العدوان ، واباحة حق الدفاع عن النفس . أما الطور الثالث ، فهو استخدام حق تقرير المصير من قبل شعوب فقدت استقلالها السياسي وفقدت سيطرتها على مواردها الوطنية ، وهي الآن تكافح لاسترجاع حقها في تقرير المصير . ان هذا الشكل هو الذي تثيره شعوب وقعت تحت الاحتلال الأجنبي ـ كالدول الأوربية أثناء الغزو النازي ـ أو تحت السيطرة الأجنبية ـ كشعوب

---

(١٨) International Covenant on Economic, Social and Cultural Rights, (1966). See text in Brownlie, **Basic Documents in International Law**, 139 (1967).

(١٩) **Moor's Digest of International Law**, 368, 402 (1906).

(٢٠) Quoted in Miller, **The Peace Pact of Paris** 198-199 (1928)

المستعمرات في افريقيا وآسيا . وقد لعبت هيئة الامم المتحدة دورا بارزا في تطوير هذا المفهوم .

ان القرار المتعلق بمنح الاستقلال للأقطار والشعوب المستعمرة الصادر عام ١٩٦٠ يعتبر ذا مغزى خاص في سياق التعرض لحق تقرير المصير (٢١) . فقد نص القرار على حق جميع الشعوب في تقرير مصيرها ، وطالب بانهاء الاستعمار باعتباره محبطا لتطور الشعوب الاقتصادي والاجتماعي ومتناقضا مع أهداف وأغراض هيئة الامم المتحدة . وفي تعليق قانوني موثق ، أشار البرفسور « والدوك » الى ان هذا القرار ليس « توصية » من التوصيات التي تصدرها الجمعية العامة ، وانما هو « تفسير » لميثاق الأمم المتحدة (٢٢) . وقد اشارت محكمة العدل الدولية الى هذا القرار في رأيها الاستشاري حول ناميبيا حيث اعتبرته « مرحلة هامة » في تطور مفهوم حق تقرير المصير (٢٣) .

وبرغم اهمية القرارات الاخرى التي اتخذتها هيئة الأمم في هذا المجال ، فان الاتفاق أخيرا على « تعريف العدوان » قد وضع علامة بارزة في التطور القانوني لحق تقرير المصير . فقد نصت المادة (٧) بصراحة على انه « ليس في هذا التعريف ... ما من شأنه أن يهدد حق تقرير المصير وحرية واستقلال ... الشعوب التي حرمت بالقوة من تلك الحقوق .... ولا سيما الشعوب الواقعة تحت حكم استعماري أو عنصري أو أي شكل من أشكال السيطرة الأجنبية .... (٢٤) .

٣ ـ **حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني** : ان الوضع القانوني الدولي لفلسطين بعنصريها الاقليمي والسكاني قد حدده صك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم عام ١٩٢٣ . واعتبرت فلسطين ، مثل باقي الأقاليم التي خضعت للانتداب ، « أمانة مقدسة » لدى دولة الانتداب التي الزمت بمساعدة فلسطين لتطوير مؤسساتها لكي تتمكن في النهاية من ممارسة مهامها كعضو في المجتمع الدولي . واعتبرها صك الانتداب « اقليم أ » ، أي انها أقرب الى درجة الاستقلال السياسي من الأقاليم التي اعتبرت « ب » أو « ج » . فقد تبادلت فلسطين التمثيل القنصلي مع اكثر الدول العربية ، وعقدت اتفاقيات دولية حيث كانت طرفا في أكثر من خمسين اتفاقية أبرمت بواسطة عصبة الأمم . وكانت لفلسطين تشريعاتها الداخلية بما في ذلك قانون الجنسية الذي نظم جنسية المواطنين القاطنين فيها بعد انسلاخها عن الدولة العثمانية . وكانت الهيئة العربية العليا هي الممثلة الشرعية للشعب الفلسطيني ، وتعاملت معها دول الانتداب والدول الأخرى على هذا الأساس وبهذه الصفة(٢٥) .

ان التاريخ التشريعي لصك الانتداب على فلسطين يبين بوضوح ان عصبة الأمم كانت تتجه نحو الاعتراف الكامل بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني. وقبل أن التزمت الولايات المتحدة الأمريكية بسياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، قام الرئيس ويلسون بتشكيل لجنة خاصة هي لجنة كنج ـ كرين عام ١٩١٩ لتقوم تلك اللجنة بالتحقيق في رغبات الشعب الفلسطيني . وقدمت اللجنة تقريرها مستندة في ذلك الى تحقيقات ميدانية ، حيث ورد فيه :

---

(٢١) Res. 1514 (XV), Dec. 14, 1960.

(٢٢) Waldock, General Course on Public International Law, 106 Hague Recueil, 1, 33 (1962-II)

(٢٣) (1971) I. C. J. Reports, 31.

(٢٤) See text in 69 Am. J. Int'l. L. 480 (1975).

(٢٥) عيسى نخلة المحامي ـ الكيان الفلسطيني ووضع فلسطين الحالي بموجب القانون الدولي ـ مذكرة قانونية قدمت الى الوفود العربية في هيئة الأمم والى المؤتمر السادس لاتحاد المحامين العرب المنعقد في القاهرة عام ١٩٦١ ؛ وانظر أيضا Cattan, Palestine and International Law (1973)

اذا كان ذلك المبدأ (تقرير المصير) هو الذي سيطبق ، ورغبات سكان فلسطين هي التي ستكون حاسمة بالنسبة لوضع فلسطين ، فانه يجب التذكير بأن سكان فلسطين غير اليهود وهم تقريبا تسعة أعشار مجموع (السكان) ــ يعارضون باصرار البرنامج الصهيوني ....

ويؤكد التقرير أن تنفيذ مشروع الوطن القومي اليهودي سيكون معارضا للمبدأ المذكور أعلاه (مبدأ تقرير المصير) ولحقوق الشعوب ... (٢٦) .

ان تجاوز عقبة مبدأ تقرير المصير الذي سيطر على عصبة الأمم كان احد هموم اللورد بلفور نفسه صاحب « اعلان بلفور » الشهير . وقد عبر بلفور عن أزمته تلك في مذكرة بعث بها الى اللورد كيرزون ، عضو حكومة الحرب البريطانية ، حيث قال :

ان التناقض بين نصوص صك الانتداب وسياسة الحلفاء (المتعلقة بانشاء الوطن اليهودي) هي أكثر سوءا في حالة « شعب (فلسطين) المستقل » . لانه في فلسطين لم نقم حتى باستشارة السكان الحاليين .... (٢٧) .

وهذا تأكيد واضح على أن صك الانتداب كان مؤداه الأوحد حق تقرير المصير للشعوب التي انسلخت عن الامبراطورية العثمانية والدولة الألمانية . وأثناء مناقشة مشروع صك الانتداب من قبل حكومة الحرب البريطانية ، قدم اللورد كيرزون ، وكان من أهم أعضاء الحكومة وأكثرهم خبرة في شؤون الشرق الأوسط ، اعتراضا قويا على تأسيس دولة يهودية في فلسطين . وقال في مذكرته :

هذا بلد فيه ٥٨٠,٠٠٠ عربي و ٣٠,٠٠٠ أو ٦٠,٠٠٠ يهودي (وبالتأكيد ليسوا جميعا صهيونيين) . وفي الوقت الذي نتصرف فيه استنادا الى المبادىء النبيلة من تقرير المصير ... فاننا نقوم بتحرير وثيقة تصبح ... (في الواقع) دستورا لدولة يهودية (٢٨) .

وفي مناقشة الصيغة النهائية للانتداب ، كتب اللورد كيرزون الى مجلس الوزراء البريطاني مذكرة يقول فيها :

(لقد مرت مسودة هذا الانتداب) في صياغات عديدة وحينما عرضت في البداية على الحكومة الفرنسية ، فانها اثارت فورا انتقادهم الشديد وذلك على أساس انها جاءت بشكل كامل تقريبا في مصلحة الصهيونية ، وعلى الاسلوب الذي اهملت فيه مصالح وحقوق الاغلبية العربية . وقد عبرت الحكومة الايطالية بمخاوف مماثلة . ولهذا فان الانتداب في مجمله تقريبا قد أعيدت صياغته وبالتالي حصلنا على موافقتهم .... (٢٩) .

وما كان مبدأ الانتداب غير تأهيل الأقاليم الواقعة تحت الانتداب في الوصول الى ممارسة تقرير مصيرها . وقد حسمت محكمة العدل الدولية هذا الأمر في رأيها الاستشاري حول وضع جنوب افريقيا في ناميبيا حيث اعتبرت ان الهدف الأعلى للانتداب هو تحقيق « تقرير المصير » و/ أو « الوجود السياسي » للشعوب ذات العلاقة (٣٠) . وبالتأكيد فان الشعب الفلسطيني كان أحد « هذه الشعوب ذات العلاقة » .

استنادا للتاريخ التشريعي لصك الانتداب ونصوصه ورأي محكمة العدل العليا يبدو جليا ان حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني كان معتبرا ومعترفا به من قبل دول المنظمة الدولية ، وهذه هي

---

(٢٦) U S Government-Foreign Relations of the United States: **The Paris Peace Conference,** Vol XII, 793.
(٢٧) British Government, Public Record Office Foreign Office No. 371-4183 (1919).
(٢٨) Ib., 371-5199.
(٢٩) Id., 371-5248.
(٣٠) (1971) I. C. J. **Reports,** 31, 34.

الأسس القانونية الأولى في القانون الدولي لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . وقد تعزز هذا الحق للشعب الفلسطيني أمام هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ . في ذلك العام ، وحين عبرت بريطانيا عن رغبتها في انهاء دورها كدولة انتداب على فلسطين ، سارعت المنظمة الدولية بتشكيل لجنة خاصة بفلسطين لدراسة الوضع وتقديم توصياتها . فشلت اللجنة الخاصة في الوصول الى قرار اجماعي حول وضع توصياتها . فانقسمت الى رأي أغلبية يقترح تقسيم فلسطين ورأي اقلية يعارض التقسيم . الا أن اللجنة أجمعت على منح فلسطين الاستقلال في أقرب فرصة ممكنة . وحين أوصت الجمعية العامة بتقسيم فلسطين الى دولة يهودية ودولة عربية ، فانه يمكن القول ان المنظمة الدولية اعترفت بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ولو في جزء في فلسطين . وبمناقشة هذه التوصية فانها تشكل تراجعا ملحوظا عن الوضع الذي تمتعت به فلسطين في صك الانتداب . الا انها بالتأكيد ، كتوصية ، غير ذات بال بالنسبة الى الاتفاقية الدولية التي تبنتها عصبة الأمم وحددت فيها وضع فلسطين والشعب الفلسطيني .

في عام ١٩٦٩ استعادت منظمة هيئة الأمم المتحدة دورها المتوقع منها في حل القضية الفلسطينية . فقد صوتت الجمعية العامة وبأغلبية ثلثي أصوات الحاضرين على الاعتراف بالحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني [٣١] . وفي ١٩٧٠ ، حددت الجميعة العامة هذه الحقوق الأساسية « حقوق المساواة وحق تقرير المصير » وفقا لميثاق هيئة الأمم المتحدة [٣٢] . وتأكد هذا الموقف في عامي ١٩٧١ ، ١٩٧٢ . اما في عام ١٩٧٣ ، فقد أخذت هيئة الأمم موقفا أكثر انسجاما مع ميثاقها . فقد تبنت قرارا اعلنت فيه تأكيدها على حق جميع الشعوب الواقعة تحت الحكم الاستعماري أو السيطرة الأجنبية في تقرير المصير والاستقلال والحرية ، واعترفت بشرعية كفاح هذه الشعوب لتحقيق مطالبها بما في ذلك حق استخدام القوة . وقد عددت هيئة الأمم في قرارها هذا بعض الشعوب الافريقية والشعب الفلسطيني [٣٣] .

أما التطور الهام الآخر في تاريخ المنظمة الدولية فهو اصدار قرار في أكتوبر ١٩٧٤ بأغلبية (١٠٥) أصوات ضد (٤) أصوات بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها ممثلة للشعب الفلسطيني للاشتراك في مداولات الجمعية العامة المتعلقة بالقضية الفلسطينية[٣٤] . وبهذه الصفة أيضا دعيت منظمة التحرير للاشتراك في مداولات مجلس الأمن الدولي في أكثر من مناسبة حيث قدمت الدعوة لمنظمة التحرير « وكأنها دولة عضو » في المنظمة الدولية وذلك استنادا للمادة (٣٧) من لائحة اجراءات مجلس الأمن [٣٥] .

ان الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة ما زالت تتبنى قرارات بأغلبيات ساحقة لمصلحة حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، وتؤكد شرعية استخدام القوة من قبل الشعب الفلسطيني لاسترداد حقه في الاستقلال السياسي واقامة سيادته على اراضيه ، وتعترف بمنظمة التحرير كممثل شرعي له . ان مجمل هذه القرارات تعبر عن سياسات الدول التي صوتت لها ، وتم التصويت عليها ليس على شكل

(٣١) G. A. Res. 2535 B (XXIV), Dec. 10, 1969.

(٣٢) G. A. Res. 2672 C (XXV) Dec 8, 1970.

(٣٣) G. A. Res. 3070 (XXVIII) Nov. 30, 1973

(٣٤) G. A. Res. 3210 (XXIX), Oct. 14, 1974.

(٣٥) See U. N. Chronicle, 6 April, 1978.

« توصيات » وانما على شكل « قرارات » تعتبر مكملة لميثاق الأمم المتحدة ، وبذلك فان هذه القرارات يمكن اعتبارها جزءا لا يتجزأ من القانون الدولي الحديث . انها تفسير رسمي لميثاق هيئة الأمم المتحدة وتشكل في مجموعها سوابق قانونية تساهم في تطوير القانون الدولي الذي بدوره سوف يساهم ، أو يستخدم لأول مرة ، في حل النزاع الفلسطيني الاسرائيلي .

التقييم القانوني لحقوق الانسان

١ ــ **حقوق الانسان ــ الفرد** : في دولة اليهود ، لا يمكن بشكل مطلق وليس نسبي ، ان يتساوى غير اليهود باليهود . حين سئل الدكتور حاييم وايزمن في باريس ١٩١٩ ماذا يعني بدولة يهودية أجاب : « نريد فلسطين يهودية كما هي انجلترا انجليزية [٣٦] . بهذا التلخيص الشديد يمكن استيعاب محتوى دولة يهودية . فالأرض والجنسية والعمل والتعليم والانتاج وكل مرافق الدولة تنقسم بخيط واضح لا لبس فيه : يهودي وغير يهودي . حتى مخصصات المياه في دولة اليهود هي مخصصات لليهود وأخرى لغير اليهود [٣٧] ان مناشدة اسرائيل لمساواة مواطنيها غير اليهود بمواطنيها اليهود هي مناشدة قاصرة عن فهم الفقه الصهيوني . انها بالاحرى محاولة ساذجة . سوف تفقد دولة اليهود مبرر وجودها لو فعلت غير ما هي قائمة عليه اليوم .. والباحثون عن السلام العربي الاسرائيلي سوف يصطدمون بأن الحواجز القائمة ليست نفسية ، انما هي فلسفات حياتية مقننة في كتب للقانون يطبقها صانعو القرارات السياسية والادارية والقضائية والتشريعية .

٢ ــ **حقوق الانسان ــ الشعب** : ان الحاجز الأكبر الذي يحول دون الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره هو قيام « دولة اليهود » في فلسطين . ان دولة اليهود هي ليست دولة « الشعب الاسرائيلي » وانما هي دولة « الشعب اليهودي » . ان الفرق بين هذين المفهومين مقنن في القوانين الاسرائيلية وفي سلسلة من قرارات المحكمة العليا في اسرائيل [٣٨] . ومفهوم « الشعب اليهودي » هو احد الركائز الرئيسية في الفقه الصهيوني من أيام هرتزل حتى الآن . وهكذا يبدو التناقض الحاد بين حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وبين ادعاء « الشعب اليهودي » في تقرير مصيره . وهذا ما يبرر لجوء فقهاء الصهيونية وصانعي القرارات الاسرائيلية الى نفي وجود الشعب الفلسطيني ، أو في أحسن الحالات ، يشار الى الشعب الفلسطيني بكلمة « الفلسطينيين » أو « سكان » الضفة الغربية وغزة ، أو « العرب الاسرائيليين » . وهي تعابير مقصودة ترمي الى نفي صفة « الشعب » وبالتالي انكار حقه الأساسي في تقرير مصيره [٣٩] .

ان تحديد هوية شعب ما هي ليست بصعوبة تحديد هوية طفل مجهول الأب . وبرغم ذلك ، فانه اذا استقر الفقه على اعتبار « النسب للفراش » في حالة الطفل مجهول الأب ، فان نسب الشعب

---

(٣٦) Weizmann, **Trial and Error** 244 (1966).

(٣٧) See Supra Note 14.

(٣٨) **The Attorney-General of the Government of Israel v. Adolf, the son of Karl Adolf Eichmann,** Criminal Case No. 40-61, affirmed, Criminal Appeal No. 336-61 Supreme Court of Israel; **Rufeisen v. Minister of Interior,** H. C. 72-62; **Shalit v. Minister of Interior,** H. C 58-68.

(٣٩) Golda Meir, **Sunday Times,** June 15, 1969; Feinberg, **The Arab-Israel Conflict in International Law** (Jerusalem, 1970) 21-31; 44-55; Stone, Peace and the Palestineans, 3N. Y. U. J. **Int'l. L. and Pol.** 247 (1970).

الفلسطيني للأرض الفلسطينية . وهذا النسب قائم في وقائع التاريخ والوثائق القانونية .

ان الانتقاص الخطير من حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره قد ورد في اتفاقيات كامب ديفد . قبل ستة عقود من الزمن تقريبا اعترفت عصبة الأمم بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ومنذ بداية السبعينات ومختلف دول العالم ، داخل المنظمة الدولية وخارجها ، تطالب بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وتعترف له بحق استخدام القوة في سبيل ذلك . وتأتي اتفاقيات كامب ديفد بمشروع « الحكم الذاتي » راجعة بذلك الى مفاهيم القرن التاسع عشر ، حيث كانت اطروحات الحكم الذاتي متوافقة مع متطلبات الأقليات في أوروبا ، واتبعتها عصبة الأمم على نطاق محدود بالنسبة لبعض أقاليم افريقيا : ان هذا النكوص الشديد الارتداد الى الوراء هو تهديد خطير لحق أساسي من حقوق الشعب الفلسطيني ، مما يعطي هذا الشعب كامل الحق ، وفق القانون الدولي العرفي والاتفاقي ، بالدفاع عن النفس في سبيل انجاز تقرير مصيره .

---

(٤٠) Oppenheim-Lanterpacht, 711-716; See also Chapter XI of the U. N. Charter.

« التجمع الاسرائيلي »
بين الحق العربي ، والحقيقة العلمية ، والفكر الصهيوني

د. قدري حفني

مدرس علم النفس في كلية الآداب ،
ورئيس وحدة الدراسات الاسرائيلية
في مركز بحوث الشرق الاوسط ،
جامعة عين شمس .

العقل العربي ، والتجمع الاسرائيلي

لقد صمت الفكر العربي طويلا عن إعمال النظر في التجمع الاسرائيلي ، وما يجري فيه . صحيح ان الساحة لم تخل من محاولة هنا ، أو اخرى هناك . ولكن ظل الطابع الغالب هو الصمت والتجاهل . وتحول العقل العربي خلال ما يقرب من ربع القرن الى نوع من الاستكانة لهذه المجهلة . مطمئنا الى مسلمات فكرية زائفة. عازفا حتى عن محاولة التيقن من مدى صدقها. وظل الأمر كذلك حتى قارعة يونيو ١٩٦٧ التي كان ينبغي أن تجرف فيما جرفته ـ وقد جرفت الكثير ـ ذلك الزيف الفكري الذي عاشه العقل العربي طويلا . ولكن ما حدث لم يكن على هذه الصورة تماما . لقد اهتزت المسلمات الفكرية العنيفة . وكان اهتزازها عنيفا حقا . ولكنها لم تسقط تماما ، ولم تتوارى ، ولم تجتث جذورها . لعله هول المفاجأة وبشاعتها . ولعله الطمأنينة التي طالت لصحة هذا الفكر الزائف . أو لعل الامر راجع الى ما لهذا الفكر من جذور عميقة ممتدة تضرب في اعماقنا الى بعيد .

ولا يعني ذلك بحال أن صمت الفكر العربي ظل على حاله . ولا ان التجاهل الفكري للكيان المزعوم ظل كما هو . فلم يكن حجم الكارثة ليسمح باستمرار أي من الصمت او التجاهل . بل لقد أصبح الصمت ضجيجا . وتحول التجاهل الى اهتمام لا حد له . وتبدلت الصورة من النقيض الى النقيض . وأصبح القزم الجبان المذعور ، عملاقا مرعبا مفترسا . وأصبح الفارس المقدام الشامخ ، هزيلا مرتجفا متداعيا . وانتقل الفكر العربي من تضخيم الذات والتهوين من شأن العدو ، الى تجريح الذات والتضخيم من شأن العدو . ورغم ما قد تبدو عليه الشقة من اتساع بين الصورتين ، فكلتاهما ـ فيما نرى ـ تنهل من نبع فكري واحد . وكلتاهما تقوم على نفس الأسس الفكرية ، وتتبع نفس المنهج في تحليل الواقع .

وأن للعقل العربي بعد اكتوبر ١٩٧٣ ان يعبر ازمته ، وأن يلتمس لنفسه المنهج الفكري الصحيح في النظر الى الواقع : ذاتا ، وعدوا ، وصديقا . ولم يكن ذلك ، ولن يكون ، بالأمر اليسير . بل انها لمعركة عنيفة ضارية ، لا تزال ممتدة الأوار ، حامية الوطيس . فالمنهج الفكري العتيق متشبث بمواقعه رغم كل ما احدثه ، وما حدث له . بل انه ليسعى الى كسب مواقع جديدة رغم كل ما

حدث . والمنهج الجديد يحاول أن يتلمس له طريقا ، وان يجد له مكانا ، رغم كل ما تعرض ويتعرض له .

وما دمنا نحاول بدراستنا هذه أن نقترب من فهم بعض خصائص التجمع الاسرائيلي ، فان علينا ان نحاول أولا أن نحدد لأنفسنا موقعا من هذه القضية الأساسية : قضية المنهج في دراسة التجمع الاسرائيلي . ونقصد بالمنهج في هذا المقام ، تلك القوانين الفكرية الأساسية التي تحكم نظرة الفرد الى ما يحيط به من ظواهر . فعلى أساس من هذه القوانين العامة الشاملة يتحدد تفسير المرء للعالم الموضوعي ، وتنبؤه بمسار ظواهره ، ومن ثم يتحدد أسلوب تعامله معها .

الفكر العلمي والتجمع الاسرائيلي

يقوم الفكر العلمي بعامة على عدد من المسلمات أو الأفكار الرئيسية ، سوف نعرض تباعا لما يخص موضوعنا منها ، محاولين تبين ما يمكن أن تسهم به كل من تلك المسلمات او الأفكار في فهمنا لخصائص التجمع الاسرائيلي .

اولا : الفكر وليد الواقع الاجتماعي وليس العكس : لقد اتخذت هذه المسلمة صورا عديدة في تراث الفكر العلمي . ولعل اقرب هذه الصور الى موضوعنا هي تلك المقابلة بين ما يعرف بالبناء التحتي ، وما يعرف بالبناء الفوقي . وتعني تلك المقابلة ببساطة أن الافكار والمعتقدات والآراء السياسية والقانونية والاخلاقية والجمالية والفلسفية وما الى ذلك من اشكال الوعي الاجتماعي لا يمكن الا ان تكون تعبيرا عن واقع اجتماعي مادي يتمثل في البناء التحتي . ورغم أن العلاقة بين البنائين علاقة معقدة متبادلة ، وليست بالعلاقة الانعكاسية البسيطة ، الا ان البناء التحتي يظل هو الأساس دائما .

واذا ما سلمنا بأن « الشخصية القومية » او « التكوين السيكولوجي للجماعة » او « الشعور القومي » انما هي جميعا ابنية فوقية لا بد لها من بناء تحتي يفرزها وتتفاعل معه ، فان ذلك يعني مباشرة أنه لا يمكن أن يكون ثمة وحدة سيكولوجية بين افراد جماعة بشرية معينة الا بقدر تشابه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية المحيطة بتلك الجماعة .

وانطلاقا من هذا الفهم وحده يتكشف زيف الادعاء بوجود ما يسمى « بالسيكولوجية اليهودية » أو « بالسلوك اليهودي » أوبالقومية اليهودية » وما الى ذلك من تعبيرات يشيع ترديدها في كتابات الصهاينة .

اننا لا نستطيع أن نسلم بوجود واقع تاريخي‌مادي متصل منذ نشأة الديانة اليهودية حتى اليوم ، يجمع بين اليهود السوفييت واليهود العرب ، وبين يهود اليمن ويهود المانيا مثلا . وعلى ذلك فان علينا ان نسلم من منطلق علمي بأن عادات وتقاليد وقيم اليهود من ابناء مصر مثلا اقرب بالتأكيد الى الطباع المصرية مهما اختلفت عنها اذا ما قورنت بعادات وتقاليد وقيم اليهود من ابناء تشيكوسلوفاكيا مثلا مهما كانت نقاط التشابه بينهم . ان اليهودي الالماني أقرب الى المسيحي الالماني منه الى اليهودي من ابناء جنوب افريقيا . لقد عاش اليهود ظروفا متباينة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . وبقدر تباين هذه الظروف لم يكن بد من أن تتباين افكارهم وتكويناتهم الاجتماعية وخصائصهم النفسية .

ورب من يتساءل ، فلنسلم بهذا كله ، ولكن الا يعيش يهود الوطن المحتل اليوم في ظل ظروف مادية مشتركة ؟ الا يعني ذلك انه قد اصبح لهم تكوينهم الفكري والسيكولوجي الموحد ؟

إن الفهم العلمي للعلاقة المتبادلة بين البناء التحتي والبناء الفوقي يبين ان التغيرات التي تطرأ على البناء الفوقي تتخذ معدلا ابطأ كثيرا من نظيرتها التي تطرا على البناء التحتي . وبالتالي فانه بعد ان يتم تغير الظروف الموضوعية ، تظل الابنية الفوقية محتفظة بخصائصها لفترة تاريخية . ولو حاولنا تطبيق ذلك في مجال سيكولوجية الجماعات بعامة لاتضح لنا ان ثمة قناة تربط بين البناء التحتي ــ اي الظروف المادية المعاشة ــ والبناء الفوقي ، اي شخصية الجماعة . وان هذه القناة انما تتمثل اساسا في عملية التنشئة الاجتماعية ، ثم فيما يرتبط بها من عمليات الاتصال . وذلك يعني ان تغير الظروف المادية المحيطة بتجمع بشري معين لا يمكن ان يؤدي بشكل انعكاسي فوري الى تغير التكوين السيكولوجي لأفراد هذا التجمع . بل ان الأمر يتطلب ان يبلغ تغير تلك الظروف المادية الحد الذي تتغير عنده اساليب التنشئة الاجتماعية السائدة[1] . ولذلك فالسؤال المطروح ينبغي ان يتخذ في الحقيقة الصورة التالية : هل توحدت بالفعل اساليب التنشئة الاجتماعية التي تمارس في التجمع الاسرائيلي ؟

ثانيا : ظواهر الكون مترابطة : يقوم المنهج العلمي ــ ضمن ما يقوم عليه ــ على استحالة فهم اي ظاهرة من ظواهر الطبيعة او المجتمع اذا ما نظرنا اليها منعزلة خارج ما يحيط بها من ظواهر اخرى . والتزامنا بهذه القاعدة العلمية المنهجية انما يعني في مجال بحثنا امورا عديدة اهمها : ــ

أ ــ اننا لا نستطيع ان نفهم الموقف من « اليهود » في مجتمع معين وفي مرحلة تاريخية معينة ، فهما صحيحا ، دون الاحاطة ببقية العوامل المتفاعلة في هذا المجتمع . بعبارة اخرى فاننا لا نستطيع ان نتحدث عن موقف مجتمع معين من اليهود بمعزل عن خصائص المرحلة الاقتصادية الاجتماعية التي يمر بها ، ولا حتى بمعزل عن طبيعة علاقاته ببقية المجتمعات . وبذلك فان الحديث عن « معاداة السامية » كخاصية سيكولوجية مجردة مطلقة قابلة للقياس والمقارنة . شأنها في ذلك شأن بقية الخصائص والسمات النفسية ، امر يبعد تماما عن قواعد المنهج العلمي .

ب ــ اننا لا نستطيع ان نفهم ايضا موقف يهود مجتمع معين من مجتمعهم في مرحلة تاريخية معينة ، فهما صحيحا ، دون الاحاطة بطبيعة موقعهم المادي من البناء الاقتصادي الاجتماعي القائم ، وطبيعة العلاقات التاريخية المتبادلة بينهم وبين بقية القوى الاجتماعية القائمة . وبذلك فان الحديث عن« الموقف اليهودي من المجتمع » ، او من « التاريخ » او من « البشرية » ، امر يبعد تماما عن قواعد المنهج العلمي .

ج ــ اننا لا نستطيع ان نفهم « السيكولوجيات » او « الابنية الفكرية» المتعددة القائمة في المجتمع الاسرائيلي الا في إطار من فهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والسياسية المتفاعلة في هذا التجمع ، فضلا عن الاحاطة بطبيعة العلاقات بين جماعاته والقوى العالمية والمحلية المؤثرة . ولعل هذه الاحاطة وحدها هي التي تتيح لنا تفسيرا للعديد من النتائج المتناقضة التي يتوصل اليها العديد ممن تصدوا بالدراسة لهذا التجمع .

---

[1] قدري حفني ، تجسيد الوهم : دراسة سيكولوجية للشخصية الاسرائيلية ، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٤٦ ــ ٦٣ .

د ـ اننا لا نستطيع بحال ان تفصل بين مجمل الموقف الاسرائيلي وما يحتمل ان يطرا عليه من تغيرات ، وبين موقفنا العملي من هذا التجمع . او بينه وبين مجريات الصراع العربي الاسرائيلي عامة .

ثالثا : التغير شامل ، والتطور مستمر : يبرز المنهج العلمي ضرورة انه لا ينبغي ان نتناول ظواهر الطبيعة والمجتمع من حيث علاقاتها وتكيفاتها المتبادلة فحسب ، بل ايضا من زاوية حركتها وتغيرها وتطورها . أي من حيث ظهورها واختفائها . وذلك باعتبار ان الكون في حالة دائمة من الحركة والتغير .

والتزامنا بهذه القاعدة فيما يتعلق بموضوعنا ، يعني امرين اساسيين : الا ننزلق الى القول بوجود خصائص « يهودية » ثابتة ، كانت وظلت كما هي منذ كان اليهود ، وستظل هكذا ما دام ثمة يهود : والا ننزلق كذلك الى تناول التكوينات الاجتماعية او الاقتصادية او الفكرية القائمة حاليا داخل التجمع الاسرائيلي كما لوكانت ثابتة على مر الزمن . بل ينبغي ان نضع في اعتبارنا دائما ان تلك التكوينات جميعا في حركة وفي تغير مستمرين .

رابعـا : التحول الشامل ، نتاج لتغيرات طفيفة متتالية . يبرز المنهج العلمي حقيقة ان تراكم التغيرات الكمية التدريجية التي قد لا تبدو على السطح ، يؤدي بالضرورة في لحظة معينة ، الى تغيرات جذرية كيفية ، والى تحول من كيف قديم الى كيف جديد .

ويتيح لنا تمثلنا لهذا القانون العلمي ـ فيما يتصل بموضوعنا ـ ان نتنبه لأمور ثلاثة

أ ـ انه لا ينبغي لنا ان نهمل اي تغير يطرا على التجمع الاسرائيلي مهما كان ضئيلا ومحدودا فتراكم تلك التغيرات الضئيلة والمحدودة ـ اذا ما كان متفقا مع حركة التاريخ ـ كفيل بأن يحدث تغيرا كيفيا في لحظة معينة .

ب ـ انه لا ينبغي لنا ان نتوقع تغيرا مفاجئا وجذريا في طبيعة الكيان الاسرائيلي . فاذا ما حدث ذلك فان المفاجأة انما ترجع الى قصورنا ـ او تقصيرنا ـ في متابعة ما سبق هذا التغير حتما من مؤشرات وتغيرات طفيفة مهدت لوقوعه .

ج ـ انه لا ينبغي لنا ايضا ان نقلل من دلالة اي تغير يطرا على الموقف العربي تجاه التجمع الاسرائيلي ، سلبا او ايجابا ، مهما كان حجمه . فتكرار وتراكم التغيرات الطفيفة في اتجاه معين لا بد وأن يؤدي في النهاية الى تغير كيفي في طبيعة الموقف برمته .

خامسا : التغير نتاج للصراع : ليس ثمة ظاهرة طبيعية كانت او اجتماعية تخلو من تناقض ومن تفاعل هذه التناقضات تتولد حركة الظواهر وتطورها جميعا . ومن ثم فان الفهم الصحيح لأية ظاهرة اجتماعية اوطبيعية انما يبدا باكتشاف التناقضات التي تحكم مسارها . غير ان الوقوف عند حد حصر وتسجيل تلك التناقضات لا يعني في حد ذاته شيئا ذا بال . إن أية ظاهرة ـ خاصة لو كانت ظاهرة اجتماعية ـ تموج بما لا حصر له من تناقضات متشابكة . وتصبح الخطوة الأهم ـ منهجيا وعمليا ـ هي تحديد أي تلك التناقضات هو التناقض الرئيسي الذي يحكم التناقضات جميعا ، والذي يحكم بالتالي حركة هذه الظاهرة ويحدد مسارها .

والذي لا شك فيه ان التجمع الاسرائيلي كظاهرة اجتماعية يموج بالعديد من التناقضات . وان من هذه التناقضات ما قد نجد نظيرا له في تجمعات بشرية اخرى ، ومنها ايضا ما يختص به التجمع الاسرائيلي بحكم ظروف تكوينه . واذا كان إنكار التناقض وتجاهله يمثل تجاوزا تاما عن قواعد المنهج العلمي ، فان النظر الى المتناقضات جميعا كما لو كانت متساوية التاثير ، يمثل تجاوزا لا يقل خطرا عن انكارها تماما .

علينا اذن لفهم التجمع الاسرائيلي فهما علميا ان نستكشف اي تناقضاته هو التناقض الرئيسي : اهو التناقض بين احزابه السياسية المختلفة ؟ اهو التناقض بين شبابه وشيوخه ؟ اهو التناقض بين اغنيائه وفقرائه ؟ أم انه التناقض بين الأصول الحضارية المتباينة التي يضمها ؟

تلك هي القواعد او المسلمات الخمس للمنهج العلمي في تحليل الظواهر . اثرنا ان نبدا محاولتنا بتحديدها دون أن نخوض كثيرا في تأصيلها نظريا ، مخافة ان يخرجنا ذلك كثيرا عن موضوعنا الرئيسي . ولم نشأ ايضا ان نخوض كثيرا في تطبيقات المنهج العلمي على الخصائص التفصيلية للتجمع الاسرائيلي ، فذلك هو موضوعنا الرئيسي ، وليست تلك سوى بدايته . ولم نكن نستهدف بهذه البداية سوى ان نلقي الضوء مسبقا على المنهج الذي سوف نتبعه في محاولتنا هذه . خاصة وان اختلال المنهج قد لعب – فيما نرى – وما زال ، دورا لا يستهان به سواء في تشوش الفكر العربي او في اعاقة الفعل العربي فيما يتعلق بالموقف من التجمع الاسرائيلي . نقول هذا لأن الحديث عن المنهج يبدو لدى البعض تزيدا لا مبرر له ، بل وتقاعسا عن الخوض مباشرة في تفاصيل الموضوع محل البحث .

ورب من يتساءل مستفسرا او متشككا ، اهو المنهج العلمي الذي نتحدث عنه ؟ أم انه منهج علمي قد نقبل به ونسير على دربه ، وقد نختلف معه فنلتمس لنا منهجا علميا سواه ؟ وهنا ينبغي ان نتوقف لنؤكد ان ما نطرحه هو المنهج العلمي . وان القول بتعدد المناهج العلمية على هذا المستوى العام انما هو من قبيل استخدام التعبير في غير محله المناسب . قد تتعدد اساليب الوصول الى الحقيقة بتعدد موضوعات البحث . وقد تتنوع الأدوات وتتباين بتباين العلوم وتنوع فروعها . ولكن ثمة اطارا عاما يجمع بين تلك الأساليب والأدوات ، ويكون بمثابة المرجع الذي نعود اليه جميعا لنختبر مدى صدقها وكفاءتها . ذلك الاطار العام هو ما نعنيه بالمنهج العلمي .

ورب من يتساءل ايضا ، وهل ثمة من يختلف مع مثل هذه القضايا العامة ؟ والاجابة نعم . اننا لنخطىء خطأ بالغا اذا ما حسبنا ان التيارات الفكرية جميعا تستهدف الوصول الى الحقيقة فحسب . ان منها بطبيعة الحال ما يسعى لبلوغ الحقيقة فيخطىء الطريق . ومنها ايضا – وهذا هو الاهم – من يتنكب الطريق لأن بلوغ الحقيقة ليس من مصلحته في شيء ، اذا لم يكن متعارضا معها او مهددا لها . ومثالنا الواضح على ذلك هو الفكر الصهيوني .

الفكر الصهيوني والتجمع الاسرائيلي

يقوم الفكر الصهيوني في جوهره على مسلمة رئيسية مؤداها ان اليهود كيان واحد متجانس ممتد في الزمان والمكان ، وان ثمة ما يسمى بالمشكلة اليهودية التي تتمثل في تشتت اليهود واضطهادهم ، وان الحل الوحيد لهذه المشكلة هو عودة اليهود الى ارض الميعاد اي الى فلسطين .

ويترتب على القبول بهذه المسلمة الصهيونية ، التسليم مباشرة بعدد من القضايا الفرعية ، يعنينا منها ما يلي :

أ — رغم انه لا مفر من التسليم بأن البشرية قد شهدت عبر تاريخها من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بل والجغرافية أيضا ما لا ينكره احد ، الا ان اليهود — من وجهة النظر الصهيونية — قد حافظوا تماما على تمايزهم عبر ذلك التاريخ الطويل . وبالتالي فان يهود اليوم هم امتداد حضاري مباشر وغير منفصل لليهود القدامى ، اي ليهود التوراة . اي ان اليهود — وفقا لهذا المفهوم — يمثلون كيانا حضاريا ممتدا زمانيا لم يتأثر جوهره بما طرأ او يطرأ على العالم المحيط به من تغيرات . وان كل ما قد يبدو من اختلاف بين يهود اليوم ، ويهود الأزمان الغابرة ، انما هو قشور لا تتجاوز السطح الى الجوهر .

ب — رغم انه لا مفر كذلك من التسليم بأن الظروف التي احاطت باليهود منذ الشتات ، وحتى قيام الكيان الصهيوني ، بل وبعد ذلك ايضا ، وحتى اليوم ، ظروف متباينة اشد التباين حضاريا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، الا ان ثمة ما يربط دائما بين اليهود جميعا في شتى انحاء الأرض ، مهما تباينت الظروف المحيطة بهم . قد تتمثل تلك الرابطة لدى البعض في الديانة اليهودية . وقد يراها غيرهم متمثلة فيما يلقاه اليهود من عنت واضطهاد . وقد يراها آخرون متمثلة في غير هذا وذاك ، إلا ان الصهاينة جميعا يتفقون على ان ثمة رابطة اقوى وأعلى من تباين الظروف المادية تربط بين اليهود جميعا . اي ان اليهود — وفقا للفكر الصهيوني — يمثلون كيانا حضاريا ممتدا أمكانيا لا يتأثر جوهره بما يحيط بافراده من ظروف مادية . وان كل ما قد يبدو من اختلاف بين الجماعات اليهودية المتباينة ، انما هو قشور لا تتجاوز السطح الى الجوهر .

ويخلص الفكر الصهيوني من هذا التصور الى تأكيد ان لليهود خصائصهم المتميزة عبر الزمان وعبر المكان . ولا يحول ذلك بطبيعة الحال دون وجود اختلافات بين المفكرين الصهاينة وبعضهم البعض حول مظاهر التميز هذه . وتتراوح تلك الأفكار بين الغموض والوضوح ، وتتعدد مجالاتها فتنصب حينا على التفوق العقلي لليهود ، وحينا على تمايزهم الجسمي ، وحينا على خصائصهم الانفعالية ، وهكذا .

يقول ليونارد فاين في كتابه المنشور عام ١٩٦٧ والمعنون السياسة في اسرائيل[٢] ان « مفهوم اليهودي في حد ذاته يثير إحساسا لا يمكن تلافيه بالقرابة المشتركة والتاريخ المشترك » . ويقرر يتسحاق ليفن عضو الكنيسيت الاسرائيلي عن حزب اجودات اسرائيل في عام ١٩٧٠[٣] « ... اننا لسنا شعبا كباقي الشعوب ، ولسنا دينا ككل الأديان ، اننا شعب خاص ، شعب الله ، شعب التوراة » . أما سيسيل روث في كتابه تاريخ اليهود[٤]، فرغم عدم دفاعه صراحة عن فكرة نقاء العنصر اليهودي،

---

(٢) Fein, Leonard J. Politics in Israel, Boston: 1967.

(٣) شهادات يهودية ، منظمة التحرير الفلسطينية : مركز التخطيط ، ١٩٧٦/١/٢٧ .

(٤) Roth, Cicil A Short History of the Jewish People, East and West Library, 1969

فانه يتبنى فكرة ان « النمط اليهودي » يتميز بقصر قامته ، وانحنائه ، اما القول بأن ما يميز اليهود عن سواهم هو تفوقهم العقلي ، فلعل خير معبر عنه هو المؤرخ الاسرائيلي هوارد مورلي ساخار في كتابه المنشور عام ١٩٦٣ والمعنون مسار **التاريخ اليهودي الحديث**(٥) . حيث يشير ساخار في مستهل فصل من كتابه اختار له عنوانا له دلالته وهو «تأثير اليهود على الحضارة الغربية»، الى قصة قصيرة نشرها هوجو تور البروتستانتي المذهب النمسوي الجنسية عام ١٩٢٦ بعنوان مدينة بلا يهود . وتروي القصة حكاية حاكم قرر استبعاد اليهود من الحياة في العاصمة نظرا لسيطرتهم على كافة مجالات الحياة فيها . ونفذ ذلك بالفعل فاذا بالمدينة تكاد تتحول الى موات . البنوك تقفل ابوابها . والمسارح ودور الباليه تنهي نشاطها . وكذلك الحال بالنسبة للمستشفيات ، والمكتبات ، ودور النشر ، بل والمحاكم أيضا . ويبلغ الشلل ذروته الى حد يجبر الحاكم على التراجع عن قراره وإعادة اليهود الى الحياة العامة ويرى ساخار في هذه القصة « استبصارا عميقا » بحالة اليهود في وسط اوروبا انذاك . ثم يمضي دون كلل في عرض الأرقام والنسب المئوية الدالة في رأيه على ان مكانة اليهود العلمية تفوق ما تكفله لهم نسبتهم العددية باضعاف مضاعفة . مرجعا ذلك الى ان « ... اهم الصفات التي تميز العقلية اليهودية عن غيرها هي الرغبة في الابداع ، وصياغة الافكار الجديدة ، والوقوف في وجه الافكار القديمة » . ويؤكد ساخار ان تفوق اليهود في مهن معينة في وسط اوروبا لم يكن بالامر الراجع الى المصادفة مطلقا ، وليس ايضا الى مجرد الظروف السياسية ، والاقتصادية فحسب ، بل ان الأمر يرجع اساسا الى ما يتميز به اليهود من خصائص فريدة تنبعث من سبب يكمن في الديانة اليهودية نفسها ، باعتبارها ديانة ترى ان هذا العالم هو نهاية المطاف ، ولذلك ــ ووفقا لما يرى ساخار ــ فقد ارتبطت الكهانة بالعلم بحيث اصبحت الدراسة نوعا من العبادة بالمعنى الحرفي .

لقد اثرنا ان نعرض ــ على سبيل الاستشهاد فحسب ــ لعدد من النماذج التي توضح حرص الفكر الصهيوني على تأكيد ان لليهود خصائص تميزهم عن غيرهم مهما تباعدت بينهم شقة المكان إن مثل هذا التأكيد يعد ركنا اساسيا من الأركان التي تقوم عليها الدعاوي الصهيونية فيما يتعلق باحقية الكيان الاسرائيلية ــ باعتباره دولة اليهود ــ في الحديث باسم اليهود في العالم كله . اما الركن الثاني الذي تقوم عليه دعاوي الصهيونية ــ والذي سبق ان اشرنا اليه ــ فيتمثل في ادعاء تاريخ موغل في القدم للتجمع الاسرائيلي الراهن . فليس ثمة صهيوني على الاطلاق لا يحرص على اصطناع مثل هذا التاريخ . ولذلك الحرص ــ فيما نرى ــ مبررات يزعمونها ، لعل اهمها : ــ

ا ــ إن اكتساب التجمع الاسرائيلي الصهيوني الراهن ذلك التاريخ الطويل الممتد ، انما يعني في نفس الوقت اكتسابه شرعية تاريخية لاستيطان فلسطين . وبالفعل فان الحاح الصهاينة على اصطناع تاريخ « اسرائيلي » قد مكنهم ــ على مستوى الادعاء الفكري ــ من تبرير الاستعمار الاستيطاني لفلسطين . ومن تبرير دعوة يهود العالم للهجرة اليها . فقد اصبحت « الهجرة اليهودية الى فلسطين » هي « **عودة** اليهود الى ارض الميعاد » . واصبح « الاحتلال الاسرائيلي لأرض فلسطين » « تحريرا لأرض اسرائيل التاريخية الكبرى من ايدي المغتصبين » .

ب ــ يلعب التركيز على فكرة الامتداد التاريخي هذه دورا بارزا في محاولات توحيد التجمع

---

(٥) Sacher, Howard Morely The Course of Modern Jewish History, Delta, 1963, p. 394-448.

الاسرائيلي التي يقوم بها اصحاب السلطة فيه من الاشكنازيم . بعبارة اخرى فان امتداد التاريخ انما يعني ضمنا وحدة هذا التاريخ ، وبالتالي وحدة اصحابه نفسيا واجتماعيا وحضاريا . فاذا بدت بينهم فرقة ما فهي لا تعدو ان تكون امراً عارضا لا يلبث ان يتلاشى ببذل شيء من الجهد . ومن ثم فان تدعيم فكرة الامتداد التاريخي هذه يمكن ان ييسر ـ من وجهة النظر الصهيونية ـ عملية الاندماج بين يهود التجمع الاسرائيلي .

ج ـ تعد فكرة الامتداد التاريخي للتجمع الاسرائيلي ، من الافكار الرئيسية التي تقوم عليها دعوة الصهيونية ليهود العالم للهجرة الى فلسطين المحتلة . ولذلك فان التركيز الصهيوني على هذه الفكرة انما يستهدف الاسهام في ابراز وحدة اليهود في كافة انحاء العالم ، وبالتالي كسب تضامنهم مع التجمع الاسرائيلي .

لقد بدا سيسيل روث كتابه الذي اشرنا اليه أنفا ، والمعنون **تاريخ اليهود**[٦] بفصل يحمل عنوانا بالغ الدلالة هو « اسرائيل من حوالي عام ١٦٠٠ قبل الميلاد الى عام ٥٨٦ ميلادية » . وينحو هوارد مورلي ساخار[٧] نفس المنحى تقريبا، في كتابه المشار إليه أيضا، والمعنون **مسار التاريخ اليهودي الحديث** . اما ترود فايس روز مارين[٨] ، فانها تزيد الأمر وضوحا في كتابها المعنون **انتصار اليهود في صراع البقاء** ، فتعرض لفكرة غريبة عن اليهودية ، مؤداها انها دين وقومية في نفس الوقت . وان اللغة العبرية هي اول مقومات الأمة اليهودية . وان ثاني تلك المقومات هو الولاء الحضاري . ويقول بنتوفتش[٩] في كتابه **فلسطين** « إن عراقة الصهيونية ، إنما تعود الى زمان هدم الهيكل ، ووقوع الشعب اليهودي في اسر نبوخذ نصر » . وليست تلك ايضا سوى نماذج قليلة نعرضها على سبيل الاستشهاد فحسب .

ذلك هو الاطار العام لتصور الصهيونية لليهود ، وللتجمع الاسرائيلي . وهو بالفعل انسب الأطر الفكرية ـ اذا لم يكن الاطار الفكري المناسب الوحيد ـ للدفاع عن قيام الكيان الصهيوني واستمراره ايضا . ولنرجيء مؤقتا محاولة التصدي لتفنيد ما يتضمنه هذا الاطار من دعاوٍ . ولنحاول اولا ان نختبر مدى اتفاق هذا الاطار العام مع قواعد المنهج العلمي التي اشرنا اليها آنفا. وذلك يقتضينا ان نبدأ برد دعاوي هذا الاطار الى اصولها الفكرية المنهجية العامة .

اولا : الواقع الاجتماعي وليد الفكر وليس العكس : تقوم المقولة الصهيونية في هذا الصدد على نقيض ما يقوم عليه المنهج العلمي . فبينما ينطلق المنهج العلمي من التسليم ابتداء بان الفكر افراز للواقع الاجتماعي المادي المعاش ، ينطلق الفكر الصهيوني من مسلمة مضمونها ان الصهيونية كفكرة هي القوة الخالقة لذلك الواقع الاجتماعي الذي يجسده التجمع الاسرائيلي على أرض فلسطين .

ثانيا : الفصل بين الظواهر المرتبطة ، وانكار التأثير المتبادل بينها : تقوم المقولة الصهيونية في

---

(٦) Roth, Cicil op. cit.

(٧) Sacher, Howard Morely op. cit.

(٨) Weiss - Rosmarin, T. Jewish Survival, The Philosophical Liberary, 1949

(٩) Bentwich, N. Palestine, Victor Gollanz, 1934.

هذا الصدد ايضا على نقيض ما يقوم عليه المنهج العلمي . فبينما يقوم المنهج العلمي ـ كما اشرنا ـ على استحالة فهم اي ظاهرة فهما صحيحا في عزلة عما يحيط بها ، فان الفكر الصهيوني يقوم على النظر الى « اليهود » كجماعة لا يتاثر جوهرها بما يحيط بها من ظواهر اجتماعية مهما تباينت ومهما كان تأثيرها .

ثالثا : إنكار التغير : تتعارض المقولة الصهيونية ـ فيما يتصل بالنظرة الى اليهود ـ تعارضا تاما مع ما يقول به المنهج العلمي من ان الكون بكافة ظواهره المادية والاجتماعية في حالة تغير مستمر . فالفكر الصهيوني ـ كما اوضحنا ـ يستثني اليهود من هذا القانون العلمي الشامل .

رابعـا : الاستبعاد المبدئي لفكرة التناقض : تتعارض المقولة الصهيونية في هذا المجال ايضا تعارضا تاما مع مسلمات المنهج العلمي . فالفكر الصهيوني لا يقبل مطلقا بامكانية ان يكون ثمة تناقض اساسي فعال بين اليهود وبعضهم البعض ، ومن ثم بين اي يهودي والصهيونية .

نحن ، والحق ، والحقيقة

ان حرص الصهاينة على اصطناع مثل هذا المنهج الميتافيزيقي في نظرتهم لليهود والصهيونية والتجمع الاسرائيلي ، حرص مفهوم تماما وله ما يبرره . فهو المنهج الوحيد الذي يكفل لهم تجنب مواجهة الحقيقة . والذي ييسر لهم ايضا اغتصاب الحق العربي . كل ذلك مفهوم ومبرر . ولكن ترى ما الذي يبرر لنا نحن العرب ، ومعنا شرعية الحق وعلمية الحقيقة على حد سواء ، ان نقع في حبائل مثل هذه المقولات المثالية ــ ولا نقول الصهيونية ــ التي تتعارض مع قواعد المنهج العلمي ، فضلاً عن تناقضها مع الحق الفلسطيني العربي ؟ هذا هو السؤال ! !

يكفي المواطن العربي ان يطل ولو اطلالة عابرة على ما أخرجته ــ وما زالت تخرجه ــ المطابع العربية من كتب تتناول موضوع التجمع الاسرائيلي ، بل يكفيه ان يتصفح مجموعة اعداد من الصحف العربية ، بل حتى يكفيه ان يولي سمعه او نظره لجانب من مواد الاعلام العربي مسموعا او مرئيا ، ليتضح له ان ثمة اتجاها فكريا عربيا لا يختلف كثيرا في منطلقاته المنهجية عن نظيره الصهيوني في تناول قضايا التجمع الاسرائيلي . ولقد نختلف في تقدير مدى حجم هذا الاتجاه او انتشاره او تأثيره . ولكننا لا نظن ان أحدا يخالفنا في انه اتجاه فكري قائم بالفعل . وعلى اي حال فسوف نسوق بعد قليل امثلة تدلل على ما نقول . ولنحدد اولا ما نراه من اوجه تطابق بين هذا الاتجاه وبين التصور الصهيوني المقابل ، والتي نستطيع ان نجملها في المسلمات التالية : ــ

أ ــ اليهود هم اليهود منذ كانوا حتى الآن والى الأبد مهما تباعدت الشقة الزمانية بين اجيالهم .

ب ــ اليهود هم اليهود في كل مكان مهما تباعدت الشقة المكانية بين جماعاتهم .

ج ــ لليهود خصائصهم الفريدة المميزة التي تجعل منهم جماعة تختلف عن بقية البشر .

د ــ لا فرق هنالك على الاطلاق بين « اليهودي » و « الاسرائيلي » و « الصهيوني » ، بل انها جميعا مسميات لجوهر واحد .

هـ ــ اليهود في النهاية هم محركو التاريخ البشري من خلال منظماتهم العالمية السرية .

وقبل ان نمضي في عرض نماذج تدلل على وجود هذا الاتجاه الفكري العربي ، نجد لزاما علينا ان نؤكد من جانبنا ، ان وجود هذا الفكر ، لا يعني بحال انه نتاج لمؤامرة صهيونية على الاطلاق . والا فقد وقعنا بدورنا في إسار المقولات الصهيونية . إن هذا التيار الفكري هو يقينا إفراز عربي خالص ، وتعبير موضوعي ــ على مستوى الفكر ــ عن الأزمة الحضارية التي يعيشها عالمنا العربي المعاصر . هذه الأزمة التي فرضت وتفرض العديد من أوجه الجنوح عن الفكر العلمي . وللحقيقة فقد حرص القائمون على التجمع الاسرائيلي من الصهاينة على الالتزام بفكرهم هذا المثالي غير العلمي ولكنهم نجحوا ــ الى حد كبير ــ في ان يلزموه حدودا لا يتجاوزها الى بقية ممارساتهم العملية وخاصة تلك المتصلة بقضايا الصراع العربي الاسرائيلي . اما على الجانب العربي فاننا لم نستطع الحيلولة دون امتداد المظاهر الفكرية لأزمتنا الحضارية الى مجال التصدي لمحاولة فهم طبيعة التجمع الاسرائيلي فهما علميا صحيحا . لقد نجح صهاينة التجمع الاسرائيلي ــ الى حد بعيد ــ في التعامل مع الخلافات بين العرب واستثمارها لصالحهم ، رغم ما يقول به الفكر المثالي الصهيوني من انقسام البشر جميعا الى يهود وأغيار وان كلا من الفريقين يمثل كيانا اقرب الى الاتساق . ذلك في حين اننا لم ننجح على الوجه المرجو في التعامل مع التناقضات القائمة داخل التجمع الاسرائيلي ، رغم ما يقول به الفكر العلمي من حتمية وجود هذه التناقضات ومدى جوهريتها .

ولسوف نقصر امثلتنا فيما يتعلق بهذا التيار الفكري العربي على المرحلة التالية لهزيمة يونيو ١٩٦٧ . حرصا منا على الايجاز من ناحية ، وتاكيدا لما اشرنا اليه في مستهل حديثنا من أن الهزيمة ــ رغم هولها ــ لم تستطع ان تجتث جذور ذلك الفكر الزائف

يقول محمد فرج في كتابه الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية عام ١٩٦٧ والمعنون **فلسطين عربية**(١٠) « .... ونحن لا نعني بذلك ان الصهيونية كفكرة وجدت في القرن التاسع عشر فقط ، فهي فكرة قديمة تمتد جذورها الى الوقت الذي شرد فيه اليهود من فلسطين فيما قبل الميلاد ... » .

ويقول عبده الراجحي في كتابه الصادر عام ١٩٦٩ والمعنون **الشخصية الاسرائيلية**(١١) « ..... لقد دأبنا جميعا في الفترة الماضية (كذا) على التمييز بين اليهودية والصهيونية ... والواقع أننا بهذا وقعنا في خطأ كبير . ذلك ان الدارس الموضوعي لحياة الشعب الاسرائيلي (كذا) يعلم ان هناك حقيقة هامة لا ينكرها باحث ، بل لا ينكرها الاسرائيليون انفسهم ، فضلا عن انهم يعتزون بها ، ويدعون لها ، وهي أن الاسرائيلية واليهودية والصهيونية الفاظ مترادفة لمعنى واحد »

ويقول علي حسن الخربوطلي في كتابه الصادر ايضا عام ١٩٦٩ والمعنون **العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود**(١٢) ، وهو من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية التابع

---

(١٠) محمد فرج، **فلسطين عربية** ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة : ١٩٦٧ ، ص ٣٦ .

(١١) عبده الراجحي ، **الشخصية الاسرائيلية** ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٩ .

(١٢) علي حسن الخربوطلي ، **العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٩ ، ص ٣٦ .

لجامعة الدول العربية ، ويتضمن المحاضرات التي القاها المؤلف على طلاب المعهد بعد عامين من هزيمة ١٩٦٧ ، يقول الخربوطلي « .... إن العقلية اليهودية تختلف في تفكيرها واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعا ، وان هذا الاتجاه قد أحدث تأثيره في تاريخ العالم كله ، وحاول ان يفرض طابعه على البشرية جمعاء لكي يضعها تحت طاعة حكماء اليهود . فان السحر بجميع اسراره وانواعه جاء من العقلية اليهودية ، والايمان بالأشباح وتقمص الأرواح ، ومخاطبة الأرواح جاء من هذه العقلية ، والعرافة والتنجيل والتكهن بالمستقبل والايمان بالمسيح المنتظر وقراءة الكف والنجوم والطوالع ، كل ذلك جاء من العقلية اليهودية » .

ويحدد محمد عزة دروزة في كتابه المعنون تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم(١٣) ، صفات اليهود التي يرى انها ظلت تلازمهم منذ القدم بأنها « ...... تعصب شديد ، وانانية قوية ، وأفق ضيق كان وظل يبدو منهم ويسيطر على سيرتهم سواء في معاملتهم لغيرهم أو فيما كانوا يزعمونه لأنفسهم من اختصاصات وامتيازات » ويمضي ليؤكد ان لليهود « جبلة خاصة » عرفت عنهم وعرفوا بها منذ القديم وان أخلاقهم متوارثة فيما بينهم جيلا عن جيل وعلى امتداد القرون المتطاولة منذ اسفار العهد القديم .

ونستطيع ان نمضي طويلا في ايراد العديد من الأمثلة التي تعبر عن هذا الاتجاه . غير اننا سوف نكتفي بأن نختتم امثلتنا بالوقوف وقفة متأنية امام واحد من احدث نماذج هذا الاتجاه واصدقها تعبيرا عنه . وفي حقيقة الأمر فان اهمية هذا النموذج بالتحديد لا ترجع الى حداثته فحسب ، بل أيضا لأسباب أخرى لا تقل عن الحداثة خطورة(١٤) . —

١ ــ انه يصدر عن قلم اكاديمي مارس وما يزال يمارس الاسهام في توجيه وتوعية اجيال من الدارسين العرب ، مؤثرا بالتالي في تشكيل وعيهم بقضية الصراع العربي الاسرائيلي .

٢ ــ انه يصدر ضمن منشورات « معهد البحوث والدراسات العربية » التابع لجامعة الدول العربية . وبالتالي فان مجال تأثيره شمل بالضرورة ــ فيما يشمل ــ اولئك الساعين نحو التخصص في قضية الصراع العربي الاسرائيلي من الدارسين العرب . ولا يقلل من ذلك بحال حرص المعهد على الاشارة في آخر صفحات الكتاب الى ان « كل الآراء الواردة بهذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تحمل بالضرورة وجهة نظر المعهد أو أي جهة أخرى يرتبط بها المؤلف » .

٤ ــ انه يصدر عن قلم له وجهة نظر ثابتة ومنسقة منذ عشية هزيمة يونية ١٩٦٧ حتى الآن .

٥ ــ انه يصدر بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما حققته من انجاز عربي .

ويدور الكتاب حول فكرتين رئيسيتين : ان ثمة مؤامرة يهودية عالمية ، هي بمثابة المحرك للتاريخ البشري . وان اليهود جنس مختلف عن بقية البشر ، وان لهم خصائص ثابتة تجمعهم مهما تباعدت بينهم شقة الزمان أو شقة المكان .

---

(١٣) محمد عزه دروزه ، تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٥٢ .

(١٤) عائشة عبد الرحمن ، الاسرائيليات في الغزو الفكري ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٥ .

يقرر الكتاب[15] «ان اليهود هم الذين «بثوا في المجتمع الاسلامي نحل الرجعة والتناسخ والمثنوية ... مما ظهر اثره في تمرد الموالي بخراسان ، واسقاط الدولة الأموية ، ثم في ثورة الزنج والقرامطة بالعصر العباسي ، وفشوا الزندقة والالحاد ، وانتعاش النحل الدخيلة على العقيدة الاسلامية » .

ويدعونا الكتاب الى الاهتمام بتقصي « دور بني اسرائيل في اسقاط الخلافة الاسلامية وتمزيق اقطارها تركة منهوبة لأولياء اليهود من المستعمرين»[16]، فلقد « تواطأت الصهيونية واولياؤها الاستعماريون مع جماعة الدونمة التركية على عزل السلطان عبد الحميد الثاني[17] . ثم لم تلبث معاهدة سايكس – بيكو التي عقدت عام ١٩١٦ ان قضت بتوزيع تركة الدولة العثمانية على « المستعمرين ورثة ثار الصليبية واولياء اليهود ... »[18] .

اما بالنسبة للحروب الصليبية ، فان الصليبيين كان « من ورائهم جميعا عصابات اليهود ، سدنة خزائن المال في اوروبا ، والقابضون على الخيوط المحركة لقادة الصليبية والاستعمار»[19].

وكذلك كان الامر بالنسبة للاحتلال الفرنسي للجزائر ، الذي « كان يحمل في ظاهره على المطامع الاستعمارية لدولة اوروبية كبرى ، تريد لتنافس بريطانيا العظمى في السباق على مناطق السيطرة والنفوذ .... ولحساب يهود فرنسا في الواقع ، كان اجتياح المعمرين لأرض الجزائر وقبضتهم على كل مواردها الاقتصادية . وقد تركوا لورثة نابليون مظاهر السيادة وزهو السلطة ... »[20]

كذلك فان الاحتلال البريطاني لم يكن في حقيقته سوى مؤامرة يهودية ، اذ يقول الكتاب :–
« اليهود كانوا كذلك وراء العملية الرهيبة لاحتلال مصر قبل ربع قرن من اتفاقية سايكس – بيكو : فتحت بيوتهم المالية بفرنسا فمولت الدعاية لمشروع حفر قناة السويس ... ثم تآزر يهود أوروبا على اصطياد الخديو اسماعيل بقروض اغروه بها للانفاق على الاحتفال الباذخ بافتتاح قناة السويس .... حتى اذا استغرقته الديون ... ولم يبق لمصر ما تبيعه للدائنين كانت رقابة صندوق الدين على المالية المصرية احتلالا اقتصاديا يهوديا محضا ، افضى الى الحاق مصر بأوروبا على قصف مدافع البوارج الحربية الانجليزية لثغر الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ثم اغتصاب ارض الكنانة وضمها الى محميات التاج البريطاني سنة ١٩١٤ ... »[21]

وليس ذلك – من وجهة نظر الكتاب – بالشيء الكثير بالنسبة « ... لمحنة العالم بسيادة قوة الوثنية المادية لليهودية العالمية ، التي جعلت من ساسة العصر وقادة الدول وموجهي مصاير الشعوب ، احجارا في اليد الخبيثة على رقعة الشطرنج »[22] .

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ٣٦
(١٦) المرجع السابق ، ص ٢٩ .
(١٧) المرجع السابق ، ص ٣٠ .
(١٨) المرجع السابق ، ص ٣١ .
(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٣
(٢٠) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٢١) المرجع السابق ، ص ٤٠ .
(٢٢) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

وعلى أي حال فان الأمر لا يقتصر على عالمنا العربي وحده . « لقد استطاعت اليد الخبيثة ان تسخر الاستعمار لحسابها ، وفي وهمه أنه يثأر للصليبية ـ حتى من الهند والصين واندونيسيا ! ـ وأن تجند الدول الكبرى لخدمة الوثن اليهودي ، وفي وهمها انها تتقاسم مناطق النفوذ والاستغلال وتمد سلطانها على اقطار الأرض »[٢٣].

لقد نجح « اليهود » اذن في خداع الدول الاستعمارية الكبرى وتضليلها ، ودفعها الى اقامة الامبراطوريات الاستعمارية المترامية الاطراف ، لمجرد خدمة مصالح اليهود ، وتنفيذا لمخطط المؤامرة اليهودية .

وليس غريبا والأمر كذلك ان تكون الدعوة الى القومية العربية جزءا مرحليا من هذا المخطط اليهودي الأخطبوطي ، بدأ باسقاط الدولة العثمانية ، « وطويت مآثر ماضيات للدولة التي شهدها التاريخ تحمل لواء الاسلام عزيزا منتصرا الى قلب أوروبا ..... ليتسهد بعدها شعوب وطننا تركة منهوبة لورثة فريدريك بابا روس ، وفيليب اوجست ، وريتشارد قلب الأسد ، ولويس التاسع الاسير القديس ، ومن ورائهم جميعا عصابات اليهود ، سدنة خزائن المال في أوروبا ، والقابضون على الخيوط المحركة لقادة الصليبية والاستعمار »[٢٤] .

ويبلغ الكتاب ذروته في عرض تتابع خطوات « المؤامرة اليهودية » « على العرب حين يقول تحت عنوان « هكذا سرنا على الدرب الذي خط لنا » « رضينا بالعروبة شعار قومية ، في مرحلة التحضير لنهاية الخلافة الاسلامية . ثم لما ان صارت باعث نخوة ، نسخوا كل ما نشروا فينا من عطاء (حضارة العرب) واغرونا بأن نستبدل بها وطنية العصبيات الشعوبية الموروثة ، ثم لما ارهفت احساسنا بمهانة الاستعباد الذي لا يجوز على ورثة حضارات بابل وأشور والفراعنة والفينيقيين والبربر ، نسخوا انفسهم هذه أيضا، وارهقونا بعقدة النقص تجاه الشرقية العتيقة ، والعربية البدوية ، والاسلامية السلفية ، واخذنا بفتنة العصرية والغربية المتحضرة ، وتوزع انتماؤها الى شتى المدارس والثقافات »[٢٥] .

ولا يفوت الكتاب ان يحمل « المؤامرة اليهودية العالمية » مسؤولية انتمائنا الى الجنس السامي ، حيث يقول « وفي دراستنا لشخصية الأمة : جنسا ولغة ، القى اليهود الينا من اسرائيلياتهم ، بذرة السامية ، ثم تركوا لنا ان نتعهدها نحن بالري والانبات حتى أتت اكلها السام»[٢٦] ويمضي الكتاب مدينا لهذه الفكرة مبينا« اخطارها » موضحا الفروق العرقية بيننا وبين اليهود . يقول الكتاب « وتلقى عالم اليوم ، ونحن نحمل بالسامية التي تنمينا واليهود الى ارومة واحدة ، اوزار هؤلاء الذين عرفتهم الدنيا والتاريخ أعداء للبشر . ونواجه صراع البقاء ، وعلى أصولنا ظل يهودي قبيح ، تنكره طبيعتنا واعراقنا ويرفضه تاريخنا ، ويأباه التنافر بين سجايانا المشهود لها بالنخوة والكرم والمروءة والشرف ، وغرائزهم المنحطة التي تأصلت فيهم بالوراثة قرونا وأحقابا . وتنقية دماؤنا التي لو سيط بها دم يهودي ... تزايلن حتى ما يمس دم دما ... »[٢٧] .

ويحدد الكتاب موقفا واضحا حاسما في الدمج بين اليهودية والصهيونية والاسرائيلية ، مدينا

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٥٦ .
(٢٤) المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٢٥) المرجع السابق ، ص ٦٣ .
(٢٦) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٢٧) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

بنفس الحسم أي محاولة للفصل بينها . يقول الكتاب « ونحن نتطوع فنقدم للعالم وثائق اعترافنا بابناء عمومتنا ، احدثها فيما قرات ، مقال للسيد محمود دياب نشر في اليوم السابع من شوال سنة ١٣٩٢ هـ في العدد ٢٠٢ من مجلة العالم الاسلامي التي تصدر بمكة المكرمة ، منزل الوحي ومهد النبوة ومثابة حجهم . وعنوان المقال لافت : صلة اسرائيل بأرض فلسطين ، صلة وهمية . والفكرة فيه ان اسرائيل التي ينفي الكاتب صلتها بفلسطين ، هي جماعات الطارئين عليها ممن يدينون بالصهيونية ، اما غيرهم من **اليهود الأصليين فهم منا** ، وان حاولت الصهيونية العالمية ان **تفرق بيننا** (؟ !) .... اللهم عفوك ورحمتك ! عالم اليوم ليس بحيث يجوز عليه هذا المنطق في التفرقة بين يهود ويهود ، والقول بأن الطارئين منهم لا صلة لهم بالقدامى ! »[٢٨]*

خلاصة ما يريد الكتاب قوله هو انك اينما وليت وجهك شرقا او غربا فاليهود امامك ، وحيثما نقبت في تاريخنا او تاريخ غيرنا فاصابع اليهود واضحة فاعلة ، وأيا كان الفكر الذي تتبناه أو يتبناه غيرك فأنت واقع لا محالة في حبائل اليهود سواء كنت قوميا عربيا ، أو ماركسيا امميا ، أو حتى شعوبيا فرعونيا او فينيقيا ، وحتى لو التزمت بالفكر الاسلامي وحده فالحذار الحذار فلقد تسربت الاسرائيليات الى كثير من كتب التراث والتفسير قديمها وحديثها على حد سواء[٢٩] . ولا بد لك من صحبة دليل متخصص يصحبـك ليجنبك مواطن الزلل ، على الا يكون هذا الدليل المتخصص ممن مستهم المؤامرة اليهودية . حقا اللهم عفوك ورحمتك . ما زال للمنهج المثالي غير العلمي مكان مرموق في الفكر العربي المعاصر بعد كل ما حدث . ولذلك فان علينا من البداية ان نطرح ــ من وجهة النظر العلمية ــ تعريفا محددا لما نعنيه بمصطلح « التجمع الاسرائيلي » .

يسعى الصهاينة بلا هوادة الى تمييع الحدود بين الاسرائيلي والصهيوني واليهودي ، حتى ان المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين الذي انعقد عام ١٩٦٨ ، يقرر بوضوح أن « محاولة التفريق بين الصهيونية وبين الشعب اليهودي محاولة اجرامية لتضليل الراي العام »[٣٠] . ويقول ليفي اشكول في كلمة له في هذا المؤتمر « ان الصهيونية هي ام الثورة اليهودية . فهي التي جاءت بي وبمن سبقني وبمن سيأتي بعد ذلك الى ارض اسرائيل . نحن يهود ، اذن نحن صهيونيون .فاعداؤنا لا يربطون العداء للسامية بالصهيونية عبثا . وفي الوقت التي يتعرضون لنا يقولون انهم ليسوا ضد اليهود ولا سمح الله بل ضد الصهيونية فقط ، الصهيونية تتماثل في نظرهم مع اليهودية »[٣١] .

ولقد ورد في مقدمة قرارات المؤتمر الصهيوني المشار اليه ما نصه « اهداف الصهيونية هي :وحدة الشعب اليهودي في وطنه التاريخي ارض اسرائيل بالهجرة من جميع البلاد . تدعيم دولة اسرائيل القائمة على نبوة الانبياء في العدل والسلام . المحافظة على خاصية الشعب بتطوير التربية اليهودية والعبرية وبث القيم الروحية والتربوية اليهودية . الدفاع عن حقوق اليهود في جميع الاماكن التي يقيمون بها »[٣٢] .

---

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٨١ .
* علامات التاكيد والتعجب والتاثر كما هي في الاصل
(٢٩) المرجع السابق ، انظر البحث الرابع المعنون « الاسرائيليات في الموقع الديني » ، ص ٨٣ ــ ١٧٢ .
(٣٠) المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ومركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية
(٣١) المرجع السابق ، ٥٠٥ .
(٣٢) المرجع السابق ، ٩٨١ .

ذلك بالتحديد هو ما يسعى اليه الصهاينة . ونستطيع ان نوجز ما نراه من تمايز بين اليهودية والاسرائيلية والصهيونية في الحقائق العلمية التالية . ـ

الحقيقة الأولى : ليس كل صهيوني اسرائيليا ... ولا العكس : رغم ان الصهيونية تقوم ـ فكرا وممارسة ـ على دعوة اليهود لاستيطان فلسطين كوطن قومي ، الا ان التجمع الاسرائيلي حتى اليوم لا يضم صهاينة العالم جميعا . ويكفي ان نلقي نظرة سريعة الى بيانات الجدول رقم « ١ » الذي يضم نتائج عملية الاحصاء التي تمت تنفيذا لقرار اللجنة التنفيذية الصهيونية الذي اتخذ في يوليو ١٩٦٩ ، وقد انتهت عملية الاحصاء هذه في يونيو ١٩٧١ . وتشير ارقام الجدول الى اعداد اليهود الذين تم تسجيلهم في عضوية المنظمة الصهيونية العالمية في مختلف البلدان ـ خارج اسرائيل ـ التي تسمح قوانينها بنشاط صهيوني منظم .

الجدول رقم « ١ »[٣٣]

عدد اعضاء المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٧١

اســــم البلد	عدد الأعضاء	اسم البلد	عدد الأعضاء
النمسا	١٥٠٢	زامبيـا	١٥٦
استـراليا	١٢٤٥٤	اليونـان	٤١٥
اورجواي	٨٤٠٠	المكسيـك	٣٣٥٠
ايطاليا	٣٥٠٠	امريكا الوسطى	٩٢٧
اكوادور	١٥٠	النرويج	٢٣٤
الأرجنتين	١٩٦٦٠	نيوزيلندا	٣٤٧
الولايات المتحدة	٦٤٥٦١٦	فنلندا	٣٢١
بوليفيا	٢٥٠	براجواي	١٣٠
البرازيل	١١٥٠٠	بـــيرو	١١٠٠
بريطانيا	٦٩٥٠٠	تشيلي	٢٠٠٠
المانيا	٢٥٣٠	فرنسا	٤١٠٦٠
الدانمارك	١٢٣٩	كولومبيا	١٢٥٠
جنوب افريقيا	٢٣٠٠٠	كنـدا	٣٢٠٠٠
الهــند	٧٠٢	روديسيا	١٧٨٦
هولندا	٢٢٦٨	السويد	٢٠٧٤
ايرلندا	٧٢٥	سويسرا	٥٠٠٠
فنزويلا	١٨٠٠		

(٣٣) هاني عبد الله ، « المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون » ، شؤون فلسطينية ، ابريل ١٩٧٢ ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

تشير بيانات الجدول السابق الى أن ثمة ١٤٦، ٨٩٨ صهيونيا عاملا منظما يوجدون خارج التجمع الاسرائيلي الراهن . وتثير هذه الحقيقة جدلا لا ينقطع بين صهاينة « الداخل » ، وصهاينة « الخارج » . أما الصهاينة خارج التجمع الاسرائيلي فيحاولون جهدهم ابراز أهمية ما يقومون به كصهاينة من مواقعهم خارج التجمع الاسرائيلي ، ومدى حيوية هذا الدور سواء بالنسبة للصهيونية أو بالنسبة لوجود التجمع الاسرائيلي ذاته ، ومدى ارتباط فعاليتهم بوجودهم في الخارج . أما الصهاينة داخل التجمع الاسرائيلي فان لهم رؤية مختلفة . انهم يرون أن جوهر الصهيونية انما يتمثل في هجرة اليهود الى التجمع الاسرائيلي ومن ثم فان أولئك الذين يحجمون عن الهجرة ، انما يتنكرون لصهيونيتهم . ولقد شهد المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون الذي انعقد في القدس في يناير ١٩٧٢ واقعة توضح المدى الذي بلغه هذا الخلاف . فلقد تقدم يجيئيل ليكيط زعيم شباب حزب العمل الاسرائيلي باقتراح مؤداه « اننا نريد ان نفرض على كل صهيوني واجب الهجرة الى اسرائيل . فليتوقفوا عن الحديث عن الهجرة وليهاجروا فعلا ، وفي طليعتهم الزعماء ليكونوا قدوة حية للشباب اليهودي . اننا نقترح عقوبات أيضا : الزعيم الصهيوني الذي لا يهاجر الى اسرائيل خلال اربع سنوات من انتخابه لا ينتخب مرة اخرى لأي منصب صهيوني » . ولقد اثار هذا الاقتراح الذي باركته الأوساط الصهيونية الاسرائيلية ردة فعل عنيفة لدى ممثلي المنظمات الصهيونية التي تعمل في الخارج ، وخاصة المنظمات الصهيونية الأميركية الممثلة في المؤتمر ، حتى أن رئيسة منظمة هداسا النسائية — وهي احدى المنظمات الصهيونية الرئيسية في الولايات المتحدة — قد أعلنت أن منظمتها قد تضطر للانسحاب اذا ما جرت محاولة لوضع مثل هذا الاقتراح موضع التنفيذ الفعلي[٣٤] .

التجمع الاسرائيلي اذن يضم كل صهاينة العالم . وثمة صهاينةُ يهود يتعصبون لصهيونيتهم كأشد ما يكون التعصب ، ورغم ذلك فانهم يمانعون في الهجرة الى اسرائيل كأشد ما تكون الممانعة . ترى علام تدل هذه الحقائق التي تتفق تماما مع ما ينبئنا به المنهج العلمي ؟ إنها لتؤكد أن الصهيونية تيار فكري سياسي . وما دام الفكر أيا كان نوعه ، ومهما كان تقديرنا لتأثيره ، لا يعدو أن يكون نتاجا للظروف الاجتماعية المادية ، فانه بذلك لا يمكن له وحده أن يحدد سلوك الأفراد . وبذلك فان الفكر الصهيوني — رغم شراسة الدعاية له — لم يكن ليقنع اتباعه مهما غالوا في تعصبهم له بالهجرة من « بلاد الرخاء » الى التجمع الاسرائيلي .

واذا كان صحيحا ان الجنسية الاسرائيلية لا تغطي صهاينة العالم جميعا ، فانه لصحيح كذلك أن ثمة يهودا يحملون الجنسية الاسرائيلية ، ورغم ذلك فانهم يختلفون مع الفكر الصهيوني من منطلقات متباينة ، وبدرجات متفاوتة . وقد يبدو ذلك غريبا من وجهة النظر المثالية غير العلمية ، ولكن فلننظر الى بعض الأمثلة الواقعية .

١ — جماعة الناطورة كارتا : وهي جماعة صغيرة الحجم من اليهود الفلسطينيين الذين ظلوا في فلسطين منذ الزمن القديم . وهذه الجماعة ترفض الصهيونية من منطلق ديني يهودي ، ولا تعترف بدولة اسرائيل ، وتعتبرها ثمرة « الغطرسة الآثمة » لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين خرقوا مشيئة الله بعملهم وتدخلوا في صنعه بدلا من انتظار الماشيح الموعود . فالماشيح المنتظر — في رأي هذه

---

(٣٤) « المؤتمر الصهيوني بعد ٧٥ عاما » ، نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ملحق العدد رقم ٤ ، ١٩٧٢/٢/١٦ ، ص ٩٩ .

الجماعة ـ هو وحده القادر على اقامة الدولة حيث تكون « مملكة للكهنة والقديسين » ، ولكن اللادينيين أقدموا على اغتصاب مهمته والتبكير بها . ولقد سارع اعضاء هذه الجماعة غداة قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ الى ابلاغ الأمم المتحدة برأيهم في ضرورة تدويل القدس . وما زالت هذه الجماعة تقطن بأكملها في حي ميئاشعاريم بالقدس .

٢ ـ حزب ماكي : وقد ظل هذا الحزب الاسرائيلي معاديا للصهيونية حتى عام ١٩٦٥ حين تغير موقفه منذ ذلك الحين وانشق عليه من اختلفوا معه في هذا التغيير . وقد كان هذا الحزب في فترة عدائه للصهيونية يرفض الاعتراف بالعلاقة بين اسرائيل ويهود العالم ، ويطالب بانشاء دولة الفلسطينيين طبقا لقرار التقسيم .

٣ ـ حزب راكاح : وقد تشكل عام ١٩٦٥ نتيجة لانشقاق حزب ماكي . ويعارض حزب راكاح الصهيونية صراحة . ويعتبرها حركة رجعية تسيطر عليها البرجوازية اليهودية ، وتستغلها الامبريالية العالمية للسيطرة على الشرق الأوسط . ولقد ادان راكاح العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ وطالب بالانسحاب الفوري من جميع الاراضي المحتلة . وقد ورد في مقررات المؤتمر السادس عشر لهذا الحزب والذي انعقد في مطلع عام ١٩٦٩ انهم « يدحضون على الدوام النظرية الصهيونية الرجعية ـ عن وجود ما يسمى بالأمة اليهودية العالمية ـ التي تفتقد أية صلة بالواقع ، والتي تدعي وكأن يهود العالم ، الذين يعيشون في بلدان مختلفة ، وفي ظل انظمة متباينة ، يشكلون أمة واحدة بغض النظر عن عدم وجود علاقات اقتصادية ، وجغرافية ، وثقافية ، ولغة ، وتقاليد واحدة . أي في ظل غياب كل الشروط اللازمة لقيام الأمة ... » .

٤ ـ الماتزبن : تنظيم سياسي اسرائيلي معاد للصهيونية ، تكون في أوائل الستينات . ويرى الماتزبن ان التجمع الاسرائيلي الاستيطاني قد اقامه الاستعمار وما زال يدعمه عسكريا وماليا لضرب حركات التحرر الوطني .

ونستطيع ان نمضي في سرد قائمة من اسماء الجماعات والتيارات الفكرية المعادية للصهيونية ـ أو المختلفة معها على الأقل ـ والقائمة بين يهود الكيان الصهيوني . ورغم صغر حجم هذه الجماعات نسبيا فان وجودها في حد ذاته يعد دليلا حاسما على وجود يهود اسرائيليين معادين للصهيونية . بل ان عداء بعض هذه التنظيمات للصهيونية قد وصل الى حد أن « مجلس السلام من أجل اسرائيل وفلسطين » ـ وهو احدى هذه التنظيمات ـ قد أقام حوارا مع بعض أطراف منظمة التحرير الفلسطينية انطلاقا من ان المجلس يؤيد قيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس . وقد أدى ذلك الى تقديم أرييه الياف ـ وهو ممن شاركوا في هذا الحوار من اعضاء المجلس ـ إلى المحاكمة والادانة[٣٥] .

بل أن بعض هذه التنظيمات قد تخطى في عدائه للصهيونية مجرد القبول بالحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية الى حد المشاركة في النضال المسلح ضد الكيان الاسرائيلي ، ومثالنا في هذا الصدد

---

(٣٥) ابو مازن ، « لماذا اتصلنا بالاسرائيليين ، وما هي النتائج ؟ : الحوار لتطوير مواقف الاحزاب يخدم فلسطين كالبندقية » ، منشورات منظمة التحرير الفلسطينية : مكتب البحرين؛ ١٩٧٧/٤/٢٤ .

هو ذلك التنظيم الذي عرف باسم الجبهة الحمراء ، والذي قدم أحد اعضائه ، ويدعى أهود اديف، الى المحاكمة حيث ادين بتهمة التخريب . وعلى أي حال فان الأخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية ، في خطابه الذي القاه على مسمع من العالم في الجمعية العامة للأمم المتحدة في دور انعقادها العادي التاسع والعشرين ، ولم يفته ان يصف أهود أديف بالمناضل اليهودي . يقول ياسر عرفات « لقد وقف المناضل اليهودي أهود أديف في المحكمة العسكرية الاسرائيلية قائلا : انا لست مخربا ... أنا من المؤمنين باقامة الدولة الديمقراطية على هذه الأرض . وهو الآن في غياهب سجون الزمرة العسكرية الصهيونية مع زملاء له » .

خلاصة القول اذن ان الصهيونية تيار فكري يسري عليه ما يسري على غيره من التيارات الفكرية ، وأن « الاسرائيلية » جنسية يسري عليها ما يسري على سواها من مفاهيم تتصل بالتشريع والقانون .*

الحقيقة الثانية : ليس كل يهودي صهيونيا ... ولا العكس . تدل النتائج النهائية للاحصاء الذي أجرته اللجنة التحضيرية للمؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين ـ والتي سبقت الاشارة الى بعضها ـ على ان مجموع الذين تم تسجيلهم في عضوية المنظمة الصهيونية العالمية بلغ ٨٩٨,١٤٦ عضوا ، في حين يبلغ عدد اليهود في البلدان التي شملها الاحصاء المذكور ٨,٢٨٩,٤٥٠ يهوديـا .

ولقد يظن البعض ان الحديث عن يهودي غير صهيوني ، انما هو من قبيل المماحكة اللفظية ليس الا . أو لعله من قبيل اصطياد استثناءات فردية متناثرة لا دلالة لها . وقد يتصور البعض ان اليهود جميعا قد قابلوا الصهيونية بالترحاب منذ بدايتها وحتى اليوم بصرف النظر عن انتمائهم او عدم انتمائهم للمنظمة الصهيونية العالمية .

---

* لعل قارئنا يود الاستزادة فيما يتصل بمدى ونوعية المفارقة بين الصهيونية ، والاسرائيلية . ـ

ـ اسعد رزوق « اسرائيل والحركة الصهيونية في منظار بن جوريون وجولدمان » ، **شؤون فلسطينية** ، ١٥ ، ١٩٧٢ ، ١٢٧ .

ـ عبد الحفيظ محارب « ظاهرة الفهود السود في اسرائيل : أسبابها ، واصولها » ، **شؤون فلسطينية** ، ٤ ، ١٩٧١ ، ١٤٢ .

ـ عبد الحفيظ محارب ، « المتمردون على الخدمة العسكرية في اسرائيل » ، **شؤون فلسطينية** ، ١٦ ، ١٩٧٢ ، ١٢٧ .

ـ عبد الحفيظ محارب ، « اليسار الاسرائيلي الجديد : سيح » ، **شؤون فلسطينية** ، ١٩ ، ١٩٧٣ ، ٥٦

ـ قدرى حفني ،دراسة في **الشخصية الاسرائيلية** : الاشكنازيم ، جامعة عين شمس ـ مركز بحوث الشرق الاوسط ، ١٩٧٥ ، ٨٦ .

ـ ليلى سليم القاضي ،**المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية** (ماتسبن) ، منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الابحاث ، ١٩٧١ .

ليلى سليم القاضي « مقابلة مع مسؤول في المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية » ، **شؤون فلسطينية** ، ٢، ١٩٧١ ، ٩١ .

- Avnery, U. **Israel without Zionists**, Macmillan, 1969
- Domb, Y. «Neturei Karta», M. Selzer (ed.), **Zionism reconsidered: the rejection of Jewish normalcy**, Macmillan, 1970
- Machover, M. and A. Orr «On the nature of Israeli Society», **New Left Review**, 65, 1971
- Weinstock, N. **Le Zionisme contre Israel**, Maspero, 1969

والحقيقة — تاريخيا — ان ثمة معاداة يهودية للصهيونية بدأت مع بداية الصهيونية ذاتها . ويكفي ان نشير في هذا المقام الى البيان الصادر عن هيئة الحاخامات الألمان احتجاجا على دعوة هرتزل لعقد المؤتمر الصهيوني الأول . يقول هذا البيان « ان الدعوة الى عقد مؤتمر صهيوني ، واذاعة جدول اعمال هذا المؤتمر ادت الى بث تصورات خاطئة ومضللة عن مضمون التعاليم اليهودية ، وحول الأماني والتطلعات التي تجيش في نفوس معتنقيها. وهذا مما يرغم الهيئة الموقعة ادناه على اصدار البيان التوضيحي التالي : اولا : ان مساعي الذين يسمون أنفسهم بالصهيونيين ، وهي المساعي الرامية الى تأسيس دولة قومية يهودية في فلسطين ، تتنافى مع العقائد المتعلقة بانتظار مجيء المسيح في اليهودية ، وكما توجد هذه العقائد والتعاليم في الكتاب المقدس ، وفي المصادر المتأخرة للديانة اليهودية . ثانيا : ان اليهودية تلزم معتنقيها بالعمل في خدمة الوطن الذي ينتمون اليه بكل اخلاص وتفان ، والدفاع عن مصالحه القومية من صميم القلب وبجميع الطاقات والامكانيات ... » ويختتم البيان بالدعوة الى « الابتعاد عن المحاولات والمساعي الصهيونية الوارد ذكرها اعلاه ، وبنوع خاص الابتعاد كليا عن المؤتمر الصهيوني الذي يصرون على عقده رغم كل التحذيرات والتنبيهات التي اطلقت ضد الفكرة والدعوة » .

لقد كانت تلك هي البداية . ومنذ ذلك الحين ، وحتى الآن ، ظل ثمة رفض يهودي للصهيونية . وقد يتفاوت تأثيره من حين لآخر ، وقد تتباين منطلقاته النظرية . ولكنه ظل قائما دوما ، الى الحد الذي لا يستطيع معه غلاة الصهيونية انكار وجوده ، وان لم يكفوا عن ادانته بشراسة . ان صهيونيا مثل يسرائيل جولد شتاين يقول في خطابه في المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين « من المحتمل ان يهاجر الى اسرائيل يهود غير صهيونيين لأسباب مختلفة .. »[٣٦] . وتقول الصهيونية الاسترالية هانا كسلر في خطابها في هذا المؤتمر « ان كلمة صهيوني .... اصبحت الآن كلمة مستنكرة لدى اوساط كثيرة في اسرائيل وفي المنفى .... »[٣٧] .

وعلى اي حال فاننا نستطيع ان نميز في اطار المعاداة اليهودية للصهيونية بين تيارات اربعة :[٣٨]

● الرفض الأورثوذكسي : ويرى اصحاب هذا التيار ان « عودة اليهود » من « الشتات » الى « ارض الميعاد » لا يمكن ان تتم الا بمعجزة إلهية . وبالتالي فان الحركة الصهيونية بمحاولتها اتخاذ خطوات عملية لاقامة وطن « قومي » يهودي ، انما تتدخل في اخص خصوصيات الارادة الالهية . أي انها نوع من التجديف والهرطقة . وتتجسد بقايا هذا الاتجاه في جماعة الناطوره كارتا التي سبق ان اشرنا اليها .

● الرفض العلماني الانتماجي : ويرى اصحاب هذا التيار ان اليهود ليسوا قومية ، وانه ليس ثمة تاريخ يهودي . وبالتالي فان حل المسألة اليهودية او مشكلات اليهود كأقليات قومية لن يتأتى الا عن طريق دمج او اندماج تلك الأقليات اليهودية في مجتمعاتها الأصلية . ويتمثل هذا الاتجاه في

---

(٣٦) المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ٤٦٣ .
(٣٧) المرجع السابق ، ٥٢٤ .
(٣٨) عبد الوهاب المسيري ، موسوعة المصطلحات اليهودية والصهيونية ، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية — الأهرام ، ١٩٧٥ .

« المجلس الامريكي لليهودية » . وهو تنظيم يهودي معاد للصهيونية تأسس عام ١٩٤٢ بهدف تشجيع اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية على الاندماج . وقد هاجم المجلس اتجاه اقامة دولة صهيونية سواء في فلسطين او في غيرها ، واعتبره اتجاها عنصريا ضارا بمصالح اليهود انفسهم . واعتبر ان فلسطين بلد من يعيشون فيها وليست بلد كل يهود العالم . وقد بلغت عضوية المجلس في مطلع الستينات حوالي خمسة عشر الفا من اليهود الامريكيين .

● الرفض الاشتراكي . ويرى اصحاب هذا التيار ان حل المسألة اليهودية لا يتحقق الا بحل طبقي شامل . ويتمثل هذا التيار حاليا في الموقف الذي تتخذه قطاعات واسعة من اليسار الجديد في دول الغرب والولايات المتحدة ، فضلاً عن موقف اليهود غير الصهاينة في الدول الاشتراكية .

● الرفض القومي الدياسبوري : ويرى اصحاب هذا التيار ان اليهود يشكلون اقلية قومية . ولكنها اقلية تكونت في الدياسبورا (اي المهجر) ، ولذلك فان حل المسألة اليهودية يكون من خلال تقبل هذه الحقيقة الاساسية والتعايش معها .

لعل ذلك يكفي للتدليل على حقيقة ان اليهودي ليس صهيونيا بالضرورة الحتمية . ويقي النصف الآخر من المسألة . هل كل صهيوني يهودي . إن الصهيونية كموقف فكري تتمثل ـ كما اشرنا ـ في التسليم بأن ثمة مشكلة يهودية وانه لا حل لهذه المشكلة الا باقامة وطن قومي لليهود على الارض الفلسطينية . واتخاذ هذا الموقف ـ فيما نرى ـ ليس بقاصر على اليهود وحدهم ، بل اننا لنجد بين غير اليهود من يفوق في تبنيه للفكر الصهيوني وتعصبه له ، الكثير من غلاة الصهاينة من اليهود .

ولعل من ابرز الامثلة على ذلك فان باسان الاديب والكاتب المسيحي الديانة ، الهولندي المولد ، الأمريكي الجنسية . لقد اجتذبته الصهيونية في اعقاب زيارته لفلسطين عام ١٩٢٥ حيث منح في تلك السنة لقب المواطن الفخري لمدينة تل ابيب . وابدى نشاطا عمليا متزايدا في تاييد الصهيونية والدعوة لها خلال الحرب العالمية الثانية ، فضلا عن اصداره عام ١٩٤٣ كتابه المعنون(٣٩) الحليف المنسي ، الذي يتبنى فيه بصراحة وحماس الدعوة الى تدعيم اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . ولقد استحق باسان ـ وبحق ـ تقدير المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين ، باعتباره « صهيونيا متحمسا ، وصديقا مخلصا لدولة اسرائيل ... كافح من اجل الصهيونية بصفته اديبا وفي النشاط العام ايضا »(٤٠) كذلك فقد ابدى المؤتمر نفس التقدير لعدد آخر من الصهاينة غير اليهود . ولعل سورنسن(٤١) كان يشير الى شيء من هذا القبيل خلال حديثه عن جذب الصهيونية لليهود وغير اليهود مفسراً ذلك بأن الصهيونية قد تجذب اليهود لانها تقدم لهم وطنا قوميا ، وقد تجذب غيرهم لأنها تكفل لهم تخلصا من اليهود . ورغم اننا لا نسلم تماما بما يذهب إليه سورنسن إلا اننا نتفق معه في ابرازه لوجود صهاينة من غير اليهود .*

---

(٣٩) Van Passen, P. The Forgotten Alley, Dial Press, 1943

(٤٠) المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ١٠٧٢.

(٤١) Sorensen, R. «Our common humanity», J.J. Lynx (ed.), The future of the Jews: a symposium, Lindsay Drummond, 1954, 178.

* لعل قارئا يود الاستزادة فيما يتصل بمدى ونوعية المفارقة بين الصهيونية واليهودية : ـ
ـ اسعد رزوق المجلس الامريكي لليهودية : دراسة في البديل اليهودي للصهيونية ، منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الابحاث ، ١٩٧٠
ـ اسماعيل راجي الفاروقي الملل المعاصرة في الدين اليهودي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٨ .

الحقيقة الثالثة : ليس كل يهودي اسرائيليا ... ولا العكس : اليهودية ديانة . ورغم انها ، بحكم النصوص ، ديانة لا تبشيرية ، إلا انها ، بحكم الواقع الاجتماعي التاريخي قد تعرضت لما تعرضت وتتعرض له الديانات جميعا منُ موجات اعتناق وارتداد على حد سواء . فثمة جاليات يهودية كاملة تركت اليهودية وانقطعت علاقاتها بها تماما ، كالجالية اليهودية الصينية التي تلاشت تماما، أو بالأحرى ، تلاشت يهوديتها باعتناق افرادها للكونفوشيوسية[٤٢] . كما ان ثمة مجموعات بشرية كاملة قد اعتنقت اليهودية في وقت متأخر نسبيا ، كالخزر الذين كانوا يشكلون دولة مستقلة في جنوبي البحر الأسود ، واعتنق حكام هذه الدولة الديانة اليهودية في القرن الثامن الميلادي ، ثم لم تلبث ان أصبحت اليهودية هي الديانة الرسمية للخزر[٤٣] . كذلك فقد تحول حاكم اليمن في القرن الخامس الميلادي الى اليهودية ، وظلت مملكته نصف يهودية حتى عام ٥٢٥ أي حتى سقوطها في أيدي الأحباش والبيزنطيين[٤٤] .

تلك هي بعض حقائق التاريخ . اما لو نظرنا الى حاضر التجمـع الاسرائيلي فلسوف يتضح لنا على الفور امرين : — اولهما . ان الكيان الصهيوني بحدوده التي اغتصبها عام ١٩٤٨ كان يضم ١٦٩ الفا من العرب الفلسطينيين من غير اليهود ، الذين وصل عددهم حاليا الى ما يجاوز نصف المليون تقريبا . أي انهم يمثلون حوالي ١٨ ٪ من يهود التجمع الاسرائيلي . وذلك يعني ضمن ما يعنيه ان التجمع الاسرائيلي ليس بقاصر على اليهود وحدهم . وثانيهما انه لعله من الحقائق المعروفة ان التجمع الاسرائيلي لا يضم يهود العالم ، وان اليهود كانوا وما زالوا اقليات متفرقة متناثرة . ولكن ترى ما هي نسبة اليهود الذين نجح التجمع الاسرائيلي في جذبهم اليه ؟ . فلنلق بنظرة سريعة الى توزيع اليهود في عالم اليـوم : (انظر جدول (٢)) .

— داوود تلحمي ، « لقاء مع مكسيم رودنسون » ، شؤون فلسطينية ، ٩ ، ١٩٧٢ ، ٨٥ .
— رودنسون ، مكسيم ، « عالم الصهيونية » ، شؤون فلسطينية ، ٩ ، ١٩٧٢ ، ٨٥ .
— رودنسون ، مكسيم ، « عالم الصهيونية » ، الطليعة (القاهرية) ، اغسطس ١٩٦٧ ، ١٢ .
— رودنسون « اسرائيل والعرب ومستقبل النزاع » ، الهلال ، اكتوبر ١٩٦٨ ، ٤ .
— رودنسون « الصهيونية بين الاستغلال والتبعية » ، الطليعة (القاهرية) ، يونيو ١٩٧٠ ، ٦٧ .
— عبد القادر ياس ين ، « عصبة مكافحة الصهيونية في العراق » ، شؤون فلسطينية ، ١٥ ، ١٩٧٢ ، ١٥٨ .
— ماجد نعمة ، « منظمة ميثاق ابراهام ظاهرة اليهودية المعادية للصهيونية » ، شؤون فلسطينية ، ٧ ، ١٩٧٢ ، ٢٢١ .

- Berger, E. **The Jewish dilemma**, Devin - Adair, 1945
- Berger, E **A partisan history of Judaism**, Devin - Adair, 1951
- Berger, E. **Judaism or Jewish nationalism**, Bookman Associates, 1957
- Blau, J. L. **Modern varieties of Judaism**, Columbia U. Press, 1966
- Chert off, M.S. «The new left and the newer leftists», M.S. Chertoff (ed.), **The new left and the Jews**, Pitman, 1971
- Lilienthal, A.M. **There goes the Middle East**, Bookmailer, 1958
- Lilienthal, A.M. **What price Israel**, Henry Regnery, 1962
- Lilienthal, A.M. **The other side of the coin**, Devin - Adair, 1965
- Menuhim, m. «**The decadence of Judaism in our time**, Exposition Press, 1956

(٤٢) Rhee, S.N. «Jewish assimilation: the case of Chinese Jews», **Comparative Studies In Society And History**, 15, 1979, 115.

(٤٣) محمد عمارة ، اسرائيل : هل هي سامية ؟ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة) ، ١٩٦٧ ، ٦٨ .

(٤٤) Roth, Cicil **A short history of Jewish people**, East and West library, 1969, p. 149.

جدول رقم (٢)

توزيع اليهود في العالم(٤٥)

الدولـــة	عدد اليهود	الـــــدولة	عدد اليهود
الولايات المتحدة	٦,١١٥,٠٠٠	تركيا	٣٠,٠٠٠
اسرائيل	٢,٧٦٣,٠٠٠	شيلي	٣٠,٠٠٠
الاتحاد السوفيتي	٢,٦٤٨,٠٠٠	هولندا	٢٣,٠٠٠
فرنسا	٥٥٠,٠٠٠	سويسرا	٢٠,٠٠٠
الأرجنتين	٥٠٠,٠٠٠	السويد	١٥,٠٠٠
بريطانيا	٤١٠,٠٠٠	فنزويلا	١٥٠٠٠
كندا	٣٠٥,٠٠٠	الهند	١٤,٠٠٠
البرازيل	١٤٠,٠٠٠	تشيكوسلوفاكيا	١٤,٠٠٠
جنوب افريقيا	١١٧,٩٠٠	كولومبيا	١٣,٠٠٠
رومانيا	٩٠,٠٠٠	الحبشة	١٢,٠٠٠
ايران	٨٠,٠٠٠	اسبانيا	٩,٠٠٠
المجر	٨٠,٠٠٠	تونس	٨,٠٠٠
استراليا	٧٠,٠٠٠	بولندا	٨,٠٠٠
اورجواي	٥٠,٠٠٠	بلغاريا	٧,٠٠٠
بلجيكا	٤٠,٥٠٠	اليونان	٦٥٠٠
المكسيك	٤٠,٠٠٠	الدانمارك	٦,٠٠٠
يوغسلافيا	٣٧,٠٠٠	بـــيرو	٥,٣٠٠
ايطاليا	٣٥,٠٠٠	روديسيا	٥,٢٠٠
المانيـــا	٣٢,٠٠٠	*	

(٤٥) نقلا عن الكتاب السنوي اليهودي ، عام ١٩٧٣ .

* ثمة بلاد أخرى تضم يهودا يتراوح تعدادهم من الف الى خمسة آلاف وهي : بوليفيا ، كوبا ، المانيا الشرقية ، أكوادور ، مصر ، فنلندا ، جواتيمالا ، ايرلندا ، العراق ، جامايكا ، ليبيا ، لوكسومبورج ، نيوزيلندا ، بناما ، باراجواي ،، سوريا ويتضح من البيانات الاحصائية المنشورة ان يهود العالم العالم يبلغون حوالي ١٤,٣٧٠,٦٥٠ . ولا يضم التجمع الاسرائيلي الا ٢,٧٦٣,٠٠٠ يهوديا ، اي ١٩٪ من يهود العالم فحسب .

خلاصة ما انتهينا اليه ان المنطق العلمي يؤدي بنا الى ضرورة التفرقة بين اليهود والصهاينة والاسرائيليين . وان الحقائق الموضوعية تؤدي بنا ايضا الى نفس النتيجة . وفضلا عن ذلك فان الحق العربي انما يتدعم ويقوى بابراز هذه النتيجة الموضوعية العلمية .

وعلى اي حال فان نظرة الى بعض قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين لتكشف لنا بوضوح ان الفكر المثالي غير العلمي لا مجال له في الممارسة العملية ايا كان الممارسون وايا كانت طبيعة ممارساتهم . يتضمن القرار رقم ١٥٧١ الصادر في الجلسة الخامسة من جلسات الدورة ٣١ التي انعقدت في ٢٦ مارس ١٩٥٩ الى انه « نظرا لأن الصهيونية تضلل بشتى الطرق الراي العام في امريكا لا سيما الشمالية منها ، ومن ذلك بث دعايات مغرضة غير متورعة عن تفسير مزور لبعض نصوص سفر العهد القديم بقصد تبرير نظرية قيام اسرائيل ، فان الهيئة (هيئة خبراء الاعلام للدول العربية) توصي بما يأتي .... الاستفادة من مواقف

(أ) اليهود غير الصهيونيين

(ب) النوادي والجمعيات المناهضة للصهيونية

(ج) الشخصيات والمؤسسات الاميركية المعروفة بصداقتها للعرب ... »

وكذلك فقد تضمنت توصيات اللجنة الدائمة للاعلام العربي ، والتي قرر مجلس الجامعة الموافقة عليها بالقرار رقم ١٧٥١ الصادر في الجلسة السادسة من جلسات الدورة ٣٥ المنعقدة في اول ابريل/ نيسان ١٩٦١ توصية تنادي بضرورة « التفريق في كل مناسبة على لسان الرسميين وغيرهم بين اليهود والصهيونيين ، ويجب ان تتجه الدعوة ضد الفريق الثاني لا الأول »

معاني التحالف
بين اسرائيل وجنوب افريقية

د . مروان بحيري

استاذ في دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت
وباحث رئيسي في مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

إن الصلة الحميمة بين الصهيونية واسرائيل وجنوب افريقيا والامبريالية هي بالفعل صلة طويلة الأمد . وفي المعنى الواسع مرت في ثلاث مراحل . فبدءاً بأواخر العقد الأخير من القرن التاسع عشر شملت تيودور هيرتزل وسيسيل رودس وجوزف شمبرلين وزير المستعمرات البريطاني ، والبحث عن خطط استعمار واسعة للاستيطان اليهودي في العالم العربي وافريقيا . وكانت المرحلة الثانية (١٩١٧ الى ١٩٥٠) التي سيطرت عليها شخصيات مثل حاييم وايزمان والجنرال إيان سمطس واللورد بلفور ولويد جورج ، معنية بانتزاع وعد لوطن قومي يهودي في فلسطين ، وتعزيز الوجود الصهيوني خلال فترة الانتداب ، وتمهيد الطريق للاعتراف بدولة صهيونية . وفي اعقاب تأسيس اسرائيل في ١٩٤٨ دخلت الصلة مرحلة ثالثة ، تتميز بزيادة الاتكال المتبادل في الحقول العسكرية والاقتصادية والجغرافية ــ السياسية والنفسية ، وبخاصة في الحقلين النووي والتكنولوجي المتقدم .

وفي حين أن المرحلتين الاوليين انطوتا على علاقة ثلاثية تجمع بين المنظمة الصهيونية العالمية ، وجنوب افريقيا ، وبريطانيا الامبريالية ، فان المرحلة الثالثة اتخذت اتجاه تكافل ثنائي بين جنوب افريقيا واسرائيل . ومع هذا فان العنصر الأساسي الثالث للمثلث لم يختف كليا : وفي الواقع تم تنويعه وتقويته باضافات من أسرة الأمم الأوروبية والولايات المتحدة .

من الواضح جداً أن هذا الترابط الوثيق للمصالح الذي تطور اليوم الى اتكال متبادل للقاعدتين الاستعماريتين الاماميتين، يطرح معاني خطيرة للعالم العربي وبصورة عامة اكثر للعالم الثالث كما سيظهر التحليل . فبعد وقت قصير من قيام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بفرض حظر أسلحة على جنوب افريقيا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ ، أعلن السفير الاسرائيلي في جوهانسبرغ انه صار أهم من أي وقت مضى لاسرائيل وجنوب افريقيا ان تظل جهودهما متضافرة بغية مواجهة تحالف افريقيا والعالم العربي .

ثيودور هيرتزل ، سيسيل رودس وجوزف شمبرلين : المرحلة الاولى

المشاريع الاستعمارية على نطاق واسع التي كانت سائرة على قدم وساق في جنوب افريقيا في العقد

الأخير من القرن التاسع عشر والتي انطوت على تعدين ممكنن وتكنولوجيا متقدمة واستثمارات كبيرة أدهشت ثيودور هيرتزل ، واستناداً الى مؤلفه الرئيسي « دولة اليهود » الموضوع سنة ١٨٩٥ والى روايته الطوباوية ALTNEULAND ، يتضح ان الاختبار الجنوب افريقي كان بمثابة مصدر الهام ونموذج .

وفي أعقاب تعيين هيرتزل الرسمي رئيساً للحركة الصهيونية في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧، سعى الى ربط الصهيونية بالنجاحات المتصاعدة لبريطانيا العظمى مستخدماً الحجة القوية القائلة بالاستعمار اليهودي في مواقع استراتيجية في الشرق الادنى وافريقيا في مؤازرة وثيقة لأهداف بريطانيا الامبريالية . كانت انكلترا بالنسبة اليه « النقطة الأرخميدسية » للمشروع الصهيوني ومن هذه الناحية اقترح على اللورد روتشيلد أن يتبنى مخططاً استعمارياً واسعاً في سيناء وفلسطين وقبرص: فقد كتب في ١٩٠٢ الى الزعيم المعترف به ليهود بريطانيا . « قد تدعي فضلا كبيرا لحكومتك إذا ما عززت نفوذ بريطانيا في الشرق الأوسط باستعمار كبير لشعبنا في النقطة الاستراتيجية حيث تتجمع المصالح المصرية والهندو ــ فارسية »[1] .

وفي المنحى نفسه الى حد كبير كشف هيرتزل النقاب لوزير المستعمرات البريطاني ، جوزف شمبرلين ، عن مشروع استعماري صهيوني شامل ، تدعمه « شركة شرقية يهودية لديها رأسمال يبلغ ٥ ملايين جنيه استرليني » لاستيطانات في قبرص وسيناء (العريش)[2] . ومن الممتع ان نلاحظ بالمناسبة ان أحد أبرز خبراء الاستعمار في الحركة الصهيونية كان مهندسا يهوديا جنوب افريقيا ، اسمه ليوبولد كيسلر ، أرسل في بعثة الى سيناء في العام ١٩٠٢ ليقوم مشروع العريش . وكان جوزف شمبرلين متردداً بعض الشيء حول قبرص ، وأكثر حماسة حول العريش ، وأخيراً عرض « مشروعه » الخاص « بأوغندا » على هيرتزل ، الذي ينطوي على استيطان استعماري يهودي في منطقة زراعية رئيسية من المقاطعة الاستعمارية الافريقية الشرقية ــ الكينية في الواقع . كان الدافع لهذا العرض هو الى حد كبير نتيجة للأحداث في جنوب افريقيا . ففي أعقاب حرب البوير المدمرة ، التي انتهت بانتصار البريطانيين على الجنوب افريقيين الهولنديين ، أراد أن يجتذب استثمارات يهودية اضافية الى افريقيا ، وبخاصة في قطاعات مثل التعدين والصناعة والعقارات وإعادة التعمير اللاحق للحرب بوجه عام . وكان إقليم راند في جنوب افريقيا ، الشهير بثروته الخيالية ، حتى في تلك الحين تحت سيطرة المروجين والمستثمرين اليهود الذين كانوا أيضاً بعض الشخصيات الرئيسية في الحركة الصهيونية الجنوب افريقية الناشئة . وشعر وزير المستعمرات ان مشروع أوغندا من شأنه أن يزيد تعزيز الوجود اليهودي في القارة الافريقية ضمن اطار امبريالي بريطاني بالطبع . فليس من المستغرب إذن ان اليهود الجنوب افريقيين صادقوا بحماسة على ما سماه اسرائيل زانغويل « مستعمرة تاج يهودية بريطانية » فيما يتعلق بمشروع أوغندا[3] .

أحد الأمثلة الأخرى الجديرة بالملاحظة للعلاقة « الثلاثية » هو اعجاب ثيودور هيرتزل بسيسيل رودس ، النموذج الأصلي للمستعمر الناجح الذي سعى الى محاكاته ولا سيما فيما يتصل بالشركة

(١) Richard P. Stevens, **Weizmann and Smuts: A Study in Zionist-South African Cooperation** (Beirut. The Institute for Palestine Studies, 1975) p. 16.

(٢) المصدر نفسه ص ١٧ .

(٣) Israel Zangwill, **The Voice of Jerusalem** (N. Y.: Macmillan, 1921) p. 254

الجنوب افريقية البريطانية . وعلى الرغم من الجهود المضنية ، لم يكن بالمستطاع ترتيب اجتماع مع رودس ، إلا ان « يوميات » هيرتزل تحتوي على نص مذكرة كشافة موجهة الى رودس في الحادي عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢ : « كيف يصدف أن اتحول اليك مع أن المسألة بعيدة عنك ؟ كيف ؟ لأنها استعمارية ، ولأنها تفترض مقدماً فهما لتطور يقتضي عشرين الى ثلاثين سنة »(٤) . فبالنسبة الى الأب المؤسس للحركة ، كانت الصهيونية حقا حركة استعمارية تتطلب رعاية الامبريالية البريطانية .

وايزمان وسمطس : المرحلة الثانية

كانت الصداقة الشخصية الطويلة بين الجنرال إيان كريستشن سمطس ، المهندس الرئيسي لدولة جنوب افريقيا ، وحاييم وايزمان ، وهو شخصية صهيونية رئيسية وأول رئيس لاسرائيل ، عاملا إسهاميا مهما في المكاسب التي حققتها الحركة الصهيونية منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى . غير ان هذه العلاقة ذات دلالة ايضاً من نواح اخرى . فكما جادل رتشارد ستيفنز باقناع في دراسته « وايزمان وسمطس: دراسة في التعاون الصهيوني ـ الجنوب افريقي». « إنه لأمر يساعد ان نضع في المنظار الصحيح تناقضات الليبرالية الغربية والمناخ النفسي الذي يسوغ المركز المسيطر لأقلية بيضاء في جنوب افريقيا واستيطاننا أوروبيا جديداً في فلسطين . إنه يؤكد ايضا العلاقة الحاسمة بين الصهيونية وجنوب افريقيا ، وهي علاقة تستمد أولا قوتها من الصفة الصهيونية للجالية اليهودية الجنوب افريقية بمركزها الاقتصادي الممتاز ، وثانياً من الطبيعة عينها للنظام الاقتصادي ـ السياسي الجنوب افريقي ، وثالثاً ، من العامل الامبريالي كما اثر في وضع جنوب افريقيا الداخلي والدولي »(٥) .

وجدير بالذكر ان الحفنة نفسها من السياسيين الرئيسيين قررت المستقبل السياسي لكل من جنوب افريقيا وفلسطين : فاللورد ميلنر ، اللورد سلبورن ، اللورد بلفور، وجوزف شمبرلين ، والجنرال سمطس اسهموا في ولادةاتحاد جنوب افريقيا للعام١٩١٠ وفي وعد بلفورللعام١٩١٧. وفي كلتا الحالتين كانت الفكرة هي تركيز السلطة في ايدي هؤلاء الذين«يفكرون مثلنا»كما عبر بلفور(٦) ولذا وضعت اكثرية افريقية تحت سيطرة اقلية من الأسياد البيض وتركت أكثرية عربية للرحمة الحنون لأقلية اوروبية ـ المنظمة الصهيونية ـ في فلسطين . وكان الأساس المنطقي ـ جعل عدم المساواة شرعية ـ كما وضحه بلفور ، هو : « لا تستطيع ان تعطي السكان المحليين في جنوب افريقيا حقوقاً متساوية مع البيض دون تهديد البنية الكاملة للمدنية البيضاء »(٧) . أو كما لاحظ اللورد كيرزون لبلفور بعيد نشر وعد بلفور فيما يتعلق بالأهداف الحقيقية لوايزمان في فلسطين : « إنه يفكر بدولة يهودية ، بأمة يهودية ، وبسكان خاضعين من العرب الخ ... يحكمهم اليهود ، وبامتلاك اليهود للأفضل من الأرض وبتوجيه الادارة »(٨) .

(٤) Theodor Herzl, The Complete Diaries, Vol. III, pp. 1193-94.

(٥) Stevens, op. cit., p. ix.

(٦) المصدر نفسه ص ١١ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) Quoted in Christopher Mayhew and Michael Adams, Publish it Not: The Middle East Cover Up (London: Longman, 1975), pp. 144-145.

مما لا ريب فيه ان الجنرال سمطس أدرك ان الصهيونية كانت جزءاً لا يتجزأ من الخطة الامبريالية ، ولا سيما في تلك المنطقة الاستراتيجية الحاسمة ، محور فلسطين ــ قناة السويس ، عند عين تقاطع طرق افريقيا وآسيا . والى ذلك أدرك ادراكاً كاملاً ، كما أدرك شمبرلين ، الدور الاقتصادي الحيوي لليهود في جنوب افريقيا والتزامهم القوي بالصهيونية وبالمثال الامبريالي . وكذلك الأمر فان حاييم وايزمان ، الذي كان قد صار مواطناً بريطانياً في العام ١٩١٠ ، أعتقد ان نجاح حركته يتوقف على الاتباط بالامبريالية البريطانية ، وبالمقابل ، نظر الى فلسطين صهيونية كـ « مصدر قوة عظيمة للامبراطورية البريطانية »[٩] . ومن هذه الناحية التزم التزاماً وثيقاً برؤيا هيرتزل السياسية . فعندما كتب الى بلفور في ١٩١٨ لفت الانتباه الى الصفة الحميمة لهذه العلاقة : « أرى ان صالح الصهيونية مرتبط ارتباطاً حميماً بقوة السياسة البريطانية في الشرق ، وأشعر بأن لندن والقاهرة والقدس وبلهي مرتبطة ارتباطاً حميماً ، والضعف في حلقة في هذه السلسلة المهمة قد تكون له عواقب خطيرة »[١٠] .

وكان أن أدى اندلاع الحرب العالمية الأولى واشتراك الامبراطورية العثمانية الحاسم على الجانب الالماني الى تزويد وايزمان بالفرصة لقيادة الحركة الصهيونية المفككة بعض الشيء في سبل هيرتزلية . وفي ١٩١٤ اقترح على أحد اصدقائه : « يمكننا القول بصورة معقولة انه اذا وقعت فلسطين ضمن نطاق النفوذ البريطاني واذا شجعت بريطانيا استيطاناً يهودياً هناك ، كبلد تابع لبريطانيا ، يمكن ان يكون لنا في عشرين الى ثلاثين سنة مليون يهودي هناك ، وربما أكثر : وسينمون البلاد ، ويعيدون اليها المدنية ويشكلون حماية فعالة جداً لقناة السويس »[١١] . وتتكشف الغطرسة المفرطة في التبسيط للرسالة التمدينية التي سوغت جميع التوسع الأوروبي ايضاً في أماكن أخرى من كتاباته : ففي دراسة بعنوان « الموقف في فلسطين » (١٩٢٩؟) نظر الى المشروع الصهيوني بوصفه الصراع بين « التقدم والركود » ، بين « المدينة والصحراء »[١٢] .

أسهم حاييم وايزمان في المجهود الحربي بوضعه مهارته العلمية في تصرف وزارة الاعتدة الحربية . واعتبرت اكتشافاته في انتاج الاسيتون للمتفجرات الشديدة قيمة . ولذلك كان في مركز حسن لينمي اتصالات سلفه هيرتزل مع الدوائر الحاكمة البريطانية . وصار اللورد بلفور ونستون تشرشل واللورد سلبورن واللورد ملنر والجنرال سمطس ولويد جورج هدفاً لصداقته ذات المصلحة ومما لا ريب فيه ان هؤلاء لعبوا دوراً بارزاً في صياغة وعد بلفور وتنفيذ السياسة الامبريالية اللاحقة للحرب في الشرق الاوسط .

بعدما أمن وايزمان كسباً سياسياً كبيراً في شكل وعد اعترف ، على الرغم من غموضه ، بالمطامع الصهيونية ، صارت مهمته التالية انتزاع فائدة الحد الأقصى من وعوده. وعنى هذا الموضوع بوضوح ، عملياً ، ان حقوق عرب فلسطين ستداس دون أي تردد .

الأعوام الأولى لتعزيز القوة الصهيونية في فلسطين مع المساعدة النشطة لنظام انتدابي مفروض

(٩) Leonard Stein, **Weizmann and England** (London: W. H. Allen, 1964), p. 15.

(١٠) المصدر نفسه ص ١٥ ــ ١٦ .

(١١) Weizmann, **Trial and Error**, p. 191.

(١٢) C. Weizmann, «The Position in Palestine», **Palestine Papers**, no, 2 (Jewish Agency for Palestine, London 1929-30), pp. 24-25.

تزامنت مع الوزارة الأولى للجنرال سمطس ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٤ . وفي جنوب افريقيا انتهج الجنرال سياسات معادية للافريقيين بلغت أوجها في منبحتي بورت اليزابيت وبولهوك (١٩٢١) وقانون شؤون السكان الاصليين الذي استثنى الافريقيين من الحياة البرلمانية . وفي الوقت ذاته جد في طلب مساعدة الجالية اليهودية الجنوب افريقية القوية فيما قدم دعماً كبيراً للمنظمة الصهيونية العالمية . وتكلم سمطس في جوهانسبرغ في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ ، فأوضح رأيه في الرابطة المشتركة بين ثقافة البوير في جنوب افريقيا والتقليد اليهودي حسب تفسيره . فقد قال في خطاب موجه الى مجلس النواب اليهود الجنوب افريقيين والاتحاد الصهيوني : « لا حاجة بي الى تذكيركم بأن الشعب الابيض لجنوب افريقيا ، وبخاصة السكان الهولنديين الاكبر سنا ، ترعرعوا بصورة تامة تقريباً على التقاليد اليهودية » وأضاف يقول : « إننا نقف معا على منصة مشتركة ، أعظم منصة روحية عرفها العالم . على تلك المنصة اريدنا ان نبني مستقبل جنوب افريقيا »[١٣] .

وهكذا لأكثر من ثلاثة عقود أيد الجنرال سمطس القضية الصهيونية ، سواء كان في الحكم أو خارجه ، مستخدما النفوذ الكبير الذي مارسه في اروقة السلطة البريطانية ليعزز هدفها . وكان بوسع وايزمان ان يعتمد دوما على استجابة سريعة وفعالة لنداءات المساعدة الملحة . واشتملت هذه اولا ، وقبل اي شيء آخر ، على وعد بلفور وتبعته في العام ١٩٢٠ محاولة مشتركة قام بها وايزمان وسمطس لتوسيع الحدود الشمالية والشرقية للانتداب البريطاني بغية توسيع الامكانيات امام الاستعمار اليهودي حتى نهر الليطاني في لبنان وما وراءنهر الاردن[١٤] . ودافع رئيس الوزراء الجنوب إفريقي بنشاط عن السياسة الصهيونية للهجرة على نطاق واسع التي كانت تتم بتجاهل تام للآراء والمخاوف العربية ولطاقة البلاد على الامتصاص . كما انه رعى حملات لجمع الاموال في جنوب افريقيا مع ظهوره الشخصي مراراً على المنابر .

وكان دعم سمطس السياسي حاسما بنوع خاص في أعقاب ردود فعل فلسطينية ثورية للخطر المتزايد للوجود الصهيوني كحركة التمرد في يافا في العام ١٩٢١ ، والهجوم المنسق على المستوطنات الصهيونية في القدس والخليل وصفد في العام ١٩٢٩ ، وبنوع خاص ابان الثورة الوطنية في العام ١٩٣٦ . فتدخلاته الكثيرة الرفيعة المستوى لتقويض القضية العربية الفلسطينية ومحاولاته الناجحة لاحباط بدء وتنفيذ سياسة انتداب منصفة كانت حاسمة في المحافظة على المكاسب الصهيونية ، وبخاصة في نطاق الهجرة . وقد عمل سمطس بصورة وثيقة مع وايزمان لتصوير القومية العربية كخطر يهدد المركز الجغرافي السياسي الامبريالي لبريطانيا ، والصهيونية كدعامة قيمة .

إبان الحرب العالمية الثانية وفي اعقابها مباشرة وهي فترة ذات عواقب مشؤومة لفلسطين ، ساعد الزعيم الجنوب إفريقي الدبلوماسية الصهيونية في مقاومة كل من النفوذ السعودي والعربي الآخر في اميركا ، خصوصا أثناء مؤتمر سان فرانسيسكو ، وفي معارضة بعض توصيات لجنة التحقيق الانكلو ـ اميركية حول فلسطين . كما انه وضع موارد الوفد الجنوب افريقي الى الأمم المتحدة في تصرف الدبلوماسية الصهيونية .وأخيرا توج العمل الذي بدىء بوعد بلفور بتقديم اعتراف الأمر الواقع بدولة اسرائيل في الرابع والعشرين من ايار (مايو) ١٩٤٨ ، وتبعه باعتراف شرعي بعد ذلك بيومين .

(١٣) Stevens, op. cit., p. 33

(١٤) المصدر نفسه ص ٣٤ .

أحد أبرز المظاهر للارتباط الثلاثي بين الصهيونية وبريطانيا وجنوب افريقيا هو « مذكرة وايزمان حول افريقيا » الموجهة الى سمطس في العام ١٩٤٣ : خطة لاحقة للحرب بارزة لانماء القارة الافريقية كانت تهدف بالنتيجة الى تعزيز الامبريالية البريطانية والجنوب افريقية بالوسائل الاقتصادية . وباختصار كان يدعو إلى نوع من الاستعمار الجديد يهدف إلى صيانة نهبهم للمواد الخام الاستراتيجية . وكانت خطة وايزمان « المرتكزة على افتراض ان إفريقيا — كما عبر — « ستصير على الأرجح العمود الفقري للامبراطورية الاستعمارية البريطانية بعد هذه الحرب » ، تنطوي على استخدام واسع للكربوهيدرات من أجل صناعة كيميائية جديدة للحلول مكان النفط والفحم(١٥) . وبالطبع خصص في المشروع مكان خاص للوطن القومي اليهودي . فسيكون بمثابة « المختبر أو المعمل الاختباري للمصنع الكبير الذي قد تنمو فيه القارة الافريقية بموجب هذه الخطة في نهاية المطاف »(١٦) .

وعلى المرء أن يتذكر كذلك كون الكثيرين من الشخصيات اليهودية الجنوب افريقية البارزة ، بمن فيهم أبا ايبان وأرثر لوري والماجور كوماي ، انضموا الى صفوف النخبة الحاكمة الاسرائيلية : وتسنم جميع الثلاثة مراكز بارزة في البنية التحتية الدبلوماسية للدولة اليهودية المؤسسة حديثاً .

التكافل اللاحق لعام ١٩٤٨ : المرحلة الثالثة

ختم موت الجنرال سمطس في ١٩٥٠ أحد الفصول الكثيرة في الارتباط الجنوب افريقي — الاسرائيلي الصهيوني . ومما لا ريب فيه أن التعاون — أو بالاحرى تكافل المرحلة الثالثة — هو اليوم أوثق مما كـــان في أي يوم مضى ، فان فهمهم اليومي لبعضهم بعضا كما تعكسه الصحف ، وتعاونهم القوي في الحقلين العسكري والاقتصادي ، ونسخهم الجديدة « لمذكرة » وايزمان (اسرائيل كمعمل اختباري للمصنع الكبير لجنوب افريقيا) والزيارة التي قام بها رئيس وزراء جنوب افريقيا جون فورستر الى اسرائيل في نيسان (ابريل) ١٩٧٦ ، جميعها احداث تذكرنا بشكل واضح بهذا التعاون أو التكافل . وقد عبرت صحيفة الحزب القومي لجنوب افريقيا(دي برغر)عن الامر على نحو بليغ في التاسع والعشرين من أيار ١٩٦٨ ، عندما قالت : « إن لاسرائيل وجنوب افريقيا قدراً مشتركاً . فكلاهما منهمك في صراع من أجل البقاء ، وكلاهما في صدام متواصل مع الاكثريات الحاسمة في الأمم المتحدة ... وانها في مصلحة جنوب افريقيا ان اسرائيل ناجحة في احتواء اعدائها ، الذين هم بين أعداء جنوب افريقيا الأكثر ضراوة »(١٧) . ولذلك فانه ليس مستغربا أن نجد الدولتين تعملان بنشاط في انسجام ضد حركات التحرير الوطني ، كما أنه ليس مستغربا ان نلاحظ حجم الشراكة في صناعة الاعتدة الذي يفوق كثيرا ما هو معترف به رسمياً . وهذا مهم بنوع خاص في صناعة الطائرات الحربية والصناعة البحرية : فالطائرة المقاتلة « الكفير » وزورق الخفر « ريشيف » والصاروخ الموجه « غابرييل » هي من آخر الأمثلة الواضحة . إلا انها تمتد أيضا الى انظمة اسلحة اخرى . فقد أمدت جنوب افريقيا واسرائيل احداهما الأخرى بالدبابات في أوقات مختلفة ، واسرائيل تصدر بانتظام اسلحة خفيفة ، وانظمة الكترونية عالية التعقيد ، ومعدات مضادة للفدائيين الى دولة جنوب افريقيا وهي مصممة خصيصا لمكافحة حركات تحرر العالم الثالث .

(١٥) المصدر نفسه ص ١٢٤ .
(١٦) المصدر نفسه ص ١٢٦ — ١٢٧ .
(١٧) «Israel-South Africa: Cooperation of Imperialistic Outposts» edited by Third World Magazine, (Bonn: P. D. W., 1976) p. 16

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ كشفت الايكونوميست اللندنية النقاب عن أن «كيسنجر في أوائل ١٩٧٥ طلب سراً من الحكومة الاسرائيلية ان ترسل قوات الى انغولا بغية التعاون مع جيش جنوب افريقيا في مقاومة الحركة الشعبية ... فأرسلت اسرائيل بعض المدربين العسكريين المتخصصين في الحرب المضادة للفدائيين بالاضافة الى معدات مصممة للغرض نفسه»[١٨] .

والأمر الذي لا يقل اهمية في نطاق وحجم التعاون الاقتصادي هو تصدير واستيراد المواد الخام والمنتجات المصنوعة ، والاستثمار والتمويل ، وتبادل اساليب الانتاج . هذا التعاون وصف أهميته الدقيقة اسحق اونا ، سفير اسرائيل في دولة التفرقة العنصرية في العام ١٩٧٤ حين قال . « بوفرة المواد الخام لدى جنوب افريقيا وخبرة اسرائيل التقنية ، فاننا نستطيع حقاً أن نبلي بلاء حسناً إذا ضممنا قوانا الى بعضنا البعض »[١٩] واحد الأمثلة الأخرى على التراكة الوثيقة ، وهو مثل ذو ايحاءات وتضمينات مشؤومة للمستقبل غير البعيد جداً ، يكمن في الحقل النووي ــ خصوصاً ان جنوب افريقيا هي احد المنتجين الرئيسيين للاورانيوم في العالم . فاسرائيل ، بدورها تقدم تكنولوجيتها النووية المتقدمة في حقل الليزر ، وفي اعادة التنقية الكيميائية للمواد النووية ، وفي التجارب السرية للأجهزة النووية . وكلا الدولتين رفضتا التوقيع على معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية .

وفي الختام نقول انه في تذكر الصلة الطويلة العهد من هيرتزل ورودس ، إلى وايزمان وسمطس الى رابين وفورستر ، والأمر الأهم اليوم ، هو انه يجب الا تغيب عن نظرنا الدوافع الأساسية التي أدت الى تعزيز مصالحهم المشتركة في الحقول السياسية والعسكرية والاقتصادية والاستعمارية. وكما عبرأحد المحللين ، فان « كلا منهما اعتبر الشرعية الاخلاقية لمركز الآخر صحيحة . وهكذا لا توجد كلمة واحدة في مراسلات وايزمان أوكتاباته تشكك إما في الأساس العنصري لدولة جنوب افريقيا التي كانت الصهيونية معتمدة عليها الى حد كبير او في دور سمطس في دعم نظامها العنصري : فالمركز الخاضع للاكثرية الافريقية في جنوب افريقيا لم تثر اية صعوبة اخلاقية (لوايزمان) ... وكذلك الأمر ، افترض سمطس دون أدنى شك (حق) المستوطنين اليهود في احتلال فلسطين دون الاكتراث بحقوق الفلسطينيين العرب سكان البلاد الأصليين . وفي كلا الحالين ، فقد لخص سمطس ووايزمان طاقة المدنية الغربية على تسويغ السيطرة والاستغلال والفتح والاخضاع »[٢٠] . ومن الواضح جداً أن العزلة المتزايدة للدولتين قد عززت مثل هذه الصفات المميزة : فوفقاً للتصريح المتفجر لرئيس الوزراء الجنوب افريقي السابق الدكتور فيرفورت الذي تبدو خبرته في طبيعة ووظيفة التفرقة العنصرية واضحة ، فان « اليهود اخذوا اسرائيل من العرب بعدما عاش العرب هناك ألف سنة . وفي ذلك اتفق في الرأي معهم بأن اسرائيل هي دولة تفرقة عنصرية مثلما هي جنوب افريقيا دولة تفرقة عنصرية »[٢١] .

طيلة المراحل الثلاث كان مغزى هذا التعاون والاتكال المتبادل بالنسبة للعرب خطيراً بنوع خاص . وبأوسع المعاني يبدأ المرء بالظاهرة العامة للامبريالية للعهد اللاحق للعام ١٨٨٠ : نسيج لا شق فيه يطوق العالم بمفاهيم استراتيجية رئيسية مثل الطريق الى الهند ورأس الرجاء الصالح

(١٨) Economist November 5, 1977, p. 90.

(١٩) Financial Mail, June 1974. Quoted in «Israel-South Africa: Cooperation of Imperialistic Outposts», p. 49.

(٢٠) Stevens, op. cit., p. ٤.

(٢١) Rand Daily Mail, November 23, 1961. Quoted in «Israel-South Africa: Cooperation of Imperialistic Outposts», p. 12.

والطريق الى القاهرة . واليوم التشديد هو أيضا على البحر الأحمر والمحيط الهندي . واضافة الى ذلك ، كان هنالك ، وما يزال ، النهب الاقتصادي للعالم الثالث والاستعمار المفروض بالقوة للأرض . كان خبير ثيودور هيرتزل في الاستعمار هو يهودي جنوب افريقي له مهمة معينة هي درس مشروع العريش الصهيوني في العام ١٩٠٣ . وارتبط الجنرال ايان سمطس ، المهندس الرئيسي لدولة جنوب افريقيا ، ارتباطا وثيقا بحاييم وايزمان والمشروع لبناء دولة يهودية ابان فترة الانتداب . ومارس الكثير من النفوذ في لندن لتعزيز قضية الهجرة الصهيونية والمكاسب الأرضية ولتحييد نضال عرب فلسطين من أجل الاستقلال وبناء دولة عربية .

وقدم سمطس كذلك دعما قيما لوايزمان ابان الحرب العالمية الثانية وفي مؤتمر سان فرانسيسكو .

واليوم بلغ الاتكال المتبادل ذروات جديدة في كل من الاعتدة التقليدية والحقل النووي . والتضمينات واضحة والتحدي للعالمين العربي والافريقي جلي تماما .

الحزب البلشفي والمسألة اليهودية

خالد القشطيني

كاتب وناقد عربي يقيم في بريطانية

هناك الآن حملة عالمية واسعة تشنها المنظمات الصهيونية والمنظمات الضالعة في ركابها ضد الاتحاد السوفيتي وسياسته تجاه اليهود . ويدعي الناطقون باسم الاعلام الصيهوني بان موسكو قد مارست عبر تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي سياسة معادية للسامية . ولا شك ان الغرض الاساسي من الحملة هو الضغط على الكرملين لفتح باب الهجرة على مصراعيها وتمكين اليهود من الهجرة الى اسرائيل والغرب .وقد اعترف فعلا اليك نوف الخبير البريطاني في الشؤون السوفيتية في مناقشة جرت في لندن في ديسمبر/كانون الاول ١٩٦٥ عن هدف الحملة قائلا « اننا نحتاج الى الضوضاء والجلبة لكي نعطي اتصالاتنا وراء الستار حظها من النجاح » . وهو في ذلك يذكرنا بالنصيحة التاريخية لهرتزل . وتبعه في الحديث الدكتور برغ فاشار الى ان هدف تلك الاتصالات هو فتح باب الهجرة ليهود روسيا[١] وجدير بنا والحالة هذه ان نلم بتصرف الحزب البلشفي وموقفه ازاء اليهود والمسألة اليهودية .

احتضنت روسيا القيصرية اكبر اقلية يهودية في العالم في اواخر القرن التاسع عشر . وعملا بالظاهرة المألوفة اينما كثر عدد اليهود تفاقم الشعور ضد السامية ، وقع يهود روسيا تحت اضطهاد شنيع استمر حتى سقوط القيصرية وطرزته مذابح مشينة منها مذبحة ١٨٧٠ و ١٨٨٠ و ١٩٠٥/١٩٠٦ التي ادت الى هجرة الاف اليهود وساهمت في تعزيز الحركة الصهيونية . وظلت روسيا اخر دولة اوربية تحافظ على الاحياء اليهودية المعروفة بالغيتو . وكان القيصر قد اصدر في ١٧٩١ امرا بحجز اليهود ضمن منطقة الاسكان المسموح بها لهم والممتدة غربي روسيا وبعيدا عن المدن الرئيسية كموسكو وبتروغراد. وعاش اليهود في احياء الغيتو الصغيرة ضمن تلك الغيتو الكبير في فقر واحوال مزرية [٢] وحاولت الحكومة اصلاح اوضاعهم وتثقيفهم بادماجهم في المجتمع الروسي ، بيد ان المحاولة اخفقت لاسباب عديدة منها عدم اخلاصها في مسعاها وتذبذبها في التنفيذ واعتمادها على الاكراه وتشكك اليهود انفسهم وعدم تعاونهم .

---

(١) جويش اوبزرفر ١٠/١٢/١٩٦٥

(٢) لدراسة الحياة في الغيتو انظر J. Ibraham ، الحياة اليهودية في القرون الوسطى .

ولا عجب ان ينضم اليهود بعد ذلك الى النضال الثوري المتعاظم . وانتظم الكثير منهم في حزبين ، الاول حزب العمال الاشتراكي الدمقراطي (الشيوعي) والثاني حزب العمال اليهود (البند) الذي كان بدوره فرعا من الحزب الاول . اما الحركة الصهيونية فلم تلق كثيرا من المؤيدين بين الشبيبة المتحررة ولكن بقي لها حزبها حتى حله البلاشفة في اواخر العشرينات من هذا القرن. وكان البنديون يرون ان لليهود الحق في اقامة حكم ذاتي قومي داخل روسيا . وناقضهم في ذلك العمال الاشتراكيون الدمقراطيون بلسان لنين الذي عارض فكرة الحكم الذاتي نهائيا في مؤتمر ١٩٠٣ ، واصر على ان للاقليات القومية اما ان تنفصل كليا او تدخل تحت لواء الحكومة المركزية . وصرح لنين في تلك الفترة « ان الطلائع العمالية قد ادركت ان شعار الثقافة القومية (ويقصد بها الاستقلال الثقافي القومي الذاتي) هو زيف برجوازي وكهنوتي سواء اكان يقصد الروس او الاكرانيين او اليهود او البولونيين او الجورجيين او اية قومية اخرى » . وكتب في مناسبة اخرى قائلا « ينطوي الاستقلال الثقافي القومي الذاتي على اكثر انواع القومية حذقا وبالتالي ضررا ، اذ يؤدي الى تضليل العمال بشعار الثقافة القومية وبالدعاية الى تقسيم جهاز التعليم حسب القوميات تقسيما معاديا للدمقراطية ومفعما بالأذى»[٣]. ولما لم يكن لليهود اقليم معين فان الحل الاول الذي اعطاه لنين عندئذ للاقليات ــ وهو الانسلاخ ــ اصبح غير ذي محل . ومن هذا المنطلق توصل ستالين فيما بعد الى الشعار الرئيسي « لا قومية بدون اقليم » .

ولا بد من الاعتراف هنا بانه اذا كان هناك اي حق لليهود في اية دولة في اوائل هذا القرن في الادعاء بالقومية فقد كان ذلك في روسيا . لم يعرف الكثير من يهود روسيا لغة غير لغتهم الخاصة الشلختية . وكان ان سجل ٩٧٪ منهم هذه اللغة بمثابة لغتهم اليومية حسب احصاء ١٨٩٧ . لقد اتبعوا دينهم الخاص وتقاليدهم القديمة وعاشوا حياتهم الخاصة في مدائنهم واحيائهم اليهودية . ومما يذكر ان اليهود في اوربا الشرقية عاشوا لعدة اجيال عيشة اشبه ما تكون بالاستقلال الذاتي . فقد كانوا يزاولون في احيائهم قوانينهم الخاصة ويجمعون ضرائبهم ويدرسون علومهم العبرية والتلمودية وظلت علاقتهم بالحكومة المركزية لا تتعدى الولاءودفع الجزية السنوية . وكان بينهم من النساء من تولد وتتزوج وتموت دون ان ترى العالم الخارجي او تقع عيناها على احد من الاغيار .

وتراشق لنين مع العمال اليهود حول هذه النقطة امدا طويلا ولكنه اصر على نكران القومية اليهودية . ونجد انفسنا هنا حيال مثلث سياسي اركانه الصهيونية ــ البندية ــ اللنينية . وفي هذا المثلث هاجم البنديون الصهيونية لادعائها بان يهود العالم (لايهود روسيا فقط) يكونون قومية واحدة وان فلسطين هي وطنهم واليها ينبغي أن « يرجعوا » . وعارضوا من ناحية أخرى اللنينية لانكارها قومية اليهود حتى في داخل روسيا . وهكذا فان غالبية الاشتراكيين بما فيهم البند لم تكن في شك من بطلان فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين . وفي عام ١٩٢٠ ، أصدر الكومنترن قرارا في مؤتمره الثاني منددا بالفكرة . وعاد في عام ١٩٣٧ فهاجم بقرار أخر مشروع تقسيم فلسطين . ولكن جناحا صهيونيا ظل يعمل في هذا المجال حتى أواخر العشرينات وتكلم زعماؤه في الكومنترن في مناسبات مختلفة مدافعين عن الفكرة الصهيونية[٤] .

---

(٣) اعمال لنين بالروسية ج ١٦ ص ٦١٨ و ج ١٧ ص ١١٨

(٤) L.Laquer ، الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط ، لندن .

بيد ان القضايا الاكثر اهمية حالت دون تركيز لنين على هذه المسألة فعهد بشوؤن الاقليات الى ستالين فخرج في عام ١٩١٢ بكراسته الشهيرة « الماركسية والمسألة القومية » . وفيها بسط الموقف الماركسي من المشكلة واجاب على سؤال ما هي الامة بتعريفه « هي مجموعة مستقرة من الناس تألفت تاريخيا وقامت على اسس من الوحدة المشتركة في اللغة والاقليم والاقتصاد والتكوين النفسي التي تجلت في اخراج حضارة مشتركة » . وقرر ستالين ان فقدان اي عنصر من هذه العناصر ـ التاريخ واللغة والاقليم والاقتصاد والثقافة ـ يفقد تلك المجموعة صفتها كقومية . وبدون شك ان اليهود على هذا الاساس لم يشكلوا قومية لفقدان كثير من هذه العناصر ، بل جميعها احيانا ، وفي روسيا لفقدان عنصر الاقليم . وقطعا لاي شك ذكر ستالين « من الممكن ان نتصور اناسا يتميزون بصفات قومية مشتركة ولكنهم رغم ذلك لا يشكلون امة واحدة اذا كانوا متفرقين اقتصاديا ويقطنون اقاليم مختلفة ويتكلمون لغات مختلفة وهلمجرا . وكمثال لذلك اليهود في روسيا وغاليسيا وامريكا وجورجيا والقفقاس الذين لا يشكلون امة واحدة في رأينا [٥] . وسخر ستالين من افكار البنديين القومية اليهودية التي وصلت حد المطالبة بعطلة يوم السبت واستعمال اللغة الشلختية كلغة رسمية . وكان البنديون قد استمدوا ايديولوجيتهم من افكار الرائد الاشتراكي النمساوي باور . وقد نفى باور ضرورة الاقليم او اللغة لتكوين الامة معرفا اياها بانها مجرد اناس تجمعهم صفات شخصية ومصير مشترك [٦] .

وهاجم ستالين هذا المفهوم بعنف واتهمه بالغيبية والروحانية وفند في اسهاب فكرة القومية اليهودية [٧] . ومن هنا يمكننا ان نتلمس بداية العداء المتبادل الذي طبع العلاقات بين ستالين والصهاينة طيلة حياته واستمر الى ما بعدها واتهام الزعيم السوفيتي بمعاداة السامية . وبقيت افكار لنين وستالين الآنفة الذكر الوجه الرسمي للشيوعيين السوفييت حتى نقضت بقرار الاعتراف باسرائيل في ١٩٤٧ . ولكن حدثت تغييرات فيها بشكل واسع بالنسبة للاقليات القومية الاخرى وبشكل ضيق بالنسبة لليهود خلال العشرينات والملاحظ ان القادة السوفييت قد امتنعوا عن ابداء اراء حول الموضوع بعد الثورة البلشفية لاسباب نذكرها حالا . بيد ان المؤتمر العاشر للحزب وصف اليهود بانهم من « الجماعات القومية المائعة » . وفي راي الاستاذ غرينبوم ، كان ذلك اعلى ما نالوه من القيادة البلشفية[٨] .

ساهم اليهود بقسط كبير في نجاح الثورة البلشفية ، وكان المنتظر ان يتلقوا الغنم مثلما قدموا الغرم . ولكن العكس هو ما وقع . لقد كان جل اليهود من الحرفيين والمرابين والصيارفة والكسبة ، اي طبقة البرجوازية الصغيرة التي جاءت الثورة لتقضي عليها . وكانت احصائيات ١٨٩٧ قد اظهرت ان ٥٤٪ من اليهود كانوا يمارسون التجارة الصغيرة و ١٨٪ منهم كانوايقومون بالحرف اليدوية[*] . وكان من الطبيعي لاجراءات الثورة ان تزيد من تعاسة اكثرية هؤلاء اليهود ومن ثم دفعهم الى الهجرة الى المدن الرئيسية التي كانت ممنوعة عليهم فيما سبق . وبفرار كثير من موظفي العهد السابق او

---

(٥) اعمال ستالين بالانكليزية ، طبعة موسكو ، ج ٢ ص ٣٠٧

(٦) O.Bauer ، المسألة الوطنية والدمقراطية الاشتراكية ، دار سيز للنشر ١٩٠٩ .

(٧) اعمال ستالين ، نفس المصدر ، ص ٣٠٧ .

(٨) A.Greenbaum u في بحث نشرته مجلة « دراسات سوفيتية » ، جامعة غلاسكو ، عدد ٩ ، ح ١٥ .

(*) ذكرت احصاءات عام ١٩٢٦ ان ٢٤,٧٪ من اليهود كانوا يعملون كموظفين في الدولة . واعترف كالنين بهذه الظاهرة في ١٩٢٥ وعزاها الى عدم تعاون البرجوازية الروسية .

طردهم او اعتقالهم ، شغرت وظائف عديدة في اجهزة الدولة سارع اليهود الى اشغالها ، ورحبت بهم الحكومة لاطمئنانها منهم . وهكذا وجد البلاشفة انفسهم في وضع لم يدخل في حسابهم . فمن ناحية ازدادت حالة اليهود سوءا ككل ومن ناحية اخرى لاحظت الجماهير الروسية المعادية تقليديا لليهود بان هؤلاء اخذوا يسيطرون على اجهزة الدولة ويمسكون بشؤون الرعية . ولاحت على الافق اشباح مذابح جديدة تجري تحت لواء الاخاء الاممي بل وحدثت بالفعل اعتداءات جماهيرية ضد اليهود كان من اهمها حوادث ١٩٢٦ لقد عودت القيصرية الشعب الروسي على حمل حقد دفين ضد الادارة وبدأ هذا الحقد يأخذ بعدا جديدا بتحول البيروقراطي التقليدي الروسي الى بيروقراطي يهودي . واستغل المعادون للثورة هذا الوضع وراحوا يرددون بان البلشفية هي من خلق اليهود وهدفها تدمير مسيحية وقومية روسيا الام . ولتفنيد هذه الادعاءات ، اضطر البلاشفة الى توجيه ضربات مشابهة لليهود كلما وجهوا ضربة الى احد من الاغيار . وقد لاحظ لاكر مثلا ، انه كلما امرت الحكومة بغلق كنيسة مسيحية شفعت ذلك بغلق كنيس يهودي .

لقد توقع الشيوعيون ان تنحل المسألة اليهودية بقيام النظام السوفيتي واندماج اليهود بغيرهم حيثما كانوا . وابدى لنين بالفعل مثل هذا الرأي بعد الثورة وسخر من شعار البنديين بالحصول على الاستقلال الذاتي الثقافي (كولتورنايا افتونوميا) بانه مطلب الحاخامين والبرجوازيين . بيد ان تأزم المشكلة وهلع الحزب من وقوع مجازر اضطره الى اختصار الطريق . لقد لوحظ ان وضع سياسة قسرية وجذرية للاسراع بعلمية الاندماج ستكون سخرية من سخريات القدر بالنظر لانها بالضبط السياسة التي حاولت القيصرية تطبيقها وادت الى استياء الضمير العالمي . واجبر الحزب الى النزول عند ارادة الاقسام اليهودية من اللجنة المركزية (وكان اكثر اعضائها من قدماء البنديين) بمنح اليهود جهات زراعية وتوطينهم فيها . وبحصولهم على الاقليم سيكملون شروط الاهلية للقومية .

وتزعم الحملة لتوطين اليهود رئيس اللجنة المركزية كالنين . وفي حماسه للمشروع ، القى خطابا تاريخيا ذكر فيه « ان الشعب اليهودي يقف الآن امام عمل جبار هو المحافظة على قوميته » وطالما ردد اليساريون اليهود هذه الكلمات حتى اليوم . وكانت بدون شك خروجا على المبدأ اللنيني الستاليني الذي طرحناه آنفا واشارة اولى الى أن الزعماء السوفييت مستعدون لمراجعة الأسس الايديولوجية وتطويرها حسب الضرورات والملابسات . واثارت كلمات كالنين مناقشات طويلة بين صفوف الحزب انعكست في اضطراب لغوي فراح الناطقون الرسميون يتكلمون احيانا عن اليهود كشعب (نارود) وامة (ناتسيا) وقومية (ناتسيونالنوست) وجماعة عرقية (نارودنوستي) . بيد ان الواجهة الرسمية السياسية بقيت متشبثة بفكرة الاقليم والتزام الحياد على المستوى العملي املا في ان ياخذ الاندماج طريقه بمرور الزمن .

وبذلت مساع كبيرة لتوطين اليهود في حقول القرم واوكرانيا ، واخيرا في بيروبيجان ، المقاطعة اليهودية ذات الحكم الذاتي في شرقي الاتحاد السوفيتي . وساهم يهود امريكا في كل هذه المشاريع وارسلوا البعثات الخيرية لها . ولكنها جميعا ورغم كل مساعي الحزب باءت بالفشل . لم يذهب الى بيروبيجان اكثر من حوالي ٢٠,٠٠٠ شخص غادرها ما يقرب من نصفهم فيما بعد . وفي غربي روسيا لم يبق غير التعاونيات التي اجهز عليها الغزو النازي فيما بعد . والظاهر ان اليهود لم يرغبوا في ترك مناطقهم التقليدية الى اقصى الجهات وآثروا الحياة في المدن حيث بدأ مشروع الخمس سنوات باستيعاب عاطليهم . ولا بد ان شعر القادة السوفييت بخيبة امل ازاء فشل كل هذه المشاريع . وعبر

ستالين بالفعل عن مثل هذا الشعور الى روزفلت فيما بعد [٩] . وربما جاء ذلك من جملة العوامل التي جعلت ستالين ينظر نظرة تشكك من التحركات اليهودية .

وقد ألفت ضمن اللجنة المركزية اقسام يهودية لرعاية شؤون اليهود . وكان عمل هذه الاقسام قائما على اؤلئك الذين لم يندمجوا بعد بالمجتمع الروسي ولم يتثقفوا بالثقافة الاوروبية كتروتسكي وكانييف اللذين لم يعنيا بقليل او كثير بهذه الاقسام ، وانما اضطلع بمهماتها من احتفظ باللغة الشلختية وواصل علاقته بالطائفة اليهودية التقليدية . وكانت مهمة الاقسام اليهودية ترويج الشيوعية بين هؤلاء باللغة التي يفهمونها . وكثيرا ما تعارض عمل الاقسام مع اهداف الحزب الستراتيجية . فبينما كان الحزب يريد اندماج اليهود وتعلمهم الروسية كان اعضاء الاقسام اليهودية ــ ومصيرهم مربوط بوجود اللغة الشلختية ــ يضغطون على العوائل اليهودية لارسال اولادها الى المدارس الشلختية[١٠] . ومن المساعي الجدية والتقدم الذي احرزه اليهود في توجيه سياسة الحكومة ازاء المشاكل الآنية لليهود يتضح لنا ان الموسوعة البريطانية قد تجنت في قولها « ان البلاشفة لم يحدثوا اي تغيير (في احوال اليهود) بعد توليهم الحكم » .

وصاحب هذا النشاط ارتفاع في نسبة التمثيل اليهودي داخل الحزب. بينما كان اليهود يشكلون ١,٨٢٪ من الشعوب السوفيتية ويشغلون المرتبة السابعة حسب احصاء ١٩٢٧ رأيناهم يشكلون ٤,٣٤٪ من عضوية الحزب ويشغلون المرتبة الثالثة . وترتفع هذه النسبة اكثر عندما نأتي الى مؤتمرات الحزب فنراهم يشكلون ٧,٤٪ من المندوبين في مؤتمر ١٩٢٧ و ١٠٪ في مؤتمر ١٩٣٠ ، اي ان قوة صوتهم في المؤتمر الاخير اصبحت ستة اضعاف قوتهم العددية بالنسبة للسكان . ولكن هذا التزايد الوطيد توقف بعد حملة ستالين التطهيرية عام ١٩٣٦ فانخفضت نسبة اليهود الى ٢,٥٪ في مجالس السوفيتات عام ١٩٣٨ . وتقول المصادر اليهودية ان هذه النسبة استمرت في الهبوط حتى اليوم .

وصل المد اليهودي اوجه في اواخر العشرينات ثم بدأ بالانحسار بحل الاقسام اليهودية ومنع الحزب الصهيوني . وما ان جاء عام ١٩٣٦ حتى شرع ستالين بتصفيته الشهيرة التي اطاحت بكبار اعضاء الحزب اليهود . ويعنينا من هؤلاء خبراء الحزب في شؤون الشرق العربي . لقد عمد نفر من اليهود الشيوعيين في العشرينات الى النزوح الى الشرق الاوسط للترويج للشيوعية ونذكر من هؤلاء[١١]:
(١) شامي (اياكوف تبر) ، روسي يهودي ،ذهب الى فلسطين ثم سوريا ، عاد الى روسيا واصبح مدير معهد الدراسات الشرقية في لنينغراد . تمت تصفيته في ١٩٣٦ بتهمة الميول الصهيونية واليمينية . (٢) ناداب (ناحوم لشجنسكي) روسي يهودي ، ذهب الى فلسطين ثم عاد الى روسيا وتخصص في شؤون مصر . مات في طريقه الى المعتقل في ١٩٣٦ . (٣) افيكدور (يحيل كوسوى) يهودي اوكراني ، ذهب الى فلسطين ثم مصر . عاد الى الاتحاد السوفيتي حيث توفي في السجن . (٤) ابو

---

(٩) مؤتمرا يالطة ومالطة، ١٩٥٤ ، طبعة وزارة الخارجية الامريكية رقم ٦١٩٩

(١٠) غرينبوم نفس المصدر .

(١١) لاكر ، نفس المصدر .

سيام (س . افربوخ) ذهب الى فلسطين حيث اطلق على نفسه اسم « حيدر » . كثيرا ما تكلم في الكومنترن عن الشرق العربي . تمت تصفيته في ١٩٤١ .

وقد استحوذت هذه المدرسة على معظم التقارير والمقالات والتعليقات التي كانت تصدر حول الشرق الاوسط . ولا يمكننا ان نتقبل بسهولة قول لاكر في نفيه لاي تأثير لهؤلاء على السياسة السوفيتية بالنسبة للشرق الاوسط . بيد ان محاولاتهم لنشر الشيوعية في سوريا وفلسطين ومصر لم تحقق شيئا يذكر وقد عانوا جميعا من اضطراب في الموقف ، فمن ناحية ينكرون وجود اي علاقة ليهود العالم بفلسطين ومن ناحية اخرى نراهم يرحلون الى فلسطين بانفسهم . ولابد ان لفتت مثل هذه التناقضات فكر ستالين وغرست الريبة في قلبه . ولكن حملات التصفية التي شنها الزعيم السوفيتي اكثر تعقيدا من ان نرجعها لمجرد هذا السبب ، ولا توجد اية وثائق بشأنها يمكن للباحث ان يطمئن اليها .

وفي ابان الحرب العالمية الثانية ، حارب اليهود بجانب الجيش الاحمر . وعندما انتهت الحرب وجدنا ان خارطة الوجود اليهودي قد تغيرت تغيرا كليا في الاتحاد السوفيتي . لقد قضى الالمان على مدنهم وقراهم القديمة في منطقة الاسكان وعلى تعاونياتهم الزراعية في الاقاليم الجديدة . وامام جحافل النازية تبعثر اليهود في شتى انحاء العالم الاشتراكي ووفروا على الكرملن عناء العملية وعارها . واضطر اليهود في بيئاتهم الجديدة الى تعلم اللغات المحلية والاندماج بجيرانهم من القوميات . ولكن قادة اليهود عادوا ثانية للضغط على الحكومة لاعادة تجميع اليهود وبعث تراث اللغة الشلختية . وكان جواب ستالين بالنفي القاطع . وبالاضافة الى منعه هجرة اليهود الى الخارج اثار حفيظة الحركة الصهيونية واستحق منها تهمة معاداة السامية .

لقد كتب الكثير عن معاداة ستالين للسامية ولكن تمحيص وقائع سياسته وتصرفاته يزعزع مثل هذه التهمة بالرغم من كل الضحايا اليهود الذين وقعوا في شباك حملاته التصفوية . ومما يذكر انه كتب في عام ١٩٣١ رسالة عن الموضوع قال فيها « ان معاداة السامية نوع متطرف من الشوفينية العرقية واكثر اشكال الكانيبالية (اكل لحوم البشر) ضررا . انها تساعد المستغلين في استغلالهم بتضليل الشغيلة وتفادي الضربات التي توجهها ضد الرأسمالية » . ولا شك ان ستالين كان من اكثر الزعماء البلاشفة الماما بالمسألة اليهودية واشرف على تطورها عندما انيطت به القوميسيارية الشعبية للقوميات بعد الثورة . وقد لقيت هذه القوميسيارية الويل من الخلافات بين المؤسسات اليهودية المختلفة وبينها وبين الحزب واقسامه اليهودية . ولا بد ان تركت هذه الخلافات المألوفة عند اليهود اثرها في ذهن الزعيم السوفيتي . والملاحظ انه لم يول اهتماما الى مشاريع كالنين في توطين اليهود واعطائهم صفة القومية . واعرب عن رأيه في مؤتمر يالطة بان اليهود اقرب الى التجارة والتنقل منهم الى الاستيطان الزراعي . كما ان تذبذب اليهود بين مطالبتهم بحقوق قومية واقليم خاص بهم ثم انصرافهم عن هذه الاقاليم وعودتهم ثانية بعد الحرب للمطالبة بتجميعهم في جهات جديدة لا بد ان استنفد صبر السلطات في موسكو ، واكد لها ان الطريق الوحيد هو طريق لنين الذي رسمه في ١٩٠٣ ، وهو اندماج اليهود بالوطن الام ، وهو الاتجاه الذي ما زال يسير عليه الاتحاد السوفيتي . وقد وصف غرينبوم ، الخبير البريطاني في شؤون اليهود السوفييت ، موقف الكرملين نحو ذوبان القومية اليهودية « بالحياد التام بل والحياد المنعطف نحو اليهود » .

وسار هذا الذوبان في تقدم مضطرد انعكس باحصائيات الادب الشلختي . فبعد ان كان المتكلمون بهذه اللغة يكونون ٩٧٪ من الطائفة اليهودية في عام ١٨٩٧ اصبحوا يكونون ٧٣٪ من

الطائفة في عام ١٩٢٦ ثم ٢١,٧٪ فقط في عام ١٩٥٩. وتتحدث ارقام مشابهة عن مثل هذا الاتجاه في نسبة الكتب والمجلات الصادرة باللغة الشلختية . ومن هنا جاءت صيحات الفزع من الاوساط الصهيونية فقال لتفينوف ، الخبير الصهيوني في الشؤون السوفيتية ان حالة اليهود في روسيا « وصلت حد اليأس والضياع بالنسبة لمستقبلهم » . (١٢) ولعل في هذا ما يفسر المقت المركز الذي يحمله الصهيونيون لستالين واتهامهم له باستمرار بمعاداة السامية . ويرى اسحق دويتشر ـ وهو من نقاد ستالين ومعارضيه ـ ان الزعيم السوفييتي كان خالصا من اي عداء لليهود وانه لم يتردد في اناطة اخطر الشؤون الى يهود ومنهم لتفينوف الذي ترأس وزارة الخارجية لسنين طويلة . ولكنه بعين الوقت كان مستعدا لتسخير الشعور المعادي للسامية في خدمة مخططاته السياسية (١٣) . ويظهر ان السلوك الانتهازي الذي سلكه القوميون اليهود في علاقتهم بالحزب الشيوعي السوفيتي قد ترك شكوكا في ذهن القيادة السوفيتة بالنسبة لتحركات الزعماء اليهود . لقد كان البنديون يعتبرون انفسهم اولا جزءا من الحركة الشيوعية ولكنهم انشقوا عن الحزب البلشفي في عام ١٩٠٢ وتخلوا عنه لاصرار لنين على رفض فكرة القومية اليهودية . وانضم جناح البند بعد ذلك الى المنشفيك وحولوهم الى حزب مؤيد للقومية اليهودية بعد ان كان المنشفيك يهاجمون لنين لتساهله في اقرار المفاهيم القومية ، بل وانفصلوا عنه حول هذا الموضوع . وبعد فشل حزب المنشفيك ، لاذ زعيم جناح البند بامريكا وراح يسخر من هناك ابواق الدعاية الغربية ضد النظام السوفيتي الجديد (١٤) . اما الباقون من البند فقد عادوا يتسللون الى الحزب البلشفي بعد الثورة ويسخرون الاقسام اليهودية من اللجنة المركزية لتبني سياسات وشعارات تؤدي الى تعميق فكرة القومية اليهودية .

ومن الواضح ان النقطة المحيرة في سياسة الاتحاد السوفيتي بالنسبة للمسألة اليهودية هي في انتكاصه على كافة مقرراته السابقة في هذا الشأن والتحول الى جانب تأييد اقامة دولة يهودية في فلسطين في عام ١٩٤٧ . ولا شك ان تفاصيل هذا التحول السياسي والايديولوجي والدبلوماسي ما زالت في عالم الكتمان وربما لن تنكشف مطلقا بصورة وثائقية . وقد قدمت كثير من النظريات في هذا الصدد تشير بصورة عامة الى استعداد ستالين لتضحية المبادىء الايديولوجية من اجل خدمة المتطلبات السياسية والدبلوماسية .

---

(١٢) جويش اويزرفر ، ١٩٦٥/١٢/١٠ .

(١٣) Isaac Deutscher ستالين ، لندن ١٩٦٦ ، ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠

(١٤) S.Schwarz ، اليهود في الاتحاد السوفيتي ، نيويورك ، ١٩٥١ .

المشروع الاقتصادي الوظيفي اليهودي في التاريخ العربي البنائي

أنس مصطفى كامل

باحث في معهد البحوث والدراسات العربية

أما وقد وضحت النوايا الاسرائيلية في التحول من الدولة « المعسكر » الى الدولة « المشروع » ، بعد فرض مشروع الدولة الاسرائيلية بالقوة على الواقع العربي ، وبدا واضحا ابعاد هذا المشروع فيما يطلق عليه الاعلام الاسرائيلي «السوق المشتركة للشرق الأوسط »[١]. فلم تعد المشكلة قضية حدود « بنائية » بقدر ما اسفرت عن وجهها الحقيقي في كونها تقسيم « وظيفي » للعمل الاقليمي يدعم المشروع الاقتصادي للتعايش الوظيفي. ولذا فان مراجعة الأحداث في الشهور الأخيرة ابتداء من وصول حكومة ليكود للسلطة في اسرائيل ، وهو الامر الذي يبدو لأول وهلة لا يتسق مع منطق التصويت في البنية الاسرائيلية ، وبامعان النظر يتسق مع المشروع اليهودي الوظيفي اقليميا ودوليا»[٢] . فلم يكن الهدف هو وصول حكومة قوية لتقيم مفاوضات سليمة تحقق نتائج قوية فيما يتعلق بالأرض والحكم الذاتي ، ولكن كانت الأحداث تؤرخ لما هو اعمق من ذلك . فلقد جاءت الحكومة اليمينية هذه لتدعم الاتجاه الانفتاحي الاسرائيلي فيما اعلنت عنه برامج الليكود باسم « البرنامج الاشتراكي الجديد »[٣] . هذا الاتجاه الانفتاحي الذي يدعم توسع المشروع الاقتصادي الاسرائيلي في الدول العربية المقدمة على السلام او تقبله ! . لقد كان وراء هذا المشروع ارادة المخطط الصهيوني العالمي دون شك كما يلمح ارييه دولتشين بالادارة الصهيونية العالمية ، لبداية الانتقال من مرحلة الحرب العسكرية الى مرحلة التعاون الاقتصادي . لقد وضع خطوط هذه السياسة الاقتصادية الاقتصادي العالمي ميلتون فريدمان « بكلاسيكيته الجديدة » وتفذها مناحم بيجن وجهازه الحاكم « بالليبرالية الجديدة » ، التي تكرس لاستمرار الفاشية السياسية والتحررية الاقتصادية للمشروع الفردي . هذا الانفتاح المقصود من جانب اسرائيل واكب الانفتاح المصري . ولا غرابة اذا علمنا أن أحد مهندسي الانفتاح المصري وخبرائه هو أحد تلامذة ميلتون فريدمان ، ذلك الخبير الالماني الغربي الذي وضع تقريره عن الاقتصاد المصري قبل اشهر من بداية التحرك الاسرائيلي نحو المباحثات مع الحكومة

(١) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/١/٨ .

(٢) SCHLEF, Z. - Israelis Speak About Themselves and Palestinians. Washington 1977, pp. 31-52.

(٣) دافار ، ١٩٧٨/٣/٥ .

المصرية . ما يعنينا هنا ان هذا البعد الاقتصادي كان متفقا عليه في الاجماع الاسرائيلي(٤) . فلقد كان الانفتاح الاسرائيلي محددا بهدف اساسي الغرض خارجي دون ما مساس قوي بالبنية الداخلية ، ولن نفصل في هذه المقدمة ابعاد هذا التحرك فموضعه مكان آخر بالدراسة. ولكن أهم ما نود لفت النظر اليه أن هذه الخيط من التحليل يمكننا من فهم ابعاد المشروع اليهودي عبر التاريخ العربي . فان كان هذا هو اطار الحركة في المرحلة الاسرائيلية فانه في المرحلة الصهيونية (ما قبل الدولة الاسرائيلية) كان تفكير تيودور هرتزل يذهب دائما الى التأكيد على أهمية المشروع الاقتصادي، ولقد أطلق عليه «مشروع الشركة الشرقية اليهودية ليمتد»، وارسله عام ١٩٠٢ الى روتشيلد لتقديمه الى البريطاني تشمبرلين لاقناعه بامكانية السيطرة اليهودية عن طريق هذه الشركة على فلسطين وسيناء المصرية(٥) . ولقد نحى نفس المنحى في التفكير مجموعة الصهيونيين العموميين في مشروعهم ، فاذا عدنا بالتاريخ الى ابعاده الأولى لوجدنا ان الفترات القليلة التي سمحت بالتواجد اليهودي في منطقة نهر الأردن وسيناء ـ مصر كانت ترتبط في الأدبيات اليهودية بتعبير المشروع الاقتصادي أو ما أطلقوا عليه اسم « الكومنولث اليهودي »

إذن الادعاءات اليهودية في كافة المراحل كانت تتجاوز حدود الكيان البنائي الى اطار المشروع الوظيفي !

هدف هذه الدراسة هو التحقيق من هذه الفرضية ، في اطار التأكيد على ان الصراع العربي الاسرائيلي ليس مجرد « حالة نفسية » ، أو صراع حول اغتصاب مكان من الارض العربية ، أو محاولة اثبات أو اجهاض مجموعة من الميثولوجيات التاريخية ، كما درجت العديد من المناهج التقليدية العربية على تناوله ، والتي ما زالت في اطار فقهها التبريري تحاول أن تجزء الصراع تحت دعوى ان الصراع العربي الاسرائيلي لم ينته ، وانما هو بصدد الدخول في اشكال أخرى . ان هذا المنهج التبادلي يحاول ان يقسم الصراع وميكانيكاته كما حاول قبلا ان يختزله في كونه حالة نفسية ، والواقع انه لا النموذج المجزأ ولا النموذج التبادلي التركيبي ، يمكن ان يفسر حالة الصراع العربي — الصهيوني ، ولكن النموذج الموحد هو القادر على الاضطلاع بهذه المهمة ، حيث تتلاحم كل ابعاد الصراع ، ولا يعرف الا شكلا وحيدا للآلية الا وهو الصدام المباشر . فحتى الذين يتعللون بالدراسات الغربية لظاهرة الصراع ليس بامكانهم ان يحاجوا « سوروكين »: أهم من أصل نظرية الصراع في المدرسة الغربية للعلوم السياسية والذي يؤكد على الترابط بين العصر الفسيولوجي والسياسي والعقلي والاقتصادي . ولا يجد في آلياتها سوى السرقة والسلب والنهب والتزوير والاغتصاب والتخريب والانقلابات والحروب(٦) . ولعل افضل الذين اقتربوا من فهم الدور اليهودي التاريخي كان كارل ماركس في دراسته المعنونة باسم « المسألة اليهودية » . ولما كانت الماركسية تعتمد في التحليل على النموذج الموحد ، فان اهم ما سنركز عليه وما يتفق مع غرض الدراسة هو التاصيل للبعد الاقتصادي . انها محاولة لدراسة اليهودي والصهيوني في ابعاد مشروعه الوظيفي ، وليس في ميثولوجياته وتحركاته العسكرية البنائية ، انها احتذاء للتقاليد التي وضعها ماركس حول ضرورة البحث عن سر اليهودي لا في دينه بل عن سر الدين في اليهودي الواقعي . واذا كان كارل ماركس قد قام

---

(٤) PERES, S., The Middle East in a state of transition (in) Israel Yearbook. 1978. pp. 29-33.

(٥) اسعد رزوق ، اسرائيل الكبرى ، دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، سلسلة كتب فلسطينية العدد ١٣ ص ١٠٦ .

(٦) SOROKIN, Contemporary Sociological Theories . New York., p. 315.

بمحاولته هذه من خلال استقراء الوجود اليهودي في العالم الأوربي ، فانه قمين بنا ان نهتم بدراسة هذه المقولة على الوجود اليهودي في التاريخ العربي ، حيث سنتوصل لتأصيل اكثر دقة ورحابة حتى من ذلك الذي ذهب اليه ماركس ، خاصة وقد غدت حلقات المسلسل اليهودي اليوم متصلة الابعاد ، ووصلت الى احد ابعاد نقاطها التاريخية الهامة ، بعد ان تحولت الدولة الاسرائيلية من « المعسكر » الى « المشروع » كما سبق ايضاحه . او قل دخلت على الأقل نطاق الازدواج الوظيفي .

ان هذه الدراسة محاولة للاتساع في تحليل المقولة الماركسية على مدار التاريخ ، انها محاولة للخروج من دائرة دراسة (يهودي السبت) التي اشار الى عقمها ، وعقم البحث عن اليهودي في دينه ، وذلك من واقع دراسة ثلاث مراحل تاريخية في التطور الاقتصادي : المرحلة الزراعية والتجارية الاقليمية ، ثم المرحلة الخاصة بتجارة المسافات الطويلة والحرفيات ، ثم مرحلة التعدين والنقل لحساب القوى الصناعية الغربية والمركز الرأسمالي . المرحلة الأولى مرحلة الكيانات الاقليمية ، ثم المرحلة الثانية مرحلة الدول الاسلامية ، والمرحلة الثالثة مرحلة القومية العربية ، ولقد فرض علينا بناء النموذج الموحد ان نعتمد على منهج تكاملي يعتمد على بعد اسلامي فيما يتعلق بقياس العصبية الخلدونية ، وبعد ماركسي في دراسة المادية التاريخية والجدلية ، ثم بعد غربي في الدراسات المعاصرة لعلم السياسة الا وهي البنائية الوظيفية ، وذلك في اطار استخدام ادوات التحليل الاسذسي ومن أهمها القياس بين المراحل الثلاث السابق الاشارة اليها ، أي انها ليست مجرد تاريخ وصفي . ولقد جاء التعامل بالوظيفية ــ البنائية ليؤكد على اهمية وضع خطوط عامة على الكيانات التاريخية . تقنن حالة الركود ، ولتكون دالة على حالة مقصودة استمرت في التاريخ الخاص بالمنطقة ، حالة الساكرون أو التزامن ، فلم يكن التاريخ سوى سنين تحصى على واقع لا يتزمن أي لا يتطور في اتجاه العودة الى الركود[٧] . ولذا لم يشهد « دياكرون » أي تطور يصبغ نفسه بالأبعاد الوظيفية الحركية والتي تحافظ على حيوية التكوين البنائي وامتداده وتطوره[٨] وتدفع به من مجرد ان يكون وحدة تركيب وتعقيد بنائية الى ان ينصب الاهتمام على « الفعالية » ودورها في التاريخ العربي[٩] سواء من جانب القوى الاسلامية أم من جانب القوى اليهودية ودون الوقوع في المحظور الذي يندفع فيه انصار الماركسية البنائية مثل التوسير من رفض كامل للنزعة الاقتصادية في تفسير الواقع ، ودون أيضا الوقوع في أسارها فقط ! خاصة وأن الوظيفية تهتم بالأبعاد التاريخية والانثربولوجية مثلها مثل البنائية التي تهتم بتحليل الميثولوجيات .

وفي البداية من المفيد التأكيد على ان الدراسة تفرق وبوضوح بين ان يكون هنالك دين يهودي وجماعات تعتنقه وبين ان يكون هنالك جنس أو عصبية يهودية . هذا على العكس من أن تاريخ المنطقة الشرق اوسطية يعرف القوى العصبية والقبلية[١٠] ، وبالتالي لا يمكن ان يكون العرض للدور اليهودي في هذه الدراسة على مدار التاريخ ، وخاصة الاسلامي والعربي ، مبررا لتقديم الحق التاريخي بدولة قومية يهودية . فاليهود كانوا جزءا من الدول الاسلامية ، ومن قبل الأمة كلها ، وكذلك صاروا جزءا من الكيان العربي ، شأنهم شأن اية اقلية دينية أو مذهبية ، ولم يصلوا حتى الى مرتبة الاقلية

---

(٧) د. زكريا ابراهيم ، مشكلة البنية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ ص ٤ ، ٢٢٠

(٨) BARBER.B., Structural-Functional of analysis Some Problems and mis understandings(in) American Sociological Review, April 1956. pp. 130-131.

(٩) مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، دار الشروق ــ القاهرة ١٩٧٨ ص ١١٩ وما بعدها .

(١٠) د. حسن الساعاتي ، علم الاجتماع الخلدوني ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٨ ، ص ٧٢ ــ ٨٥ .

العرقية . وبالتالي فان لعب اليهود لدور ، حتى وان كان وظيفيا ، في الكيان الاسلامي والعربي ، حتى وان كان بنائيا ، فانه لا يعطي لهم الحق البنائي ، ذلك ان الانتقالات القديمة حتى قبل الاسلامية لم تكن انتقالات عرقية او استعمارية وفق المفهوم القومي الغربي بقدر ما كانت ثورات انسانية وحضارية ، هكذا كانت الهلينية والرومانية والآرامية والفرعونية واليهودية والمسيحية ، وهي بشكل أو بآخر اعتمدت كلها على ميثولوجيات توحيدية لتحقيق دوافعها الاقتصادية وكانت موجات بشرية وحضارية أكثر منها كيانات قومية ذات حدود اقليمية ، وذات سيادة مطلقة[11] وذلك عكس ما تقوم عليه الدعاية الصهيونية المعاصرة .

اولا : الدور الاقتصادي اليهودي في المرحلة ما قبل الدولة الاسلامية وتكون اللاتيفوند :

ففي المرحلة الأولى يظهر بشكل واضح منذ البداية الأبعاد الاقتصادية لليهودية. فالمعروف ان أصل قوم موسى كانوا الأسباط الاثني عشر الذين أتوا إلى مصر الفرعونية من فلسطين، وكان هؤلاء يسكنون الأض كقبائل بدوية رحل ومعهم الكثيرون ، وبالتالي لم يكن ابناء يعقوب وجدهم في المنطقة ، وكانت مصر الفرعونية قبل هذا القدوم تعتمد نظاما زراعيا اقطاعيا اقليميا ، وخاصة من مصر العليا ، وكان لكل اقليم اطار وحدوي ممثل في العبادة الالهية ، مثل ست ، وهاتور . هذا في الوقت الذي انتشرت فيه قوى مصر السفلى في التعامل التجاري ، وكان حورس ابن ازوريس الممثل لهذه القوى التجارية وعبادتها . وببداية عملية الاتجاه للتوحيد من الأسرة الخامسة ارتبطت زيادة ملكية فرعون من الأرض بنشر عبادة رع ، الشمس الذي هو أقوى من شانصوه (القمر) في سيناء والآلهة الأخرى المجزأة في الاقطاعيات . غير أن الاتجاه التوحيدي للملكية الزراعية نتيجة لزيادة ثروة الفرعون وتجارته ما لبث أن اصطدم مع رغبات القوى الاقطاعية الاقليمية ، وبالتالي شهدت مصر بانتهاء الأسرة السادسة اي حوالي سنة ٢٣٠٠ ق. م. وحتى نهاية الأسرة العاشرة ٢١٣٠ ق. م. العديد من الاضطرابات والثورات الشعبية ، ولم تفلح جهود الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة في اعادة توحيد البلاد في هذه الفترة[12] . ومن الأسرة الثانية عشر وحتى السابعة عشر شهد بنو يعقوب بداية وجودهم في مصر ، فعندما قدم « يوسف » الى مصر وليس هنالك تاريخ متحقق من هذا ، قام بمساعدة فرعون على السيطرة على الاراضي الزراعية عن طريق التحكم في المياه ، وبدعوى مواجهة السنين العجاف قام بتخزين الحبوب ، فعندما قدمت السنون العجاف التي شحت فيها المياه تضور الفلاحون جوعا ، فكان فرعون يبيع لهم الحبوب والمياه نظير استيلائه على الأرض . وهكذا كانت خطة يوسف الاقتصادية الوظيفية لتحقيق السيطرة البنائية لفرعون على الدولة . ودعا فرعون أخوة يوسف أي أولاد يعقوب بن اسحاق ، وكان هؤلاء الاثنا عشر يمثلون البدو ، وكان المصريون يطلقون عليهم لقب العبرانيين وعلى كل البدو ، ولقد ايقنوا حجم الخراب الذي اتى للبلاد وتنازلهم عن ثرواتهم عن طريق هؤلاء البدو ، ولذا عافوهم ورفضوا ان ياكلوا معهم ، ثم بدأ البدو يأتون على حساب قوة أخوة يوسف الى فرعون وفرعون يرحب بهم ، ويدفعهم الى تربية الاغنام ، وصارت الدواب والغنم وتجارتهم ملكا للبدو ، حتى كان تعاملهم مع الهكسوس الرعاة حوالي عام ١٧٢٥ — ١٥٨٠ ق.م.[13] أثناء

---

(١١) صبحي وحيدة ، في اصول المسالة المصرية ، الانجلو المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ٢٤٠ ــ ٢٤٢ .
(١٢) د. محمود السقا ، معالم تاريخ القانون المصري الفرعوني ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ص ٣٢ ــ ٥٩ .
(١٣) بريستد ، تاريخ مصر من اقدم العصور الى الفتح الفارسي ، مترجم ــ القاهرة ، ١٩٢٩ ص ص ٦٥ ــ ٧١ .

احتلالهم لمصر . هكذا كانت بداية السيطرة على الاقتصاد المصري القديم .

١ ــ المشروع الاقتصادي اليهودي في عهد الدولة الفرعونية :

رأينا مما سبق ان الاتجاهات التوحيدية كان لها اساسها الاقتصادي والمشروع التوسعي ، واستمر هؤلاء البدو حتى بعد طرد الهكسوس يمثلون قوة اقتصادية ، وان قلت قيمتهم في عصر الدولة الحديثة ، حيث بلغت الدولة اتساعها ووحدتها القوية في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وبالتالي لم تصبح هناك اي اهمية اقتصادية لهؤلاء البدو ، بعد ان استولت الدولة على مناطق وجودهم ، وانتهى اهمية دورهم التاريخي بعد حصول فرعون على كل الأراضي الزراعية فلم يعـد بحاجة الى النشاطات الربوية التي يقومون بها ، ولكن كان آمون مرتبطا باتجاهات القوى الاقطاعية بينما الفتوحات وخاصة في ابعادها الاقتصادية التجارية ترمي الى تحقيق قوة أكبر . فظهر آتون . عندما تولى اخناتون السلطة (١٣٧٥ ــ ١٣٥٨ ق.م.) عمل على تحقيق هذه الوحدة الميثولوجية التي هي تعبير عن اتجاه اقتصادي يربط بين التوسع الزراعي والتجاري ويقدم لراسمالية دولة ، وتربى موسى في مدرسة اخناتون التوحيدية هذه(١٤) . ولكي يحقق موسى طفرة في الاتجاه الاخناتوني ، بعد عودة الأسرة التاسعة عشرة الى آمون وخروج موسى وقومه البدو من مصر بعد انتهاء كل امكانية لأن يمارسوا دورا اقتصاديا واتجاههم لممارسة هذا الدور في مكان آخر كاستمرار للاتجاه الاخناتوني ، ولذا جاء التوحيد اليهودي أكثر تقدما من التوحيد الاخناتوني حيث انه لم يكتف بان يتخذ الشمس مثلما فعل اخناتون وطور عبادة « رع » فقط ، ولكنه (أي موسى) التقى مع الرب وكلـم الشمس وراء الجبل أي أخذ خطوات ابعد في اتجاه البحث عن اله حقيقي ولذا كان التوحيد الذي دعمه موسى لقومه توحيدا تشاوبيا خاصا بقوم موسى لتحديد وظيفة اقتصادية محددة ، ورأت جماعته قصر الديانة عليها عكس المسيحية والاسلام اللذين كانا للعالم كافة ، فهنا كان تلاعب قوم موسى بمعنى التوحيد فقد اخذوا التعاليم الالهية وحرفوها ، وأخذوا ميراث اخناتون فيما يؤكد المؤرخ « برستيد » على ان مزامير داوود هي امتداد للتراث الاخناتوني ، ورأوا ان يحلوا محل الوجود المصري بنائيا في سيناء وفلسطين بعد عهد اخناتون، أي يحلوا محل الوجود المصري وظيفيا في الديانة والتجارة، وهكذا كان جوهر تحرك الموسويين الاسرائيليين في اتجاه فلسطين، واستقروا وسط الكنعانيين لكي يعيدوا دورهم التاريخية في مصر ولكن بشكل مستقل وخاص بهم. واستغلوا ضعف السيطرة المصرية على الشام انذاك، وكونوا مملكتي داوود وسليمان(١٥). ومن هنا يظهر ان اليهود اعتمدوا على سليمان مثلما اعتمدوا على فرعون لحمايتهم، فالثابت أن سليمان لم يكن عبرياوانما تم عبرنته عن طريق اليهود ، بعد ان كان مندوبا للفرعون المصري بفلسطين(١٦).وكان يدين للآلهة هاتور ولم يكن دور مملكتي داوود وسليمان سوى القيام بالأعمال الطفيلية كالقرصنة الصحراوية وقطع الطرق، وبهذا لم يكن «الكومنولث الأول » هذا سوى تجميع اقتصادي لقوى قطاع الطرق الذين ينهبون الأراضي ويفـرضون الأتاوات(١٧) ، ومجرد كيان طفيلي ما لبث ان استنفر الدولة البابلية فقامت بالهجوم عليه . لانه ككيان

---

(١٤) احمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ ــ بغداد ، ص ٢٩٠ .

(١٥) م.س.م ، ص ص ٢٩٦ ــ ٣٠٨ .

(١٦) ان فلسطين نسبة الى قبيلة فلستيا احدى القبائل الكنعانية وليست العبرية حيث ان العبرانيين لم يكونوا الا بدوا تطفلوا على الكنعانيين كما تطفلوا على المصريين . راجع في ذلك صابر عبد الرحمن طعيمة ، اليهود في موكب التاريخ ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢ .

(١٧) بديعة امين ، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ــ دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٦ ــ ٢٨ .

كان يقطع خطوط اتصالها بالكيانات الحضارية الكنعانية والفينيقية والمصرية القديمة.وهاجمهم بختنصر البابلي وسباهم في حوالي ٥٨٦ ق.م. وبهذا لم يستمر الكومنولث الأول الا في الفترة ١٠٥٠ ق.م. ــ ٥٨٦ ق. م. .

ب ــ المشروع الاقتصادي اليهودي في الدولة الهيلينية وفي مرحلة اعادة الهيلينية :

ومن المفيد في هذا المضمار التوقف عند شرح طبيعة هذا الدور اليهودي الطفيلي . فلما كان التوحيد اليهودي توحيدا تشاوبيا خاصا بقوم موسى فلقد ظلت لدول الشرق الأوسط كل منها نظامها الميثولوجي الخاص ، ولم تلق اليهودية انتشارا واضحا ، لان كل مجموعة ميثولوجية كانت ترى من الهتها التعبير الوحدوي عن مجالها الاقليمي . لقد كان تصرف بني اسرائيل في غير صالح الاتجاه اليهودي كاتجاه متقدم عن الاخناتونية التوحيدية . بل كان في اتجاه نكوصي بدوي ربوي وطفيلي وغير تجاري ، هذا في الوقت الذي شهدت فيه المنطقة توسعات لقوى تجارية مثل الفينيقيين والمينويين في كنسوس عاصمة كريت وخاصة في عهد امبراطورية ميسين في القرنين السادس والخامس عشر قبل الميلاد ، وجاءت القوى الانداوربية الآرية في قدومها للمنطقة والتي تبلورت بعد ذلك في التوسع الهيليني الذي طور عبادة أوزوريس وارهاصاتها الاخناتونية فيما يعرف باسم عبادة اللويزيس . وفي هذه المرحلة التي تدعمت بمعاهدة الفرس مع اليونان ، والمعروفة باسم معاهدة انطو كليس عام ٣٨٦ ق.م. ضعف الدور اليهودي للغاية ، حيث وانه قد اتخذ من المرحلة السابقة على تلك المعاهدة الخلاف اليوناني الفارسي ذريعة للتعايش بجانب الجناح الفارسي والاستفادة من هذا الجو المتوتر في تدعيم دورهم الطفيلي بعد انتشار عبادة زيوس وتطويراتها من عبادة الويزيس . فلقد خضعت الدولة الهيلينية لنظام من القيم التوحيدية الميثولوجية يختلف عن النظام اليهودي وخاصة بعد انتقال عبادة زيوس الى مركزها الاقليمي في سيوة المصرية . طوال هذه الفترة كان معظم التعامل اليهودي في اتجاه الدولة الفارسية ومتحفظا في نطاق المنطقة الشرقية من البحر المتوسط وفي اطار تامين الطرق أو النشاط الربوي والاتاوي .

لقد كانت عودة التأثير اليهودي راجعة الى مرحلة اعادة الهيلينية التي صاحبت تقسيم الامبراطورية الاسكندرية بين القواد الثلاثة فعودة النظام الاقتصادي للعشائر للظهور ، وضعف خطوط التجارة الطويلة ، واعادة الاعتماد على القوى الاقطاعية والهتها أمون الذي تحول الى الاله أمونة جامع الحبوب في شونة الغلال المصرية ، اعاد لليهود وضعهم وانتشارهم بين القوى الاقطاعية المتنازعة في المنطقة ، ولعبوا دورا وظيفيا هاما في الربط التجاري بين الكيانات الاقطاعية والتعامل الربوي. وضعفت من ثم تقاليد عبادة الوزيريس وتعاليمها الخاصة بتدعيم«الوثوس»الذي يعني بتدعيم الاتجاه الاتصالي والتوحدي ، وذلك لحساب انغلاق الاقاليم والمقاطعات . وبجانب الدور الوظيفي الاقتصادي لليهود في هذه الفترة كان أيضا هنالك دور وظيفي فكري يعبر عن القيم الميثولوجية لهم في مدرسة الاسكندرية . الواضح ان انقسام دولة الاسكندر الى ثلاث مناطق : مقدونيا في يد الانتيخونيين ، وشرق المتوسط في يد السلوقيين ، وجنوب المتوسط بيد البطالمة ، انعش الدور اليهودي بين المناطق الثلاث . فلقد ثار الحشمونيون الذين كانوا يمثلون القوى التجارية الصاعدة انذاك على حكم السلوقيين عام ١٦٥ ق.م. وتعاون الحشمانيون مع اليهود . ورحبوا بتشييدهم لمعابد يهودية في الدولة السلوقية ، هذا في الوقت الذي انتشرت الفلسفات اليهودية في مدرسة الاسكندرية البطلمية ،

وانتقلت جماعات يهودية الى الدولة الانتيخونية . لقد ساهم الهجوم الروماني عام ٦٣ ق.م. على اعادة تشتيت اليهود واعادة توزيعهم بين هذه الجماعات الدولية الثلاث ورغم انهيار الكومنولث التاني في هذه الفترة فلقد اعاد توزيع نفسه بين دول المنطقة ، وبدأت تتصل خطوط التجارة الطويلة بعد خطوط التجارة القصيرة الاقليمية ، وفي هذه الفترة تم تجميع الكتابات التلمودية التي هي تعبير عن الروح التجارية بينما كانت التوراة تمثل في مرحلة سابقة التعايش في الاطار الاقطاعي . ولقد دعم هذه الروح الجديدة كتابات احد ممثلي مدرسة الاسكندرية وهو فيلون السكندري الذي ركز على أهمية الدور « الوسيط » في التعامل بين الله والبشر وبين البشر وبعضهم ولذا دعم مقولة « اللوجوس » أو الكلمة(١٨) .

ج ـ الميثولوجيا اليهودية وتأثيرها على تدعيم الدور والمشروع الوظيفي الاقتصادي :

إن الأفلوطونية المحدثة وما استقته من اتجاهات فيلونية (توفي عام ٤٠ م.) دعمت قوى الكومبرادوريين الوسطاء اليهود الذين انتشروا داخل انحاء الأمبراطورية الرومانية . وظهر أول انقسام طبقي واضح داخل التجمع اليهودي : فان الميثولوجيات التي استخدمتها القوى الكومبرادورية والارستقراطية اليهودية والتي اسهمت فيها الافلاطونية المحدثة وخاصة اتجاهها الفيلوني لم تجد ولكن الاتجاهات الصوفية الفيلونية هذه استخدمتها الجماهير اليهودية بشكل آخر ضد الطبقة اليهودية الثرية ، تلك الطبقة التي تدعم نفوذها في اطار تشريعات الامبراطورين كركلا وديوكلسيان(١٩) ، هذا في الوقت الذي كانت قد ظهرت فيه المسيحية قبلا والتي استقطبت القوى اليهودية الفقيرة والوثنية ايضا . معتمدة على « اللوجوس »أو كلمة الله . ومظهره العداء ضد القوى التي استمرت على يهوديتها لانها تخدم وضعها الاقتصادي الذي تدعم بتشريعات كركلا التي اتاحت لليهود اعفاءات ضريبية ، في الوقت الذي زاد الاضطهاد فيه للقوى المسيحية التي كانت تقود ثورة اجتماعية ضد الاستقراطية اليهودية الهيكلية (نسبة الى هيكل داوود الذي كان قد أعيد بناؤه في ٥٢٠ ق. م.) . وفي الوقت الذي ازداد فيه النفوذ الربوي اليهودي وتخلوا نسبيا عن التجارة القصيرة كان المسيحيون يمثلون تلك القوى الجديدة التي تشكل استمرارا للتقاليد التجارية لايزيس . بل يذهب بعض المؤرخين الى التأكيد على أن صورة السيدة مريم تشابه صورة ايزيس . ولما كان اليهود لا يستطيعون امتلاك الاراضي نتيجة لأنه كان محرما عليهم استئجار ارقاء مسيحيين لزراعة الأرض ، وحرمت الشريعة اليهودية استئجار ارقاء يهود ، فلقد انصرفوا الى اتجاههم التقليدي التجاري ـ الربوي ووسعوا من انتشارهم داخل الامبراطورية الرومانية وخاصة في قطاعاتها غير المسيحية

د ـ نهاية الدور اليهودي في الحضارات الزراعية بالمشروع الوظيفي في الدولة الرومانية

وفي نهاية تقييمنا لهذه المرحلة نود الاشارة الى انه لم يكن هنالك ثمة ارتباط بين الدور اليهودي الاقتصادي والارض ، فعندما جاء الأسباط الاثنا عشر الى مصر كانوا مجرد بدو رحل واقتصر نشاطهم الاقتصادي على الرعي ،وبعدخروجهم وتكوين مملكة داوود الذي كان في سبط يهوذا قد تولى

---

(١٨) د. عبد الوهاب المسيري واخرون ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، الاهرام ، القاهرة ، ١٩٧٥ ص ، ٢٨٦ .

(١٩) لقد منح تشريع الامبراطور انطوانيين كاركلا (٢١٢.م) الجنسية الرومانية للعديد من اليهود واتاح لهم تشريع ديوكلسيان وضعا متميزا .

الحكم عام ٩٧٠ ق. م. ولم يكن إلا راعيا ثم قاطع طريق ومرتكبا للخطيئة ، ولا تتعدى الميثولوجيا اليهودية في هذا الاطار الا تقديم صورة لداوود على اساس انه قاتل العملاق جوليات الفلسطيني ، الذي هو شاعر ومحب ومحارب وله كل صفات الفروسية الاقطاعية ، بل ان الميثولوجيا اليهودية تذهب الى ان المسيح المنتظر لتخليص اليهود في نهاية التاريخ لن يكون الا على نمط داوود ليست لديه أية هموم أخلاقية ! ![٢٠] . وبهذا كان الدور اليهودي الثابت والمستقر في التاريخ القديم هو النشاطات الرعوية في مرحلة الاسباط والنشاطات التجارية في المرحلة الاخناتونية والربوية في مرحلة آمون ، ثم تداخلت هذه الخطوط الثلاثة لتشكل معالم وظيفة موحدة اقتصاديا كانت حصيلتها النهائية ان اليهود لم يخدموا انفسهم بقدر ما عملوا وسطاء وفق تقاليد « يوسف » لحساب الحكام ابتداء من الفراعنة وانتهاء بالرومان ، ولقد تعايش اليهود بهذا الدور الطفيلي مستغلين التناقضات والانقسامات بين الممالك والبناء الهرمي الاقطاعي الداخلي لها في تدعيم دورهم . ان هذه التضاريس الدولية والاجتماعية هي التي سمحت لهم بالاستقرار الى حد ما على جوانب البناء القديم في المنطقة ، ولكن لا يمكن لهم الادعاء بأنهم كونوا كيانا اقليميا فقط مجرد وضع اقتصادي ، حتى الكومنولث الأول والثاني لم يكونا سوى تعبير عن حالة اقتصادية ، وبالتالي لا يمكن لهم التذرع بهذا التاريخ للمطالبة بكيان قومي معاصر بدعوى انهم تعرضوا لمؤثر التحطيم القومي . فلقد كان كل دورهم الأساسي هو تدعيم العلاقات شبه الاقطاعية داخل مجتمعات اخرى التي تكرس لنظام العبودية بالمزارعة وليس العبودية بالتبعية كما حدث في النظم الاقطاعية الغربية بعد ذلك[٢١] . ان هذا الشكل من العبودية القريب من انظمة رأسمالية الدولة أو السيطرة الفرعونية والامبراطورية هي التي كرست للنظام شبه الاقطاعي الذي ساد المنطقة ، ولقد ساهم اليهود بتجارتهم الطويلة في الربط بين اجزاء الامبراطورية افقيا وبنشاطهم التجاري الاقليمي المحلي والربوي في تدعيم السيطرة السلطوية على الأراضي الزراعية[٢٢] . ولقد روجوا للميثولوجيات التي تحض على الزهد لدى الجماهير والخضوع للعبودية والهروب الصوفي لخدمة هذا الغرض الاقتصادي ولاضعاف قوى الصراع الطبقي ، طالما كانوا هم يتمتعون بالجنسية الرومانية ، حتى قبل صدور تشريعات كاركلا ، الذي ما لبث ان توسع في منح الامتيازات لهم كما سبق الاشارة . وكان هذا الوضع التمايزي يعطي لليهود موقفا متميزا نسبيا وقدرة أكبر على التراكم السريع للثروة في ظل اعفاء جزئي أو كامل من جزية الرؤوس التي كان يعاني منها بقية سكان البلاد الأصليين ، ولقد ساعدهم هذا الاعفاء الضريبي على التوسع في نشاطاتهم لتدعيم انتقال الاراضي للقوى الحاكمة وسلبها من الفلاحين ، وكانت التجارة وانتقال الاراضي والعقارات من مجالات نشاطهم الهامة . وبمساهمتهم في اعادة الاراضي للسلطة . وفي النشاط الجبوي حصلوا على اعفاءات أكثر في اطار الضريبة على التصرفات العقارية ، وكل هذا ساعد من سرعة ميكانيكيات تدوير الأموال لديهم مثلما حدث ايضا في العصر البطلمي وفي الامبراطورية الهيلينية[٢٣] وفي الدولة الفرعونية الوسطى والحديثة من قبل ، بينما ظلت حالة القطاعات العريضة من الجماهير تعاني من تسلط حكامها ومن هذه الفئات الطفيلية الوظيفية على هذا الكيان البنائي

---

(٢٠) SCHOLEM, G., **Major trends in Jewish Mysticism**, New York.1961 -pp. 41-46.

(٢١) عمر ممدوح مصطفى ، اصل تاريخ القانون ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١١٦ .

(٢٢) GOITEIN, S.D., **Jews and Arabs**. New York. 1974, p. 28.

(٢٣) TAUBENSCHLAG - **The Law of Greco - Roman Egypt** New York.1944 . p. 608.

الراكد الذي لم يصبه كثير تغيير رغم تغير اسماء الأنظمة الاوليجاركية العسكرية العبودية تلك ، وتغير الأسماء فقط في الغالب .

ثانيا : المشروع الاقتصادي اليهودي من مرحلة النهضة الاسلامية :

كان هذا حول المرحلة الأولى في التاريخ قبل الاسلامي .. اما مرحلة التاريخ الاسلامي فتؤكد على تدعم الدور اليهودي نتيجة للتسامح الاسلامي ، وقبل ان نبدأ في التعرض لهذا الجزء من الدراسة يصبح من المهم ان نوضح ابعاد الدور العربي ، ولعل اهم الواجبات في توضيح هذه الأبعاد هو اثارة الشك حول الطابع السامي للوجود اليهودي في التاريخ . فاذا كان من الثابت الاتصال بين ابراهيم والارامين وبين هؤلاء والعرب البائدة ومن ثم العاربة ، فانه من الواضح انه كان هنالك ثمة عداء واضح بين السلالات الارامية والبدو العبرانيين والقوى الرعوية بشكل عام والتي يرجع ان اصلها يعود الى الهجرات الآرية ،وليست للقوى السامية التي أخذت اشكال القوى الارامية العربية ، والعربية البائدة من قوم عاد وثمود والعربية العاربة والمستعربة . ان محاولة اسناد اليهود الى الأصول السامية لم تبدأ إلا في اجتهادات حديثة وبالتحديد عام ١٧٨١ من قبل المدرسة الالمانية للتعبير عن مجموعة لغوية واحدة هي المجموعة العربية ـ العبرية[٢٤] وليست حتى مجموعة عنصرية ، وحتى هذا الاتجاه في الربط تعرض لجوانب شك عديدة ، فالبعض يرجعهم الى اليهود كما سبق الاشارة الى القوى الانداوروبية الآرية والبعض الآخر يرى ان أصلهم يعود الى القوى الحامية لان تشكيلهم الأساسي تم في مناطق من مصر الفرعونية كانت حامية ، اما محاولة البحث في أصلهم السامي عن طريق النسب الى اسحق ابن ابراهيم فموضوع محل شك حيث ان المسافة الزمنية بينهم وبين اسحاق تزيد على حوالي ٧٠٠ عام ، فضلا عن ان سارة أم اسحق من البدو الذين يصح ان يرجع نسبهم الى الآريين وليس الساميين ، أما اليهود فعلاقتهم بالجزيرة العربية ترجع الى فترة أخذت فيها الدولة الرومانية بالديانة المسيحية ، وبدأت القوى اليهودية الفقيرة التي عانت من الارستقراطية اليهودية في البحث عن مشروعها الوظيفي الخاص في شمال المدينة الحجازية وانتشرت عدة قبائل يهودية . كانت تقوم ببعض النشاط التجاري المحلي والنشاطات المصرفية والصناعة ولا يخفى الدور الذي قامت به هذه القبائل في مواجهة الدعوة الاسلامية .

أ ـ الدور الاقتصادي اليهودي في الجزيرة العربية قبيل الرسالة المحمدية :

ان كـانت قريش هي أهم القوى في الجزيرة آنذاك فانه من الثابت ان نسل عبد مناف قد انقسم الى قسمين : الأول بنو هاشم والثاني بنو عبد شمس الذين كونوا الفرع الأموي[٢٥] . ومن الواضح ان عبد شمس كان من عبدة آلهة الشمس التي تقترب من الأصل العقائدي اليهودي وخاصة الاخناتوني ، ومن الثابت أيضا ان بني أمية كانوا على اتصال وثيق بالقوى اليهودية ، وخاصة في الهجرات القديمة منها ، وكانت التجارة الطويلة بين الشمال والجنوب في الجزيرة يساهم اليهود فيها بشكل واضح بالتعامل مع الفرع الأموي ، ولكن بقيام الدولة الاسلامية قام الخليفة عمر بن الخطاب

---

(٢٤) GOITEIN. S.D., op. cit. p 20

(٢٥) د. احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ ، الجزء الأول ـ ص ١٠ .

باجلاء البقية من اليهود ومسيحيي نجـران من الجزيرة كلها . فما الذي اعاد الدور اليهودي الى وضعه بعد ان شهد فترة كاد ان يقضى عليه فيها وهي الفترة من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وبين اجلائه لهم ؟ ! .

ب ــ ضعف الدور اليهودي الاقتصادي في مرحلة الخلافة الأولى :

الواضح أن الأساس المادي لهبوط الرسالة الالهية الاسلامية يرجع الى ان قوى التوحيد فقدت قدرتها في الجزيرة ، فالدور الاقتصادي للارستقراطية القرشية وبخاصة الأموية أصبح يعاني العديد من المتاعب من قبل البدو وأيضا من قبل القوى الرعوية الهاشمية ، ومن ثم فان الهيكل التوحيدي الممثل في الكعبة لم يعد له النفوذ القوي القديم ومال هرم الآلهة الصنمية الى التعدد اللامركزي ، وقبلت القوى القرشية هذا الواقع . ولكنه دون ما شك أضعف خطوط التجارة التقليدية التي كانت تتطلب التوحيد . ولقد ساهم في هذا الاضعاف أيضا وجود قوى لا تعترف بالآلهة وبالهيكل القرشي على حدود الجزيرة مثل القوى المسيحية في اليمن والغساسنة والمناذرة في الشمال ، والذين كانوا يعملون لحساب الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . هذا فضلا عن ضعف النشاط الربوي الذي كانت تقوم به الفئات اليهودية على حساب القوى الرعوية البدوية . وبالتالي ضعف وجود السيولة النقدية التي كانت تقوم الفئات اليهودية باقراضها الى الارستقراطية القرشية وبخاصة الأموية . وفي هذا فلقد ظهرت الرسالة المحمدية في اطار حتمية تاريخية مادية هيأتها قوانين التطور لتواجه حالة التضييق التي اصابت الجزيرة العربية ، والتي تطورت الى ان اخذت شكل غزو عسكري، كما حدث في عام الفيل، وهو عام مولد الرسول محمد ، الذي نزل برسالة القوة والتوحيد لهذه الشرائح التي كادت ان تفتك ببعضها قبل ان يفتك بها محاصروها ، وخاصة التحالف البيزنطي ــ الحبشي للسيطرة على خط التجارة القرشي . لقد كانت الرسالة المحمدية انقاذا لهذا الواقع . ولم تدرك القوى الرعوية بحكم محافظتها وتقليديتها بل ورجعيتها اهمية هذه الدعوة في اعادة التوحيد العقيدي وبالتالي تدعيم الدور الوظيفي الاقتصادي التجاري لها إلا بعد فترة. وذلك قانون طبيعي من قوانين الثورات والتطور .

ولم يغفر الخليفة عمر الدور الذي لعبه اليهود في تدعيم حركات الردة وميتولوجياتها في عهد ابى بكر ، مثل ادعاء سجاح النبوة وكذلك مسيلمة الكذاب الذي سانده بنو حنيفة في اليمامة ، وكذلك طليحة في شمال المدينة ، والأسود بن كعب في اليمن وغيرهم ، لقد كان في هذه الحروب بالنسبة لليهود دور مالي في دعمها ، وبالتالي تدعيم وظيفتهم ، وكانوا مدعومين في ذلك ايضا من القوى الفارسية ، التي كانت تكن العداء الشديد للدعوة الجديدة ، وتمول بعض هذه الحركات عن طريق اليهود ، الذين كانوا على علاقة تقليدية بالفرس تعود الى ايام قورش ، وكثيرا ما تحالفوا مع المناذرة ضد الغساسنة والبيزنطيين المسيحيين . ان الذي حفز القوى البدوية هذه على حركات الردة هو أن الخليفة ابا بكر لم يدعم استقرار الدولة بعد الرسول . فقد كان يميز في الاعطيات ولو على اساس موضوعي حدده بالسبق في الاسلام والجهاد والعلم ، ولقد كانت الروح البدوية متعطشة للمساواة التامة التي لم تجدها ، ولم تفهم فلسفتها في عدم التواجد . وقد استغلت القوى اليهودية ذلك ، ولذا

---

(٢٦) BOWMAN, The Mohammedan World, New York. 1924. pp. 31-55.

(٢٧) س. هل ، الحضارة العربية ، ترجمة د. ابراهيم احمد العدوي ، كتاب الهلال ، العدد ٣٤٢ ، يونيو ١٩٧٩ ــ القاهرة ، ص ص ٣٢ ــ ٥٢ .

قام عمر بعد طرد القوى اليهودية من الجزيرة ، ان لم تقل اثناء وقبل الطرد ، بالمساواة التامة ونصرة القوى الكادحة المهاجرة على الارستقراطية القرشية .

ج ـ العلاقات الاقتصادية ابان الارستقراطية الأموية وبداية عودة الدور اليهودي :

ولكن بمقدم عثمان عادت القوى الارستقراطية الأموية الى سابق عهدها . وشهدت الثورة المحمدية والتي بلغت اقصى اهدافها الاجتماعية في عهد عمر[٢٨] النكسة أو الثورة المضادة . حيث ميز في الاعطيات على اساس غير موضوعي بل وشخصي ولمصالح قومه بني امية ، وادخل النظام شبه الاقطاعي الذي كان في الأمصار ، والذي منعه عمر ، تحت حوزة الامويين . فعاد نظام الانتاج التقليدي الذي يسمح لليهود بممارسة دورهم السابق شرحه في الدول السابقة ، وتم نزع الأرض من أهلها بعد ان كانوا قد بدأوا يتملكونها ، وكانوا عبيدا لها ولذا كانت الفتنة الكبرى[٢٩]. فجاء الكوفيون يطلبون الزبير ، وجاء البصريون يطلبون طلحة ، وجاء المصريون يطلبون عليا[٣٠] . وبعد مقتل عثمان كان اختيار علي عودة للتقاليد الثورية بل هو أول شورى حقيقية في اختيار الخلفاء ، شورى جماهيرية ، وليس مجرد اجتماع لاهل الحل والعقد . ولكن الذين ايدوا معاوية كانوا اهل الشام الذين لم يغير الاسلام من التركيبة الاجتماعية لهم ومن اقطاعيتهم وكانت تساندهم القوى اليمنية البنائية المهاجرة من الجنوب والتي خضعت كاهل الشام قبلا للتقاليد المسيحية الاقطاعية ، والتجارية والطويلة وان لم يقوموا بها والذين كانوا من المحتكين بالقوى الأموية طوال رحلات الشتاء والصيف فالفوهم ، هذا في الوقت الذي كانت فيه القوى القيسية التي تمثل الحجاز والمدينة والتقاليد الرعوية والبدوية الطامحة للمساواة والتي هاجرت الى مصر والعراق ، واستقر بعضها في المدينة ومكة ، تنادي بعلي ومعهم بعض العرب اليمنية من اليمن ، ولكن بقيام الخلاف بين الشيعة والخوارج بدا واضحا ان العرب اليمنية معظمهم في اتجاه الشيعة ، والخوارج معظمهم قيسية ، ولقد بدأ التغلغل اليهودي يحاول ان يؤثر على تقاليد الشيعة فمالت بعض الشيعة الى الامامة .

ما يهمنا هنا ان نتوقف عند هذا التمييز بين العرب اليمنية والعرب القيسية لانه سيكون له تأثير قوي على البنية الاقتصادية ومن ثم العقيدية للدولة الاسلامية بعد ذلك . فالعرب لهم تقسيم تقليدي هو العرب الحجرية وهم في شمال الجزيرة ولهم في العرب البائدة والآراميين ، وهنالك العرب السهلية اليمنية في الجنوب ، وهنالك ايضا العرب في الجزيرة وبالتحديد في وسطها وهم العرب الصحراوية أو القيسية ، ولقد كان بعض العرب اليمنية قد هاجروا الى الاقطاعات السهلية الزراعية في الشمال قبل الاسلام ، وظل العرب القيسية هم المشكلون لخطوط التجارة[٣١] . والعرب القيسية من نسل اسماعيل بن ابراهيم ، وهم عدنانيون ومستعربون لأنهم مهاجرون من الشمال الى وسط الجزيرة . اما العرب اليمنية فهم عاربة من نسل يعرب من قحطان . اما العرب البائدة فانهم حجريون من سام ابن أرم أي آراميين[٣٢] ومنهم اسماعيل ايضا كامتداد . اذن ارتباط اليمنية بالقوى الاقطاعية

---

(٢٨) عباس محمود العقاد ، ذو النورين ، كتاب الهلال ، العدد ٣٧ ابريل ١٩٥٤ ص ١٢٠ .

(٢٩) راجع في ذلك د. طه حسين ، مرآة الاسلام ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ ، ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٣٠) عباس محمود العقاد ، عبقرية الامام ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ ، ص ٧٧ .

(٣١) د. عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٩ .

(٣٢) ETTINSHAUSEN., R.; From Byzantiums to Sasanian Iran and The Islamic World, New York, 1972. pp. 91-112.

وارتباط القيسية بالقوى التجارية والرعوية سيؤثر على التاريخ الاسلامي العربي ، فحتى القوى الثورية الشيعية المواجهة لمعاوية والمؤيدة لعلي عندما تأثرت بالقوى اليمنية أخذت طابعا اصلاحيا في البحرين والجزيرة أقرب ما يكون لتعبير الاشتراكية الديمقراطية المعاصر . وأخذت في مصر وشمال افريقيا طابعا اصلاحيا ، رغم اصطدامها بالسلطة الأموية بالشام . اما الخوارج التي كانت في معظمها قيسية فقد أخذت طابعا ثوريا حادا ، ولقد كان اعتماد الامويين على القوى اليمنية في الشام في بداية عهدهم راجعا الى رغبتهم في اقامة كيان بنائي للدولة وهي مسألة يجيدها اليمنية بطابعهم البنائي وخاصة اذا كان التوسع سيتم في مناطق زراعية كاليمن ، وليست بدوية كمحل القيسية . وقبول اليمنية بالتسلط الاستبدادي الذي حبذه معاوية ، وقال فيه « لم يشتت المسلمين ولا فرق اهواءهم الا الشورى التي جعلها عمر على ستة نفر »[٣٣] . ولكن عندما استقرت حدود الدولة بنائيا وأصبحت الدولة الأموية بحاجة الى قوى وظيفية تباشر التجارة بين هذه الحدود كان بداية اعتمادها على القوى القيسية . لذا لم تكن عدالة عمر بن عبد العزيز طفرة في التاريخ الأموي ولكنها كانت انسيابا طبيعيا حينما اضطرت الدولة الأموية في الاعتماد على القوى البدوية والرعوية والموالي في حماية القوافل التجارية من الاعتداءات التركية في خطوط تجارة المشرق والبربرية في خطوط المغرب ، كذلك أدى اتجاه الأرض الى التفتت الى المزيد من الاعتماد على الموالي في الزراعة ، فبينما كان اتجاه البقاء على « اللاتيفونديا » في بداية الدولة الأموية يقتضي الاعتماد على القوى اليمنية التي تقبل بعلاقاتها التسلطية فان التطور في دور الدولة وفي شكل علاقات الانتاج والملكية أدى بها الى الاعتماد على قوى أخرى ، وهذا ما فجر الصراع بين القوى اليمنية والقوى القيسية داخل الدولة الأموية .

د ـ الدولة العباسية وبورجوازية خطوط التجارة الطويلة وازدهار الدور اليهودي :

لقد جاءت الدولة العباسية للدفع في التطور الذي سارت فيه الدولة الأموية ، ولتقف في مواجهة تفتت الدولة ، وذلك بحكم اعتمادها على القوى القبلية التي اعتادت الاعتماد عليها. فاندفعت تدعم القيسية ، بما تمثله من تدعيم لسلطة البورجوازية الاسلامية التجارية وتطور دور القوى الحرفية بتطور الحضارة المدينية[٣٤] ولكن اعتماد العباسيين على القوى القيسية كان راجعا الى استغلاله لقوتهم الثورية ضد الدولة الأموية التي لم تكن بعد قد استطاعت استقطابهم بل كانت تقيم حياتها في أيامها الأخيرة على توازن دقيق بين القيسية واليمنية . فجاء العباسيون ليحسموا الصراع لصالح الأولى ضد الثانية ، خاصة والعرب القيسية كانوا قد تألبوا على عرب الشام لاحساسهم بأنهم هم الذين قاموا بعبء الحركة التاريخية الفتحية بينما استولى اليمنية على جهودهم بمجرد تأييدهم للأمويين في يوم « مرج راهط »[٣٥] . ولقد كان تكتيك العباسيين واضحا حين تركوا العلويين يواجهون الأمويين ، والقيسيين يواجهون اليمنية ، ولم يعلنوا عن طلبهم بالخلافة إلا بعد أن تيقنوا من انتصار القيسية لتدعم نفوذ القوى الفلاحية الجماهيرية واستقلالها بأراضيها وتزايد سيطرة القيسية على

---

(٣٣) عباس محمود العقاد ، م.س.ذ ، ذو النورين ، ص ٣٠ .

(٣٤) LEWIS, B, **Islamic History, Ideas, Men and Events in the Middle East,** La salle library press, 1973, pp. 347.

راجع في ذلك ايضا كتاب موريس لومبار ، **الاسلام في عظمته الاولى** ، مترجم ، دار الطليعة . بيروت ١٩٧٧ ، وبخاصة ص ص ١٧٨ ـ ١٨٣ . حيث يوجد تفصيل واضح لتطور الدور اليهودي في خطوط التجارة العباسية .

(٣٥) GIBB, H., **Mohammedanism,** London, 1969, pp. 22-35.

الخطوط التجارية(٣٦) . ولما قام الخلاف بين ابي العباس السفاح (توفي ٧٥٤ م) ووزيره ابي مسلمة الخلال حول اعادة تسليم السلطة للعلويين لحقهم التاريخي فيها ، قام بقتله وبدأ حملة موجهة ضد القوى القيسية . ولكن وافاه الأجل قبل أن يتمها .

وهكذا بينما كانت القوى السنية تساند الاتجاه الأموي بحكم انها قوى محافظة ، فان العباسيين استغلوا القوى العلوية والشيعية والخوارج وحركتهم لصالحهم ، ثم ما لبثوا ان اعلنوا عن سنيتهم بوصولهم للحكم ، كان الشيعة والخوارج هم وقود الثورة والسنة هي اداة الدولة . ولقد تمتعت الدولة العباسية بمرونة البورجوازية المستقرة ذات الخطوط الطويلة تجاريا ، وخاصة في العصر العباسي الأول ، وبالتحديد لقد كانت حوالي ما لا يقل عن ثمانين عاما من عمر الدولة العباسية (٧٥٠ ــ ٨٣٣ م.) ، فترة حكم الخلفاء السبع الأول ، هي المرحلة المزدهرة للبورجوازية التجارية ، وهي ايضا المرحلة التي شهدت حكم السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والامين والمأمون(٣٧) ، ولكن القوى القيسية التي كانت قد طورت اساليب انتاجها واصبحت تمثل قوى حرفية وتجارية جديدة داخل الدولة ، وتم توعية الفلاحين بفعل الفكر الشيعي والمعتزلي والعديد من الافكار الغنوصية التي تسربت على ايدي الموالي الى الدولة ، ولما كانت البلاد قد اعتادت الثورات مثل الثورات الفلاحية التي استمرت منذ العهد الأموي المتأخر ، مثل ثورة الزنج ، والثورات الحرفية مثل حركة القرامطة ، والحركة العلوية التي قادها « العيارين » ، فان الأمور تفاقمت طوال الدولة العباسية مثل هذه الحركات الثورية ، وإن كان عهد المأمون قد شهد ذروتها من اغارات لهذه القوى على المدن مثل ثورة العراق المشهورة (٨١٣ ــ ٨٣٣ م.)(٣٨) . ولقد حاول المأمون أن يدرأ خطر التمزق البنائي هذا عن طريق خلق تطور في الشروط الوظيفية وخاصة الفكرية والتجديد في العقيدة ، فاذا كانت المذاهب والمدارس الفقهية وليدة المرحلة الاقطاعية في أواخر الدولة الأموية فان هذه التركة الاموية من الخلافات لا حل لها الا بحوار عقيدي عام يمتثل للتقاليد الوحدوية البورجوازية وليس للتقاليد الانقسامية الاقطاعية .

هـ ــ تأثير تبلور دور البورجوازية التجارية والحرفية الاسلامية على تدعم الدور الاقتصادي اليهودي :

لقد حاول المأمون ان يستخدم المعتزلة لوضع اطار فكري جديد يستقطب هذا الشتات الذي خلفته روح الظلم الأموي ، وتركيبة الانهيار التجاري ، والتسلط الاقطاعي وانقساماته وتسلل الموالي والاجانب الى ادارة الدولة ، وكان يرى ان الاطار المعتزلي قادر على توسيع مفهوم الاسلام واستيعاب جماعات أكثر من القوى غير المتجانسة وبالتالي تطوير في الدور الوظيفي للعدالة الاسلامية لتستوعب بناء الدولة وخطوط التجارة المتسعة . ولقد اعتمد المعتزلة على تراث اخوان الصفا في مواجهة الفكر الغنوصي من ناحية والفكر السلفي في المدارس الفقهية الحنفية (نسبة الى ابو حنيفة النعمان بن ثابت ٦٩٩ م. ــ ٧٦٧ م. الذي قام المنصور بتعذيبه حتى الموت) . ولقد رفض ابن حنبل ان ينصاع

---

(٣٦) د. علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، الجزء الأول ، دار المعارف ، بمصر ١٩٧٧ ، ص ص ٢٢٨ ــ ٢٣١ .

(٣٧) د. احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، م.س. ص ١٢ .

(٣٨) ROSENTHAL, E., Political thought in Medival Islam, Cambridge University Press, 1958, pp. 71-74.

للمأمون والمعتصم والواثق وفضل الاتجاه السلفي رغم كل التعذيب الذي لحقه . وهكذا لم تنجح البورجوازية التجارية العباسية في ان تجد لنفسها ايديولوجية توحيدية تؤمن خطوط التجارة وتقنع الموالي وتعيد للدولة الاسلامية دورها الوظيفي الأول المتمثل في العدل والمساواة . وانتهى تحالف الحكم العباسي مع المعتزلة الذي لم يدم أكثر من ١٧ عاما من أصل عصر طويل عمره ٥٢٤ سنة عادت فيها الدولة الى الحنفية وأخذتها مذهبا عاما لها(٣٩) . هذا في الوقت الذي أخذت الحجاز والجزيرة بالمالكية ومصر وشمال افريقيا وقعت في الأيدي الفاطمية الحرفية والتجارية في المتوسط ، والتي كانت تندفع في اتجاه الشيعة العلوية بينما كانت فارس والخليج في أيدي القرامطة ، والخوارج يدعمون القوى الثائرة في شمال افريقيا .

والواقع ان القوى الحرفية الصناعية التي قامت في مرحلة نشوء المدن والتي بدأت ببغداد واستمرت بالقاهرة وغيرها ، هي التي دعمت تكنولوجيا الامصار المفتوحة ، وادواتها الصناعية ، وهذا ما اعطى ثقة ووزنا لافكارها وغنوصياتها ايضا . وقد ايقظت حرفية المدن الروح القومانية والعصبية ، ولذا لم يجد ابن خلدون وحدة للتحليل لتاريخ الفترة المدينية التي عاصرها أهم من « العصبية » (٤٠) ، ولقد كانت البورجوازية المتوسطة الادارية والصغرى الحرفية في معظمها من الموالي ، بينما الارستقراطية التجارية من البيت الاسلامي الحاكم والقوى العمالية والفلاحية من اهالي الامصار المفتوحة المدجنين لبغضهم من القوى الحاكمة يبحثون عن العدالة الاسلامية وفق مفاهيمهم الخاصة . وكانت القوى البدوية القيسية تعيش بجانبهم ايضا . ولم يكن الاحساس بالأصل المقابل اسلامي قد ضعف بالمرور في الزمن ولكن كانت للروح الجماهيرية المتميزة دورها في صبغ الاسلام بالدور السالب الذي ارسته القوى الصوفية التي شكلت وعي الجماهير المجهضة والتي لا تتسلح بوعي ثوري مثل الشيعة والخوارج . ان الدولة الاسلامية منذ بداية القرن العاشر الميلادي وأواسط القرن الحادي عشر كانت سوقا واسعا للتجارة ولكن يتميز بالعديد من الاسواق الفرعية . وكانت التقسيمات الوظيفية على أساس العصبية كما يشير ابن خلدون ، وفي ظل هذه الفوضى وعدم القدرة لدى البناء لاستيعاب التطور في الوظائف ، وعدم قدرته على استمرار حيويته الوظيفية ، وانهيار القيمة العليا فيه والمتمثلة في العدالة والتقسيم الوظيفي المتماسك ، بدأت هالة من ضعف ومرضية الوظيفة بشكل قمعي واستبدادي ، ما لبثت ان تدعمت الشعوبية وانهار الدور الوظيفي للدولة . لم يكن منتهى المراد في هذه الفترة لدى الجماهير الا البحث مباشرة عن ميتافيزيقات تلهيها عن الاحساس بالمشاكل والمعاناة بها ، وانهارت المشاركة الجماهيرية ، وبدأت القوى السالبة الهروبية في البنائية النصية السنية تتجه الى استيعاب التطورات الصوفية ، التي اخذها المسلمون عن النساطرة واليعاقبة وميراث مدرسة الاسكندرية . ولقد لعب اليهود دورا قويا في هذا الاتجاه سيرد تفصيل له ، ما يهمنا في هذه العجالة ان نؤكد على ملمح هام هو اضطرار الغزالي منظر هذه الاتجاهات الهروبية الى ان يقر السلطة للظلم والفساد بدعوى ان الضرورات تبيح المحظورات(٤١) ، وانه لم يعد هنالك بد عن البيعة للحاكم مهما كان به من أجل الحفاظ على التماسك البنائي للدولة بصرف النظر عن عوامل الانهيار الوظيفية ولكن لما كان هذا ضد المنطق فلقد انهارت الدولة الاسلامية الى اقطاعيات ودول شعوبية وطوائف ،

---

(٣٩) راجع في ذلك د. علي سامي النشار م.س.ذ. ــ الجزء الأول ــ ص ص ٢٧٣ ــ ٥٠٠ .

(٤٠) SOURDEL, D., La Civilization de l'Islam, Paris. 1968. pp. 65-81.

(٤١) HOURANI, A., Arab Thought in The liberal Age, 1798 - 1939., Oxford, 1976, p. 12-13.

ومرت الحملات الصليبية من الغزالي موضع التجاهل التام ، فما كان يحدث لم يكن يملك الفكر الاسلامي السلفي والهرويي حياله الا السلبية . لقد اصبح هم الدين من قبل القوى الاقطاعية والحرفية فقط قاصرا على تبرير اتحادات عصبية لا اكثر ، ولقد انهارت منطقة « الدينار » الاسلامي بعد انهيار قدرة الدولة الاسلامية على الحفاظ على المركنتيلية والطرق الاسلامية التجارية ، وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر صارت هنالك اسواق عدة ، وانقسم السوق الكبير الى عدة اسواق صغرى : سوق اسلامي تركي ، وآخر مصري مملوكي وثالث اسلامي مغربي ، ورابع اسلامي اسباني . وعادت التجارة العربية الى مرحلة يمكن ان يطلق عليها لفظ الماقبل مركنتيلية ، ولقد كانت ثمة محاولة في المغرب من بني برازل تم فيها الوصول لما عرف بعد ذلك باسم امريكا الجنوبية(٤٣) وبالتحديد « البرازيل » التي اخذت اسمهم ولكن لم تكن هنالك ثمة قوة عقيدية أو عسكرية دولية قادرة على حماية هذا الاتجاه ، شيء كان اشبه بارهاصات الموت انجز هذا الاتجاه بعد ذلك الاسبان وقام البرتغاليون بالسيطرة على خطوط التجارة في افريقيا ، وسيطرت العشائر البدوية من قبل وهي الغزنوية على الطرق البرية في الشرق ، وخاصة شرق ايران وبعدهم المغول ، وبالطبع مما ساعد على انتشار هذه الاطماع الخارجية ابتداء من الحملات الصليبية الى الحملات الانتقامية الاسبانية والتحالف الصليبي المغولي ضد الدولة الاسلامية ، انما يرجع الى سيطرة القوى الاوليجاركية الاقطاعية العسكرية من الموالي والمماليك والبرابرة والسلاجقة والبويهيين وغيرهم ، وانفراد كل منهم بسوقه الاقليمي ودورته الحرفية والزراعية الصغيرة المغلقة ، وبهذا كان من السهل ضربهم خاصة وقد انغلقت العقيدة الاسلامية بعد انغلاق وضعف انماط الانتاج وتقلص السوق التجاري ، وانتشرت الصوفية من السهروردية الى القادرية وكتابات الغزالي وابن عربي وقصائد ابن الفارض وافكار الشعراني والنابلسي والشاذلية المغربية ، هذا فضلا عن الصوفيين الذين انتشروا على سواحل البحر المتوسط الجنوبية بعد انهيار الدولة الاسلامية في الاندلس .

ان ظهور القوى العصبية التي عبرت عن نفسها في القوى العسكرية والاقطاعية في الشرق ، وملوك الطوائف في الغرب ، اضعفوا السيطرة على خطوط طرق الحرير والتوابل في الشرق وخطوط طرق الذهب والفضة في الغرب وخطوط الاسواق الحرفية في الداخل ، وكما كان الغزالي يعبر عن ايديولوجية التجارة الصغيرة والحرفيين وقواهم الانغلاقية ، فان ابن رشد كان آخر من ساهم في التعبير عن طموح قوى التجارة الطويلة في الغرب ، كما كان ابن سيناء في الشرق ، ولذا هاجم الاتجاهات الانعزالية والصوفية وخاصة اتجاهات الغزالي ، ان ابن تيمية يأتي بعد كل هؤلاء ليحاول نزع البعد الصوفي عن القوى الحرفية فهاجم ابن سبعين وابن الفارض وابن عربي والضيف التلمساني ، وقد حاول ان يعيد مفهوم الامة على أساس اللغة العربية(٤٤) . وجاء بعده ابن خلدون ليبلور مفهوم العصبية العربية لدى القوى البيروقراطية بالتحديد غير ان ايا منهما لم يستطع التطلع الى تصور ابن رشد عن الوظيفة الدولية والعالمية العقلية والأخذ بالكليات (٤٥) . فلم تكن الحالة العقلية او الطموح الوظيفي للقوى المختلفة في

---

(٤٢) الغزالي ، **الاقتصاد في الاعتقاد** ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٧ : الغزالي ، **احياء علوم الدين** ، الجزء الثاني ، ص ١٢٤ . راجع ايضا د. زكريا ابراهيم ، م.س.ذ ، ص ١٣ .

(٤٣) د. ابراهيم فخار ، بنويرازل لمسيلة في البرازيل واسطورة كريستوفر كولبس ، **الثقافة الجزائرية** ، مايو ١٩٧٤ ص ٣١ .

(٤٤) HOURANI. op. cit. p. 21.

(٤٥) محمد عاطف العراقي ، **النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد** ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ــ راجع ص ٢٤٩ وما بعدها في هذا الشأن .

الدولة الاسلامية بقادرة على تحقيق طموح ابن رشد فاكتفت بالقائه بتهمة الهرطقة ، وبالتالي لم تكن هنالك ارضية خصبة للتعبير عن الاتجاه الدولي التجاري ، فلقد ضعف هذا الطموح ولم يرتق طموح ابن تيمية[٤٦] ولا كتابات ابن خلدون الا الى مجرد عقلنة النظام واتجاهاته الوحدوية وليس التوسعية ، وهكذا لم يستطع الفكر القومي لابن تيمية وابن خلدون فضلا عن الفلسفة العامة لابن رشد في حفز القوى البورجوازية البيروقراطية والحرفية والتجارية للخروج من دائرة التخلف الاقطاعي الذي دعمتها القوى والدعاوى الصوفية ، وهكذا تعطلت قوى الأمة عن عصر النهضة العربية لقرون عدة تلتها منذ تلك الحين .

و ـ الميثولوجيا اليهودية وتأثيرها على تدعيم التوسع الاقتصادي في الدور اليهودي :

والآن يبدو السؤال منصبا حول أهمية الدور اليهودي الفكري والمشروع الاقتصادي الوظيفي ايضا في اضعاف القدرة الاسلامية والنهضة العربية . وما هي ابعاد الدور الطفيلي الذي مارسته القوى اليهودية على الهيرارشية البنائية الهرمية الاسلامية بحيث تحقق الهدف سواء عن عمد او غير عمد من تعطيل النهضة العربية في التاريخ الاسلامي الوسيط وبالتالي عطلت الاتجاه الوحدوي حتى البنائي ان لم نقل الوظيفي . فمن الواضح ان الطابع التشاوبي الانغلاقي للديانة اليهودية تداعت لديها جوانية الاديان الغنوصية الآرية ، وتلك عكس الديانات التوسعية السامية ، ولذا عندما هاجرت الجماعات اليهودية الى الجزيرة العربية وكونت تشكيلاتها في بني قريظة وبني قينقاع وبني عوف وبني مرثد والنضير وعصص ولقد تدعمت هذه القوى بمدد بشري بعد احراق الهيكل في عهد الامبراطور هدريان في الفترة ٦٤ ــ ٧٠ م. ولقد ساهم اليهود بالتعاون مع الارستقراطية التجارية الاموية في استغلال القوى البدوية الرعوية ونشر الافكار الصوفية التي تدعو الى الزهد ليتم ابتزاز الأموال لحساب التجارة الطويلة ولاضعاف التجارة الداخلية القصيرة ، ولعل أهم ما حملته القوى الوافدة بعد انهيار الكومنولث الثاني عام ٧٠ م. هو الأمل في القوى « الماشيحانية » التي ينتظر ان تعود لتنقذ القوى اليهودية وخاصة البورجوازية الصغرى التي استغلتها البورجوازية التجارية اليهودية الكبرى ... لقد نفذ هذا الاتجاه التفكيري عن طريق عبدالله بن سبأ (اليهودي اليمني) الى القوى الشيعية بدعوى أن علي بن أبي طالب لم يمت وانه سوف يأتي مرة أخرى لينقذ اشياعه من جور الارستقراطية الاسلامية[٤٧] ، ولقد كان الشيعة اليمنيين أكثر المتحمسين لهذا المعنى الذي تبلور في فكرة الامامة ولقد هاجمه الخوارج وخاصة القوى القيسية لانه يدعم الاتجاهات السلبية ويفرغ النضال الاسلامي للقوى الكادحة من مضمونه ، ويغرقها في غيبيات لا تمت للدين وخاصة فكرة الأئمة المعصومين .

ولا شك ان القوى السبئية اليمنية اليهودية هم أول من تسلل بعد احراق علي رضي الله عنه المجندلين منهم لأنهم صوروه اماما معصوما وأمر الله على الأرض . ولقد انتشرت مثل هذه الأفكار لدى الموالي والقوى المسحوقة الفلاحية والحرفية مثل العبيدية بمصر والنصيرية والدروز والتيامنة بالشام والبابية والبهائية بفلسطين والبهرة والاسماعيلية بالهند واليمامية باليمن والكداشية

---

(٤٦) راجع الموسوعة العربية الميسرة ، ١٩٥٩ ص ١٢ ، وراجع في هذا الشأن وبتوسع مقارن ، مؤلف الدكتور عبد القادر محمود ، الفكر الاسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث ، جامعة الخرطوم ١٩٧٢ ص ص ٣٤٥ ـ ٣٨٢ .

(٤٧) GOITEIN - op. cit., p. 168

والقزلباشية في بلاد الأتراك. ولقد انتشرت تعاليم «القبالة» اليهودية في كتابات هذه التجمعات والقوى الفلسطينية الصوفية مثل الكيالية وارتبطت بنظرية الفيوضات الافلوطينية ، وظهرت ثلاث مدارس فكرية من هذا الاتجاه مدرسة البسطامي ونادت بالاتحاد بالله ، ومدرسة الحلاج بحلول الله في الانسان ، ومدرسة ابن عربي ونادت بوحدة الوجود ، وأخذ بها ذو النون المصري. والسهروردي الذي قتله صلاح الدين الأيوبي ، وخرجت منه البابية والبهائية ، ومشى في فلك ابن عربي الكبير ابن الفارض ، وجلال الدين الرومي ، وابن سبعين الاندلسي ، والسنشتري[٤٨] وتدعمت هذه القوى الهروبية بمقدم الغزو الصليبي وضعف القوى الحرفية وعدمت قدرتها بعد المعاناة التي عانتها وبعد التخريب الفكري الصوفي لقدرتها الثورية وبعد تشرد فصائلها الثورية الممثلة في الخوارج وتبرجزها (أي تحولها الى بورجوازية) القوى الشيعية ، ودخول الفكر اليهودي الصوفي الى ادارتها المدنية بعد ان تحولت من قوى الثورة الى قوى الدولة ! ، ولكن القوى اليهودية ايضا تغلغلت في قوى الدولة كما توصلت الى احباط قوى الثورة وذلك بفعل القوى البيروقراطية والتكنوقراطية اليهودية التي انتشرت وبخاصة في الدول الفاطمية . ولقد نشرت هذه القوى اليهودية افكارها التلمودية مثل الافكار التي تبلورت بعد ذلك في الحسيدية الصوفية[٤٩] بعد ان نشرت الماسيمانية التوراتية MESSIAMISM الصوفية في القوى الحرفية والموالي والمزارعين ودعمت بالتالي على القرن الثاني عشر اتجاهات القبالة[٥٠] الصوفية السلبية فصرفت هذه القوى المكدحة ليس الى الثورة ولكن الى القبول بالأمر الواقع ثم السلبية لكل ما يجري في الدولة .

ولقد ساهمت الافكار الصوفية في أجهزة الدولة عن طريق القوى اليهودية المعتمدة على حركة « الاكاديميين » سواء أكاديمية سوراء في الدولة العباسية البرنانية أو اكاديمية القدس القرآنية في الدولة الفاطمية ولقد تلاعبوا بالقوى البيروقراطية لتدعيم الاتجاهات الانعزالية والشعوبية ونشر الظلم والفساد واضعاف التجارة هذا في الوقت الذي ملكوا فيه زمام التعامل بين الجماعات ومن فوق أجهزة الدول. ولقد شهد نشاطهم التجاري والدولي لحسابهم الخاص أي لحساب مشروعهم الوظيفي الخاص أوج نشاطه في الفترة من ١٠٨٥ م. الى ١٤٩٢ م. في الدولة الاسلامية. لقد بلغ اليهود أقصى قدر من الاداء الوظيفي لطوائفهم من خلال الدور الصاعد للرأسمال التجاري لهم في مدن المتوسط مثل تونس وصقلية وفلورنسا وجنوة وماجوركا والقاهرة . ولقد دعمت الصراعات المحلية بين البيزنطيين والسلاجقة من جانب والزيديين. والفاطميين من جانب آخر والصليبيين والمسلمين بشكل عام على تدعيم الدور الوسيط لليهود[٥١] ذلك الدور الطفيلي الذي يرجع الى تقاليد ملكهم هيرودوس الكبير بعد فشل

---

(٤٨) د. عبد القادر محمود م.س.ذ ، ص ٨ و ٢٠ و ٨٤ ــ ٩٠ .

ROSENTHAL, E., **Judaism and Islam**, London, New-York ,1961.

كذلك الجزء الثاني من كتاب الدكتور النشار ، م.س.ذ ، ص ٢٤٦ وما بعدها .

(٤٩) تحاول القوى اليهودية العالمية اليوم ان تعيد تأثير الحسيدية فيما يعرف باسم « الحسيدية الجديدة » وتنادى أيضا لصوفية عربية جديدة او قل تجديد هذه الروح السلبية من الجماهير الاسلامية .

(٥٠) FISCHEL,W.- The Jews in The Politicel and Economic Life of Medieval Island. N.Y 1965 pp. 111- 132.

(٥١) GOITEN. **A Mediterranean Society.** The Jewish Communities of Arab World. University of California Press,1972. pp. 53-61.

سياسة التمرد ضد الامبراطورية الرومانية فيما يعرف باسم ثورة المكابيين والتوداس واليوداس في القرن الثاني قبل الميلاد .

ز ـ ابعاد واشكال الممارسة للدور اليهودي الوظيفي في عصر النهضة الاسلامية :

ولقد ساهم التسامح الاسلامي في اعلاء شأن الادارة اليهودية ، خاصة وأن المسلمين اضطروا في أحيان كثيرة للتعامل مع اليهود في ادارة الامصار المفتوحة لانهم لا يأمنون جانب القوط ولا الرومان ولا الفرس والبيزنطيين ، ولقد ظهرت قيادات يهودية مالية وادارية في الدولة الاسلامية مثل اسماعيل ابن فغرانة في غرناطة وحسداي بن شبروط في عهد عبد الرحمن الثالث في الأندلس(٥٢) . وكان اليهود يقومون أيضا بأعمال الوساطة النقدية بالعملة العربية التي ضربت منذ عبد الملك بن مروان وبالدينار البيزنطي وغيره من العملات الذهبية والفضية ، ولقد بلغ الدور اليهودي أوجه أثناء الحروب الصليبية ، فكانوا يقومون بتسريب الأموال الذهبية والفضية الى أوروبا ثم يعيدون ضربها وينقصون منها ويتلاعبون بسبائكها ، وكان العديد منهم على رأس طائفة « الزغيلة » التي تضرب النقود المزيفة ، ولم يبق للعرب الا النقود النحاسية المغشوشة في عهد الدولة المملوكية البحرية بينما معظم الذهب انتقل من أوروبا ووصل بهم الأمر انه من العهد الأيوبي انتشرت في الأسواق الاسلامية عملات عليها نجمة داوود ، بينما كانت العملات الذهبية تدق في البندقية بمعرفتهم ، وكانوا يمتلكون العديد من العملات الأوروبية ؛ مثل الدوكات الذهبي والبندقي والفلورين ، وكانوا أيضا يتحكمون في أسعار الصرف والمضاربة المالية !

وكان نشاطهم التجاري ممتدا من الدولة الاسلامية مستغلين علاقاتهم الارستقراطية التجارية المحلية ، ولعل أطول خطوط تجارية كانوا يملكونها ، وتوضح الجنيزة اليهودية في القاهرة ، التي تم نشرها لأول مرة عام ١٨٩٤ ، مقدار قوة المركز التجاري لهم في مصر وخاصة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، وتوضح هذه الجنيزة أيضا أن هنالك اتصالات بين تجار في اليمن وفي فارس بتجار مصريين حول بضائع ستذهب الى اسبانيا(٥٣) ، ويؤكد المقريزي على انهم كانوا وراء الأزمة الاقتصادية النقدية في عهد الكامل الأيوبي حيث شح النيل وعمت المجاعة ـ الا يذكرنا هذا بموقف يوسف والأسباط الاثني عشر . ؟ ! .. المهم ان العديد من اليهود تقلدوا الوزارات الاسلامية وكذلك الولاية ففي عهد العزيز الفاطمي (حوالي ٩٩٠ م.) كان هنالك وال على الشام اسمه منشاين ابراهيم ، وتولى أبو منصور صدقه بين يوسف اليهودي الوزارة ، واستولى اليهود على معظم المناصب الوزارية في عهد بدر الجمالي وابنه الأفضل مثل يهوداً بن سعديا وأخوه مبارك بن سعديا والحبر بن موسى ونيفين بن ناتنيال ، كما كان في عهد العزيز الفاطمي أيضا يعقوب بن كلس وغيرهم ! ، وقد قامت هذه القوى البيروقراطية الوزارية بمساعدة خطوط التجارة اليهودية الطويلة المعروفة باسم التجارة « الكارمية » وخاصة بين المدن الايطالية والفاطمية ، وكان اليهود الرادانيون ينتشرون في

---

(٥٢) قارن في هذا الشأن كتاب د. عطية القوصي ، **اليهود في ظل الحضارة الاسلامية** ، القاهرة ، ١٩٧٨ . وخاصة الفصل الثالث والرابع .

(٥٣) GOITEIN - Jews and Arabs. op. cit., p. 184.

مراكز التجارة في افريقيا الشمالية ، وانتشرت اللغة العربية والفرنكية كلغات للتجارة في هذه المناطق على يد اليهود ، ولقد كان العداء واضحا بين القرامطة على خطوط التجارة الشرقية واليهود ، وكذلك بين الخوارج وخطوط التجارة المغربية في الدولة الاسلامية ، ولقد اتصلت خطوط التجارة بين الشرق والغرب عن طريقهم كما يظهر في جنيزة القاهرة ، ومن الواضح أيضا ان هنالك رسائل متبادلة بين القوى التجارية شرق المتوسط وغربه تسيطر عليها القوى اليهودية ، فقد كانت هنالك اتصالات دائمة بين مركز التجارة اليهودي في قرطبة الاسبانية والقوى « الخزرية » شرق المتوسط وعلى البحر الأسود لتأمين الخطوط البحرية التي اعتمدوا فيها على أساطيل الفاطميين والاغالبة ، وكانوا أيضا بحاجة لأساطيل البنادقة ، كذلك كانوا بحاجة لتأمين تجارتهم من مخاطر الطرق البرية التي كان يشن عليها الحملات كل من الثوار القرامطة والخوارج الذين ادركوا الخطورة اليهودية العقائدية كما الوظيفية الاقتصادية ، وأحسوا كما لو كان اليهود قد سلبوهم دورهم كقوى تجارية في الدولة الاسلامية ، وكانت هنالك خطوط تجارة أيضا يهودية عن طريق يهود الرادانيين القادمين من الدانوب الأعلى ويهود الاريونيون عبر ممرات البيرنية الى اسبانيا الاسلامية[٥٤] وكان حسداي بن شبروط كوزير ومشرف على الخزانة العامة ينسق مع غيره من المشرفين على الخزانة في الدول الاسلامية من اليهود ، يسمون (الجهابذة) وله اتصالات قوية بيهود الخزر الذي يقال انهم تهودوا ليقوموا بنشاطهم التجاري .

ثالثا : المشروع الاقتصادي والدور الوظيفي اليهودي في مرحلة انهيار النهضة الاسلامية :

لعبت الكتابات اليهودية دورها في نقل الرسائل والخبرات بين اليهود ، فان كانت جنيزة القاهرة نموذجا بسيطا فهنالك كتب تشرح أصول التبادل التجاري، ولقد كان كتاب «الحجة والدليل في نصر الدين الذليل » يقصد الدين اليهودي ليهوذا هاليفي ، والمعروف اسم الكتاب باسم « سفر الخزري » انما هو حوار فلسفي مع ملك الخزر حول كيفية تدعيم الدور التجاري للخزر وتهويدهم ، ويأتي كتاب موسى بن ميمون الأشهر مورية بنوضيم أو « دليل الحائرين » أيضا في هذا الاتجاه اتجاه نصح اليهود بالطرق السلمية للتعايش كقوى طفيلية .

أ ـ حركة النقل الفكري والترجمة ودور اليهود الثقافي في تدعيم دورهم الطفيلي الوظيفي الاقتصادي :

وبينما عمل اليهود على نشر القيم الايجابية فيما بينهم وطرق تنظيم انفسهم ككيان طفيلي حاولوا من جانب آخر وكما سبق إيضاحه من قبل التعايش على التناقضات التي تعتري الجسد الاسلامي المريض ، فنشروا الكتابات والأفكار الصوفية كما سبق وتقدم ومن جانب آخر ساهموا في تشويه الصورة العربية أمام أعداء الأمة الاسلامية فعن طريق حركة الترجمة التي سيطروا على أكبر معاهدها في صقلية وطليطلة وبغداد والقدس . ولقد قام كل من فرح بن سليمان ويعقوب اسحق بن سليمان (توفي ٩٢٣ م.)بالترجمة للعديد من المخطوطات العربية وأيضا صموئيل بن طبون توفي ١٢٦٠ م. وشلوموكوهين الطليطلي وسون بن سلومو (١٢٤٧ ـ ؟) ، وكانت معظم الترجمات المشوهة للمقامات ولكتابات الف ليلة وليلة والقصص الفارسية المترجمة للعربية وكان الهدف هو تشويه الصورة العربية واستعداء المسيحيين ضد العرب . وتصوير النعيم الذي ينعم به المسلمون دونا عن

---

(٥٤) ROTH, G, Ashort History of Jews. London, 1953 - N.Y. 1961. pp. 31-72.

المسيحيين ، وساهموا في حملات الدعاية المحمومة التي قادها جريجوري السابع (توفي ١٠٨٥ م.) ضد المسلمين وكذلك في شحذ همم رجال الأديرة أو النيريين وساهمت كتابات سليمان بن جبرول في هذا المجال أيضا (١٠٥٨ م.) ، حتى فلسفة ابن رشد التي قاموا بترجمتها الى العبرية أقاموا العديد من التشويهات عليها حتى عرفت باسم « الرشدية العبرية » ، وكان موسى بن ميمون وتالو نيموس ابن قالويلمونس وكذلك صموئيل بن يهوذا بن ميشولا في مرسيليا قد ترجموا لابن رشد ، وإن كان أولهم التزم بعض النزاهة فان أخيرهم صموئيل بن يهودا قد شوه الرشدية وانتقد عقلانيتها في كتابه المعروف باسم (الأخلاق لنيوماخوس) كذلك ترجم سليمان بن يوسف بن أيوب عام ١٢٥٧ م. بعض اثار ابن رشد ولم يقل غرضا عن سابقيه ومن قبله ابراهام بن داوود (١١٨٠ م.) كذلك(٥٥) .

وبلغ من قوة حالة الشحن المعنوي التي قامت بها هذه الكتابات المغرضة ان فريدريك الثاني الذي كانت له صداقات قوية بالمسلمين وخاصة الكامل الأيوبي أصدر في كتابه ابان الحروب الصليبية يتهم الانبياء بأنهم مجموعة من الدجالين على رأسهم نبي الاسلام ! (هكذا) ، ولقد حذره البابا جريجوري التاسع من مثل هذه الانسياقات(٥٦) ، كان القوى اليهودية كانت تحفز القوى المسيحية للاستيلاء على قوى العالم الاسلامي بعد نجاح دورها الوظيفي السابق شرحه ، فكما ساعد اليهود الحروب المقدونية في نهاية الامبراطورية الهيلينية وتعايشوا عليها ، وساندوا الغزو الاسلامي في حصار الدولة الرومانية عام ٨٤٧ م. وساندوا كذلك حملات موسى بن نصير وطارق بن زياد على اسبانيا وعندما اشتد ساعد المسيحيين في عهد البابا ليو الرابع وقيام المدن المحصنة الليونية Leonine City في البحر المتوسط ساهموا في الحملات الصليبية بالمال ومن قبل بالتوجيه المعنوي لكي يصرفوا القوى التجارية الصاعدة والقوى المسيحية عن التنكيل بهم وليدعموا نفوذهم لدى القوى الاقطاعية لمواجهة القوى البورجوازية الاوربية الصاعدة ولحماية دورهم التجاري في المنطقة المتوسطية ولذا فعندما فشلت الحملة الصليبية الرابعة وجهودها لتقوم بفتح القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م. حين كانت تحت حكم البيزنطي اليسوي الثاني الذي كان يقف حجر عثرة أمامُ انسياب التجارة الخزرية من والى المتوسط ــ كما إنهم تحركوا في اتجاه تحريض البابا انوسنت الثالث لمساعدة الفونس الثامن ملك قشتالة لتكوين حملة صليبية ضد دولة الموحدين وكان قبلا في دولة المرابطين قام يوسف بن تاشفين بانتزاع اموالهم وطردهم من البلاد فتعايشوا على الخلافات بين فريدريك الثاني امبراطور المانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا ، فعندما تصالح مع صلاح الدين وتنبهت « عصبة الهانستيك » للدور اليهودي في المناطق الالمانية وعلى الراين حتى نظموا حملات أبادة ضدهم وهكذا سرعان ما انكشف الدور اليهودي ولكنه مع ذلك استمر .

ب ــ مشاكل الدور الاقتصادي الوظيفي اليهودي في مرحلة صعود البورجوازية الأوربية :

ويرجع السبب في استمرار المشروع الاقتصادي الوظيفي اليهودي الى الظروف التي أحاطت بالدولة الاسلامية وفساد الارستقراطية التجارية ، وضعفها ، وانتشار الاتجاهات الاقطاعية

---

(٥٥) راجع دي لاس اوليري ، الفكر العربي مركزه في التاريخ ،مترجم،دار الكتاب اللبناني ،١٩٧٢ ص ص ٢٢٠ ــ ٢٢٢ .

(٥٦) شاخت وبوزوث ، تراث الاسلام ــ مترجم ــ سلسلة عالم المعرفة العدد ٨ ، الكويت ــ ١٩٧٩ ، ص ٤٨.

الاوليجاركية العسكرية والشعوبية ، مع ضعف البورجوازيات الصاعدة سواء ذات الاتجـاه البيروقراطي المنغلق او الاتجاه الحرفي الغارق في الصوفية والمستقطب للقوى الجماهيرية في هذا الاتجاه الهروبي الاحباطي ، ورغم توتر العلاقة بين اليهود والحكام المسلمين ابتداء من أواخر عهد الفاطميين مرورا بفترة حكم صلاح الدين وانتهاء بموقف المرابطين وبخاصة حاكمهم يوسف ابن تاشفين (١٠٦١ ـ ١١٠٧ م.) ، الا انهم احتفظوا بدورهم الحرفي كأطباء وصناع وغيرهم حتى في عهد صلاح الدين وعندما اتت دولة الموحدين الى الحكم بعد المرابطين في المغرب (١١٣٠ ـ ١٢٦٩ م.) رحب بن تومرت بدورهم في الترجمة ، ولكنهم ما لبثوا ان انقلبوا على الدولة، وتعاونوا مع نصارى اسبانيا ضد الموحدين ، وكانوا احد عوامل انهزام الموحدين في معركة لاس نافاس وكانت هذه هي بدايـة الخروج العربي من الأنـدلس (١٢٢٥) ، وبالطبع نتيجة خطوط التجارة الاسلامية في ذلك العصر ونتيجة لانفضاح الدور اليهودي حدث تقليص لنفوذهم ، وخضعوا في التجارة لشروط الجزية (الجعلية) ، ومع ذلك استمر دورهم في الاطار الربوي داخل الكيانات الاقطاعية الاوليجاركية ، وتعاونوا في بعض خطوط التجارة مع تجارة « فرسان المعبد » في البحر المتوسط ، بقايا الحملات الصليبية ، فلقد كانت التركيبة الاقطاعية الإسلامية أكثر توافقا مع الدور اليهودي البورجوازي التجاري والمالي الربوي ، وخاصة القوى السفاردية ، التي انتشرت على الشواطىء العربية ، بينما كان صعود القوى البورجوازية التجارية الأوربية يقلص من الدور التجاري لليهود بعد تعرضهم للهجوم في اعقاب الحرب الصليبية وانكشاف الدور المزدوج الذي لعبوه في تمويل الحمـلات واستغلالها ، ولقد تمثل العداء للتجارة اليهودية القصيرة داخل الاقطاعات الأوربية في ظهور التجارة الطويلة والاقليمية الأوربية داخل عصبة الهانساتك، وان كان الدور الربوي اليهودي استمر داخل الكيانات الاوربية فكان الحكام يطردونهم ثم يفرضون جباية عالية لارجاعهم وكانوا يمارسون عليهم دورا مزدوجا فيتركوهم يجمعون الثروات من الجماهير الكادحة ثم يستعدون الجماهير ضدهم بحكم العداء الذي يترتب على العلاقة الاستغلالية الربوية ، ويتم طردهم والاستيلاء على أملاكهم ، وبعد فترة يسمح لهم بالعودة نظير دفع مبلغ وقدره ايضا للحكام ! مما دفع العديد منهم (أي من اليهود) الى الانتشار في الكيانات الاقطاعية التقليدية في شرق أوربا فكانوا الاشكناز واستمر السفارديم في الدول الاسلامية حيث كانت العلاقات قد تحولت الى علاقات شبه اقطاعية اوليجاركية ، وفي ظل التسامح الاسلامي وجدوا دورهم الوظيفي ، ولقد دعم من دورهم الوظيفي الاقتصادي هذا الروح السلفية والصوفية التي تواكبت مع المناخ الاقطاعي الذي انتشر في المنطقة المتوسطة سواء العربية اوالاوربية ، وما تبعها من روح العداء التعصبي من قبل الفرنسيسكان والدومنيكان وغيرهم من ذوي الطموح البنائي للقيم المسيحية ، وهي تلك القوى التي استفادت من العقلانية الرشدية (نسبة الى ابن رشد) وهي القوى الميثولوجية التي استغلها القطاع التجاري الوظيفي للاندفاع بالركوتكوستالضرب التجارة الطويلة الاسلامية ، مما دفع القوى الاوليجاركية الاسلامية والاقطاعية الى التهمش والاقتصار على التجارة الداخلية ، كما كان الحال في الدولة « الحفصية » (١٢٢٨ ـ ١٥٧٤ م .) في تونس ، ثم تحركوا بعد فتح « برباروسا » للموانىء التونسية الى النشاطات الطفيلية في مجال القرصنة في البحر المتوسط[٥٧]، أو الى البحث عن منافذ الى تجارة مناطقية متوسطية مثلما فعل مماليك مصر وسوريا، وبهزيمة القوات المملوكية في منطقة هرمز على يد البرتغاليين تقلصت خطوط التجارة ، وضعف

---

(٥٧) د. احمد السعيد سليمان ، م.س.ذ ص ٥٦ ـ ٦٥ .

الاقتصاد المحلي لانتشار الفتن والصراعات بين القوى الاقطاعية ، فجاءت السيادة الاقطاعية التركية العثمانية لتقيم كيانها الامبراطوري الاوليجاركي الاقطاعي البنائي ، وتعيد تقاليد « اللاتيفونديا » ، ولقد تقبل دورها هذا القراصنة العرب على أمل أن تعيد لهم وضعهم التجاري وخطوط التجارة الطويلة، ولكن الطبيعة العسكرية للدولة العثمانية والقوى « اليمنية » الاقطاعية التي استندت عليها بجانب القوى المملوكية(٥٨) اضعف من هذا الأمل حتى النشاطات التي كان يقوم بها القراصنة ضعفت بعد وفاة « خير الدين بربا روسا » أمير البحر الجزائري ومن قبله «طورغود» امير البحر الليبي و « خضر بابا اروج » امير البحر المغربي ، وانصرفت قوى القراصنة هؤلاء الى المشاركة في القوات النظامية للدولة العثمانية ، مثل امير البحر « سنان » باشا أو « أولج علي » الذي فتح اليمن(٥٩) ، وأصبحوا فرعا من القوى العسكرية العثمانية البنائية ، واستقر اتباعهم كقوى عسكرية برية انكشارية على السواحل البرية ، وهكذا انهارت آخر الآمال في التجارة ولو حتى من خلال القرصنة ولتبدأ مرحلة أخرى ، هي مرحلة الدولة العثمانية وامبراطوريتها ولقد لعب اليهود دورا متعدد الأبعاد من خلال مشروع اقتصادي واسع المدى اثر في تاريخ المنطقة العربية كما سيلي ذكره .

رابعا ــ دور القوى الامبراطورية العثمانية في تجميد واضعاف النزعات القومية العربية :

لقد كانت بداية الدولة الاقطاعية الاوليجاركية العثمانية هي تكتيل للقوى الاقطاعية والاوليجاركية المحلية في بنية اقطاعية امبراطورية(٦٠) ، وهو ما دعم موقف الاقطاع امام القوى الامبراطورية الحرفية ، وشاهدنا كيف انهارت القوى التجارية أيضا حتى تقلصت الى القوى القرصنية ثم ما لبثت الأخيرة ان انضوت تحت السيطرة العسكرية العثمانية ، وبهذا أجهضت القوى الاقطاعية الاوليجاركية الامبراطورية امكانيات النهضة لدى القوى البورجوازية القومية ، ولقد ساهم الوجود العثماني في اضعاف هذه القوى الأخيرة بتحويلهم الى مركزية حرفية في عاصمة الخلافة ، وجردهم من دورهم السياسي وطموحهم الاقتصادي الاقليمي ، وتفرغت القوى البورجوازية البيروقراطية الى الانخراط في الادارة العثمانية وصغار الحرفيين الى الانزواء الى القرى والانغلاق على النزعات الصوفية .

أ ــ دور البناء الاداري والقانون في تحطيم امكانية الصعود للقوى البورجوازية الجديدة :

ولقد تدعم البناء الاقطاعي الاوليجاركي العسكري هذا بالعديد من التنظيمات التي وضعها الخلفاء العثمانيون ، وبخاصة في القرن السادس عشر بعد استقرار فتوحات الدولة العثمانية ، وكانت اهم القواعد التنظيمية تلك التي شرعها سليمان الذي عرف « بالقانوني » لاجل هذا ، ولقد اصابت معظم هذه التشريعات القوى الفلاحية الكادحة وحالت دون انتقالهم الى المدن وبالتالي قطعت امكانية تطوير القوى المدينية البورجوازية ، ففي قانون مثل « قانون نامة مصر » اجبر الكاشفين والملتزمين

---

(٥٨) PLANHOL, Le Monde Islamique - Essai de geographie religeuse Paris ،1957.pp.92-117.

(٥٩) د. احمد السعيد سليمان ، م.س.ذ ، ص ٦٢ ــ ٦٤ .

(٦٠) راجع في اسباب الانهيار ، شاخت وبوزوث ، تراث الاسلام، م.س.ذ ،وخاصة دراسة برنارد لويس في القسم الاول ، حول السياسة والحرب وبالذات ص ص ٢٨٥ ــ ٣٠٠ .

على منع الفلاحين بكل الطرق دون مغادرة الاراضي[٦١] ، وتم نزع اراضي الفلاحين المشاعية وحولوها الى اراضي اميرية يشرف عليها الاقطاع العسكري[٦٢] ، ولكن هذا كان مثار بعض المعارضة من قبل القوى الاقطاعية او بالتحديد الرأسمالية الزراعية . والقوى القيسية ايضا التي ثارت ضد توحد الادارة وانتمائها للباب العالي ، طالما لا يوجد مبرر اقتصادي وظيفي لهذه المركزية البنائية ، حيث انه لا توجد تجارة طويلة تستوجب توحيد خطوطها اداريا في بناء امبراطوري ، كما ان الادعاءات بالخطر الخارجي على الدين الاسلامي لم يكن مبررا قويا لقبول هذه المركزية الشديدة والسيطرة العسكرية ، خاصة ان الخطر الخارجي ان تم ، فالعلاقات الاستعمارية لم تكن يمكنها ان تصل الى بعض من ممارسات السلطة القمعية العثمانية ، وبالتالي ثارت بعض القوى القيسية ولكن لم تكن هنالك امكانية لثورة عامة لضعف القوى البورجوازية ، وانصراف القوى الفلاحية الى تقبل المبررات العثمانية بوجود خطر خارجي على الدين ، لا بد من تدعيمه بمزيد من اللجوء الى الدين والعلوم الصوفية ، وكانت الادارة العثمانية مستفيدة من هذه الاحاسيس السالبة المنتشرة في القوى الاجتماعية المجهضة منها ، كما ان القوى المملوكية كانت قد انضوت في الادارة العثمانية وحصلت على استقرارها الاداري في العصبيات المحلية ، فلم يكن هنالك مبرر اذن لثورتها في الغالب ، لذا جاءت التمردات القليلة قريبة وكان من السهل القضاء عليها ، فحركة فخر الدين المعني الثاني ضد المركزية العثمانية ١٥٩٠ والذي طمح الى القيام بدور معتمدا على القوى البورجوازية الايطالية ، واخذ بالاساليب الميكيافيلية اعتمد على القوى القيسية أو (الحمر) ، ولكن ما لبثت القوى اليمنية (البيض) بمساعدة الاتراك ان قضت على حركته جزئيا ، ولكن ما لبث علي بك الكبير في مصر ان حذا حذو فخر الدين المعني في عام ١٧٦٩ ، وتحالف مع قوى الشيخ ضاهر العمر والقوى القيسية[٦٣] في الشام لانشاء مركز اقليمي بين خطوط عكا والقاهرة التجارية واحيائها ، وذلك بالتعاون مع القوى الروسية المناوئة للدولة العثمانية ، كما تحالف المعنيون مع الايطاليين الذين كانوا انذاك في القرن السادس عشر اعداء اقوياء للخليفة العثماني ، الا ان اكثر الحركات نجاحا هي حركة محمد علي والذي اعتمد على المساندة الروسية والفرنسية[٦٤] ولكن حركة محمد علي كانت اقرب الى رأسمالية الدولة الزراعية والصناعية ، وبالتالي لم يكن لها بعدها التجاري الواضح ومن ثم كان مجالها الحيوي Vital space لم يتشكل بعلاقات وظيفية تجارية تبرر وحدة الادارة بل تشكل بعلاقات استعمارية بنائية لخدمة الادارة المركزية وبالتالي لم تتضح مركنتيليتها التجارية بقدر ما اتضحت قواها الصناعية والزراعية المركزية .

ب ـ انهيار المحاولات القومية والراسمالية وبداية تحلل النظام الاقطاعي العثماني :

وكان انهيار حركة محمد علي بداية لتغير في العلاقات القانونية السلطوية التي استقرت منذ عهد سليمان القانوني ، حيث ثبت تخلف هذه القوانين والادارة التي سارت عليها عن مواجهة امكانيات صعود قوى بورجوازية لا مركزية ، ولذا كان الحل لدى الخلافة العثمانية هو ضرب انماط الانتاج

---

(٦١) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي معهد الاستشراق ـ موسكو ١٩٦٤ ص ١٨ .

(٦٢) م.س.م. ص ١٠ .

(٦٣) لوتسكي . م.س. ص ٣٦ .

(٦٤) PINON, R. - l'Europe et l'empire Othman, les aspects actuel de la question d'Orient Paris 1908.PP.36-48.

المحلية بوجود تكنولوجيا اجنبية اكثر تطورا وقادرة على اغراق اسواق الامبراطورية ، ومن جانب آخر كان هذا يفوت على القوى الاوربية ان تقوم بتحالفات مباشرة مع الامصار لتطويرها وتقليبها ضد «الباب العالي» ، ولقد استراحت القوى الاوربية لهذا التفكير العثماني حيث انها فيما بينها كانت قد بدأت تنقسم حول توزيع هذه التركة فكانت وحدة الهدف عاملا على وحدة القوى الساعية اليه ، ولذا شكلت معاهدة ١٦ اغسطس ١٨٣٨ نقطة تحول هامة في تاريخ تطور المنطقة الاقتصادي حيث ان هذه المعاهدة التجارية التركية ـ الانجليزية حدت من احتكار الخزانة التركية لتجارة مختلف انواع المواد الأولية مقابل دفع بعض الرسوم الجمركية ، ومن ثم كسرت هذه المعاهدة احتكار محمد علي للتجارة[٦٥] ومعه كسرت أي احتمال مستقبلي لقيام نظام لرأسمالية الدولة داخل الدولة العثمانية كما انها ربطت الزراعة العثمانية بالتجارة الطويلة للمركز الرأسمالي الأوربي ، وبدأت مظاهر التبعية الاقتصادية والرضوخ الاقطاعي العثماني للرأسمالية الأوربية ، فكأن القوى البورجوازية التي خشيتها الاقطاعية الاوليجاركية العسكرية العثمانية من ثلاثة قرون وحاولت ان تضربها وتفرغها من الدول الاسلامية لحساب المركز الامبراطوري العثماني عادت لتقلبها من البورجوازية الدولية الاستعمارية . فساهمت البنائية التركية العثمانية بلا وعي ، وبتشبث سلفي في تحطيم قوى البورجوازية التحررية المحلية داخل الامبراطورية ، وتصورت ان ذلك هو نهاية التاريخ فاذا بالتاريخ يعمل قوانينه الحتمية ، وبدلا من انماط البورجوازية ورأسمالية الدولة المشوهة والعرجاء والضعيفة في الدولة المعنية والدولة الشهابية والضاهرية والعلوية ، جاءت بورجوازيات خارجية اكثر نضجا واكتمالا وأقوى حنكة في الشؤون المركنتيلية ، ودخلت مرحلة الثورة الصناعية الأولى واصبحت بحاجة لتدعيم التجارة الطويلة وتجارة المواد الأولية ، واكتفت فقط الادارة العثمانية بان تحطم القوى الذاتية داخلها لمجرد حفظ بقائها ولو كان ذلك على حساب مستقبلها كله ، كأنها تعمل منطق : «احيني اليوم وأمتني غداً» . وهذا ما حدث بالفعل فلقد بدأت مرحلة الرجل المريض والاقطاعي الهرم والعسكري الديكتاتوري ، وهكذا وضعت معاهدة ١٨٣٨ أو المعروفة باسم «بالتاليمان» عقبة أخرى في سبيل نمو البورجوازية العربية .

ج ـ الانفتاح المجيدي العثماني عجل ضمن سياسة الامتيازات بتدعم دور القوى الاستعمارية :

ولما كان الانفتاح المجيدي (نسبة الى السلطان عبد المجيد) لم يقتصر فقط على معاهدة ١٨٣٨ التي كانت توارب باب السلطنة فاذا به يفتح الباب تماما منذ عام ١٨٣٩ فيما يعرف بفرمانه المسمى خط «شريف كلخانة» الذي الغى نظام الضرائب القديم ، وفي هذا الخط (الذي صدر في قصر الزهور «الكلخانة» ونسب له) تمت السيادة للرأسمالية الصناعية على خطوط التجارة للمواد الأولية داخل الدولة العثمانية ، وما لبث السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١ م.) ان سار خطوات انفتاحية اخرى بتطور دور الرأسمالية العالمية من رأسمالية صناعية الى بداية التحول الى الرأسمالية المالية ، وهكذا بعد ان استسلم الرجل المريض في المسألة الشرقية اصدر خطه الثاني عام ١٨٥٦ المعروف باسم خط «همايون» . وكان هذا هو بداية التغلغل المالي بالقروض للسيطرة على حسابات وخزانة الدولة العثمانية ، ولكن كل هذا لم يمنع من زيادة التطور نحو اللامركزية الاقطاعية فاضطر مدحت باشا ان يقيم ما اطلق عليه اسم (**خطة الاصلاح**) الخاص بتطوير قانون الاراضي والملكية لعام ١٨٦٤ . تلك

---

(٦٥) لوتسكي . م.س ص ١٢٧ .

ان القوى البورجوازية الاجنبية كان من صالحها التعامل المباشر بعد الاتجاه غير المباشر الذي سلكته بالتعامل من خلال الادارة العثمانية مع الامصار الخاضعة لها ، هكذا كانت جدلية الحركة وهكذا ايضا كانت حتمية التطور التاريخي .

د ـ بداية التعاون بين القوى الاستعمارية الأوربية والقوى الاقطاعية الانفصالية المحلية :

ويهذا تفتتت أوصال الرجل المريض فبدأت القوى الرأسمالية الاستعمارية الأوربية في تحقيق اهدافها بصورة مباشرة ، فابتداء من تآمر فرنسا ومساهمتها في قتل عباس الأول في يوليو ١٨٥٤ [٦٦] لكي تأتي القوى القادرة على الموافقة على حفر القناة وانهارت القوى الاقليمية المدعمة للنفوذ العثماني في الاقاليم ، والقصة معروفة حول امتياز القناة وكيفية حفرها وكما حرصت القوى الاستعمارية على طرق مصر التجارية حرصت ايضا على اراضي الدول العربية الأخرى ، فبمقتضى قانون ١٨٧٣ ادخلت فرنسا تشريعاتها الى الجزائر وقامت بسلب الأراضي ، وكما سيطرت الادارة الأوربية على التجارة وخطوطها والادارة المالية والملكية الزراعية في الدول العربية التابعة للدولة العثمانية فحاصرتها بذلك اقتصاديا ، فما لبثت الدولة العثمانية تحت تأثير نقص الموارد ان غرقت في الديون ولم يحدث ان طور رأس المال الأجنبي لا تركيا ولا الأقاليم التابعة لها بل كان المخطط الاستعماري هو التصفية الاقتصادية لدم الامبراطورية المريضة [٦٧] ، وجاء مرسوم ٢٠ ديسمبر ١٨٨١ والموافق ٢٨ محرم والمعروف باسم مرسوم المحرم ليعلن افلاس الامبراطورية العثمانية ، وانتهت سياسة الانفتاح بدخول الادارة الأوربية للحجز على كل اموال الامبراطورية ، وتجميع الدين العام للامبراطورية ، والمقدر آنذاك بـ ٢,٤ مليار فرنك ، واستمرت سياسة السيطرة الاقتصادية على اراضي الامبراطورية ، فبعد احتلال تونس قامت الادارة الفرنسية عام ١٨٨٥ في يوليو باصدار قانون الأراضي التونسي ، الذي شفعته بالعديد من القوانين في هذا الصدد مثل قانون ١٨٩٨ و ١٩٠٥ ، وقد تبع مثل هذه القوانين نشاط عقاري قوي في قضايا بيع الاراضي مما خلق طبقة من الاقطاع والرأسمالية الزراعية المحلية اعتمدت عليهاالقوى الاستعمارية في تفتيت كيان الامبراطورية البنائي .

هـ ـ دور الحركة الفكرية الاستعمارية في تدعيم القيم الفكرية السلبية والقوى الاقتصادية الموالية :

وكما احدثت القوى الاستعمارية هذه التغيرات في البنية التحتية الاقتصادية عملت على عكس هذه التطورات في البنية الفوقية الفكرية والنظمية لتخدم تغلغلها الاقتصادي وانصياع الامصار لها ولتضعف اي امكانية لاساس وجود ايديولوجية توحيدية مقاومة ، ففي الوقت الذي تدعمت فيه الروح السلبية لدى قطاعات البورجوازية الحرفية وانتشرت بينها القيم الصوفية التي كانت متدعمة وغرقت كل منها في ولي من ولياء الله ينجيها مما تخاف ، تحالفت القوى البيروقراطية والرأسمالية العقارية والزراعية مع القوى الاستعمارية ضد الحركة الوطنية من جانب ، وضد الاتجاه الامبراطوري من جانب آخر [٦٨] ، اما القوى الفلاحية والبدوية فانصرفت اما الى النهب أو المقاومة للمستعمر ولكن

---

(٦٦) لوتسكي ، م.س ، ص ١٨٧ .

(٦٧) COULAND, J - l'éveil du monde arabe paris 1964. pp. 16-28.

(٦٨) راجع في هذا الشأن دراسة الدكتور عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٨ وبخاصة الفصل الخامس ص ١١٣ وما بعدها .

بصورة جزئية دون ما استراتيجية عامة او تنسيق جهد ، واكتفت فقط بدرء الخطر وليس بضربه ، واعتمدت في ذلك على مجهودها السلفي وقواها البدائية التي مهما بلغت من نقاء وقوة لم يكن ليقدر لها وفق حتمية التاريخ من تصارع الاشكال الاستعمارية الأكثر تطورا في ادواتها ، حقيقة استطاعت القوى الوهابية والادريسية السنوسية والقادرية (نسبة لعبد القادر الجزائري) والدرزية والخطابية الريفية ان تقاوم وقدمت نماذج للبطولة الاقطاعية القبلية السلفية الصوفية الملحمية وليس اكثر من ذلك ، امام قوى اكثر معرفة بالمنطقة واكثر دراية بطبائعها واكثر قوة بما تملكه من تكنولوجيا متطورة .

لقد ساهمت الحركة الاستشراقية بدورين في هذا الغزو الأوربي : الدور الأول هو القيام بعملية دراسة واستكشاف ووضع خريطة لتضاريسها الفكرية والاجتماعية وذلك قبل وأثناء الغزو ، أي أنها قامت بالدور الاستطلاعي ومن جانب آخر عملت على اعادة صياغة البنية الفوقية للمنطقة نفسها كما سبق الاشارة ، ولقد اهتموا في حركة الترجمة من العربية الى الأوربية بالذات بالدراسات الصوفية كمدخل لفهم ايديولوجية التخلف للامصار العثمانية وعوامل السكون الفكرية ، إن مراجعة دراسات دي يرسفال (١٧٥٩ ــ ١٨٥٣ م.) وترجمة سلفستر دي ساسي (١٧٥٠ ــ ١٨٣٨ م.) لأشعار عمر بن الفارض وقصائد ابى العلاء وكتابات ارنست رنان، (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢ م.) وترجمة جويدي الايطالي (١٨٤٤ ــ ١٩٣٥) لكتاب الاغاني للاصفهاني ومواطنه سانتلانا (١٨٢٥ ــ ١٩٣١ م.) للفقه المالكي ودراسته عن الفكر السني ذات الطابع البنائي الذي يهتم بدور السلفية النصية في نماذج الفكر المحافظ الاسلامي[٦٩] ، وقام توماس كارليل (١٧٦٢ ــ ١٨٠٥ م.) بترجمة جزء من كتاب « مورد اللطافة فيمن ولي السلطة والخلافة » لأبي المحاسن تغري بردى وادوارد لين بوضع مؤلفه المشهور (١٨٠١ ــ ١٨٧٦ م.) عن العادات والتقاليد في مصر ودون ما شك ان كل هؤلاء اقتفوا اثر جورج سل (١٦٩٧ ــ ١٧٣٦ م.) الذي ترجم القرآن وشروحاته السلفية في أول ما ترجم[٧٠] ، ودون ما شك ايضا ان هذه المؤلفات والترجمات وغيرها ساعدت القوى الاستعمارية على دراسة السيكولوجية الفكرية والطابع الانغلاقي البنائي في امصار الدولة العثمانية الاسلامية ، ومنها الامصار العربية بالطبع ، وبهذا جاءت حركة الترجمة الاوربية في العصور الحديثة مواصلة لحركة الترجمة اليهودية في العصور الوسطى ، ولتدعم نفس التصورات السلفية والانغلاقية الرجعية لدى الجانب الغربي ، ولقد ساعد هذا كله على تكوين مدخل مدروس للقوى الاستعمارية للمنطقة ، فكما استفادت القوى الأوربية من الترجمات للفكر العربي العلمي في عصر النهضة ركزت في العصر الحديث على الترجمات للفكر السلفي ايضا ، لتجد الركيزة لحركتها الاستعمارية ، ودونْ ما شك ان للقوى اليهودية دورا في حركة الترجمة الحديثة كما كان لهم دور في الحركة القديمة .

وفيما يتعلق بدور الحركة الاستشراقية في نشر القيم السلبية ودعوات الزهد وتدعيمها كان هنالك الدور الذي قامت به في نطاق التبشير ، فلقد انشأ المبشرون البروتستانت عام ١٨٤٧ الكلية السورية ، وانشأ اليسوعيون الفرنسيون كلية في بيروت عام ١٨٧٤ ، وذلك بعد تدعم الأحداث الانقسامية بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠[٧١] وكما اعتمد الاميركان على القوى البروتستانتية هم والانجليز ،

---

(٦٩) لوتسكي م.س.ذ ، ص ١٤٥ .

(٧٠) SMITH. W., Islam in modern History, princton University Press. 1958 - pp. 95-114.

(٧١) لوتسكي . م.س.ذ ص ١٦٢ .

اعتمد الفرنسيون على الموارنة ، والروس على الارثوذكس ، واحيانا القوى الدرزية ، وقام الانجليز بمساندة القوى البهائية والبابية المنشقة في فلسطين وبالتحديد في حيفا . وهكذا كانت حركة التغيير الفكري على عدة محاور لنشر القيم غير المعادية وبالتالي المتقبلة لفكرة التعاون مع القوى الجديدة الاستعمارية الأوربية ، وحصلت هذه القوى على امتيازات عثمانية بحجة حماية الرعايا وأصحاب الملة ، وفق ما جاء في خط « شريف كلخانة » ، ولقد اعتمد اليهود على هذه القوى والاتجاهات الانقسامية في ممارسة دورهم الفكري كتمهيد لحركتهم الوظيفية الاقتصادية .

و ـ دور الحركة الفكرية اليهودية في التخطيط لأبعاد الميثولوجيا الصهيونية :

فلقد استفاد اليهود من هذه الاتجاهات كما حدد موسى هس رائد الصهيونية العمالية الالماني في كتابه « روما والقدس » الصادر عام ١٨٦٢ : ان حركة التبشير هذه ساعدت على تمزيق كيانات الدولة العثمانية ولذا لا بد من دعمها لانها تساعد على تعزيز الأفكار العلمانية التحررية وتفتح الطريق امام المذاهب المتطورة ، وهكذا ربطت الحركة اليهودية في تطورها الصهيوني بين الميتيولوجيات الماسونية في الغرب والبهائية في المنطقة الشرق اوسطية حلقة بدعوى التحرر الديني الذي ساهمت فيه الاسقفية الانجليزية الالمانية بالقدس منذ عام ١٨٤١ وفق تعليمات من اللورد شافتسبري عام ١٨٣٨ والقنصل البريطاني في القدس « جيمس فين » ولقد دعم هذا الاتجاه بالرستون بعد اتفاقية باتاليمان السابق الحديث عنها لوجود قوى يهـودية تساهم في التعاون التجاري في المنطقة ، آخذا في هذا الاعتبار اعتماد نابليون على القوى اليهودية اقتصاديا منذ أن أعطى المجلس الوطني الفرنسي عام ١٧٩١ حقوقا كاملة لهم ، وأراد أن تستخدمهم الدولة الفرنسية في مشروعها للوصول الى فلسطين ، وهو ما حدث ، وما سيرد تفصيل لتبعات هذا الاتجاه ابتداء من تمويل روتشيلد لحفر قناة السويس ومرورا بشراء دزرائيلي لأسهم القناة ..الخ . المهم ان نسجل هنا ان الأرضية الفكرية البنائية تهيأت بانقسامها وأيضا بتحول قوى منها لخدمة المخطط الاستعماري الامبريالي وظيفيا

ز ـ حركة المقاومة العربية ومدى تاثرها بخطط المشروع الاستعماري :

ولكن السؤال بات حول ما هو تاثير عمليتي اعادة توزيع القيم الاقتصادية والمادية فضلا عن القيم الفكرية والعقيدية من جانب القوى الاستعمارية على دوافع المقاومة العربية ؟ لقد كانت أهم القوى التي ادركت خطورة ما يحدث هي البورجوازية الصغيرة وبالتحديد التجارية والحرفية ، هذا بينما بدات القطاعات البيروقراطية وبخاصة المصرية والقطاعات الاقطاعية والراسمالية الزراعية والعقارية والقوى الكومبرادورية كانت تؤيد في معظمها الوجود الاجنبي بدعوى الخلاص من السيطرة العثمانية بينما كانت البورجوازية الصغيرة تبحث عن شكل ولو من الارتباط الواهي بالدولة العثمانية ، هذا بينما القوى الفلاحية والحرفية الصغيرة في اغلبها منصرفة الى الجوانب الصوفية ، أو في حالة رفض حاد للتعامل مع كافة القوى الأجنبية بما فيها التركية . ولقد ساعد الخروج من هذا السكون على التعدد في المذاهب الفكرية ، فالقوى الكومبرادورية والبيروقراطية والقطاعات الاقطاعية والراسمالية الزراعية والعقارية كانت ترى أهمية الربط بينها وبين القوى الأجنبية الأوربية مثل محمد عبده ورشيد رضا بينما كانت حركة الأفغاني والكواكبي تعبر عن البرجوازية الحرفية ومعها قوى مثل قوى علي باش حفبة فكرة الاتحاد الاسلامي، كذلك بعض القوى البورجوازية الصغيرة اتجهت الى تطوير

العلاقة مع الرابطة العثمانية مثل قوى مصطفى كامل ومحمد فريد[٧٢] ، وانصرفت القوى الاقطاعية الكولاكية والجماهيرية والانغلاقية الفلاحية الى بقايا الوهابية والزيدية والمهدوية في الجزيرة العربية والمهدية في السودان والسنوسية والقادرية في شمال افريقيا[٧٣] . ولكن لم تأخذ كل هذه الاتجاهات البنائية بالتطور الذي اضفاه رفاعة الطهطاوي في زمن محمد علي لخلق قوى وطنية متطورة وظيفيا تواجه القوى الاستعمارية تلك التفكير الذي امتد ايضا وفقط في اعمال خير الدين التونسي (توفي ١٨٧٠ م.) ، هكذا ضاع الحل الاشتراكي الكفيل بدفع الأمة وظيفيا الى الاحساس بالمصلحة المشتركة كي لا تتحول التحركات الى مجرد صوفية قومية[٧٤] تعتمد على الشعارات الملتهبة اما للانفصال النهائي عن الدولة العثمانية او الاتحاد معها بدون معرفة شروط التطور الوظيفي لهذه العلاقات البنائية وهو ما يجعل من الوحدة او الانفصال من المركزية او اللا مركزية عملا في اتجاه قوانين التاريخ وتطوره وليس مجرد مخطط استعماري ينفذه اهل البلاد بدون وعي اللهم الا الوعي الخاص بالمصالح الانسانية أو الميتافيزيقيات الصوفية ، وبدون ما شك ان القوى الأوروبية لتمارس سيطرتها على المنطقة كانت تشجع تلك الاتجاهات في ابعادها كلها طبقا لقانون « التطور المتفاوت » فمثلا بينما كانت المانيا تخشى من استيلاء التحالف الفرنسي ـ البريطاني على الدولة العثمانية إذا تفككت ، فلقد اهتمت الدعاوي الالمانية بالحركات الاقطاعية مثل الوهابية والزيدية ، واهتمت بالوهابية بالتحديد على أساس ان هذا الاتجاه حتى إن حقق امبراطورية عربية فانها لن تخرج من زمام الامبراطورية العثمانية بل فقط ستحرص على مزيد من تدعيم لبنات وعلاقات هذه الامبراطورية ، وبالتالي الدور الوظيفي الالماني في مجال الاتصالات[٧٥] هذا بينما فرنسا كانت لا تساند الاتجاهات المركزية العثمانية بل تدعم الاتجاهات اللامركزية العربية ولكن في اطار اتحادي ولذا دعمت قوى البورجوازية الصغيرة المنادية بالرابطة العثمانية ، مثل شاكر الخوري (١٨٤٧ ـ ١٩١١) وقوى مصطفى كامل ومحمد فريد والكواكبي في جمعية حقوق الملك العربية (منشأة عام ١٨٨١) ودعوة الشيخ طاهر الجزائري وبينما كانت المانيا تساند فقط الكتلة النيابية العربية داخل مجلس المبعوثان وحزب اللامركزية العثماني ، نجد أن بريطانيا دعمت القوى اليمنية والمتحالفة مع القوى الكومبرادورية والرأسمالية العقارية والزراعية مثل « جمعية القحطانية » وايضا جمعية « الجامعة العربية » وجمعية « بيروت السرية »البروتستانتية المؤيدة من الاتجاه الانجلو امريكي ولقد شهد المؤتمر العربي الأول عام ١٩١٣ الخلافات هذه كلها وإن كان من الواضح جنوح اعضائه للاتجاه البريطاني ، لقد كانت كل قوة استعمارية سواء الالمانية او الفرنسية او الانجلو ـ امريكية تحدد ابعاد لعلاقة البنائية من اتحادية او لا اتحادية ، انفصالية او لا مركزية في اطار الحجم الامثل لمشروعها الوظيفي الاقتصادي ، اذن الحركة البنائية العربية تحددت بالمشروع الوظيفي الاقتصادي الاجنبي ، فبينما كانت فرنسا ترمي الى طريق لأفريقيا ولما كانت جبهة افريقيا عريضة فكانت اميل الى الاستيلاء عليها بكاملها وعدم التجزئة الى وحدات أصغر أما بريطانيا التي كانت تطمع في الطريق الى الهند

---

(٧٢) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، الأهلية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٥ و ٤٨ ، و٥٧ ، و ٦٤ .

(٧٣) ANTONIUS, G., The Arab Awakening, London 1938, pp. 81-4.

(٧٤) GOULLY, L., Islam devant le monde moderne, Paris 1945. pp. 51-66.

(٧٥) SEVERNIER, B., la politique Islamique de l'Allemagne Paris,1939

وبالتالي كان خط عرض جبهتها ضيقا وخطوطها طويلة فقد كانت ترمي الى انفصال كامل لوحدات صغيرة وخاصة في شرق المتوسط المؤدي الى الهند ، هذا في الوقت الذي كانت الاستراتيجية البرية الالمانية ترمي الى التوسع القاري في أوروبا وفي اطار الدولة التركية كوريثة للدولة البيزنطية المسيحية . وفي اطار قانون التطور المتفاوت أيضا حيث لم يكن بمقدورها منافسة الأطماع البريطانية ــ الفرنسية المتوافقة وبدءا منذ ١٩٠٤ ، ولذا كانت التحركات الالمانية ترمي الى الوحدة العربية في اطار المركزية العثمانية لعلها من خلال السيطرة على الدولة العثمانية توسع نفوذها الاستعماري في ملاحقها العربية ، ولكي تمنع من جانب آخر استيلاء القوى البريطانية على القطاع العربي من الدولة العثمانية وبالتالي كانت تعتمد على البورجوازية الصغيرة المرتبطة بالرابطة العثمانية والقوى الفلاحية معها .

فاذا كان هذا هو تقسيم المشروعات الوظيفية الاستعمارية وارتكازاتها الفكرية والطبقية في المنطقة العربية ، فما هو موقع الدور اليهودي في اطماعه الصهيونية في هذه التقسيمات الوظيفية والبنائية ؟ . والواقع ان حتمية التطور المادي والجدلي للتاريخ كانت تفرض على القوى اليهودية رغم عدم اكتمال عناصرها الاقليمية لتوزعها الدولي ، ان تدعي ان لديها مطالب بتحقيق أكثر الاشكال الوظيفية تقدما في هذه الفترة الا وهو الدولة القومية ، لذا جاءت الايديولوجية الصهيونية كتعبير بنائي عن المشروع الوظيفي الاستعماري اليهودي ، ولما كان اليهود موزعين دوليا بين العديد من الدول القومية افقيا وبين شرائح طبقية تتراوح بين البورجوازية الصغرى والعليا ولما كان لهذا التوزع جذوره التاريخية فان من الواجب ان نبدأ بهذه الجذور التاريخية فكما قلنا في موضع سابق من الدراسة ان المشروع التجاري الوظيفي اليهودي اصيب بضعف حاد لتطور البورجوازية التجارية الطويلة في المدن المسيحية بعد الحروب الصليبية ولانقطاع خطوط التجارة الطويلة الاسلامية بسيطرة القوى الاوليجاركية الاقطاعية العسكرية واضطرار القوى التجارية اليهودية والحرفية والبيروقراطية اما الى التمركز في المدن الاسلامية في الدولة الاقطاعية الاسلامية وكانت كلها من السفارديم، أو الرحيل في اوربا من غربها الى جنوبها وشرقها حيث الكيانات الاقتصادية ما زالت تقليدية وتسمح بالدور التقليدي الاقتصادي اليهودي سواء التجاري او الربوي في الدول الاقطاعية في شرق اوربا . ولكن بتطور اقتصاد اوربا في غربها وظهور الاتجاهات الوظيفية والتسامحية وزيادة الحاجة الى الراسمال اليهودي استقبلت أوربا في غربها الارستقراطية اليهودية ، وسمحت لها بان تلعب دورا في المشروع الصناعي وزادت أهمية هذا الدور بتطور البورجوازية الاوربية البرجوازية المالية ، ورأت البورجوازية المالية اليهودية في غرب اوربا ان حل المسألة اليهودية سيدعم دورها الكوزموبوليتاني ويعيد لها خطوط التجارة الطويلة التقليدية ولذا رؤي من جانب البورجوازية الكبيرة والارستقراطية المالية اليهودية الاعتماد على البورجوازية الصغرى اليهودية التجارية المحلية والربوية في الدول الاقطاعية سواء الاشكناز في شرق أوربا أو السفارديم في الدولة العثمانية لنشر الدعاوي العنصرية الصهيونية ، وبالطبع كانت البورجوازية الصغيرة اليهودية بحكم وضعها المضطرب في السلم الاقتصادي للثروة وفي السلم الاجتماعي داخل الدول الموجودة فيها ، وخاصة في أوربا الشرقية ، حيث كانت قد بدأت تظهر قوى مسيحية تجارية محلية منافسة ، وبدأ النظام الاقتصادي الاقطاعي الذي كانت تتعايش فيه بالربا يضعف دينها ــ في القرن السابع عشر والثامن عشر ، فوجدت دعاوي الانعتاق من الجيتو وبناء الكيان القومي تجد صدى واسعا في هذه الاوساط التي تجنح الى الفاشية بحكم اغترابها وقلقها النفسي واضطرابها الاقتصادي ، وكانت الدعاوي القومية هي المسيطرة كحجم امثل للمشروعات الاقتصادية والسوق الوطنية الملازم لها . ولما كانت في بداية القرن ١٩ قد بدأت العديد من القوى البورجوازية

الصغيرة اليهودية تنضوي تحت التحركات الاشتراكية بأشكالها المتعددة ، ولما احست البورجوازية العليا اليهودية بأحساس الخطر من جراء هذا الصراع ذهبت الى تدعيم النوازع العنصرية وبدأت تمول الجماعات الصهيونية وتفكر في ابعادها عن حلبة الصراع بين القوى الاشتراكية والراسمالية في أوربا ولما كانت تفكر في توسيع خطوطها التجارية بعيدا عن أوربا(٧٦) فلم تكن هنالك وجهة محددة في بداية الأمر كان يكفي ان يكون موقع قيام الدولة اليهودية في نقط الاتصال بينه وبين المركز الرأسمالي الاورو — اميركي مسافة مناسبة لتأمين النشاط الاقتصادي بصورة كوزموبوليتانية ولذا كان التفكير احيانا في الارجنتين او في اوغندا او في اليابان او في المغرب واستقر الأمر في فلسطين ، لما لها من تدعيم ليثيولوجيات الصوفية القومية الاسرائيلية التوحيدية . ولما كان ليس هنالك ثمة امل كبير في توسع استعماري في شرق أوربا حيث لا تظهر الموارد الطبيعية ولا تتسع خطوط التجارة لضعف البنية البورجوازية في شرق أوربا ، فلقد كان التفكير ينصب على مناطق انتاج المواد الأولية وخطوط التجارة الطويلة ، وكانت التجارة المحلية والخارجية ابتداء من القرن السابع عشر على الخصوص في دول الامبراطورية العثمانية في أيدي اليهود والمسيحيين المشارقة ، وكان اليهود على علاقة قوية بخطوطها القديمة بين البندقية ومرسيليا والقاهرة والاسكندرية وحلب وبعض مدن شمال افريقيا ومراكش على وجه الخصوص ، وكانوا ينظرون الحركة بين الهامش العثماني والمركز الرأسمالي في « لجهورن »(٧٧) ، وكان اليهود يعملون بصفتهم وكلاء للمصدرين الأوربيين من كل الجنسيات ، وبالطبع اليهود الأوروبيون الذين عادوا الى المناطق الغربية، وكانوا يتمتعون بالحماية الفرنسية وقد تدعمت هذه الحماية بقانون ١٧٩١ إبان الثورة الفرنسية ، واستطاع اليهود في الدول الأوربية الغربية أن يوسعوا نطاق الحماية الأجنبية ، ويدفعوا قناصل الدول الأجنبية الأوربية الى الحصول على براءات حماية من الباب العالي ، حيث كان يعمل العديد من اليهود في ادارات القناصل الأوربية الغربية في الدولة العثمانية ، ولقد أكثر منهم القناصل ليوفروا لهم الحماية ، وكان مثار إشكال دائم بين الادارة المحلية العثمانية وهذه القناصل الأجنبية ، حيث كان اليهود يتهربون من واجبات الرعوية تحت هذه الحماية ، ولما زاد العدد بشكل مبالغ فيه كانت الدولة العثمانية وقد ضعفت سيطرتها السابقة على امصارها ، ودخلت ادارتها في دوامة المشاكل الاقتصادية ، وبظهور خط « شريف كلخانة » السابق الاشارة اليه تدعم الدور اليهودي ، وحصلوا على امتيازات بعد ان تجنسوا في العديد منهم بالجنسيات الاوربية ،لم يكن للتجار العرب مثلها، وكان العديد من اليهود أيضا داخل العاصمة العثمانية فالعديد من اليهود الذين طردوا من اسبانيا عام ١٤٩٢ م. استقروا في القسطنطينية وسالونيكا . فضلا عن اليهود الخزر ودعم كل هذا مركزهم الوظيفي ووضعهم البنائي .

كانت كل هذه القوى اليهودية السفارية تعتمد عليها القوى الارستقراطية التجارية اليهودية في المركز الرأسمالي الاوربي ، ولما كانت القوى الاشكنازية معظمها ربوية ولم تعتد المجهود التجارة الذي يبذله السفارديم ، فلقد كان توزيع الأدوار في المشروع الاقتصادي اليهودي هو ان يساهم الاشكناز في التعصب للدولة الاسرائيلية ، خاصة وانهم لا يتمتعون ببعض المميزات الوظيفية والغير احباطية التي تمتع بها السفارديم في الامبراطورية الاسلامية وتقاليدها المتسامحة ، لأن التقاليد الأرثوذكسية

---

(٧٦) SMITH, V., Zionism The Dream and The Reality, N. York. 1974 pp. 311-325.

(٧٧) هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الاسلامي والغرب — مترجم — دار المعارف بمصر ١٩٧١ — الجزء الثاني ص ص — ١٦٠ — ٦٢ .

المسيحية كانت ضد الوجود اليهودي الاشكنازي في شرق اوربا ، وبالتالي فان تعصبهم للدولة الصهيونية سيكون أكبر في البداية ، على ان يحتفظ باليهود السفارديم لحين الانتهاء من دورهم في المرحلة الاستعمارية كقوى كومبرادورية لليهود في الدول المستعمرة لحساب القوى اليهودية في الدول القائمة بالاستعمار ، ولذا كان تفضيل ان يكون جيل الايديولوجية ومن قبله جيل النظرية الصهيونية من الاشكناز على ان يكون جيل « العقيدة » الذي يمثل الهجرات المتأخرة من السفارديين العرب . هكذا كان ترتيب الادوار كما سيتضح ترتيب احجام الدولة الاسرائيلية وانتقالها من المعسكر الى المشروع في بحثها عن حجم امثل بصورة مرتبة من الانتقال من مرحلة الى مرحلة كما سيلي توضيحه وكما كان اختيار الشام كوسط ميثيولوجي لقيام الدولة الصهيونية ، وأيضًا كوسط وظيفي تجاري صالح بعد ان تم تهيئتها فكريا بالقوى التبشيرية للوجود اليهودي كما سبق ذكره. ان عبارة الايرل شافتسبري واضحة للغاية في هذا الصدد ، حين قال . من هم أكثر الناس في العالم احتراما للتجارة وهل يجد اليهودي موقفا أو مجالا أفضل من سوريا لتنمية نشاطه(٨٧) . فلقد كانت الحركة المعنية وحركة ضاهر العمر وعلي بك الكبير أحد أهدافها الخروج من دائرة الوساطة اليهودية والتعامل مباشرة مع القوى الايطالية والروسية والأوربية بشكل عام .

خامسا : دور القوى اليهودية في المشروع الاستعماري الغربي فكريا واقتصاديا :

وكما كان للمشروع الاستعماري الأوربي حركته الوظيفية الفكرية ومرتكزاته الطبقية في المنطقة العربية كما سبق ، فان الدور اليهودي حمل نفسه على المشاريع الأوربية ، ولكن يمكن ان نميز في الدور الفكري كيف تم تهيئة المناخ من خلال تدعيم الحركات الانشقاقية مثل البهائية ، ولقد اعتمدت القوى اليهودية على اتجاه غير مباشر للغزو وتهيئة المناخ لقبول الكيان الجديد عن طريق الادعاءات الماسونية ، وبخاصة محفل سالونيك ، الذي أعد الخطط لتفتيت الدولة العثمانية فساند حركة « تركيا الفتاة » وكان قوادها مثل أنور باشا من الماسونيين المعروفين ، وكان اليهودي أبو نضارة وأديب اسحق صاحب جريدة « مصر الفتاة » من الماسونيين ، وانتشرت جمعيات « الفتاة » هذه وكان وراء جمعية تركيا الفتاة جناح الأحرار العثمانيين الذي انشق عام ١٩٠٢ عن جمعية الاتحاد والترقي وكان يمثل البورجوازية المتوسطة والصغرى البيروقراطية ، وكان المنتدى الأدبي ايضا وراء جميعة العربية الفتاة وطرح حزب « تونس الفتاة » شعار الأمة الجزائرية ــ التونسية وكان هذا الاتجاه المنادي بتعدد القوميات داخل الدولة العثمانية في صالح الفكرة الصهيونية حيث يضفي طابعا تسامحيا حول فكرة قيامها ، وكانت جمعيات الفتاة هذه مرتبطة بالجناح الفاشي من الدولية الاشتراكية الثانية التي يغلب عليها سيطرة القوى اليهودية الأوربية الغربية من البورجوازية الصغرى .

وبعد هذا كيف إذن سارت ميكانيزمات المشروع الاقتصادي اليهودي ، فلقد وضح الارتباط بين القوى الاقطاعية الموردة للمواد الأولية للدول الاستعمارية الأوربية وبين حركة الاستقلال عن الدولة العثمانية ، كذلك وضح الارتباط بين دور القوى الاستعمارية وعلاقة اليهود بهم في النشاطات التجارية والربوية ، والعلاقة بين اليهود والقوى الاقطاعية والراسمالية الزراعية ، وكيف استطاع اليهود من خلال القوى الماسونية تحييد دور البورجوازية الصغرى ، لقد عمل اليهود على السيطرة على البنوك

---

(٧٨) راجع في ذلك . د. عبد الوهاب المسيري ، الاقليات اليهودية بين التجارة والادعاء القومي ــ معهد البحوث والدراسات العربية ــ القاهرة ، ١٩٧٥ ص ٥٢ .

العقارية والتجارية كنقطة مبدئية للحصول على أرض فلسطين ، وكان البنك العثماني من أول الأهداف منذ مساعي هرتزل مع السلطان عبد الحميد ، ثم من خلال التحرك الالماني الاقتصادي في بنك المانيا المشرق والبنك الالماني الفلسطيني ولقد عملت مجموعة روتشلد واوبنهيم في البنوك الفرنسية مثل بنك فرنسا والأراضي الواطئة ، وظهر دوره واضحا في المجموعة التي راكمت ديون الخديوي اسماعيل ، وكذلك ديون مولاي عبد العزيز ، ومولاي الحفيظ في المغرب بعد ذلك ، وقامت مجموعة يهودية اقليمية وفرنسية في تدعيم وجود وسيطرة الكريدي ليونيه على الخزانة التونسية ، وسيطرت شركات عقارية دولية كانت تتعامل مع العقاريين الاقليميين اليهود مثل الشركة العقارية المراكشية الفرنسية ، والشركة الجزائرية ، وبنك الجزائر ، ومجموعة مرسيليا العقارية ، والمجموعة الفرنسية الافريقية العقارية وغيرها من الشركات العقارية التي انتشرت على طول البلاد وعرضها لتقسم الأراضي وتسلب القوى الاقطاعية التي رحبت بها اموالها في البورصات المالية المهتزة دائما لصالح اسقاط القوى المعارضة ورفع قوى جديدة لهذه اللعبة الاستعمارية ، وان ما رفضه الباب العالي العثماني عام ١٨٢٩ من قبل الوزير السامي البريطاني بونسنبي من اقتراح بتطوير الامبراطورية العثمانية وانقاذها من أزماتها الاقتصادية ، عن طريق المعادلة التي طرحها ، والتي كانت تقول بتحالف الخبرة والمال اليهودي مع الكيان البنائي العثماني لتحقيق النهضة العثمانية ! ! وكانت هذه نتيجته سواء برضى الباب العالي أم بغير رضاه ، ولم تحقق الخبرة اليهودية الا اهدافها ومات الرجل المريض بالطبع وتفتتت اشلاؤه لحساب المشروع الاستعماري الغربي والقوى الصهيونية المساندة له .

أ ـ قطاع التعدين النفطي كاحد مرتكزات الدور الوظيفي المتقدم للقوى اليهودية :

ولم يتوقف الأمر عند مستوى التجارة المتوسطة والطويلة والنشاط الربوي والعقاري والسيطرة المالية لليهود في عهد الاستعمار . بل انه مع اتساع اعتماد الثورة الصناعية الثانية بدات تزيد الحاجة الى البترول ، ولما كان تحالف روتشيلد وصموئيل ماركس وديترنج يسيطر على أكبر الاحتكارات الأوربية « رويال دويتش شل » وبعد ذلك « الانجلو ـ تركية والانجلو ـ فارسية » فاذا « بهند » أخرى تظهر في المنطقة العثمانية ولذا اطلق على المشروع اسم « الهند العربية » وكانت تقسيمات سايكس ـ بيكو التي حركتها القوى اليهودية لخدمة التقسيمات البترولية لصالح الاحتكارات البريطانية وتدعم ذلك في مؤتمر سان ريمو وفي القاهرة عام ١٩٢١هي تكريس لخطة كيرزون وروتشلد وفيلبي[(٧٩)] ولقد كانت المنافسة الاميركية لمجموعة « استندرد » مع الشركة « الهولندية ـ الانجليزية » منافسة قوية ، ولما كانت مجموعة استاندارد من احتكارات عائلة روكفلر وثيقة الصلة باليهود الاميركان. ، فلقد تدعمت الهجرات اليهودية لفلسطين وصاحبة الأولى عام ١٩٠٥ بقيام شركة استاندارد أويل أوف نيويورك بالتنقيب في المنطقة شرق فلسطين ،وبتوقيع اتفاقية الاكناكاري عام ١٩٢٨[(٨٠)] وقبول القوى الانجلو ـ هولندية والاميركية بتقسيم (الأمر الواقع) على أن تكون السعودية للأمريكان والعراق وايران والمشايخ للانجليز تكاتفت هذه القوى وراء تدعيم حق اقامة دولة قومية اسرائيلية لتدعيم النفوذ الغربي على منابع النفط ، وحراسته بقوى اقليمية ، وكانت القوى

---

(٧٩) KIRK, E., A Short History of The Middle East, London. 1964. pp. 58-71.

(٨٠) راجع في شان هذه البدايات كتاب اندريه نوشي ، الصراعات البترولية في الشرق الاوسط ، مترجم ـ دار الحقيقة ـ بيروت ١٩٧١ ، ص ص ٦٢ ـ ٨٥ .

اليهودية هي المرشحة منذ وعد بلفور الذي تلى تقسيم سايكس بيكو لمناطق النفط الأولى.وهكذا طورت القوى اليهودية وظيفتها من التعامل مع الرأسمالية والاقطاع الزراعي والعقاري الى التعامل مع القوى الاقطاعية البترولية ولو من باب تأمين خضوعهم للرأسمالية العالمية .

وهكذا تدعم دور القوى الاشكنازية الصهيونية العسكرية في فلسطين وظهرت الأهمية الحيوية للدولة الاسرائيلية في استراتيجية التحرك الاستعماري الغربي بكافة فروعه وعلى كل مستوياته . سنكمل الحديث عن هذا الدور للدولة المعسكر فيما بعد ، ولكن يهمنا هنا ان ننتقل الى دراسة دور القوى السفارية في الدول العربية ، وكما سبق ان قسمنا في مدخل التحليل للفترة قبل الاعلان الرسمي لقيام الكيان الاسرائيلي الصهيوني لن نفصل ما سبق ان أشرنا اليه من تحالف القوى اليهودية المحلية مع الجماعات المالية والعقارية الاستعمارية لسلب الأرض وجمع ثروات مشتقة من الربا والديون : دور مجموعة اوبنهيم وروتشيلد واضح في مصر ودور القوى المحلية مثل بكري وأي زناك اليهوديين الجزائريين التجار الذين تآمروا مع القوى الفرنسية ضد الداي في صفقة القمح المشهورة والدور المشبوه الذي قام به معهما القنصل الفرنسي بيير دوفال مسبب ادعاء مبرر الاحتلال واضح[٨١] . كذلك الدور الذي قاموا به في تمويل الحملة الفرنسية على تونس ، ودورهم في تفتيت القوى الدينية في المغرب بدعوى ان البربر قبل ان يسلموا كانوا يهودا ولا بد من العودة بهم الى اليهودية والمسيحية في الظهير البربري عام ١٩٣٠ .. ان التخصيص الذي نرمي له يعفينا من الحديث الطويل عن مثل هذه الأمثلة ، ولذا فان قصر تحليل حالة واحدة على سبيل المثال لا الحصر فيه فائدة واضحة لتتبع خطوط المشروع الوظيفي اليهودي .

ب ــ تحليل جزئي لحالة مصر في ظل المشروع الاقتصادي اليهودي بين الحربين :

لقد استطاعت القوى اليهودية في مصر ان تربط نفسها بالقوى الرأسمالية الزراعية والاقطاعية والبيروقراطية تلك القوى المرتبطة بالوجود الانجليزي في مصر بحكم توريد القطن والسيطرة الادارية ومع بداية الحماية البريطانية على مصر.زاد عدد اليهود القادمين الى مصر ، وفي عصر الملك فؤاد (١٩١٧ ــ ١٩٣٦) رسخت اقدام اليهود في البلاد مستفيدين في ذلك من الأزمة الاقتصادية العالمية في الحرب العالمية الأولى ومن أزمة ١٩٢٩[٨٢] واستطاعت ان تتحكم في توجيه الاقتصاد المصري في هذه الفترة الوجيزة عدة عائلات يهودية مثل عائلة « رولو » و « موصيري » و « عاداه » و « عدس » و «قطاوي» و «شيكوريل» و «جاتينيو» و «منشه» و «مزراحي» ، وقد غطى نشاطهم معظم مجالات المال والعقار ،فتحكموا في البنك العقاري المصري الذي أسسه عدد من البيوت الربوية مثل « سوارس » و « رولو » و « قطاوي » بالتعاون مع « الكريدي ليونيه » و « السوسيتيه جنرال » ، وكان اليهود يشتركون في ادارة « البنك الاهلي المصري » مثل فيكتور هراري باشا ، والسير روبير رولو ، ولقد كان البنك الاهلي يقوم بدور المصرف المركزي آنذاك ، وبالتالي تتضح خطورة السيطرة اليهودية عليه وتأثير الشبكة المالية اليهودية في الاستفادة منه ، وكان اميل نسيم عدس وروبير رولو يشاركان في البنك البلجيكي والدولي بمصر ، وكانت عائلة موصيري مع عائلة كورييل تملكان بنك موصيري وعائلة

---

(٨١) لوتسكي م.س.ذ ، ص ٢٠٤ .

(٨٢) LANDAU, J., Jews in nineteenth century Egypt., N. York. 1969.

سوراس تملك بنك سوارس ، وكانت الشركة المصرية لتوظيف الأموال والتسليف يسيطر على مجلس ادارتها كل من أيمانويل ناكومولي وسلفاتور شيكوريل ، وشركة الاسكندرية للتأمين يسيطر عليها أميل عدس والبير مزراحي وشركة التأمين الأهلية يسيطر عليها اصلان قطاوي وموريس نسيم موصيري. كان هذا في مجال التأمين. أما في مجال العقار فقد كان ابيرامينو اشير هو المدير العام لشركة اراضي الشيخ فضل العقارية ، ويسيطر شارل شالوم وأصلان قطاوي وإميل نسيم عدس على شركة الاتحاد العقاري المصري. وكانت عائلة عاداه تسيطر على شركة البحيرة المساهمة. وجويدو ليفي وهنري موصيري يسيطران على ادارة الشركة العربية العقارية . وقطاوي ورولو يسيطران على شركة وادي كوم امبو المساهمة. وموصيري ويوسف عاداه على الشركة الغربية العقارية . وكانوا يسيطرون ايضا على شركة اسواق الخضر المركزية المصرية المساهمة والشركة العقارية لحي محطة مصر والشركة العقارية المالية بالقاهرة ، وشركة اراضي الدقهلية ، والشركة المصرية الجديدة ليمتد ، والشركة المساهمة العقارية لتفتيش السيوف ، وشركة الأشغال والمباني المصرية ، وفي مجال النقل كانوا يسيطرون على شركة الاوتوبيس العمومية المصرية ، وشركة سكك حديد الفيوم ، وشركة ترام الاسكندرية ، وشركة سكك حديد الرمل ليمتد ، وشركة سكك حديد قنا ، وشركة بواخر البوسته الخديوية ، وشركة الملاحة بالمنزلة ، وبالطبع كانوا يسيطرون على مصانع ادوات البناء المكملة للنشاط العقاري ، مثل شركة الطوب الأبيض الرملي ، وشركة المباني المصرية المساهمة ، وشركة المقاولات الأهلية المصرية ، وشركة التبريدات المصرية ، وكذلك الصناعات النسيجية لاستغلال القطن المصري ، مثل شركة صباغي البيضا ، ونسيج القاهرة والمنسوجات المصرية ، وشركة اقطان بنتو ، وشركة الملابس والمهمات المصرية ، وشركة المحلات الصناعية للحرير والقطن . وغيرها .. كما سيطروا على وقود المصانع في شركة البترول المصرية وشركة البترول الوطنية وغيرها. والنشاطات الاستهلاكية والسياحية ، مثل شركة فنادق مصر الكبرى ، وشركة نادي سباق الخيل بالاسكندرية ، وشركة جوزي فيلم وشركة الفنادق المصرية ليمتد . وذلك على سبيل المثال لا الحصر فهناك العديد من الشركات الأخرى التي لا يتسع المجال لذكرها[٨٣] ولكن اكتفينا هنا بايضاح اتساع مجالها ابتداء من السيطرة على البنك الأهلي المصري وانتهاء بنوادي سباق الخيل . هذه الشبكة الاقتصادية الواسعة التي تسيطر عليها البيوتات الاحتكارية الرأسمالية اليهودية بالتعاون مع الرأسمالية الأجنبية، ولكن تبقى ملاحظتان الأولى نوع ونطاقات النشاطات فالواضح انها مرتبطة بالجوانب العقارية والتأمينية والزراعية والاستهلاكية ولا يوجد اثر واضح لنشاط اقتصادي في صناعات اساسية . اما الملاحظة الثانية فهي الزمن القياسي الذي تكونت فيه هذه السلطة الاحتكارية . والتي لا يمكن تعزية السبب للعبقرية اليهودية التنظيمية كمقاولين Enterpreuners وكومبرادوريين للرأسمالية العالمية خاصة ان الرأسمالية العالمية في فترة ما بين الحربين كانت في أزمة عالمية اقتصادية. إذن السؤال قد يكون الذكاء اليهودي ولكن اي نوع ذلك الذكاء الواضح ان لا علاقة له بالأساليب النظيفة ولقد دفع الشعب المصري بكافة طبقاته وهم عاشت فيه شريحة كبار الملاك والرأسمالية الزراعية والعقارية ولم تفق منه الا بعد الحرب العالمية الثانية لتترك فدح المغامرة الاقتصادية مع الرأسمالية الاستعمارية وحليفتها القوى الصهيونية المحلية مثلها في ذلك مثل العديد من القوى في الدول العربية الأخرى ولكن بعد أن

---

(٨٣) هنالك تفصيل جديد لهذه الشركات ، في كتاب احمد محمد غنيم واحمد ابو كف ، **اليهود والحركة الصهيونية في مصر** ١٨٩٧ ــ ١٩٤٧ ، كتاب الهلال العدد ٢١٩ يونيو ١٩٧٩ ص ص ٥٤ ــ ٨٤ .

اصبح المشروع الصهيوني قد انتقل الى مرحلته التالية مرحلة الكيان الصهيوني العنصري المزروع في قلب الأمة والقائم حارسا على ثروتها المعدنية نافضا يده من النشاطات الكلاسيكية العقارية وغيرها وهنا وجب على السفارديم في الدول العربية بعد انتهاء مهمتهم في تامين الموارد الزراعية ان ينتقلوا الى الكيان الصهيوني ليؤمنوا الموارد المعدنية النفطية لقوى ما بعد الحرب العالمية الثانية فالنفط بات أهم من المنتجات الزراعية وخطوط التجارة بعد ان انتشرت وسائل النقل السريع وحدثت الثورة التقنية الزراعية .

سادسا : تبلور الكيان الصهيوني ـ الاسرائيلي بنائيا وتطور المشروع الوظيفي اليهودي :

وهكذا تبدأ مرحلة أخرى في تاريخ تطور الدور الوظيفي اليهودي الاقتصادي في الكيان البنائي العربي. لقد كان الدور الاسرائيلي في هذه الفترة يمارس دور الحارس الاقليمي على الثروات النفطية لحساب الاحتكارات البترولية العالمية التي يسيطر عليها ايضا مجموعة استاندرد وشل وكلاهما تسيطر عليهما وعلى غيرهما القوى الصهيونية العالمية.ففي مقابلة أجراها حاييم وايزمان مع الرئيس الأميركي ترومان في ١٩/١١/١٩٤٧وليقنعه بجدوى التقسيم وأهمية الوجود اليهودي في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية وبعد ان انتقلت مراكز الثقل الرأسمالي من السيطرة الأوروبية الى السيطرة الأنجلو أميركية لجأ وايزمان الى منطق القوى الوظيفية الاقتصادية فأشار الى أهمية الوجود الاسرائيلي الممتد والمسيطر على النقب لأن مصر بعد فترة وجيزة ستطالب بملكية قناة السويس وتتخذ من عملية اغلاقها اداة للمساومة السياسية . وبعد ان بدأ العرب في التفكير في استخدام وقف ضخ النفط كأداة للحصول على الاستقلال السياسي في مؤتمر بلودان ١٩٤٦ أصبحت هنالك خطورة لو وصلت انظمة ثورية الى دول الهلال الخصيب في عرقلة تقديم النفط الى الدول الغربية وبالتالي حسب قول وايزمان ستسعى هذه الدول الى ابتزاز الدول الصناعية الرأسمالية خاصة اذا تسللت الشيوعية الى هذه الأنظمة ولذا فان امتداد حدود اسرائيل حتى ميناء العقبة سيتيح فرصة قوية لضمان خطوط النقل للنفط الايراني وايضا للتأنيب العسكري للدول التي تفكر في تهديد « الحضارة الغربية » ! ! وحصل وايزمان على المساندة الأميركية بالطبع على مشروعه خاصة ان ليون بلوم الفرنسي عقد معاهدة مع لندن عام ١٩٤٦ لضمان حماية اقامة دولة جديدة تحافظ على خطوط الأنابيب في المنطقة العربية واتجاهات الحفر في منطقة جنوب لبنان التي كان يرمي الى ان تسقط في ايدي اسرائيل . ومن جانب آخر كانت شركة أرامكو الأميركية تزمع قيام الخط الخاص بها لمنافسة الخطوط الخاصة بالشركة البريطانية وكان اتجاه الخط الى البحر المتوسط عن طريق المنطقة جنوب لبنان .. ولكن عندما ادركت فرنسا خطورة هذا الاتجاه على مصالحها قاومت الاطماع الاسرائيلية في جنوب لبنان في حالة قيام الدولة الاسرائيلية وكان ذلك عام ١٩٤٧ . ولكن الكيان العنصري الاسرائيلي الذي قام منذ ١٩٤٨ لم يحقق المساحة الأرضية التي تحقق هذا المجال الحيوي ولذا بدأت الولايات المتحدة خطتها في الداخل المباشر دون الاعتماد فقط على اسرائيل فبدأت بانقلاب حسني الزعيم في سوريا لتأمين خط الانابيب العراقي في طرطوس وبالتحديد الاستيلاء عليه في الصراع الذي بدا حول خلق وضعية جديدة في المنطقة خلاف لتقسيم اكناكاري ١٩٢٨ . فوفق تقرير بالي الذي نشر عام ١٩٥٢ تم رسم السياسة الأميركية في الشرق الأوسط على أساس تأمين الدور النفطي ذلك لانخفاض الانتاج الداخلي الاميركي وتزايد الصراع بظهور قوة الشركات البترولية الجديدة المستقلة الأميركية في اميركا اللاتينية وداخل الولايات المتحدة

نفسها واتخاذ الاحتياط الأميركي حـالة الطوارىء لمساندة دور الشركات الأميركية الاحتكارية في الشرق الأوسط وهو ما ارتبط بالأيدي الأميركية وراء الأحداث في إيران تم في مصر في الفترة من ٤٩ الى ١٩٥١ لازاحـة القوة الانجليزية .

أ ــ دور الكيان الاسرائيلي في عرقلة الحركة القومية البنائية والقومانية الوظيفية :

أ ــ ولما كان خط كركوك ــ حيفا البري قد توقف منذ قيام الكيان الاسرائيلي فلقد بدأ التفكير في ضرورة الوصول الى العقبة ولذا فانه حتى بعد قرار الهدنة عام ١٩٤٩ استولت اسرائيل عنوة على منفذ الى العقبة ومنذ عام ١٩٥٤ بدأت اسرائيل تفكر في انشاء خط ايلات ــ حيفا ولذا كان هذا يفرض عليها التوغل ومد خطوطها داخل خليج العقبة وكان هذا يفترض التوسع العمراني في النقب ولذا استندت اسرائيل على تقرير « اريك جونستون » لاستصلاح النقب بمياه الحاصباني اللبناني واليرموك في سوريا والأردن واحتمال الحصول على مياه النيل لذلك ايضا والذي وضع هذا المشروع اريك جونستون هذا كان خبيرا بالأمم المتحدة ووضع بهذا مبررا وظيفيا اقتصاديا للضربة الاسرائيلية في الدول العربية عامي ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ . ورغم الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي التي اعتدت عليها في هذه الحرب فلقد أمكنها تدعيم وجودها علي خليج العقبة وبدأت تفكر في بناء خط أكثر تطورا ويتلافى عقبات مشروع ايلات ــ حيفا وذلك من الحليفات الى بير سبع ثم الى حيفا وبدأت تنفذ المشروع عام ١٩٦٠ ومن اجل هذا تعتبر استراتيجية الالتفاف المصري عن طريق اليمن قطع الأمل على هذا الطريق وعلى إمكانية استغلال خليج العقبة(٨٤) ولما كانت الشركات المستقلة الأميركية والأوربية بدأت تأخذ طريقها للتنقيب غرب قناة السويس وخاصة في مصر في حقول سيناء فلقد زادت الأطماع الاسرائيلية في هذه المناطق وشجعتها الشركات النفطية الاميركية المستقلة لضرب نفوذ الشركات الاحتكارية بغلق القناة ولضرب نفوذ الشركات الاوربية ايضا وخاصة في مصر . ووضع حد لأي احتمال لتدعيم اسطول القوى الناقلة المستقلة وخاصة الاوربية مثل اسطول اوناسيس الذي يحوم في المنطقة منذ عام ١٩٥٦(٨٥) خاصة وقد حاول الملك سعود ان يتعامل معه ويقوم بجولة في دول شمال افريقيا ليدعم وجود السياسات النفطية المستقلة عن الاحتكارات .

ولقد استفادت الشركات الجديدة النفطية الاميركية المستقلة من اغلاق قناة السويس لتدعيم انتاجها في شمال أفريقيا واستفادت اسرائيل ايضا من هذا الاغلاق في الاستيلاء على بترول سيناء وخليج السويس(٨٦) وفي دعم مشروعاتها التكريرية وتدعيم خط ايلات ــ عسقلان لنقل البترول الايراني.وقد أدى كل هذا الى تدعيم ارتباط الحركة اليهودية واتساع مرتكزاتها الأميركية وخاصة في الحزب الديمقراطي بينما كان نشاط القوى الاحتكارية النفطية في تعاملها مع الارستقراطية اليهودية الأميركية يتم من خلال الحزب الجمهوري. وهكذا كانت اسرائيل دائما في موقع المركز من التخطيط لكل من القوى الاحتكارية النفطية أو من خلال الحزب الجمهوري أو من خلال القوى المستقلة النفطية

---

(٨٤) See Swadrian. B., **Middle East Oil and The Great Powers.** Jerusalem 1973 and also; Alexander S., **The Middle East Economical and political corporates** ., Studies from a research program of the Rand Corporation 1972.

(٨٥) بيير فونتين ، **السباق الجديد نحو البترول** ــ مترجم بمصر من مجموعة اخترنا لك بمصر عام ١٩٦٢ ص ٩٢ .

(٨٦) راجع في هذا الشأن دراستنا المعنونة باسم ادعاءات حول ثروات سيناء المعدنية بالاهرام الاقتصادي العدد ٥٦٢ ــ اول فبراير ١٩٧٩ ص ص ٢٧ ــ ٢٩ .

الأميركية الجديدة من خلال الحزب الديمقراطي الاميركي .وهكذا تطور المشروع الوظيفي الاسرائيلي بتنسيق القوى الرأسمالية الدولية وخاصة الاميركية في التنظيم الراسمالي الدولي المعروف باسم اللجنة الثلاثية واستفادت اسرائيل من أزمة الطاقة التي احاقت بنشاطات الشركات الاحتكارية غرب السويس في المساومة كوكيل اقليمي بين المصالح الاحتكارية النفطية غرب السويس والمصالح المستقلة الاميركية النفطية شرق السويس وكان تدخل الادارة الأميركية المباشر بحكم ازمة الطاقة التي اخذت شكلا دعائيا أكثر منه واقعيا .ويرد مساندة هذه الادارة للشركات الاميركية عامة ان تدعمت العلاقة بين الادارة الاميركية والنشاط الاقليمي الاسرائيلي من خلال قوى الراسمالية العالمية .

ب ـ صعود القوى اللاقومية الكومبرادورية وتدعم الموقف الوظيفي الاسرائيلي :

ومع زحف القوى الجديدة واتساع قاعدة الهرم المساند الصهيوني وسيطرة القوى اليهودية البورجوازية المتوسطة من خلال الادارة الأميركية وتصاعد القوة للحزب الديمقراطي وللقوى الاشتراكية الديمقراطية للدولية الثانية التي تخضع للنفوذ اليهودي والصهيونية العالمية والأوربية. ومع دخول التنظيمات السياسية المصرية واتصالها بهذه القوى مع بداية السبعينات وخاصة قوى الاشتراكية الديمقراطية والتحولات التي طرات على توجهات القوى الحاكمة في مصر من المرحلة القومية التي تبعت وصول البورجوازية للحكم عقب تولي الضباط الأحرار السلطة ثم المرحلة الاستقلالية التحررية في الستينات كما سبق الاشارة وهي المرحلة القومانية نقول باعادة توجه الطبقة البورجوازية المصرية نحو الانفتاح على الاتجاهات الغربية واعادة النظر في اتجاهاتها القومية أو بالتحديد في مشروعها الوظيفي القومي في المرحلة القومانية بعد ان تطور من مجرد اتحاد بنائي في الخمسينات في المرحلة القومية. وكان هذا كله بعد الاحباطات التي ساهمت في تحقيقها الضربات الخارجية والداخلية للتحالف الاسرائيلي ـ الأميركي ـ الصهيوني ـ مع القوى الداخلية المناوئة للمشروع العربي . بدأت فكرة أو امكانية التعايش الاسرائيلي ـ المصري ويمكن العربي .

لقد جاءت التطورات النفطية في الأسعار قبيل حرب اكتوبر لتدعم اتجاه اعادة فتح القناة لتخفيف وطأة الأسعار على الراسمالية العالمية ولتطوير الاقتصاد الاسرائيلي لقد كانت المشروعات المصرية بفتح القناة والانسحاب الجزئي تسير في نفس هذا الاتجاه. فقط جاءت حرب أكتوبر لتعادل الاعتبارات النفسية على مائدة المفاوضات ولاعطاء الحبكة الدرامية في خط سير الأحداث(٨٧) فقصور حرب اكتوبر عن ان تكون من حروب المرحلة القومانية واتجاهها الان تعبر عن المرحلة اللاقومية المحلية والاقليمية ينأى بها عن مفهوم التحرير الكامل بالقوة العسكرية.ومع كل فقد تطورت الاحداث في هذا الاتجاه أي في اتجاه تدعم الدور الوظيفي في كافة مستوياته والكيان البنائي الاسرائيلي وفي نفس الوقت في اتجاه التحطيم البنائي للقوة العربية الموحدة والخلل الوظيفي أيضا. وجاء تحطيم لبنان كسوق مركزي عربي في هذا الاطار الحركي الذي يرمي الى انتقال القوة والدور الى اسرائيل .

---

(٨٧) راجع في تطورات الحرب والظروف التي سادت قبلها وما يدعم هذه الرؤية من الاحداث كتاب جون بولوك ، الاعداد للحروب من ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ، مترجم في وزارة الاعلام كتب مترجمة رقم ٧١٨ . وكذلك كتاب جان كلود جوبيو ، الايام المؤلمة في اسرائيل مترجم في نفس الهيئة تحت رقم ٧١٣ والترجمة التي قام بها الدكتور راشد البراوي لكتاب بيتر اوديل القيم ، النفط والقوة العالمية ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧
See also: RABIN, Continued dialogue towards peace, (in) Israel Year book 1975 pp. 16-19.

ج ـ التطورات في المشروع الاقتصادي الامبريالي العالمي وانعكاساته الاقليمية على اسرائيل :

وهكذا نعود لبداية حديثنا في هذه الدراسة. فمنذ بداية السبعينات ونتيجة لتطور في طبيعة الهيرارشية الرأسمالية وايضا لتطور الحوار الثلاثي والحوار عبر الاطلنطي أعيد النظر في مسألة السلطة الامريكية المطلقة بعد ضعف الدولار منذ منتصف الستينات. ورؤى ضرورة اعادة توزيع هذه السلطة في اطار تنسيق شامل. هذا الاتجاه اللامركزي اصبح يسمح بقيام وحدات تكامل اقليمي مع وجود العلاقات العمودية بين المركز الراسمالي والدول المتعاونة معها اقتصاديا. هذا الاتجاه مع ميل الشركات العابرة الجنسية[88] الى التخلي عن بعض حلقاتها الانتاجية المتخلفة الى مقاولين اقليميين بدأت أهمية تطوير المشروع الاقتصادي الاسرائيلي في ضوء هذه المعطيات. فتم ضرب المشروع المصري والقومي العربي المستقل عام ١٩٦٧. وتدعمت قوى الكومبرادوريين في مصر فأصبحت الأرضية قوية لتقبل فكرة المشروع الاسرائيلي ـ المصري الاقتصادي في ضوء ان تلعب اسرائيل دور المقاول الاقليمي للرأسمالية العالمية. كان تقسيم العمل الاقليمي ان تصير اسرائيل اشبه بيابان الشرق الأوسط ومصر بكوريا الجنوبية أو تايوان في علاقاتها مع اليابان. وكان هذا الطموح الاقتصادي الاسرائيلي في الانتقال من مستوى عسكري الشرطة الاقليمي الى المقاول الاقتصادي او كلاهما معا بمنطق « العصا والجزرة » يفترض ان يكون هنالك حجم امثل مبدئي للمشروع ما يلبث ان يتوسع في اطار تقسيم واضح للعمل وسوق واسعة في دول مجموعة الاشتراكية الديمقراطية الافريقية على وجه الخصوص والتي كانت مرتبطة منذ فترة بعلاقات وثيقة مع الهستدروت وأيضا مع الصراع العربي ـ الاسرائيلي فيما يعرف باسم لجنة الحكماء العشر.

د ـ التطور الاقتصادي الداخلي في اسرائيل وحتمية التوجه الانفتاحي الاقليمي :

لقد ارتبط البحث الاسرائيلي عن التوسع الاقتصادي بعوامل داخلية حادة كانت تفرض عليها هذا الاتجاه. فمن جانب وصلت اسرائيل عام ١٩٦٦ الى اعلى عجزلها في ميزانها التجاري وصل الى ٤٦٥ مليون دولار ووصلت الديون الاسرائيلية حتى عام ١٩٧٦ الى ١٠ مليار ليرة اسرائيلية[89] وزادت عام ١٩٧٦ الى ٢,٢٦٢ ليرة. اي بإجمالي قدره ٧,٦ بليون دولار في نهاية ١٩٧٥ و ٩ بليون عام ١٩٧٦ و ١٠,٥ بليون دولار في نهاية ١٩٧٧[90] وبعد توقف المعونة الالمانية منذ نهاية الستينات وضعف المعونة الخارجية في ضوء اعادة التوزع اللامركزي للهرم الرأسمالي العالمي. وبعد ان وصل الغلاء في اسرائيل الى ان يعاني من موجات تضخمية حادة وصلت الى ٦٠٪ وزاد حجم البطالة الى ١٦,٠٠٪[91] وعدم قدرة السوق المحلية على استيعاب العديد من المنتجات المحلية لتدني كفاءتها ولنجاح المقاطعة العربية في سد المنافذ في العديد من الدول الافريقية التي كانت تستوعب مثل هذا الانتاج وبصعود قوى البورجوازية المالية محل البورجوازية الصناعية في اسرائيل[92] كان لا بد من وصول ليكود الى الحكم لانه يمثلها. وبدأت الدعاوى الى الانفتاح تسبق هذا الصعود واطلق البعض عليها اسم الصهيونية

---

(٨٨) RABINOWITZ. Y. Fight inflation in cooperation With The World Bank. (In) **Israel Year book** 1975 p. 35.

(٨٩) عل همشمار ١٩٧٨/٥/١٨ .

(٩٠) دافار ١٩٧٨/٣/٧ .

(٩١) BAR-LEV, H. - Main Problems. of Israel Economy (in) **Israel Year book**. 1975. P.39.

(٩٢) عل همشمار ١٩٧٨/٤/١٢ .

الجديدة[٩٣] دعم كل هذا من الحاجة الى تطوير نظرية الامن القومي الاسرائيلي والحاجة الى الاندماج في نظام اقليمي[٩٤] لان الاستمرار في العداء فقط يعني استمرار الحروب والاتفاق العسكري دون عوائد أو دخول . ان هذه الدخول يمكن ان تأتي من نظام اقتصادي اقليمي يعيد تقاليد الكومنولث القديم محاطا بقوة عسكرية تدعمه ولذا كان الاتجاه ان تبدأ قوى التفاوض مع الدول العربية فرادى ويكتفي بالتوسع بلدا بلدا . وفق سياسة الخطوة خطوة مع الحفاظ بالطبع على الترسانة العسكرية لما لها من دور ايديولوجي وتعبوي وعقيدي ووظائف أخرى متعددة في التطور التكنولوجي ايضا . ولذا زادت ميزانية الحرب لتشكل من ٥٠,٤٪ من اجمالي الميزانية الاسرائيلية عام ١٩٧٥ الى ٥٦,٧٪ عام ١٩٧٦ مع زيادة النسبة المطلقة للميزانية بالطبع[٩٥] .

هـ ـــ انتقال وظيفة المواجهة والصراع العربي من المركز الى الهامش بنائيا واحتمالها الوظيفي :

ان هذا العرض السابق لا يحتاج الى مزيد من التعليق فهو يتحدث عن نفسه بكل الابعاد، فقط نود الاشارة الى ان التعايش الوظيفي جاء كمرحلة متقدمة في سلسلة مراحل تسير وفق جدولة حتمية متسقة. ان انتقال الوجود اليهودي من مرحلة الى مرحلة كان يسير ويتزمن مع التاريخ بوعي قوي بقوانينه بينما كان التاريخ العربي ببنائيته الجامدة يكتفي بالتزامن. ولكن حتمية التطور ستدفع الى اكتمال حلقة التحليل فالتكوين الاسرائيلي العنصري احد ثمار الرأسمالية العالمية رهن بتحولاتها مهما بلغت مرونته مرونتها. فقط ان التوسع الاقتصادي اعطى للمشروع الاسرائيلي حجمه الأمثل ونقله الى مرحلة جديدة لو لم تكن تتم لانفجر المجتمع الاسرائيلي من داخله بعد تصاعد اضطراباته ومشاكله .. فقط كان الحصار الاقتصادي والدبلوماسي حتى دون الدخول في حروب كفيلا بحل هذه المشكلة . هل تنجز هذا الطريق المتواضع قوى الهامش العربي بعد ان دخل المركز المصري في السلام ؟ .

---

(٩٣) دافار ١٩٧٨/٢/٣ .

(٩٤) See BRECHER. M - **The Foreign Policy System of Israel,** Oxford University, 1972.

(٩٥) مجلة المستقبل ، العدد العاشر ، ١٩٧٧ ـــ باريس ص ٤٦ .

See also, BERGER, L., Israel's Economy problems. (in) **Israel Year book** 1978, p. 55.

أحمد الشقيري ،
الطريق الى مؤتمر جنيف
(الكويت . ؟) .

د. علي سعود عطية

مؤلف هذا الكتاب ،وهو الاستاذ أحمد الشقيري ، ليس بحاجة كبيرة للتعريف . ولكنه يجدر بنا أن نذكر هنا أمرا له علاقة بكتابه ، الذي نعرض له في هذه الدراسة : ذلك ان الشقيري من الكتاب القلائل ، في وطننا العربي ، الذين يمتازون بتجربة سياسية عريضة ويعبرون في كتاباتهم عن معاناة حقيقية وأصيلة . فقد عاصر الشقيري العمل السياسي في فلسطين ، منذ وقت مبكر ، يعود الى أواخر العشرينات ، واستمر على ذلك حتى وقتنا الراهن . وفي كل الاعمال والمناصب التي تقلب فيها ، كانت القضية الفلسطينية ، باعتبارها قضية العرب الأولى ، تسيطر على بؤرة شعوره ، وتحتل من اهتماماته المكان الاسمى . واكثر التجارب التي هي ذات صلة مباشرة وحميمة بمؤلف الشقيري ،الذي هو قيد معالجتنا هنا ، هي تجربته في اروقة الأمم المتحدة ومنابرها ، والتي سلخ الشقيري فيها ردحا غير قصير من الزمن ، ودافع فيها بحماس واخلاص ووعي ، عن امهات القضايا العربية ، مثل القضية الجزائرية فضلا عن القضية الفلسطينية .

ينطلق الشقيري في كتابه « الطريق الى مؤتمر جنيف » من مقولة اساسية مؤداها أن مؤتمر جنيف ـ كمؤتمر ـ ليس هو الحل ! ويستوجع الشقيري ، من أجل اثبات وجهة نظره هذه ، الهزائم التـي لحقـت بالقضيـة الفلسطينية ، في اهم مؤتمرات السلطة الدولية الأعظم ، الامم المتحدة ومجلس الامن ، ويعتبر الشقيري ان عقدة الضعف القاتلة في هذه المؤتمرات ، هي أنها لا تعالج القضايا المصيريـة للشعـوب ، من موقـع العدالـة والانصاف والحق المطلق في تقرير المصير ، بمقدار ما تعالجها من منطق المساومة . ومن هنا فهي لا تتعامل مع هذه القضايا ، فتحسمها في العلن والجهر ، بمقدار ما تتعامل بها في الكواليس والدهاليز . وعلى هذا فهو يشكك فيما يصدر عن هذه المؤتمرات من تعبيرات ظاهرها البراءة وباطنها غير ذلك . مثل المفاوضات والصلح والمعاهدات ويرى أن هذه التعبيرات المتداولة وما يرافقها عادة من ممارسات ، تخفي تحتها التآمر على حقوق الشعوب ، كما يكمن وراءها ايضا ضياع الأوطان ، ويسوق الشقيري ، وهو ابـن فلسطـين ، « الوطـن الفلسطيني » كمثل بارز على هذا الضياع . ويقول « ان حوزة الاوطان ليست موضع الخلاف » (الكتاب ص ٢٠٢) ، كما يقول « وحاشا لله ان يكون الوطن محل مساومة » (الكتاب ص ٢١١) .

ومن اجل ان يدلل الشقيري على مصداقية اطروحته في ضياع حقوق الشعوب الضعيفة على اعتاب السياسة الدولية يذهب الى ان هذه السياسة تحكمها معادلة قاسية ، اهم اطرافها هما العملاقان الدوليان : الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة اللذين تحركهما مصالحُها قبـل اي اعتبـار آخـر . وفي سبيـل توكيـد هذه الاطروحة ، يعود بنا الشقيري الى حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، التي يعتبرها أعظم هزيمة في تاريخ العرب منذ الحروب الصليبية . فهو يعتبر هذه الحرب ، وما تلاها من مؤتمرات ، مقدمة افضت الى ما تعانيه القضية الفلسطينية الآن في سوق السياسة الدولية ، ويتطرق الشقيري هنا الى مؤتمر جنيف (١٩٧٧) الذي هو المحور الاساسي للكتاب فيقول « وستمر الأيام والشهور والاعوام ، ويأتي بعدها مؤتمر السلام في جنيف في ربيع ١٩٧٧ تحت رعاية الدولتين العظميين ، أما حجـر

الأساس فقد وضع في نيويورك قبل عشر سنوات على يد الرئيسين العملاقين ، جونسون وكوسيجين ، والويل كل الويل لمن يرميه القدر بين عملاقين رحيمين حبيبين ! » (الكتاب ص ٤٥) ويضيف الشقيري الى ذلك قوله أن حرب ١٩٦٧ هي التي جعلت « الوطن الفلسطيني في صميم هذه الصفقة » بين هذين العملاقين ويبين الشقيري بمتابعة دقيقة يعود فيها إلى أرشيف الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، دور هذين المدبرين في القضية العربية ، ساعة فساعة ويوما فيوما . فهو يتحدث عن قرار وقف اطلاق النار الذي لم يسمح بالعودة الى خطوط ما قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ . كما يتحدث عن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والذي يعده هزيمة سياسية منكرة ويقاربه بوعد بلفور ، على الرغم من أن أجهزة الاعلام — التي يصفها الكاتب بأنها محتلة من الحكام العرب — اعتبرته نصرا مبينا . « وبعد صدور هذين القرارين انطلق الحكم العربي المعاصر يعلن للجماهير العربية عن طريق أجهزته الرسمية ، ان مجلس الأمن قد قرر « الجلاء الكامل من غير شروط ولا قيود ، واستعادة الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني ، مع أن القرار لا ينص على أحد من هذين الأمرين . الى جانب ذلك حملة اعلامية ضخمة في تمجيد قرار مجلس الأمن حتى أصبح تنفيذه مطلبا قوميا رفيعا ، تماما كمطالبنا الوطنية السابقة في الاستقلال التام والموت الزؤام » (الكتاب ص ١٩)

وتاييدا لوجهة نظر الكاتب في أن الخلل في مثل هذه القرارات الصادرة عن مجلس الأمن والأمم المتحدة ، انما هو على مستوى القمة ، ومن أجل أن لا يفرق ايضا بين دور العملاقين من القضية العربية ، فهو ينقب عن دور الاتحاد السوفيتي الصديق الظاهر للعرب ، فيجد أن موقفه متخاذل في تبني القضية الفلسطينية ، ويعزو ذلك الى سياسة الوفاق الدولي التي تتعامل مع القضايا المختلفة حسب أولويات معينة . فهو عندما يتحدث عن الدورة الطارئة التي تلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ يقول : « واضح من تصريحات الرئيسين ان الدورة الطارئة قد طرأت عليها أمور أهم وأعظم من الشرق الأوسط وحاضره ومستقبله والويل لمن يكون على جدول العملاقين .. انه يفقد القدرة على تقرير المصير بل رؤية المصير » (الكتاب ص ٤٤) . ويركز الشقيري على موقفين بارزين من مواقف هذا الوفاق الدولي : اتفاق غلاسبورو (١٩٦٧) الذي جاء بعد حرب ١٩٦٧ ، واتفاق كوسيجين كيسنجر الذي عقد بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

ونحن لا ندري الى أي مدى نستطيع اعتبار موقف الشقيري من الالقاء باللائمة على الاتحاد السوفيتي في تفريطه بالقضية الفلسطينية — وبخاصة في المنبر الدولي — مبررا ، وبالذات اذا قسنا هذا الموقف بموقف الولايات المتحدة ، في هذا المنبر ، ولكن موقف الشقيري يحتمل الكثير من التبرير ، اذا تذكرنا ان الولايات المتحدة وهي زعيمة العالم الغربي — العالم الامبريالي — ملتزمة التزاما كاملا باسرائيل ، بينما الاتحاد السوفيتي ، وهو المفترض فيه انه العدو الأول لهذا العالم الامبريالي والصديق للشعوب المستضعفة في العالم الثالث ، لا يلتزم بنفس الصورة بهذه الشعوب . وعلى أية حال فان الشقيري لا يحاول ان يحاسب الموقف العربي على موقفه من الاتحاد السوفيتي والتزامه به — كما هو موقف اسرائيل من الولايات المتحدة مثلا — ولا أدري لماذا يتجاهل الشقيري هذه الناحية ، وهو استاذ ماهر في السياسة ، نظرية وممارسة ، ويدرك انه لا توجد في قاموس السياسة الدولية صداقة دائمة بل مصالح دائمة . كما انه ينبغي على العرب ، أن يساعدوا انفسهم اولا ، إذا ارادوا للآخرين ان يساعدوهم بنفس الدرجة . هذا إذا لم نقل مع البعض ، ان اقدس الأيدلوجيات ، تخفي في طياتها مصالح الدول التي وضعتها ، ولا يمكن ان تتعارض هذه الايديولوجية ، مع المصالح الحيوية لهذه البلاد .

وهذا سيجعلنا ندخل في الجانب الآخر من القضية التي يثيرها الشقيري ، والمتعلقة بالدور العربي السياسي والعسكري . ومجمل القول هنا ان الشقيري يعتبر الجهد السياسي العربي بعد حرب حزيران ١٩٦٧ على صعيد الأمم المتحدة ، وخارجها (مؤتمر الخرطوم) ، جهدا فاشلا ، ويطلق عليه باسلوبه البلاغي الخطابي المعروف ، « هزيمة عسكرية فادحة في الوطن العربي وهزيمة سياسية فاضحة في المنظمة العالمية » (الكتاب ص٥). ومع ذلك فان الشقيري يعتبر هذه النتائج السياسية محكومة بالهزيمة العسكرية التي املتها .

لكن الشقيري ، من ناحية أخرى ، يرفض رفضا باتا النتائج السياسية التي ترتبت على حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ولعل هذه النتائج الأخيرة هي التي أملت عليه كتابة مؤلفه هذا ، والروحية المقلوبة لحرب اكتوبر من هزيمة نفسية غير مبررة ، على الصعيد العربي ، والتي عاش الكاتب مظاهرها ووقائعها حتى الاعماق ، كان لها دور حاسم في مناقشاته التي يسوقها فيه . وعلى هذا فهو يعتبر مؤتمر جنيف قمة الهزيمة السياسية وتتويجا بائسا لها .

وهنا يتحدث الشقيري في فصل ممتاز من فصول كتابه عن حرب اكتوبر ، ويستشهد على نتائجها بالنسبة للعرب والاسرائيليين ، بمقتبسات من كتاب وسياسيين اسرائيليين واجانب مثل زئيف سيف وجولدا مائير وبارليف والجنرال بوفر ، والذين تتواتر تقاريرهم وكتاباتهم لتؤكد وصفها هذه الحرب بانها زلزال واعصار وكابوس وصدمة للاسرائيليين . فهو يورد مثلا قول جولدا مائير في مذكراتها « لا أجد موضوعا أصعب علي من الكتابة عن حرب اكتوبر ، ولا اعالجها من نواحيها العسكرية ، ولكن باعتبارها كارثة حديثة ، وكابوسا عانيته بنفسي ، وسيظل هذا الكابوس دائما معي ، في ٧ اكتوبر جاءني دايان ليقول الجبهة الشمالية — السورية — حالتها سيئة ويجب الانسحاب واقامة خط دفاعي واستمعت اليه برعب » (الكتاب ص ١٦١) كما يستشهد بقول جريدة يديعوت أحرونوت حين وصفت حياة الاسرائيليين اثناء حرب اكتوبر بقولها « اننا نحس كما لو

كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا » (الكتاب ص ١٥٩) .

الا ان الشقيري بعد تمجيده الصادق والمحق لحرب اكتوبر كصفحة مشرقة في تاريخ الحروب العربية وأثرها الرهيب على المواطن الاسرائيلي ، ينتهي الى القول ان السياسة العربية لم تكن في مستوى الناحية العسكرية . فهو يتساءل « هل كانت تلك المسيرة السياسية شامخة حقـا ، وعلى مستـوى توأمهـا الشقيـق المسيرة العسكرية ؟ » (الكتاب ص ١٦٣) . بل انه يلـوم بقسوة الحكم العربي المعاصر على هذه الفرصة التي ضاعت ! « أجل ان الحكم العربي المعاصر قد أهدر ذلك « النجاح العظيم » وقد أضاع التأثير السيكولوجـي الهائل .. فقد اختط سياسة دون مستوى « الحرب » وراح يلهث وراء تسوية سلمية بددت الانجـازات العسكرية » . ويستشهد الشقيري بقول الجنرال بوفر الذي اعتبر « التسوية السياسية وسيلة لنسف التضامن العربي والذي عبر عن مخاوفه من ان توافق اسرائيل على التوصل الى تسوية باعتبار انها افضل وسيلة لبث الفرقة بين العرب » (توكيد المراجع) . وهنا يعلق الشقيري الذي الف كتابه هذا ليدين منطق التسويات من على منابر ودهاليز المؤتمرات بقول مرير « ويا لك قطة اكلـت بنيها ! » .

ويتساءل الشقيري بمرارة ودهشة لماذا خطب الرئيس السادات يوم ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ والمعركة لا تزال محتدمة والجندي العربي يسجل صفحات مذهلة من البطولة ، قائلا (أي السادات) « اننا لم نحارب لكي نعتدي على أرض غيرنا !! وانما حاربنا ونحارب وسوف نواصل الحرب لاستعادة اراضينا المحتلة بعـد عام ١٩٦٧ ولايجاد السبيل لاستعادة الحقوق المشروعة لشعـب فلسطين واحترامها » (الكتاب ص ١٦٩) . والذي يثير حيرة الشقيري أيضا أن هذا الخطاب انما جاء بعد خطاب الرئيس الاسد ، والذي قال فيه « ان المعركة أصبحت معركة تحرير كاملة . وستكون خاتمتها تحرير الارض ، وان القوات العربية قد طردت العدو من مواقع كثيرة من الجولان » (الكتاب ص ١٦٩) .

ويتساءل الشقيري ، وما أكثـر الأسئلـة التـي يطرحها ، ولا يجد عليها إجابة ، شأنه شأن كل مواطن عربي ! يتساءل لماذا قبل العرب بوقف اطلاق النار ، واضافوا مأساة جديدة الى مأساة قرار ٢٤٢ ـ الذي لم يحقق شيئا فعليا على أرض الواقع ـ قرار ٣٣٨ . ولعل المعضلة تتفاقم لدى الشقيري وغيره من العرب ، عندما يشاهدون اليوم ما استتبع حرب أكتوبر من مبادرات للرئيس السادات ، وعقد للصلح بين مصر واسرائيل ليس هذا فقط بل ان الشقيري يتحدث عن مدرسة جديدة في السياسة العربية تتنكر لكل المعطيات السابقة في العلاقة بين العرب والعدو الاسرائيلي . « وما كانت حرب أكتوبر ان تنتهي ، حتى رأى المواطن العربي نفسه ، أمام عهد جديد ، يتسم بالتراجع القومي ، عهد له « مدرسة » سياسة جديدة ، وله دعوة « وطنية » جديدة تقوم على « مبادىء وأسس » جديدة تعلن ان الموقف العربي عبر الخمسين عاما الماضية ، هو خطأ فادح ، وعوغائية فاضحة ، وان الأوان للعقل ان يسود على الجهل ، وحان للموضوعية والعلمية والعقلانية ، أن تلجم النزعـات العاطفية والارتجال » (الكتاب ص ١٨٠) .

ناقش الشقيري اطروحته في كساح السياسة العربية المحكومة عند القمة بالوفاق الـدولي ، فلا مفـر ولا محيـص ـ مناقشة لا تخلو من الكثير من المنطـق والسداد . الا ان المدقق في هذا الكتاب لا يجد الدراسة العلمية والتفسيرات الحقيقية لهذا الكساح المزمن في السياسة العربية ، مع ان طبيعة الموضوع الذي يعالجه الشقيري تؤهله تأهيـلا ممتـازا لهـذه الدراسـة والتفسيرات . لا سيما وهو يعرض لظاهرة كبيرة وقضية مصيرية من قضايا الأمة العربية ويتوفر لديه معطيات غنية عنها ، يستطيع ان يخلص منها الى نتائج كلية في تقييم السياسة العربية ومواقفها المتخاذلة . ولكن المؤلف لم يفعل . فقد أهمل قضايا رئيسية ومحورية في صميم دراسته فهو لم يعالج معالجة موضوعية موضوعات مثل الرفض العربي الذي ينعت ظلما بالتعنت والعصبية والجهل والسطحية مع العلم انه ينبع من عدم القبول باغتصاب وطن كامل واقتلاع شعب بحاله منه . هذا الرفض الذي هو وسيلة الخلاص الوحيدة أمام تسويف وخداع واحابيل السياسة الدولية التي تريد من العرب الاعتراف باسرائيل المغتصبة لهذا الوطـن والمدمـرة لمستقبل شعب فلسطين من الناحية السياسية كما انه لم يتعرض لغياب الاستراتيجية العربية الواحدة التي تساهم في اضعاف سلاح الرفض كما أنها تخنق فرصة المجابهة الحقيقية مع اسرائيل سواء في حرب نظامية او حرب شعبية . ولا يعالـج المؤلف موقف الانظمـة العربية التي تغلب المصالح الشخصية والمحلية على المصلحة القومية كما انها لا تعتبر ـ بصورة حقيقية ـ اسرائيل التناقض الرئيسي والعدو الأول للأمة العربية وعلاوة على كل هذا فهو لا يتطرق لأزمة التطور الحضاري لامتنا العربية وكيف ان لأمراض التخلف مثل سيادة الطبقية وتفشي الأمية وغيـاب الحريـة السياسيـة والممارسات الديمقراطية دورا رئيسيا في شل الجهد العربي . وهو على وجه الاجمال لا يبلور هذه القضايا ويبؤرها حتى يدل القارىء على ان محصلتها جميعا هي التي تجعل المجابهة العسكرية والسياسية للعدو محكوما عليها بالفشل . وهكذا يبقى المواطن العربي ، سيزيف القرن العشرين ، كلما وصل الى القمة أو كاد انحدر الى السفح ، ليعود الى المحاولة للصعود للقمة من جديد ، ثم ينحدر من جديد وهكذا !

حقا ان الشقيري تعرض لهذه الجوانب ، ولكنه كان يمسها برفق كما يمسها الدبلوماسي أو السياسي (رغم أنه لم تكن تنقصه الصراحة أحيانا) أكثر مما يعالجها معالجة موضوعية متكاملة فيقول الحقيقة العلمية كلها . ومن هنا فاننا نجد انه يلجأ مرات كثيرة الى الرمز أو الى التلميح بدلا من التصريح ، والكتابة بين السطور أكثر

مما في السطور ! والأكثر من ذلك ان الشقيري افتقد النسق العلمي والأسلوب المنهجي في تناول الموضوعات المحورية التي ذكرناها اعلاه. فأوردها على شكل شذرات متناثرة هنا وهناك واكتفى أحيانا كثيرة بسرد الاحداث مع التعقيبات الحماسية التي تشوبها المرارة اكثر من ترتيبها ترتيبا موضوعيا وعلى شكل دراسة متكاملة . ولعل افتقاد المؤلف لتصور نظري كامل او قاعدة نظرية معينة لتفسير الاحداث المختلفة وانطلاقه من اكثر من تصور او منطلق نظري للتفسير هو الذي جعل موضوعاته تفتقد الى الكثير من العضوية او التكامل العضوي في النظرة ، ان لم نقل انها تفتقد الاصالة. ومع ذلك فاننا ينبغي ان نذكر ان الشقيري وفق كثيرا في وضع مؤتمر جنيف في منظوره التاريخي والسياسي الصحيح ، كما كان قارئا ذكيا لتاريخ هذه المرحلة ، فنظرته اللماحة ، ودرايته الدقيقة ، تمكننا من ادراك المؤشرات الرئيسية والاساسية لتطور السياسة العربية في عقد من الزمان لعله من اكثر عقود التاريخ العربي تأثيرا مصيريا على الامة العربية .

NICHOLAS BETHELL

THE PALESTINE TRIANGLE, THE STRUGGLE BETWEEN THE BRITISH, THE JEWS AND THE ARABS, 1935-48

(LONDON, 1979).

داود متشل

منذ وعد بلفور في العام ١٩١٧ وصاعدا ، وحتى الانسحاب البريطاني في أواسط أيار (مايو) ١٩٤٨ ، كانت فلسطين مشكلة مثلثة ، ولكن هذا الوجه كان أقل بروزا في الفترة التي يعالجها نيكولاس بيثيل ، ولمعظم ذلك الوقت كان العرب ، علما بان حضورهم كان مدركا به الى حد كبير ، يقفون على الخطوط الجانبية ، ويراقبون ليروا كيف سيطبق « الكتاب الابيض » للعام ١٩٣٩ . وبالطبع سعى المتفرجون العرب الى التأثير في « اللعبة » ، وحاول رشيد عالي الكيلاني، بنوع خاص ، ان ينضم الى « اللعبة » ليجعلها شأنا ذا جوانب ثلاثة . ولكن ما ان أعطى البريطانيون تأكيدات حول موضوع الهجرة اليهودية وكانت ، بوجه الاجمال ، مرضية للراي العام العربي ، حتى صار الصراع بين البريطانيين والحركة الصهيونية ، وتسعة أعشار كتاب بيثيل معنية بذلك الصراع . فالفصل الأول ، الذي يقدم صورة وصفية للخلفية العامة ، ينتهي بتعيين مالكولم مكدونالد ، ابن أول رئيس وزراء بريطاني عمالي وزيرا للمستعمرات في حكومة نفيل تشامبرلين في السادس عشر من أيار ، ١٩٣٨ . وكان هذا بالضبط أقل بيوم واحد من تاريخ الانسحاب البريطاني الأخير من فلسطين بعد عشرة اعوام بالضبط.ولذا فربما كان العنوان الأكثر صراحة ودقة لهذا الكتاب الممتع المفيد هو شيء من قبيل « نهاية الانتداب ، أعوام بريطانيا العشرة الأخيرة في فلسطين » .

قبل إمعان النظر اكثر في الكتاب ، لا بد من قول بضع كلمات حول المؤلف ، الذي هو مجند جديد في جيش الكتاب حول فلسطين . فان نيكولاس بيثيل هو بالوراثة عضو في مجلس اللوردات في لندن ولديه بالانتخاب مقعد في « مجلس أوروبا » في ستراسبورغ . وقد كان مترجما مشاركا لروايتين من روايات سولجنتسين ، وانتج عدة مؤلفات تاريخية خاصة به ، وجميعها متصلة بطريقة ما بتاريخ أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي في حياة الجيل أو الجيلين الماضيين . وآخر هذه المؤلفات عالج القصة المقلقة لقيام البريطانيين والاميركيين ، في الأعوام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٧ ، باعادة نحو مليوني كوساكي وغيرهم من جماعات الأقليات السوفياتية الذين كانوا قد فروا الى الغزاة النازيين ثم وقعوا في أيدي الحلفاء الغربيين عندما انهارت المانيا النازية . وعودة هؤلاء الاقوام الى بلادهم كان قد وعد بها ستالين ، ولكن عندما حان الوقت صار واضحا جدا انها ستعني حكما بالموت بالنسبة الى الكثيرين منهم . وأحد مراجعي الكتاب وصفه بانه « استكشاف لمنطقة تقع بين الضرورة المأساوية والذريعة المضللة للذات التي يجري فيها بصورة محتمة الكثير من النشاط السياسي » . وبما ان هذا النوع من المناطق هو الذي يثير اهتمام بيثيل كمؤرخ ، فليس مستغربا ان تجده يستقصي قصة فلسطين .

لقد استخرج بيثيل ومساعده في الابحاث الكثير من المواد الجديدة من الارشيفات البريطانية المفتوحة حديثا ، وبيثيل نفسه أجرى مقابلات مع الكثير من هؤلاء الذين ما يزالون على قيد الحياة ــ عربا ويهودا وبريطانيين ــ ممن كانت لهم اختبارات شخصية لاحداث ذلك الزمان . وهو يكتب بهدوء أعصاب ، ويبذل جهده

لاعطاء الصورة الكاملة ، ومعظم الوقت يترك للقارىء أمر التوصل الى استنتاجاته الخاصة ، وسيكون من الصعب إثبات تهمة وجود محاباة خطيرة . وقد صدرت شكاوى في بعض الدوائر اليهودية من انه يضخم الدور الذي لعبته المنظمات الارهابية المتطرفة في خلق الحالة التي ادت الى تخلي بريطانيا عن الانتداب ، ويقلل من شأن عمل « المعتدلين » . وإحدى شكاواي انا هي انه ربما كان يجب ان يحاول القيام بتقويم جديد للحاج أمين الحسيني . فهو يقبل بلا استقصاء جدي بالصورة المعهودة وغير الجميلة التي قدمها الكتبيون من الصحافيين وأشباه المؤرخين لأربعين سنة خلت ضد هذا الزعيم الفلسطيني الكبير . غير أن الأمر لا يهم كثيرا بالنسبة لاغراض هذا الكتاب ، لأن الحاج أمين لم يكن ممثلا مهما في الاحداث التي يعالجها بيثيل بصورة رئيسية . فقد كان ، معظم الوقت ، خارج المسرح ، في برلين وأماكن أخرى

كما أن معالجة بيثيل للاعتداء الارهابي الصهيوني الوحشي على فندق الملك داود ، الذي قتل فيه ٩١ شخصا ، هي معالجة غير مرضية . فالكتاب يضم جميع الحقائق ، بما فيها تقرير الشرطة البريطانية ، الذي لم يكن متوافرا حتى الآونة الأخيرة . بيد أنه كان يحسن ببيثيل أن يمتنع عن التعليق كليا بدل ان يصف بيغن بمثل اللطف والرقة اللذين يخصه بهما في حين تعترف الوثائق بمسؤوليته في ذلك الاعتداء .

وفي حال الاعتداء الوحشي الثاني الشهير الذي ارتكبته عصابة الايرغون ، وهو اعدام الرقيبين البريطانيين واخفاء القنابل في جثتيهما ، في نهاية تموز (يوليو) ١٩٤٧ ، فان بيثيل يعلن فعلا بانه عمل « غير جائز اخلاقيا » . وعندما يصل بيثيل الى العمل الوحشي في دير ياسين فانه يتجنب كل تعليق شخصي ، عارضا آراء الآخرين ، بما فيها آراء بيغن غير التائب اطلاقا . وقد يقال من باب التبرير ، أن دير ياسين هي على هامش كتاب بيثيل ، الذي يعنى بطرد البريطانيين من فلسطين . وقد بدأت دير ياسين قصة جديدة ، هي طرد العرب . لكن بيت القصيد الذي أحاول توضيحه هو أن بحوث بيثيل في تاريخ فلسطين ، وان كان قد افضت الى مجموعة مؤثرة من الحقائق المفيدة ، فانها لم تحمل اليه بعد نظرة مترابطة منطقيا الى المقاييس التي ينبغي مراعاتها من قبل هؤلاء الذين يقررون سبيل عنف سياسي غير رسمي اذا ما رغبوا في احترام العالم . ثمة ايضا المشكلة الاكثر ندرة التي يطرحها اشخاص ، مثل بيغن ، يتدرجون من عنف سياسي غير رسمي الى عنف سياسي رسمي ، ويصعدون سلم توقع احترام الناس لهم من مركز الارهابي الى مركز رئيس الوزراء ، دون تغيير فلسفتهم الأساسية ، حول أخلاق الارهاب ، اذا كان ثمة أخلاق له . لماذا يجب أن يوبخ بيغن والايرغون بلطف ورقة لقتلهم ٩١ شخصا ولكن يقال لهم انهم كانوا يتصرفون بطريقة لا يمكن الدفاع عنها اخلاقيا عندما قتلوا شخصين ؟ وهل يكفي أن يقول بيغن انهم في احدى الحالتين لم يكن في نيتهم قتل أحد (مهما كان من غير المحتمل أن يتمكنوا تجنب فعل ذلك) ، في حين انه في حالة الرقيبين يعترف بصراحة بالقتل العمدي ؟ من الواضح أن هذا ليس تفسيرا وافيا بالغرض ، إلا أن التناقضات الذاتية التي يظهرها بيثيل من حين لآخر في تقويمات من هذا النوع لا تخفض الى حد كبير من قيمة عرضه للحقائق . وإن يتعجب القراء العرب من وجود ادلة أخرى في الكتاب على ان الدولة الاسرائيلية ولدت في الارهاب . والامر الذي سيكون الكثيرون من القراء أقل اطلاعا عليه هو درجة التصميم الذي صارعت بها الدولة المنتدبة ، على الرغم من الاعوام الأربعة للجهد العربي الشديد التي اضعفتها ، لتطبيق الكتاب الابيض للعام ١٩٣٩ ولمنع التقسيم . ولم يكن من الضروري مقاومة ضغط ترومان واللوبي اليهودي في واشنطن فحسب . فقد كانت هناك ايضا عاصفة العاطفة في أوروبا بسبب مشاعر الناس هناك حول الآلام التي عاناها اليهود على أيدي النظام الهتلري بعد أن نشرت صور معسكرات الابادة . وارتكب البريطانيون ، بالطبع ، خطأ كبيرا في التقدير ، عندما افترضوا أن اصوات الكتلة الشيوعية ستجعل أكثرية الثلثين في الأمم المتحدة من أجل تقسيم فلسطين مستحيلة . ويصف بيثيل كيف أن بيفن وخبراء وزارة الخارجية البريطانية صعقوا عندما نسي الاتحاد السوفياتي مناهضته للصهيونية ، وصوت الى جانب الاميركيين . وهكذا فان قصة الانتداب في فلسطين ، التي ابتدأت بأحد أعمال الانتهازية السياسية ، وهو وعد بلفور ، انتهت بعملين آخرين من أعمال الانتهازية السياسية ، وهما قيام ترومان بدور القواد للوبي اليهودي والتغير الكامل والمفاجىء وغير الاعتيادي في موقف ستالين .

لقد مرت ٣٠ سنة وأكثر على الأحداث التي يصفها بيثيل . وتبقى الانتهازية العملة المشتركة للسياسة ، ويدفع العرب سعرا باهظا في النزاع والآلام . ترى كم يجب علينا أن نستمر في الانتظار لتطبيق المبادىء البسيطة للعدالة والانسانية في الأرض المقدسة ؟

Jonathan Dimblebey

The Palestinians
(London, Donald McCuullin
Quartet Books, 1979)

خالد القشطيني

جوناثان دمبلبي تلفزيوني شاب اشتهر بتقاريره المثيرة التي هزت الرأي العام البريطاني والعالمي بتسليطها الضوء على مجاهل مظلمة من الحياة السياسية والاقتصادية للعالم الثالث ورغم كل ما اثاره ويثيره النزاع العربي الاسرائيلي من الاهتمام والتغطية الاعلامية فان حياة الشعب الفلسطيني ومأساته وحقوقه المهدورة ما زالت مقمقة في ظلمات الجهل العالمي السائد . واصبح الكشف عن هذا القمقم من التحديات التي لابد ان يواجهها شخص مثل جوناثان دمبلبي ، وقد واجهها بجدارة وشجاعة لم ينل من حدها ومضائها غير مقدمة الكتاب الاعتذارية . ومن الواضح ان المؤلف قد احس بالضغوط التي كان سيتعرض لها بنشره هذا البحث فحاول ان يتفادى شيئا من ذلك بهذه المقدمة العرجاء التي راح يحيي بها عبقرية الشعب اليهودي الذي اغنى المدنية الغربية ... الخ . انها مقدمة اقرب الى التمارين الدبلوماسية التي يضطر اليها كل من يتعرض لعبقرية هذا الشعب في الابتزاز والضغط .

ويمضي الكاتب الصحفي ليبين ان كل ما يريده هو تقديم ذلك الجانب الآخر من القضية ، الجانب الفلسطيني الذي لم تعطه الصحافة والاذاعة الغربية ما يستحقه من البيان مما تسبب في تشويه جلي للقضية .

واوضح رمز لهذا التشويه نجده في استعمال كلمة « ارهابي » للتمييز بين القطاعات الفلسطينية والقطاعات الاسرائيلية . « الارهابيون لا يملكون طائرات نفاثة تمزق اشلاء الابرياء من بعد ، انهم يفعلون ذلك بقنابل يلقونها في الاسواق » .

وبعد هذا الاعتذار وتبرير النفس ، يدخل جوناثان دمبلبي في فصول تصويرية بليغة تعرض قصة فلسطين منذ اختلاطها بالصهيونية الحديثة . ورغم ان الكاتب يتناول في فصول وثائقية الجوانب السياسية والتاريخية لحقوق الشعب الفلسطيني ونضاله ، فانه يخصص القسط الاكبر من حيزه لحياة ابناء هذا الشعب في مآسيهم الخاصة والعامة وبقطاعاتهم البرجوازية من السيدات المدللات بشققهن وستوديوهاتهن الوفيرة والفنانين الناجحين الذين يعقدون الامسيات الموسيقية لغناء اوبرات جلبرت وسليفان ، ورجال المال والاعمال الذين يتكلمون من افواه مليئة بالكافيار والشمبانيا فوق كروش متهدلة على افخاذهم ليقولوا الكلمات الوجيزة الحكيمة ، « بابا علمني ان اتكلم في السياسة والدين » ، وبقطاعاتهم المسحوقة من الضحايا التي فقدت ارجلها او ايديها وراحت تدب كالحشرات في خيام يغزوها المطر من السماء والطين من الارض .

وهنا نرى الشقاء يفتح القريحة المعنية لاناس علمتهم المأساة ان يتكلموا في السياسة وفي الدين وفي كل شيء « اكتب ، اكتب . انتو ما تعرفوش الحقيقة » . يروح اللاجيء بعد اللاجيء يلح على الصحفي البريطاني ان يسجل منه حقيقة الامر ، حقيقة ما عانته فلسطين . وكيف يلوى الصحفي الاوروبي على مقاومة الكتابة عندما يبدأ محدثه حديثه بالكلام قائلا ، « اكتب ، اكتب . انا شخص جئت من مكان مذكور في الكتاب المقدس قرب الناصرة من قضاء الجليل » . فيكتب دمبلبي ويسجل كيف خدعت بريطانيا الامة العربية وشعب فلسطين . ويمضي بكل ما عرف عن الانكليز من الماسوشية ليستشهد بالوثائق والادلة وليثبت خيانة بريطانيا لعهودها التي قطعتها للعرب ومخادعتهم اياهم

في السر والعلانية وتسليحها للصهاينة وتدريبهم على القتال والفتك بالعرب .

ومن المدهش فعلا ان جوناثان دمبلبي استطاع ان يسجل عن لسان محدثيه سلسلة من الصور اللغوية الناصعة دون ان يكون ملما باللغة العربية مطلقا . ولا ندري ان كان علينا ان نحيي المترجم الذي صاحبه أم ننحني خشعا امام الالام التي انطقت الابكم واسمعت الاصم وابصـرت الاعمى وتجاوزت حاجز اللغة . ان محاولة تجسيم الاحداث والشخصيات العربية لغويا بدون معرفة باللغة العربية اشبه بمحاولة قيادة فرقة سمفونية بدون معرفة بالنوط الموسيقية ، او تقديم اوبرات جلبرت وسيلفان لجمهور غير متضلع باللغة الانكليزية . ومن هنا يمكننا ان نتلمس القدرات الصحفية لهذا التلفزيوني في تغلبه على هذه العقبة وفي تغلغله في اكمات الازمات والمحن الشائكة لشعوب العالم الثالث . ويمضي ليزودنا في « الفلسطينيون » بمنتخبات جيدة من الادب الفلسطيني ويستشهد بالخطب والاشعـار والقصص والرسوم وحتى اناشيد الاطفـال وكتـب القـراءة . ويصاحب المواطن ، او اللاجيء الفلسطيني من ولادته الى حفلة عرسه الى دخوله صفـوف المقاومـة ، الى استشهاده والاحتفال بدفنه . ويصف كل ذلك بعاطفة انسانية ونظرة باحث مدققة في التفصيل .

لا ادري لماذا نفكر دائما في الكتاب ككتاب يقرأ . انها بدون شك عادة ذميمة علمنا عليها اصحاب الكتب . « الفلسطينيون » كتاب مشترك لجوناثان دمبلبي ودونالد مكولن ، عرض فيه دمبلبي الشعب الفلسطيني في فصول من النثر الادبي السياسي وعرض فيه مكولن هذا الشعب في سلسلة من صور الفن الفوتوغرافي . وفي هذه الصور نجد الكامرا في بحث مستمر عن الدراما ، الايـدي المرفوعة ، الاصابع المنشورة ، الافـواه المفتوحـة ، الاعين الباكية ، الاقدام الساعية الدائبة السعي وإذا كان لابد لي من مقارنة بين كلمات دمبلبي وتصاوير مكولن فانني اعترف بانها التصاوير هي التي اقضت علي مضاجعي لليلة او اكثر وتركتني اعاني من اوجاع في منطقة الضمير . ومن ازعج مصورات الكتاب الصور العديدة للاطفال والصبيان الذين يتمنطقون البنـادق الحقيقية ويحاولون ان ينظروا الى الكامرا نظرة الذئاب والصقور . انها كما يقول دمبلبي صور تراجيدية وليست بطولية . ولا توجد ظاهرة تجسم مأساة شعب فلسطين اكثر من ظاهرة الطفل الذي يولد قبل اوانه بفعل غارة اسرائيلية وينمو على حليب الاونروا وينشأ مع البندقية . واكثر ما وجدت من شجون وجدتها في صورة الصبي الملوع الذي وقف امام الكامرا يحمل صورة ياسر عرفات على صدره . مأساة لا يمكنك الا تشعر بها .

وهناك عدد من الصور التاريخية منها الصـورة المشهورة التي نشرتها سلطات الانتداب البريطانـي للارهابيين الصهاينة كاعلان تحت عنوان « مطلوب » مقابل جائزة لكل من يساعد في اعتقالهم . الصورة الاولى في الاعلان لمناحيم بيغن . ومن الغريب ان الحقد والكره والمكر والغرور الذي نجده مرتسما على شفتيه وعينيه في اكثر صوره له سوابق تصويرية عريقة تمتد الى زهرة شبابه . وكلما امعنت النظر في صورة الاعلان البريطاني كلما شعرت بالشبه الغريب وتذكرت نفس التعابير التي حملتها صور مجرم آخر اقل حظا منه ، ادولف هتلر . واظهر المصور حسن ادبه وتصرف كجنتلمان فلم يورد صورة بيغن وانور السادات . ناشر الكتاب ، كوارتيت بوكس ، دار نشر لا تتعاطى الادب الخلاعي .

ميزان القوى العسكري

بين الاقطار العربية واسرائيل

اعداد هيفاء صايغ

الجدول الأول : معلومات عامة .

القطر	عدد السكان	الخدمة العسكرية	اجمالي القوات المسلحة	الناتج القومي (بالدولار)	نفقات الدفاع (بالدولار)
الاردن	٣٠٥٠٠٠٠	—	٦٧٢٠٠	١,٨٥ بليون	٢٨١ مليون
الامارات	٩٠٥٠٠٠	تجنيد	٢٥١٥٠	١٢,٠ بليون	٧٥٠ مليون
البحرين	٣٥٥٠٠٠	—	٢٣٠٠	—	٩٨ مليون
تونس	٦٣٩٠٠٠٠	١٢ شهرا انتقائية	٢٢٣٠٠	٥,٨٢ بليون	١٤٥ مليون
الجزائر	١٩٠٧٠٠٠٠	ستة اشهر	٨٨٨٠٠	١٥,٩ بليون	٦٠٥ مليون
جيبوتي	٢٥٠٠٠٠	—	٣٠٠٠	٦٥مليون استنادا الى ١٩٧٢	—
السعودية	٧٩٨٤٠٠٠	تجنيد في اخر١٩٧٩ تطوعي	٤٤٥٠٠	٦٤,٢ بليون	١٤,١٨ بليون
السودان	٢٠٩٠٠٠٠٠	تجنيد	٦٢٩٠٠	٦,١٥ بليون	٢٤٤ مليون
سوريا	٨٣٧٠٠٠٠	٣٠ شهرا	٢٢٧٥٠٠	٧,١ بليون	٢,٠٤ بليون
الصومال	٣٥٣٠٠٠٠	تطوعي	٤٦٥٠٠	٤٢٥ مليون	٣١,٧ مليون
العراق	١٢٧٧٣٠٠٠	سنتان	٢٢٢٠٠٠	١٥,٥ بليون	٢,٠٢ بليون
عمان	٨٧٠٠٠٠	تطوعي	٥١٩٩٢٠٠	٢,٥٥ بليون	٦٨٨ مليون
قطر	٢١٠٠٠٠	—	٤٧٠٠	١ بليون	٦١ مليون
الكويت	١٢٠٠٠٠٠	١٨ شهرا	١١١٠٠	١١,٩ بليون	٣٣٦ مليون
لبنان	٢٦٨٠٠٠٠	(تجنيد اجباري) اول تموز	٨٧٥٠	٣,٤ بليون	٢٣٥ مليون
ليبيا	٢٨٧٠٠٠٠	تجنيد	٤٢٠٠٠	١٩,٠ بليون	٤٤٨ مليون
مصر	٤٠٤٦٠٠٠٠	ثلاث سنوات	٣٩٥٠٠٠	١٨,١ بليون	٢,١٧ بليون
المغرب	١٩٣٢٤٠٠٠	١٨ شهرا	٩٨٠٠٠	٩,٥ بليون	٩١٦ مليون
موريتانيا	١٤٦٠	—	٩٤٥٠	٣٢٠ مليون	—
يمن ع	١٨٧٠٠٠٠	٢٤ شهر تجنيد	٢٠٨٠٠	٥٠٠ مليون	٥٦ مليون
يمن ش	٧٥٠٠٠٠٠	٣ سنوات	٣٦٦٠٠	١,٥ بليون	٧٩ مليون

	عدد السكان	الخدمة العسكرية	اجمالي القوات المسلحة	الناتج القومي (بالدولار)	نفقات الدفاع (بالدولار)
اسرائيل	٢٨٢٠٠٠٠	للذكور ٣٦ شهرا للاناث ٢٤ شهرا (للدروز واليهود فقط)	١٦٥٦٠٠ يرتفع العدد عند التعبئة الى ٤٠٠ الف خلال ٢٤ ساعة	١٠,٥ بليون	١,٦٢ بليون

ملاحظات : ● يضاف اليهم عسكريون من جنسيات اجنبية .

● لم تذكر ارقام احتياطي القوات المسلحة لدى الدول العربية .

الجدول الثاني : القوات البرية : التشكيلات .

القطر	قوات مدرعة	قوات مشاة ميكانيكية	قوات	قوات مدفعية	وحدات مهندسين	وحدات مظليين	وحدات قوات خاصة (مغاوير)	وحدات صواريخ موجهة م/د	وحدات اشارة
الاردن	(٢) فرقتان	(٢) فرقتان		(٢) لواءان			(٣) كتائب		
الامارات	(٤) كتائب		(٧) كتائب	(٣) كتائب					
البحرين	(١) سرية		(١) كتيبة						
تونس*				(١) كتيبة	(١) كتيبة	(١) (كوماندوس)			
الجزائر	(١) لواء		(٤) الوية (٧٠) كتيبة	(١٢) كتيبة	(٣) كتائب	(١) كتيبة			
جيبوتي				(١) كتيبة	(١) كتيبة		(١) سرية		
السعودية	(١) لواء		(٤) الوية	(٣) كتائب		(٢) كتيبتان			
السودان	(٢) لواءان		(٧) الوية	(٣) افواج	(١) فوج	(١) لواء			
سوريا	(٢) فرقتان (٤) الوية	(٣) فرق (١) لواء	(٤) الوية	(٢) لواءان		(٤) كتائب	(٦) كتائب		
الصومال			(٢٠) لواء	(١٣) كتيبة			(١) لواء		
العراق	(٤) فرق (١) لواء	(٢) فرقتان	(٤) فرق				(٢) لواءان		
عمان	(١) سرية		(٨) كتائب	(١) فوج	(١) سرية	(١) سرية			(١) فوج
قطر	(٢) فوجان		(١) فوج محمول						
الكويت	(١) لواء		(٢) لواءان						
لبنان	(٢) كتيبتان		(٦) كتائب	(٢) كتيبتان					
ليبيا	(١) لواء	(٢) لواءان		(٢) كتيبتان			(١) لواء		
مصر	(٢) فرقتان (٣) الوية	(٣) فرق	(٥) فرق (٨) الوية	(٨) الوية		(٣) كتائب	(٦) مجموعات	(٢) لواءان	
المغرب	(٥) كتائب	(٩) كتائب	(١٨) كتيبة (٢)كتيبتان محمولتان	(٧) مجموعات	(٢) كتيبتان	(١) لواء			
موريتانيا			(٣٠) سرية محمولة			(١) سرية (كوماندوس)			
يمن ج	(٢) كتيبتان		(١٠) الوية	(٥) كتائب					(١) وحدة
يمن ش	(٢) لواءان		(٢) فرقتان	(٥) كتائب		(١) لواء	(٢) لواءان		
اسرائيل	(٢٤) لواء	(٩) الوية	(٩) الوية	(٩) الوية		(٥) الوية			

القطر	قوات حرس ملكي/جمهوري	قوات صحراوية وهجانة	وحدات دفاع جوي/مدفعيتم/ط	وحدة دبابات	قوات صواريخ تكتيكيـة ارض/ارض	قوات استطلاع	قوات امن	قيادة H Q	قوات تدريب
الاردن									
الامارات	(١) لواء		(٣) كتائب						
البحرين									
تونس*		(١) فوج							
الجزائر		(١٢) سرية	(٧) كتائب	(٣) كتائب					
جيبوتي									
السعودية	(١) كتيبة		(٦) كتائب						
السودان			(٣) افواج						
سوريا					(٢) كتائب				
الصومال			(١٠) كتائب	(٢) لواءان				(٧) فرق	
العراق	(١) لواء								
عمان	(١) فوج								
قطر	(١) كتيبة								
الكويت									
لبنان									
ليبيا	(١) لواء		(٢) كتيبتان						
مصر	(٢) فرقتان				(٢) فوجان				
المغرب	(٢) كتيبتان	(٩) كتائب					(١) لواء		
موريتانيا						(٣) سرايا			
يمن ج								(١) كتيبة	
يمن ش			(٢) كتيبتان						
اسرائيل									

* تونس . يضاف لها (٢) فوجان مستقلان .

الجدول الثالث : القوات البرية : المعدات والافراد ★

القطر	عدد الافراد	دبابات قتال رئيسية	دبابات خفيفة	عربات قتال مدرعة مصفحات ناقلات جنود .	مدافع ذاتية الحركة	مدافع ومدافع قذافة	هاونات ثقيلة	هاونات متوسطة	مدفعية صاروخية راجمات	مدافع عديمة التراجع والارتداد ومدافع م/د
الاردن	٦٠٠٠٠	٥٠٠	—	١٠١٠	٥٥	١٣٠	✹	✹		✹
الامارات	٢٢٥٠٠		٣٠	≤ ١٤٨		١٢٧		✹		✹
البحرين	٢٢٠٠			١٦				٦		٦
تونس	١٨٠٠٠	٢٠	٢٠	٣٥		٥٠				
الجزائر	٧٨٠٠٠	٥٠٠	٤٠	≤ ٤٥٠	٨٥	٦٠٠	≤٨٠		٥٠	✹
دجيبوتي	٣٠٠٠		✹	✹		✹		✹		
السعودية	٣٥٠٠٠	٣٥٠		٦٠٠	✹					✹
السودان	٦٠٠٠٠	١٣٠	٣٠	٤١٤		١٣٣	٣٠			
سوريا	٢٠٠٠٠٠	٣٦٠٠	١٠٠	≤ ١٦٠٠	١٥٢	٨٠٠			✹	
الصومال	٤٥٠٠٠	٨٠		≤ ١٥٠		≤ ١٨٠		✹		✹
العراق	١٩ ٠٠٠٠	١٨٠٠	١٠٠	١٧٠٠	١٣٠	٨٠٠	✹		✹	
عمان	١٦٢٠٠			٣٦		٣٦	✹	✹		
قطر	٤٠٠٠	≤		٨٠		٤		✹		
الكويت	٩٠٠٠	٢٨٠		٢٥٠	٢٠	١٠				
لبنان	٨٠٠٠			٨٠		≤ ١٠				
ليبيا	٣٥٠٠٠	٢٠٠٠		١٣٥٠	٤٠	١٥٥				✹
مصر	٣٥٠٠٠٠	١٦٠٠	٨٠	٣٠٠٠	٢٠٠	١٣٠٠	٣٠٠		٣٠٠	١٨٠٠
المغرب	٩٠٠٠٠	١٤٠	٨٠	≤ ٥٤٦	٥٦			✹		✹
موريتانيا	٩٠٠٠			≤ ١٠٥				✹		✹
يمن ج	١٩٠٠٠	≤ ٣٦٠		≤ ٢٠		✹				✹
يمن ش	٣٥٠٠٠	≤ ٢٣٢		≤ ٤٥٠	٥٠	≤ ٥٠		✹		✹
اسرائيل	١٢٨٠٠٠	٣٠٥٠	٦٥	٤٠٠٠		≤ ٩٥٠	✹	✹	✹	✹

ملاحظة : لم تذكر في الجدول اعداد المدافع م/ط والمدافع م/ط ذاتية الحركة او صواريخ سطح / جو المستخدمة في القوات البرية .

✹ السلاح موجود لدى الدولة ولكن الارقام غير متوافرة .

≤ اكثر من

الجدول الرابع : القوات الجوية

	عدد الافراد	اجمالي الطائرات المقاتلة	طائرات نقل	طائرات تدريب	طائرات هليكوبتر
الاردن	٧٠٠٠	٧٣	٩	٢١	١٧
الامارات	٧٥٠	٥٢	١٧	—	٢٤
البحرين					
تونس	١٧٠٠	١٤	—	٣٠	١٩
الجزائر	٧٠٠٠	٣٦٠	٢٤	≤ ٢٢	٧٣
دجيبوتي					
السعودية	٨٠٠٠	١٧٨	٤٢	٢٣	٤٦
السودان	١٥٠٠	٣٦	٢٨	١١	١٠
سوريا	٢٥٠٠٠	٣٨٩	١٧	٢٧٨	١١٧
الصومال	١٠٠٠	٢٥	—	٢٥	١١
العراق	٢٨٠٠٠	٣٣٩	٤٥	≤ ٤٦	٢٣١
عمان	٢١٠٠	٣٥	٢٨	٢	٣٦
قطر	٣٠٠	٤	١	—	١١
الكويت	١٩٠٠	٥٠	٥	٨	٤٤
لبنان	٥٠٠	١٦	٢	١٣	
ليبيا	٤٠٠٠	٢٠١	٢١	≤ ١٢٥	≤ ٤٣
مصر	٢٥٠٠٠	٥٦٣	٥٠	١٩٠	١٩٥
المغرب	٦٠٠٠	٧٢	٢٩	٥٠	١٠٠
موريتانيا	١٥٠	١٣	٩	—	—
يمن ج	١٣٠٠	١٠٩	٧	٣	≤ ٨
يمن ش	١٠٠٠	١١	١٤	٣٦	٣
اسرائيل	٢١٠٠٠	٥٦٧	١٠٤	١٩٠	١٥٤
	يصل الرقم الى ٢٧٠٠٠ عند التعبئة العامة				

ملاحظة : لم يذكر في الجدول ما تمتلكه مختلف الدول من بطاريات صواريخ سطح ـ جو .

الجدول الخامس : القوات البحرية

القطر	عدد الافراد	غواصات	مدمرات	فرقاطات	سفن حراسة صغيرة	زورق دورية كبير	زورق دورية صغير	زورق صواريخ	كاسحات الغام	زورق هجوم سريع مسلح
الاردن	٢٠٠						٩			
الامارات	٩٠٠					٦	٢			
البحرين	٢٠٠						[illegible]			
تونس	٢٦٠٠			١		٦	١٠		٢	٢
الجزائر	٢٨٠٠					٦		١٦	٢	٢٠
جيبوتي	—					٨				
السعودية	١٥٠٠					١	١٢٠			٣
السودان	١٤٠٠					٦	٣			٦
سوريا	٢٥٠٠			٢		١		١٤	٣	٨
الصومال	٥٠٠					١	٦	٢		٨
العراق	٤٠٠٠					٣	١٦	١٢	٥	١٠
عمان	٩٠٠				٣	٦	٤			
قطر	٤٠٠					٦	٢٩			
الكويت	٢٠٠						٢٨			
لبنان	٢٥٠					١	٣			
ليبيا	٣٠٠٠	٣		٧	١	١٠	١	٧		
مصر	٢٠٠٠٠	١٢	٥			٦		١٦	٢	٢٠
المغرب	٢٠٠٠					٢	٩		١	٢
موريتانيا	٣٠٠									
يمن ج	٥٠٠					٤	٤		٣	٢
يمن ش	٦٠٠					٥				
اسرائيل	٦٦٠٠ يرتفع العدد الى ١٠٠٠٠ عند التعبئة	٣					٢٥		١٩	

الجدول الخامس : القوات البحرية

القطر	سفن انزال	زورق انزال	سفن دعم لوجستيكي	طوافات	طائرات دورية بحرية	هليكوبتر/ غواصات	كوماندوس ومشاة بحري	سفينة تدريب
الاردن								
الامارات								
البحرين		١						
تونس								
الجزائر		١						
دجيبوتي								
السعودية		٢		٨				
السودان								
سوريا								
الصومال		٢						
العراق		٢						
عمان		٢	١					١
قطر								
الكويت		٣						
لبنان		١						
ليبيا	٢	١	١					
مصر		١٤		٢		٦		
المغرب	١						كتيبة	
موريتانيا								
يمن ج	٣							
يمن ش		٣						
اسرائيل	٣	٦			٣		٣٠٠	

الجدول السادس : الصواريخ

القطر	سطح ـ سطح SSM	جو ـ سطح ASM	سطح ـ جو SAM	جو ـ جو AAM
الأردن			هوك وهوك مطوّر ، ردّاي	سايد ويندر
الإمارات		أس ١١/١٢	كروتال ، رابيير	ر ٥٥٠ ماجيك
البحرين				
تونس	س س ـ ١٢			
الجزائر	فروغ ـ ٤ ستيكس		س ١ ـ ٧ س ١ ـ ٢/ـ ٦	اتول ١١ ـ ٢
جيبوتي				
السعودية		مافريك	هوك	رد توب ، فاير ستريك ، سايدويندر ، ر ٥٣٠ ، ر ٥٥٠ ماجيك
السودان				اتول ١١ ـ ٢
سوريا	سكود ، فروغ ، فروغ ـ ٧ ستيكس		س ١ ـ ٢/ ـ ٣/ ـ ٦ س ١ ـ ٧/ ـ ٩	اتول ١١ ـ ٢
الصومال	ستيكس		س ١ ـ ٢/ ـ ٣	اتول ١١ ـ ٢
العراق	سكود ب ، فروغ ستيكس	أ.س ١١/١٢ ام ـ ٣٩	س ١ ـ ٧ ، س ١ ـ ٢ س ١ ـ ٣ ، س ١ ـ ٦	اتول ١١ ـ ٢
عمان	اكسوسيت		رابيير	
قطر			تايغركات	
الكويت		سوبر ٥٣٠	سام مطور	ر ٥٥٠ ماجيك، سايدويندر ر ٥٣٠
لبنان				
ليبيا	سكوب ، اوتومات ستيكس ، س س ـ ١٢		س ١ ـ ٧ ، مي كات كروتال ، س ١ ـ ٢ ، س ١ ـ ٣ ، س ١ ـ ٦	اتول ١١ ـ ٢ ، ر ٥٥٠ ماجيك
مصر	سكود ، فروغ ـ ٤/ ـ ٧ سكود ب ساملیت ستيكس ، اوتومات	اس ـ اكينيل ، اس ـ ٥ كيلت	س ١ ـ ٧ / ـ ٩ ، كروتال	اتول ١١ ـ ٢ ، ر ٥٣٠
المغرب			س ١ ـ ٧ ، تشابارال، كروتال	سايد ويندر ، ر ٥٥٠ ماجيك
موريتانيا				
يمن ش				اتول ١١ ـ ٢
يمن ج			س ١ ـ ٧ ـ/ ـ ٩	اتول ١١ ٢
اسرائيل	لانس ، زئيف غابرييل ، هاربون	لوز ، مافريك ، شرايك وول اي ، بولباب	رد اي ، هوك مطوّر	سايد ويندر ، سبارو ، شفرير

الجدول السابع: اتفاقيات التسليح المعقودة
في الفترة بين تموز ١٩٧٨ ــ حزيران ١٩٧٩

القطر	الدولة المصدرة	تاريخ الاتفاق	انظمة الاسلحة	الكمية	الكلفة بملايين الدولارات	تاريخ التسليم
الاردن	فرنسا	اواسط ١٩٧٩	مقاتلات ميراج ف ــ ١	٣٦	*	*
الاردن	الولايات المتحدة	ايار ١٩٧٩	ناقلات جنود مدرعة م ــ ١١٣ أ ــ ١	١٠٠	١٤	*
			مدافع قذافة ذاتية الحركة م ١٠٩ ــ أ ــ ٢	١٨	١٤،٣	*
الامارات	ايطاليا	اواسط ١٩٧٨	طائرات م ب ــ ٣٢٦ ك د/ل د	٤	*	*
الامارات	ايطاليا	اخر ١٩٧٨	دبابات متوسطة ليون	٢٠	*	*
البحرين						
تونس	الولايات المتحدة	حزيران ١٩٧٨	ناقلات جنود مدرعة م ــ ١١٣ مع اسلحة موجهة م/د تاو	٦٠		
			عربات قيادة م ــ ١١٣	*	٢٣،٣	١٩٧٩
			سلاح موجه م/د تاو	١،٢٠٠		
			مدافع م/ط ٢٠ ملم فولكان م ــ ١٦٣ أ١	٣٦	*	*
الجزائر	الولايات المتحدة	بداية ١٩٧٩	طائرات تدريب ت ــ ٣٤ سي	٦	*	*
الجزائر	الاتحاد السوفييتي	اواسط ١٩٧٨	مقاتلات سو ــ ٢٠	٣٢	*	١٩٧٨ ــ ٧٩
جيبوتي						
السعودية	فرنسا	اواسط ١٩٧٨	عربات مصفحة بانهارد	٢٥٠	*	٧٨ ــ ١٩٧٩
السعودية	سويسرا	نيسان ١٩٧٩	مدافع م/ط ٣٥ ملم	٨٦	*	*
السعودية	الولايات المتحدة	ايار ١٩٧٨	عربات مصفحة ف ــ ١٥٠	٩٤	١٥،٨	٧٩ ــ ١٩٨٠
		ايار ١٩٧٩	نظم اتصالات لنظام دفاع جوي		١،٦٤ بليون	*
		نيسان ١٩٧٩	هياكل دبابة م ــ ٦٠ أ ١	٨٦	٦٠،٦	*
السودان	الولايات المتحدة	شباط ١٩٧٩	مقاتلات ف ــ ٥ إي	١٢	*	*
			دبابات متوسطة م ــ ٦٠ أ ١	٥٠	*	*
			ناقلات جنود مدرعة م ــ ١١٣	١٠٠	*	*
			طائرات نقل سي ــ ١٣٠	٢	*	*

القطر	الدولة المصدرة	تاريخ الاتفاق	انظمة الاسلحة	الكمية	الكلفة بملايين الدولارات	تاريخ التسليم
سوريا	المانيا	نيسان ١٩٧٨	سلاح موجه م/د ميلان.هوت	*	٣٠	*
الصومال						
العراق	البرازيل	تموز ١٩٧٨	ناقلات جنود مدرعة كاسكافيل	٢٠٠	*	*
العراق	فرنسا	بداية ١٩٧٩	سلاح موجه م/د هوت	٣٦٠	*	*
العراق	السودان	آذار ١٩٧٩	مقاتلات ميغ ـ ٢١	١٠	*	١٩٧٩
	سويسرا	آب ١٩٧٨	طائرات تدريب اس ـ ٢٠٢/١١٨	٤٨	*	*
عمان	بريطانيا	كانون الاول ١٩٧٨	هوفر كرافت سكيما ـ ١٢	[illegible]	*	*
قطر						
الكويت	سنغافورة	تموز ١٩٧٨	زورق دورية سريع ١٧ م		٦	٧٩ ـ ١٩٨٠
الكويت	الولايات المتحدة	ايار ١٩٧٩	سلاح موجه م/د تاو	٤٧	٩,٩	١٩٧٩
الكويت	الولايات المتحدة	بداية ١٩٧٩	ناقلات جنود مدرعة م ـ ١١٣ أ ١	١٧٥	*	*
لبنان	فرنسا	تشرين الثاني ١٩٧٨	زورق صواريخ	٣	٢٥٠	*
			دبابات خفيفة ام اكس ـ ١٢	١٠٠		
			دبابات ميدانية ام اكس ـ ٣٠			
			طائرات هليكوبتر غازيل ، بوما	*		
			سلاح موجه م/د ميلان	٢٠٠	٢,٥	شباط ١٩٧٩
ليبيا	فرنسا	اخر ١٩٧٨	هليكوبتر غازيل	*	*	٧٨ ـ ١٩٧٩
ليبيا	ايطاليا	آب ١٩٧٨	طائرات نقل ج ـ ٢٢٢	٢٠	٢٨٢	١٩٧٩
ليبيا	ايطاليا	كانون الاول ١٩٧٨	هليكوبتر أ ب ـ ٢١٢	١		١٩٧٩
			دبابات متوسطة ليون	٢٠٠	*	*

ليبيا	الولايات المتحدة	بداية ١٩٧٨	طائرات جت ستار لوكهيد	٢	*	تموز ١٩٧٨
	الاتحاد السوفييتي	آخر ١٩٧٨	قاذفات تو ـ ٢٢ بلايندر	١٢	*	شباط ١٩٧٩
ليبيا	الاتحاد السوفييتي	آخر ١٩٧٨	هليكوبتر ي ـ ٢٤ هند	*	*	٧٨ ـ ١٩٧٩
			طائرات استطلاع ميغ ـ ٢٥ ر	٤	*	اذار ١٩٧٩
			دبابات متوسطة ت ـ ٦٢	٢٥٠	*	١٩٧٨
مصر	الصين	حزيران ١٩٧٩	مقاتلات ميغ ١٩/ف ـ ٦	٦٠	*	*
مصر	فرنسا	كانون / الثاني ١٩٧٩	هليكوبتر س أ ـ ٣٤٢ ل غازيل	٢٠	*	١٩٧٩
مصر	الولايات المتحدة	حزيران ١٩٧٩	مقاتلات ف ـ ٤ فانتوم	٣٥	٥٩٤	٧٩ ـ ١٩٨٠
المغرب	فرنسا	بداية ١٩٧٩	عربات مصفحة فاب	٤٠٠	*	*
المغرب	اسبانيا	كانون الثاني ١٩٧٩	فرقاطة	١	*	*
المغرب	الولايات المتحدة	اواسط ١٩٧٨	نظام دفاع جوي	*	٢٠٠	*
موريتانيا						
يمن ش	السعودية	بداية ١٩٧٩	ناقلات جنود مدرعة م ـ ١١٣	٥٠	*	اذار ١٩٧٩
يمن ش	الولايات المتحدة	بداية ١٩٧٩	مقاتلات ف ـ ٥ اي	١٢		
			دبابات متوسطة م ـ ٦٠ أ ١	٣٢		
			ناقلات جنود مدرعة م ـ ١٣	٥٠	٥٤٠	ايار ١٩٧٩
			مدافع م/ط فولكان ٢٠ ملم	٧٢		
			سلاح موجه م/د لاو	١٨٠٠		
			طائرات نقل سي ـ ١٣٠	٢		
يمن ج	الاتحاد السوفييتي	بداية ١٩٧٩	مقاتلات ميغ ـ ٢٣	١٥	هبة	آذار ١٩٧٩
			مقاتلات ميغ ـ ٢١	١٠	هبة	آذار ١٩٧٩
			زورق صواريخ اوسا	٣	هبة	آذار ١٩٧٩
			مقاتلات سو ـ ٢٠	١٠	هبة	آذار ١٩٧٩
اسرائيل	الولايات المتحدة	تموز ١٩٧٨	قنابل وال آي	٢٠٠	٣٦,٤	*
		كانون الاول ٧٨	صواريخ سطح /جو هوك	*	*	*
		آب ١٩٧٨	صواريخ جو/سطح شرايك.	٢٠٠	١٨,٨	*

ملاحظة : * المعلومات غير متوافرة .

تتناول هذه السلسلة عدة محاور فكرية لعبت وما تزال تلعب دوراً كبيراً في بلورة الوعي السياسي العربي المعاصر والاتجاهات العامة في الثقافة العربية . وقد ساهم فيها نخبة من كبار مثقفي ومفكري هذه الأمة في وضع تصوراتهم وأفكارهم ورؤاهم .

وفي هذا الكتاب ، ساهم الكتّاب الواردة أسماؤهم أدناه في موضوعات تصب في هذا المحور وحددوا مواقفهم من هذا الموضوع بأسلوب علمي رصين وبالتزام وطني واضح .

- د. مروان بحيري
- الياس سحاب
- خالد القشطيني
- د. قدري حفني
- حسين ابو النمل
- جهاد عودة
- د. محمد المجذوب
- منير شفيق
- خيري عزيز
- د. عواطف عبد الرحمن
- مجدي حماد
- أسامة الغزالي حرب
- د. أنيس قاسم
- محيي الدين صبحي
- عبد القادر ياسين
- د. عدنان ابو عمشة
- حسن بكر
- أمل الشاذلي
- وحيد عبد المجيد
- أنس مصطفى كامل

